الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة قسنطينة 2 – عبد الحميد مهري –

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

قسم التاريخ و الآثار

رقم التسجيل........

الرقم التسلسلي....

الإدارة الاستعمارية و علاقتها بالعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة 1837م– 1871م

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث و المعاصر

إعداد الطالب: العياشي روابحي

إشراف الأستاذ الدكتور: صالح فركوس

لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
جميلة معاشي	أستاذالتعليم العالي	رئيسا	جامعة قسنطينة 2– عبد الحميد مهري–
صالح فركوس	أستاذ التعليم العالي	مشرفا و مقررا	جامعة 08ماي 1945 .قالمة
رمضان بورغدة	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة 08ماي 1945 .قالمة
كريمة الأخلاق بن حسين	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة قسنطينة 2– عبد الحميد مهري–
بشير فايد	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة محمد لمين دباغين سطيف
عبد الكامل جويبة	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة محمد بوضياف .المسيلة

السنة الجامعية 2014–2015

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى الوالدين العزيزين، و زوجتي و إبنتاي ندى نفيسة و ياسمين، و كل أفراد العائلة و جميع الأصدقاء.

شكر و عرفان

أشكر الله عز و جل الذي رزقني الصبر، و أخذ بيدي لإنجاز هذا العمل الذي أخذ من جهدي و وقتي الكثير، كما أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذي الفاضل المشرف الأستاذ الدكتور صالح فركوس، الذي أشرف على هذا البحث، و زودني بمختلف النصائح و التوجيهات، و ذلل علي الكثير من الصعاب، و أمدني ببعض الوثائق الأرشيفية و بعض المصادر و المراجع القيمة، و خصص لي الكثير من وقته الثمين، و تتبع خطوات بحثي من أوله إلى آخره، و ساعدني خلال رحلة البحث الطويلة، و جدد في ذاتي الصبر و المثابرة لاسيما خلال الفترات التي يغتمرني فيها الملل.

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الكريم الماجري من جامعة منوبة بتونس، الذي زودني هو الآخر بتوجيهات ثمينة أثناء ترددي على دور الأرشيف بتونس، و أتوجه بالشكر كذلك إلى الأستاذ "جاك بودان" من معهد العلوم السياسية بجامعة إيكس أون بروفانس الفرنسية، الذي سهل علي مهمة البحث و التنقيب في مركز أرشيف إيكس أون بروفانس خلال مدة إقامتي بفرنسا، و أمدني كذلك بالكثير من الوثائق المتعلقة بهذا البحث.

و أشكر أيضا الأستاذة " كاترين فيرلوفي" الباحثة في مجال التاريخ و الانتروبولوجيا بجامعة بروفانس الفرنسية، التي أمدتني بنصائح ثمينة تتعلق بمختلف جوانب البحث، و خاصة الجانب المنهجي، و أتقدم كذلك بالشكر إلى كل من قدم لي العون في إنجاز هذا البحث سواء من قريب أو من بعيد.

المختصرات المستعملة

1- باللغة العربية:

- ش.و.ن.ت: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
- د.م.ج: ديوان المطبوعات الجامعية.
- م.و.ك: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- د.ت: دون تاريخ

2- **بالفرنسية:**

- A.O.M : Archives d'Outre-mer d'Aix-en- Provence, France.
- A.N.T : Archives Nationales de la Tunisie.
- A.M.G : Archives du Ministère de la Guerre, France.
- E.N.A.L : Entreprise Nationale du Livre
- I.S.H.M.N.T : Institut Supérieur d'Histoire du Mouvement National Tunisien, Tunis.
- P.U.F : Presses Universitaires de France.
- O.P.U : Office des Publications Universitaires.
- R.S.A.C : Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la Province de Constantine
- R. A: Revue Africaine.
- S.N.E.D : Société Nationale d'Editions et de Distribution.
- S.D : Sans Date

مقدمة

مقدمة

إثر احتلال الجزائر عام 1830م، اعترضت سبيل المحتل الفرنسي صعوبات لا حصر لها من أبرزها المقاومة الشعبية، و جهل الفرنسيين بخصوصيات المجتمع الجزائري، و طبيعة البلاد الجغرافية، و نحو ذلك من الصعوبات و المشاكل الكأداء.

و من هذا المنطلق، بدأ التفكير في الطرق و البرامج و الأساليب المثلى التي تعبد الطريق أمام الاحتلال الفرنسي، و تحقق الحلم الفرنسي المتمثل في إحكام السيطرة على الجزائر بأقل الوسائل و الإمكانات الممكنة. و في ضوء هذه الغايات الاستعمارية سعت السلطات الفرنسية إلى توطيد علاقاتها مع العائلات الكبرى، باعتبارهم أعيان و نخب المجتمع الجزائري الدينية و الدنيوية لعلهم يساعدوهم على ذلك.

و كانت مقاطعة قسنطينة من أهم المناطق التي طبق فيها الفرنسيون هذا الأسلوب، خاصة و أنها تميزت بوجود عائلات كبرى فاعلة تحكمت إلى حد بعيد في توجيه سكان الأرياف، و لعبت دورا سياسيا و عسكريا متميزا في التاريخ الحديث لهذه المنطقة. و تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على موضوع: « **الإدارة الاستعمارية و علاقتها بالعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة 1837م-1871م**»، محاولين تتبع خلفيات و أهداف تلك العلاقة و التطورات التي عرفتها.

1- أهمية الموضوع

تكمن أهمية هذه الدراسة في عدة جوانب أهمها:

- أنها تسلط الأضواء على نتائج الصراع الذي كان قائما بين العائلات الكبرى باعتبارها قوى فاعلة في الشرق الجزائري، و نظام الحكم العثماني الذي كان في عهده الأخير بقيادة الحاج أحمد باي، فتبرز لنا خاصة مواقفها من الاستعمار الفرنسي التي كانت متأثرة بذلك الصراع.
- أنها ترصد تفاصيل العلاقة التي ربطت هذه العائلات بالإدارة الاستعمارية بصفة معمقة من عام 1837م إلى غاية عام 1871م، حيث تبين كيفية بدايتها، ثم تطوراتها، و أخيرا نهايتها.
- أنها تبين لنا مختلف الوسائط و الأساليب و الآليات القانونية و الإدارية التي انتهجها المستعمر الفرنسي، بهدف إحكام سيطرته على مقاطعة قسنطينة خصوصا و القطر الجزائري عموما.
- أنها تعرفنا إلى أي مصير قاد تحالف هذه العائلات مع الإدارة الاستعمارية.

- تبرز كذلك أهمية هذه الدراسة من خلال محاولتنا إعادة بناء تاريخ هذه العائلات في ضوء التقارير الاستعمارية و بعض الوثائق الأرشيفية التي استطعنا الحصول عليها.

2- أسباب اختيار الموضوع

اخترت دراسة هذا الموضوع لأسباب عديدة أبرزها:

- اهتمامي الكبير بتاريخ العائلات الكبرى ذات النفوذ الواسع، و الدور البارز في توجيه السكان، و ازداد ارتباطي أكثر بهذا الموضوع خاصة بعد التجربة البحثية في رسالة الماجستير التي تقدمت بها، و الموسومة: « أسرة المقراني و علاقتها بالإدارة الاستعمارية 1837م–1871م ». و قد شدتني أكثر إلى هذا الموضوع المصادر و المراجع التي اعتمدت عليها في إنجاز تلك الرسالة لأنها كانت تتطرق بصفة موازية إلى علاقة الإدارة الاستعمارية بهذه العائلات حيث وجدت فيها معلومات قيمة و متناثرة حول علاقة هذه العائلات بالإدارة الاستعمارية، و لمست من خلالها إمكانية بناء موضوع هذه الرسالة.
- استطعت الاطلاع و الحصول على عدة وثائق أرشيفية لم تنشر حول هذه العائلات كشفت لنا عن معطيات تاريخية ذات أهمية تتعلق أساسا بعلاقة الإدارة الاستعمارية بهذه العائلات.
- لم تنجز في حدود إطلاعي دراسة أكاديمية مستقلة و معمقة تتناول علاقة الإدارة الاستعمارية بهذه العائلات خلال الفترة الممتدة من عام 1837م إلى عام 1871م، و كل ما في الأمر أن الدراسات التي تناولت هذه الفترة كانت جزئية و لم تتطرق إلى عمق الموضوع. و هكذا بقيت أخبار هذه العائلات مشتتة و متناثرة في كتب التاريخ، و على صفحات المجلات المتخصصة مثل المجلة الإفريقية (R.A) و مجلة الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة (R.S.A.C).

3- إشكالية الموضوع

تمكنت الإدارة الاستعمارية من نسج علاقة تحالف مع العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، و عملت على تقنينها عام 1838م، و قد طرحت العديد من التساؤلات حول هذه العلاقة. و في هذا المنظور تندرج إشكالية هذه الدراسة التي تهدف إلى تتبع و استجلاء طبيعة هذه العلاقة التي ربطت الإدارة الفرنسية بهذه العائلات الكبرى خلال الفترة الممتدة من عام 1837م إلى عام 1871م، و ما تميزت به من تطورات و تحولات و تقلبات. فما طبيعة العلاقة

التي جمعت بين الإدارة الاستعمارية و العائلات الكبرى، و كيف كانت نتائجها؟ و ما مصير تحالف هذه العائلات معها ؟ ثم لمصلحة من كانت نتائج هذا التحالف؟

هذه الإشكالية تتفرع عنها التساؤلات الآتية:

- كيف كانت علاقة الإدارة العثمانية بتلك العائلات؟ و ما أثر تلك العلاقة على مواقفها من الاحتلال الفرنسي؟
- كيف بدأت علاقة الإدارة الاستعمارية بهذه العائلات؟
- لماذا اختارت إدارة الاحتلال التحالف مع هذه العائلات و منحتها الامتيازات و تغاضت عن مزالقها و أخطائها في بداية الاحتلال ؟
- هل كان الفرنسيون مضطرين إلى انتهاج هذه السياسة أم كانوا مخيرين في ذلك؟
- ما هي دوافع و مسوغات تحالف و تعاون هذه العائلات مع الإدارة الاستعمارية ؟ أليس من المفترض أن تتخندق هذه العائلات في المعسكر المعادي للفرنسيين بدل التعاون معهم لأنها تمثل علية القوم و نخبة المجتمع الدينية و الدنيوية و التي يفترض أن تتبنى طموحاته و تطلعاته؟
- كيف تطورت علاقة الإدارة الفرنسية بهذه العائلات؟ و إلى أي مدى كانت هذه العلاقة متفاعلة مع سياسة المحتل و الإستراتيجية الكولونيالية بصفة عامة؟
- لماذا انكبت هذه العائلات بكل ما أوتيت من قوة على خدمة المشاريع الاستعمارية ؟
- ما هي مبررات السياسة الخرقاء التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية تجاه هذه العائلات؟ و كيف كانت ردود أفعالها؟ و ما هي آثار و نتائج مقاومة هذه العائلات للاحتلال الفرنسي؟
- لماذا لم يعمل الفرنسيون على تحسين الأوضاع المتدهورة لتلك العائلات سواء كانت عائلات ثائرة أم عائلات مهادنة؟

ليس بالإمكان طرح كل التساؤلات حول الإشكالية التي تثيرها هذه الدراسة، لا خوفا من عدم الإجابة عنها، لأن المؤرخ مطالب بالأساس بطرح الأسئلة دون أن يكون ملزما بالإجابة عنها ما لم تتوفر لديه إثباتات و قرائن مستقاة من الوثائق و المصادر الأولية، و إنما بسبب كثرة و تعدد هذه التساؤلات التي يمكن أن تطرح حول العلاقة الإستراتيجية التي جمعت بين الإدارة الفرنسية و العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة من عام 1837 إلى عام 1871م و التي عسر علينا حصرها.

و مهما يكن من أمر سنحاول تحليل هذه الإشكالية ، و الإجابة عن هذه التساؤلات في ثنايا فصول هذه الدراسة.

4- حدود الدراسة

انطلقت في دراسة هذا الموضوع بداية من عام 1837م، و جعلت نهايته عام 1871م. و حصرته في هذه المدة لأن عام 1837م يمثل تاريخ سقوط مدينة قسنطينة تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي. و غني عن البيان أن هذا الحدث يعد حدثا معلميا تاريخيا هاما في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر لأن مدينة قسنطينة كانت عاصمة بايلك الشرق الجزائري، و بالتالي فإن سقوطها يعني سقوط نظام الحكم العثماني بها و إحلال نظام الحكم الاستعماري الفرنسي محله، الذي نسج علاقات وطيدة مع العائلات الكبرى وفقا لأهداف و مقاصد استعمارية صرفة.

و قد رأيت أن تكون نهاية البحث عام 1871م، لأن هذا التاريخ عرفت فيه الجزائر ثورة عارمة زعزعت أركان الإدارة الاستعمارية هي ثورة عائلة المقراني، و هي إحدى العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة، يضاف إلى هذا أن الفرنسيين عملوا على تحطيم نفوذ هذه العائلات خاصة بعد هذه السنة. و قد تبنى هذا التوجه غلاة النظام المدني الفرنسي الذي استخلف النظام العسكري و الذي اشتهر بتحالفه مع هذه العائلات.

أما بالنسبة لحدود الدراسة الجغرافية، فهي مقاطعة قسنطينة، و قد حاولت جاهدا أن التزم بهذه الحدود الزمنية و الجغرافية خلال هذه الدراسة، ما عدا ما أملته الضرورة القصوى في بعض الأحيان.

5- مناهج البحث

اعتمدت في إعداد هذه الدراسة على منهجين تاريخيين رئيسين هما المنهج التحليلي و المنهج الوصفي. فالمنهج الأول فرضته علي طبيعة هذه الدراسة التي تعتمد على تحليل وثائق الأرشيف المتمثلة في تقارير العسكريين و الإداريين الفرنسيين حول العائلات الكبرى التي ندرسها، و كذلك المراسلات التي تمت بين هذه العائلات و مختلف الفاعلين التاريخيين الذين كانوا يتواصلون مع زعماء هذه العائلات أو كانت لهم علاقة بهم.

و بالموازاة مع ذلك استعنت بالمنهج الوصفي أثناء تتبعي لعلاقة الإدارة الاستعمارية بهذه العائلات لوصف حال هذه العلاقة محاولا توخي الدقة و الوضوح و التسلسل الكرونولوجي للأحداث التاريخية بهدف الوصول إلى نتائج موضوعية.

6- عرض و نقد لأهم مصادر و مراجع البحث

بهدف الإحاطة بالموضوع من كل جوانبه، فقد حاولت قدر الإمكان أن تكون مصادره و مراجعه كثيرة و متنوعة، أبرزها:

أولا: الأرشيفات:

و تتمثل هذه الأرشيفات في المراسلات و التقارير و الأوامر و غيرها من الوثائق التي كتبها القادة و الساسة الفرنسيون حول علاقتهم بالعائلات القسنطينية الكبرى، كما تتمثل أيضا في الرسائل و غيرها من المطالب التي وجهها قادة العائلات الكبرى و بعض الشخصيات الجزائرية إلى الفرنسيين و غيرهم، و التي تتحدث عن أوضاعهم العامة و مختلف علاقاتهم و خاصة علاقاتهم بالفرنسيين.

لا بد من الإشارة إلى أن خزائن الأرشيف بفرنسا و تونس، تحتضن بين طياتها وثائق لا حصر لها تتحدث عن موضوع دراستنا منها ما نشر و منها ما لم ينشر. و ليس بالإمكان عمليا تصفحها كلها للحصول على المعلومات اللازمة و الوصول إلى الحقائق التاريخية، و إنما حاولت البحث في أهم العلب الأرشيفية ذات الصلة بالموضوع، فجلبت عدة وثائق من مركز أرشيف مدينة إيكس أون بروفانس الفرنسية، كما جلبت كما هائلا من الوثائق تتحدث عن موضوع دراستي من تونس عثرت عليها في الأرشيف الوطني التونسي، و كذلك في المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية التونسية (I.S.H.M.N.T)، الذي يزخر بعدد كبير من الوثائق الفرنسية المتعلقة بتاريخ تونس الحديث و المعاصر و كذلك تاريخ الجزائر خلال هذه الفترة و خاصة تاريخ مقاطعة قسنطينة، و هي وثائق مصورة من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، و أرشيف مدينة إيكس أون بروفانس، فحاولت الاستعانة بها في إنجاز هذا البحث، و من أهم الوثائق التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة نذكر:

1- وثائق مراكز الأرشيف الفرنسية

أ- وثائق أرشيف بلدان ما وراء البحار بإيكس أون بروفانس (A.O.M):

اطلعت على بعض العلب المصنفة ضمن سلسلة F80، و سلسلة H ، و سلسلة K، و سلسلة KK

ب- مركز أرشيف وزارة الحربية الفرنسية A.M.G بباريس:

استطعت الحصول على وثائق من العلبة 229 الموجودة ضمن سلسلة H

2- وثائق مراكز الأرشيف التونسي:

أ- الأرشيف الوطني التونسي

اعتمدت على الوثائق الموجودة ضمن السلسلتين الآتيتين:

- السلسلة التاريخية : الحافظة 78 (الملف 929)، الحافظة 78 (الملف 930)، الحافظة 185 (الملف 1050)، الحافظة 212 (الملف 239)، الحافظة 255 (الملف 723).
- السلسلة –أ– : الحافظة 278، الملف رقم 6.

ب- الوثائق المصورة و المحفوظة بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية التونسية I.S.H.M.N.T و تتمثل في:

- وثائق أرشيف بلدان ما وراء البحار بإيكس أون بروفانس (A.O.M) : اعتمدت على الوثائق المصورة الموجودة ضمن سلسلة Tunisie 25 H الموجودة في المصغرات الفيلمية الآتية:

- Bobine A1 : 25 H 1
- Bobine A2: 25 H 2
- Bobine A3: 25 H 3
- Bobine A10: 25 H 9
- Bobine A11: 25 H 10
- Bobine A21: 25 H 16
- Bobine A22: 25 H 16
- Bobine A26: 25 H 18 (1)

- وثائق أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية بباريس الموجودة ضمن سلسلة القضايا السياسية المختلفة و الموجودة في المصغرات الفيلمية الآتية:

- Bobine 291: Carton 14
- Bobine 293: Carton 18
- Bobine 296: Carton 24
- Bobine 517: Carton 2
- Bobine 520: Carton 4

لقد مكنتني المعلومات الواردة في هذه الوثائق من رصد جانب مهم من علاقة الإدارة الاستعمارية بالعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة خلال القرن 19م، وحاولت إخضاعها للنقد و التحليل. و قد صعب علي في معظم الأحيان قراءة الوثائق المكتوبة باللغة العربية لأن معظمها صيغ بأسلوب ركيك، مهلهل التركيب، ضعيف اللغة، و تغلب عليه اللغة العامية، و مليء بالأخطاء النحوية و الصرفية، بل بلغ الأمر إلى استعمال الألفاظ الأجنبية في كثير من الأحيان مما انعكس أحيانا

على معانيها التي أضحت غامضة و مبهمة. و قد حاولت قدر الإمكان التصدي للأخطاء الواردة في هذه الوثائق و ذلك بوضع كلمة (كذا) لننبه إلى الخطأ النحوي، أو الإملائي أو اللفظي و نحو ذلك.

ثانيا: المصادر

من بين المصادر التي اعتمدت عليها بشكل كبير في إعداد هذه الدراسة:

- **مقالات شارل فيرو L.ch.Féraud**:

إن هذه المقالات منشورة في المجلة الإفريقية، و في مجلة الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة. و قد رصد فيها صاحبها بشكل مكثف أخبار هذه العائلات عبر مختلف الحقب التاريخية، و الشيء الذي ساعده على إنجاز هذا العمل أنه كان باحثا عسكريا و مترجما في الجيش الفرنسي خلال النصف الثاني من القرن 19م. و قد سمح له منصبه هذا بدراسة الوثائق و المخطوطات المحلية، كما أنه اعتمد على الروايات الشفوية و اللقاءات المختلفة التي أجراها مع سكان المنطقة و العارفين بتاريخها.

و قد شارك "فيرو" في معظم الحملات العسكرية التي شنها الجيش الفرنسي بمقاطعة قسنطينة ضد الثائرين مثل الحملة التي استهدفت الثوار المقرانيين في شهر جانفي عام 1872م،[1] كما وطد علاقاته مع زعماء بعض العائلات الكبرى التي ندرسها و تبادل معهم الرسائل مثل الباشاغا محمد المقراني صاحب ثورة 1871م الذي كان يتواصل معه و يهنئه في المناسبات السعيدة.[2] و كانت علاقته أيضا ودية مع علي باي بن فرحات بن السعيد الذوادي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة الذي نصبه الفرنسيون قايدا على تقرت و سوف عام 1854م، و الذي منحه نسخة من كتاب العدواني فعمل على ترجمته إلى اللغة الفرنسية و نشره عبر صفحات مجلة الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة عام 1868م. [3] و كانت له أيضا اتصالات مع بعض الشخصيات الجزائرية الفاعلة حينئذ مثل الأمير عبد القادر و محمد الصالح العنتري و غيرهما.[4] إن كل هذه المعطيات جعلت مقالاته

---

[1] L.ch.Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Bousaâda », in R.S.A.C, Année 1872, pp 379, 380.

[2] A.Cour : « Note sur une collection d'autographes Arabes de L'Ancien Ministre de France au Maroc » in, R.A n° 58, Année 1914, p 107.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16م-20م)، الجزء الثاني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص 353.

[4] A.Cour : op.cit, p 114.

قيمة لأنه كان شاهد عيان عن علاقة الإدارة الاستعمارية بالعائلات الكبرى.

- **كتاب ثورة 1871 بالجزائر : Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie**

إن مؤلف هذا الكتاب هو الضابط الفرنسي " لويس رين" « Louis Rinn » الذي باشر مهام رئاسة المكتب العربي لدائرة بسكرة عام 1870م، ثم دائرة باتنة عام 1871م، و عليه فقد عاصر هو الآخر معظم الأحداث التاريخية الواردة في هذه الدراسة. و قد خصص هذا الضابط كتابه للحديث عن علاقة عائلة المقراني بالحكام العثمانيين، ثم تطرق إلى علاقتها بالإدارة الاستعمارية إلى غاية قيام ثورتها عام 1871م، و رصد أحداث هذه الثورة بشيء من التفصيل. و بالموازاة مع ذلك كان يتحدث أحيانا على علاقة الفرنسيين بالعائلات الأخرى بصورة عرضية، و عموما استفدت كثيرا من المعلومات الواردة فيه في كل فصول البحث.

- **المراسلات و التقارير**

اعتمدت في هذه الدراسة كذلك على بعض المراسلات و التقارير التي حررها الحكام العامون الفرنسيون الذين باشروا دفة حكم الجزائر في بداية الاحتلال. و الواقع أن هذه المراسلات هي في الأصل وثائق أرشيفية محفوظة حاليا في مراكز الأرشيف الفرنسية و خاصة مركز أرشيف بلدان ما وراء البحار بإيكس أون بروفانس (A.O.M) بفرنسا. و قد قام كل من "جورج إيفير" « Georges Yver »، و "غابريال إسكير" « Gabriel Esquer » بتصنيفها و ترتيبها كرونولوجيا، بعد ذلك تم طبعها، و شملت مراسلات "الدوق دي روفيغو" « Le Duc de Rovigo » (1831م-1833م)، و مراسلات الجنرال " فوارول" « Voirol » (1833م-1834م)، و مراسلات الجنرال " دروي ديرلون" « Drouet D'erlon » (1834م-1835م)، و مراسلات الماريشال " كلوزيل" « Clauzel » (1835م-1837م)، و مراسلات الماريشال " فالي" « Valée » الجزء الأول (أكتوبر 1837م- ماي 1837م)، ثم الجزء الثاني (جوان- ديسمبر 1838م)، و مراسلات القبطان " دوماس" « Daumas » قنصل فرنسا لدى دولة الأمير عبد القادر بمعسكر (1837م- 1839م).

إن التقارير التي كان يرسلها هؤلاء الحكام العامون إلى مسؤوليهم المباشرين بباريس و على رأسهم وزير الحربية ، و كذا التعليمات التي كانوا يتلقونها منهم و المراسلات المتبادلة بينهم إجمالا تناولت بشكل عام الوضع في الجزائر من وجهة نظر الرسميين الفرنسيين. و قد استفدت كثيرا منها في استجلاء و فهم السياسة الاستعمارية في بداية الاحتلال اتجاه الجزائريين، و المقاومة الوطنية المسلحة،

و أساليب تعامل الإدارة الاستعمارية مع العائلات الكبرى في الجزائر، و لاسيما عائلات مقاطعة قسنطينة، و قد اعتمدت في سبيل ذلك على المنهج التحليلي أثناء تعاملي مع هذه المراسلات، إذ حاولت أن أحللها لاستنتج منها بعض الحقائق التاريخية المتعلقة ببداية علاقة الفرنسيين بالعائلات الكبرى.

- **مصادر أخرى**

من المصادر التي اعتمدت عليها أيضا في إعداد هذه الدراسة الكتب و الدراسات التي أعدها الكتاب و المؤرخون الفرنسيون، و هم في الحقيقة ضباط سامون في الجيش الفرنسي معظمهم عاصر الفترة الزمنية التي ندرسها، و سجلوا أحداثها و نشروا دراساتهم في كتب مستقلة، أو عبر صفحات الدوريات المتخصصة مثل المجلة الإفريقية أمثال العقيد "روبن" « C.Robin » و "لوشاتليي" « Le Chatelier » و " ليسياني" « Luciani » ، و "هربيون" « Herbillon » و "بول أزان" « Paul Azan » و العقيد "تروملي" « C.Trumelet » و " لاباسي" « Lapasset »، و "الكونت دي مارغون" « Le comte de Margon » ، و "مرسيي" « Mercier »، و "سيروكا" « Seroka » و "بيليسيي" « Pelissier »، و "شارل ريشارد" « Ch.Richard » و "هنري غارو" « H.Garrot »، و أغسطين برنارد" « A. Bernard » و غيرهم.

لا بد من الإشارة إلى أن هذه المصادر الفرنسية تحتوي على معلومات غزيرة، و أن أصحابها تحدثوا بإسهاب حول تاريخ العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة و علاقتهم بالإدارة الاستعمارية. و لعل الباحث في أمر هذه العائلات بهذه المنطقة يجد فيما كتبه "شارل فيرو" معلومات كثيرة تضاهي ما كتبه مواطنوه الآخرون.، غير أن النقاد و كثيرا من المؤرخين و الدارسين يؤاخذون هؤلاء "المؤرخين" الفرنسيين على أنهم لم يتحرروا من المعالجة الاستعمارية للأحداث التي يسوقونها حيث جعلوا نتائج أبحاثهم في خدمة الاستعمار، و أخضعوا منهجية التاريخ و متطلبات البحث التاريخي إلى واقع الاحتلال و مرامي السياسة الاستعمارية ، فجاءت كتاباتهم سطحية و تتسم بقلة العمق و سرعة الأحكام و سطحية التفسير، و الأخطر من هذا أنها كانت متحيزة، حيث كانوا أسرى لنظرتهم الاستعمارية الضيقة التي تبرر الاحتلال الفرنسي للجزائر، و بالتالي فقد زاغوا عن المنهج التاريخي القويم الذي يتحرى الموضوعية و ينظر إليها على أنها شرطا أوليا لكتابة التاريخ.

من خلال هذه الاعتبارات، فقد اعتمدت على دراساتهم بكثير من الاحتراز و الحذر إذ لم أسلم بنتائج أبحاثهم، و حاولت التحقيق في كل ما كتبوه عن علاقة إدارة بلادهم بالعائلات الكبرى.

هذا، و قد كانت استفادتي كبيرة أيضا من عدة مصادر و مراجع و مقالات الدوريات، و رسائل جامعية أخرى اطلعت عليها داخل الوطن و خارجه، حرصت على الإشارة إليها في هامش كل صفحة، كما قمت بتدوينها في آخر هذه الدراسة.

7- الدراسات السابقة

لقد أنجزت بعض الدراسات الأكاديمية الحديثة حول العائلات الكبرى بمقاطعة قسنطينة، و يمكن إيجازها في ما يلي:

أ- **رسائل الدكتوراه:**

- **ثورة 1871م (دور عائلتي المقراني و الحداد).**

صاحبها هو الأستاذ يحي بوعزيز، و تعد أول دراسة علمية جادة اهتمت بدور عائلتي المقراني و الحداد في ثورة عام 1871م، إلا أنها اقتصرت على ثورة عائلة المقراني إلى جانب عائلة الحداد، و لم تتعرض بشكل عميق لمسيرة عائلة المقراني خلال الفترة الممتدة من عام 1837م إلى عام 1871م، و قد تمت مناقشتها عام 1975م.

- **احتلال و مقاومة : المكاتب العربية بمقاطعة قسنطينة 1844م – 1871م.**

صاحبها هو الأستاذ صالح فركوس، و قد تناولت هذه الدراسة بشكل مركز موضوع المكاتب العربية و دورها و علاقتها ببعض العائلات الكبرى في هذه المقاطعة، و قد اعتمد صاحبها على وثائق الأرشيف الفرنسي و خاصة الأرشيف الوطني لما وراء البحار بإيكس أون بروفانس A.O.M، و تمت مناقشتها عام 2001.

- **الجزائريون و المغاربة في جزيرة كاليدونيا منذ عام 1864م إلى يومنا هذا.**

صاحبة هذه الدراسة هي مليكة ونوغي من جامعة نوميا بكاليدونيا الجديدة، و هي عبارة عن رسالة دكتوراه في الأنتروبولوجيا التاريخية نوقشت بجامعة باريس VIII في شهر أفريل من عام 2005م. و قد تناولت فيها الباحثة قضايا المنفيين الجزائريين و المغاربة إلى جزيرة كاليدونيا منذ عام 1864م. و قد تحدثت في معرض هذه الدراسة عن بعض العائلات الكبرى التي قام الفرنسيون بنفي بعض

وجهائها إلى هذه الجزيرة التي كانت مستعمرة فرنسية مثل عائلة الرزقي، و عائلة المقراني، و عائلات أخرى في الغرب و الوسط الجزائري.

و قد اعتمدت في هذه الدراسة على الأرشيف الفرنسي (أرشيف فانسان بباريس، أرشيف وزارة الداخلية، أرشيف إيكس أون بروفانس)، و كذلك أرشيف كاليدونيا الجديدة (الأرشيف البلدي لبوراي، و الأرشيف المحلي لنوميا).

ب- رسائل الماجستير

- الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ إلى القرن 13هـ (16م-19م)، دراسة اجتماعية و سياسية، للأستاذة جميلة معاشي (1990م-1991م)، و قد اقتصرت أساسا على الفترة العثمانية، و لم تشر إلا إلى بداية الاحتلال الفرنسي.
- أسرة ابن جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرن 19 و 20م، دراسة سياسية و اجتماعية، للأستاذ معاد عمراني (2002م،-2003م)، و قد تناولت مسيرة هذه الأسرة خلال الفترة المذكورة بشكل مختصر.
- أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني 1518م-1837م، للأستاذ لخضر بوطبة (2005م-2006م)، و قد تتبعت مسيرة هذه الأسرة خلال العهد العثماني.
- أسرة ابن قانة و مكانتها السياسية و الاجتماعية خلال العهد العثماني، للأستاذ محمد أوجرتني (2005م-2006م)، و قد رصدت لنا هذه الدراسة هي الأخرى أخبار هذه الأسرة خلال الفترة العثمانية.
- أسرة المقراني و علاقتها بالإدارة الاستعمارية 1837م-1871م، و هذه الدراسة قمت بإنجازها، و تمت مناقشتها عام 2008م، و فيها تعرضت إلى التطورات التي تميزت بها علاقة هذه الأسرة بالمستعمر الفرنسي خلال الفترة المذكورة.
- سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجاه بعض العائلات المتنفذة في الجنوب القسنطيني 1837م- 1870م، للأستاذ مختار هواري (2007م-2008م)، و قد رصدت هذه الدراسة بصورة مختصرة سياسة الفرنسيين تجاه بعض عائلات أعيان العسكر (عائلة بوعكاز الذواودة، عائلة ابن قانة، عائلة بوضياف) و بعض العائلات الدينية (عائلة أولاد بناصر، عائلة بني عباس، عائلة بلقاضي).

و جدير بالذكر أنني استفدت كثيرا من هذه الدراسات من حيث طريقة تحليلها للأحداث التاريخية، و كذلك من حيث البيبليوغرافيا المعتمدة فيها حيث عبدت أمامي الطريق للوصول إلى عدة مصادر و مراجع، غير أنني ألاحظ أن هذه الدراسات لم تتطرق بشكل معمق إلى الفترة الممتدة ما بين عام 1837م و 1871م، حيث اقتصر بعضها على العهد العثماني، كما أن الدراسات التي تطرقت إلى الفترة الاستعمارية كانت معالجتها معالجة جزئية، مما ترك المجال واسعا للبحث و التنقيب في هذا الموضوع.

و نعتقد أن هذه الدراسة التي تغطي هذه الفترة ستعمل على استكمال هذا النقص لتكتمل الصورة الحقيقية عن هذه العائلات و علاقتها بالإدارة الاستعمارية ، كما أن طرافتها أيضا تكمن في شموليتها و احتوائها على تفاصيل جديدة، و المقاربات التي اعتمدتها و ذلك بالاستعانة بما زودتنا به العلوم الإنسانية و الاجتماعية الأخرى من مناهج كعلم الاجتماع، و العلوم القانونية، و اعتمادها كذلك على وثائق جديدة لم تنشر من قبل عثرنا عليها بأرشيف إيكس أون بروفانس الفرنسي، و الأرشيف الوطني التونسي، و وثائق أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية، و وثائق أرشيف مركز إيكس أون بروفانس الفرنسي التي توجد مصغرات فيلمية منها بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية في تونس.

8- خطة البحث

تتألف رسالتي من مقدمة و مدخل و ستة فصول و خاتمة. و كان من الضروري التمهيد للموضوع لمعرفة الإطار الجغرافي لمقاطعة قسنطينة، و كذلك لمعرفة العائلات الكبرى التي تشكل موضوع هذه الدراسة و المكانة التاريخية التي تحتلها، حيث حاولت إبراز أصول هذه العائلات و قياداتها، أي المناطق الجغرافية التي كانت تبسط عليها حكمها خاصة خلال الفترة العثمانية، حتى تتشكل لنا فكرة واضحة عن البحث.

و تناولت في الفصل الأول بالدراسة علاقة العائلات الكبرى بالإدارة العثمانية و مواقفها من الاحتلال الفرنسي، فبينت ظروف انضواء مدينة قسنطينة تحت الحكم العثماني، و بداية علاقة العثمانيين بالعائلات الكبرى، و أجليت الغموض عن طبيعة هذه العلاقة موضحا أنها كانت علاقة متأرجحة بين السلم و الحرب، كما تعرضت أيضا إلى علاقة المصاهرة التي جمعت بعض هذه العائلات بالحكام العثمانيين، و تطرقت أيضا إلى علاقة الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة بهذه

العائلات مركزا على سياسته تجاههم، حتى يتبين لنا لاحقا أثرها على مواقفهم من الاحتلال الفرنسي و كذلك على مقاومة هذا الباي للفرنسيين.

و بعد ذلك تطرقت إلى مواقفها من الاحتلال الفرنسي، و بينت كيف انقسمت هذه العائلات بين مناهض للمستعمر، و متعاون معه خلال الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، و أثناء الحملتين الفرنسيتين على مدينة قسنطينة عامي 1836م و 1837م، و حاولت الإحاطة بخلفيات و أسباب الموقفين المتناقضين.

أما الفصل الثاني، فقد خصصته لدراسة بداية علاقة العائلات الكبرى بالإدارة الاستعمارية ، و مواقفها من مقاومة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي، حيث افتتحت فيه الكلام عن الماريشال " فالي" و بداية علاقة الفرنسيين بهذه العائلات الكبرى عام 1838م، فتحدثت عن سياسة الماريشال فالي في الجزائر، ثم أبرزت سياسته تجاه العائلات الكبرى، بعد ذلك شرعت في الحديث عن مرسومه الشهير المؤرخ في 1838/09/30م الذي استقطب به هذه العائلات إلى الصف الفرنسي، و قنن علاقتهم بالإدارة الاستعمارية ، فأبرزت الأطراف المخاطبة بأحكام هذا المرسوم، و هم في غالبيتهم رؤساء العائلات الكبرى، ثم تحدثت بشيء من التفصيل عن محتوى هذا المرسوم و محاوره الكبرى. ثم تعرضت إلى آثاره و أبعاده و طبيعته القانونية ، و أخيرا بينت موقف السلطات الفرنسية العليا من هذا المرسوم. و لما كان هذا المرسوم قد استحدث مناطق حكم تخض هذه العائلات عرفت بـ "القيادات"، كان لزاما علي أن أتحدث عن هذه القيادات. و في هذا المنظور أبرزت قيادات هذه العائلات التي شملها هذا المرسوم و التي لم يشملها.

و كان لزاما علي الحديث في هذا الفصل عن مواقف العائلات الكبرى من مقاومة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي، لأن هذا المرسوم كانت له آثار واضحة على مواقف هذه العائلات من مقاومة الزعيمين، فأبرزت موقفين متناقضين لهذه العائلات : الموقف الأول كان متعاونا مع زعيمي المقاومة الوطنية المذكورين، بينما كان الموقف الثاني معاديا لهما، و حاولت قدر الإمكان الإلمام بظروف و ملابسات و خلفيات كل موقف.

و أفردت الفصل الثالث للحديث عن دور العائلات الكبرى في التمكين للإدارة الاستعمارية ، و فيه حاولت أن أدرس الدور العسكري لهذه العائلات من خلال مرافقتهم للحملات العسكرية التي كان يشنها الجيش الفرنسي ضد السكان، و تخابرهم لصالح المحتل و المساهمة في تسهيل عملية

الاحتلال ، و ذلك بإبراز دور كل عائلة على حدة في هذا المجال. و تحدثت أيضا في هذا الفصل عن دور هذه العائلات في مجال التمكين الضريبي لصالح المحتل الفرنسي لأن الفرنسيين بعد احتلالهم للجزائر عام 1830م كانوا قد سنوا ضرائب عديدة و فرضوها عنوة على السكان و كلفوا قادة و زعماء هذه العائلات بجبايتها، فنفذوا هذه المهمة بحماس شديد.

و في نهاية هذا الفصل تعرضت إلى مساهمة هذه العائلات في التصدي للأخطار الخارجية التي كانت تهدد الفرنسيين، و بينت دورهم في حماية الحدود الشرقية للجزائر و دعم جيوش فرنسا و مصالحها في الخارج و التصدي لثوار بلدان الجوار الذين ثاروا ضد نظام حكمهم، و لما اشتد عليهم الضغط انتقلوا إلى بعض جهات مقاطعة قسنطينة للفكاك من متابعات أنظمتهم، و من هؤلاء الثوار الثائر الطرابلسي غومة المحمودي (1841م–1858)، و الثائر التونسي علي بن غداهم عام 1864م.

و عقدت الفصل الرابع لدراسة دور العائلات الكبرى في القضاء على الثورات و المقاومات الشعبية إلى جانب الفرنسيين. و لما كانت هذه الثورات عديدة فقد قصرت الكلام على أبرزها، و بينت دور هذه العائلات في القضاء على إحدى عشر مقاومة و ثورة ابتداء من مقاومة محمد بن عبد الله و مولاي إبراهيم (1845م–1853م) بسور الغزلان و انتهاء بمقاومة محي الدين نجل الأمير عبد القادر أو محاولته الثورية التي أعلنها في وجه المحتل الفرنسي في نهاية عام 1870م و مطلع عام 1871م على الحدود الجنوبية الشرقية للجزائر.

و قد ضمنت الفصل الخامس سياسة الإدارة الاستعمارية تجاه العائلات الكبرى و ردود أفعالها. و تناولت فيه الأساليب التي انتهجها الفرنسيون تجاه هذه العائلات لتحطيمهم و التخلي عن خدماتهم بعدما توسطوا بهم لحكم المناطق التي كانت بعيدة عنهم. و لما كان لكل فعل رد فعل، فقد تحدثت عن ردود أفعال هذه العائلات تجاه السياسة الخرقاء التي طبقها الفرنسيون ضدهم، فتطرقت إلى مقاوماتهم و ثوراتهم، فأبرزت مقاومة عائلة أولاد عز الدين خلال أربعينات و خمسينات القرن 19م، و ثورة الزواغة و فرجيوة عام 1864م و ارتماء عائلة بوعكاز بن عاشور فيها، و ثورة عائلة ابن جلاب عام 1852م، و ثورة عائلة الرزقي في نهاية ستينات القرن 19م، و أخيرا ثورة عائلة المقراني عام 1871م.

أما الفصل السادس و الأخير من هذه الدراسة، فأدرجته تحت عنوان "آثار و عواقب مقاومة العائلات الكبرى للإدارة الاستعمارية "، و هو في الحقيقة فصل مرتبط ارتباطا مركزيا بسابقه لأنه يتحدث عن نتائج و آثار هذه الثورات، فتناولت فيه الإجراءات الردعية الانتقامية التي باشرتها الإدارة

الاستعمارية ضد العائلات الثائرة و السكان المنتصرين لثورتهم، و بينت أن هذه الإجراءات كانت وخيمة على هذه العائلات، و كل من كانت له صلة بها من قريب أو من بعيد، حيث انتقمت منهم الإدارة الفرنسية انتقاما بشعا، فصادرت ممتلكاتهم، و وقعت غرامات الحرب عليهم و زجت بهم في السجون، و نفت منهم عدد غير قليل إلى الخارج في الجزر و المناطق البعيدة و النائية.

و تحدثت أيضا في هذا الفصل عن هجرة العديد من أفراد هذه العائلات إلى البلاد التونسية هروبا من مضايقات الفرنسيين، كما تطرقت إلى تدهور أوضاع العائلات الثائرة و تراجع مكانة العائلات الكبرى بصفة عامة. و أنهيت الفصل بالكلام عن موقف العائلات المهادنة من السياسة القمعية الفرنسية تجاه العائلات الثائرة، و بينت بقاء هذه الفئة وفية لنهج المستعمر رغم المضايقات التي طالتها أيضا.

و أنهيت فصول هذه الدراسة بخاتمة، حاولت أن أجمع فيها بعض الاستنتاجات التي استخلصتها من دراستي لهذا الموضوع. و لا أدعي أن تلك النتائج نهائية، و هي كل شيء في الموضوع، إذ ليس بمقدور هذه الدراسة أن تلم إلماما كليا بهذا الموضوع المتشعب، لذا فإن أبواب البحث تبقى دائما مفتوحة أمام الباحثين للتعمق أكثر فيه.

و لمزيد من التوضيح، فقد عززت البحث ببعض الملاحق التوضيحية لتنوير و إجلاء الغموض عن بعض الوقائع التاريخية الواردة في متن هذه الدراسة. و أخيرا ذيلت البحث بفهارس تتمثل في فهرس الأعلام، و فهرس القبائل و الجماعات، ثم فهرس الأماكن و البلدان، و أخيرا فهرس الموضوعات الذي سجلت فيه كل ما ورد في هذه الدراسة.

9- صعوبات البحث

واجهتني صعوبات عديدة ذات طابع منهجي بالأساس في إنجاز هذا البحث، منها صعوبة التحكم فيه بصورة دقيقة من الناحية الزمنية. فرغم أن مجاله الزمني محدد ما بين عام 1837م و عام 1871م، إلا أنني وجدت نفسي ملزما بالرجوع إلى الفترة العثمانية للوقوف على علاقة الإدارة العثمانية بهذه العائلات. كما اقتضى البحث أيضا الحديث عن واقع هذه العائلات و علاقتهم بالفرنسيين بعد عام 1871م، خاصة خلال الفصل الأخير من هذه الدراسة، و ذلك في معرض الكلام عن آثار مقاومة هذه العائلات للفرنسيين، مما قد يوحي بتجاوز المجال الزمني لهذه الدراسة.

و الحقيقة أن تلك خطوة منهجية لا مناص من التعرض لها، لأنه من غير المتصور الانطلاق في إنجاز هذا البحث دون أن نحدد له أرضية و مرجعية تاريخية تساعدنا على فهمه فهما عميقا، كما أنني كل ما تطرقت له بعد عام 1871م هو في الحقيقة مرتبط ارتباطا مركزيا بالفترة السابقة لهذه السنة، لأنه يتحدث عن آثار و عواقب ثورات هذه العائلات، و هي آثار بعيدة المدى و التي لا مندوحة أيضا من التعرض لها حتى نتعرف أكثر على المصير الذي آلت إليه علاقة هذه العائلات بالفرنسيين. و على هذا الأساس يمكن القول أن الحدود الزمنية لهذا البحث أصبحت بعيدة.

و قد ارتبط مجال البحث أيضا بموضوعات عديدة، و بأحداث متشعبة، لأن الفترة المدروسة تميزت بغزارة المقاومة الشعبية، و تردد السياسة الإدارية الفرنسية. و قد فرضت علي مقتضيات الدراسة المنهجية أحيانا أن أتحدث بشكل موجز عن موضوعات خارجة عن نطاق مجريات أحداث هذه الدراسة، مما قد يوحي بوجود شيء من الإطناب، إلا أنه لا مناص منه لأنه يساعدنا على الربط بين الأحداث التاريخية التي نسوقها، ما دامت هذه الموضوعات مرتبطة ارتباطا منهجيا وثيقا بموضوع دراستي من حيث الزمان و المكان و الموضوع.

هذا، و قد واجهتني صعوبات أخرى مثل تشتت المصادر و المراجع، و صعوبة الوصول إلى الوثائق الأرشيفية. و قد تحتم علي التنقل عدة مرات إلى فرنسا و تونس لجلب هذه الوثائق التي تحتضن في طياتها معلومات هامة حول موضوع هذه الدراسة، و هي صعوبات لا بد أن يواجهها كل باحث.

مدخـــــل

I- الإطار الجغرافي لمقاطعة قسنطينة

II- العائلات القسنطينية الكبرى و مكانتها التاريخية

1- الأصول التاريخية

2- المكانة العسكرية.

3- المكانة الاقتصادية و المالية

4- المكانة الدينية و الاجتماعية.

5- المكانة السياسية.

III- أبرز العائلات القسنطينية الكبرى

1- عائلة المقراني

2- عائلة بوعكاز بن عاشور

3- عائلة أولاد عز الدين

4- عائلة الرزقي

5- عائلة بوعكاز الذواودة

6- عائلة بن قانة

7- عائلة بن جلاب

مدخـــــل

إن الحديث عن علاقة الإدارة الاستعمارية بالعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة (1837م-1871م)، يتطلب منا ابتداء الإلمام بالإطار الجغرافي لهذه المقاطعة لصلته الوثيقة بالصراع السياسي الذي كان يدور فوق إقليمها. و بما أن الفاعل التاريخي في هذه الدراسة هو العائلات الكبرى، فقد كان من اللازم تحديد مكانتها التاريخية و أساس قوتها و نفوذها والأسباب التي جعلتها تحتل هذه المكانة و تحظى بهذا النفوذ عبر تاريخها. و كان من الضروري أيضا أن أعرف بالعائلات الكبرى التي تشكل موضوع هذه الدراسة محاولا توضيح أصولها و المناطق التي كانت تحكم سيطرتها عليها خاصة خلال الفترة العثمانية، لأن مقاطعة قسنطينة كانت قد حافظت على بنيتها الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية الموروثة عن العهد العثماني إلى بداية الاحتلال الفرنسي لعدة أسباب نذكر منها، تأخر عملية الغزو، و وعورة التضاريس، و هيمنة العائلات الكبرى على أريافها، و ذلك عكس الجهات الوسطى و الغربية من الوطن التي عرفت تحولات عميقة و شاملة في بداية الاحتلال نتيجة الفعل الفرنسي المتمثل في الاحتلال العسكري، و رد الفعل الوطني المتمثل في المقاومة الشعبية المسلحة. [1]

و ليس الهدف من وراء ذلك هو الاستقصاء العميق و الدقيق لجميع هذه المسائل، لأن معظمها معروف و مبسوط في كثير من الدراسات التاريخية، و إنما سنركز على تقديم لمحة موجزة عن ذلك فقط، لتساعدنا أكثر على فهم الأحداث التي نسوقها في هذه الدراسة. فما هي أبرز الخصائص الطبيعية و البشرية لمقاطعة قسنطينة؟ و ما هي الأسس و المقومات التي استمدت منها العائلات الكبرى نفوذها و مكانتها ؟ و ما هي العائلات الكبرى التي كانت تحكم سيطرتها على أرياف مقاطعة قسنطينة ؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه تباعا.

I– الإطار الجغرافي لمقاطعة قسنطينة [2]

كانت مقاطعة قسنطينة التي عرفت في العهد العثماني ببايلك الشرق تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا، و إلى الحدود التونسية شرقا. أما من جهة الغرب فتصل إلى أعماق جرجرة و منطقتي سيدي هجرس و سيدي عيسى اللتان تفصلانها عن بايلك التيطري[3].

---

[1] ناصر الدين سعيدوني: دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر العثماني – العهد العثماني – م.و.ك، الجزائر،، 1984، ص 317.

[2] ينظر الملحق رقم 1

[3] Ernest Watbled : « Cirta-Constantine-expéditions et prise de Constantine 1836-1837 » , in R.A n° 14, Année 1870, p 205

أما الحدود الجنوبية، فلم يتمكن العثمانيون من بلوغها إلا بشق الأنفس و تحقق لهم ذلك في عهد صالح باي (1771م-1792م) الذي وسع حدود البايلك و ضم إليه مناطق الزيبان، و تقرت و وادي ريغ [(1)].

و بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م، حافظت الإدارة الاستعمارية على الهيكل الإداري الموروث عن الإدارة العثمانية، [(2)] حيث بقيت حدود المقاطعة تمتد من وادي الصومام إلى الحدود التونسية، و من جبال الحضنة حتى قبيلة النمامشة [(3)]. أما بالنسبة للمساحة ، فكان البايلك القسنطيني خلال العهد العثماني أهم بايلكات الجزائر بسبب اتساع مساحته [(4)].و بعد الاحتلال الفرنسي قدرت هذه المساحة عام 1851م بـ 175.900 كلم^2 [(5)]، فهي بذلك كانت تشكل تقريبا نصف مساحة الجزء الشمالي للقطر الجزائري برمته[(6)].

و تتشكل المقاطعة من عدة مظاهر تضاريسية، إلا أن الطابع الذي يسيطر عليها هو الطابع الجبلي شأنها في ذلك شأن بقية بلدان المغرب العربي التي تشترك في طابعها التضاريسي العام [(7)].

و هذه الجبال هي في الواقع امتداد لسلسلتي الأطلس التلي و الأطلس الصحراوي الكبيرتين [(8)] و تنحصر بينهما الهضاب التي تعرف بالسهوب، و هي أقل مساحة، و تتخللها جبال و سبخات و شطوط [(9)].

أما السهول فتقسم إلى سهول ساحلية مثل سهل عنابة، و سهل وادي الساحل، و سهول داخلية مثل سهول سطيف، و سهول مجانة، و سهول قسنطينة [(10)].

---

(1) عبد العزيز فيلالي و محمد الهادي لعروق: مدينة قسنطينة، دراسة التطور التاريخي و البيئة الطبيعية، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر، 1984، ص 79.

(2) Charles-André julien : Histoire de L'Algérie contemporaine. La Conquête et les débuts de la Colonisation (1827-1871), Editions Casbah, Alger, Algérie, 2005, p 353

(3) صالح فركوس: إدارة المكاتب العربية و الاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844م-1871م، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، 2006، ص 9.

(4) Ernest Mercier : L'Algérie en 1880, le cinquantenaire de L'Algérie, Challamel Ainé éditeur, Paris, France, 1880, p 14

(5) صالح فركوس: المرجع السابق، ص 11.

(6) George Gouget : voyages aux origines de L'Algérie et de la province de Constantine 1830-1900, Éditions esprit Livres, France, 2003, p 19.

(7) Moncer Rouissi : Population et société au Maghreb, Cérès productions, Tunis, Tunisie, 1983, p 22

(8) Hilbert Isnard : Le Maghreb, P.U.F, France, 1971, p 154.

(9) حليمي عبد القادر علي: جغرافية الجزائر الطبيعية، البشرية، الاقتصادية، المطبعة العربية، الجزائر، 1968، ص 50.

(10) Hilbert Isnard : op.cit, p 158

و في الجنوب تمتد الصحراء المعروفة لدى المؤرخين و الكتاب الفرنسيين بصحراء قسنطينة التي تقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي منطقة الزيبان، و حوض وادي سوف، و حوض وادي ريغ [1].

أما المناخ الذي يسود المنطقة، فهو المناخ السائد في باقي أرجاء القطر الجزائري حيث نجد مناخ البحر الأبيض المتوسط في الشريط الساحلي الضيق، و يوجد بمحاذاة السلسلة التلية التي تشكل حاجزا طبيعيا يحول دون تسرب المؤثرات البحرية إلى الداخل، و يكون دافئا ممطرا، و يتميز بالاعتدال شتاء و الحرارة و الجفاف صيفا [2].

و إلى جانب ذلك نجد المناخ القاري الذي يسود الهضاب العليا، و يتميز بارتفاع درجة الحرارة صيفا و انخفاضها شتاء، و اتساع المدى الحراري كلما اتجهنا جنوبا [3]. و في الجهة الجنوبية للمقاطعة يسود المناخ الصحراوي الذي يتميز بالحرارة و الجفاف، و تهب عليها رياح جافة، و تتعرض لعواصف رملية قوية تعرقل كل الأنشطة البشرية و الاقتصادية [4].

أما من حيث السكان، فقد قدرت السلطات الاستعمارية عددهم عام 1842 بـ 833.640 نسمة موزعين بين الريف و المدينة [5]، ليرتفع هذا العدد عام 1851م إلى 1.101.421 نسمة [6]

و كان سكان الأرياف في تلك الأثناء يشكلون نسبة عالية تصل إلى 90 %، في حين أن نسبة سكان المدن كانت لا تتجاوز 10 % [7]. و لم يكونوا شديدي الارتباط بالأرض لأنهم كانوا

---

[1] Achille Fillias : Géographie de L'Algérie, éditions librairie Hachette et cie, Paris, France, 1886, p 120.

[2] V.Prevot et autres : la France et l'Outre-mer, librairie classique, Eugène Belin, Paris, France, 1963, pp 380, 381.

[3] Emile Larcher : Législation Algérienne, Arthur Rousseau, Paris, France, 1903, p 34.

[4] المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954: فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية، منشورات المركز، د.ت، ص ص 22-24.

[5] André Nouschi : Enquête sur le niveau de vie des populations rurales Constantinoises de la conquête jusqu'à 1919, P.U.F, Paris, France, 1961, p 20.

[6] Ernest Mercier : op.cit, p 155

[7] عمري الطاهر: بنية الريف و المدينة قبل الاحتلال الفرنسي، منشورات مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، طبع شركة دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2001، ص 213.

يمارسون حرفة الرعي التي تفرض عليهم الترحال و التنقل[1]، و كانوا أيضا مقسمين إلى عدة قبائل. و قد ادعى منظرو الاستعمار الفرنسي في الجزائر و منهم الجنرال "بيجو" « Bugeaud » أن هذه القبائل كانت متباغضة و متناحرة، و أن الحرب بينها هي الوضع الطبيعي و القاعدة العامة. [2]

و الأصل أن الحروب بين هذه القبائل كانت تمثل الاستثناء و ليس القاعدة، و أسبابها كانت كثيرة و معروفة مثل الصراع على مناطق الرعي، و كذلك سياسة السلطات العثمانية التي كانت تشجع هذه الحروب بصورة ضمنية لتضمن بقاءها و استمراريتها [3]. و من الناحية الاقتصادية، فقد اعتبر الإقليم الشرقي أغنى إقليم اقتصادي خلال الفترة العثمانية.[4]

و في ضوء ما تقدم يتبين لنا أن مقاطعة قسنطينة كانت ذات أهمية كبرى من حيث موقعها الجغرافي المنفتح على كل الجهات، و تنوع مظاهر سطحها و اتساع مساحتها، و ارتفاع عدد سكانها و غناها بالموارد الاقتصادية. و بفضل هذه الخصائص و المميزات، فقد حاولت الإدارة الاستعمارية إحكام قبضتها عليها و استغلالها بمختلف الطرق و الوسائل، فلجأت إلى العائلات الكبرى التي كانت تسيطر على أريافها.

II- العائلات القسنطينية الكبرى و مكانتها التاريخية

كانت العائلة الجزائرية خلال العهد العثماني تشكل قاعدة الهرم الاجتماعي، بينما الوحدة الاجتماعية التي تأتي بعدها مباشرة هي القبيلة التي تتألف من عدة عائلات، ثم العشيرة التي تتشكل بدورها من عدة قبائل، و أخيرا العرش الذي يضم قبائل و عشائر مختلفة [5]. و كان لكل تشكيلة من هذه التشكيلات الاجتماعية مجلسا يعرف بـ « مجلس الجماعة » يتشكل من أعيان العائلات الكبرى و علية القوم، يجتمع دوريا لمناقشة مختلف المسائل الدينية و الدنيوية. [6] و كان هؤلاء الأعيان ينتمون إلى عائلات ذات نفوذ و حظوة لأنهم كانوا يمثلون نخبة المجتمع السياسية

[1] ناصر الدين سعيدوني: « مذكرة حول إقليم قسنطينة » الأصالة مجلة ثقافية شهرية، تصدر عن وزارة الشؤون الدينية، عدد 71/70، سنة 1979، ص 14.

[2] Le Général Bugeaud : L'Algérie. Des moyens de conserver et utiliser cette conquête, librairie Palais Royal Paris, France 1842, p 9

[3] Alexis de Tocqueville : Seconde lettre sur l'Algérie, éditions Zirem, Bejaia, Algérie, 2006, p 25.

[4] Venture de Paradis : Tunis et Alger au XVIII siècle, Mémoires et Observations Rassemblés et présentées par joseph cuop, éditions sindbad Paris, France, 1983, p 123.

[5] يحي بوعزيز: « الحالة الاقتصادية و الاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر » الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، عدد 80، سنة 1980، ص 161.

[6] Abdelhamid Benachenhou : Connaissance du Maghreb. Notions d'Ethnographie, d'histoire et de Sociologie, Presses des éditions populaires de l'Armée Nationale, Alger, Algérie, 1971, p 168.

و العسكرية و التاريخية أيضا، و قد اصطلح الكتاب و المؤرخون على تسميتهم بـ « العائلات الكبرى » كما أطلقوا عليهم تسميات أخرى كـ « العائلات المتنفذة » و « الخيام الكبرى » و نحو ذلك من التسميات التي تفيد الحظوة و التبجيل و النفوذ.

و كان الفرنسيون يشبهون هذه العائلات الكبرى الجزائرية بالعائلات الكبرى التي حكمت أوروبا خلال العصور الوسطى،[1] و ذكر "بربروجر" "Berbrugger" أنه أثناء زيارته لبعض جهات قسنطينة عام 1856م، و لاسيما مناطق الحضنة و الزيبان و مجانة، كان قد تفاجأ بوجود عائلات تعيش حياة الرفاهية و تجمع بين الثروة و العادات الأرسطوقراطية كعائلة المقراني، و عائلة ابن قانة اللتين كانتا في نظره عائلتان اقطاعيتين لا تختلفان عن العائلات الإقطاعية التي كانت سائدة بأوروبا خلال القرون الوسطى،[2] لذلك يحلو للكتاب و المؤرخين الفرنسيين تسميتهم بالعائلات الإقطاعية،* و أحيانا يطلقون عليهم اسم "العائلات النبيلة".[3] أما " فيرو" فيسميهم "العائلات السنيورية"** "les familles seigneuriales".[4]

---

[1] Tayeb Chentouf: L'Algérie en 1954. Documents d'Archives, O.P.U, Alger Algérie, 2006, p 165.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 380.

* برزت قوة العائلات الإقطاعية في أوروبا لاسيما بعد تصدع امبراطورية "شرلمان"، حيث بسطت سيادتها على مساحات واسعة من أراضي أوروبا الغربية. و من هذه العائلات على سبيل المثال لا الحصر عائلة آل كابيه الفرنسية التي ظلت تمد العرش الفرنسي بعدد كبير من الملوك، و ازداد بأس و نفوذ هذه العائلة خاصة بعد تحالفها مع الكنيسة و رجال الدين المسحيين.

حول هذه العائلات الإقطاعية في أوروبا ينظر:

- إبراهيم أحمد العدوي: المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، دار المعرفة، القاهرة، مصر، 1961، ص ص 128، 129.

[3] Eugène Daumas : « La noblesse au désert », in Revue des deux mondes, plusieurs numéros édités en un seul numéro sous titre : Algérie 1830-1962, Maison neuve et la rose, Paris, France, 1999 p 155.

** يبدو أن "شارل فيرو" اقتبس هذه التسمية من نظام السيادة "Le système seigneurial" الذي ساد النظام الإقطاعي في أوروبا خلال العصور الوسطى. و يعد هذا النظام الإطار المرجعي الذي كان ينظم علاقة السادة الأحرار الذين يملكون الأراضي الواسعة و الإقطاعات الكبيرة بالمزارعين المستعبدين في الأرض و الذين يسمون بالأقنان "Les serfs". و القن هو خادم الأرض و مسلوب الحرية، بل و الكرامة أيضا، لأنه خلق من أجل خدمة سيده ليس إلا، و دفع ضرائب معلومة له. و هو مرتبط بالأرض، فإذا بيعت هذه الأرض بيع معها، و إذا عجز عن تقديم الخدمات الموكلة له من قبل سيده نتيجة سقم أو عجز أو لأسباب أخرى، تصرف فيه سيده بالإعارة أو الاستبدال أو الطرد و نحو ذلك.

حول هذا النظام ينظر:

- سعيد عبد الفاتح عاشور: حضارة و نظم أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 1976، ص ص 409، 410.

Voir aussi :

- Jacques Ellul : Histoire des institutions, de L'époque Franque à la Révolution, P.U.F, Paris, France, 1962, pp 152-177.
- Pierre Goubert : L'ancien régime : La société, Arnaud colin, Paris 5e, France, 1969, pp 72, 73.

[4] L.Ch.Féraud : « Les Harar. Seigneurs des Hanencha. Etudes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 18, Année 1874, p 13.

و بهذه الكيفية يكون رواد الإدارة الاستعمارية الفرنسية قد أرادوا بعث النظام الإقطاعي الأوروبي في الجزائر عن طريق التمكين لهذه العائلات و منحها امتيازات استثنائية، هذا النظام الذي أفل نجمه في أوروبا و هجره الفرنسيون في بلدهم.[1] و الحقيقة أن هذه الأطروحة لا يمكن الاطمئنان إليها، لأن العائلات الكبرى الجزائرية لا تتوفر فيها خصوصيات العائلات الإقطاعية التي حكمت أوروبا خلال العصور الوسطى. و فضلا عن ذلك فإن وجود العائلات الإقطاعية بأوروبا خلال العصور الوسطى كان مرتبطا ارتباطا عضويا بالنظام الإقطاعي الذي كان متصلا هو الآخر بالكنيسة و الفكر الكنسي، و كان كذلك خاصية أوروبية صرفة، و لم تعرف الجزائر هذا النظام السياسي و الاقتصادي عبر مراحلها التاريخية. و عليه فإن مختلف المقاربات التي ساقها هؤلاء المؤرخون الفرنسيون، و سائر التسميات التي أطلقوها على هذه العائلات لا يمكن بأي حال من الأحوال الاطمئنان إليها وسحبها على المجتمع الجزائري، لأنه ليس هناك وجاهة و مماثلة تسوغ المقارنة بينهما. فلكل مجتمع نخبته المتميزة بخصوصياتها المستقلة، كما أن تفضيل هذه العائلات الجزائرية و تبجيلها كان في واقع الأمر ظاهرة تاريخية استقرت في الجزائر منذ عهود سحيقة، و كانت مبنية على التراضي المشترك بينها و بين السكان.

وقد صنف الكتاب و المؤرخون العائلات الكبرى بحسب المقومات التي استمدت منها نفوذها إلى عائلات دينية (مرابطية) و عائلات عسكرية[2]. فالعائلة الدينية هي العائلة المشهود لها بالورع و التقوى، و عادة ما تكون لها زاوية تباشر مهام دينية و تقدم خدمات اجتماعية. أما العائلات العسكرية فتسمى بفئة الأجواد* أو رجال الحرب أو نبلاء السيف أو الارسطوقراطية الحربية،

---

(1) Jaques Jurquet : La Révolution Nationale Algérienne et le Parti Communiste Français, Tome 1 éditions du centenaire, Paris, France, 1973, p 93.

(2) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830–1900، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1992، ص ص 326، 327.

* الأجواد اسم مشتق من الجواد أي الحصان الأصيل القوي الذي يمتطيه الفارس في الحروب.

حول ذلك ينظر:

- Mahfoud Smati : Les Élites Algériennes Sous la Colonisation, Tome I Editions Dahlab, Alger, Algérie, 1989, p 29

و هي عائلات تملك العدد الكافي من الفرسان البواسل و السلاح[1]. و قد تحصلت هذه العائلات على هذه المكانة بواسطة أصولها التاريخية و نسبها الشريف و قوتها العسكرية [2]، إضافة إلى نفوذها المالي و مكانتها الدينية و دورها الاجتماعي لفائدة السكان، و كذلك مكانتها السياسية و علاقتها المتميزة مع السلطة المركزية، و في ما يلي نوضح ذلك.

1- الأصول التاريخية

اهتم العرب الأوائل بنسبهم و أصولهم التاريخية، فتفاخروا بأنسابهم و تباهوا بذكر محاسن و مناقب أسلافهم[3]، و رغم أن الإسلام نهى عن ذلك، و لم يفرق بين الناس إلا على أساس التقوى، إلا أن ذلك لم يمنع المسلمين من الافتخار بأمجادهم و أصلهم و منبتهم خاصة إذا كان هذا الأصل يعود إلى بيت النبي سيدنا محمد - عليه الصلاة و السلام – لأن ذلك يمثل علامة شرف، فينعقد لهم بالتالي النسب الشريف.[4]

و قد عرف سكان منطقة المغرب العربي انتشار هذه الظاهرة خلال الفترة الاسلامية شأنهم في ذلك شأن بقية شعوب العالم الإسلامي، حيث نال الأشراف مكانة متميزة بين السكان، و منحت لهم المناصب الريادية في مختلف التنظيمات القبلية، و أخذ الناس بآرائهم و امتثلوا لأوامرهم و نواهيهم حتى صار هؤلاء الأشراف يشكلون نخبة سياسية و دينية جديدة يحتكم لهم الناس في عظائم أمور دينهم و دنياهم [5].

و الحقيقة أنه ليس من السهل إثبات صدق رواية النسب الشريف التي تنسب إلى هذه العائلات، لأن المسلمين الأوائل اختلطت دماؤهم بالزواج مع البربر، و فضلا عن ذلك فإن الأشراف المنحدرين من هذا الزواج تغيرت نظرتهم جزئيا إلى هذا النسب، و صاروا ينسبون إلى أوطانهم الجديدة

---

[1] Ibid : pp 34-36.

[2] لوسانت فلنزي: المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790-1830 ، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس 1994، ص 50.

[3] سمير عبد الرزاق القطب : أنساب العرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1968 ، ص 6.

[4] محمد ثابت أفندي، زكي إبراهيم خور شيد: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 13، ص ص 266، 267.

[5] ألفريد بيل: الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي إلى اليوم، ترجمة عبد ا لرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1989، ص 422.

لا إلى أوطانهم التي جاء منها أجدادهم، بل أن بعضهم تستر عن نسبه الشريف و فضل أن يعيش حياة العامة من الناس. [1]

2- المكانة العسكرية

كانت العائلات الكبرى تمتلك قوة عسكرية كبرى تضاهي أحيانا القوة العسكرية التي كانت تملكها السلطة المركزية، من ذلك مثلا أن عائلة المقراني بغرب البايلك القسنطيني كانت خلال العهد العثماني تملك جيشا نظاميا قوامه ألف فارس، و كانت لها تنظيمات عسكرية و إدارية محكمة [2]، و أكد حمدان بن عثمان خوجة أن عائلة ابن قانة بالجنوب القسنطيني كان لها جيش قوي و أن شيخ العرب كان بإمكانه أن يستنفر عشرة آلاف فارس عند أول إشارة [3]. و كانت نواة جيشه تتشكل من فرسان البوازيد و أولاد رحمان و قبائل الصحاري و زمالة شيخ العرب[4].

و في بداية العهد العثماني كانت عائلة بوعكاز الذواودة بالجنوب القسنطيني تملك جيشا قويا يصل عدده إلى 10.000 فارس [5]، و كانت هذه العائلات تختار جيشها من القبائل المنضوية تحت قيادتها و سلطتها، و إذا تعذر عليها ذلك، فإنها تستقدم فرسانا غرباء عن هذه القبائل من ذلك مثلا أن عائلة بوعكاز بن عاشور بفرجيوة استقدمت فرسان قبيلة ريغة بضواحي سطيف و اقتطعت لهم أراضي بفرجيوة [6]، كما كانت عائلة ابن جلاب بوادي ريغ تستقدم أتراك «مرتزقة » لتشكل قوات خاصة من الفرسان و الرماة و حملة البنادق ترتكز عليهم للحفاظ على سيطرتها بالمنطقة [7].

[1] عبد الله بن محمد ابن الشارف علي حشلاف: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، 1929، ص 37.

[2] جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 16 م إلى القرن 19م رسالة ماجستير (غير منشورة)، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 1991، ص 151.

[3] Hamdan Khodja : le Miroir. Aperçu historique et statistique sur la régence d’Alger, éditions sindbad, Paris, France, 1985, p 71.

[4] أحمد سيساوي: النظام الاداري لبايلك الشرق 1791-1830م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 1988، ص ص 149، 150.

[5] L.ch.Féraud : op.cit, p 140.

[6] L.ch.Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A, n° 22 Année 1878, p.7.

[7] جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 60.

و نظرا للقوة العسكرية التي كانت تتمتع بها هذه العائلات، فقد أصبحت مهيبة الجانب حيث فرضت النظام على مستوى المناطق التي كانت تحكمها، فالتف حولها السكان، و لجأ إليها الحكام العثمانيون لمساعدتهم على ضرب القبائل الثائرة ضد سلطتهم، كما ساعدوهم في صد الاعتداءات الخارجية.

3- المكانة الاقتصادية و المالية

لم تكن العائلات الكبرى تملك الجاه و النسب و القوة العسكرية فحسب، و إنما كانت أيضا تتمتع بنفوذ مالي كبير و قوة اقتصادية أهلتها لأن تحكم سيطرتها على السكان. وكانت الضرائب التي تفرضها عليهم تشكل إحدى مصادر ثرائها [1]، و كانت عائلة المقراني مثلا في غرب البايلك القسنطيني من أكثر العائلات الكبرى ثراء خلال القرن 18م حيث كانت تملك الأراضي الواسعة و الأموال الطائلة و أعدادا هائلة من الماشية و الخيول[2]، و كانت عائلة ابن قانة أيضا ثرية ثراء كبيرا لدرجة أنه كان من غير الممكن إحصاء ثروتها المالية و تقدير قيمتها الحقيقية [3].

4- المكانة الدينية و الاجتماعية

لعبت العديد من العائلات الكبرى أدوارا دينية و اجتماعية مهمة لفائدة السكان. و قد كانت لعائلة المقراني زاوية يقصدها الطلاب و العلماء و عابرو السبيل لقضاء حوائجهم، و هذا ما أكده الورتيلاني في رحلته [4]. و برزت عائلة ابن قانة أيضا في هذا المجال، حيث كان أعيانها و منهم محمد ابن قانة الذي عاش خلال النصف الثاني من القرن 18م مثالا في الاستقامة و حب العمل الصالح و مساعدة الناس على قضاء حوائجهم و كان أيضا كريما و عادلا، و يحث الناس على فعل الخير و أداء الفرائض الدينية.

[1] فلة القيشاعي: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771-1837م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث (غير منشورة)، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1989-1990 ، ص 156.

[2] Peyssonnel et Desfontaines : Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger, Tome 2, Paris, France, 1838, p 210.

[3] Omar chair : « Les Algériens dits de grande tente », in Historia Magazine, éditions julles Tallandier, Paris, France, n° 203, année 1971, p 310.

[4] الحسن بن محمد الورتيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار ، تصحيح محمد بن أبي شنب، الطبعة 2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974، ص 11.

و لم يكتف بذلك فحسب، بل أنه كان يحج بيت الله الحرام و يصطحب معه عددا كبيرا من الناس لأداء مناسك الحج على نفقته الخاصة، الأمر الذي زاد من المكانة الدينية لعائلته التي ذاع صيتها في كامل الصحراء الجزائرية [1].

و بالموازاة مع ذلك لعبت العائلات الكبرى أدوارا اجتماعية لفائدة السكان خلال فترات الأزمات و أيام المحن، و حافظت على هذا الدور إلى غاية الاحتلال الفرنسي. فخلال الجائحة الكبرى التي عصفت بالجزائر عامي 1867م و 1868م مثلا قامت عائلة المقراني بإسعاف المنكوبين، و عندما نفذت كل مواردها المالية، لجأ زعيمها الباشاغا محمد المقراني إلى الاقتراض من أحد اليهود الأثرياء مما تسبب له و لعائلته في متاعب مالية كثيرة أثرت على علاقته بالفرنسيين.[2]

5- المكانة السياسية

درج المؤرخون على تصنيف سكان الجزائر خلال العهد العثماني إلى عدة قبائل، أما من حيث صلتهم بالحكام العثمانيين فيصنفونهم إلى أربعة مجموعات قبلية رئيسة هي قبائل المخزن و قبائل الرعية و القبائل الممتنعة و القبائل المتحالفة.[3] و كانت الفئة الأولى محل تقدير السلطة العثمانية حيث منحتها امتيازات هامة كالإعفاء الضريبي و حيازة الأراضي و نحوها.[4]

أما الفئة الثانية فكان يمارس عليها الحكم و تتعرض للاستغلال و الضغط [5]، بينما كانت الفئة الثالثة متحصنة في الجبال و المناطق الوعرة و الجنوبية، و لم تكن تعترف بسلطة العثمانيين [6]. أما الفئة الأخيرة فكانت تمثلها العائلات الكبرى التي غالبا ما كانت تعترف بالسلطات العثمانية [7]،

---

[1] Gouvian Marthe et Edmond : kitab Ayane El Maghariba, imprimerie orientale Fontana frères, Alger, 1920, pp 5-6.

[2] Louis Rinn : Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, Paris, France, 1891, pp 50, 51.

[3] ناصر الدين سعيدوني و الشيخ المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ، الجزء الرابع، م.و.ك، الجزائر، 1984، ص 105.

[4] Ernest Mercier : op.cit, p 5.

[5] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص 49.

[6] Mohieddine Djender : Introduction à L'histoire de L'Algérie, ENAL, 2^{e} éditions augmentée, Alger, Algérie, 1991, p 80.

[7] لوسانت فلنزي: المرجع السابق، ص 50.

و قد تمتعت هذه العائلات بنوع من الاستقلال الذاتي في تسيير شؤونها عن السلطة المركزية و حازت بالتالي على مكانة سياسية متميزة [1]، إلى درجة أن بعضها كان يطلق على نفسه لقب«سلطنة » مثل عائلة المقراني التي حازت على مجد سياسي كبير في بداية العهد العثماني، فأطلقت على نفسها لقب «سلطنة » و على شيخها عبد العزيز المقراني لقب «سلطان » [2]. و بفضل هذه المميزات و الخصائص التي تميزت بها هذه العائلات في نظر السكان، فقد نالت الحظوة و المكانة الرفيعة التي لا تحصل لغيرهم من العائلات.

و كما كان أتباع و مريدو المتصوفة و أهل الصلاح يبالغون في تقديس شيوخهم، فقد بالغ الناس أيضا في نظرتهم إلى أعيان هذه العائلات و أحاطوهم بهالة من التقديس و نسجوا حولهم قصصا تخالف العقل. من ذلك مثلا أن العامة من الناس كانت تنظر إلى الحاج سيدي محمد بن قانة أحد أعيان عائلة ابن قانة في منتصف القرن 18م- و الذي قتل إلى جانب الجيش العثماني في إحدى المعارك التي خاضها ضد قبيلة فليسة الثائرة عام 1768م- بأنه لا يقتل و لا يلحقه أذى في المعارك لأن له كرامات كثيرة و محاط بعناية إلهية ! [3] و هي النظرة نفسها التي نظرتها إلى فرحات بن السعيد آخر شيوخ العرب من عائلة بوعكاز الذواودة و الذي عاصر نهاية العهد العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي، حيث قالت عنه أنه أشبه بالقادة المسلمين الأوائل البواسل، و أن جسده لا يخترقه الرصاص في المعارك لأنه كان محاطا بعناية أحد مرابطي جرجرة الذي زوده بطلاسم تحميه من الرصاص و تمنع اختراق جسمه ! [4] و الحقيقة أن هذه النظرة المغالية التي خصت بها العامة أعيان العائلات الكبرى تترجم أيضا مكانة هذه العائلات و هيبتها في نظر السكان.

III- أبرز العائلات القسنطينية الكبرى

بعدما احتل الفرنسيون الجزائر عام 1830م، اتجهت أنظارهم مباشرة إلى بايلك الشرق لما ينطوي عليه من أهمية استثنائية، و هذا ما أكده « الدوق دي روفيغو » « Le Duc de Rovigo » حينما قدر أن

---

[1] Mouloud Gaid : Chronique des beys de Constantine, O.P.U Alger, Algérie, 1974, p 4

[2] جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 46.

[3] Gouvian Marthe et Edmond : op.cit, p 6

[4] Commandant Seroka : « Le sud Constantinois de 1830 à 1855 », in R.A n° 56, Année 1912, pp 381, 382.

إدارة بلاده لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تبسط هيمنتها على القطر الجزائري دون احتلال شرقه و بالأساس عاصمته مدينة قسنطينة [1]. و لما كانت أرياف هذا البايلك في ذلك الحين تحكمها عائلات كبرى، فقد حاول الفرنسيون نسج علاقات استراتيجية معهم حتى يساعدوهم على إحكام قبضتهم عليه، فما هي هذه العائلات التي ارتبطت بعلاقات قوية بالفرنسيين؟

نظرا لكثرة عدد العائلات الكبرى التي ارتبطت بالفرنسيين منذ بداية الاحتلال، فقد عسر علينا دراستها و رصد و تتبع علاقة الفرنسيين بها.لذلك فإن كل محاولة تهدف إلى دراسة هذه العائلات ستكون بالضرورة انتقائية ، و عليه فإن العائلات التي نحاول دراستها هي تلك التي كانت أكثر نفوذا و تأثيرا، و لعبت دورا سياسيا مؤثرا في المنطقة خلال القرن 19م، و التي ارتبط معظمها بالإدارة الاستعمارية بمقتضى مرسوم الماريشال « فالي » « Valée » الصادر في 1838/09/30م سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، و نعني بذلك : عائلة المقراني، و عائلة بوعكاز بن عاشور، و عائلة أولاد عز الدين، و عائلة الرزقي، و عائلة بوعكاز الذواودة، و عائلة ابن قانة، و عائـــلة ابن جلاب.

1- عائلة المقراني

ذكر ابن خلدون أن عائلة المقراني شريفة النسب حيث يعود أصلها إل نسب الرسول – صلى الله عليه و سلم – عن طريق فاطمة الزهراء، و أن أفرادها استوطنوا بجبال قلعة بني حماد خلال القرن 11م [2].
و في بداية العهد العثماني شكل المقرانيون قيادة شاسعة امتدت في الجهة الغربية من البايلك القسنطيني من جبال البابور شمالا إلى إقليم الزاب جنوبا. [3]

أما الرحالة الورتيلاني، فقد قال بأنها كانت أوسع من ذلك بكثير حيث امتدت إلى تونس و وادي ريغ، كما بلغت إقليم ميزاب و الأغواط جنوبا[4].

[1] Gabriel Esquer : Correspondance du Duc de Rovigo (1831-1833), Tome II, Ancienne Maison Bastide-jourdan, Alger, 1920, p 323.

[2] عبد الرحمان ابن خلدون: كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد السادس، القسم الأول، الكتاب الثالث، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1969، ص ص 52،53.

[3] جميلة معاشي: المرجع السابق، ص ص 147، 148.

[4] الحسين بن محمد الورتيلاني: المصدر السابق، ص 8.

و كان شيوخ عائلة المقراني خلال ذلك العهد يسيطرون على الطريق السلطاني الرابط بين عاصمة البايلك و عاصمة الأيالة، و الذي يشتهر بممر إستراتيجي يعرف بممر " أبواب الحديد". و استغلوا سيطرتهم على هذا المضيق ليفرضوا ضريبة عينية و نقدية يدفعها العثمانيون لقاء مرورهم آمنين عبره تعرف بضريبة المرور، و استمر إذعانهم لهذا الإجراء حتى بداية الاحتلال الفرنسي. [1]

2- عائلة بوعكاز بن عاشور

ذكر « فيرو » « Féraud » أن هناك عدة روايات قيلت في شأن أصل هذه العائلة، غير أنه يميل إلى الرواية التي تعيد أصلها إلى عائلة كانت مستقرة بضواحي وادي زناتي، ثم نزحت إلى إقليم فرجيوة خلال القرن 17م و فرضت نفسها كقوة مؤثرة ببايلك قسنطينة.[2] و كان الشيخ أحمد بوعكاز الذي عاصر الفترتين العثمانية و الفرنسية من أبرز زعمائها و له من الصرامة و قوة الشكيمة ما جعله يفرض هيبته على القبائل المنضوية تحت إمرته [3].

3- عائلة أولاد عز الدين

تعود هذه العائلة إلى أصول بربرية إلا أنها انصهرت تدريجيا مع العنصر العربي فتعربت[4]. و قد تحدث « فيرو » عن هذه العائلة و المناطق الجبلية التي كانت تسكنها، كما تحدث عن سكان هذه الجبال الآخرين و قال بأنهم كانوا من شذاذ الآفاق، ذوي طباع خشنة و يمارسون اللصوصية، و يعتصمون بالجبال و يعتمدون على حياة الإغارة و السلب، و يفرضون ضريبة على التجار الذين يعبرون طرقهم للوصول إلى مدينة قسنطينة. و لم يكن الشيخ ناصر زعيم عائلة أولاد عز الدين سوى أحد هؤلاء السكان« شبه المتوحشين » و أن الحكام العثمانيين عندما اعترفوا به كشيخ على منطقة الزواغة كان هدفهم المركزي هو القضاء على ظاهرة اللصوصية التي استشرت في هذه المنطقة، و قد تمكن هذا الشيخ من فرض النظام و الأمن. و عندما توفي خلفه نجله الأكبر محمد على رأس قيادة هذه العائلة التي ضمت في عهده قبائل زواغة و قبائل أخرى.[5]و الحقيقة أن اتهام هذا الضابط لسكان هذه المناطق الجبلية بتلك الصفات غير الحميدة

---
[1] فلة القيشاعي: المرجع السابق، ص 130.

[2] L.ch.Féraud : op.cit, p 6.
[3] Ibid : p 97
[4] Ibid : p 42
[5] Ibid : pp 242-245

يجوز فيه النظر لأن هدفه من وراء ذلك هو محاولة تبرير الاستعمار الفرنسي الذي سيعمل على تنظيم المنطقة و يفرض النظام فيها.

4- عائلة الرزقي

إن الحديث عن عائلة الرزقي مرادف للحديث عن قبيلة الحنانشة التي كانت تبسط حكمها على الجهات الحدودية الشرقية للجزائر خلال العهد العثماني [1] ، و قد تحالفت معها العديد من القبائل مثل قبيلة النمامشة في منطقة سوق أهراس، و مرداس في بني صالح بضواحي قالمة، و دريد و أولاد يحي بنواحي تبسة[2]. و ازداد بأس هذه القبيلة حينما انتصرت للطريقة الشابية * التي شكلت معها حلفا سياسيا و دينيا قويا على الحدود الشرقية كان له امتدادا كبيرا في العمق التونسي، [3] و هذا ما يفسر معاناة هذه القبيلة من الولاء المزدوج بين السلطة السياسية التونسية و حكام البايلك القسنطيني. [4]

و في نهاية العهد العثماني وصلت قبيلة الحنانشة إلى درجة متقدمة من الضعف و الانحطاط، و من مظاهر ذلك أن فترة حكم شيوخها كانت قصيرة و عادة ما كانت تنتهي بالقتل أو السجن. و أمام هذا الضعف، فإن الزعامة الفعلية لمشيخة الحنانشة كانت قد سلبت من شيوخها الحقيقيين، و أسندت تدريجيا

[1] الحاج أحمد بن المبارك بن العطار: تاريخ حاضرة قسنطينة، تحقيق رابح بونار، دون طبعة، دون ناشر، ص 56.

[2] لطفي عيسى: مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن السابع عشر، دار سراس للنشر، تونس، 1994، ص 40

* الطريقة الشابية طريقة صوفية ناصرية شاذلية، تنسب إلى مؤسسها أحمد بن مخلوف الشابي (835 هـ – 898 هـ/ 1431م – 1492م) أحد أقطاب التصوف في الفترة الحفصية. و لم تكن هذه الطريقة مؤسسة دينية صرفة، و إنما كانت أيضا تحمل مشروعا سياسيا، حيث ثارت ضد الحفصيين، ثم العثمانيين ، و تصدت بقوة للإنزال الاسباني على جربة عام 1510م في وقت غابت فيه السلطة المركزية و استسلمت البلاد للفوضى و الفتن. و للشابية في ذلك الحين أتباع و مقدمون في تونس و الجزائر و بالأساس في مناطق الجريد و عنابة و تبسة و سوف و خنشلة و الخنقة.

لمزيد من التفاصيل حول الطريقة الشابية ينظر:

أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص ص 275-277.

[3] L.ch. Féraud : « Les Harar seigneurs des Hanancha. Etudes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 30.

[4] محمد بن محمد بن عمر العدواني: تاريخ العدواني، تقديم و تعليق أبو القاسم سعد الله ، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2007، ص 211

إلى كتاب و وزراء هذه القبيلة. و قد سيطرت على وزارة و كتابة هذه القبيلة في أواخر العهد العثماني و بداية الحكم الاستعماري عائلتان كبيرتان هما عائلة الرزقي و عائلة أحمد بن علي و كان زعيم العائلة الأولى حينئذ هو الرزقي بن منصور، بينما كان زعيم العائلة الثانية هو الشيخ الحسناوي.[1]

و على هذا الأساس يمكن القول أن عائلة الرزقي لم تبرز على المسرح السياسي إلا خلال القرن 19م من خلال مساهمتها في صنع أحداث المناطق الحدودية الشرقية للجزائر خلال تلك الفترة.

5- عائلة بوعكاز الذواودة

ترجع أصول عائلة بوعكاز الذواودة إلى قبائل بني هلال العربية [2]، و تحديدا إلى قبائل أولاد داود بن مرداس بن رياح الذين نزحوا إلى المغرب الأوسط خلال القرن الخامس الهجري (11م)[3]. و قبل مجيء العثمانيين كانت هذه العائلة تتمتع بحكم محلي و غالبا ما كانت علاقتها غير ودية مع ملوك الامارات الإسلامية المجاورة الذين لجئوا إلى مهادنتها[4]، و كانت قيادة هذه العائلة في بداية الحكم العثماني تمسح معظم مناطق الجنوب القسنطيني، و خاصة مناطق الزيبان و أولاد جلال، و جنوب غرب الأوراس و مناطق شمال وادي ريغ[5]. و كانت تحوز على لقب " إمارة العرب " و هو اللقب الذي ثبته العثمانيون لهذه العائلة مع تحوير بسيط في الاسم ليصبح " شيخ العرب"[6]. و كان ذلك عام 1541م حينما استدعي علي بوعكاز الصخري من قبل باي قسنطينة لتقلد هذا المنصب.[7]

و كانت المهمة المركزية لشيخ العرب تنصرف إلى المحافظة على الأمن و جباية الضرائب و تأديب القبائل الثائرة، و تأمين القوافل التجارية و المشاركة في صد الغزوات الخارجية إلى جانب الجيش

(1) L.ch.Féraud : op.cit, pp 360-365.

(2) Capitaine L. Lehuraux : Le nomadisme et la colonisation dans les haux plateaux de L'Algérie, Editions du C.A.F, Paris France, 1931, p 24.

(3) عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، المطبعة العربية، الجزائر، 1955، ص 281.

(4) عبد الله شريط و محمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، طبع و نشر مكتبة البعث، الطبعة الأولى ، قسنطينة، الجزائر، 1965، ص 97.

(5) محمد أوجرتني: أسرة ابن قانة و مكانتها السياسية و الاجتماعية خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر (غير منشورة)، جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2005، ص 75.

(6) L.ch.Féraud : « Les Descendants d'un personnage des milles et une nuit en Algérie », in RA n° 19, Année 1875, p 233.

(7) محمد خير الدين مذكرات ، الجزء الأول، م.و.ك، الجزائر، د.ت، ص ص 42، 43.

العثماني.[1] و قد اعتلى هذا المنصب خلال العهد العثماني ثلاث عشرة شيخا كان آخرهم فرحات بن السعيد [2]، هذه الشخصية المثيرة للجدل، و التي عاصرت نهاية الحكم العثماني و بداية الحكم الاستعماري الفرنسي.

6- عائلة ابن قانة

يذكر آغا الزيبان بوعزيز بن قانة أن عائلته شريفة النسب تنتهي إلى الإمام علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- و زوجته فاطمة ابنة الرسول - عليه الصلاة و السلام -[3]. و كانت قيادتها خلال العهد العثماني تشمل منطقة الزيبان بأقسامها المختلفة، و امتدت إلى أبعد من ذلك حيث وصلت إلى ورقلة و تقرت، و اعترف العثمانيون بها كقيادة مستقلة بذاتها[4]. و اسندوا لها منصب « شيخ العرب » بعدما نزعوه من عائلة بوعكاز الذواودة عام 1762م إثر نجاح زعيمها محمد بن سليمان بن قانة في قيادة إمارة ركب الحج * إلى مكة المكرمة [5]. و منذ ذلك الوقت بقيت مشيخة العرب بيد هذه العائلة إلى غاية نهاية الحكم العثماني، و كان بوعزيز بن قانة آخر شيوخ العرب الذي عاصر هو الآخر الحكم العثماني و الحكم الاستعماري و خدم الادارة الفرنسية.

(1) محمد أوجرتني: المرجع السابق، ص ص 76-78.

(2) جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 27.

(3) Bouaziz Bengana (le cheik el arab) : Une famille de Grands Chefs Sahariens : Les Bengana, Éditions Soubiran, Alger, 1930, p 22.

(4) Gauvian et Marthe Edmond: op.cit, p 16.

* تعد إمارة ركب الحج من أهم قوافل الحج في العهد العثماني، و قد أولاها الحكام العثمانيون عناية استثنائية لكونها تمثل الجسر الرابط بين مركز الحكم في الدولة العثمانية و البقاع المقدسة. و قد درجت العادة أن تسند رئاسة هذه القافلة في بلاد المغرب إلى بعض العائلات الدينية و التي تتحمل مسؤولية رئاسة هذه القافلة خاصة و أنها كانت تتهددها العديد من المخاطر كمشكلة المياه، و تهديد القبائل العربية على الطريق الصحراوي و نحوها. و لتفادي ذلك اتخذت السلطات العثمانية جملة من التدابير الاحترازية أبرزها دفع مبلغ مالي للأعراب و قطاع الطرق لتلافي خطرهم، و هذا الإجراء يصطلح على تسميته بـ « ضريبة الصرة »، كما زودت قوافل الحج بكميات معتبرة من المياه تحمل في قراب جلدية على ظهور الإبل.

حول ذلك ينظر:

جميلة معاشي: « أهمية رحلة الحج في السياسة العثمانية »، الهجرة و الرحلة، مجلة علمية يصدرها مخبر الأبحاث الاجتماعية و التاريخية حول حركات الهجرة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، العدد الأول، سنة 2005، ص ص 41-61.

(5) Bouaziz Bengana : op.cit, p 20

7- عائلة ابن جلاب:

ذهب الرحالة العياشي إلى الاعتقاد أن أصول هذه العائلة تعود إلى المرينيين الذين حكموا المغرب الأقصى، ثم بسطوا سلطانهم على الجزائر في بداية القرن 14م[1]، و هو الرأي الذي يأخذ به جمهور المؤرخين مثل المؤرخ التونسي حمودة عبد العزيز[2]، و كذلك العدواني[3]، و يلقب حكام هذه العائلة « بالسلاطين» ، و هو اللقب الذي تطلقه عليهم الرعية، غير أن سلاطينهم كانوا يستعملون لقب « الشيخ» في مختلف مراسلاتهم[4].

و تمكن سلاطين بن جلاب من تأسيس إمارة مستقلة، و رفضوا الاعتراف بالحكم العثماني إلا شكليا [5] ، و بسطوا سلطانهم على إقليم وادي ريغ الذي دان لهم بالاحترام و التبعية، [6] كما امتد سلطانهم أيضا إلى نواحي الجريد[7]، و وصف محمد الوزان الذي زار إمارتهم في بداية القرن 16م أحد أمرائها بالقول : «.... و لهذا الأمير حرس قوي من الفرسان و رماة القذائف و البنادق الأتراك... و هو شاب شهم كريم اسمه عبد الله...» [8].

و دخل سلاطين تقرت في علاقة صراع مع الزاوية التيجانية التي كانوا يحقدون عليها لأنها حجبت شهرتهم [9]، ضف إلى ذلك انتماؤهم إلى طريقة دينية أخرى هي الطريقة الطيبية[10]،

---

(1) العياشي أبو سالم عبد الله: ماء الموائد، المشهورة برحلة العياشي، الطبعة الأولى الجزء الأول، فاس، المغرب الأقصى 1316هـ-1898م، ص 50.

(2) L.ch.Féraud : « les Bendjellab Sultans de Touggourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 23, Année 1879, p 167.

(3) محمد بن محمد بن عمر العدواني: المصدر السابق، ص 139.

(4) معاد عمراني: أسرة بن جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر و العشرون، دراسة سياسية و اجتماعية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، (غير منشورة)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002، ص ص 35، 36.

(5) جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 57.

(6) Mahfoud Kaddache : L'Algérie, Médiévale, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1982, p 182.

(7) أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 139.

(8) الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، الطبعة ا لثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1983، ص 136.

(9) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 223.

(10) هاينريش فون مالتسان: ثلاثة سنوات في شمال غربي إفريقيا، الجزء الثالث، ترجمة أبو العيد دودو، ش.و.ت، الجزائر، 1980، ص ص 176، 177.

و قد استمر صراعهم مع هذه الطريقة طيلة العهد العثماني، حيث نشبت بينهما معارك طاحنة بالغ العقيد « إ. دو نوفو» « E.de Neveu » العليم بالجماعات الدينية في وصف إحداها، حيث تحدث عن معركة دارت بين سيدي الحاج علي التيجاني و أحد شيوخ ابن جلاب قائلا: «... عند وصول أهالي تقرت إلى جنائن المدينة، و ببركة الحاج علي راحت أشجار النخيل تطلق النار و تبعث الرصاص بكثافة ضد الجنود الأعداء، و هكذا أرغم ابن جلاب على الهروب فزعا تاركا وراءه على أرض المعركة عددا كبيرا من القتلى...» [1]

و بهذا يتراءى لنا أن مقاطعة قسنطينة بأهميتها الطبيعية و البشرية و الاقتصادية تميزت بظهور عائلات كبرى فرضت نفسها كواقع تاريخي خلال الفترة الحديثة و المعاصرة، و ذلك بفضل تقاليد الولاء و الاحترام التي يكنها السكان لهم. و قد حازت هذه العائلات على المكانة الرفيعة في المجتمع الريفي انطلاقا من منبتها الشريف سواء كان حقيقيا و ثابتا بالرواية و التواتر، أو مفترضا و ناجما عن ادعاء زائف، أو بسبب الأدوار الدينية و الاجتماعية التي كانت تقوم بها لصالحهم، أو نتيجة لنفوذها الاقتصادي و المالي و قوتها العسكرية و علاقتها القوية و الوطيدة بالسلطة المركزية.

و الثابت أن الفرنسيين بعد احتلالهم للجزائر عام 1830م، كانوا قد درسوا و خبروا جيدا هذه المعطيات الاجتماعية، و لاحظوا أن العثمانيين قبلهم استعانوا كثيرا بهذه العائلات لفرض وجودهم، لذلك لجئوا بدورهم إلى هذه الفئة ليتوسطوا بها في حكم هذه المقاطعة، و توظيفهم في مشروعهم الاستعماري، لما لهم من نفوذ أدبي و سيطرة فعلية على السكان.

---

[1] إدوارد دو نوفو: الإخوان، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة و تحقيق كمال فيلالي، شركة دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 81.

الفصل الأول: علاقة العائلات الكبرى بالإدارة العثمانية و مواقفها من الاحتلال الفرنسي

I– علاقة الإدارة العثمانية بالعائلات الكبرى

1– انضواء قسنطينة تحت الحكم العثماني

2–بداية علاقة الحكام العثمانيين بالعائلات الكبرى و طبيعتها:

أ– بداية العلاقة.

ب– طبيعة العلاقة.

أولا:علاقة متأرجحة بين السلم والحرب

ثانيا: علاقة المصاهرة

3– علاقة الحاج أحمد باي بالعائلات الكبرى

II- موقف العائلات الكبرى من الاحتلال الفرنسي

1– موقف العائلات الكبرى من احتلال الجزائر العاصمة عام 1830م

أ– الموقف المناهض للمستعمر

ب– الموقف المتعاون مع المستعمر

2– موقف العائلات الكبرى من احتلال مدينة قسنطينة عام 1837م

أ– الموقف المناهض للمستعمر

ب–الموقف المتعاون مع المستعمر

الفصل الأول: علاقة العائلات الكبرى بالإدارة العثمانية و مواقفها من الاحتلال الفرنسي

لا يمكن فهم مواقف العائلات الكبرى بمقاطعة قسنطينة من الاحتلال الفرنسي، و تتبع علاقتها لاحقا بالإدارة الاستعمارية خلال الفترة الممتدة من عام 1837م إلى عام 1871م، إلا إذا تتبعنا منهجيا علاقة هذه العائلات بالإدارة العثمانية، لأن علاقة الفرنسيين بهذه العائلات في بداية الاحتلال كانت متأثرة كثيرا بعلاقة العثمانيين بهم، بل قلدتها في جوانب عديدة، و ذلك انطلاقا من مبدأ المحافظة على الوضع الراهن الذي تبناه الفرنسيون في بداية الاحتلال.

و على هذا الأساس، سنفتتح الكلام في هذا الفصل بالحديث عن علاقة العثمانيين بالعائلات الكبرى، و يقتضي ذلك توضيح ظروف انضواء قسنطينة تحت الحكم العثماني، ثم بيان بداية هذه العلاقة و طبيعتها، ثم توضيح علاقة الحاج أحمد باي بهذه العائلات. و بعد ذلك نبين موقف العائلات الكبرى من الاحتلال الفرنسي، و فيه نحاول تسليط الضوء على موقفهم من الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، ثم موقفهم من احتلال مدينة قسنطينة عام 1837م.

I- علاقة الإدارة العثمانية بالعائلات الكبرى

حاول الحكام العثمانيون ربط علاقاتهم بالعائلات القسنطينية الكبرى منذ بداية اتصالهم بالجزائر لكي يسهلوا لهم مهمة السيطرة على أرياف قسنطينة، و التحكم في سكانها من منطلق أن هذه العائلات كانت تحكم سيطرتها على هذه المناطق. و في ما يلي نحاول تسليط الضوء على بداية اتصال هؤلاء الحكام بالعائلات الكبرى، بعد ذلك نبين طبيعة العلاقة التي جمعت بين الطرفين.

و قبل التعرض إلى ذلك بالدراسة، يجدر بنا ابتداء التعرف على ظروف انضواء مقاطعة قسنطينة تحت الحكم العثماني.

1- انضواء قسنطينة تحت الحكم العثماني

عندما بسط العثمانيون سيطرتهم على مدينة قسنطينة و إقليمها، كان قد مضى على حكمهم للجزائر العاصمة ردحا معتبرا من الزمن. و الواقع أن موضوع إلحاق قسنطينة وإقليمها بالعثمانيين، لا يمكن فصله عن ظروف إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية، لذا نرى من الجائز تسليط الضوء و لو بصورة موجزة عن هذا الجانب و بالقدر الذي ينعكس على إقليم قسنطينة.

لقد ارتبط الوجود العثماني في الجزائر بوهن الكيانات السياسية الحاكمة في المغرب الإسلامي الذي تزامن مع سقوط غرناطة عام 1492م، آخر معاقل المسلمين بالأندلس و كذا حروب الاسترجاع "الروكنكيستا" التي نسجت خيوطها الملكة "اليزابيت"، و سهر على تنفيذها "فرديناند الكاثوليكي" الذي أقنعه أحد جواسيسه بأن « العناية الإلهية شاءت أن تمنح هذه البلاد إلى جلالة الملك » .[1] و في خضم هذه التطورات تمكنت إسبانيا المسيحية من احتلال بعض الثغور و المدن الساحلية الجزائرية .و يتعلق الأمر بالمرسى الكبير عام 1505م و وهران عام 1509م و بجاية عام 1510م،[2] كما نسجت علاقات ودية مع بعض زعماء الأهالي بالغرب الجزائري و قدمت لهم بعض الهدايا الثمينة و خلعت عليهم برنوس التولية.[3]

و قد تزامنت هذه الأحداث مع ظهور عروج رفقة إخوته خير الدين بربروس، إسحاق و إلياس الذين سيطروا على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط و زرعوا الرعب في قلوب المسيحيين و ربان السفن و المراكب البحرية.[4] و لعب خير الدين دورا متميزا في إنقاذ مسلمي الأندلس الذين كانوا حينها مهددين بالموت أو التنصير،[5] و لم يتردد سكان بجاية من الاستنجاد بعروج عام 1512م، فخاض معركة ضد الاسبان، ثم انتقل إلى تونس، حيث تعرض إلى مضايقة السلطاني الحفصي، فعاد إلى مدينة جيجل التي حررها من الجنويين الذين كانوا يسيطرون عليها[6] . و في عام 1516م استنجد به كذلك سكان مدينة الجزائر لإعانتهم على طرد الإسبان[7]. و كان سكان هذه المدينة ينظرون إليه بمثابة المخلص لهم من نير المسحيين ففرحوا بقدومه، و رغم المجهودات التي بذلها إلا أنه لم يتمكن من استرجاع حصن البنيون الذي كان تحت سيطرة الإسبان.[8]

---

(1) Charles-André Julien : op. cit, p p 251 , 252.

(2) Moulay Belhamissi : Les captifs algériens et l'Europe chrétienne, (1518- 1830), E.NA.L, Alger, Algérie, 1988, p 15.

(3) Jean Cazenave : « Les Gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville » in, R.A n°= 71, année 1930, p 277.

(4) H-D. de Grammont : « Le nom de Barberousse dérive- t- il de baba – aroudj » ? in, R.A n°= 29, année 1885, p 226.

(5) مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830م، الجزء الأول، دار البعث للطباعة و النشر، الطبعة الأولى، قسنطينة، الجزائر، 1985، ص 58.

(6) صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514م- 1830م، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2004 ص ص 44، 45.

(7) Moulay Belhamissi : Alger la ville aux mille Canons, E.NA.L, Alger, Algérie, 1990, p 13.

(8) عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، المدية، مليانة بمناسبة عيدها الألفي، مطبعة صاري بدر الدين و أبنائه الابيار، الجزائر، 1972، ص 114.

و إذا كان عموم السكان قد رضوا بقدومه، فإن هناك من رفض ذلك، و تزعم هذه الجبهة شيخ المدينة سالم التومي، و لما شاعت أخبار هذه المعارضة سارع عروج إلى تصفيته و القضاء عليه.[1] و بعدها اتجهت أنظاره إلى تلمسان في أقصى الغرب الجزائري، و هي منطقة كانت هي الأخرى تعاني من سيطرة الإسبان المتحالفين مع بعض القوى المحلية،[2] و نعني بذلك السلطان أبي حمو الزياني الذي تحالف معهم و سهل عليهم عملية الغزو.و قد تصدى له عروج و قضى عليه و تمكن في نهاية المطاف من تحرير مدينة تنس. [3]

و بعدها سار إلى مدينة تلمسان، و استقر بها لمدة ناهزت سنة كاملة، نازل فيها أعدائه المتخاذلين و المتحالفين مع الإسبان و أثخن فيهم حتى أذعنوا له، غير أنه قتل في إحدى المعارك عام 1518م من قبل الإسبان الذين قتلوا أخاه إسحاق كذلك في قلعة بني راشد.[4] و في تلك الأثناء كان خير الدين قد اتخذ قرارا مصيريا يتمثل في رغبته الارتباط بالدولة العثمانية حيث راسل سلطانها باسطنبول سليم الأول ملتمسا منه الحماية .و في 1519/05/15م تلقى خير الدين فرمان التولية،[5] و على إثر ذلك قسم القطر الجزائري إلى قسم شرقي و قسم غربي و وضع على رأس القسم الأول أحمد بلقاضي الغبريني سلطان مملكة كوكو بالقبائل [6] .

و سرعان ما نشب الخلاف بين هذا الأخير و خير الدين، فاضطر على إثر ذلك إلى العودة إلى جيجل التي اتخذها مرة أخرى كقاعدة لعملياته الحربية خلال الفترة الممتدة مابين عامي 1520م و 1525م.[7] و الظاهر أن خير الدين فضل الانسحاب إلى هذه المنطقة حتى يتلافى مواجهة غريمه

---

[1] Godfrey Fisher :Légende barbaresque : Guerre, Commerce et piraterie en Afrique du nord de 1415à 1830, traduit et annoté par Farida Hellal O.P.U, Alger,Algérie, 2000, p 86.

[2] Moulay Belhamissi : Histoire de Mostaganem (des origines à l'occupation française) centre national des études historiques, Alger, Algérie, 1976, p 65.

[3] أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492– 1792، ش.و.ن.ث، الجزائر، 1976، ص ص 184، 185.

[4] Arnaud : « Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohammed Abou ras ben Ahmed Ben Abdel –Kader en- Nasri : Histoire de l'Afrique septentrionale », in R.A n°= 25 année 1881, p p 470, 471.

[5] Corinne chevalier : Les trente premières années de l'état d'Alger 1510- 1541, O.P.U,Alger Algérie, 1988, p 40.

[6] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 211.

[7] Godfrey Fisher: op. cit, p 93.

أحمد بلقاضي لأن العثمانيين كانوا يتفادون الاصطدام مع هذه الإمارة بسبب مناعتها الطبيعية حيث كانت تقع في قلب جرجرة المعروفة بتضاريسها الوعرة، [1] و بعدها سيطر خير الدين على مدينة القل عام 1521م، و مدينة عنابة عام 1522م.[2]

و في خضم هذه التطورات كان إقليم قسنطينة يشكل امتدادا جغرافيا لسيادة الدولة الحفصية التي كان مقر حكمها بتونس، و بالتالي فإن و لاتها مثل ولاة بجاية و عنابة كانوا يعينون من طرف الأمراء الحفصيين . فالإقليم كان يتأثر سياسيا بما كان يجري في مركز السلطة بتونس، و كان الحكام العثمانيون يتوجسون خيفة من الأمير الحفصي و لا يطمئنون إليه لأنه كان يتآمر ضدهم و يتحالف مع أعدائهم الإسبان المسحيين في سبيل المحافظة على عرشه، فكانوا يتدخلون و يبعدونه عن العرش. وإلى جانب ذلك هناك القبائل كطرف ثالث فاعل في الإقليم كان يساهم في صنع المشهد السياسي حيث يبرز دورها كلما ضعفت السلطة المركزية الحفصية .

وفي تلك الاثناء كان العثمانيون متحمسين لضم الإقليم لأنه كان يشكل حدهم الدفاعي من الجهة الشرقية ضد الأطماع الإسبانية.[3] وحتى يتمكن العثمانيون من إحكام قبضتهم عليه ، كان عليهم السيطرة على مدينة قسنطينة.فمتى تمكن العثمانيون من طرق أبواب هذه المدينة؟ وكيف كان موقف سكانها منهم؟

ثار الجدل بين المؤرخين والدارسين حول تاريخ استقرار العثمانيين بمدينة قسنطينة.فقد ذكر الراهب الإسباني"هايدو" "Häedo " الذي كان أسيرا بالجزائر خلال القرن 16م أن انضواء هذه المدينة تحت الحكم العثماني كان عام 1520م، وهي السنة التي تمكن فيها خير الدين بربروس من احتلال ميناء القل الذي كان يمثل القلب النابض للحياة التجارية لمدينة قسنطينة. [4]

أما محمد الصالح العنتري الذي اعتمد على ما رواه له « الراسخون في الأعمار المسنون »

---

[1] Tahar Oussedik : Le Royaume de koukou, E.NA.L, Alger, Algérie, 1986, p 22.

[2] Jean Monlau : Les états Barbaresques, P.U.F, 1ere édition, Paris, France, 1964. p 59.

[3] أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الاسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1986، ص ص 11– 13.

[4] جميلة معاشي: الاسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق، المرجع السابق، ص 93.

فيذكر أن العثمانيين وصلوا المدينة بعدما تملكوا مدينة الجزائر "برهة من الزمن" عام ألف وخمسين هجري الموافق لعام 1540م وقد كانت وقتها خاضعة لحكم الحفصيين بتونس. [1]

غير أن هناك من نازع روايته واعترض على السنة التي رجح فيها دخول العثمانيين مدينة قسنطينة.ويتعلق الأمر بأحمد الأنبيري صاحب كتاب « علاج السفينة في بحر قسنطينة » حيث قال أن « ما ادعاه ابن العنتري في كتابه أن دخول الترك في قسنطينة في سنة 1052هـ فهو غلط » . وقد ذكر في موضع آخر أن التاريخ الصحيح هو 935هـ الموافق لعام 1526م. [2]

أما " مرسيي " " Mercier " فيقول بأن العثمانيين لم يتمكنوا من بسط هيمنتهم على مدينة قسنطينة إلا سنة 1534م، ولم يتوصلوا إلى ذلك إلا بعد محاولات عديدة،[3] في حين يذكر محمد المهدي بن علي شغيب، بناء على مارواه المؤرخون أن المدينة كانت تشكل حلبة صراع بين الحفصيين والعثمانيين الذين تصارعوا على بسط سيادتهم و تداولوا الحكم عليها، غير أنها استقرت بين أيادي العثمانيين الذين استرجعوها عنوة عام 1566م.[4] أما عبد الرحمان الجيلالي، فيرى أن العثمانيين رسخت أقدامهم بالمدينة بصفة نهائية عام 1555م رغم أنه كانت لهم موطئ قدم بها منذ فترة سابقة تعود إلى سنة 1535م. [5]

و توصلت الباحثة جميلة معاشي بعد عرضها لمختلف الروايات التي قيلت في هذا الشأن إلى أن دخول العثمانيين المدينة لا يمكن أن نربطه بتاريخ محدد لأنه كان على مراحل متعددة،[6] كما استنتجت الباحثة فاطمة الزهراء قشي أنه أمام تضارب الآراء حول مسألة انتقال قسنطينة من التبعية الحفصية إلى التبعية العثمانية فإنه من الصعوبة بمكان الاطمئنان إلى مختلف الروايات.[7]

---

(1) محمد الصالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، و استلائهم على أوطانها- تاريخ قسنطينة- مراجعة و تقديم و تعليق يحيى بوعزيز، دار هومة للطباعة و النشر و التوريع، ص ص 57- 60.

(2) أبو القاسم سعد الله: «كتاب علاج السفينة في بحر قسنطينة»، مجلة كلية الأداب، جامعة الجزائر، العدد2، السنة 1970 ص 5.

(3) Ernest Mercier : Histoire de Constantine, Constantine, 1903, p 193.

(4) محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر -تاريخ مدينة قسنطينة- مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر 1980، ص 152.

(5) عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، المطبعة العربية، الجزائر، 1955، ص 335.

(6) جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 96.

(7) فاطمة الزهراء قشي:قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، الجزائر، 2005، ص 35.

ومهما يكن من اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ استقرار العثمانيين بمدينة قسنطينة، إلا أنه من الجائز ترجيح التاريخ الذي ذكره أحمد الأنبيري وهو عام 1526م لأنه قد عمل مترجما لدى سلطات الاحتلال الفرنسي بقسنطينة وكان على اطلاع واسع بالوثائق العربية قبل أن تطالها أيادي الفرنسيين العابثة، كما أن نقده لرواية العنتري كانت مؤسسة على الوثائق القضائية التي عثر عليها وقد ذكر بعض من أسماء القضاة أصحاب هذه الوثائق .

أما بالنسبة لموقف سكان مدينة قسنطينة من دخول العثمانيين مدينتهم، فقد انقسموا إلى فريقين : فريق كان مواليا لهم، وفريق فضل البقاء على طاعة الأمراء الحفصيين . وكان على رأس الفريق الأول المفتي عبد الكريم بن الفقون ممثل عائلة الفقون الذائعة الصيت بالمدينة وأحوازها .أما الفريق الذي انتصر للحفصيين، فكان يترأسه المفتي ابن عبد المؤمن الذي ينتسب إلى عائلة ابن المؤمن الشهيرة بالمدينة.[1] وقد ساند آل الفقون العثمانيين لأنهم نظروا إليهم بمثابة الحامين لهم من أطماع النصارى الذين كانوا يسيطرون على بعض الموانئ الجزائرية والتونسية والتي عجز الحفصيون على التصدي لهم، بل أن البعض منهم خذلهم وتخلى عنهم وتعاون مع النصارى، وأكثر من ذلك فإنهم نظروا إلى الدولة العثمانية على أنها تمثل هيبة الإسلام وبالتالي فمن واجب المسلمين طاعتها والانضواء تحت رايتها.[2] ومن هذا المنطلق لعبت عائلة الفقون دورا حاسما في إقناع السكان بضرورة قبول الحكم العثماني، وعدم اعتبار هذه الدعوة دعوة المغلوب الذي قبل حكم الغالب .وكنتيجة لذلك لبى سكان قسنطينة هذه الدعوة. [3]

ويذهب جمهور المؤرخين إلى القول أن العثمانيين انتقموا انتقاما شديدا من الأطراف المعارضة لقدومهم وبالأساس عائلة أولاد عبد المؤمن الشهيرة. ويخبرنا الحاج أحمد بن المبارك العطار أن العثمانيين قاموا باستدراج شيخ هذه العائلة إلى سطح المنصورة ثم قاموا بقتله ونكلوا بجثته، حيث قال: « ... وخالف سيدي عبد المؤمن وأهل حومة باب الجابية على الترك وقابلوهم ثلاث سنين إلى أن تحيلوا على الشيخ سيدي عبد المؤمن وكانت له مشيخة فصالحوه ولم يزالوا ينصبون له حبائل المكر والخداع حتى تمكنوا به، دعوه للضيافة بقصبة المنصورة فأجابهم وخرج إليهم آمنا فقتلوه وسلخوا جلده وملؤوه قطنا وبعثوا به إلى الجزائر ودفنت جثته بمسجده المعروف به اليوم... » .[4]

(1) ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي: المرجع السابق ص 128.

(2) محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص، ص 93، 94.

(3) ساعد خميسي :" دراسة موجزة لمخطوط جزائري لعبد القادر الراشدي القسنطيني"، الحوار الفكري، مجلة فكرية محكمة تصدر دوريا عن مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، العدد 04، سنة 2002، ص 56.

(4) الحاج أحمد بن المبارك بن العطار: تاريخ حاضرة قسنطينة، تحقيق رابح بونار، دون طبعة، دون ناشر، ص ص 57،58.

وبذلك أفل نجم هذه العائلة القسنطينية الحضرية بعدما كانت صاحبة مكانة وحظوة وسلطة ونفوذ لفترة غير قصيرة، وفي مقابل ذلك ازدادت مكانة عائلة الفقون وبلغت شأوا كبيرا لقاء مواقفها المساندة للحكم العثماني،[1] حيث أسند لها العثمانيون عدة مناصب حساسة كوظائف الإفتاء وإمارة ركب الحج ومشيخة الإسلام.[2] *

وبهذه الطريقة انضوت قسنطينة تحت راية الحكم العثماني، وظلت عاصمة للإقليم الذي أخذ إسم بايلك الشرق، و حكمها ستة و أربعون حاكما أخذوا لقب الباي، كان أولهم رمضان تشولاق باي 1567م- 1574م وآخرهم الحاج أحمد باي 1826م- 1837م .

وبعد أن تعرفنا على ظروف إلحاق قسنطينة وإقليمها بالحكم العثماني وموقف السكان منه، فهل لنا أن نتعرف الآن على بداية علاقة العثمانيين بالعائلات الكبرى التي كانت لها اليد الطولى في إدارة شؤون أرياف هذا الإقليم و طبيعة هذه العلاقة؟

2-بداية علاقة الحكام العثمانيين بالعائلات الكبرى و طبيعتها:

لقد حاول الحكام العثمانيون إقامة علاقات ودية مع العائلات الكبرى بإقليم قسنطينة . غير أن هذه العلاقات اضطربت وتسممت في كثير من الأحيان . فكيف كانت بداية هذه العلاقة؟ وما هي طبيعتها؟ وبماذا تميزت ؟ وكيف كانت نهايتها ؟

أ- بداية العلاقة.

إن بداية علاقة العثمانيين بهذه العائلات لم تكن في فترة واحدة وانما كانت على فترات متباعدة، ومرد ذلك مواقف هذه العائلات من الوجود العثماني بين معارض ومؤيد له، و يمكن توضيح ذلك في مايلي:

[1] لطفي عيسى: المرجع السابق، ص 38.

[2] محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص 134

* مشيخة الإسلام هيئة دينية، تشرف عليها شخصية دينية مشهود لها بالعلم والورع والاستقامة تأخذ اسم "شيخ الإسلام" وقد عرفت الدولة الإسلامية هذه المشيخة منذ صدر الإسلام، واستمر العمل بها خلال العهد العثماني. وتتمثل المهمة المركزية لشيخ الإسلام في إصدار الفتاوى الدينية، ثم توسعت اختصاصاته لتطال المسائل السياسية حيث أصبح يصدر الفتاوى المتعلقة بشرعية القوانين التي تشرعها السلطات العثمانية أي النظر في مدى مطابقتها للشريعة الإسلامية من عدمها.

حول هذه المسألة ينظر:

محمد ثابت أفندي و إبراهيم زكي خورشيد: المرجع السابق، ص ص 477، 478.

-عائلة ابن جلاب:

تذكر المصادر أن بداية اتصال هذه العائلة بالحكام العثمانيين كان عام 1534م، وذلك حينما قام حسن آغا بغزو الصحراء وأخضع سكانها وفرض عليهم ضريبة سنوية.وكانت عائلة ابن جلاب من الأطراف المعنية بها، إلا أن هذه العائلة كانت قد شقت عصا الطاعة وظلت متمردة على النظام المركزي،[1] وكانت علاقتها ببايات قسنطينة تتسم بالجفاء في أغلب فترات الحكم العثماني.

-عائلة بوعكاز الذواودة:

اتسمت بداية اتصال عائلة بوعكاز الذواودة بالحكام العثمانيين بالودية، ويبدو أن اتصالهم بهم كان مبكرا . ومن مظاهر ذلك أن قبيلة أولاد يعقوب بن علي تعاونت مع الحامية التركية المتواجدة بقسنطينة و عنابة، حيث كانت تزودها بالمواد الغذائية مقابل حصولها على أسلحة وذخيرة،[2] وهذا في المرحلة الأولى من الاستقرار العثماني بالمنطقة.

-عائلة ابن قانة:

قدمنا أن عائلة ابن قانة لم تتحصل على منصب شيخ العرب إلا عام 1762م بعدما كان في حوزة عائلة بوعكاز الذواودة، وعليه فإن شهرة عائلة بوعكاز الذواودة بالجنوب القسنطيني كانت تحجب شهرة عائلة ابن قانة إلى غاية التاريخ المذكور. ويذكر آغا الزيبان بوعزيز بن قانة أن عائلته كانت قبل هذا التاريخ تستقبل زيارات الجيش التركي بصورة دائمة و منتظمة.[3] وهذا يعني أن علاقة هذه العائلة بالحكام العثمانيين كانت سابقة لتاريخ حصول شيوخها على منصب شيخ العرب.

-عائلة المقراني:

اتسمت علاقة المقرانيين بالحكام العثمانيين بالجفاء في بداية الحكم العثماني، ولعل ذلك مرده موقف المقرانيين المعارض لوجودهم. ويذكر "بربروجر" أنه بناء على رغبة عروج، شن خير الدين الذي كان مرابطا بجيجل حملة ضد عبد العزيز المقراني سلطان بني عباس وتمكن من إخضاعه.[4]

(1) جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 119.

(2) Mouloud Gaid : op. cit , p 7.

(3) Bouaziz Bengana : op. cit, p 27.

(4) Andrien Berbrugger : Les époques militaires de la grande Kabylie, Paris, France, 1857, p 60.

ويخبرنا صاحب مخطوط سيرة المجاهد خير الدين بربروس الذي كان على صلة بالأحداث التي يسوقها أن خير الدين أرغمه على تحويل الضريبة التي كان ملتزما بها تجاه الإسبان الذين احتلوا مدينة بجاية عام 1510م إلى الخزينة العثمانية.[1] ومنذ ذلك الوقت تشكلت نواة العلاقة بين الطرفين .

- عائلة بوعكاز بن عاشور:

انضمت عائلة بوعكاز بن عاشور إلى المعسكر الرافض لشرعية الحكم العثماني، وعليه فبداية علاقتها بالحكام العثمانيين تميزت بالتصادم .و أن أول اتصال بينهما كان في شكل معارك دامية، وكان ذلك عام 1713م حينما جيش حسن بوكمية باي قسنطينة جيشا واتجه به إلى فرجيوة بغرض إخضاع شيخها الحاج بن شلغوم. غير أنه مني بهزيمة كارثية وخلف ورائه فرقته الموسيقية وعددا غير قليل من الإنكشارية. [2]

-عائلة أولاد عز الدين:

تعود بداية اتصال زعماء هذه العائلة بالحكام العثمانيين إلى بداية القرن 19م وتحديدا إلى عام 1800م، حيث اعترفوا بزعيمها ناصر الذي عينوه شيخا على الزواغة. ولم تكن لهذا الشيخ الحرية المطلقة في التصرف في شؤون قيادته، بل كان تحت تصرف أحد الضباط العثمانيين الذي كان متمركزا في مدينة ميلة.[3]

وبهذا يتبين لنا أن بداية اتصال هذه العائلة بالحكام العثمانيين يعود إلى فترة متأخرة جدا من العهد العثماني، وذلك عكس العائلات الأخرى والتي كان اتصالها بهم يعود إلى فترة مبكرة، وربما السبب في ذلك يعود إلى تخوف هؤلاء الحكام من نسج علاقات مع زعماء هذه العائلة التي فضلت حياة الانزواء والتحصن في الجبال الوعرة بعيدا عن أعين السلطات العثمانية.

ب- **طبيعة العلاقة.**

لقد عمل الحكام العثمانيون على تمتين علاقاتهم بالمرابطين ورجال الدين من أجل تأمين حكمهم بالجزائر، لما لهذه الطائفة من نفوذ أدبي على عموم السكان،[4] فبجلوهم وخصصوا لهم أحباسا في المساجد

---

[1] حول ذلك ينظر:

- مؤلف مجهول : سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق و تقديم و تعليق عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص 88.
- مؤلف مجهول: غزوات عروج و خير الدين، تصحيح و تعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1984، ص 30.

[2] L. Ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit , p p 6, 7.

[3] Ibid : p p 242- 244.

[4] ارجمند كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827- 1847، نقله عن التركية عبد الجليل التميمي، الشركة التونسية لفنون الرسم، الطبعة الثانية، تونس، 1974، ص 16.

والزوايا وبعض الامتيازات الأخرى.[1] وبالموازاة مع ذلك فقد انتهجوا نفس الأسلوب مع شيوخ القبائل و رؤساء العشائر [2] الذين كانوا يتصرفون بحرية في شؤونهم الخاصة وحازوا على استقلال شبه تام عن السلطة المركزية،[3] لأنهم كانوا يدركون أيضا أن هؤلاء الشيوخ كانت لهم اليد الطولى في توجيه السكان ولاسيما الريفيين منهم.[4] والثابت أن العائلات التي ندرسها كانت معنية بهذه السياسة، فما طبيعة العلاقة التي كانت تربط هذه العائلات بالحكام العثمانيين ؟ وما هي خصائصها ؟.

كانت علاقة هذه العائلات بالحكام العثمانيين تتسم بالصراع والحرب تارة وبالتحالف والسلم تارة أخرى، و كان من نتائج علاقة التحالف والمودة أن تصاهر الطرفان.

أولا:علاقة متأرجحة بين السلم والحرب

تراوحت علاقة الحكام العثمانيين بهذه العائلات بين السلم والحرب.فأحيانا تسود المودة بين الطرفين ويتحالف زعماء هذه العائلات مع هؤلاء الحكام ويساعدونهم على تثبيت حكمهم بالمقاطعة، وفي أحيان أخرى كانت العلاقة بينهما تنقلب إلى عداوة، فتندلع بينهما الحروب التي غالبا ما كانت تثقل كاهل الطرفين. وفي ما يلي نحاول تبيان علاقة كل عائلة بهؤلاء الحكام.

- **عائلة ابن قانة:**

ساهمت عائلة ابن قانة في التمكين للحكم العثماني بالمنطقة، وفي هذا الإطار وقفت إلى جانب الجيش العثماني في الكثير من حملاته.والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها وقوف الشيخ محمد الحاج بن قانة إلى جانب الجيش العثماني في حملته التي توجهت إلى الصحراء الشرقية والتي انتهت بإخضاع الثائرين، وقد كوفئ هذا الشيخ بمنحه منصب وزير الباي لقاء مشاركته الايجابية في هذه الحملة، غير أنه لم يتمتع بهذا المنصب كثيرا حيث قتل في إحدى الحملات التي قادها الجيش العثماني ضد قبيلة فليسة المتمردة عام 1764م. [5]

[1] محمد العربي الزبيري: مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، ش.و.ن.ت، الطبعة الثانية، 1986، الجزائر، ص 85.

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري(16- 20م)، الجزء1، ش.و.ن.ت الجزائر، 1981، ص 152.

[3] لوسانت فلنزي: المرجع السابق، ص 111.

[4] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792- 1830، المرجع السابق، ص50.

[5] L.ch. Féraud : « Les Ben-Djellab sultans de Touggourt .Notes historiques sur la province de Constantine » in R.A n°= 26 année 1882 pp 379, 380.

كما شارك شيخ العرب إلى جانب صالح باي في حملته ضد سلاطين تقرت الثائرين عام 1788م والتي انتهت بإرجاعهم إلى حضيرة الحكم العثماني وتعيين ابراهيم بن الحاج بن قانة شقيق شيخ العرب على رأس إمارة وادي ريغ.[1] وشارك أيضا بن المسعي بن ابراهيم بن قانة الذي كان شيخا للعرب في الحملة التأديبية التي قادها الباي محمد الميلي(1818م- 1819م) ضد عائلة بوعكاز الذواودة التي أعلنت تمردها، غير أنه قضى نحبه وهو في طريقه إلى قسنطينة رفقة الباي.[2] و بهذا يتبين لنا أن هذه العائلة الكبيرة فقدت العديد من زعمائها في سبيل التمكين للحكم العثماني.

والواقع أن علاقة الود هذه كانت تضطرب في بعض الأحيان وتنقلب إلى علاقة حرب، فقد حدث أن تضعضعت في عهد صالح باي بسبب التقارير التي كانت ترفعها هذه العائلة إلى الباشا وتتهم فيها هذا الباي بنزعته الانفصالية . وبسبب ذلك قرر هذا الباي التخلص من زعيمها، حيث وجه له دعوة للمشاركة في تأديب قبائل النمامشة التي خرجت عن الطاعة، غير أن هذه الحملة كانت في واقع الأمر، تهدف إلى الإجهاز عن زعيم هذه العائلة وفرقته العسكرية. وبالفعل تمكن الباي من إبادة هذه الفرقة في حين تمكن زعيم العائلة من الفرار من هذه المكيدة.[3]

- عائلة بوعكاز الذواودة:

قدمت هذه العائلة خدمات جليلة للإدارة العثمانية لا سيما وأنها كانت من العائلات ذات ذات النفوذ، حيث كانت أول عائلة تحوز على منصب شيخ العرب، فإليها يرجع الفضل في إدخال سكان شمال الصحراء إلى طاعة الحكم العثماني في بدايته.[4] و شارك الذواودة بجيشين عملاقين إلى جانب الجيش التركي في التصدي للعدوان الإسباني ضد مدينة الجزائر عام 1581م.[5]

ورغم هذه الخدمات التي قدمها الذواودة للعثمانيين إلا أن هؤلاء لم يتسامحوا معهم إذا شقوا عصا الطاعة.ففي عام 1637م أعلن مراد باي قسنطينة حملة ضدهم بسبب عصيانهم، فقتل عدد غير قليل من أعيانهم، وعلق رؤوسهم على أسوار مدينة قسنطينة.[6] كما سلك صالح باي سياسة القوة

(1) Bouaziz Bengana : op. cit, p 25.
(2) Ibid : p 33.
(3) محمد أوجرتني: المرجع السابق، ص ص 110، 111.
(4) Bouaziz Bengana : op. cit, p 15.
(5) محمد خير الدين: المرجع السابق، ص 44.
(6) L.ch.Féraud : op. cit, p 364.

ضدهم أيضا وضربهم وفرق جموعهم عام 1774م حينما أحدثوا القلاقل والاضطرابات بضواحي مدينة بسكرة، غير أنه في نهاية المطاف كان رحيما بهم وصفح عنهم، [1] وهذا يدخل في إطار دبلوماسية صالح باي.

- **عائلة ابن جلاب:**

إن الحديث عن علاقة عائلة ابن جلاب بالإدارة العثمانية هو حديث عن علاقة التصادم، وعن ميل هذه العائلة للحرية التي لا تعرف الحدود، وانزوائها في الصحراء بعيدا عن أعين الرقابة البايلكية والمطالبة الضريبية والمضايقات السلطانية، وعليه فقد كانت لا تخضع لبايات قسنطينة إلا بالقوة، وعاشت مستقلة عن سلطة العثمانيين واستشرى عداؤهم لهم إلى درجة دفعت بالراهب"هايدو" "Häedo "إلى المبالغة بالقول أنهم كانوا يعتقدون أن قتلهم للجندي التركي أرفع درجة عند الله من قتلهم للجندي المسيحي.[2] وفي عام 1552م اعتلى صالح رايس كرسي الايالة، ولم يكن عالما بخبايا البحر والبحرية فحسب وإنما كان أيضا إداريا ماهرا،[3] لذلك قرر ضم المناطق المتمردة إلى حضيرة الحكم المركزي، وفي هذا المنظور كانت حملته ضد عائلة ابن جلاب بتقرت التي جند لها ألف وستمائة فارس ومائة وثمانين من المشاة وعدد من الأهالي.[4]

وكانت حملة محفوفة بالمخاطر ككل الحملات التي تتوغل في أعماق الصحراء.[5] وتمكن صالح رايس بواسطتها من إجبار سلاطين بن جلاب على الالتزام بالضريبة وقطع رأس مهندس المتمردين وعاد إلى العاصمة سالما غانما. [6]

(1) صالح عباد: المرجع السابق ، ص 177.

(2) جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 119.

(3) Godfrey Fisher : op.cit , p 132.

(4) L.ch. Féraud : « Les Ben-djellab sultans de Touggourt .Notes historiques sur la province de Constantine » in R.A n°=23, année 1879, p 269.

(5) أبو العيد دودو: «الجزائر من خلال تاريخ بيردان»، مجلة كلية الآداب جامعة الجزائر، العدد2، السنة 1970، ص 60.

(6) جون ب.وولف: الجزائر وأوربا، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 70.

ورغم ذلك عاد سلاطين بن جلاب إلى تمردهم، فأولى صالح باي قسنطينة عناية خاصة بهم. ففي عام 1788م وجه حملة تأديبية ضدهم رغم انشغاله بأزمة الحدود التي كانت قائمة مع تونس آنذاك،[1] غير أنه لم يتمكن من اختراق أسوار مدينة تقرت بسبب استماتة جند فرحات بن جلاب في الذود عن إماراتهم، ولم يتمكن من إخضاعها إلا في السنة الموالية،[2] وذلك بعد أن حاصرها لمدة ناهزت ستة أشهر قام خلالها بقطع أشجار نخيلها وأرزاق سكانها وكادت المجاعة أن تعصف بالسكان.[3] ويبدو أن صالح باي أدرك أن سياسة الترهيب لن تجد نفعا مع سلاطين هذه العائلة الذين جبلوا على حياة التمرد، فلجأ إلى حرب الدسائس وسياسة فرق تسد. وبهذا الأسلوب تمكن من تفريق جمع هذه العائلة، وانتهى الأمر بضعفها.[4]

كان العداء هو السمة البارزة بين عائلات الجنوب القسنطيني. وفي هذا السياق، استجاب أحمد المملوك باي قسنطينة(1818م) إلى تحريض فرحات بن السعيد الذوادي الذي كان يروم القضاء على إمارة ابن جلاب، فشن حملة عسكرية على تقرت عام 1818م، وقطع النخيل وأتلف مصادر المياه، فغلب محمد بن جلاب في هذه المواجهة وانصاع إلى شروط الغالب حيث ألزم بتقديم ضريبة سنوية قدرها مائة ألف ريال بسيطة.[5]

- **عائلة المقراني:**

قدمنا أن بداية العلاقة بين المقرانيين والإدارة العثمانية اتسمت بالتصادم والنفور، غير أن هذه الوضعية تم تجاوزها عندما تحالف سلطان بني عباس بخير الدين .فاستفاد هذا الأخير من خدمات المقرانيين حيث عضده شيخهم عبد العزيز في حروبه ضد أعدائه ووقف إلى جانبه في معاركه التي خاضها ضد القبائل الثائرة في وادي سيباو عام 1525م.[6]

(1) Mahfoud kaddache : L'Algérie durant la période Ottomane, O.P.U, Alger, Algérie, 1991 p155.

(2) أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر(1766– 1791)، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 139.

(3) L.ch. Féraud : « Les Ben- djellab sultans de Touggourt .Notes historiques sur la province de Constantine » in R.A n°=24, année 1880, p 113.

(4) احميدة عميراوي: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1999، ص 189.

(5) ناصر الدين سعيدوني: «ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني»، مجلة الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد 41، السنة 1977، ص ص 79، 80. عباد 227.

(6) Corinne Chevallier : op.cit, p 43.

و استمر هذا التحالف إلى غاية تسلم صالح رايس دفة الحكم في الجزائر عام 1552م. فبالرغم من مشاركة سلطان بني عباس الشيخ عبد العزيز في حملته ضد سلاطين تقرت إلا أن الخلاف بينهما ظهر من جديد و أفضى إلى مواجهة حربية أدت إلى انكسار جيش صالح رايس في إحدى المعارك قرب قلعة بني عباس عام 1552م.(1) غير أن صالح رايس بقي يضمر العداء لسلطان بني عباس، فجهز حملة ثانية بقيادة ابنه محمد لكنها فشلت هي الأخرى.(2) ولم يتمكن صالح رايس من هضم الهزيمة التي مني بها على يد جيش عبد العزيز، فجهز حملة أخرى عام 1554م، غير أن المقرانيين هزموه مرة أخرى بضواحي مدينة المسيلة.(3) وبعد مقتل عبد العزيز خلفه أخوه أحمد أمقران الذي جنح إلى مسالمة العثمانيين فعقد معهم صلحا عام 1561م. (4)

وهكذا استمرت علاقة المقرانيين بالحكام العثمانيين على هذه الوتيرة طيلة العهد العثماني، فتارة تميل إلى التصالح وتارة أخرى تميل إلى الحرب. ففي عام 1638م اندلعت ثورة الذواودة بقيادة محمد الصخري بوعكاز المناهضة للحكم العثماني وقد خلخلت أركان البايلك،(5) ويخبرنا الأب "دان" " Le père Dan " أن المقرانيين آزروا زعماء هذه الثورة،(6) ومن أجل إضعاف هذه العائلة، عمل الحكام العثمانيين على تشجيع سياسة فرف تسد بين زعماء هذه العائلة . حيث أدت هذه السياسة إلى تقسيم العائلة إلى فروع متناحرة، وظل انشغال كل فرع هو الحصول على الزعامة . وبرز ذلك خاصة منذ وفاة الشيخ بن بوزيد المقراني التي كانت مابين عام 1780م وعام 1790م.(7)

---

(1) أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492– 1792، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976، ص 340.

(2) Mouloud Gaïd : Mokrani. Editions andalouses, Alger, Algérie, 1993, p20.

(3) Louis Carvajal Marmol Del : Description général de l'Afrique, traduit par Nicolas Perrotsieur d'ablancourt, tome2, Paris, France, S.D. p 427.

(4) جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 113.

(5) أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص 47.

(6) François Trinutaire : Dan , le père : Histoire de la Barbarie et de ses corsaires, 2eme édition, Paris, France, 1649, p 132.

(7) L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Bordj. Bou-Arreridj » in R.S.A.C, Année 1872, p 265.

وفي عام 1804م اندلعت ثورة ابن الأحرش* التي أحدثت اضطرابا سياسيا وماليا كبيرين بالبايلك القسنطيني وانتهت بمقتل عصمان باي واستباحة كل الأموال التي جلبها معه إلى المعركة، (1) ولم تتوقف هذه الثورة إلا بفضل مؤازرة المقرانيين للجيش العثماني حيث تم محاصرة هذا الثائر بالقرب من مدينة سطيف عام 1807م، ثم القضاء عليه. (2)

– **عائلة بوعكاز بن عاشور**:

قدمنا أن أول اصطدام حدث بين عائلة بوعكاز بن عاشور و العثمانيين كان عام 1713م وكانت نتيجته وخيمة على بوكمية باي قسنطينة. و منذ ذلك التاريخ بقي الصراع قائما بين الطرفين حتى نهاية العهد العثماني، وقد تخللته فترات متقطعة من السلم. وكان صالح باي قسنطينة الذي جبل على الأعمال الحربية، قد باشر عدة حملات عسكرية ضد عائلة بوعكاز بن عاشور حكام فرجيوة لاسيما في الفترة الممتدة ما بين أعوام 1776م و1781م.(3) كما تبنى كعادة بايات قسنطينة إستراتيجية تهدف إلى نسف هذه العائلة وذلك بتشجيع الصراع العائلي . وفي هذا المنظور، فقد أسند الحكم إلى ما غورة بوطغان بعدما سلبه من ابن عمه شلغوم بالحاج وهو الأمر الذي أدى إلى تفجير العائلة إلى فرعين متناحرين.(4)

---

* تعد ثورة ابن الأحرش من أشرس الثورات التي عصفت ببايلك الشرق في نهاية الحكم العثماني.وقد أثارت هذه الثورة كثيرا من اللغط والخلاف بين المؤرخين والدارسين حول أسبابها .فمنهم من أرجعها إلى أسباب خارجية، ومنهم من نظر إليها على أنها تمرد محلي وعمل من أعمال المرابطين.

حول هذه الثورة ينظر:

-Andrien Berbrugger : « Un chérif kabyle en 1804 » in, R.A, n°=03, année 1858-1859, p209 et suivantes.

- L.ch. Féraud : « Les chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la province de Constantine » in R.A n°=13, année 1869, p 215 et suivantes.

- L.ch. Féraud : « Zebouchi et Osman bey » in, R.A n°=06, année 1862, p 123 et suivantes.

(1) أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني،ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص 86.

(2) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، الجزء 2، م.و.ك، الجزائر، 1988 ص 181.

(3) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث–العهد العثماني– م.و.ك، الجزائر، 1985، ص 61.

(4) L.ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara .Notes historiques sur la province de Constantine » op.cit, p 9.

ويطول بنا الحديث إذا خضنا في تفاصيل هذا الصراع العائلي الذي لازم هذه العائلة إلى غاية نهاية الحكم العثماني، ونكتفي بالقول أن العثمانيين تمكنوا بواسطة هذه الإستراتيجية من التحكم و إخضاع هذه العائلة كسائر العائلات الكبرى الأخرى، فاستفادوا من خدماتها في الظروف الحالكة. فعلى سبيل المثال، فقد وقف شيخها مصطفى بن عاشور إلى جانب الجيش العثماني أثناء منازلته للثائر ابن الأحرش عام 1804م. [1]

ويلاحظ أن هؤلاء الحكام كانوا قساة مع المتمردين عليهم من زعماء هذه العائلة فقد قام شاكر باي قسنطينة (1814م- 1818م) بتصفية مصطفى بن عاشور شيخ فرجيوة غدرا لأنه كان يتآمر عليه، وهذا بعد أن منحه الآمان ثم نكث عهده.[2]

- **عائلة أولاد عز الدين:**

تميزت العلاقة بين زعماء هذه العائلة والحكام العثمانيين بطابعها الودي وذلك منذ أن اعترف هؤلاء الحكام بزعيمهم ناصر شيخا على منطقة الزواغة . فقد انكب هذا الشيخ على مساعدة العثمانيين على إحكام قبضتهم على المناطق الجبلية المنضوية تحت قيادته، وتمكنوا بواسطته كذلك من رقابة ورصد كل تحركات السكان التي كانت تحدث في منطقة القبائل الشرقية لا سيما بعد تدشينهم لحامية عسكرية بمدينة ميلة . وقد ساهم الشيخ ناصر زعيم هذه العائلة أيضا في خنق ثورة ابن الأحرش عام 1804م التي خلخلت الوجود العثماني بالبايلك القسنطيني إلى جانب الجيش العثماني.

ورغم تفاني هذه العائلة في خدمة الحكام العثمانيين، إلا أنهم كانوا يتحينون كل الفرص من أجل تحطيمها وإضعافها وذلك عن طريق تشجيع سياسة فرق تسد بين زعمائها. وهي السياسة التي أفضت إلى إنشطار هذه العائلة إلى فرعين متناحرين هما فرع بن حمزة وفرع بن عز الدين،[3] وهي سياسة درج عليها هؤلاء الحكام مع كل العائلات الكبرى.

ثانيا: علاقة المصاهرة:

لجأ الحكام العثمانيون إلى البحث عن رابطة قوية تسمو عن سائر الروابط الأخرى التي كانت تربطهم بأصحاب النفوذ وعلية القوم، ولم تكن هذه الرابطة سوى رابطة المصاهرة،

---

[1] ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- الفترة الحديثة والمعاصرة- الجزء2، المرجع السابق، ص 174.

[2] Eugène Vayssettes : « Suite et fin de l'histoire de Constantine sous la domination Turque. troisième et dernière période de 1792 à 1837 » in R.S.A. C, année 1869, p 533.

[3] L.ch.Féraud : op. cit, p p 244-246.

حيث تزوجوا من بناتهم فكان زواجهم بهذه الصفة زواجا سياسيا [1] ، وكانوا يجنون من وراءه فوائد جمة.[2] و قد ارتبط الحكام العثمانيون بعلاقة مصاهرة مع معظم العائلات الكبرى التي ندرسها، وفي مايلي نسوق أمثلة على ذلك.

لقد تزوج أحمد باي القلي (1756م- 1771م) من بيت ابن قانة حينما كان إنكشاريا بسيطا ويشغل منصب آغا محلة بمدينة القل بشرق البلاد، حيث تعرف على هذه العائلة التي كانت تقطن بضواحي مدينة ميلة،[3] كما تزوج عبد الله باي قسنطينة (1804م – 1806م) من الدايخة بنت محمد بن قانة وكان لها نفوذا كبيرا على زوجها حيث كانت تتدخل في تسيير الشؤون السياسية . وكانت إمرأة معروفة بحكمتها، فكانت لا تبخل بتقديم نصائحها إلى زوجها، وكان رجال المخزن يستشيرونها في عظائم أمور البايلك، ويأخذون بآرائها التي غالبا ما كانت صائبة، وقد أحدثت وفاتها حزنا عميقا وبكي على فراقها كل من عرفها.[4]

و عمل أحمد باي القلي جاهدا من أجل الاقتراب من عائلة بوعكاز الذواودة عن طريق المصاهرة، فصاهر أحد أحفاد الشيخ بوعكاز حيث زوجه إحدى بناته.[5] و كانت عائلة المقراني بغرب البايلك القسنطيني من أكثر العائلات الكبرى استقطابا للحكام العثمانيين الذين حرصوا على مصاهرتهم منذ مجيئهم إلى الجزائر، وقد اتخذوا من هذه الوسيلة أسلوبا للتقرب منهم وكسب ودهم، حيث تقدم حسن باشا بن خير الدين لطلب يد ابنة الشيخ عبد العزيز سلطان بني عباس، غير أنه رفض تزويجها له لأن منبته الشريف يمنعه من ذلك ويجعله يترفع على الارتباط به، ونكاية فيه تزوج الباشا من ابنة شيخ عائلة بلقاضي العدو التقليدي له. وكنتيجة لذلك علا كعب هذه العائلة وارتفعت مكانتها وظلت تعامل معاملة خاصة، الأمر الذي أثار سخط الإنكشارية ضد هذا الحاكم. [6]

(1) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16م- 20م)، الجزء 1،المرجع السابق ص 158.

(2) Hamden khodja : op. cit, p 67.

(3) L.ch. Féraud : « Les ben- Djellab sultans de Touggourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n°=24, année 1880, p 105.

(4) Mouloud Gaid : Chronique des Beys de Constantine, op. cit, p 56.

(5) محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص 375.

(6) جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 204.

وكان الباي أحمد القلي قد صاهر أيضا الشيخ بوزيد المقراني حيث تزوج ابنته، فانجبت له محمد الشريف والد الحاج أحمد باي قسنطينة (1826م- 1837م)،[1] كما أن صالح باي (1771م- 1792م) كان قد صاهر الباي أحمد القلي حينما تزوج من إحدى بناته، و التي كانت زوجته من عائلة المقراني.[2]

من خلال ما تقدم نخلص إلى القول أن الحكام العثمانيين لجئوا إلى كل الوسائل التي تساعدهم على ربط علاقات وطيدة بهذه العائلات، فتوسلوا بأسلوب الليونة طورا، و عنصر القوة طورا آخر، كما لجأوا إلى الحيلة وسياسة فرق تسد، واعتمدوا أيضا على أسلوب المصاهرة . وكان الهدف من وراء كل هذه الأساليب هو بسط نفوذهم في المقاطعة وتأمين حكمهم ومحاولة الاستفادة من خدمات هذه العائلات الكبرى لأنهم كانوا يدركون جيدا مدى تحكم هذه العائلات في أرياف مقاطعة قسنطينة وتأثيرهم على السكان.

3- علاقة الحاج أحمد باي بالعائلات الكبرى

الحاج أحمد باي بن محمد الشريف بن أحمد القلي أحد بايات قسنطينة، عين على رأس البايلك القسنطيني عام 1826م.وقبل بلوغه هذا المنصب كان قد مارس عدة مهام سياسية بالبايلك. ففي عام 1809م شغل منصب قائد العواسي* ثم خليفة الباي عام 1818م.[3]

وكان الحاج أحمد باي كرغليا، ووصوله إلى هذا المنصب شكل ستثناء عن القاعدة التي تحرم هذه الفئة من شغل هذه المناصب التي كانت تسند إلى العثمانيين دون سواهم، [4] لذلك شكل هذا التعيين سابقة فريدة من نوعها.[5]

---

(1) محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص 375.

(2) فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الثاني من القرن 13هـ، رسالة دكتوراه في التاريخ (غير منشورة)، جامعة تونس الأولى، 1998، ص 111.

* العواسي قبيلة مخزنية سكنت قرب مدينة عين البيضاء خلال العهد العثماني . ويعد منصب قائد العواسي من أخطر المناصب بالنظر إلى المهام المنوطة به، فهو الساهر على حفظ الأمن وفرض النظام العام في الربوع، و كلمة "عواسي" ترجع إلى أحد قادة الحراكتة الذي كان يسمى عيسى. حول هذه المسألة ينظر: L.ch.Féraud : « Ain Beida » in R.A. n° 16, Année 1872, pp 408-411.

(3) صالح فركوس: الحاج أحمد باي قسنطينة 1826- 1850، د.م.ج، الجزائر، 1993، ص 18.

(4) ارجمند كوران: المرجع السابق، ص 80.

(5) Kamel Filali : « Les kouloughlis. Essai d’histoire d’une fusion ethnique d’origine ottomane dans l’identité algérienne » in, Annales de l’unité de recherche Afrique- Monde arabe, Université Mentouri, Constantine, Algerie, Volume 3, Année 1999, p 75.

وقد حاز أحمد الباي على هذا المنصب بسبب قوة شخصيته ووفائه الكبير للداي حسين،[1] خاصة وأن الباي منماني (1824م- 1826م) الذي كان على رأس البايلك قبله اشتهر بجوره وعدم كفائته،[2] و قصر نظره و رعونته و قلة ذكائه.[3]

و عندما باشر الحاج أحمد باي مهامه على رأس البايلك القسنطيني، انصرف اهتمامه الأولي إلى تنظيم الإقليم وفرض الأمن والنظام . ومن أجل تحقيق هذا الغرض، فقد نسج علاقات ودية مع العائلات الكبرى،[4] وكان ذلك عاملا حاسما من عوامل نجاحه في إدارة البايلك وتحصين حكمه وتأمينه.[5] وإذا كانت علاقته بهذه العائلات قد غلب عليها الطابع الودي، فإن ذلك لم يمنع من تصدعها في بعض الأحيان، وفي ما يلي نوجز الكلام عن علاقة الباي بكل عائلة.

- **عائلة ابن قانة:**

لما كانت للحاج أحمد باي علاقة قرابة بهذه العائلة، حيث كانت أمه تنحدر منها، فقد أسند منصب شيخ العرب لزعيمها محمد بن قانة بعدما كان من نصيب عائلة بوعكاز الذواودة الممثلة في زعيمها فرحات بن السعيد.[6] وبهذا الإجراء يكون الباي قد زاد من تأجيج الصراع الذي كان قائما بين العائلتين بالجنوب القسنطيني لا سيما وأن شيخ العرب كان قد وضع شرطا للباي مقابل قبوله بهذا المنصب مؤداه أن يتوسط له لدى الداي للسماح له بسحق عائلة بوعكاز الذواودة وكل من انتصر إليها بالمنطقة.[7]

(1) بوعزة بوضرساية : «الأعمال الإدارية والسياسية للحاج أحمد باي حاكم الإقليم الشرقي للجزائر »، مجلة الرؤية، تصدر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1954/11/01، العدد1، عام 1996، ص 88.

(2) Eugène Vayssettes : op.cit, p578.

(3) L.Ch. Féraud : « Lettres Autographes de Mohammed Manamanni bey de Constantine de 1824 à 1826 » in R.A n°=18, année 1874, p 413.

(4) أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان 2005، ص352.

(5) أرجمند كوران: المرجع السابق، ص 84.

(6) L. Ch. Féraud : « Les Ben- djellab sultans de Touggourt. Notes historiques sur la province de Constantine » in R.A n°=24 année 1880, p298.

(7) L. Ch. Féraud : « Les Ben- djellab sultans de Touggourt. Notes historiques sur la province de Constantine » in R.A n°=27, année 1883, p p331, 332.

هذا، وقد ازدادت حظوة هذه العائلة في عهد الحاج أحمد باي الذي بجلها وأولاها رعاية خاصة.[1] وفي مقابل ذلك كانت سنده القوي حيث جلبت له احترام القبائل الموالية لها،[2] ولم تتوان هذه العائلة على نصرة هذا الباي في أحلك الظروف، لذا فإن خلعه لمنصب شيخ العرب على زعمائها كان في واقع الأمر مكافأة لها لقاء تلك الخدمات،[3] ولم يكن فقط بسبب العلاقة العائلية التي تربطه بهذه العائلة. وكانت هذه العائلة من العائلات الأكثر اطلاعا على القرارات الخطيرة التي يتخذها هذا الباي، من ذلك مثلا أن شيخ العرب كان على دراية بالقرار الذي اتخذه الباي بقطع رؤوس بعض الحنانشة الذين حاولوا اغتياله و ذلك قبل تنفيذ حكم الإعدام فيهم.[4] ويخبرنا العنتري أن معارضي الباي القابعين في السجون كانوا يستنجدون بمحمد بن الحاج بن قانة للتوسط لهم لدى الباي بهدف الحصول على العفو.[5]

إن هذه الأمثلة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن عائلة ابن قانة كانت من العائلات الأكثر قربا من الباي، غير أن علاقة الباي بهذه العائلة أخذت تتسمم عندما قدمت ولاءها للإدارة الاستعمارية، وسنتبين ذلك في موضعه.

– عائلة بوعكاز الذواودة:

لقد كانت علاقة الحاج أحمد باي بهذه العائلة علاقة صراع وتطاحن بسبب قيام الباي بإسناد منصب شيخ العرب لأخواله. وقد رأى فرحات بن السعيد الذوادي زعيم هذه العائلة أن ما قام به الباي يعد اغتصابا صريحا لحق هذه العائلة و خصما كبيرا من كرامتها لا سيما وأنها معروفة بعراقتها ونبلها، لذلك رفع راية الانتقام لشرف عائلته،[6] وإلتحم معه في عدة معارك مثل معركة مراح جازية، ومعركة الزعاطشة عام 1831م.[7]

(1) صالح فركوس : المرجع السابق، ص 52.

(2) Alexis de Tocqueville : Seconde lettre sur L'Algérie, éditions zirem, Bejaia, Algérie, 2006 p 30.

(3) محمد العربي الزبيري: مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1972، ص ص 16– 18.

(4) علي أفندي بن حمدان خوجة: وصف رحلة من الجزائر العاصمة إلى قسنطينة عبر الجبال عام 1832، تقديم وتعريب أحميدة عميراوي، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2000، ص 68.

(5) محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص 125.

(6) صالح فركوس: المرجع السابق، ص 53.

(7) Bouaziz Bengana : op. cit, p 45.

– **عائلة ابن جلاب سلاطين تقرت:**

كان سلاطين تقرت متمردون على سلطة بايات قسنطينة، وقد رأينا فيما مضى أن العثمانيين باشروا ضدهم العديد من الحملات العسكرية، والتي غالبا ما كانت تنتهي بإرجاعهم إلى حضيرة الحكم العثماني والالتزام بدفع ضريبة.

و لم تخرج علاقة الحاج أحمد باي بهذه العائلة عن هذا الإطار، حيث استمرت علاقتهم به على حالها، ولم يحدث الباي أي تغيير يذكر في منطقة تقرت،[1] حيث بقوا ملتزمين بتقديم ضريبة سنوية للباي، واستمر التزامهم بها إلى غاية سقوط مدينة قسنطينة في قبضة الاحتلال الفرنسي عام 1837م.[2] و عليه فإن إذعانهم لسلطة الباي كان تحت سلطان الترهيب، لأنهم سرعان ما انفضوا من حوله وتخندقوا في الصف الفرنسي في بداية الاحتلال عندما أخذت مكانة الباي تتضعضع.

– **عائلة بوعكاز بن عاشور حكام فرجيوة:**

لعل أول إجراء باشره الباي مع هذه العائلة أنه قام بنقل قيادة المشيخة من ماغورة إلى بورنان ابن الدراجي، و برر"فيرو" هذا الإجراء بكون أن الضغائن التي كانت تميز علاقة البايات بهذه العائلة كانت تنتقل من جيل إلى آخر، حيث كانت عائلة ماغورة تتآمر كثيرا على جده أحمد باي القلي.[3]

والراجح أن هذا المبرر رغم وجاهته النسبية، إلا أن حجيته تبقى ضعيفة وذلك بالنظر إلى مسبباته التي ذكرها الباي في القرار الذي أرسله إلى الداي حسين .فمباشرة بعد اتخاذه لهذا الإجراء أرسل الباي خطابا للداي جاء فيه:« ... إن ماغورة بن عاشور خرج عن الطاعة، ورفض الانصياع لضريبة اللازمة، وأنه بالنظر إلى عصيانه وعدم اكتراثه بطلباتنا، فقد قررنا عزله وتعويضه بابن عمه بورنان الدراجي... ».[4] و عليه فإن قرار نقل قيادة المشيخة من ماغورة بن عاشور إلى ابن عمه ناجم عن تمرد الشيخ المعزول عن سياسة الباي.

---

(1) Mouloud Gaid : op. cit, p 95.

(2) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر– العهد العثماني– م.و.ك، الجزائر، 1984، ص 231.

(3) L. Ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara .Notes historiques sur la province de Constantine »op.cit, p 19.

(4) Ibid, p 20.

- **عائلة أولاد عز الدين بالزواغة:**

سبق للحاج أحمد باي وأن وطد علاقته بهذه العائلة منذ أن كان يشغل منصب خليفة إبراهيم باي قسنطينة (1819– 1820م) حيث آمنه شيخها من بطش الباي عندما ساءت علاقته به، وساعده على الهروب إلى مدينة الجزائر. ولم يكتف الشيخ عز الدين دراجي بهذه الخدمة التي قدمها له، بل ظل يتتبع أخباره هناك .ولما بلغت مسامعه أن الحاج أحمد يواجه الإعسار، وأن أحواله المادية تدهورت، سارع الشيخ عز الدين إلى نجدته حيث أمده بالمال وزوده ببعض المستلزمات. [1]

وعندما باشر الحاج أحمد باي مهامه على رأس البايلك، لم يتنكر إلى الجميل الذي قدمه له شيخ الزواغة، حيث أسند له مهمة قيادة العائلة لاسيما وأن الباي كانت تربطه به روابط عائلية من جهة أمه التي تنحدر من عائلة ابن قانة، وهذا بعد أن أزاح الشيخ محمد بن بولخراص زعيم صف بن حمزة، وقد استعان الشيخ عز الدين بأخويه محمد و بورنان. غير أن هذا الإجراء أثار حفيظة الطرف المقصي، وتسبب في اندلاع صراع مرير بين الطرفين أودى بحياة الشيخ عز الدين. ورغم ذلك بقي الباي وفيا لفرع عز الدين حيث استخلفه بأخيه محمد بن عز الدين وعمل على تقوية نفوذ عائلته التي أصبحت من أقوى وأثرى العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة. [2]

- **عائلة المقراني**

تعتبر عائلة المقراني من العائلات المقربة للحاج أحمد باي، وذلك بحكم علاقة المصاهرة التي كانت تربطه بها حيث تزوج من عيشوش ابنة محمد بن عبد السلام المقراني، [3] ورغم ذلك فقد انتهج سياسة قاسية ضد بعض شيوخها حيث دشن بداية علاقته السياسية بها بزج زعماء فروعها الثلاثة في السجن ويتعلق الأمر بصهره الحاج محمد بن عبد السلام وسي الباي وصالح بن القندوز. ويبدو أن الحظ كان حليفا لصهره الحاج محمد بن عبد السلام الذي أطلق سراحه تحت تأثير زوجة الباي، وكذلك سي الباي المقراني الذي إستعاد حريته بفضل تدخل كبير العائلة ابن عبد الله، بينما كان صالح بن القندور عاثر الحظ حيث تم إعدامه. [4]

---

[1] Ibid p p 246, 247.

[2] Mouloud Gaid : op.cit, p 94.

[3] Abdeljalil Temimi : Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed bey 1830- 1837, presses de la société tunisienne des arts graphiques, Tunis, Tunisie, 1978, p 61.

[4] L. ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : bordj- Bou-Arreridj » op.cit, p p 299, 300.

و اتخذ الحاج أحمد باي هذا القرار لأنه رأى فيهم رأس الفتنة التي كانت تعصف بهذه العائلة. [1]

ويبدو أن متاعبه مع صهره محمد بن عبد السلام لم تنته حيث رفض هذا الأخير التخلي عن منصبه كقائم على شؤون المغارم بمنطقة الونوغة عندما أسنده الباي إلى ابن عمه أحمد بن محمد كمكافأة له عن حمايته من قبائل التيطري التي ضايقته إثر عودته إلى قسنطينة من واجب أداء الدنوش* عام 1827م. [2]

الواقع أن السياسة التي درج عليها الباي ضد زعماء العائلة المقرانية ولدت لديهم رد فعل عنيف .فعلى إثر عودته من مدينة الجزائر عام 1830م بعد مشاركته في التصدي للحملة الفرنسية، اعترضت سبيله حركة تمرد قوية تزعمها الشيخ ابن القندور المقراني الذي حشد عدة قبائل حاولوا ضربه و القضاء عليه.[3] غير أن الحاج أحمد باي بواسطة دهائه فوت عليهم الفرصة وراسل الشيخ ابن القندوز المقراني ملتمسا منه وقف هذه الحركة التمردية لقاء تعيينه على رأس مشيخة مجانة، غير أنه نكث وعده وألقى عليه القبض عندما التقى به. [4]

وبهذا يمكن القول أن سياسة الباي تجاه هذه العائلات كانت لا تختلف عن سياسة البايات الذين سبقوه، كما أن الحاج أحمد باي لم يكن يعامل العائلات الكبرى معاملة واحدة، إذ كان يفضل بعضها على الآخر، بل بعض فروع العائلة الواحدة على الأخرى. وكان في الوقت نفسه يشجع الصراع بين فروعها و يذكي النعرات والحروب بين مختلف القبائل والعشائر حتى يضمن استمرارية حكمه، و قد أكد ذلك في مذكراته حيث قال:« ... إن الحرب هي عادة الأعراب، وأن الذي يريد حكمهم، قد يتحتم عليه إبقاؤها

(1) محمد المهدي بن شغيب: المرجع السابق، ص 441.

* الدنوش هي الزيارة الإجبارية التي كان يؤديها البايات للداي محملين بالهدايا. و تقسم إلى زيارتين: الزيارة الأولى تكون مرة كل سداسي و تعرف بـ " الدنوش الصغرى"، أما الثانية فتكون مرة كل ثلاثة سنوات و تعرف بـ " الدنوش الكبرى". و كان مصير الباي يحدد في هذه الأخيرة، فإذا تسلم قفطانا جديدا، فذلك يعني تجديد للثقة فيه من لدن الإدراة المركزية، و بمفهوم المخالفة إذا لم يتسلم هذا القفطان، فذلك يعني سحبا للثقة. و كانت هدية باي قسنطينة تتكون من ثلاثين ألف محبوب ذهبي، و ملابس، و مصوغ، و شواشي تونسية، و عطور، و أنسجة مجبود، و أثاث، و سمن، و خيول، و محور (وهو كسكسي مجفف اشتهر به سكان الإقليم).

حول هذا الموضوع، ينظر : أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 46.

(2) L. Ch. Féraud : op. cit, p 302.

(3) صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م – 1962م)، دار العلوم للنشر والتوزيع، مطبعة الشهاب، باتنة، 2002، ص 161.

(4) Mouloud Gaid : Mokrani, op.cit, p p 38, 39.

بينهم، والتحريض على المنافسات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس. أما أوضاع السلم، فإنها تقارب بين العرب و توحدهم حول غرض واحد. و هذه حالة لا ينبغي أن يطمئن إليها من كان يريد السيطرة عليهم إذ قد تأتي ظروف يتحد فيها هؤلاء الرجال كالإخوة، و يجدون أنفسهم منضمين للقيام بالثورة، و على العكس فإذا وجدت الحرب أو العداوات بينهم، فإن من يريد حكمهم يكون دائما متأكدا من إيجاد الأنصار... ».[1] و عليه فإن سياسة الحاج أحمد باي تجاه هذه العائلات ما هي إلا امتداد لسياسة البايات الذين سبقوه والتي تقوم على مبدأ فرق تسد، مما أثار حفيظة بعض العائلات أو بعض فروعها. و كانت لهذه السياسة بعض الآثار السلبية برزت خاصة إثر الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، و احتلال قسنطينة عاصمة البايلك عام 1837م حيث تباينت مواقف هذه العائلات بين مناهض للمستعمر و متعاون معه.

II- موقف العائلات الكبرى من الاحتلال الفرنسي

كانت معظم العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة قد بدأت تضعف وتنقسم إلى فروع متناحرة خاصة خلال المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني. ومما زاد في ضعفها وفقدان مجدها السياسي تلك السياسة التي درج عليها الحكام العثمانيون تجاه هذه العائلات والرامية أساسا إلى تحطيمها و تشتيتها، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تتخذ موقفا معينا من الاحتلال الفرنسي للجزائر ابتداء من الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830 م حتى احتلال مدينة قسنطينة عام 1837م.

فكيف كان موقف هذه العائلات من الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م؟ وما هو موقفها من احتلال مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837م ؟ هل كان موقف هذه العائلات موقفا موحدا تجاه الاستعمار أم كان هناك تصدع في الصف؟.

1– موقف العائلات الكبرى من احتلال الجزائر العاصمة عام 1830م

عندما أدرك الداي حسين النوايا العدوانية للدولة الفرنسية، وتأكد بما لا يدع مجالا للشك أن الفرنسيين ماضون في مشروعهم الاستعماري ضد الجزائر، قام بتوجيه رسائل عديدة إلى كل سكان الجزائر بمختلف أعراقهم ومراكزهم طالبا منهم التحلي باليقظة والاستعداد لمواجهة أي طارئ، وقد كان الجميع في مستوى تطلعات الداي،[2] حيث استجاب رؤساء القبائل و الأعيان لطلبه وأكدوا على مؤازرتهم له في التصدي لأي عدوان خارجي، وقد أكد ذلك القنصل البريطاني العام بالجزائر

[1] محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي، وحمدان خوجة، وبوضربة، ش.و.ت، الجزائر، 1981، ص، ص 40، 41.

[2] Hamdane Khodja : op.cit, p 162.

"السير ر.و.جون" "R.W.st John" الذي كان معاصرا لتلك الحملة حيث ذكر في إحدى تقاريره" ما يلي:«... قدم مؤخرا من الجبال عدد كبير من رؤساء العرب والقبائل فوعدوا الداي بمساعدته ضد الفرنسيين، وأكدوا له بأن قواتهم ستصل بمجرد أن يعطيهم الداي الإشارة الأولى لذلك...».[1]

وقد لبت كل جهات الوطن هذه الدعوة بما في ذلك المناطق ذات التضاريس الوعرة والبعيدة نسبيا عن نفوذ الإدارة العثمانية. وهذا الكلام ينطبق بالأساس على منطقة القبائل، وقد أشار العقيد "روبن" "N.Robin" إلى هذه المسألة حيث ذكر أن الرسائل التي وجهها الداي حسين إلى سكان هذه المناطق البعيدة كانت قد لاقت استجابة واسعة من لدن السكان وزعماء القوم ورجال الدين الذين عملوا على عقد اجتماعات واسعة لتدارس الوضع، وكان أهم قرار نتج عن هذه الاجتماعات ينصرف إلى ضرورة التفرغ الفعلي لنداء الجهاد الذي وجهه الداي حسين، وفي الوقت نفسه دعوة الأطراف المتخاصمة إلى التصالح وتوحيد الصفوف،[2] خاصة وأن سكان هذه المناطق درجوا على ممارسة عدة أعراف و تقاليد تتبع في مثل هذه المناسبات حيث تنقلب القلوب المتباغضة إلى قلوب متحابة ومتآلفة، وتتوحد الكلمة ضد الخصم المسيحي الواحد، ويتنافس المتنافسون حول بعض القيم النبيلة كالشجاعة والإقدام والمروءة ونحو ذلك. [3]

ولم يكتف رجال الدين والمرابطون بهذا الموقف فحسب، بل أنهم ظلوا يتواصلون مع الداي حسين ويتبادلون معه الرسائل والخطابات، وكانوا بمثابة السند المعنوي له في محنته حيث كانوا يدعون له في صلواتهم بسحق أعدائه المسيحيين وقد نشر "ألبير ديفولكس" " Albert Devoulx" مجموعة من الرسائل أرسلها بعض المرابطين إلى الداي حسين في مناسبات مختلفة. و جاء في إحدى الرسائل التي أرسلها المرابط العربي بن علي بن محمد إلى الداي حسين أثناء التهديدات الفرنسية للجزائر عام 1830م "إننا نتضرع إلى الله العلي القدير أن ينصر رايتك وراية الإسلام، وأن يقويك في جهادك على أعدائك، ويعلي كعبك وينصرك على القوم الكافرين"، وأكد له في رسالة أخرى بأنه يتواصل مع الحاج أحمد باي قسنطينة الصديق الوفي له، وأنه يتتبع تطورات الأوضاع أولا بأول.[4]

---

(1) عبد القادر زبادية: «الداي حسين واستمرار المقاومة في المتيجة»، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، عدد 26، عام 1975، ص 127.

(2) N.Joseph Robin : «Notes historiques sur la grande Kabylie de 1830 à 1838» in R.A n° 20, Année 1876, p46.

(3) N.Robin : «les Imessebelen» in R.A n° 18, Année 1874 ; p 411.

(4) Albert Devoulx : «Lettres adressées par des marabouts Arabes au Pacha d’Alger» in R.A n° 18, Année 1874, pp 278,279.

يدل موقف الجزائريين من الحملة الفرنسية دلالة واضحة على أن السواد الأعظم من الشعب الجزائري انتصر لفكرة مجاهدة الغزاة وطردهم وتفريق جموعهم، وفي الوقت نفسه يبرز أن عموم الشعب كان له ولاء راسخ للسلطة الرسمية المركزية.

وإذا كان موقف مختلف القبائل وزعماء الرأي ورجال الدين على النحو الذي قدمناه، فما هو موقف العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة من هذه الحملة لا سيما وأن هذه العائلات هي جزء من الفئات الاجتماعية المعنية بالنداء الذي وجهه الداي حسين؟ هل لبت هذه العائلات "نداء الواجب" الذي أعلنه هذا الداي أم أنها رفضت الانصياع له؟ هل كان موقفها موحدا تجاه هذه الحملة أم حدث تصدع في الصف؟ وإذا حدث هذا التصدع فما هي خلفيات ومبررات ذلك؟

بالرغم من أن الحاج أحمد باي عمل بكل ما أوتي من قوة من أجل تهيئة رؤساء القبائل، وكسب ودهم و استقطاب كل سكان المقاطعة، وتحسيسهم بخطورة الأوضاع وحثهم على رص الصف والوقوف موقفا واحدا في وجه الغزاة.[1] إلا أن هذه العائلات لم يكن لها موقفا موحدا حيث تباينت مواقفها وتراوحت بين معارض ومقاوم للاحتلال وممتنع عن مقاومته، وتبعا لذلك يمكن القول أن هذا الحدث أفرز تشكيل جبهتين رئيستين: الجبهة الأولى انضمت إلى القوة العسكرية التي استنفرها الحاج أحمد باي قسنطينة وسافر على رأسها إلى مدينة الجزائر لصد العدوان، بينما الجبهة الثانية أحجمت عن المشاركة في ذلك. وفي ما يلي نعرض إلى ذلك بشيء من التفصيل.

أ- الموقف المناهض للمستعمر

تبنت هذا الموقف كل من عائلة بوعكاز بن عاشور بفرجيوة ، وعائلة أولاد عز الدين بالزاوغة، وعائلة ابن قانة، والفرعين الرئيسيين لعائلة المقراني (أولاد الحاج وأولاد عبد السلام) بمجانة، وكذلك عائلة الرزقي الحناشية.

- عائلة بوعكاز بن عاشور

رغم وضعية هذه العائلة وانشطارها إلى فرعين متباغضين عن الزعامة بفعل السياسة التي درجت عليها الإدارة العثمانية المشجعة لفكرة الانقسام والتنافس بين العائلات الكبرى، فإن ذلك لم يكن حاجزا أمامها من المشاركة في القوة العسكرية التي استنفرها الحاج أحمد باي من أجل التصدي للعدوان الفرنسي على الجزائر عام 1830م.

(1) Mustapha Haddad : «El Hadj Ahmed Bey. Notice biographique du dernier bey Turc de Constantine», in Cirta, Revue historique et sociologique publiée périodiquement par l'institut des sciences sociales de l'université de Constantine n° 10, Année 1984, p4.

لقد كانت حملة عام 1830م على الجزائر سببا قويا في توحيد موقف هذه العائلة المعادي للاستعمار حيث ترك وجهاؤها وزعماؤها أحقادهم وضغائنهم جانبا ووضعوا "المصلحة العليا للوطن" فوق كل الاعتبارات الشخصية والعائلية. فالشيخ ماغورة الذي كان يناصب العداء الشديد للحاج أحمد باي والذي كان في حالة تمرد و عصيان و معتصما بالجبال بسبب أسلوب الإقصاء الذي مارسه ضده الباي، كان قد شارك شخصيا في التصدي للقوات الفرنسية الغازية تحت قيادة ابن عمه بورنان. وكان دور فرسان قيادة فرجيوة قويا ومتميزا في معركة سطاوالي إلى جانب القوات التي عضدت الحاج أحمد باي في هذه المعركة. وقد اعترف الفرنسيون بالبطولات والمجهودات الجبارة التي بذلها فرسان فرجيوة، وبالأساس مجهودات زعيمها ماغورة في منازلة قواتهم، حيث أبلوا بلاء حسنا، واستماتوا في الدفاع عن المدينة ولقنوا الجنود الفرنسيين دروسا في القتال.[1]

و كان الشيخ أحمد بوعكاز من الأصدقاء الأوفياء و المخلصين للباي، و بواسطة هذه الصداقة تمكن أحمد باي من بسط نفوذه في فرجيوة.[2] ورغم تلك العلاقة القوية التي تربط بين الرجلين إلا أن هذا الشيخ غاب عن المشاركة في التصدي للحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، حيث فضل شغل منصب مشيخة فرجيوة بالنيابة عن عمه بورنان بن الدراجي الذي رافق الباي في القوة التي استنفرها لمنازلة الفرنسيين. [3]

و السؤال الذي يطرح في هذا السياق هل أن استخلاف أحمد بوعكاز لعمه بورنان بن الدراجي أثناء توجهه إلى مدينة الجزائر شكل ضرورة ملحة فرضتها إدارة مشيخة فرجيوة التي كانت ترفض مسألة شغور منصب المشيخة في مثل هذه الظروف؟ أم أن سوء نية أحمد بوعكاز هي التي دفعت به إلى البقاء في فرجيوة؟ أم أن هذا الموقف صنعته خلفيات أخرى؟.

من خلال استقراء وتتبع الأحداث التي عصفت بالمشيخة و الانسداد الذي ميز العلاقات بين فرعي العائلة بعد عودة الشيخ ماغورة من مدينة الجزائر رفقة قوات الباي، يمكن القول أن أحمد بوعكاز لم يشارك في التصدي للحملة الفرنسية عام 1830م من أجل الاستحواذ على منصب المشيخة.

(1) L .Ch. Féraud : «Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine »in R.A no22,Année1878, p 21.

(2) Ernest Mercier : Les deux sièges de Constantine, imprimerie libraire L.Poulet, Constantine, 1896, pp 5,6.

(3) L .Ch. Féraud : op.cit, p22.

فعلى إثر عودة قوات الحاج أحمد باي من مدينة الجزائر حاول الشيخ ماغورة التصالح مع الشيخ أحمد بوعكاز، وحدثه قائلا: "...يا ابن العم إنه زمن الوحدة والتضامن لا زمن النفور والتشرذم، فلنتصالح ونهجر حالة الحرب والصراع، فلنوحد كلمتنا ضد أعدائنا الفرنسيين الذين اغتصبوا بلدنا...". غير أن أحمد بوعكاز رفض كل شكل من أشكال المصالحة، بل أكثر من ذلك أشهر سلاحه في وجه بن عمه ووجه له طلقات نارية من مسدسه تسببت له في إحداث جروح بليغة على مستوى أحد الذراعين، ثم فر الشيخ ماغورة وشكا أمره للباي الذي لم يتخذ أي إجراء عملي لصالحه بسبب الظروف العصيبة التي كان يمر بها الباي حينئذ، وهذا الوضع ضاعف الرغبة في الانتقام لدى الشيخ ماغورة و زاد من درجة تشنج العلاقة بين الطرفين. ورغم أن الشيخ ماغورة عاد إلى حياة التمرد والعصيان، وظل يعيش هائما في الجبال إلا أن الشيخ أحمد بوعكاز ظل يتتبع أخباره إلى أن قتل غدرا. وقد وجهت أصابع الاتهام إلى الشيخ أحمد بوعكاز الذي اتهم بدس السم له.[(1)]

و بالموازاة مع ذلك عمل الشيخ أحمد بوعكاز كل ما في وسعه من أجل اغتصاب السلطة في مشيخة فرجيوة منذ عودة المقاتلين الذين رافقوا الباي في التصدي لحملة 1830م، إلى أن تمكن من الانفراد بها وإزاحة عمه الشيخ بورنان ابن دراجي الذي كان وفيا للباي وشارك إلى جانبه في التصدي للحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، و كذلك دراجي ابن ماغورة الذي قام بتصفيته بينما كان في طريقه عائدا من قسنطينة إلى فرجيوة. وبهذه الكيفية ظل الشيخ أحمد بوعكاز سيد المنطقة لا ينازعه فيها منازع، وكانت له اليد الطولى في إدارة شؤونها، وضرب بيد من حديد كل حركة ثورية تناهض سلطته. [(2)]

ومهما يكن من أمر، فبالرغم من الظروف التي كانت تمر بها هذه العائلة في أواخر العهد العثماني، والتطورات الخطيرة التي عصفت بها والصراعات التي قامت بين زعمائها بعد الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م ورجوع قوات الحاج أحمد باي إلى قسنطينة، إلا أن مشاركتها الشجاعة والقوية إلى جانب الباي في صد الاحتلال بقيت تمثل صفحة من الصفحات المشرقة في تاريخ هذه العائلة.

(1) Ibid, pp 22,23.
(2) Ibid, pp 81-85.

- **عائلة أولاد عز الدين**

سبق القول أن الحاج أحمد باي كانت له علاقات طيبة مع عائلة أولاد عز الدين بالزواغة لا سيما وأن الباي كانت تربطه بها روابط عائلية، لذلك فليس من المستبعد أن تلبي هذه العائلة النداء الذي وجهه الحاج أحمد باي لمواجهة الحملة الفرنسية عام 1830م.

لقد كانت هذه العائلة أكثر العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة مؤازرة وتضامنا مع الحاج أحمد باي،(1) وكانت تزوده بما يحتاجه من دعم وإسناد وفرسان،(2) وبناء عليه فقد انضمت إلى الحملة التي جهزها الباي لصد العدوان الفرنسي عام 1830م.

و بالإعتماد على ما توفر لدينا من مادة خبرية، فإنه لا يوجد ما يشير إلى مشاركة هذه العائلة في معركة سطاوالي كما هو الشأن بالنسبة للعائلات الكبرى الأخرى، إلا أن هناك من تحدث عن دور فرسان هذه العائلة في الدفاع عن الباي والوقوف إلى جانبه أثناء قيام حركة التمرد* التي منعته من دخول مدينة قسنطينة إثر عودته من مدينة الجزائر.(3)

وعلى هذا الأساس فإن مشاركة هذه العائلة في الدفاع عن الباي أثناء اعتراضه من قبل المتمردين الرافضين عودته إلى الحكم تعد مؤشرا قويا على مشاركتها في التصدي للحملة الفرنسية عام 1830م من منطلق أن الذين دافعوا عن الباي أثناء ذلك هم الذين رافقوه في القوة التي جهزها للتصدي للفرنسيين عام 1830م.

- **عائلة ابن قانة**

شاركت عائلة ابن قانة في التصدي للحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م إلى جانب قوات الحاج أحمد باي قسنطينة، خاصة وأنها كانت من العائلات المقربة من الباي بحكم رابطة المصاهرة التي تجمع بينهما.

---

(1) Ernest Mercier : op.cit, p 6.

(2) صالح فركوس: المرجع السابق، ص 57 .

* كانت هذه الحركة من تدبير شاكر باي قسنطينة السابق و الذي عين من قبل الإنكشارية على رأس البايلك، غير أن أعيان المدينة وفقهائها ووجهائها عقدوا اجتماعا طارئا وحطموا هذه المبادرة وأكدوا على ضرورة مواصلة الارتباط بالباب العالي الممثل في شخص الحاج أحمد باي رغم التطورات التي حدثت بعد عام 1830م، وبعدها أطلعوا الباي على نتائج هذا الاجتماع، ولكي يبرهنوا له على حسن نواياهم وارتباطهم به، فقد قاموا بتصفية رأس هذه الحركة التمردية وحز رأسه وارسالها إلى الباي حتى يتأكد ويطمئن لهم.

حول هذه الحركة التمردية ينظر :

- Hamdene khodja : op.cit, pp 189,190.

(3) Mouloud Gaid : op.cit, p 9.

و كان شيخ العرب محمد بلحاج بن قانة حاضرا في المعارك التي خاضها جيش الحاج أحمد باي في مواجهة الجيوش الغازية. وبعدما بسط الفرنسيون هيمنتهم على مدينة الجزائر، عاد الحاج أحمد باي إلى مقر حكمه بقسنطينة مرفوقا بالزعماء والشيوخ الذين رافقوه ومن بينهم شيخ العرب، الذي وقف إلى جانبه في أحلك الظروف والصعاب التي اعترضته خلال رحلة العودة.[1]

– عائلة المقراني

كانت عائلة المقراني في نهاية العهد العثماني قد وصلت إلى درجة متقدمة من الضعف والانحطاط حيث انشطرت إلى ثلاثة فروع متباغضة وهم: أولاد الحاج، وأولاد عبد السلام، و أولاد القندوز. ومما لا شك فيه أن علاقة الصراع التي استفحلت بين فروعها خلال تلك الفترة و السياسة التي درج عليها بايات قسنطينة تجاه هذه العائلة هي التي صنعت موقفها من الاحتلال الفرنسي، وعليه فقد تباينت مواقفها من الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م.

و قد أشار الحاج أحمد باي قسنطينة في مذكراته إلى القوة العسكرية التي جهزها من أجل التصدي للحملة الفرنسية عام 1830م، و ذكر بأنه اتجه إلى الجزائر العاصمة لأداء الزيارة الإجبارية المشهورة بـ « زيارة الدنوش»، وكان بصحبته زهاء أربعمائة (400) فارس ومنهم فرسان عائلة المقراني حيث قال «... في سنة 1830م ذهبت إلى مدينة الجزائر لأداء الدنوش أو الزيارة الاجبارية التي يؤديها إلى الباشا جميع البايات مرة كل ثلاث سنوات، كنت بايا على قسنطينة منذ أربعة أعوام وكانت تلك هي المرة الثانية التي أقوم بهذا الواجب... وهكذا، حيث كالعادة أحمل "اللازمة" ومعي أربعمائة فارس أو أقل، وأذكر من جملة القادة الذين اصطحبوني : ولد مقران...» .[2]

و الحقيقة أن النداء الذي وجهه الداي حسين إلى كل قبائل وسكان القطر الجزائري، و الذي دعاهم فيه إلى رص صفوفهم وتوحيد كلمتهم ورفع راية الجهاد في وجه الغزاة الفرنسيين، كان بمثابة الفرصة السانحة لزعماء فروع عائلة المقراني لكي ينسوا أحقادهم وضغائنهم ويضعونها جانبا، ويسيرون مسيرة الرجل الواحد للمشاركة في التصدي للعدوان الفرنسي. و في هذا الإطار سار الزعيمان المقرانيان محمد بن عبد السلام المقراني من فرع أولاد عبد السلام وأحمد بن محمد المقراني من فرع أولاد الحاج إلى جانب القوة التي سار بها الحاج أحمد باي قسنطينة إلى الجزائر العاصمة.

(1) Bouaziz Bengana : op.cit, p 49.

(2) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 11.

ولما كان الشيخ بن عبد الله المقراني شيخا طاعنا في السن، فقد فضل البقاء في مجانة يتتبع الأحداث عن بعد. وقد استمات الزعيمان المقرانيان في الدفاع عن الجزائر العاصمة ضمن جيش الحاج أحمد باي قسنطينة، ولعبادورا استثنائيا ومتميزا في معركتي سيدي فرج و سطاوالي و ألحقوا خسائر معتبرة في صفوف جيش الفرنسيين الغزاة.[1]

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن عائلة المقراني كانت قد شاركت إلى جانب القوة العسكرية التي جهزها الداي حسين لمواجهة الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م رغم الضعف الذي كان يلازمها.

– عائلة الرزقي

كان الشيخ الرزقي بن منصور زعيم هذه العائلة، صديقا وفيا للحاج أحمد باي منذ فترة الشباب، حيث جمعتهما رحلات الصيد حينما كان الحاج أحمد باي قائدا للعواسي.[2]

و لم يشر الحاج أحمد باي في مذكراته صراحة إلى مشاركة الشيخ الرزقي في هذه القوة في معرض كلامه عن القادة الذين رافقوه،[3] إلا أنه أشار إلى نصرته له في مواضع أخرى من هذه المذكرات لا سيما أثناء استعداده لمواجهة الفرنسيين الذين كانوا يهددون مدينة قسنطينة.[4]

وحيث أن الحاج أحمد باي لم يذكر أسماء القادة الذين لبوا نداءه عام 1830م لمقارعة الفرنسيين على سبيل الحصر، وإنما ذكر البعض منهم على سبيل المثال، فهذا يعني أن ثمة قادة شاركوا في هذه الحملة ولم ترد أسماؤهم في مذكراته، وحيث أن العلاقة التي كانت تربطه بالشيخ الرزقي علاقة متميزة واستثنائية تعود إلى فترة الشباب كما قدمنا، فإننا نرجح أن الشيخ الرزقي قد شارك إلى جانبه في القوة التي جهزها لمنازلة الفرنسيين عام 1830م.

هذا، وقد بقي الشيخ الرزقي على موقفه الثابت المناهض للاستعمار والوفي للحاج أحمد باي بعد إحكام الفرنسيين قبضتهم على مدينة الجزائر حيث كان ضمن القادة وأعيان مقاطعة قسنطينة الذين راسلوا السلطان العثماني وألحوا عليه على ضرورة إسناد لقب الباشا إلى الحاج أحمد باي.[5]

(1) L.Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Paris, France, 1891, p 16.

(2) L.Ch. Féraud : « Les Harar seigneurs des Hanencha. Etudes historiqes sur la province de Constantine », op.cit, pp 361-363.

(3) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 11.

(4) المصدر نفسه، ص 69.

(5) جمال قنان: المرجع السابق، ص 85.

وبهذا برهنت عائلة الرزقي على إخلاصها للداي حسين الذي لبت نداءه وسارت إلى جانب الحاج أحمد باي من أجل الدفاع عن العاصمة. وقد بقيت ثابتة على موقفها المناهض للاستعمار خلال السنوات الأولى للاحتلال.

ب- الموقف المتعاون مع المستعمر

تبنت هذا الموقف عائلة بوعكاز الذواودة، و عائلة ابن جلاب. فكيف تم ذلك؟ و ما هي خلفيات هذا الموقف و أسبابه؟

- عائلة بوعكاز الذواودة

رفضت عائلة بوعكاز الذواودة تلبية النداء الذي وجهه لها الداي حسين من أجل التصدي للحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، وامتنعت بالتالي على تزويد الحاج أحمد باي بفرسانها للمشاركة في الحملة التي سار بها إلى الجزائر العاصمة. وهو ذات الموقف الذي تبناه أحلاف وأنصار هذه العائلة المتنفذة بالجنوب القسنطيني،[1] وكان زعيم هذه العائلة إذ ذاك هو فرحات بن السعيد الذي كان على علاقة غير ودية مع الحاج أحمد باي قسنطينة الذي سلب من عائلته مشيخة العرب وأسند منصبها إلى أخواله من عائلة ابن قانة كما رأينا سابقا.

وقد كان فرحات بن السعيد رجلا طموحا محبا للسلطة والزعامة،* تكلم عنه الرائد الفرنسي"سيروكا" في معرض حديثه عن الجنوب القسنطيني في صدر الاحتلال بنوع من الإطراء والمبالغة في إبراز"صفاته الخارقة".[2]

---

(1) L.Ch. Féraud : «Les Ben – Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine» in R.A n° : 27, Année 1883, p 338.

* كان الشيخ ذباح ابن عم فرحات ابن سعيد رجل حرب و سياسة و حكمة، و رغم العداوة التي كانت مستشرية بينه و بين ابن أخيه الذي كان يسعى للإطاحة به، إلا أنه ترك وصية قبل وفاته عام 1824م، تدعو إلى إسناد هذا المنصب إليه لأنه رأى فيه صفات الإقدام و الفروسية التي كانت تنتفي في أبنائه، و هكذا قالت العامة:

الشيخ ذباح جمل جاب نياق   و الشيخ سعيد ناقة جاب جمال

للمزيد حول ذلك ينظر :

- عبد الكريم بوصفصاف و آخرون: معجم أعلام الجزائر في القرن التاسع عشر و العشرين، الجزء الأول، منشورات مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2002 ، ص 11.

و ينظر كذلك:

- L.Ch. Féraud : «Les Ben – Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine» in R.A n° : 24, Année 1880, p 292.

(2) Le Commandant Seroka : op.cit, p 381.

ولم تكتف عائلة بوعكاز الذواودة وزعيمها فرحات بن السعيد بالامتناع عن المشاركة في الحملة التي سار بها الحاج أحمد باي إلى الجزائر العاصمة، بل ناصبت العداء لهذا الباي ولمقاومته وسنرى ذلك لاحقا.

– عائلة ابن جلاب

رفضت عائلة ابن جلاب هي الأخرى تلبية نداء الداي حسين الداعي إلى حمل السلاح في وجه الغزاة، بل راحت تقترح التعاون مع الفرنسيين من أجل تسهيل عملية غزوهم للجزائر انطلاقا من مقاطعة قسنطينة. و كانت أولى اتصالات هذه العائلة بالسلطات الاستعمارية الفرنسية في يناير من عام 1833م حينما أرسل سلطانها علي بن جلاب رسالة إلى "الدوق دي روفيغو" "Le Duc de Rovigo" عن طريق القنصل الفرنسي المعتمد في تونس اعترف فيها بالسيادة الفرنسية على الجزائر.[1]

هكذا إذن كان موقف هاتين العائلتين من الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، وهو موقف منتظر بالنظر إلى علاقتهما السيئة ببايات قسنطينة و بالأساس الحاج أحمد باي آخر بايات البايلك.

و نشير في الأخير إلى أنه إذا كان موقف فرعي أولاد الحاج وأولاد عبد السلام المقراني مناهضا للحملة الفرنسية والاحتلال الفرنسي للجزائر بصفة عامة، فإن فرع أولاد القندوز المقراني رفض المشاركة في القوة التي شكلها الحاج أحمد باي قسنطينة وسار بها إلى مدينة الجزائر عام 1830م لصد الاحتلال.[2] والثابت أن موقف أولاد القندوز من حملة عام 1830م كان متأثرا إلى حد بعيد بالسياسة الإقصائية التي درج عليها الحاج أحمد باي ضدهم.

2– موقف العائلات الكبرى من احتلال مدينة قسنطينة عام 1837م

كانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية تدرك جيدا الأهمية الإستثنائية التي ينطوي عليها بايلك الشرق الجزائري، لذلك فقد عمل ساستها على احتلاله مباشرة بعد تمكنهم من إحكام قبضتهم على الجزائر العاصمة عام 1830م. فكيف تم لهم ذلك؟ وما هو موقف العائلات الكبرى من احتلال مدينة قسنطينة عاصمة البايلك القسنطيني؟

(1) L.Ch. Féraud : op.cit, p 298.
(2) Mouloud Gaïd : op.cit, p 114.

لقد شغل موضوع احتلال مدينة قسنطينة بال الساسة الفرنسيين منذ احتلالهم للجزائر العاصمة في 1830/07/05م. وهذا ما أكده الدوق "دي روفيغو" "De Rovigo" حينما رأى أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تبسط هيمنتها على القطر الجزائري دون احتلال شرقه ولا سيما عاصمته مدينة قسنطينة.[1] ومن أجل بلوغ هذا الهدف، كان على الفرنسيين احتلال مدينة عنابة، لذلك كانت هذه الأخيرة ثاني مدينة مستهدفة من قبلهم بعد الجزائر العاصمة،[2] لأنهم رأوا أن سيطرتهم عليها تمكنهم من توسيع نفوذهم على حساب تونس، وتقوية اقتصادهم البحري بحكم إشراف هذه المدينة على واحد من أهم الموانئ الجزائرية.[3]

و على هذا الأساس رأوا أنه لا يمكن تصور احتلال مدينة قسنطينة دون احتلال مدينة عنابة [4] لذلك سارعوا إلى احتلالها في بداية شهر أوت عام 1830م، وقد واجهوا مقاومة شرسة من قبل الأهالي و القبائل المجاورة،[5] وهذا ما يفسر عدم استقرارهم بها حيث لم يتحقق لهم الاستيلاء النهائي عليها إلا عام 1832م، و على إثر ذلك شرع الفرنسيون في التفاوض مع الحاج أحمد باي من أجل إبرام الصلح معه. [6]

غير أنهم كانوا يرومون خداعه ليس إلا، والدليل على ذلك أنه في الوقت الذي كانوا يتفاوضون فيه معه كانوا يحضرون لحملة عسكرية ضد مدينة قسنطينة.[7]

و اقتنع الماريشال "كلوزيل" "Clauzel" بضرورة القيام بعمل عسكري ضد هذه المدينة، فانصرف يحادث مسؤوليه حول هذه المسألة. ففي رسالة وجهها إلى وزيره للحربية في خريف عام 1836م، طلب فيها منه الإذن بشراء ثلاثمائة بغل من النوع الممتاز لاستغلالها في الحملة المنتظر القيام

[1] Gabriel Esquer : op.cit, p 323.

[2] H'sen Derdour : Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, Tome2, les presses de Dar El Houda, Ain M'lila, Alger, 2004, p 230.

[3] Charles Roux : France et Afrique du nord avant 1830, les précurseurs de la conquête, librairie Félix Alcan, Paris, France,1932, p 588.

[4] Paul Azan ; L'armée d'Afrique de 1830 à 1852 , collection du centenaire de l'Algérie, Paris, France, 1936 , p 190.

[5] سعيد دحماني: من هيبون – بونة إلى عنابة – تاريخ تأسيس قطب حضري، طباعة دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2002، ص 143.

[6] احميدة عميراوي: دور حمدان بن عثمان خوجة في تطور القضية الوطنية (1827–1840) ، دار البعث للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، قسنطينة، الجزائر، 1987، ص ص 119،120.

[7] Charles – André Julien : op.cit, p 133.

بها ضد مدينة قسنطينة ، وقد ألح في هذه الرسالة على ضرورة إبرام هذه الصفقة قبل شهر أكتوبر من العام نفسه. [1]

ومن مدينة عنابة انطلقت أول حملة عسكرية لإخضاع قسنطينة في 1836/11/13م.[2] و اعتقد الساسة الفرنسيون أن هذه الحملة لا تعدو أن تكون "نزهة عسكرية" يباشرها الجيش الفرنسي، ثم يعود سالما غانما.[3] و في 21 نوفمبر 1836م، بلغت الحملة أسوار المدينة، ودافع جيش الحاج أحمد باي عليها باستماتة لا مثيل لها سفهت أحلام الفرنسيين الذين غلبوا وولوا الأدبار مذعورين[4] وخسر جيش "كلوزيل" "Clauzel" – ذلك الماريشال المتهور – زهاء سبع عدد جنده.[5]

و كان فشل هذه الحملة يعني بالضرورة فشل إستراتيجية منظرها، ونعني بهذا فشل سياسة الماريشال "كلوزيل"برمتها في الجزائر.[6] وعلى هذا الأساس، اتخذت القيادة الفرنسية العليا قرارا بعزل هذا الماريشال و تعويضه بالماريشال "دامريمون" "Damrémont"،[7] الذي استفاد من مزالق سلفه، فعمل على جمع كل المعلومات المتعلقة بقوة الحاج أحمد باي، واطمئن على الجهة الغربية من البلاد حيث أبرم معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر في 30 ماي 1837م، [8] وشن حملة عسكرية ثانية على المدينة والتي بلغت سطح المنصورة في 05 أكتوبر 1837م. ورغم المقاومة الباسلة التي أبداها جيش الحاج أحمد باي والتي أودت بحياة الماريشال "دامريمون" إلا أن الفرنسيين تمكنوا من اقتحام المدينة واحتلالها رسميا يوم 13 أكتوبر 1837م. [9]

---

(1) Gabriel Esquer : Correspondance du Maréchal Clauzel (1835-1837), Tome II, Editions la rose, Paris V, France 1948 , p 382 : lettre adressée au ministre de la guerre le 08 septembre 1836.

(2) L. Ch. Féraud : «Documents pour servir à l'Histoire de Bône», in R.A n°: 32, Année 1888, p 196.

(3) Victor Louis Charles de Riquet Duc de Caraman : Expédition de Constantine en 1836, imprimeur libraire, Toulouse, France 1843, p 28.

(4) Charles – André Julien : op.cit, p 133.

(5) Charles – Robert Ageron : Histoire de l'Algérie contemporaine, P.U.F, 3eme éditions, France, 1969, p14.

(6) عبد الكريم بجاجة: "معركة قسنطينة 1836–1837 "، تعريب محمد الهادي لعروق، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1984، ص 27.

(7) احميدة عميراوي: المرجع السابق، ص 142.

(8) Abdel jelil Temimi : op.cit, p 193.

(9) صالح فركوس: تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، المراحل الكبرى، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، 2005، ص ص 218–220.

و قد ابتهج الساسة الفرنسيون بذلك، وحاز هذا الحدث على قسط كبير من اهتمامهم، وأثلج صدر الملك الفرنسي الذي ألقى كلمة مطولة حول الوضع في الجزائر خلال الجلسة الملكية المنعقدة في ديسمبر 1837م، والتي تكلم فيها بأريحية عن العلم الفرنسي الذي أصبح يرفرف فوق أسوار مدينة قسنطينة.[1] وباحتلال مدينة قسنطينة، يكون الساسة الفرنسيون قد بلغوا الهدف الذي كانوا قد خططوا له منذ سيطرتهم على مدينة الجزائر العاصمة عام 1830م، وهو احتلال هذه المدينة بحكم أنها عاصمة الشرق الجزائري، كما اتخذوها كقاعدة لبسط هيمنتهم على سائر أرجاء المقاطعة.

و في خضم هذه الأحداث تباينت مواقف العائلات الكبرى من الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة بين مناهض له و متعاون معه. وتبعا لذلك، فقد تشكلت جبهتان: الجبهة الأولى فضلت الانتصار إلى صف المقاومة والدفاع عن المدينة إلى جانب القوة التي استنفرها الحاج أحمد باي، أما الجبهة الثانية، فقد فضلت التعاون مع الفرنسيين الغزاة، و مساعدتهم على احتلال المدينة. و يمكن تفصيل ذلك في ما يلي:

أ- الموقف المناهض للمستعمر

بعد أن تمكن الحاج أحمد باي والقبائل التي عضدته من إحباط الحملة الفرنسية الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م، شرع في الاتصال بشيوخ قبائل المقاطعة و أعيانها، وكتب لهم العديد من الرسائل طالبا منهم الصمود والالتفاف حوله لمواجهة الفرنسيين الذين ما زالوا يهددون مدينة قسنطينة.[2]

و الثابت أن زعماء العائلات التي ندرسها كانوا ضمن الأطراف التي اتصل بها الحاج أحمد باي وحادثهم حول هذه المسألة. و بالعودة إلى مذكرات هذا الباي، يمكننا التعرف على العائلات الكبرى التي وقفت إلى جانبه في محنته حينما كان الفرنسيون يهددون باحتلال مدينة قسنطينة. فقد أشار في هذه المذكرات إلى القادة والزعماء الذين راسلهم، حيث كتب: «...لقد قمت منذ زمن طويل باستدعاء جميع الجيوش في مقاطعة قسنطينة، وقد هب جميع القادة لتلبية ندائي، وأذكر من جملة من حضر: مسعود بن المبارك شيخ ريغة، رزقي شيخ الحنانشة، الحاج رجب شيخ الحراكتة، العربي بوضياف شيخ الأوراس، محمد بن بوعزيز شيخ بلازمة ، شيخ أولاد بوعون، أحمد المقراني، محمد بن

(1) Ernest Watbled: op.cit, p 207.

(2) Marcel Emerit : l'Algérie à l'époque d'Abdelkader, La rose, Paris, France, 1951, p 256.

عبد السلام المقراني، ولد بن عبد الله المقراني، شيخ أولاد الحداد بن محمد مسعود، بن الحفصي المقر اني، قائد ساحل سكيكدة، قائد با أحمد، شيخ المعاطلة بوطيب البادي، محمد بن مراد قائد الشقفة، بوعزيز بن قانة شيخ العرب، محمد بن الحاج قائد التلاغمة، بوعكاز شيخ فرجيوة، بن عز الدين شيخ الزواغة، محمد بن بوعزيز قائد أولاد عبد النور...» .[1]

وعليه، فإنه بناء على ما ورد في مذكرات الباي، فإن العائلات التي انتصرت له ووقفت موقف المدافع عن المدينة هي عائلة الرزقي التي مثلها الشيخ الرزقي، وعائلة المقراني بفرعيها:فرع أولاد الحاج الذي مثله أحمد بن محمد عبد المقراني، وولد بن عبد الله المقراني، وبن الحفصي المقراني، وفرع أولاد عبد السلام الذي مثله محمد بن عبد السلام المقراني، وعائلة ابن قانة التي مثلها شيخ العرب بوعزيز بن قانة، وعائلة بوعكاز بن عاشور التي لم يذكر ممثلها، و الراجح أنه الشيخ أحمد بوعكاز، ثم عائلة أولاد عز الدين، ونتصور أن يكون زعيمها محمد بن عز الدين وذلك بناء على علاقة الصداقة التي كانت تربطه بالباي. وبعد أن تعرفنا على العائلات التي وقفت موقف المدافع عن مدينة قسنطينة، فهل لنا أن نتساءل عن الدور الذي لعبته كل عائلة في معركتي عامي 1836م و1837م؟

– عائلة بوعكاز ين عاشور

كان الشيخ أحمد بوعكاز زعيم عائلة بوعكاز بن عاشور صديقا وفيا للحاج أحمد باي قسنطينة، الذي أسند إليه مشيخة فرجيوة ومن هذا المنطلق فقد وقف هذا الشيخ إلى جانب قوات الحاج أحمد باي في الدفاع عن مدينة قسنطينة أثناء الهجوم عليها عامي 1836م و1837م. [2] وقد ذكر "مرسيي" أن فرسان أحمد بوعكاز وقفوا إلى جانب فرسان شيخ العرب بوعزيز بن قانة أثناء دفاعهم عن المدينة خلال الحملة الفرنسية الأولى عليها عام 1836م.[3] وأما "فيرو" فقد أكد أن فرسان الشيخ أحمد بوعكاز قاتلوا الفرنسيين أثناء حملتهم الأولى والثانية على المدينة قتالا مستميتا. وعندما أحكم الفرنسيون قبضتهم على المدينة عاد الشيخ أحمد بوعكاز إلى مقر حكمه بفرجيوة مصحوبا بفرسانه

(1) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 69.

(2) علي خنوف: السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق الجزائري – نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي–، مطبعة العناصر، الجزائر، دت، ص 62.

(3) Ernest Mercier : op.cit, p18.

الذين صاحبوه في مهمة الدفاع عن المدينة وكله حذر و منتظرا ما ستسفر عنه الأحداث.[1]
وبهذا يتضح لنا أن عائلة بوعكاز بن عاشور بقيت وفية للحاج أحمد باي، كما بقيت وفية لموقفها المعادي للاستعمار الفرنسي منذ عام 1830م.

- عائلة أولاد عز الدين:

لم يكن موقف عائلة أولاد عز الدين بالزواغة يختلف عن موقف عائلة بوعكاز بن عاشور بفرجيوة فقد وقفت هذه العائلة إلى جانب الحاج أحمد باي أثناء دفاعه عن المدينة. ففي الوقت الذي انطلقت فيه الحملة الفرنسية الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م وبلغت أنباؤها مسامع الحاج أحمد باي، سارع هذا الأخير إلى الاتصال بصديقه المخلص الشيخ بورنان بن عز الدين أحد زعماء هذه العائلة، وطلب منه حماية نساءه و سائر ممتلكاته الثمينة التي أرسلها له.[2]

وأثناء الحملة الفرنسية الثانية على مدينة قسنطينة عام 1837م، وقفت هذه العائلة إلى جانب قوات الباي كما ذكرنا، وبعد سيطرة الفرنسيين على المدينة عاد أولاد عز الدين إلى مقر قيادتهم بالزواغة شأنهم في ذلك شأن عائلة بوعكاز بن عاشور رافضين التواصل مع الإدارة الاستعمارية.[3]
وسوف تكشف الأحداث أن هذه العائلة ستتسبب في متاعب كثيرة للإدارة الاستعمارية خلال السنوات اللاحقة لسقوط مدينة قسنطينة.

- عائلة ابن قانة:

كانت عائلة ابن قانة من العائلات المقربة إلى الحاج أحمد باي، لذلك فقد شاركت إلى جانبه في صد الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، كما وقفت إلى جانبه كذلك في التصدي للحملة الفرنسية على مدينة قسنطينة عامي 1836م و 1837م.

وكان زعماء هذه العائلة حينئذ هم: بوعزيز بن قانة وابنه محمد بن قانة، إضافة إلى علي بن القيدوم بن قانة، وأحمد بلحاج بن قانة، والعربي بن الحاج بن قانة، وسي أحمد بن الحاج بن قانة، وسي محمد الصغير بن قانة، وأحمد بن بوزيد بن قانة، وبولخراص بن محمد بن الحاج بن قانة، وسي ابراهيم بن قانة.[4]

(1) L.Ch. Féraud : «Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine», op.cit, p 86.

(2) Ernest Mercier : op.cit, p18.

(3) L.Ch. Féraud : op.cit, p 244.

(4) Les Bengana depuis la conquête Française, Paris, France, 1879, p 4.

و الثابت أن أفراد هذه العائلة كانوا يمارسون عدة وظائف على مستوى قياداتهم في عهد الحاج أحمد باي، غير أن بوعزيز بن قانة كان يشغل أهم منصب وهو منصب شيخ العرب.

و قد عضد فرسان هذه العائلة الحاج أحمد باي أثناء التصدي للحملة الفرنسية الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م، حيث فضل شيخهم بوعزيز بن قانة التخندق إلى جانب فرسان الباي على الضفة اليمنى لوادي الرمال.[1] وعندما شن الفرنسيون حملتهم العسكرية الثانية على المدينة عام 1837م، كان بوعزيز بن قانة شيخ العرب من المدافعين على المدينة إلى جانب قوات الحاج أحمد باي، وقد أشار هذا الأخير في مذكراته إلى ذلك كما أسلفنا. والراجح أن شيخ العرب بوعزيز بن قانة لم يكتف فقط بالمشاركة في القوة التي استنفرها الحاج أحمد باي لمواجهة الغزاة، وإنما أيضا كان قد لعب دورا محوريا في ترتيب الخطة الدفاعية التي اعتمدها الحاج أحمد باي، كما كان دوره بارزا أيضا في سير المعارك وكذا توجيه قوات الحاج أحمد باي بعد نهاية المعركة والتأثير على قرارات الباي. وهذا ما نفهمه مما كتبه الحاج أحمد باي في مذكراته حينما ذكر أنه بعد انكسار جيشه أمام الفرنسيين، فكر في خطة بديلة تنصرف إلى محاصرة جيش الغزاة اقتصاديا، وذلك بالتنقل إلى مدينة عنابة، وقطع كل سبل الاتصالات التي يمكن أن تزود الجيش الفرنسي بكل ما يحتاجه من مؤن، غير أن هذه الخطة لم يكتب لها النجاح بسبب معارضة شيخ العرب لها و الذي استطاع أن يفرض رأيه على الحاج أحمد باي وذلك بالتوجه نحو الصحراء، رغم أن هذا الأخير كان قد استهجن ذلك حيث قال " لم استحسن هذه النصيحة، ولكنه لم يكن لي أهل عدا أبنائي أقرب من بوعزيز... وعليه انضممت إلى رأيه".[2]

في ضوء ما تقدم نستنتج أن بوعزيز بن قانة لعب دورا محوريا في مواجهة الفرنسيين خلال حملتيهما العسكرية على مدينة قسنطينة، و نلاحظ أيضا أنه كان يمارس نفوذا أدبيا على الحاج أحمد باي.

– عائلة المقراني

تباينت مواقف فروع عائلة المقراني من احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة، فإذا كان الفرعان الرئيسيان لهذه العائلة قد وقفا موقف المعارض للاستعمار والمدافع عن المدينة، وهما فرعا أولاد الحاج

(1) Ernest Mercier : op.cit, p 18.

2 محمد العربي الربيري ، المصدر السابق، ص ص،76، 77

و أولاد عبد السلام، فإن فرع أولاد القندوز فضل التعاون معه. و الواقع أن أحمد بن محمد المقراني – وهو من فرع أولاد الحاج – كان قد سار إلى مدينة قسنطينة من أجل الدفاع عنها إلى جانب قوات الحاج أحمد باي كغيره من رؤساء القبائل والعائلات الكبرى وكل المتعاطفين مع الباي، وقد أقدم أحمد المقراني على هذه الخطوة إثر الزيارة التفقدية التي أداها الباي في صيف عام 1836م إلى مختلف قبائل المقاطعة و التي حثهم فيها على الاستعداد لمواجهة الفرنسيين.[1] وعندما شن الفرنسيون حملتهم الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م، وقف أحمد المقراني بقواته إلى جانب قوات الباي . وقد عانى الجيش الفرنسي كثيرا من فرسان هذا الزعيم،[2] وهو ذات الموقف الذي وقفه أحمد بن محمد المقراني من الحملة الفرنسية الثانية على المدينة عام 1837م.[3]

و بالرجوع إلى ما سجله الحاج أحمد باي في مذكراته، فإننا نكاد نجزم أن عائلة المقراني سارعت برمتها إلى نصرة الباي في الذود على مدينة قسنطينة. وشكلت جبهة شبه موحدة، ضمت كل الزعماء البارزين لفرعي العائلة (أولاد الحاج أولاد عبد السلام) بما في ذلك صهره محمد بن عبد السلام المقراني،[4] وهذا يتناقض مع ما كتبه بعض المؤرخين الفرنسيين أمثال "مرسيي" الذي قال أن الباي أودعه سجن القصبة عندما شق عصا طاعته و ناصبه العداء.[5] و هو قول يؤكد مرة أخرى أن الكتاب الفرنسيين الذين عاصروا تلك الاحداث كانت معظم كتاباتهم تفتقد عنصر الموضوعية، لأن هدفهم المركزي من وراء ذلك هو محاولة إعطاء صورة قاتمة عن المشهد السياسي الذي ميز نهاية العهد العثماني لتبرير الاستعمار الفرنسي للجزائر.

- **عائلة الرزقي**:

وقف الشيخ الرزقي زعيم هذه العائلة إلى جانب الحاج أحمد باي أثناء منازلته للقوات الفرنسية خلال الحملة الفرنسية الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م. وقد أكد "فيرو" أن العلاقة بين الباي وهذا الشيخ أخذت تتسمم منذ الحملة الفرنسية الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م، حيث لم

(1) Ernest Mercier : op.cit, p 48.
(2) Mouloud Gaid : Mokrani, op.cit, p 41.
(3) L.Rinn : op.cit, p 20.

(4) محمد العربي الزبيري : المصدر السابق، ص69.

(5) Ernest Mercier : Le Bachaga Mokrani et les causes de L'insurrection indigène de 1871, extrait du bulletin de la Réunion d'etudes Algériennes, Imp.J. Laffray. Paris, France, S.D, p 12.

يتمكن من تجنيد العدد الكافي من الفرسان، وعليه فإن مساهمته في الدفاع عن هذه المدينة كانت هزيلة ولا تكاد تذكر، مما أثار حفيظة الباي، فأصدر أمرا بإلقاء القبض عليه. ورغم محاولة الشيخ الرزقي تلطيف الأجواء والتخفيف من غضب الباي، حيث قام بإرسال ابنه الطاهر إليه من أجل تبرير ضعف القوة التي جندها أثناء الدفاع عن المدينة، إلا أن الباي لم يهدئ من روعه، بل أنه ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث أرسل خطابا إلى كاهية مدينة الكاف بتونس وطلب منه التعاون معه من أجل القضاء على هذا الشيخ، وعلى إثر ذلك سار الشيخ الرزقي إلى مدينة عنابة، واتصل بالحاكم العام الفرنسي الجنرال "دامريمون" عارضا عليه خدماته، كما تعهد له بتوفير الأمن للجيش الفرنسي الذي سيتوجه إلى مدينة قسنطينة قصد احتلالها عندما يمر بإقليم الحنانشة.[1]

و يفهم مما كتبه "فيرو" أن الشيخ الرزقي كان مضطرا إلى التعاون مع الفرنسيين لاسيما خلال حملتهم الثانية التي شنوها على مدينة قسنطينة في الفاتح من أكتوبر عام 1837م، فهو من جهة لم يستطع التوغل إلى التراب التونسي الذي كان يشكل ملاذا آمنا له ولكل الجزائريين الفارين من بطش سلطة العثمانيين ومن بعدهم الفرنسيين لأن كاهية الكاف كان يطارده ويمنعه من ذلك بناء على التماسات الحاج أحمد باي، و من جهة أخرى كان غريمه الشيخ الحسناوي يترصد كل حركاته و يضايقه، فكل هذه المعطيات جعلته يفكر جديا في التعاون مع الفرنسيين والدخول في طاعتهم.[2]
هذه إذن مبررات جنوح الشيخ الرزقي إلى الفرنسيين حسب "فيرو". ورغم أنها مبررات وجيهة إلا أنه لا يمكن الاطمئنان إليها كثيرا وبصورة مطلقة لأن ميل هذا الشيخ إلى المستعمر يمكن أن نجد له تفسيرا في طموحه ورغبته في الحصول على مجد سياسي تحت راية الفرنسيين شأنه في ذلك شأن سائر الزعماء الأهليين الذين فضلوا التعاون مع الفرنسيين.

ولا يكتمل الحديث عن موقف الشيخ الرزقي من الحملة الفرنسية على مدينة قسنطينة عام 1837م دون الإشارة إلى ملاحظة مركزية تتمثل في أن الحاج أحمد باي لم يشر في مذكراته إلى الرواية التي أوردها "فيرو" والمتعلقة باضطراب العلاقة بينه وبين هذا الشيخ، بل بالعكس فإن هذا الشيخ كان ضمن القادة الذين كان الحاج أحمد باي يتواصل معهم عندما كان الفرنسيون يهددون عاصمة بايلكه.[3] مما يجعلنا

(1) L. Ch. Féraud : op.cit, p 372.
(2) Idem: p 372.
(3) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 69.

نشك في صحتها، ونتصور استمرار العلاقة بين الطرفين على الأقل إلى غاية يوم 1837/10/13م تاريخ سقوط المدينة في قبضة المحتل لأن الحاج أحمد باي ليس من مصلحته الإستراتيجية أن يتخذ عدوا له في تلك الفترة الحرجة. أما هدف "فيرو" من وراء ذلك، هو محاولة إبراز أن علاقات الحاج أحمد باي بمقربيه كانت دائما مضطربة وتتسم بالعداء و الحروب و الفوضى، وهي أطروحة كولونيالية تبناها معظم الكتاب والمؤرخين الفرنسيين لتبرير احتلال بلادهم للجزائر.

ب- الموقف المتعاون مع المستعمر

مثلت هذا الموقف كل من عائلة بوعكاز الذواودة وعائلة ابن جلاب.

- عائلة بوعكاز الذواودة

إن موقف عائلة بوعكاز الذواودة من الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة عام 1837م هو في واقع الأمر امتداد لمواقف هذه العائلة ومواقف زعيمها فرحات بن السعيد السابقة من الاحتلال الفرنسي الذي عمل كل في ما في وسعه من أجل إغراء الفرنسيين على احتلال مدينة قسنطينة.

لقد كثف زعيم هذه العائلة الشيخ فرحات بن السعيد من اتصالاته بالقادة والمسؤولين الفرنسيين بعد انكسار حملتهم العسكرية الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م. فعندما اعتلى الكونت "دامريمون" "Damrémont".* دفة الحكم كحاكم عام على الجزائر عام 1837م، واصل فرحات بن السعيد اتصالاته به. وقد نشر "جورج إيفير" "G. Yver" نص الرسالة التي بعثها هذا الشيخ إلى الحاكم العام. ورغم أنه لم يذكر تاريخ إرسالها إلا أنه من الثابت أنها كتبت خلال عام 1837م ، وقبل سقوط مدينة قسنطينة في قبضة الاحتلال الفرنسي وذلك بالنظر إلى مدة حكم هذا الكونت (من1837/04/03م إلى 1837/10/12م) و التي انتهت بمقتله تحت أسوار المدينة خلال عملية حصارها الثاني. وقد استهل الشيخ فرحات بن السعيد رسالته بالدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن ينصر هذا الحاكم العام، ويمكنه

---

* دامريمون دوني "Denys de Damrémont" هو حاكم عام فرنسي و أحد جنرالات الجيش الفرنسي المعروف بالجيش الإفريقي "L'armée d'Afrique"، عين في منصبه بتاريخ 1837/02/12م، ووصل إلى مدينة الجزائر بتاريخ 1837/04/03م، شارك في الحملة الفرنسية الثانية على مدينة قسنطينة عام 1837م، وقتل أمام أسوار هذه المدينة خلال هذه الحملة بتاريخ 1837/10/12م، وبذلك كانت مدة حكمه قصيرة في الجزائر إذ دامت سبعة أشهر فقط.

حول هذا الحاكم العام ومدة حكمه ينظر:

-Anonyme : « Histoire de L'Algérie : Liste chronologique des Maréchaux de France, officiers généraux… », in R.A n° 31, Année 1887 p 439.

من السيطرة على مدينة قسنطينة، كما كتب له عبارات تشجعه على المضي قدما لاحتلال هذه المدينة. ومن بين ما جاء في هذه الرسالة: «...إنه لم يساورني البتة أدنى شك في أنكم سوف تحققون نجاحا كبيرا في حالة هجومكم على مدينة قسنطينة... نحن متمركزون بالقرب من هذه المدينة، وتحديدا في ضيافة قبيلة أولاد عبد النور التي وصلناها بعد أن اجتزنا مسافة سير طويلة دامت مدتها ثمانية أيام كاملة. وأحيطكم علما أنني حشدت جيشا كبيرا قوامه ألف فارس، بالإضافة إلى عدد معتبر من سكان المقاطعة الذين فضلوا التعاون معنا، وكلنا مستعدون لتحقيق هذا الحلم الذي انتظرناه بعد صبر وأناة. وفي الأخير ندعو الله سبحانه وتعالى أن ينصر قضيتنا ويسهل طريقنا لبلوغ الهدف المنشود...» .[1]

إن المتمعن في فحوى هذه الرسالة يدرك بداهة الدور الكبير الذي لعبه هذا الشيخ في إنجاح الحملة الفرنسية الثانية على مدينة قسنطينة عام 1837م، ولو على المستوى المعنوي لأن هذه الرسائل كانت تساهم بما لا يدع مجالا للشك في الرفع من معنويات الجيش الفرنسي، وبالمقابل فهي تعمل على تحطيم معنويات الطرف الآخر في المعادلة، ونعني به جيش الحاج أحمد باي قسنطينة. وربما هذا الدور هو الذي دفع بالبعض إلى القول بأن الشيخ فرحات بن السعيد زعيم عائلة بوعكاز الذواودة تعاون بشكل مركزي مع الغزاة الذين أحكموا قبضتهم على مدينة قسنطينة عام 1837م.[2]

و تبين لنا هذه الرسالة أيضا أن الشيخ فرحات بن السعيد، كان لا يروم الإقتراب من مدينة قسنطينة إلا عندما يتيقن أن الغزاة اقتنعوا وصمموا على ضرورة احتلالها، ذلك أنه عندما قرب موعد الحملة الثانية على المدينة، وجدناه قد عسكر بقبيلة أولاد عبد النور المتاخمة لمدينة قسنطينة من جهة الغرب. كما تدل أيضا على أن الرجل كان ينسق مع الفرنسيين ترتيبات هذه الحملة، أو على الأقل كان يعلم بتاريخها.

و السؤال الذي يطرح في هذا السياق، لماذا كان الشيخ فرحات بن السعيد يتحاشى الاقتراب من المدينة قبل سقوطها في خريف عام 1837م رغم أنه كان يتواصل مع الغزاة حول هذا الموضوع.؟

لقد وجدنا الجواب لدى المترجم الفرنسي أ. وتبلاد E.Watbled، و عند الحاج أحمد باي قسنطينة وهو خصم وعدو الشيخ فرحات بن السعيد.

---

(1) George Yver : op.cit : Lettre adressée au gouverneur général, S.D, p 15.

(2) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المجلد الخامس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2005، ص12.

لقد ذكر المترجم الفرنسي أن الاتصالات التي باشرها الشيخ فرحات مع الجنرال "دامريمون" بعد فشل الحملة الفرنسية الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م كانت قد أفضت إلى اتفاق ثنائي يقضي بالتقاء الطرفين تحت أسوار المدينة لتنسيق الجهود وفرض الحصار الثاني عليها، غير أن الشيخ فرحات بن السعيد لم يحترم الموعد الذي ضربه مع الحاكم العام الفرنسي، ويرجع المترجم الفرنسي ذلك إلى أحد الاحتمالين: يتمثل الاحتمال الأول في رغبة هذا الزعيم التريث لمعرفة نتيجة المنازلة التي ستندلع بين الفرنسيين والحاج أحمد باي، و في ضوء نتيجتها يتخذ قرارا في هذا الشأن. أما الاحتمال الثاني فيتمثل في عدم مقدرة هذا الزعيم على تشكيل قوته وتجميع كل فرسانه في الموعد المتفق عليه بسبب تبعثرها في مناطق واسعة من الصحراء، ضف إلى ذلك أن هذه العملية تتطلب وقتا كبيرا لتجسيدها عمليا.[1]

أما الحاج أحمد باي قسنطينة العليم بنفسية خصمه وعدوه الشيخ فرحات بن السعيد، فقد أجاب عن هذا السؤال في مذكراته إجابة حاسمة، حينما قال أن هذا الشيخ كان يتحاشى دخول المدينة قبل سقوطها حتى يتبين له الطرف المنتصر من الطرف المنكسر، فقد جاء في مذكراته : «...عزم فرحات على الذهاب إلى ناحية قسنطينة التي تكون مسرحا لكثير من الأمور الهامة، وكما ذكرت، عمل على أن لا يصل إليها إلا عندما يتم النصر لواحد من الطرفين... » .[2] و بالفعل فإن الشيخ فرحات بن السعيد دخل المدينة بعد سقوطها الذي كان بتاريخ 1837/10/13م.

والحقيقة أن مجيئه كان يوم 1837/10/27م، أي بعد مرور حوالي أسبوعين عن تاريخ سقوطها، هكذا يقول المؤرخون والعسكريون الفرنسيون المعاصرون لتلك الأحداث ومنهم أ.مرسيي.[3] و في تلك الأثناء، سئل الشيخ فرحات بن السعيد من قبل الفرنسيين عن سبب تأخره عن الموعد، فأجابهم بعبارات رقيقة تنطوي على كثير من المراوغة حيث قال لهم: «...إنه لم يخطر على بالي في يوم من الأيام أنكم لم تتمكنوا من السيطرة على مدينة قسنطينة، وأنني لم أرغب في المشاركة إلى جانبكم في حصار المدينة، خشية أن يراني أحمد باي في صفوفكم، فتزداد كبرياؤه ويشعر بالنخوة عندما يرى قواتنا متحدة ضده بمفرده، كما أنني كنت أرغب في عدم إثارة حفيظة الأهالي خشية اتخاذهم لموقف معادي ضدي، و أخيرا فإنني كنت أرغب في أن أترك للفرنسيين وحدهم دون سواهم شرف تحقيق النصر وسحق أحمد باي...» .[4]

---

[1] Ernest Watbled : «Cirta – Constantine II^{e} partie», in R.A n° :15, Année 1871, p 32.

[2] محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 80.

[3] Ernest Mercier : Histoire de Constantine, op.cit, p 444.

[4] Ernest Watbled : op.cit, p 32.

هذه هي الحجج التي ساقها الشيخ فرحات بن السعيد للفرنسيين بهدف تبرير موقفه، وهي حجج واهية. والثابت أنها لم تكن تقنع الفرنسيين الذين أدركوا نواياه التي كانت تنصرف إلى تحقيق أهداف واضحة، وهي القضاء على الحاج أحمد باي وتعيينه على رأس مشيخة العرب، و ذلك بأقل قدر ممكن من الخسائر أو دونها.

وقد نشر "جورج إيفير" رسالة أخرى للشيخ فرحات بن السعيد، غير أنه لم يذكر إسم المرسل إليه، وإنما اكتفى بذكر صفته وهو القائد الأعلى للجيش الفرنسي، كما أنه لم يذكر تاريخ كتابتها، غير أننا نفهم من الوقائع التي ساقها والأحداث التي تكلم عنها أنها أرسلت إلى الماريشال "فالي"* لأنها وردت فيها العبارة الآتية: «...إننا نبارك حسن اختياركم لقايد البلد الذي ينحدر من عائلة دينية ذات حظوة وجاه...» ، [1] علما أن تعيين حمودة بن الشيخ الفقون كحاكم على مدينة قسنطينة كان من قبل هذا الماريشال.[2]

أما عن تاريخ هذه الرسالة فيمكن حصره ما بين (1837/10/13م و1837/10/27م)، أي خلال الفترة التي كان يوجد فيها فرحات بن السعيد في ضيافة قبيلة أولاد عبد النور لأن العبارات الواردة في الرسالة تدل على أنه كان يطلب الإذن للاقتراب من الفرنسيين. وعموما فإن الرسالة فيها دعوة واضحة إلى التقرب أكثر إلى الطرف الفرنسي الذي أصبح يقيم في مدينة قسنطينة، وأبرز ما ورد فيها: «...إنني أرسل إليكم رجلين من رجالي، وإنني أتوسل إليكم ألا تنسوني...إن عدوكم هو

* ولد سيلفان شارل فالي Sylvan – Charles Valée بتاريخ 1773/12/17م ببريان لوشاطو Brienne le chateau ، انخرط في صفوف الجيش الفرنسي منذ عام 1792م كطالب ضابط في مدرسة المدفعية بشالون التي تخرج منها بتاريخ 1793/06/01 برتبة ملازم، ثم تدرج في الرتب والمسؤوليات العسكرية حيث تمت ترقيته إلى رتبة نقيب في 1795/04/27م فمقدم في 1804/06/07م، ثم عميدا في 1807/01/12م، ثم جنرال فرقة في 1809/07/28م، فجنرال قسمة في 1811/08/06م، ومفتش عام للمشاة (1822م-1830م)، وأخيرا أحيل على الاستيداع في 1830/09/08م.وفي عام 1834م عاد إلى صفوف الجيش الفرنسي. وفي 1837/11/11م تقلد فالي عصا الماريشالية، وفي 1837/12/01م عين حاكما عاما على الجزائر بصفة رسمية، وبقي على رأس هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات وشهر وعشرين يوما ثم عاد إلى فرنسا في 1841/01/20م التي توفي فيها في 1846/08/15م.

للمزيد من التفاصيل حول المسار المهني للماريشال فالي ينظر:

- Georges Yver : op.cit, voir l’introduction.

[1] G. Yver : op.cit : Lettre adressée au gouvernement général, S.D, p 15.

[2] محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص147.

عدوي، وصديقكم هو صديقي، والذي يرضيكم هو الذي يرضيني، ستجدونني إن شاء الله وفيا لكم...لقد عانيت كثيرا في الماضي من تصرفات أحمد باي الطائشة الذي أنزلني منزلة لا تليق بمقامي، وإنني أرغب في الانتقام منه. إنني على يقين أنكم سوف توفون بوعودكم، وبإمكانكم الاعتماد علي وعلى وفائي وإخلاصي لكم لأننا لدينا قضية مشتركة تجمع بيننا...» .[1]

ويبدو أن الماريشال "فالي" قبل طلب دخول فرحات بن السعيد إلى مدينة قسنطينة، حيث كتب له رسالة قبل قدومه إليها بيومين يدعوه فيها إلى دخولها آمنا. وأهم ما جاء فيها: "... إننا نعلم بقدومكم إلى قبيلة أولاد عبد النور، وإننا ندعوكم إلى التقدم إلينا يوم الغد، وسوف نعمل على تنسيق الجهود من أجل القضاء على عدونا المشترك أحمد باي، الذي أخذت قواه تتلاشى وتنهار منذ استيلائنا على عاصمته، وإنني أطلب منكم الاتصال بمختلف القبائل وطمأنتهم بأن سمو الماريشال سيمنح "الأمان" للذين يضعون السلاح ويعبرون عن إرادتهم الفعلية في التعاون معنا. فليطمئن الجميع على أن التسامح والصفح هو من شيمنا... ".[2] وقد أرسل الماريشال "فالي" رسالة أخرى في اليوم نفسه إلى أحمد الشريف شيخ قبيلة ريغة بالقرب من مدينة سطيف يطلب منه هو الآخر التقرب من مدينة قسنطينة مثلما فعل صديقه الشيخ فرحات بن السعيد. وأهم ما جاء في هذه الرسالة: «... لقد بلغنا خطابكم الذي أرسلتموه لنا رفقة صديقنا جميعا الشيخ فرحات، وكم كانت بهجتي كبيرة حينما علمت أنكم اقتفيتم أثر هذا الشيخ وسرتم نحونا بمدينة قسنطينة، إن الصنيع الذي تقدمون عليه أنتما الاثنين هو في واقع الأمر في خدمة القضية الفرنسية التي هي قضية المسلمين الحقيقيين الطيبين أصدقاء النظام والأمن...» .[3]

على هذه الشاكلة تعامل الماريشال "فالي" و القادة الفرنسيون مع الزعماء الأهليين الذين استقطبوهم، و حاولوا إقناعهم بمشروعية هذا التعاون، لأنهم كانوا يدركون جيدا أن مواقفهم من الاستعمار تتناقض مع عقيدتهم الإسلامية، وحاولوا أو يصوروا لهم بأن "المهمة الحضارية" أو القضية الفرنسية كما ورد في المراسلة هي من صميم مهامهم باعتبارهم مسلمين حقيقيين طيبين. ونفهم بمفهوم المخالفة أن المسلمين الذين يحاربون المشروع الكولونيالي هم مسلمون مزيفون ورديئون وأعداء النظام و الأمن في نظرهم، وهو تصور عقيم ويجافي الحقيقة التاريخية.

[1] G. Yver : op.cit : Lettre adressée au Gouverneur Général, S.D, p p 14,15.
[2] Ibid : Lettre adressée à Ferhat Ben Said le 25 octobre 1837, pp 15,16.
[3] Ibid : Lettre adressée au Cheik Ahmed Ech Chérif le 25 octobre, 1837, p16.

في 27 من أكتوبر 1837م دخل الشيخ فرحات بن السعيد مدينة قسنطينة و لاحظ الفرنسيون مجيئه عبر طريق عين الباي، حيث كان مصحوبا بقوة عسكرية كبيرة قدرت بألف (1000) فارس و كان برفقة والده أحمد بن شنوف وكذلك العديد من أعيان عائلته وأعيان المنطقة بصفة عامة . ولما رآه الجنود الفرنسيون أطلقوا عليه اسم "ثعبان الصحراء" "Le serpent du désert ".[1]*

و ذكر الرائد الفرنسي "سيروكا" أن الشيخ فرحات بن السعيد استقبل استقبالا حارا من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية، وأن الفرنسيين لم يكن في مقدورهم إلا استقباله بتلك الطريقة.[2] و نلمس نوعا من الحسرة لدى هذا الرائد، فكأنه أراد أن يقول أنه لولا الظروف الإستثنائية التي كانت تمر بها فرنسا بالجزائر آنذاك لاسيما بعد فشل الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة عام 1836م والمقاومة الباسلة التي أبداها مقاومو الحاج أحمد باي أثناء الحصار الثاني لمدينة قسنطينة عام 1837م، لما استقبل الشيخ فرحات بهذه الطريقة وذلك جزاء له عن تخلفه عن الالتحاق بالفرنسيين أثناء حصارهم الثاني لمدينة قسنطينة في خريف عام 1837م.

وبعد مرور مدة قصيرة من وصول فرحات بن السعيد إلى مدينة قسنطينة، كتب الماريشال "فالي" رسالتين إلى مسؤوليه في العاصمة الفرنسية باريس يخبرهم فيها بهذه التطورات. وقد وجه الرسالة

---

[1] Ernest Mercier : op.cit, pp 444,445.

* ذكر "مرسيي" أن الجنود الفرنسيين أطلقوا عليه هذا الاسم دون أن يعرفوا سبب ذلك. أما مواطنه "أ. واتبلاد" فقد أكد كذلك جهله لأسباب هذه التسمية، وأضاف أن الشيخ فرحات بن السعيد أطلق عليه هذا الاسم يوم 1837/10/27م فقط، وقبل هذا التاريخ كان يسمى "البهلوان على حد الحسام" "Le voltigeur sur la lame du sabre" وهي التسمية التي كان يفضل استعمالها في مختلف رسائله.

ويبدو أن "شارل فيرو" العليم بخبايا العائلات الكبرى تمكن من فك لغز هذه التسمية، حيث ذكر أنه بناء على المعلومات التي استقاها من بعض الضباط الفرنسيين الذين شاركوا في الحملة الفرنسية الثانية على مدينة قسنطينة عام 1837م – والتي أكدها له علي باي نجل فرحات بن السعيد الذي شغل منصب قايد تقرت عام 1854م – فإن سبب هذه التسمية يعود إلى أن قافلة هذا الشيخ التي وصلت إلى مدينة قسنطينة يوم 1837/10/27م والتي كانت تتألف من ألف فارس وعدد كبير من الجمال، كانت تسير على الطريق الرابط بين مدينتي قسنطينة وبسكرة، وهو طريق كثير الالتواءات، بحيث أن الذي يشاهدها من بعيد تبدو له وكأنها ثعبان يسير بخطى بطيئة، ولما رآها أحد الفرنسيين صاح قائلا: "أنظروا لقد جاء ثعبان الصحراء الكبير!".
حول ذلك ينظر:

- Ibid : p 445.
- Ernest Watbleb : op.cit, p 31.
- L. Ch. Féraud : «Les Ben- Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine», in R.A n° : 28, Année 1884, p 126.

[2] Commandant Seroka : op.cit, p 396.

الأولى إلى رئيس مجلس الوزراء الفرنسي الكونت "مولي" "Molé" أخبره فيها بتاريخ وصول فرحات بن السعيد إلى مدينة قسنطينة والمزايا التي يمكن أن تحصدها فرنسا عندما تتحالف معه، وقد جاء في هذه الرسالة : «... لقد بلغ الشيخ فرحات بن السعيد أسوار مدينة قسنطينة يوم 1837/10/27م على رأس جيش ضخم قوامه ألف فارس، وأعلموا أن الشيخ فرحات يعتبر من الشخصيات المؤثرة في الصحراء الجزائرية. ومن حسناته أنه ما زال يكن عداء كبيرا لأحمد باي رغم انكساره أمامنا ، وقد طلب مني مواصلة الحرب ضد هذا الباي، وعندما امتنعت عن إعلان حملة ضده، صرح بأنه يواصل حربه ضد هذا الباي، وأنه سوف يبذل جهودا كبيرة لإلقاء القبض عليه حيا أو ميتا...» .[1]

وأما الرسالة الثانية، فقد وجهها "فالي" إلى وزيره للحربية وهي تحمل تقريبا نفس أفكار الرسالة الأولى، حيث ذكر فيها : «... لقد أبرمنا تحالفا مع الشيخ فرحات بن السعيد، صديق الفرنسيين منذ عدة سنوات خلت، وإنني أعتقد أن تعاوننا معه سيعود علينا بالفائدة، من منطلق أن لدينا عدو مشترك وهو أحمد باي. إن عداءه الشديد لهذا الباي هو الضمانة الرئيسية لبقائه وفيا لنا...» .[2] وبهذا يتبين لنا الدور الذي كان ينتظره الفرنسيين من هذه الشخصية الأهلية التي قبلت التعاون مع الغزاة من أجل مصالح ضيقة.

ومباشرة بعد سقوط مدينة قسنطينة في قبضة الاحتلال الفرنسي، حاول الشيخ فرحات بن السعيد استغلال نشوة النصر لدى الفرنسيين لصالحه، فطلب من الماريشال "فالي" أن يمنحه منصب شيخ العرب على الجنوب القسنطيني، غير أن الماريشال المذكور فضل التريث ولم يقدم له إجابة نهائية ووعده بأنه يعرض قضيته على وزير الحربية. فبقي فرحات بن السعيد مقيما بالقرب من مدينة قسنطينة ينتظر ذلك، مما أدى إلى تحرج القيادة الفرنسية الجديدة التي كان على رأسها الجنرال "بيرنال" "Bernelle". وقد تطور موقف الفرنسيين إلى سلوكات عدوانية تجاه فرحات بن السعيد، الأمر الذي دفع به إلى مغادرة مدينة قسنطينة والتوجه جنوبا وصدره مملوء بالغضب والحسرة.[3]

بهذا يكون الفرنسيون قد تعرفوا جيدا على شخصية الشيخ فرحات بن السعيد، وتأكدوا من أنه مهما كانت معاملتهم له، فإنه لم يقطع صلته بهم، وإلا ما كانوا يتصرفوا معه بتلك الطريقة المشينة.

---

(1) Georges Yver : op.cit : Lettre adressée à Molé, le 04 Novembre 1837, p 49.
(2) Ibid : Lettre adressée au ministre de la guerre, le 04 Novembre 1837, p 56.
(3) L. Ch. Féraud : op.cit, p p 130-132.

– عائلة ابن جلاب

كانت عائلة ابن جلاب قد رفضت تلبية النداء الذي وجهه الداي الداعي إلى محاربة الفرنسيين الغزاة، و قد بقيت هذه العائلة وفية لنهجها المتعاون مع الاستعمار خلال الفترة التي تلت سقوط العاصمة. فكيف تعاون سلاطين هذه العائلة مع الفرنسيين الذين ظلوا يحضرون لاحتلال مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837م؟.

خلال السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر، عمل شيوخ هذه العائلة على تحريض الفرنسيين من أجل احتلال مدنية قسنطينة وتحطيم حكم الحاج أحمد باي، ولهذا الغرض فقد تبادل الشيخ علي بن محمد بن جلاب عدة رسائل مع الحاكم العام الفرنسي الجنرال "دروي ديرلون" " Drouet d'Erlon "* دعاه فيها إلى احتلال مدينة قسنطينة، ففي إحدى هذه الرسائل، نجده يلح إلحاحا شديدا على الفرنسيين أن يشنوا حملة عسكرية ضد مدينة قسنطينة بهدف إخضاعها، كما أحاطه علما أيضا بأن الحاج أحمد باي كان يتتبع أخبار المراسلات التي كانت تتم بينهما، ولهذا الغرض كلف شيخ العرب بن قانة بتشكيل قوة عسكرية تتكفل بتحطيم قوته ومهاجمة مقر حكمه بتقرب، كما قدم له بعض الضمانات التي تثبت حسن نيته في التواصل والتعاون مع القوات الفرنسية، ومنها إرساله لابنه صحبة السيد محمد بلحاج أحد أعيان تقرب لتدارس مسألة غزو مدينة قسنطينة، و مسائل أخرى تتناول العلاقات بين الطرفين.[1]

وبعد فترة وجيزة تلقى علي بن محمد بن جلاب ردا من الحاكم العام الفرنسي أخبره فيه بأنه سوف يتلقى في القريب العاجل خطابا آخرا يرسله له رفقة أحد الوسطاء وهو السيد محمد بلحاج، يشرح له فيه النتائج التي أسفرت عن اجتماعه بهذا الوسيط، كما أكد له أيضا بأن إبنه

---

* الجنرال "دروي ديرلون" Drouet d'Erlon هو خامس حاكم عام فرنسي للجزائر، تم اختياره لشغل هذه المنصب من قبل صديقة الماريشال "جيرار" "Gérard" وزير الحربية الفرنسي، عين في هذا المنصب بتاريخ 1834/07/27م، وبقي فيه إلى غاية 1835/08/08م، حيث استخلفه الماريشال "كلوزيل" "Clauzel".

حول سياسة هذا الحاكم العام وفترة حكمه بالجزائر ينظر:

-Charles – Andre Julien : Op.cit, pp 118-127.

(1) Esquer Gabriel : Correspondance du Général Drouet d'Erlon (1834-1835), Champion libraire, Paris France 1926 : Lettre adressée au Général Drouet d'Erlon le 05 Avril 1835, pp 404, 405.

سوف يكلف بمهمة في مدينة عنابة لتدارس الوضع مع المسؤولين العسكريين هناك، و هذا بعد أن يقضي بضعة أيام في مدينة الجزائر. وقد حاول الحاكم العام في هذه الرسالة أن يرد على انشغال السيد علي بن محمد بن جلاب الخاص بترتيب حملة عسكرية ضد مدينة قسنطينة،حيث أكد له بأن الفرنسيين لم يتخلوا عن هذه الفكرة، وأن تجسيدها على أرض الواقع يتطلب صبرا وأناة، و توفر بعض الشروط الموضوعية الملائمة كتزايد تأييد قبائل المنطقة للفرنسيين، وخروجها عن طاعة أحمد باي و ساق له مثالا على ذلك، حيث أخبره بأن الشيخ قاسم بن يعقوب الذي كان يشرف على أربعين دوارا بالقرب مدينة عنابة تخلى طواعية عن مؤازرته لأحمد باي وانتصر للفرنسيين، و هذا يعد مكسبا عظيما لهم.[1] وبهذا يمكن القول أن عائلة ابن جلاب كانت من أكبر العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة التي شجعت الفرنسيين على احتلال هذه المدينة.

و في نهاية حديثنا عن موقف العائلات المتعاون مع الفرنسيين لاحتلال مدينة قسنطينة، نود أن نقول أنه إذا كان الفرعان الرئيسيان لعائلة المقراني وهما فرعا أولاد الحاج وأولاد عبد السلام قد وقفا موقفا معارضا للاستعمار الفرنسي كما قدمنا، فإن موقف فرع أولاد القندوز كان على نقيض ذلك، حيث أن زعماء هذا الفرع ظلوا يتواصلون مع الفرنسيين حينما كانوا يحاصرون مدينة قسنطينة، وبعد احتلالها، وهذا ما أكده الماريشال "فالي" في إحدى مراسلاته الموجهة إلى رئيس الوزراء الفرنسي الكونت "مولي"حيث ذكر أن أولاد القندوز المقراني تقدموا إلى مدينة قسنطينة بعد سقوطها عارضين عليه خدماتهم، وملتمسين منه التعاون معه من أجل القضاء على الحاج أحمد باي، ويتعلق الأمر بالشيخ أحمد بن محمد بن القندوز المقراني وابن عمه محمد بن داود المقراني قائد زمورة اللذان ضما قواتهما التي حشداها إلى جانب قوة فرحات بن السعيد زعيم عائلة بوعكاز الذواودة.[2]

بهذا يتراءى لنا أن سياسة الحكام العثمانيين و علاقتهم بهذه العائلات كانت لها آثار واضحة على موقفها من الاستعمار الفرنسي، و قد تجلى ذلك بصورة واضحة خلال الفترة الأخيرة من حكمهم، و نعني بذلك فترة حكم الحاج أحمد باي. فالعائلات التي كانت علاقاتها متناغمة و ودية مع هذا الباي وقفت موقفه من المستعمر أي الموقف المناهض، أما العائلات المعادية له فقد تعاونت مع الجيوش الفرنسية الغازية.

---

(1) Ibid, Lettre adressée à Ali Ben Ahmed Ben Djallab le 26 Avril 1835, p-p 431-433.

(2) Georges Yver : Op cit : Lettre adressée à Molé le 04 Novembre 1837, P 53.

و على هذا الأساس فإن ميل البعض من هذه العائلات للفرنسيين لا يمكن أن ننظر إليه إلا من زاوية واحدة، و هي زاوية الانتقام من الحكام العثمانيين و بالأساس الحاج أحمد باي الذي انتهج سياسة عدائية ضدهم انصرفت إلى احتقارهم و تهميشهم، مما و لد لديهم حقدا و كراهية ضده و ضد كل رموز الإدارة العثمانية. فالضغينة التي ملأت قلوبهم ضد هذا الباي أعمتهم عن إدراك العدو الحقيقي الذي كان يتربص بهم و بالجزائر، و هو المستعمر الفرنسي. و السؤال الذي يطرح في هذا السياق، هل السياسة العدائية التي انتهجها الحاج أحمد باي ضدهم تبرر تعاونهم مع المستعمر و الاستقواء به ؟ و هل تعاونهم مع المستعمر و تشجيعهم له على احتلال مدينة قسنطينة يمكن أن يعيد لهم مكانتهم التي تضررت بسبب سياسة هذا الباي؟

الفصل الثاني : بداية علاقة الإدارة الاستعمارية بالعائلات الكبرى و انعكاساتها على مقاومة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي.

I– الماريشال "فالي" و بداية العلاقة عام 1838م

1– الماريشال "فالي" و العائلات الكبرى

أ– سياسة الماريشال فالي في الجزائر.

ب– سياسة الماريشال فالي تجاه العائلات الكبرى.

2– مرسوم الماريشال "فالي" في 30 /09/ 1838م و تقنين العلاقة

أ– المخاطبون بأحكام المرسوم

ب– محتوى المرسوم

ج– الآثار و الأبعاد القانونية للمرسوم

د– الطبيعة القانونية للمرسوم

هـ– موقف السلطات الفرنسية العليا من المرسوم

3– قيادات العائلات الكبرى

أ – القيادات المشمولة بمرسوم الماريشال "فالي".

ب – القيادات غير المشمولة بمرسوم الماريشال "فالي"

II– موقف العائلات الكبرى من مقاومة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي

1– موقف العائلات الكبرى من مقاومة الأمير عبد القادر

أ– الموقف المتعاون مع مقاومة الأمير عبد القادر

ب– الموقف المعادي لمقاومة الأمير عبد القادر

2– موقف العائلات الكبرى من مقاومة الحاج أحمد باي

أ– الموقف المتعاون مع مقاومة الحاج أحمد باي

ب– الموقف المعادي لمقاومة الحاج أحمد باي

أولا: الجهود الفردية.

ثانيا: الجهود الجماعية

ثالثا: التعاون و التنسيق مع أعداء الحاج أحمد باي.

الفصل الثاني : بداية علاقة الإدارة الاستعمارية بالعائلات الكبرى و إنعكاساتها على مقاومة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي.

بعد سيطرة الفرنسيين على مدينة قسنطينة عام 1837، شرعوا يبحثون عن الأسلوب الأمثل الذي يمكنهم من إحكام قبضتهم على مقاطعة قسنطينة التي كانت تتميز بتعدد حركات المقاومة، ففكروا في الاستعانة بالعائلات الكبرى التي كانت تتحكم في أرياف هذه المقاطعة بهدف تقوية مركزهم و تثبيت أقدامهم بها، و بالمقابل محاولة صرف أنظار هذه العائلات عن الالتفات إلى المقاومة الوطنية التي كان يخوضها الأمير عبد القادر ضدهم بالغرب الجزائري، و الذي استطاع أن يمد نفوذه إلى شرقها و يكسب الأنصار و المؤيدين، و كذلك الحاج أحمد باي الذي كان هو الآخر يقاومهم بهذه المنطقة. و تنفيذا لهذه الإستراتيجية أصدر الماريشال "فالي" في 30 سبتمبر 1838م مرسومه الشهير المعروف بـ " مرسوم الماريشال "فالي" الذي وطد علاقة الفرنسيين بهذه العائلات و استدرجهم إلى المعسكر الفرنسي.

و إذا كانت الاتصالات الأولى للإدارة الاستعمارية بهذه العائلات تعود إلى عام 1830م تاريخ الحملة الفرنسية على الجزائر، فإن مرسوم الماريشال "فالي" عام 1838م قنن هذه العلاقة و أضفى عليها صبغة قانونية رسمية، حيث اعترف لهم بحكم مناطق جغرافية عرفت بالقيادات « Des commandements » مثلما كان سائدا في العهد العثماني.

و من هذا المنطلق سنركز الكلام في هذا الفصل عن الماريشال "فالي" و بداية العلاقة الرسمية للإدارة الاستعمارية بهذه العائلات عام 1838م، ثم نتعرض بعد ذلك إلى مواقف العائلات الكبرى من مقاومتي الأمير عبد القادر، و الحاج أحمد باي ليتضح لنا إلى أي مدى ساهم الفرنسيون عن طريق مرسوم الماريشال "فالي" في إحداث شرخ عميق بين هذه العائلات و رائدي المقاومة الوطنية الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي.

I– الماريشال "فالي" و بداية العلاقة عام 1838م

اعترضت الإدارة الاستعمارية الفرنسية جملة من المصاعب أثناء محاولتها السيطرة على الشرق الجزائري، حيث لم تتمكن من احتلال عاصمته قسنطينة إلا بعد محاولات عديدة. و لم يتحقق لها ذلك إلا بعد أن شنت حملتين عسكريتين، و كانت الحملة الأخيرة في نهاية عام 1837م التي أودت بحياة الحاكم العام الفرنسي أنداك الجنرال "دامريمون". و رغم سقوط هذه المدينة إلا أن المقاومة الوطنية لم تضمر بأريافها، بل ازدادت قوة و عنفوانا. و أمام هذه التطورات استنجد الساسة الفرنسيون بالكونت "فالي" الذي قلدوه عصا الماريشالية و كلفوه

بالقضاء على هذه المقاومة و التأسيس لحكم استعماري. و على هذا الأساس سنفتتح الكلام بالحديث عن الماريشال "فالي" و العائلات الكبرى، و نبين سياسته في الجزائر إجمالا، ثم نتتبع سياسته تجاه العائلات الكبرى. بعد ذلك نتعرض إلى مرسومه الشهير الذي أصدره عام 1838م، و قنن به علاقة الفرنسيين بهذه العائلات. و يقتضي ذلك بيان محتواه و آثاره، و أبعاده و طبيعته القانونية و موقف السلطات الفرنسية العليا منه. و في الأخير نتعرض إلى قيادات هذه العائلات المنبثقة عن هذا المرسوم، و في هذا المنظور نبرز القيادات المشمولة بأحكام هذا المرسوم، و القيادات التي لم يشملها هذا المرسوم.

1- الماريشال "فالي" و العائلات الكبرى

لعل نبذة عن سياسة الماريشال "فالي" في الجزائر قد تساعدنا أكثر على فهم و إدراك مرامي سياسته بصورة عامة تجاه العائلات الكبرى. فكيف تعاملت هذه الشخصية العسكرية المشهود لها بالكفاءة الحربية مع الوضع في الجزائر؟ و ما هي السياسة التي درجت عليها تجاه العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة؟ هل تمكنت من إنجاز مهمتها على أحسن وجه؟

أ- سياسة الماريشال فالي في الجزائر.

باشر الماريشال "فالي" مهامه كحاكم عام بالنيابة على رأس الجزائر إثر مقتل الجنرال "دامريمون" أمام أسوار مدينة قسنطينة يوم 12 أكتوبر 1837م أثناء الحملة العسكرية الثانية التي شنها الفرنسيون على هذه المدينة و التي انتهت باخضاعها. و في الفاتح من ديسمبر من السنة نفسها عين الماريشال "فالي" بصفة نهائية في هذا المنصب.[1] و لاشك أن الوظائف التي باشرها هذا الماريشال، و مساره المهني الحافل بالترقيات و النجاحات في الجيش الفرنسي جلبت له الأنظار و التبجيل، و نال إعجاب المسؤولين السياسيين و العسكريين الكبار في الدولة الفرنسية، لذلك كلف بهذه المهمة الخطيرة في الجزائر، فكانت له نظرة تختلف بعض الشيء عن نظرة سلفه. و كان يعرب عن رأيه صراحة في الأسلوب الاستعماري الذي يروم تطبيقه في الجزائر، من خلال المراسلات التي كان يتبادلها مع مسؤوليه، ففي مراسلة له موجهة إلى وزيره للحربية ذكر فيها فالي:"... إن الهدف المركزي للسلطات الفرنسية في الجزائر يجب أن ينصرف بالأساس إلى تثبيت أركان الحكم الفرنسي في عموم الأرض الجزائرية التي تمتد من الحدود المغربية غربا إلى الحدود التونسية شرقا، و من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى أعماق الصحراء جنوبا ..."[2]

(1) Anonyme : op.cit, pp 428,429.

(2) Georges Yver : op.cit: Lettre adressée au ministre de la guerre le 09 Février 1838, p 239.

و كان "فالي" يرى أن الحكام العامين الذين سبقوه في حكم الجزائر كانوا مخطئين في خططهم العسكرية التي كانت ترتكز على احتلال المدن ثم مغادرتها، فكان الأجدر بهم حسب تصوره الاستقرار بها فور احتلالها مباشرة حتى يضمنوا هدوءها و استسلامها.[1]

و حتى تحقق الحملات العسكرية نتائجها المرجوة، و تتجنب ردود فعل السكان و تقضي على بواعث و أسباب المقاومة، فإن الماريشال "فالي" يرى أنه من الملائم إعلان حرب اقتصادية في الأرياف و القرى من أجل إفقار السكان و جعلهم يعيشون حياة البؤس لأن هذا الأسلوب من شأنه أن يدفع السكان دفعا إلى الاستسلام و طلب الأمان.[2]

أما من وجهة النظر الإدارية، فإن الماريشال "فالي" كان يروم إستحداث وزارة خاصة تهتم بشؤون مختلف المستعمرات الخاضعة للسيطرة الفرنسية بما فيها الجزائر أو على الأقل ربط مختلف المصالح الإدارية في الجزائر بسائر الوزارات الفرنسية المختصة. غير أن هذه الأفكار لم يكتب لها النجاح بسبب معارضة المسؤولين الفرنسيين لها. و حتى يتحكم أكثر في الوضع بالجزائر، اقترح الماريشال "فالي" تقسيما جديدا للجزائر، تقسم بمقتضاه البلاد إلى ثلاث مناطق رئيسة هي: المناطق الساحلية، المناطق المختلطة و المناطق العسكرية. [3]

و لم يكن الساسة الفرنسيون على توافق تام حول سياسة الماريشال "فالي" في الجزائر، فكثر معارضوه و تعالت عدة أصوات بالعاصمة الفرنسية باريس مبرزة عدائها الشديد له في الجزائر و في فرنسا، حيث صرح أمين لجنة التحقيق في إفريقيا السابق السيد "بيسكاتوري" "Piscatory" قائلا: "إن إفريقيا معناها الخراب في السلم و الضعف في الحرب، إفريقيا مصيبة و جنون".[4]

وجاهر أحد الساسة الفرنسيين بعدائه الشديد للماريشال"فالي" حينما قال "إن أخطر عدو في الجزائر ليس عبد القادر بقدر ما هو فالي"، و تهكم عليه آخرون و لقبوه بـ "باشا الجزائر". و الواقع أن أعنف هجوم واجهه الماريشال "فالي" كان من قبل الجنرال "بيجو" الذي انتقده انتقادا عمليا من منطلق أن هذا الجنرال كان عليما بالمسائل العسكرية، حيث رأى أن الإستراتيجية العسكرية التي اعتمدها هذا الماريشال في الجزائر كانت تنطوي على كثير من القصور التكتيكي. و تتمثل جوانب هذا القصور

---

(1) اسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت.، ص 202.

(2) Mostafa Lachref : L'Algerie Nation et Societé, S.N.E.D, 2éme édition, Alger, Algerie, 1978, p 269.

(3) Charles-Andre Julien : op.cit, p 145.

(4) Ibid : p 155.

في أن خططه الحربية كانت تعتمد على المراكز العسكرية المتباعدة و المنعزلة و التي كانت سببا مركزيا في فشل حروبه التي يباشرها في إفريقيا. و كان الأجدر بهذا الماريشال في منظور "بيجو" أن يتبنى خطة حربية أخرى ترتكز على عنصر الوحدات العسكرية المتنقلة، و كنتيجة لذلك فقد فشل في حروبه بإفريقيا. [1]

و لم تكن سياسة الماريشال "فالي" سيئة السمعة في الأوساط السياسية بالعاصمة الفرنسية باريس فحسب، و إنما أيضا كانت تثير امتعاض بعض العسكريين الفرنسيين الذين كانوا يباشرون أعمالهم تحت إمرته بالجزائر حيث وصفه تقرير بقلم أحد الضباط الفرنسيين مؤرخ في 04 أوت 1839م بأنه "... ينتفي فيه عنصر حسن المعاشرة، و تجده دائما يتعدى و يغتصب كل سلطات المحيطين به، و يميل إلى تجميعها بين يديه...". [2]

و كان هذا الماريشال يدافع عن موقفه و ينتقد أراء خصومه و لاسيما المنتمين إلى التيارات البرجوازية. و عبر عن هذه القناعة صراحة في إحدى مراسلاته الموجهة إلى أحد مسؤوليه حيث قال: "... هنالك بعض الأحزاب السياسية اتخذت من المسألة الافريقية سلاحا لها ذا فعالية من أجل الوصول إلى الحكم و الحصول على مزايا سياسية ...".[3] و رغم ذلك فإن حكومة "تيير" "Thiers" و أمام هذه الإنتقادات المؤسسة، اضطرت إلى تقديم استقالتها، فخلفتها حكومة الماريشال "سولت" "Soult" التي استدعت الماريشال "فالي"، و عوضته بالجنرال "بيجو"، فعاد إلى فرنسا غير مأسوف عليه بعد أن قضى ثلاث سنوات و ما يقارب شهرين في الجزائر. [4] و صفوة القول أنه رغم الإستراتيجية العسكرية و الإدارية المحكمة التي اعتمدها "فالي" في الجزائر إلا أنه لم يتمكن من بلوغ الهدف المركزي الذي عين من أجله و هو فرض النظام الاستعماري الفرنسي بهذه الأرض و القضاء على مقاومة سكانها.

---

(1) أديب حرب: التاريخ العسكري و الاداري للأمير عبد القادر الجزائري، الجزء الثاني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص ص 329، 330.

(2) Jeanne Caussé et Bruno de Cessole : « Lettres écrites d’Algérie au Général de Castellane 1835-1846 », in Revue des deux mondes, op.cit, p 97.

(3) Georges Yver : op.cit : lettre adresseé à Molé le 09 Fevrier 1838, p 238.

(4) أديب حرب: المرجع السابق، ص ص 330، 331.

ب- سياسة الماريشال فالي تجاه العائلات الكبرى.

عمل الماريشال "فالي" منذ وصوله إلى دفة الحكم كحاكم عام للجزائر على التقرب من العائلات الكبرى و محاولة توظيفها في المشروع الاستعماري الفرنسي. فما هي السياسة التي اتبعها تجاه هذه العائلات؟ و ما هي أبعادها؟ و كيف نجح في استقطاب زعماء هذه العائلات إلى الصف الفرنسي؟.

الواقع أن الماريشال "فالي" كان يراسل مسؤوليه و يطلعهم على أفكاره قبل أن يقدم على أي إجراء يقوم به في هذا الإتجاه. و في هذا السياق كتب تقريرا إلى أحد مسؤوليه حدثه فيه على ضرورة اللجوء إلى وسطاء أهليين يوظفهم في خطته الاستعمارية مبينا له مزايا الاعتماد على هذه الطائفة من الأهالي، فبواسطتهم يمكن للفرنسيين اختراق المجتمع الجزائري. و قد برر هذا الإجراء بقوله "...المسلمون الجزائريون متعصبون و لهم حساسية مفرطة تجاه المسحيين، و أنهم لا يقبلون أن يحكمهم مسيحي، لذا فإننا نرى أن أحسن وسيلة لتجاوز هذه الوضعية أن ننصب عليهم زعيما أهليا يدين بالديانة المحمدية...". [1] و يبدو أن هذه الأفكار أقنعت المسؤولين الفرنسيين، حيث رد عليه في وقت لاحق وزيره قائلا له:"...نحن نمنحكم السلطة التقديرية الكاملة في اختيار وسطاء بين الإدارة الفرنسية و الأهالي. فلكم أن تختاروا شيوخا يساعدونكم على فرض الضرائب...". [2]

و بهذه الكيفية تمكن الماريشال "فالي" من إقناع مسؤوليه بسياسته الأهلية، و حدثهم عن التعصب الديني الذي يتميز به المسلمون الجزائريون و حساسيتهم المفرطة تجاه المسحيين. هذا التعصب الديني الذي نسميه اليوم الروح الوطنية، فكان الأجدر بهذا الماريشال أن يكون صريحا مع وزيره، و يقول له أن الجزائريين وطنيون غيورون على وطنهم و دينهم يرفضون الغزاة الأجانب و يحاربونهم.

هذا، و قد حاول الماريشال "فالي" الاستعانة بخدمات هذه العائلات أثناء منازلته للأمير عبد القادر. ففي عام 1254 هجري (المرافق لعام 1838م)، أصدر "فالي"وثيقة وجهها إلى وجهاء و زعماء القبائل و علية القوم و عموم السكان في مقاطعة قسنطينة. و عرفت هذه الوثيقة بـ "إعلان فالي" "Proclamation de Valée"، و فضل تسمية زعماء هذه العائلات بـ "الكبراء" حيث ذكرهم في ثنايا هذا الإعلان بأن الفرنسيين أجروا اتفاقا مع الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري، و بمقتضاه،

(1) Georges Yver : op.cit : lettre adresseé à Molé le 08 Novembre 1837, p 62.
(2) Ibid : lettre adresseé à Valée le 10 Decembre 1837, pp 126, 127.

فإنه لا يجوز له الالتفات إلى الجهات الشرقية من الوطن. و الواقع أن الاتفاق الذي تكلم عنه "فالي" هو اتفاق معاهدة التافنة المشهورة التي عقدت بين الأمير عبد القادر و الفرنسيين في 30 ماي 1837م. و يفهم من وراء ذلك أن الماريشال "فالي" كان يرغب في استدراج زعماء هذه العائلات الكبرى إلى الصف الفرنسي، و يحاول إقناعهم بأن الأمير عبد القادر ليس في مقدوره بسط نفوذه في مقاطعة قسنطينة، كما دعاهم إلى التعاون مع الفرنسيين و حث السكان كذلك على القدوم إلى الأسواق من أجل اقتناء حاجاتهم المختلفة، و حاول من خلال هذا الإعلان أن يطمئن الجميع بأن الفرنسيين أصدقاء لجميع السكان، و أنهم جاءوا لتكسير الأغلال التي كبلوا بها من قبل الحكام الأتراك، و أنهم سيعملون على توفير ظروف العيش الكريم لعموم الناس، و يقومون بإلغاء المغارم المفروضة عليهم. و أبرز ما جاء في هذا البيان:"...من سعادة الماريشال كونت فاله الذي هو حاكم حكام بلاد شمال إفريقيا إلى كافة كبراء و كل واحد من سكان بلاد الشرق و أمنهم (كذا) الله تعالى بمنه آمين يا أهل بلاد الشرق بعد السلام و التحية و الإكرام نعلمكم خيرا إن شاء الله و هو أن سعادة الي (كذا) سلطان فرانسة مولانا و سيدنا قد عمل اتفاق مع كبراء أهل البلاد بشأن حكم الرعاياة (كذا) الأمير الحاج عبد القادر ولد محي الدين يتصرف بالغرب و هو يعرف أن ليس له تصرف بجهة الشرق...و الآن نحب نضع محلات...يمنعوا عنكم الذين دايما (كذا) يطلبوا منكم الدراهم نظير غرامة...فألبثوا مطمأنين و داوموا على قدومكم إلى الأسواق...".[1]

يبدو أن الماريشال "فالي" كان قد أصدر هذا البيان أو الإعلان ليجس نبض الوضع العام في المنطقة و يكون فكرة عن ردود أفعال الفئات التي استهدفها و على رأسها العائلات الكبرى. و من المتصور أن أخبارا أكيدة وصلته و حدثته عن تجاوب رؤساء هذه العائلات مع هذا التوجه الجديد، لذلك فكر في توطيد علاقته بهم و إعطائها طابعا قانونيا و رسميا، فأصدر مرسوما يؤسس لذلك.

2- مرسوم الماريشال "فالي" في 30 /09/ 1838م و تقنين العلاقة

واصل الماريشال "فالي" مساعيه الحثيثة لاستقطاب هذه العائلات إلى الصف الفرنسي. و لعل أهم إجراء باشره لتحقيق هذا الغرض تمثل في إصداره للمرسوم الشهير المعروف ب "مرسوم الماريشال فالي في 1838/09/30م". و تجدر الإشارة إلى أننا لم نعثر على نسخة من هذا المرسوم في الأرشيف الفرنسي،

(1) A.O.M : 01H04 : Proclamation valée 1838.

و لا في دور الأرشيف الأخرى، إلا أننا عثرنا بأرشيف إيكس أون بروفانس الفرنسي على تقرير مطول يتشكل من 19 صفحة بقلم هذا الماريشال مؤرخ في 04 أكتوبر 1838م،[1] كان قد أرسله إلى مسؤوله المباشر بباريس أي وزير الحربية، تحدث فيه بشيء من التفصيل عن هذا المرسوم. و موازاة مع ذلك حدثنا الضابط الفرنسي "لويس رين" عن هذا المرسوم في معرض تأريخه لثورة المقراني عام 1871م. و انطلاقا من هذين المصدرين حاولنا رصد النقاط الجوهرية التي يحتويها هذا المرسوم، مع الاستعانة و الاستئناس ببعض الإشارات المتناثرة في مصادر أخرى. فمن هم رؤساء العائلات الكبرى و الزعماء الأهليون المخاطبون بأحكام هذا المرسوم؟ و ما هو محتواه؟ و ما هي آثاره و أبعاده القانونية؟ و ما طبيعته القانونية؟ ثم كيف كان موقف السلطات الفرنسية العليا بباريس منه؟

أ- المخاطبون بأحكام المرسوم

يعتبر هذا المرسوم أول خطوة عملية لبداية العلاقة الرسمية للإدارة الاستعمارية الفرنسية مع العائلات الكبرى ذات النفوذ الواسع في مقاطعة قسنطينة. و العائلات المخاطبة بأحكامه منح زعمائها لقب "الخليفة"، و هؤلاء الزعماء هم علي بن عيسى الخليفة السابق للحاج أحمد باي و الذي عينه خليفة على منطقة الساحل الممتدة من جبال إيدوغ إلى مدينة جيجل، و علي بلحملاوي الذي عين خليفة على منطقة فرجيوة و استخلفه الشيخ أحمد بوعكاز بن عاشور زعيم عائلة بوعكاز بن عاشور عام 1840م، و الشيخ أحمد المقراني زعيم عائلة المقراني الذي عين على منطقة مجانة بالغرب القسنطيني، و الشيخ فرحات بن السعيد الذوادي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة الذي عين على رأس منطقة الزيبان بالجنوب القسنطيني و أسند له منصب شيخ العرب، و اعتبارا من 19 جانفي 1840م منح هذا المنصب إلى عائلة ابن قانة، و قد منحتها إحدى فقرات هذا المرسوم صلاحيات الخليفة حيث أشارت إلى أن منصب شيخ العرب يعادل منصب الخليفة كما عين الشيخ علي باحمد أيضا بمقتضى أحكام هذا المرسوم خلفية على الحراكتة و الحنانشة.[2]

و تم تقليد و تنصيب هؤلاء الخلفاء من قبل الماريشال "فالي" تبعا للتقاليد و "البروتوكولات" التي كانت سائدة خلال الحقبة العثمانية مثل إجراء وضع البرنوس الأحمر و أداء اليمين و تلاوة التعهد بالوفاء و الإخلاص لفرنسا و للعلم الفرنسي في كل الأحوال، و الالتزام بدفع الضريبة المفروضة على كل خليفة، و كذلك التعهد بضمان الأمن و فرض النظام العام و السكينة في ربوع القيادات التي يبسطون عليها

[1] ينظر الملحق رقم 2: الصفحة الأولى من تقرير الماريشال "فالي" الذي تحدث فيه عن مرسومه الشهير.

[2] L.Rinn : op.cit, pp 22, 23.

سيادتهم، و الالتزام أيضا بمؤازرة الجيش الفرنسي و تزويده بكل الفرسان كلما تطلب الأمر ذلك. [1] و قد استغل هؤلاء الخلفاء هذه الصلاحيات الواسعة التي منحها لهم هذا المرسوم، فتعسفوا في استخدام سلطتهم، و استغلوا السكان، و تجاوزوا الحدود التي رسمتها أحكام هذا المرسوم، حيث لم تكن تمارس عليهم الرقابة، و ذلك عكس ما كان عليه الوضع أيام الحاج أحمد باي الذي كان يضع آليات للرقابة تلجم مزالقهم و تقوم اوجاجهم و تعاقبهم إن زاغوا أو تعسفوا.[2]

ب- محتوى المرسوم

يتشكل هذا المرسوم من ديباجة"Préambule"، و عشر مواد، و يمكننا حصر محاوره الرئيسة في النقاط الآتية:

1- يمارس الخليفة مهامه و سائر الصلاحيات التي تخولها له أحكام هذا المرسوم في المناطق التي تنعدم فيها الإدارة المباشرة للسلطات الفرنسية، و هذا ما أشارت إليه الديباجة و المادة الأولى من هذا المرسوم. [3]

2- توكل للخليفة مهمة تنظيم التشريفات، و يشاركه في ذلك القايد، و هذا ما تضمنته المادتين الثانية و الثالثة من هذا المرسوم.

3- يتولى الخليفة مهمة اختيار شيوخ القبائل في حدود قيادته، و يقوم بتعيينهم و تقليدهم دون الأخذ بعين الاعتبار رأي القائد العام الأعلى لمقاطعة قسنطينة و الحاكم العام للممتلكات الفرنسية في إفريقيا، و هذا طبقا لأحكام المادة الرابعة من المرسوم المذكور.

4- توكل للخليفة صلاحية اقتراح و تقديم المترشحين لمنصب "القايد". و يتعين عليه في هذه الحالة تقديم قائمة اسمية تضم كل المترشحين لشغل هذا المنصب إلى مكتب القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة، الذي يتولى دون سواه صلاحية تعيينهم و تقليدهم في مناصبهم، و قد تناولت هذه المسألة المادة الرابعة كذلك من هذا المرسوم.

(1) Chares-André Julien : op.cit, p 148.
Voir aussi :
- Halim Cherfa : l’heroïque Bataille de Zaatcha, Achevé d’imprimer sur les presses de l’imprimerie El-Maraaf, Annaba, Algerie, 2007, p 34.
2 Charles-André Julien : op.cit, p 148.
(3) L.Rinn : op.cit, p 22.

5- يباشر الخليفة مهمة جباية الضرائب و المغارم التي فرضتها الإدارة الفرنسية على السكان الجزائريين، و ذلك في حدود قيادته. و ألزمت المادة الخامسة من هذا المرسوم كذلك الخليفة بجباية ضريبة الحكر و ضريبة العشر. و هو ملزم بتقديم كل الأموال المستخلصة منها إلى الخزينة العمومية الفرنسية، أما بالنسبة لضريبة الحكر، فقد ألزمت المادة المذكورة الخليفة بإيداع ثلثي $\left(\frac{2}{3}\right)$ قيمة الأموال المستخلصة منها في الخزينة العمومية الفرنسية و الاحتفاظ بالثلث الباقي لقاء أتعابه. و في مقابل ذلك فالخليفة لا يتقاضى راتبا مقابل الخدمات التي يقدمها للإدارة الفرنسية، و علاوة على ذلك فهو يتكفل بتسديد كل المصاريف المتعلقة بسير مأموريته الإدارية. و أما شيوخ القبائل و القياد فقد أوكلت لهم هذه المادة مهمة جباية المغارم و الضرائب الأخرى.

6- يستحدث الخليفة حرسا خاصا من الخيالة غير النظاميين "Cavalerie Irréguliere" يرتكز عليه في فرض النظام و تدعيم سلطته على مستوى قيادته، و يساعده كذلك على جباية الضرائب التي تقع على كاهل السكان و القبائل المنضوية تحت سلطته. و قد أشارت إلى ذلك المادة السابعة من هذا المرسوم. [1]

و موازاة مع ذلك أصدرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية قرارا إداريا مكملا و متمما لهذه المادة بتاريخ 05 جويلية 1840م، نص على استحداث سرايا من فرسان الصبايحية "des escadrons de spahis" تابعة للخليفة و تعضده في مباشرة مهامه الحربية، وكانت كل سرية تتألف من مائة فارس و أربعة عسكريين من رتبة ضابط صف يتميزون بلباسهم الخاص الذي هو برنوس أزرق اللون.[2] و تعهدت الإدارة الاستعمارية بضمان دفع أتعاب و أجور فرسان هذا الحرس الخاص مقابل الجهود التي يبذلونها إلى جانب الخليفة طالما كانوا يباشرون مهامهم بصورة فعلية، و بعبارة أخرى فإن هذه الأجور كانت مرتبطة بعملهم الفعلي حيث تدفع لهم خلال الفترات التي يمارسون فيها عملهم في إطار المحافظة على نشر السلم في الربوع و حماية القوافل عبر الطرقات و نحوها، و يحرمون منها عندما لا تستدعي الحاجة إلى ذلك. و قدر عدد هؤلاء الفرسان عام 1838م في مقاطعة قسنطينة ما بين ثلاثة آلاف و أربع آلاف فارسا ساعدوا الفرنسيين في بسط هيمنتهم في ربوع المقاطعة. [3]

(1) A.O.M : F80.1672 : Rapport du Maréchal Valeé gouverneur général des possessions Françaises dans le nord de L'Afrique, adressé au ministre de la guerre le 04 octobre 1838 pp 5-8.
(2) L.Rinn : op.cit, p22.
(3) A.O.M : F80.1672, op.cit, p8.

7- تسند للخليفة وظيفة القضاء، و يحكم السكان وفقا لأحكام الشريعة المحمدية، و هذا هو منطوق المادة الثامنة من مرسوم الماريشال "فالي". [1] و إذا كان الخليفة ينظر في كل النزاعات التي تثور بين سكان قيادته كقاعدة عامة، فإنه لا يسوغ له بأي حال من الأحوال و بصورة استثنائية الفصل في بعض الجرائم المصنفة في خانة الجرائم الخطيرة. و يتعلق الأمر بالجرائم المعاقب عليها بعقوبة الإعدام، حيث ينعقد اختصاص النظر فيها إلى القائد العام للقوات العسكرية الفرنسية دون سواه، و يعد هذا الاستثناء بمثابة إجراء احترازيا يلجم هؤلاء الخلفاء من تجاوز سلطاتهم التي درجوا على تجاوزها و ارتكاب مظالم كبرى في حق مرؤوسيهم خلال العهد التركي **!**[2]

8- يحافظ رؤساء الأهالي على نفس الترتيبات و الإجراءات التي كان معمول بها في عهد الحاج أحمد باي فيما يتعلق بالألبسة الخاصة بالتشريفات و المسائل المتعلقة بها. و في هذا المنظور، فإن الخلفاء يرتدون الخلعة، بينما يرتدي قائد الحراكتة و قايد عامر الشراقة القندورة. و أما شيخ العرب – و هو أنذاك الشيخ فرحات بن السعيد زعيم عائلة بوعكاز الذواودة – فيرتدي القفطان، و قد أعفت المادة التاسعة المخاطبين بأحكامها من دفع حقوق و مصاريف هذا التقليد. و في مقابل ذلك ألزمت الخلفاء دون سواهم بتقديم حصان مسرج "un cheval harnaché" كهدية للملك للفرنسي رمزا للإجلال و الولاء و التبعية له "Atitre d'hommage"، في حين أعفى باقي المخاطبين بهذا المرسوم من هذه الهدية الرمزية.[3] و برر الماريشال "فالي" إجراء إلغائه لمصاريف هذا التقليد بكون أن تلك المصاريف التي كان يدفعها رؤساء الأهالي إلى الباي خلال العهد التركي كانت تثير امتعاض السكان لأنهم يتولون دفعها للباي، فتكون بذلك مصدر قلاقل و اضطرابات و فتن. و عبر على ذلك في رسالته الموجهة إلى وزيره بالقول:"... نحن نتصور أن عزة فرنسا و كرامتها تفترض إلغاء هذه الممارسات المقيتة... ". [4]

9- تعرضت المادة العاشرة من هذا المرسوم إلى العقوبات التي تسلط على رؤساء الأهالي في حالة تجاوز السلطة، كما تعرضت إلى الصلاحيات و السلطات التي خولتها إياهم أحكام هذا المرسوم.

[1] L.Rinn : op.cit, p 22.
[2] A.O.M : F80.1672, op.cit, p8.
[3] Ibid : p 6.
[4] Ibid: p 7.

و في هذا الإطار نصت إحدى فقراتها صراحة على أنه يؤول اختصاص سحب الثقة من رؤساء الأهالي إلى الحاكم العام للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا دون سواه. و مع ذلك منحت القائد العام للمقاطعة الحق في توقيفهم توقيفا تحفظيا، و في هذه الحالة يتعين عليه إحالتهم و دون تمهل على مكتب الحاكم العام للفصل النهائي في هذه المسألة. و نصت فقرة أخرى من هذه المادة على أنه لا يجوز بأي حال من الأحوال للخلفاء و قايد الحراكتة، و قايد الحنانشة و قايد عامر الشراقة أن يتجاوزوا السلطات الموكلة لهم بمقتضى أحكام هذا المرسوم.[1]

هذه هي المحاور المركزية التي تضمنها مرسوم الماريشال "فالي"، و قد ركز فيها بشكل أساسي على المهام و الالتزامات الكثيرة و المعقدة للخليفة، التي جعلت منه ظل الإدارة الفرنسية على مستوى القيادة التي يباشر عليها سلطاته.

ج- الآثار و الأبعاد القانونية للمرسوم

الواقع أن قراءة معمقة في محتوى هذه المحاور تجعلنا نخلص إلى الاستنتاجات و الآثار و الأبعاد القانونية الآتية:

1- أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية كانت تروم احتلال المناطق التي لم تتمكن جيوشها من بسط هيمنتها عليها بالاعتماد على هذه الزعامات الأهلية تطبيقا لمبدأ "حكم الأهلي بالأهلي" و ذلك كمرحلة أولى من مراحل الاحتلال، لأن المادة الأولى من هذا المرسوم، و كذا ديباجته أشارت صراحة إلى مسألة الاختصاص المحلي –أي الاختصاص الجغرافي- للخلفية و حددتها في المناطق التي تغيب فيها الإدارة المباشرة للسلطة الفرنسية. و بمفهوم المخالفة، فإن الخليفة لا ينعقد له هذا الاختصاص خارج هذا الإطار الجغرافي أي أن سلطاته لا يمكن أن تمتد إلى المناطق التي تطبق فيها الإدارة المباشرة للسلطة الاستعمارية. و الثابت أن الماريشال "فالي" كان يهدف من وراء ذلك تجنيب جيوش بلاده كثيرا من المتاعب المادية و البشرية، كما أن إسناد هذه المناصب إلى هؤلاء الخلفاء لم يكلف الفرنسيين شيئا. و قد أشار إلى ذلك "مرسيي" حينما قال أنه يجب أن ينظر إلى هذه الصلاحيات الممنوحة لهؤلاء الخلفاء، و منهم الخليفة أحمد المقراني على أنها هدية من جلالة الملك، و أن إسناد هذه المناصب لهؤلاء الزعماء الأهليون بمقتضى أحكام مرسوم الماريشال فالي عام 1838م لم يكن يكلف الإدارة الفرنسية شيئا، بل بالعكس فهو يخدمها لأن إدارة بلاده لم تكن تبسط سيادتها على هذه المناطق التي كانت ثائرة. [2]

---

[1] Ibid, p6.

[2] Ernest Mercier : op.cit, p 13.

2- أن الإدارة الاستعمارية تملصت من مهمة جباية الضرائب و المغارم في هذه المناطق التي طبقت فيها الأسلوب غير المباشر و بالمقابل أسندتها إلى هؤلاء الزعماء الأهليين، و من هذه الزاوية فإن الإدارة الاستعمارية الفرنسية بزعامة الماريشال "فالي" تكون قد قلدت إدارة سلفها "الدوق دي روفيغو" الذي رام احتلال الجزائر بالاعتماد على شيوخ الأهالي الذين حاول التعاون معهم مقابل الالتزام بدفع ضريبة، و بالمقابل الاكتفاء بالسيطرة على الموانىء الجزائرية كخطوة أولى ثم التوغل نحو المناطق الداخلية كخطوة ثانية و ذلك بالاعتماد على هؤلاء الشيوخ. [1] و حتى يتمكن هؤلاء الزعماء الأهليين من مباشرة مهامهم على أحسن وجه، ساعدتهم الإدارة الاستعمارية الفرنسية على تشكيل سرايا من فرسان الصبايحية تعضدهم في مباشرة المهام المنوطة بهم.

الراجح أن الفرنسيين كانوا يدركون جيدا مخاطر و مصاعب هذه المهمة و يتوجسون خيفة من سكان أرياف المقاطعة الذين جبلوا على مقاومة الجباة و رفض هذا الالتزام الضريبي منذ العهد العثماني، لاسيما و أن الفرنسيين لم يكتفوا بالإبقاء على الضرائب التي كانت سائدة خلال الحقبة العثمانية، بل أضافوا إليها ضرائب أخرى فرضت على السكان بالقوة و الترهيب.[2] حيث أن الضرائب الفرنسية تزايدت و تعاظمت بصورة لافتة للانتباه في القطر الجزائري عموما و مقاطعة قسنطينة خصوصا بعد عام 1840م. [3] و تواصلت هذه الزيادة خاصة إلى غاية عام 1870م أي في ظل الحكم العسكري. ففي عام 1845م قدرت قيمتها الإجمالية في مقاطعة قسنطينة بـ 2.122.802 فرنك فرنسي، و بعد عشرة سنوات أي عام 1855م وصلت إلى 3.650.724 فرنك فرنسي. [4] فالفرنسيون عندما منحوا هذه المهمة إلى هؤلاء الزعماء الأهليين كانوا يتلافون الاصطدام بالسكان، لأن هؤلاء الزعماء سيعملون على ترجمة إرادتهم و فرضها عنوة على السكان.

---

[1] جلال يحي: السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960، دار المعرفة، القاهرة، مصر 1959، ص 97.

[2] أحمد الخطيب: حزب الشعب الجزائري، الجزء الأول، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 46.

[3] Mostefa Haddad : l'emergence de l'Algérie Moderne. Le constantinois (l'Est Algerien) entre les deux guerres 1919-1939. Essai d'histoire économique et sociale, Tome II, les presses de l'imprimerie A.Guerfi Batna, Algérie, 2001, p 657.

[4] Charles-Robert Ageron : Les Algeriens musulmans et la France 1871-1919, Tome premier, Editions Bouchene, France, 2005, p 251.

3- لقد حرص الماريشال "فالي" من خلال أحكام هذا المرسوم على عدم إجهاد الخزينة العمومية الفرنسية بالآثار المالية المترتبة على تطبيقه، حيث حرم الخليفة من تقاضي راتب شهري مقابل أتعابه و ألزمه بالاكتفاء بثلث ضريبة الحكر و تسليم الثلثين الباقيين إلى الخزينة العمومية. و على هذا الأساس فإن راتبه يكون مرتبطا بمدى حرصه على تحصيلها. و ذهب الماريشال "فالي" إلى أبعد من ذلك حينما ألزم الخليفة بدفع كل الأموال المستخلصة من ضريبة العشور إلى الخزينة. و من مظاهر حرصه كذلك على عدم تكليف الخزينة العمومية الفرنسية بمصاريف إضافية متعلقة بتطبيق أحكام هذا المرسوم أن فرسان الصبايحية الذين يعضدون الخليفة و الجيش الفرنسي في المهام "اللوجستية" و الحروب ضد السكان حرموا كذلك من راتب شهري ثابت، حيث يتقاضون أجورهم ليس إلا في الفترات التي يستدعون فيها لمباشرة مهامهم، و من هذه الزاوية فهم مجندون موسميون. و على هذا الأساس يمكن القول أن التطبيق العملي لأحكام هذا المرسوم لم يكن يجهد فقط الخزينة العمومية الفرنسية بل يساهم بشكل مباشر في زيادة وعاء ذمتها المالية انطلاقا من الأموال المستخلصة من الضرائب.

و إذا كان الماريشال "فالي" يدعي أن عزة فرنسا تفترض إلغاء المصاريف الخاصة بالتشريفات التي يدفعها رؤساء الأهالي، فلأنه كان يرغب في تلافي الضغط على رؤساء الأهالي و السكان لأن ذلك لا يخدم مصلحة فرنسا، ثم أليس الحصان المسرج برمزيته الذي يقدمه الخليفة إلى "جلالة الملك الفرنسي" يغني الماريشال "فالي" عن هذه المصاريف؟ و هل العزة التي يتكلم عنها هذا الماريشال تتفق مع ما تقوم به بلاده من ممارسات استعمارية؟.

4- إن رؤساء الأهالي يكونون مسؤولين بصفة مباشرة أمام الحاكم العام للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا، لأنه يملك سلطة تعيينهم. و ما دام الأمر كذلك فهو أيضا يملك سلطة توقيفهم و سحب الثقة منهم، و هذا تطبيقا لقاعدة توازي الأشكال المشهورة في القانون الإداري و التي مؤداها "من يملك سلطة التعيين يملك بالضرورة سلطة الإلغاء". و هذا ما أشارت إليه المادة العاشرة من المرسوم كما قدمنا. و يبدو أن الماريشال "فالي" كان يدرك جيدا خطورة هذا المنصب لذلك احتفظ لنفسه بهذه الصلاحية، و لم يمنحها حتى للقائد العام للمقاطعة و الذي سمح له ليس إلا باتخاذ إجراء احترازي ينصرف إلى توقيف الرئيس الأهلي توقيفا تحفظيا. و يلاحظ كذلك أن المادة العاشرة حرمت الرئيس الأهلي من الطعن في قرار الحاكم العام. و قد اقتضت القواعد العامة للقوانين أن كل نص قانوني

يتضمن عقوبة يكون بالضرورة مرفوقا بحق الدفاع الذي يفترض الطعن في حكمه. و من هذه الزاوية يكون هذا المرسوم قد خرق قاعدة قانونية مستقرة في العمل الإداري.

5- منح المرسوم الخليفة الوظيفة القضائية، و سمح له بممارستها وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية، غير أنه حرمه من النظر في الجرائم المرتبطة بتحرك القبائل، و الجرائم المعاقب عليها بعقوبة الإعدام، و لنا أن نتساءل عن سر ذلك؟ إن هذه الجرائم لها ارتباط وثيق بالأمن الاستعماري بالمنطقة ففضل تفويض اختصاص النظر فيها إلى القائد العام للمقاطعة الذي يسهر على مراقبة و متابعة تحرك القبائل بشدة، ثم أن الجرائم المعاقب عليها بعقوبة الإعدام هي الجرائم التي تستهدف زعزعة الوجود الفرنسي بالمنطقة. و بهذا فإن الفرنسيين لم يأتمنوا هؤلاء الخلفاء في النظر في هذه الجرائم التي قدروها على أنها على درجة كبيرة من الخطورة.

6- أن المرسوم منح الخليفة السلطة التقديرية الواسعة في اختيار شيوخ القبائل المنضوية تحت قيادته، و عليه فإن إجراء تعيينهم و تقليدهم يكون من صلاحياته. و يفترض كذلك أن إجراء عزلهم يكون أيضا من صميم مشمولاته. غير أن هذا المرسوم حرمه من هذه الصلاحية و منحها للحاكم العام الفرنسي. و من هذه الزاوية يكون المرسوم معيبا، لأنه خرق قاعدة توازي الأشكال المشهورة في القانون الإداري، كما أنه حرم الخليفة أيضا من اختيار "القياد". و يفهم بمفهوم المخالفة أنه يقع تحت طائلة البطلان كل إجراء يباشره الخليفة يرمي إلى تعيين هؤلاء الوسطاء لأنه حصر مهمته في تقديم المترشحين لشغل هذا المنصب إلى القائد العام لمقاطعة قسنطينة الذي يتولى تعيينهم، و يبقى رأي الخليفة في هذه الحالة بالنسبة للقائد العام للمقاطعة رأيا استشاريا يؤخذ به على سبيل الاستئناس لا الإلزام. و السؤال الذي يطرح ما هو السبب الذي جعل المرسوم يحرم الخليفة من صلاحية إختيار و تعيين القياد و في الوقت نفسه يعترف له بحقه في تعيين شيخ القبيلة الذي هو أعلى و أخطر من منصب القايد أو على الأقل ينافسه؟

يبدو أن سبب ذلك يعود إلى حساسية هذا المنصب بالنسبة للمشروع الاستعماري الفرنسي. فقد كلف القياد بمهام أثقلت كاهل السكان و كانوا يترجمون إرادة الإدارة الاستعمارية و كانوا أكثر الوسطاء الأهليين ظلما و تجبرا حيث عملوا بتفان كبير من أجل التمكين للاستعمار. و لم تكن لهم

مرجعية قانونية يستندون إليها في تطبيق القانون و فرض النظام العام وجباية المغارم، و إنما مرجعيتهم، الوحيدة هي مزاجهم و ميولاتهم.[1]

و كانت تجاوزاتهم لا تختلف كثيرا من حيث حجمها و خطورتها عن تجاوزات الفرنسيين. و قد خلد السكان عبر قصائدهم و أشعارهم الملحونة و مدائحهم هذه التجاوزات، حيث خلعت عليهم إحدى القصائد الشعبية القبائلية عدة أوصاف غير حميدة فصورت القايد على أنه شخص أرعن و يمثل نذير شؤم و أنه يأكل أموال الناس بالباطل، و يجمع الثروة و يحقق الغناء الفاحش مقابل خيانته لوطنه و دينه،بعدما كان فقيرا مسحوقا.[2]

و يذكر "أ.فالي" "E.Vallet" أن القياد كانوا يحظون الفرنسيين على التعامل بقسوة و فظاظة مع السكان و يؤكدون لهم أن "الإنسان الجزائري مثله كمثل حشيشة الديس، إذا أحكمت قبضتك عليه بقوة فإنه يطيعك و ينصاع إلى أوامرك، و إذا تراخت قبضتك عليه تمرد و قطع أصابع يديك!" [3]

و يقدم لنا أحد المؤرخين الفرنسيين لوحة عن صورة القايد في صدر الاحتلال قائلا: "...إن القايد هو مصدر كل الرزايا و البلايا التي عصفت بالمجتمع الأهلي الجزائري، فقد تنكر لأصله و تعاون مع أعداء وطنه ضد شعبه. و الفرنسيون عندما أسندوا له حكم القبيلة فمثلهم كالذي أسند إدارة مصنع إلى رئيس العمال بعد فشل إضرابهم ... إن تعسفات القياد و تعاطيهم للرشوة ليست لها حدود، فكل قراراتهم الإدارية و تصرفاتهم القضائية تتم بهذه الصورة المشينة و تخضع لهذا المعيار ... و أنه من غير المتصور أن تجد قلبا أكثر قسوة من قلب القايد الذي يأخذ الضريبة عنوة من السكان بمن فيهم الفقراء و المسحوقين. فالفلاح الذي يملك رأسا واحدا من الغنم يجبره على بيعها لدفع الضريبة الملقاة على كاهله. فإذا كانت قيمة هذه الضريبة عشرين فرنك فرنسي و باع هذه الماشية بخمسة عشر فرنكا، فإنه يسلبه مبلغ المبيع كاملا و يطالبه بالفرنكات المتبقية لاحقا...". [4]

وقد عانى السكان معاناة كبيرة بسبب تجاوزاتهم، بل أن ظلمهم كان سببا في هجرة عدد غير قليل منهم إلى الخارج، فقد هاجر سكان أولاد عريض إلى البلاد التونسية عام 1854 بسبب ظلم قيادهم و

(1) أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص ص 112،113.

(2) Luciani : « Chansons Kabyles » in R.A, n°43, Anneé 1899, p 149.

(3) Eugene Vallet : Le drame Algérien. La verité sur les émeutes de 08 Mai 1945, les grandes éditions Françaises, Paris, France, 1948, p 256.

(4) Jacques Jurquet :op.cit, p 92.

تصرفاتهم الرعناء. [1] و كان القياد منبوذين من محيطهم العائلي القريب و البعيد،[2] و كان السكان أيضا يبغضونهم بغضا شديدا لأنهم كانوا ينظرون إليهم على أنهم يترجمون إرادة المحتل، و كانوا لا يتوانون عن قتلهم و تصفيتهم طالما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. و يصور لنا أحد التقارير الفرنسية المتعلقة برؤساء الأهالي و مرؤوسيهم جانبا من هذه النظرة. حيث يذكر هذا التقرير الذي كان بقلم أحد الضباط الفرنسيين عام 1846م أن بعض من سكان أولاد أحمد بضواحي مدينة سطيف اتفقوا على تصفية القايد لكحل أثناء تنقله لهم من أجل جباية الضرائب. و تنفيذا لهذه الخطة، أغار عليه السكان و قتلوه و غنموا مبلغ الضريبة الذي حصله و المقدر بـ 4.000 فرنك فرنسي، كما غنموا كل أسلحته و خيوله و بغاله، و لم يتركوا شيئا من ممتلكاته سوى خيمته التي تركوها لكي تلف فيها جثته.[3] و في مقابل ذلك، كان الفرنسيون لا يطمئنون لهم و ينظرون لهم نظرة ازدراء و كراهية، رغم الخدمات الكبيرة التي كانوا يقدموها لهم، و كان الجنرال "سانت أرنو" « يقتل القايد كما يقتل الكلب » لمجرد التوجس منه.[4]

كان الفرنسيون يدركون جيدا نفسية هؤلاء القياد الميالة لارتكاب المظالم أثناء تحصيل الضرائب، فحاولوا لجم أطماعهم عن طريق إصدار ترسانة من القوانين، أبرزها القانون الذي تضمنه القرار المؤرخ في 03 سبتمبر 1843م الذي نص في مادته 19 على أن جباية الضريبة يجب أن تتم بناء على محاضر تسجل فيها كل المعلومات الضرورية التي تضمن "نزاهة" جبايتها حيث ألزم القرار القايد بتسجيل إسم القبيلة التي استخلصت منها الضرائب، و إسم القايد المكلف بجبايتها، و عدد الخيام، و المساحة التقديرية لكل الأراضي المزروعة، و عددها الإجمالي، و الحصة المخصصة للقايد من إجمالي هذه الضريبة، و القيمة الإجمالية لهذه الضريبة مع توضيح طبيعتها إن كانت ضريبة عينية أم ضريبة نقدية. [5]

---

(1) I.S.H.M.N.T : A.O.M, Série 25H16, Bobine A22 : Etat général par tribu des tentes algeriennes établies sur le téritoire tunisien, Anneés 1853-1859, Folios : 149,150.

(2) Charles-André Julien : op.cit, p 279.

(3) A.O.M : F80. 493 : Les chefs indigènes et leurs administrés, cercle de setif, Rapport de 1ere quizaine d'Aout 1846 : Assissinat du Kaid Lakhal de Oueled Ahmed.

(4) محمد الصالح بجاوي: متعاونون و مجندون جزائريون في الجيش الفرنسي، دار القصبة للنشر، الجزائر،2009، ص 129.

(5) L.Biquet et M.Simon : Algérie : Gouvernement, Administration, Ligislation, Société d'imprimerie Et Librairie Administrative, Paul Dupont, France, 1883., p 343.

و لا يجب أن يفهم من وراء هذه التدابير الاحترازية التي تشكل آليات رقابة على نشاط هؤلاء القياد أن الفرنسيين يهدفون إلى مراقبتهم حتى لا يرتكبوا تجاوزات في حق السكان، و إنما هدفهم الحقيقي من وراء ذلك هو التضييق عليهم لكي يقدموا القيمة الحقيقية للضرائب المستخلصة إلى الخزينة العمومية الفرنسية كاملة غير منقوصة دون غش أو تزييف، و هذا بصرف النظر عن كون هذه الضرائب استخلصت بالطريقة التي حددها القانون أم أنها تمت خارج إطار المسطرة القانونية و انتزعت انتزاعا من أصحابها بطريقة كيدية.

هكذا إذن لعب القياد دورا مركزيا في التمكين إلى الاحتلال و في إرهاق كاهل السكان بالضرائب بغير وجه حق، لذلك فإنه ليس من الغريب أن مرسوم الماريشال "فالي" يمنح صلاحية تعيين هذه الطائفة من الوسطاء الأهليين إلى الحاكم العام للمقاطعة الذي يتأكد من درجة ولائهم للإدارة الاستعمارية قبل أن يقدم على تعيينهم و بالمقابل يحرم الخلفاء منها بعدما يستأنس بآرائهم باعتبارهم أكثر قربا منهم.

و بعد التعرض إلى كل هذه المعطيات نتساءل الآن عن الطبيعة القانونية لمرسوم الماريشال "فالي"

د- الطبيعة القانونية للمرسوم

يرى بعض الكتاب و الضباط الفرنسيين الذين درسوا و خبروا شؤون العائلات الكبرى أمثال العقيد "روبن"، و العقيد "رين" أن مرسوم الماريشال "فالي" يمثل عقدا تبادليا ملزما للجانبين un contrat bilatéral synallagmatique *: الجانب الأول يمثله رؤساء الأهالي المخاطبين بأحكامه، حيث التزموا بمباشرة المهام التي حددها لهم هذا المرسوم على مستوى القيادات التي كانوا يسطون عليها سيطرتهم. أما الجانب الثاني فتمثله الإدارة الفرنسية التي تضمن لهم حقوقهم التي أشار إليها هذا المرسوم، كالحق في الاحتفاظ بثلث الضريبة، و اختيار شيوخ القبائل، و ممارسة الوظيفة القضائية وفقا للشريعة المحمدية، و نحو ذلك. غير أن "مرسيي" يعترض على هذا التكييف، و يقول أنه إذا كانت إدارة بلاده قد التزمت بالأحكام التي نص عليها هذا المرسوم، فإن

* العقد التبادلي الملزم للجانبين هو العقد الذي يرتب التزامات على طرفيه. فكل طرف يظهر في صورة دائن و مدين créancier et débiteur. و من أمثلة هذا العقد عقد البيع الذي يلزم البائع بنقل الملكية و تسليم المبيع و ضمان العيوب الخفية، كما يلزم المشتري بدفع ثمن البيع.

حول هذا العقد ينظر:

عبد الرزاق أحمد السنهوري: الوسيط-مصادر الإلتزام- المجلد الأول، العقد، تنقيح و مراجعة مصطفى محمد الفقي، عبد الباسط جميعي، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، القاهرة، مصر، 1981، ص 116.

الخلفاء أداروا ظهورهم إليها و اغتصبوها. و يسوق مثالا على ذلك يتعلق بالشيخ أحمد المقراني الذي عينه الماريشال "فالي" خليفة على مجانة، و منحه سلطات واسعة لم يكن يملكها، وكلفه بمهام كان يجهلها، و طلب منه أداء بعض الالتزامات. غير أن هذا الخليفة لم يتمكن من تقديم الحد الأدنى منها، بل رفض الانصياع لها. و على هذا الأساس استنتج "مرسيي" أن هذا العقد المزعوم لم تبعث فيه الحياة القانونية، و بالتالي يقع بداهة تحت طائلة البطلان لانتفاء أركانه و لاسيما عدم وفاء الخلفاء و منهم الخليفة أحمد المقراني بالتزاماتهم.[1]

يبدو أن أطروحة "مرسيي" و غيره من المؤرخين الفرنسيين تنطوي على كثير من القصور لأنهم لم يفرقوا بين العقود المدنية و بعض التصرفات القانونية الأخرى. فمجال العقود و منها العقود التبادلية الملزمة للجانبين كما يعتقد جمهور فقهاء القانون المدني لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يخرج عن دائرة القانون الخاص. فالتصرفات القانونية التي تبرمها الدولة أو يبرمها أشخاص طبيعيون باسمها مع الأفراد كإسناد وظائف عامة و نحوها هي في واقع الأمر تصرفات تخضع لأحكام القانون العام، [2] و بالتالي فهي ليست من مشمولات نطاق العقد المذكور.

لا نود أن نثقل كاهل هذه الدراسة بهذه المسائل القانونية حفاظا على انسجام الموضوع، و نشير فقط إلى أن "مرسيي" عندما اعترض على التكييف القانوني الذي قدمه مواطناه "رين" و "روبن" لمرسوم الماريشال "فالي" لم يكن هدفه هو إعطاء التكييف القانوني الدقيق لهذا المرسوم، و إنما كان هدفه تبرير المضايقات التي باشرتها إدارة بلاده ضد الخليفة أحمد المقراني و سائر الخلفاء الآخرين المشمولين بهذا المرسوم، لأنه كان يركز كثيرا على عدم مقدرة هذا الخليفة على تنفيذ التزامه.

هـ- موقف السلطات الفرنسية العليا من المرسوم

كان الماريشال "فالي" حريصا أيما حرص على إعلام مسؤوليه المباشرين بالعاصمة الفرنسية باريس بكل إجراء إداري يباشره في الجزائر. فمباشرة بعد إصداره لهذا المرسوم، كتب تقريره المفصل و المطول إلى وزيره للحربية و هو التقرير الذي تحدثنا عنه سابقا، تكلم له فيه عن هذا المرسوم

(1) Ernest Mercier : op.cit, pp 13,14.

(2) محمد صبري السعدي: شرح القانون المدني الجزائري: النظرية العامة للالتزامات مصادر الالتزام، التصرف القانوني. العقد و الإرادة المنفردة، الجزء الأول، دار الهدى، عين مليلة، الطبعة الثانية، الجزائر، 2004، ص ص 41، 42.

و أعلمه بكل الخطوات الإدارية التي أقدم على إنجازها حيث جاء فيه: "...عندما شرعنا في استحداث مناطق إدارية في مقاطعة قسنطينة، أخذنا بعين الاعتبار أعراف و عادات السكان المحليين المستقرة لديهم منذ أزمنة سحيقة. و على هذا الأساس فقد استحدثنا إلى جانب الخلفاء، منصب شيخ العرب و قائد الحراكتة، و قايد الحنانشة...و نعلمكم بأن شيخ العرب يحوز على التبجيل في هذا النسق الإداري، فهو أول من يتلقى قفطان الشرف و التولية، و هي عادة كانت مستقرة خلال العهد التركي، ثم يأتي بعده قايد الحنانشة. و لعلمكم سيدي الوزير أن هذه العائلة أفل نجمها و فقدت وقارها و جلالها الذي توارثته عبر الأجيال بمجيء الحاج أحمد باي الذي حطمها و فرق جموع وجهائها بشراسة غريبة و خارقة...كما أبقينا على قايد الحراكتة...و استحدثنا ثلاثة مقاطعات و قمنا بتعيين ثلاثة رؤساء يأخذون لقب "الخليفة"، و هم خليفة الساحل، و خليفة فرجيوة، و خليفة مجانة، و فضلنا الإبقاء على هذا المنصب باسمه و خلعه على هؤلاء الرؤساء كما كان معمولا به في العهد التركي لأنه يرمز إلى التبعية الإدارية للإدارة الفرنسية...".[1]

و بعد زهاء أسبوعين من إرسال الماريشال "فالي" لتقريره المفصل إلى وزير الحربية الفرنسي حول هذا المرسوم و الإجراءات الإدارية التي باشرها على مستوى مقاطعة قسنطينة، جاءه رد مطول من وزيره. و لعل أبرز ملاحظة يمكن أن نسجلها على هذا الرد أن الوزير الفرنسي بارك السياسة العامة التي انتهجها الماريشال "فالي" في هذه المقاطعة و لاسيما الإجراءات الإدارية التي أقدم عليها. و قد تكلم بأريحية كبيرة حول ما قام به مؤكدا له بأن كل الخطوات التي قام بها تتفق مع السياسة العامة التي تروم السلطات الفرنسية في باريس تطبيقها في الجزائر. و مما جاء في هذا الرد: "...إن كل التدابير التي باشرتموها بمقتضى أحكام مرسوم 1838/09/30م، و لاسيما منها المتعلقة بالتقطيع الإداري للمقاطعة، و الإبقاء على الألقاب الإدارية القديمة التي كان معمولا في العهد التركي، و شروط و كيفيات و إجراءات التولية و التقليد و التنصيب، و إجراء أداء اليمين، و الإطار القانوني المنظم لعمل رؤساء الأهالي، و العقوبات المسلطة عليهم في حالة تجاوز السلطة، و المسائل المرتبطة بالخدمة العسكرية، و كيفيات جباية الضرائب و المغارم. كل هذه المسائل تنسجم شكلا و مضمونا مع توجيهاتنا و تعليماتنا التي وجهناها لكم سابقا بتاريخ 1837/12/27م، 1838/01/17م، 1838 /03/21م،

(1) A.O.M : F80.1672, op.cit, p 2.

1838/04/19م، 1838/07/11م و 1838/08/21م، و عليه فقد أبدينا موافقتنا المطلقة عليها، و من ثم صدقنا عليها...".[1]

الراجح أن وزير الحربية الفرنسي كان يتتبع الأخبار المتعلقة بالماريشال "فالي" و سياسته في الجزائر بصفة دائمة، و يمارس أيضا رقابة بعدية عن كل تصرفاته القانونية التي كان يباشرها في الجزائر لاسيما ما تعلق منها بمسألة اختيار رؤساء الأهالي، إذ كان ينظر في مدى انسجامها مع نص و روح المرسوم المذكور من عدمها. و هذا ما نفهمه من خلال الرسالة التي وجهها إلى الماريشال "فالي" بعد إصداره لهذا المرسوم حيث ورد فيها:"...إن استحداثكم لمناصب جديدة خاصة بالقياد يعد إجراء إداريا سليما غير معيب و يتطابق شكلا و مضمونا مع أحكام مرسوم 30/ 09/ 1838م، و عليه فلم يبق لنا إلا التصديق على قراركم هذا...". [2]

هكذا إذن حكم الماريشال "فالي" مقاطعة قسنطينة حكما إداريا غير مباشر. و في الحقيقة كان مضطرا إلى انتهاج هذا الأسلوب لأن حكومة بلاده هي التي كانت ترغب في ذلك و ترى أن تطبيق الإدارة المباشرة على كامل تراب المقاطعة من شأنه أن ينهك الخزينة العمومية الفرنسية.[3] و بهذه الطريقة "الذكية" التي نسج خيوطها الماريشال "فالي" تمكنت فرنسا من إحكام قبضتها على مقاطعة قسنطينة.[4]

و الأصل أن الاستعمار الفرنسي عندما ركز على هذه العائلات الكبرى في مشروعه الاستعماري لم يشذ عن القاعدة العامة التي كان ينتهجها كل مستعمر في كل بلد يحتله، إذ يعتمد على هذه الزعامات الأهلية التي تتشكل من الإقطاعيين و أصحاب المصالح، من أجل إحكام قبضته على مفاصل البلد المستعمر.[5] و إذا كان الاستعمار البريطاني يشترك مع الاستعمار الفرنسي في هذه الخاصية، فإنه يختلف عنه من حيث أن الإنجليز كانوا يعترفون لهذه الزعامات الأهلية بتشكيل كيانات سياسية مستقلة تتصرف بكل حرية في شؤونها الخاصة، أما الفرنسيون فكانوا ينظرون إليهم من زاوية واحدة و هي أنهم عبارة عن وسطاء إداريين "Auxiliaires administratifs" يمثلون الجسر الرابط بينهم و بين السكان الذين

---

(1) Georges Yver : Correspondance du Maréchal Valée (Juin-Decembre 1838) Tome II, op.cit, lettre adressée à Valeé le 17 octobre 1838, p 234.

(2) Ibid : lettre adressée à Valeé le 12 Decembre 1838, p 298.

(3) جلال يحي: العالم العربي الحديث و المعاصر، الجزء الأول، المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل، الاسكندرية، مصر، 1998، ص 159.

(4) Charles-Robert Ageron : «Naissance d'un peuple » in, histoiria Magazine, Editions Jules Tallandier, Paris, France n°199, Année 1971, p166.

(5) Frantz Fanon : Pour La révolution Africaine, Ecrits politiques, petites collection Maspero, Paris, France, 1982, p 54.

يسيطرون عليهم،[1] و هو حال هذا النظام الذي طبقه الماريشال"فالي" في مقاطعة قسنطينة حينما اعتمد على هذه العائلات الكبرى لإحكام قبضته عليها.

و قد وجدت هذه العائلات مصلحتها في التحالف مع المستعمر، و بذلك تكونت بينهما مصلحة مشتركة [2] و قضية واحدة جمعت بينهما، غير أن الفرنسيين كانوا يحتقرونهم و ينظرون إليهم بنظرة متعالية لأنهم تخلوا على قضيتهم الحقيقية. [3] و تهكم "أوغسطين برنارد " Augustin Bernard" من هؤلاء الخلفاء حينما قال أن مرسوم الماريشال "فالي" قد صنع خمسة عملاء طائعين و خاضعين و هم: ابن عيسى، و بلحملاوي، علي باحمد، أحمد المقراني، و فرحات بن السعيد الذي عوضه بوعزيز بن قانة عام 1840م في منصب شيخ العرب. و إذا كان هذا المرسوم قد خلع عليهم صفة الموظف، فإن ذلك كان تجاوزا فقط لأنهم كانوا عملاء لا موظفين".[4]

و الحقيقة أن هذه العائلات قد غلبت مصالحها الضيقة و امتيازاتها التي كانت تتمتع بها في العهد العثماني، فتحالفت مع المستعمر حفاظا على هذه الامتيازات التي كانت مهددة بالزوال في ضوء المعطيات الجديدة الناجمة عن الإحتلال الفرنسي للجزائر.[5]

و عبر أحد الدارسين على هذا الوضع بالقول:"إن هذه العائلات فضلت الزواج بالقضية الفرنسية لأن مصالحها الذاتية حتمت عليها ذلك".[6] و تبعا لذلك تخلخلت مكانتها في عيون المجتمع الأهلي، و تكسرت شوكتها الأدبية، و ترتب عن ذلك أن القبائل التي كانت منضوية تحت لوائها و تابعة لسلطتها انفضت من حولها و تملصت من تبعيتها.[7]

---

(1) Hubert Deschamps :les institutions politiques de l’Afrique Noire, P.U.F, Paris, France, 1964, p 54.

(2) غي برفيليي: الطلبة الجزائريين في الجامعة الفرنسية 1880م-1962م، ترجمة مسعود حاج مسعود و آخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 51.

(3) Mostefa Lacheraf : op.cit, p 56.

(4) Augustin Bernard : l’Algérie, Librairie Félix, Paris, France, 1929, pp 198,199.

(5) Mohamed Guenaneche : Le mouvement d’indépendance en Algérie entre les deux guerres (1919-1939), Traduit de L’arabe par Sid Ahmed Bouali, E.N.A.L, Alger, Algérie, 1990, p24.

(6) Omar Chaïr : op.cit, p 313.

(7) Mohamed Cherif Sahli : Décoloniser L’histoire. L’Algérie accuse le complot contre les peuples Africains, Entreprise Algérienne de prèsse, Alger, Algerie, 1986, p 210.

و الأصل أن الإدارة الاستعمارية كانت إذ ذاك في حاجة ماسة إلى خدمات هذه العائلات التي كانت تمثل نخبة المجتمع و رمزا لقيمه الدينية و العسكرية،[1] و كان قادتها يعلمون جيدا أن بلادهم لا يمكنها أن تنعم بالأمن و الاستقرار في الجزائر ما لم تنشر أفكارها و قيمها في المجتمع الجزائري، و أن هذه الأفكار لا يمكن أن تصل إلى قلوب الجزائريين إلا عن طريق رجال يمثلون نخبهم و رموزهم الدينية و الدنيوية.[2]

و على هذا الأساس عملت على تدعيم هذه العائلات و مؤازرتها حتى تتعاون معها و تصل إلى هذا المبتغى و تساعدها على تثبيت أقدامها بالجزائر باعتبار أن هذه العائلات تمثل صفوة المجتمع الجزائري الذي اعترف لها بالريادة و الزعامة عبر مختلف الحقب الزمنية.[3] لقد وظفتهم الإدارة الاستعمارية الفرنسية من أجل إحكام قبضتها على الجزائر و تفكيك بنية المجتمع الجزائري لأنهم "أصحاب الأذرع الطويلة منذ قرون، كانوا يحكمون و يحكم بهم، مثل كل المجتمعات، و هم أعيان المجتمع و نخبته السياسية و العسكرية و التاريخية أيضا، لأن معظمهم كانوا ذوي حسب و نسب سواء عن حق ثابت بالرواية و التواتر أو عن ادعاء زائف فقط" على حد تعبير المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله. [4] و ادعى الفرنسيون أن إدارة بلادهم ضايقتهم فيما بعد، لأنهم تنكروا للجميل و لكل الامتيازات التي منحت لهم.[5] و الحقيقة أن الفرنسيين هم الذي قلبوا ظهر المجن لهذه العائلات عندما نالوا منهم مرادهم، ثم لفظوهم كالنواة و لم يحدث العكس كما يدعون.

و يبدو أن ارتكاز الفرنسين على هذه العائلات الكبرى في مشروعهم الاستعماري كان بناء على دراسات اثنولوجية و سوسيولوجية قدمها أخصائيون من أجل اختراق المجتمع الجزائري، لأن الاحتلال الفرنسي للجزائر و تنظيمه إداريا كان مبنيا على أسس علمية و منهجية محكمة.[6]

---

(1) Chenouf Tayeb : L'Algérie en 1954, Documents d'archives, O.P.U, Alger, Algerie, 2006, p 165.

(2) A.O.M : F80. 497 : Cercle de Guelma : Rapport de la première quinzaine de Juillet 1849.

(3) Abdelmadjid Meziane : « Les élites castes », in culture Algérienne dans les textes, choix et présentation par Jean Déjeux, éditions published, Paris, France, S.D., p 26.

(4) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860–1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص116، 117.

(5) G.Jacqueton : « Chronique Africaine. Histoire moderne et contemporaine », in, R.A n°37, Année 1893, p 272.

(6) Abdelhamid Benachenhou : op.cit, p 181.

و في هذا الإطار فقد توصلوا إلى حقيقة مؤداها أن الجزائريين لا يركنون إلا لذوي الحسب و النسب و المنبت الشريف، و أنهم لا ينحنون إلى السلطة إلا إذا كانت سلطة "ارسطوقراطية" [1] و كان الفرنسيون يدركون جيدا هذه الحقيقة، و لم تغب عن أذهانهم أن زعماء هذه العائلات كانوا مهيبي الجانب و يمارسون نفوذا أدبيا كبيرا على السكان،[2] فحاولوا استقطابهم عن طريق مرسوم الماريشال "فالي" الذي لم يكن سوى آلية من آليات الإدارة الاستعمارية من أجل احتلال مقاطعة قسنطينة، ثم فرض الهيمنة الاستعمارية على كل ربوع القطر الجزائري.

3- قيادات العائلات الكبرى [3]

لما كان مرسوم الماريشال "فالي" الآنف الذكر لم يشمل كل العائلات الكبرى التي ندرسها، و إنما اقتصر على البعض منها فقط، نرى من الملائم تجزئة هذه القيادات إلى قيادات مشمولة بمرسوم الماريشال "فالي"، و قيادات غير مشمولة بأحكامه.

أ-القيادات المشمولة بمرسوم الماريشال "فالي".

تضم هذه القيادات قيادة عائلة المقراني، و قيادتي عائلتي بوعكاز الذواودة و ابن قانة و قيادة عائلة بوعكاز بن عاشور.

- **قيادة عائلة المقراني:**

لقد تم تقليد الشيخ أحمد المقراني بصفة رسمية كخليفة على مجانة من قبل الماريشال فالي بقصر الحاج أحمد باي بمدينة قسنطينة يوم 24 /10/ 1838م،[4] و على إثر ذلك أبلغ الماريشال "فالي" وزيره للحربية بفرنسا بهذا الإجراء حيث أخبره بمراسيم حفل التقليد مذكرا إياه بالخصال الحميدة التي يحوزها الخلفية أحمد المقراني، مستحضرا ماضي عائلته المشرق، و مشيرا إلى الطريقة و الإجراءات التي قلده بها في هذا المنصب، حيث أشار إلى أنه تم تعيينه تبعا للتقاليد و الأعراف التي تنص عليها الشريعة المحمدية، وتم حفل التنصيب بحضور عدد من القضاة و المفتيين.[5]

---

(1) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص116.

(2) Charles-André Julien : Une pensée anti-coloniale. Positions 1914-1979, Editions sindbad, Paris, France 1979, p 55.

(3) ينظر خارطة قيادات العائلات الكبرى: الملحق رقم 3.

(4) يحي بوعزيز: ثورة 1871 (درو عائلتي المقراني و الحداد)، المرجع السابق، ص 50.

(5) Georges Yver : op.cit, lettre adressée au ministre de la guerre le 24 octobre 1838, pp 241,242.

و كانت قيادة المقراني من أكبر القيادات في مقاطعة قسنطينة، و ذلك بالنظر إلى الحيز الجغرافي الذي كانت تمسحه، حيث أن الفرنسيين كانوا قد منحوا المقرانيين قيادة أكثر اتساعا من القيادة التي كانوا يسطون عليها سيادتهم خلال الحقبة العثمانية، حيث امتدت مساحتها إلى المناطق الشرقية من جبال ونوغة و مزيتة، و الدريعات و أولاد خلوف و مجانة.[1]

و ذكر الماريشال "فالي" في تقريره الذي ذكرناه سابقا أن الخليفة أحمد المقراني كان يبسط سيادته على مختلف القبائل التي تسكن بين مدينة سطيف و أبواب الحديد.[2] وإذا أردنا أن نحدد تحديدا جغرافيا دقيقا لقيادة المقراني نقول أنها كانت تنحصر ما بين فرجيوة شرقا، و مقاطعة التيطري غربا، و قيادة شيخ العرب بالجنوب القسنطيني.[3] وقدر "مرسيي" مساحتها ما بين 25 و 30 فرسخا* (Lieues)، و ذلك في الاتجاهات الأربعة.[4]

هذا، و قد كان الخليفة أحمد المقراني يرتكز على الدعم الذي توفره له مختلف القبائل المنضوية تحت قيادته و لم تكن هذه القبائل على درجة متساوية من القوة و العدد، إذ كانت قبيلة هاشم أهم قبيلة في قيادة المقراني، و كانت تمثل العمود الفقري لسلطته، حيث كانت تتكون من زهاء 1200 خيمة، و بإمكانها تزويد الخليفة بحوالي 800 فارس.[5]

- **قيادتا عائلتي بوعكاز الذواودة و ابن قانة:**

رأينا فيما سبق أن الشيخ فرحات بن السعيد الذوادي كان من الزعماء الأهليين الأوائل الذين تعاونوا مع الفرنسيين منذ البداية، و نتيجة لذلك فقد قلدوه منصب شيخ العرب، و هذا قبل

(1) L.Ch.Féraud : «Histoire des villes de la province de constantine :Bordj-Bouarrérij», op.cit, p313.

(2) A.O.M :F80.1672,op.cit, p3.

(3) يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 51.

* الفرسخ "Le lieue" هو وحدة قياس قديمة كانت تستعمل في قياس المسافة، و تقدر بزهاء ثلاثة أميال أو ثمانية عشر ألف قدم أو أربعة كيلومترات، و يسمى أيضا بالمرحلة، و جمعها مراحل، و هي المرحلة التي يستطيع المسافر قطعها خلال يوما كاملا.

حول ذلك ينظر:

- سهيل إدريس: المنهل قاموس.عربي، دار الآداب للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2009، ص 722.
- المنجد في اللغة و الأعلام، دار الشرق، بيروت، لبنان، 1988، ص 253.

-Paul Robert : Le petit Robert, Tome I, dictionnaire alphabétique et analogique de La langue Française, Paris XI^{e} , France, 1990, p1094.

(4) Ernest Mercier : op.cit, p 30.

(5) صالح فركوس: إدارة المكاتب العربية و الاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844م-1871م، المرجع السابق، ص 344.

صدور مرسوم الماريشال "فالي". فقبل إصداره لهذا المرسوم، كتب الماريشال "فالي" تقريرا أرسله إلى مسؤوليه بالعاصمة الفرنسية باريس جاء فيه:"... لقد راسلنا الشيخ فرحات بن السعيد و اتفقنا معه حول مساحة قيادته و حدودها، و قلدناه قفطان الشرف، ثم قمنا بتنصيبه شيخا على الإقليم الصحراوي. و على هذا الأساس فإن السيادة الفرنسية على الجنوب القسنطيني قد أصبحت في حكم الأمر المقضي فيه، و غير القابل للنقاش..."[1] و بصرف النظر عما كتبه الماريشال "فالي" من مغالطات إلى وزيره و ادعائه بأن قواته أحكمت قبضتها على الجنوب القسنطيني، فإنه يمكن القول أن تقليد الشيخ فرحات بن السعيد بمقتضى هذا المرسوم كان إجراء شكليا ليس إلا.

و الحقيقة أنه بعد سقوط مدينة قسنطينة في قبضة المحتل عام 1837م، حدثت تطورات حاسمة في مواقف العائلات الكبرى من الاستعمار الفرنسي و المقاومة الوطنية، أبرزها تعاون الشيخ فرحات بن السعيد مع الأمير عبد القادر و اتهامه بالخيانة من قبل الفرنسيين، و بالمقابل ميل بوعزيز بن قانة إلى الفرنسيين بعدما كان يحارب في معسكر الحاج أحمد باي، و سنأتي على تفصيل ذلك لاحقا. و كانت هذه التطورات تصب كلها في مصلحة بوعزيز بن قانة الذي تضاعفت حظوظه في استخلاف الشيخ فرحات بن السعيد و الاستحواذ على منصب شيخ العرب. ففي 15 /12/ 1838م، كتب الجنرال "غالبوا" القائد العام لمقاطعة قسنطينة تقريرا مفصلا إلى الماريشال "فالي" تعرض فيه إلى الأوضاع العامة التي أعقبت سقوط مدينة قسنطينة في أيدي القوات الفرنسية لاسيما التطورات الهامة التي طرأت على مواقف الزعيمين فرحات بن السعيد و بوعزيز بن قانة. و في آخر هذا التقرير نصح الجنرال "غالبوا" حاكمه العام بضرورة إسناد منصب شيخ العرب إلى بوعزيز بن قانة مع إبراز محاسن هذا الإجراء و الفوائد التي ينطوي عليها.(2)

وفي يوم 29 /12/ 1838، أي بعد أقل من أسبوعين كتب الجنرال "غالبوا" تقريرا آخرا إلى الماريشال "فالي" يخبره فيه بقدوم بوعزيز بن قانة إلى مدينة قسنطينة رفقة قائد مدينة بسكرة و ثلاثين زعيما من كبراء و وجهاء إقليم الجريد و الصحاري، و قد أظهروا كلهم نيتهم في التعاون مع الفرنسيين مبرزا له كذلك أن بوعزيز بن قانة كان يرغب في أن يستقبله الفرنسيون بمدينة قسنطينة استقبالا يليق

[1] Georges Yver : correspondance du Maréchal Valeé (octobre 1837-Mai 1838) op.cit, Tome I : lettre adressée au ministre de la guerre le 2 Fevrier 1838, p227.

[2] L.Ch.Féraud : «les Ben-Djellab sultans de Tougourt .Notes historiques sur la province de constantine», n°28, Année 1884, pp233-235.

بشخصه كشيخ للعرب. غير أنه رفض استقباله بهذه الصفة لأنه لم يتلق إخطارا منه، و على هذا الأساس ألح الجنرال "غالبوا" مرة أخرى على الحاكم العام على ضرورة تعيينه في هذا المنصب، وختم تقريره بالقول:"... نتمنى أن تقدموا و دون تمهل على تعيين بوعزيز بن قانة شيخا للعرب، إنه في انتظار إجابتكم، و إنني أتمنى أن توافقوا على هذا التعيين لما فيه من مصلحة كبرى لنا..." [1]

ويبدو من خلال ما تقدم أن الجنرال "غالبوا" كان متحمسا إلى إسناد هذا المنصب إلى بوعزيز بن قانة، و الدليل على ذلك أنه خلال الفترة التي كان ينتظر فيها الرد من طرف الحاكم العام الفرنسي، كان يتواصل معه و يزوره في المنزل الذي خصصه له بمدينة قسنطينة، كما عرفه بأمين سره و مترجمه السيد إسماعيل عربان* الذي "لقنه الأفكار و المبادئ الفرنسية"، و بين له التنظيم الإداري الذي ترغب فرنسا إقامته بالجزائر، و نتيجة لذلك نشأت علاقة وطيدة جمعت بينهما، و شاركهما في ذلك حاكم المدينة الشيخ حمودة الفقون. [2]

في 1839/01/14م، أصدر الماريشال فالي قرار تولية بوعزيز بن قانة في منصب شيخ العرب هذا نصه: نحن ماريشال فرنسا، الحاكم العام للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا، و بناء على القرار المؤرخ في 1838/09/30م الذي يحدد التنظيم الإداري لمقاطعة قسنطينة التي مازالت سلطتنا لا تمارس فيها بشكل مباشر قررنا و نقرر ما يلي:

---

(1) Ibid, pp 235, 236.

* إسماعيل عربان "Ismail Urbain" (1812م-1884م) من مواليد "كيان" "cayenne" عاصمة "غيانة" "Gauyane" سافر إلى فرنسا من أجل متابعة دراسته، غير أنه لم يتمكن من بلوغ هدفه لاعتبارات عنصرية، فسافر إلى الجزائر و نسج علاقات ودية مع بعض الساسة و القادة العسكريين الفرنسيين بالجزائر فقربوه منهم و منحوه وظيفة مترجم في الجيش الإفريقي. و كانت لإسماعيل عربان مواقف سياسية خطيرة منها أنه كان مناهضا لجشع المعمرين في الجزائر، اعتنق الإسلام عام 1835م، و على إثر ذلك غير إسمه الذي أصبح إسماعيل عربان بعد ما كان "طوماس عربان" "Thomas Urbain". حول هذه الشخصية و دورها في السياسة الفرنسية بالجزائر في بداية الاحتلال ينظر:

- أحميدة عميراوي:"إسماعيل عربان و السياسة الفرنسية في الجزائر" سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة، الجزائر، العدد 4، السنة 1980، ص ص 71-80.

(2) L.Ch.Féraud : op.cit, p 237.

- المادة الأولى: يعين السيد بوعزيز بن قانة شيخا للعرب خلفا للسيد فرحات بن السعيد.
- المادة الثانية: يحكم السيد بوعزيز بن قانة بناء على أحكام هذا القرار المدن و القبائل الآتية: مدينة بسكرة و أحوازها: فلياشة، شتمة، سيدي عقبة، أوماش، بوشقرون، ليشانة، الزعاطشة، فرفار، البرج، ليوة، الصحيرة، المقادمة، أورلال، مليلي، بيقو، قرطة، القنطرة، وسائر القبائل الأخرى التابعة لإقليم الزيبان.

و علاوة على ذلك يعين السيد سي محمد بوعزيز بن قانة شقيق شيخ العرب قايدا على قبائل أولاد عبد النور خلفا للسيد بن زكري الذي تم توقيفه مع صديقه فرحات بن السعيد شيخ العرب السابق بتكدامت.[1] وبعد هذا التعيين بقليل أرسل الماريشال "فالي" رسالة إلى بوعزيز بن قانة مؤرخة في 02/14/ 1838م أكد له فيها على ضرورة تمتين الصلات بينه و بين الفرنسيين مذكرا إياه بحدود قيادته،[2] ويبدو أن قيادة شيخ العرب بدت أكثر وضوحا في السنوات اللاحقة لقرار توليته و تنصيبه في منصب شيخ العرب. ففي 1844/05/23م، باشر "الدوق دومال" عدة إجراءات إدارية ذات طابع تنظيمي تخص الجنوب القسنطيني، حيث أسند منصب القيادة العسكرية العليا لدائرة بسكرة إلى الرائد"طوماس" "Thomas" بمساعدة زعماء أهليين منهم شيخ العرب بوعزيز بن قانة الذي خلع عليه منصب خليفة الصحراء و قسم قيادته إلى أربعة وحدات رئيسة هي:

- واحة بسكرة: و قسمت إلى عدة أحياء هي باب القبة، و رأس الكرية، و باب الغرب، و باب الغلة، و قدشة، و المسيد، و يدير، و لكل حي رئيس يعرف بكبير الجماعة، و تخضع كل أحياء هذه الواحة إلى سلطة القايد محمد الصغير بن علي بلقيدوم بن قانة.
- الزاب الظهراوي: و يضم واحات و قرى بوشقرون، فرفار، البرج، ليشانة، الزعاطشة التي تخضع لسلطة كبراء الجماعة أما قرية طولقة فيسند حكمها إلى رئيس أهلي برتبة شيخ.
- الزاب القبلي: و يضم واحات ليوة، مخادمة، ابن طيوس، مليلي، الزاوية، المناهلة، بيقو، أوماش، الصحيرة التي تخضع هي الأخرى لسلطة كبراء الجماعة و أما قرية أورال و مليلي فتخضع إلى رئيس أهلي برتبة شيخ.

(1) Bouaziz Bengana: op.cit, p65.
(2) Ibid, p 66.

- البدو: و تضم البدو الرحل جنوبا و يدخل في حكمهم أيضا عرب الشراقة، و عرب الغرابة، و أولاد سيدي صالح، و يوضعون مباشرة تحت سلطة شيخ العرب بوعزيز بن قانة[1]

- **قيادة عائلة بوعكاز بن عاشور:**

كانت عائلة بوعكاز بن عاشور تبسط سيادتها على المنطقة الجبلية للوادي الكبير و فرجيوة و البابور، و كانت عائلة أولاد عز الدين تقاسمها السيادة في هذه المناطق. [2]

وذكر الماريشال "فالي" في تقريره الذي وجهه إلى وزير الحربية الفرنسي بخصوص هذا الموضوع أن خليفة فرجيوة كان يحكم سيطرته على كل القبائل الساكنة غرب مدينة قسنطينة أي تلك التي تسكن ما بين منطقة الساحل و منطقة الجريد و مناطق سطيف،[3] و تضم أعراش عرب البابور، و بني مروان، و فرجيوة، و موية، و طلعة، و بني عافر.[4]

و ذكر "مرسيي" أن الماريشال "فالي" عندما أسند قيادة فرجيوة إلى أحمد بلحملاوي بمقتضى مرسوم 1838/09/30م لم يقطع صلته بالشيخ أحمد بوعكاز، حيث كان يتواصل معه بطريقة سرية عن طريق شيخ البلد بقسنطينة حمودة الفقون، و كان يعتبره الشيخ الشرفي لقيادة فرجيوة لأنه كان يطمئن إليه كثيرا، و في مقابل ذلك كان لا يثق في الشيخ أحمد بلحملاوي.[5]

والحقيقة أن الفرنسيين كانوا يتهمونه بعدم الإخلاص لهم و سوء النية في العمل مع السلطات الإدارية و العسكرية الفرنسية لأنه كان يتآمر ضدهم، و يحارب المشروع الاستعماري الفرنسي سريا. و كان الماريشال "فالي" يذكر في تقاريره الكثيرة أنه كان يتواصل مع الحاج أحمد باي و يعطف عليه لاسيما بعد نزوحه إلى منطقة الأوراس. كما اتهمه الجنرال "نيغريي" بالتواصل مع الأمير عبد القادر، لذلك اعتبره الزعيم الأهلي الأكثر خيانة للفرنسيين. و نتيجة لذلك تم توقيفه و وجهت له تهمة التآمر و الخيانة، وأحيل على مجلس حربي الذي حكم عليه بعقوبة قاسية تمثلت في النفي إلى جزيرة القديسة مارغريت "St Marguerite" لمدة 20 سنة مع الأشغال الشاقة.[6]

---

(1) Ibid, pp 102, 103.

(2) L.Ch.Féraud : «Histoire des villes de la province de constantine : Sétif», in, R.S.A.C, constanine, 1872, p 164.

(3) A.O.M : F80. 1672, op.cit, p3.

(4) A.M.G : Série H 229 : Mémoires divers 1844-1859, Commandements et Chefs indigènes de la province de Constantine, Année 1850 : 1ere subdivision, Constantine, Cercle de Constantine : Kaidat de Ferdjiouah. ينظر الملحق رقم 4

(5) Ernest Mercier :Histoire de constantine, op.cit, p 469.

(6) عبد الكريم بوصفصاف و آخرون: المرجع السابق، ص ص 50، 51.

و يبدو أن الخليفة أحمد بلحملاوي كان محظوظا حيث لم تسلط عليه هذه العقوبة، و توجد في أرشيفات وزارة الخارجية الفرنسية بتونس مراسلات مطولة أرسلها الفرنسيون إلى الرسميين التونسيين حدثوهم فيها عن العفو الملكي الذي استفاد منه هذا الخليفة، و انتقاله إلى البلاد التونسية. و يفهم من هذه المراسلات، أن الفرنسيين كانوا يخشونه، و يتتبعون أخباره بصفة دائمة، كما كانوا يتتبعون أخبار الزعماء الجزائريين الآخرين المهاجرين هنالك، و غالبا ما كانوا يلتمسون منهم اقتفاء أثر هذا الخليفة المخلوع.[1]

و الحقيقة أن توقيف أحمد بلحملاوي كان يعني بالضرورة انتقال منصب خليفة فرجيوة إلى الشيخ أحمد بوعكاز. ورغم أن الفرنسيين أسندوا له هذا المنصب، إلا أنه كان يرفض الاتصال بهم لكنه في الوقت نفسه يعترف بهم! و كان الفرنسيون يعملون جادين من أجل استقطابه و التعاون معه.

ففي شهر جوان من عام 1844م كتب "الدوق دومال" الذي كان وقتئذ القائد العام لمقاطعة قسنطينة رسالة إلى الشيخ أحمد بوعكاز حملت عبارات الإطراء و المجاملة، و في الوقت نفسه حاول من خلالها حثه على القدوم إلى مدينة قسنطينة. و أهم ما جاء في هذه الرسالة:"...بعد التحية أعلمكم أننا أرسلنا رئيس المكتب العربي النقيب بواسوني Boissonnet*

(1) حول هذه المراسلات ينظر:

I.N.M.N.T : Archives du Ministère des affaires étrangères, quai d'Orsay, Paris, France, serie affaires diverses politiques, Bobine 517, Dosier n°1, Frontière entre l'Algerie et la Tunisie (1841-1864) Folios : 183, 184, 185, 186, 187, 188.

* "بواسيني" "Boissonnet" هو رئيس المكتب العربي لمدينة قسنطينة، ولاه الفرنسيون هذا المنصب عام 1844م، و عضد "الدوق دومال" في عمله. و ادعى بعض الكتاب و المؤرخين الفرنسيين و منهم "مرسيي"، أنه في عهد هذا الدوق انتشر الأمن و ركن سكان المقاطعة إلى الهدوء و السكينة من أقصى شرقها إلى أقصى غربها أي من سوق أهراس شرقا إلى مجانة غربا. و بالموازاة مع ذلك كانت للنقيب "بواسيني" سمعة طيبة في أوساط سكان المقاطعة بفضل تفانيه في خدمة الرعية و السهر على إحقاق الحق و إزهاق الباطل! و كان يعرف في أوساط الأهالي باسم القبطان بوسنة. و انتشر في عهده مثل تداوله سكان المنطقة يدل على انتشار الهدوء و الهناء و رغد العيش مؤداه "مع ولد السلطان و بوسنة كل خبزتك و تهنى".

والواقع أن هذا ادعاء باطل لأن السياسة التي طبقها الفرنسيون حينئذ في مقاطعة قسنطينة، و في كل القطر الجزائري لم تكن تنصرف البتة إلى تحقيق رغد العيش و الهناء، بل انصرفت إلى اتباع سياسة التدمير الإقتصادي و القهر الإجتماعي و التذويب الفكري و الحضاري. و إذا كان الكتاب و المؤرخون الفرنسيون أمثال "مرسيي" يروجون لمثل هذه الأفكار و يحاولون تلميع صورة عهدهم و ابرازه في أحسن صورة من العهد التركي، فإن هدفهم واضح ينصرف إلى تبرير الاستعمار.

– حول هذه المسألة ينظر:

- Ernest Mercier : op.cit, p 501.

لكي يزوركم و يحاوركم و يناقشكم حول بعض المسائل الهامة التي تتعلق بقيادتكم و أولئك السكان الجبليون المنضوون تحت سلطتكم. و لئن كنا قد أقدمنا على مثل هذه الخطوة، فلأنكم تمثلون بالنسبة لنا شخصية مهمة و أنكم تخدمون قضيتنا بإخلاص...و قد بلغتنا أخبار مفادها أنكم تنوون زيارتنا في مدينة قسنطينة، و إننا نرحب بقدومكم و صداقتكم لنا...إننا منحناكم الأمان، و زيارتكم لنا في مدينة قسنطينة تثلج صدورنا، و ستكون فرحتنا كبيرة إذا أقدمتم على هذه الخطوة...".[1]

و في 1844/08/20م كتب الدوق دومال رسالة إلى الماريشال "بيجو" أبرز فيها تخوفه الشديد من الشيخ أحمد بوعكاز، كما حثه فيها على التعامل معه بليونة.[2] و رغم أن الشيخ أحمد بوعكاز كان يتعامل مع الفرنسيين بطريقة غير مباشرة إلا أنه كان يرفض المجيء إلى مدينة قسنطينة مقر القيادة العسكرية الاستعمارية، و بقي على ذلك النهج إلى فترة متأخرة، و لم يدخلها إلا يوم 1850/10/12م.[3]

وجدير بالذكر، أن الماريشال "فالي" قبل أن يغادر منصبه بالجزائر كان قد كلف حاكم مدينة قسنطينة الشيخ حمودة الفكون باستقبال شيوخ القبائل عند استسلامهم، و تذكيرهم بالتزاماتهم إزاء السلطات الفرنسية، كحرصهم على حفظ النظام و السكينة في الطرقات، و تأمين تنقل الأشخاص و تشجيعهم على ارتياد أسواق مدينة قسنطينة و نحو ذلك. و على هذا الأساس فإن الشيخ أحمد بوعكاز يكون قد إلتزم ضمنيا بذلك إثر دخوله إلى مدينة قسنطينة في التاريخ المذكور. كما أن قرار التولية الذي منحه له الفرنسيون إثر ذلك كان بأثر رجعي حيث حافظ على الصيغة التي وضعها الماريشال "فالي" بتاريخ 1838/09/30م. و كانت صيغته كالآتي: "نحن الماريشال "فالي" نصرح بأننا جددنا لفائدة الشيخ أحمد بوعكاز كل المزايا التي كان يتمتع بها، و إننا نأمل أن تخضع كل ربوع قيادته إلى سلطته، و أن تكون كلمته محترمة و مبجلة فيها و أن يحكمها وفقا للعادات المألوفة، كما أننا أسندنا له مهمة جباية الضرائب و كل ما تتطلبه مسائل الإدارة الفرنسية.

على كل مخاطب بهذا القرار التقيد و الالتزام بأحكامه، و يتعرض كل مخالف لذلك إلى عقوبات يقرها القانون. كتب هذا القرار بتاريخ 1838/09/30م بأمر من الماريشال "فالي" عاهل

[1] L.Ch.Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de constantine », op.cit, p99.

[2] Ibid, p101, 102.

[3] Ibid, p 104.

الجزائر و سائر مقاطعاتها".[1] في ضوء ما تقدم يتبين لنا أن الماريشال فالي تمكن بواسطة مرسومه أن يضبط قيادة كل عائلة من العائلات المذكورة، و يبين حدودها الاقليمية، و يعين على رأسها زعيم من هذه العائلات عله يساعده على فرض الحكم الاستعماري في هذه المناطق البعيدة نسبيا عن سيطرة و رقابة إدارة بلاده.

ب- القيادات غير المشمولة بمرسوم الماريشال "فالي"

لم يشمل مرسوم الماريشال فالي كل العائلات التي ندرسها، حيث استثنى البعض منها، و يبدو أن هذا الاستثناء لم يكن وليد الصدفة، بل كان تنفيذا لإستراتيجية محكمة درسها و خبرها الفرنسيون بصورة دقيقة. و لعلهم استثنوا عائلة ابن جلاب، و عائلة أولاد عز الدين، و عائلة الرزقي من هذا المرسوم بسبب بعدهم الجغرافي عن مقر القيادة العسكرية بقسنطينة، أو ربما بسبب مناعة و وعورة تضاريس المنطقة التي كانوا يسطون عليها سيطرتهم، لذلك فإن هذه العائلات حافظت نسبيا على قياداتها التقليدية الموروثة عن العهد العثماني.

- قيادة عائلة ابن جلاب.

لم يهتم الفرنسيون كثيرا في البداية بتمتين علاقاتهم بهذه العائلة بسبب بعدها الجغرافي، و كذلك بسبب عدم تمكنهم من السيطرة على الصحراء الجزائرية التي دخلوها عام 1844م، تاريخ احتلالهم لمدينة بسكرة بوابة هذه الصحراء.[2] و على إثر ذلك تقدم سلطان هذه العائلة عبد الرحمان بن جلاب إلى السلطات الاستعمارية عارضا عليها خدماته، و ملتزما بدفع ضريبة مقابل السماح له بشراء المواد الغذائية و الحبوب من المناطق التلية.[3] و من هذا المنطلق يمكن القول أن عائلة ابن جلاب لم تكن لها اتصالات جدية مع الفرنسيين خلال هذه الفترة، كما أنها لم تكن مخاطبة بأحكام مرسوم الماريشال "فالي"، و بالتالي فقد حافظت على قيادتها التقليدية الموروثة عن العهد العثماني. وذكر النقيب "دوماس" في إحدى تقاريره المؤرخة في 1838/12/31م أن سلطان عائلة ابن جلاب السيد عبد الرحمان كان يبسط سيادته على إثنتين و عشرين بلدة بالجنوب القسنطيني،[4] و له أتباع كثيرون وصل عددهم إلى نحو 1000 نفر معظمهم يتشكل من محيطه العائلي القريب و البعيد و حلفائه و مؤيديه. [5]

(1) Ibid, p 91.

(2) L.Ch.Féraud : «Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de constantine», in, R.A, n° 28, Année 1884, pp 470, 471.

(3) L.Ch.Féraud : «Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de constantine», in, R.A, n°24, Année 1880, p 304.

(4) Georges Yver : Les correspondances du capitaine Daumas, consul de France à Mascara (1837- 1839), éditions el Maarifa, Alger, Algérie, 2008, p 626.

(5) ISHMNT : Archives du Ministère des relations extérieures, quai d'Orsay, Paris, Série Correspondance politique, Bobine 291 : Dossier n° 1, Carton n° 13, Rapport Anonyme, S.D, Folio n° 204.

و في عام 1850م كانت قيادة ابن جلاب التي يطلق عليها قيادة وادي ريغ، تضم منطقة تقرت و بعض الجهات الأخرى في وادي سوف مثل الكوينين، توغزوت، و الزقم.[1] و يذكر "فيرو" أنه رغم صغر سن سلطانها الذي كان لا يتجاوز 22 سنة إلا أنه كان يسيطر على قيادة العائلة سيطرة فعلية، و ذلك بمساعدة أمه "عيشوش" التي تولت حكم العائلة باسم إبنها، و مما زاد في قوتها تحالفها مع الزعيم الذوادي فرحات بن السعيد.[2] و هذا ما يدفعنا إلى القول أنه بالرغم من عدم وجود تنصيب رسمي من قبل الفرنسيين للسلطان عبد الرحمان الجلابي إلا أنه من الجائز القول أن الفرنسيين كانوا يباركون حكم هذه العائلة، و لو بطريقة غير مباشرة لا سيما و أن فرحات بن السعيد الذوادي صديق هذه العائلة كان قد عين من قبل الماريشال فالي كشيخ للعرب، في تلك الأثناء.

و يضيف "فيرو" أن السلطان عبد الرحمان الجلابي كانت له فرقة موسيقية، و كان له أيضا جهاز إداري يتشكل من المقربين منه و هم وزيره بن يحي الذي يستخلفه في القيادة أثناء غيابه و يباشر كل سلطاته، و مهدي الذي يشرف على الخزينة، و محمد بلعيد و هو من العبيد المحررين و هو رئيس الخدم (Majordome)، و سعد و هو كذلك من العبيد المحررين و يشغل منصب خزناجي الحبوب، و أحمد العربي الذي يشغل منصب خزناجي التمور، و الحاج مهدي و هو كذلك من الرق الذين تم تحريرهم و يشغل منصب آغا القوم، و الحاج محمد الذي كان أمينا للسر و مكلفا بمسائل السجلات، و الحاج عمار مكلف بالمغارم و المكافآت، و الحاج إبراهيم وكيل الضيافة مكلفا باستقبال السفراء و المبعوثين، و بن فطيطة مكلف بحمل المظلة و إلقاء التحية على الجمهور باسم السلطان إثر عودته إلى مقر قيادته بعد خروجه منها للنزهة أو لمباشرة مهام أخرى.[3]

(1) A.M.G : Série H 229 : Mémoires divers 1844-1859, Commandements et Chefs indigènes de la province de Constantine, Année 1850 : 1ere subdivision, Constantine, Cercle de Constantine : Kaidat de L'Oued Rir.

(2) L.Ch.Féraud:, op.cit, pp 304, 305.

(3) Ibid, p 306.

وأشار "فيرو" أيضا إلى أن إمارة ابن جلاب كانت لها راية من الحرير الأخضر، مرصعة بالذهب كتب عليها مقطع من قصيدة البردة النبوية. و قد استولى عليها العقيد الفرنسي "ديفو" "Desvaux" عندما احتل مدينة تقرت عام 1854م.[1]

بهذا نلاحظ أن عائلة ابن جلاب كانت لها قيادة مستقلة في الجنوب القسنطيني، و تتوفر فيها إلى حد ما أركان الدولة الحديثة من إقليم و شعب و نظام سياسي، بل و حتى اعتراف من طرف بعض الكيانات السياسية الأخرى المجاورة. و لا نقصد بهذه الكيانات العائلات الكبرى الأخرى، و لا حتى الإدارة الفرنسية، بل الدولة التونسية التي كانت لها علاقات ودية مع هذه الإمارة. و كان السلطان عبد الرحمان يتبادل رسائل الود و المجاملة مع بايات تونس، و يخاطبهم فيها كرئيس دولة. فقد كتب رسالة إلى المشير الأول أحمد باي عام 1841م جاء فيها "...و نحن منكم و إليكم و دولتكم السعيدة دولتنا، و حرمتكم حرمتنا..."،[2] و هذا بعد أن حدثه عن وفاة عمه علي بن جلاب الذي قال له بأنه كان يكن له محبة كبرى له و لكافة التونسيين، كما ذكر له أيضا في هذه الرسالة بأن عمه أسند له رئاسة المشيخة قبل وفاته و أوصاه خيرا بإخوته التونسيين، بل و بالغ في الوصية "... فقال تعلى (كذا) كل من عليها فان و أن عبده الشيخ علي بن جلاب قبضه الله فله الحمد على ما أعطا (كذا) و نسئله تعلى (كذا) أن يجعل البركة في الجميع أمين و ولانا مكانه من الحكم و التدبير في مصالح عباده و به سبحانه يكون التوفيق و لما حضره الموت جعل حجرنا لسيادتكم و بالغ إلينا في وصيته من محبتكم و مودكتم...". [3]

بهذا يتبين لنا مرة أخرى أن عائلة ابن جلاب ظلت تحافظ على قيادتها التي توارثتها عن العهد العثماني خلال السنوات الأولى للاحتلال، و أن الفرنسيين غضوا البصر و ذلك تطبيقا لمبدأ المحافظة على الوضع الراهن الذي نظر له حاكمهم العام الماريشال "فالي".

---

[1] Ibid, voir la marge, p 311.

[2] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930: رسالة السلطان عبد الرحمان بن جلاب إلى المشير الأول أحمد باي، في ربيع الثاني عام 1257 هـ (الموافق لعام 1841م) وثيقة رقم 33. و ينظر أيضا الوثيقة رقم 14، و هي الوثيقة نفسها مترجمة إلى اللغة الفرنسية. ينظر الملحق رقم 5

[3] الأرشيف التونسي: المصدر نفسه، الوثيقة نفسها.

- **قيادة عائلة أولاد عزالدين.**

كانت لعائلة أولاد عزالدين في بداية الاحتلال الفرنسي لمقاطعة قسنطينة قيادة أو مشيخة مستقلة تحافظ على تنظيمها التقليدي الموروث عن العهد العثماني كذلك، شأنها في ذلك شأن بعض القيادات أو المشيخات الأخرى التي حافظت على استقلالها، و رفضت التواصل مع الإدارة الاستعمارية.(1)

وأشار إلى ذلك الماريشال فالي في التقرير الذي أرسله إلى وزيره و الذي عرفه فيه بالقبائل التي قبلت التعامل مع الإدارة الفرنسية و القبائل الرافضة لمنطق التعامل و التعاون معها.(2)

خلال تلك الفترة كان الشيخ محمد (بفتح الميم الأولى) بن عزالدين زعيم هذه العائلة يعمل بكل ما أوتي من قوة من أجل البحث عن مركز له لدى الإدارة الفرنسية لكي تعترف به كشيخ على الزواغة، غير أنه كان يرفض الاتصال بالفرنسيين و الذهاب إلى مدينة قسنطينة ليحادثهم حول هذه المسألة. و بما أن الفرنسيين كانو أيضا يرغبون في استقطابه إلى صفهم، فقد اتصلوا بأحد الوسطاء الذي كان يعمل كتاجر متنقل بين قسنطينة و إقليم الزواغة، و طلبوا منه أن يقنع الشيخ محمد لكي يعترف بهم و ينسج علاقات معهم. و قد أثمرت هذه الخطوة على حصول الشيخ محمد على منصب قايد الزواغة، غير أن اعترافه بالفرنسيين كان شكليا. و رغم ذلك كانت الإدارة الفرنسية تتلافى مضايقته، و برر "فيرو" ذلك بكون أن إدارة بلاده كانت منشغلة بمسائل أخرى ذات أولوية.(3)

وكان الأحرى به أن يقول أن الفرنسيين لم يتمكنوا من إحكام قبضتهم على تلك المناطق الجبلية بسبب حالة العصيان و الثورات التي كان السكان يعلنونها في وجه المحتل، غير أنه كان دائما ينكر هذه الحقيقة و يدعي أن تلك المناطق تميزت باستشراء الفوضى و الانفلات الأمني و سيطرة

(1) Roger Germain : La politique Indigène de Bugeaud, Editions larose, Paris V, France, 1955. p 226.

(2) Georges Yver : correspondance du Maréchal Valeé (octobre 1837-Mai 1838) Tome I, op.cit : Dépêche adressée au ministre de la guerre le 27 Janvier 1838, p450.

(3) L.Ch.Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de constantine », op.cit, p p 249, 250.

قطاع الطرق و اللصوص الذين فرضوا قوانينهم على مستوى طرقاتها الحيوية.[1] ولم يكن الشيخ محمد بن عز الدين يبسط سيادته على قيادة الزواغة بمفرده، بل كان يشاركه في ذلك شقيقه بورنان بن عز الدين. وكان الأخوان مهيبي الجانب حيث فرضا سلطتهما على المنطقة بقبضة من حديد.[2]

وكان الفرنسيون ينظرون إليهما على أنهما يشكلان رجلا واحدا متكاملا بخصالهما المتميزة والمتكاملة، فإذا كان الشيخ محمد رجل نصيحة وحكمة، فإن الشيخ بورنان رجل ميدان.[3] بقي الأخوان محمد و بورنان يرفضان التواصل مع الإدارة الاستعمارية إلى غاية 1849م تاريخ استسلامهما و دخولهما مدينة قسنطينة. و قد استقبل القادة الفرنسيون هذا النبأ بحماس لا نظير له حيث كتب القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة تقريرا إلى الحاكم العام الفرنسي قال له فيه بأنه "... مسرور جدا بأن ينقل له خبرا مفرحا مؤداه أن الشيخ بورنان بن عز الدين طلب الأمان، ودخل مدينة قسنطينة بالأمس على الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة صباحا ...". [4]

كما كتب رسالة أخرى إلى وزيره للحربية في تلك الأثناء حدثه فيها عن استسلام محمد بن عز الدين قائلا له: "هذا الزعيم دخل مدينة قسنطينة يوم الجمعة 1849/10/19م على الساعة الثانية ظهرا طالبا الأمان، وقد تعهدت له بأن لن ألحق به أدنى أذى، كما أعطيت تعليماتي إلى الجهات المختصة بأن تعيد له كل الممتلكات التي كانت تحت تصرفه في مدينة قسنطينة خلال المدة التي كان فيها ثائرا ضد سلطتنا. أما مسألة تقليده كقايد على منطقة الزواغة، وكل ما يتعلق بها، ففضلت إحالتها إلى السيد الحاكم العام، وذلك بالتعاون مع الجنرال "هربيون" « Herbillon » ... إن استسلام هذا الزعيم الأهلي يشكل مكسبا مهما لنا لاسيما في الوقت الحالي ...".[5]

---

(1) Ibid, p 250.

(2) Ibid, pp 250,251.

(3) A.O.M: F80. 493, cercle de Constantine: Rapport de la 2eme quinzaine d’Aout 1846.

(4) A.O.M : 2H20 : Rapport du commandant supérieur de la province Constantine à Monsieur le gouverneur général le 15/09/1849.

(5) A.O.M : 2H20 : Rapport du commandant supérieur e la province Constantine à Monsieur le ministre de la guerre à Paris le 22 Octobre 1849. ينظر الملحق رقم 6

بعد ذلك كتب رسالة أخرى إلى الحاكم العام حدثه فيها كذلك عن استسلام الشيخ محمد بن عز الدين قائلا له: "...هذا الشيخ تقدم لنا يوم 19 أكتوبر إلى مدينة قسنطينة مبديا حسن نيته في التعامل معنا، وهو أمر يفرحنا كثيرا، لأنه كان رافضا لوجودنا، ولم يدخل مدينة قسنطينة منذ 13 سنة...".[1]

وفي 1849/11/09 كتب الحاكم العام للجزائر تقريرا إلى وزير الحربية الفرنسية أشار فيه إلى محاسن استسلام الأخوين بن عز الدين بالنسبة للفرنسيين معتبرا أن هذا الحدث ترك انطباعا عميقا في ربوع مقاطعة قسنطينة.[2] وبهذه الطريقة دخل زعيما هذه العائلة بصورة رسمية في خدمة الإدارة الفرنسية، غير أنهما اشترطا على الفرنسيين إقصاء إبن أختهما بولخراص من العمل داخل هذه القيادة كما يذهب إلى ذلك "فيرو".[3] وبناء على اقتراحاتهما منحت قيادة موية إلى بولخراص بن محمد بن القيدوم، كما أسندت إدارة بعض شؤون منطقة وادي زناتي إلى بولخراص بن عز الدين، أما باقي المناطق فكانت خاضعة لسلطة الأخوين.[4] و قد شملت قيادة هذه العائلة التي يطلق عليها قيادة الوادي الكبير، قبائل بني صبيح، و أولاد مبارك، و العشايش، و بني هارون، و بني خطاب، و بني قايد، و بني عيدون، و بني توفرت.[5]

و رغم تعاملهما العنيف مع مختلف القبائل المنضوية تحت سلطتهما، إلا أنه استعصى عليهما فرض سلطتهما على بعض القبائل التي تميزت بثورتها المزمنة كأولاد عيدون، بني توفرت، المشاتي، أولاد عواط، وأولاد عسكر. وبقي الأخوان يحكمان هذه المناطق بصورة مشتركة إلى غاية شهر أفريل من عام 1854م تاريخ وفاة الشيخ محمد، (وقيل أنه مات مسموما من قبل شقيقه بورنان !)، فاستخلفه نجله عز الدين الذي كان صغير السن وقليل الخبرة، لذلك وضع تحت وصاية عمه بورنان الذي كانت

---

(1) A.O.M : 2H20 : Rapport du commandant supérieur de la province Constantine à Monsieur le gouverneur général à Alger le 25 Octobre 1849.

(2) A.O.M : 2H20 : Soumission des Frères Ben Azzedine. Note à la direction des affaires de l’Algérie : Rapport du gouverneur général de l’Algérie adressé au ministre de la guerre le 09 Novembre 1849.

(3) L.Ch.Féraud : op.cit, p326.

(4) Ibid, pp 326-328.

(5) A.M.G : Série H 229 : Mémoires divers 1844-1859, Commandements et Chefs indigènes de la province de Constantine, Année 1850 : 1ere subdivision, Constantine, Cercle de Constantine : Kaidat de L’Oued Kebir. ينظر الملحق رقم 4

له اليد العليا في إدارة شؤون المنطقة. وبالموازاة مع ذلك أسندت قيادة بني إيدير بدائرة جيجل إلى سي أحمد بلحاج والد بورنان.[1] وبهذا حكم بورنان المنطقة بمفرده نيابة عن الفرنسيين، وخدم المشروع الكولونيالي بقوة.

– **قيادة عائلة الرزقي**.

قبل التعرض إلى قيادة هذه العائلة يجدر بنا إبتداء التنبيه إلى أن الماريشال "فالي" بعد إصداره لمرسومه الشهير بتاريخ 30 سبتمبر 1838م، كان قد أصدر قرارا إداريا آخرا في الفاتح من نوفمبر 1838م، قسم بمقتضاه إقليم منطقة عنابة – التي كانت حينئذ مركزا للقيادة الفرنسية قبل سقوط مدينة قسنطينة عام 1837م– إلى أربع وحدات إدارية أخذت اسم دوائر "Cercles" و هي: دائرة عنابة (Bône)، و دائرة القالة، دائرة الايديوغ و دائرة قالمة.[2] وبمقتضى هذا القرار أصبح على رأس كل دائرة حاكما أهليا برتبة قايد، و حدد هذا القرار صلاحياته.[3]

و أسند الماريشال "فالي" إدارة دائرة قالمة إلى عائلة الرزقي التي كان زعيمها وقتئذ إبراهيم الرزقي، و أضيفت له مناطق أخرى لم يتمكن الفرنسيون من بسط هيمنتهم عليها و يتعلق الأمر بمناطق سوق أهراس و تبسة. [4]

غير أن الضابط الفرنسي "فيرو" يذكر أن الماريشال "فالي" كان قد أسند هذا المنصب إلى هذه العائلة قبل هذا التاريخ و تحديدا عندما كان الفرنسيون يسيرون نحو مدينة قسنطينة بغرض إخضاعها حيث التقى بالطاهر الرزقي نجل الشيخ الرزقي الذي تسممت علاقته بالحاج أحمد باي في مدينة قالمة فسلمه طابع و برنوس التولية و كلفه بتسليمهما إلى والده الذي كان يتواصل معه، و كان وقتها مضايقا من قبل أعدائه الذين كانوا يتتبعون خطواته و يترصدون كل تحركاته.[5]

---

[1] L.Ch.Féraud: op.cit, 326-328.
[2] H'sen Derdour : op.cit, p 366.
[3] Capitaine Maitrot : Bône militaire, 44 siècles de luttes, Bône, 1912, p 355.
[4] H'sen Derdour : op.cit, p 366.
[5] L.Ch.Féraud : «les Harar seingneurs des Hanencha. Etudes historiques sur la province de constantine», op.cit, p 372.

و ذكر الجنرال "بيجو" في مراسلة له وجهها إلى القائد الأعلى للقوات العسكرية لدائرة قالمة بتاريخ 18 نوفمبر 1843م أن عدد القبائل المنضوية تحت لواء دائرة قالمة يقدر بـ 61 قبيلة.(1) و أمام هذا العدد الكبير من القبائل وجد الفرنسيون أنفسهم مضطرين إلى تقسيم تراب هذه الدائرة، فقاموا بتجزئتها إلى ثلاث قيادات رئيسية، و هي قيادة الناظور، و قيادة الجرفة، و قيادة بني بولحسن، و أسندوا القيادة الأولى إلى عائلة الرزقي التي كان زعيمها أنذاك أحمد الصالح الرزقي.(2)

و رغم ذلك لم يطمئنوا كثيرا لوضعها الإداري، لذلك فكروا في تقسيمها إلى دائرتين مستقلتين حتى يتسنى لهم مراقبة الحدود الشرقية للجزائر على أحسن وجه.(3) و ما أن أطل عام 1856م، حتى أنشئت دائرة سوق أهراس العسكرية، و تمت هيكلة أعراش منطقتها من الناحية الإدارية و الاقتصادية،(4) و قسمت إلى خمس قيادات أهلية أسندت معظم إدارتها إلى عائلة الرزقي، حيث منحت قيادة ويلان إلى أحمد بن دحماني الرزقي، و قيادة أولاد دهياس و أولاد نشية إلى سي ابراهيم بن الحاج الزرقي، و قيادة أولاد خيار إلى إبراهيم بن مالك الرزقي، بينما أسندت قيادة الحنانشة إلى الكبلوتي بن الطاهر الزرقي.(5)

و بهدف السيطرة على القبائل، و ضمان أمن الرؤساء الأهليين المتعاونين معها و مساعدتهم على فرض النظام على مستوى قياداتهم، عمدت السلطات الاستعمارية الفرنسية في بعض الجهات من مقاطعة قسنطينة إلى إنشاء تجمعات سكانية أو قرى تعرف بـ "الزمالات"، و تضم هذه الزمالات العديد من الفرسان توكل لها مهمة حماية رؤساء الأهالي و مساعدتهم في المحافظة على أمن الطرقات و الأسواق و جباية الضرائب.(6)

(1) Roger Germain : op.cit, p 235.

(2) A.M.G : Série H 229 : Mémoires divers 1844-1859, Commandements et Chefs indigènes de la province de Constantine, Année 1850 : 1ere subdivision, Constantine, Cercle de Guelma.

(3) A.O.M : 20KK33 : Rapport du 10 Aout 1852.

(4) جمال ورتي: تطور نظام الإدارة الفرنسي في عمالة قسنطينة خلال النصف الثاني من القرن 19 – سوق أهراس نموذجا 1843–1900– رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراء العلوم في التاريخ الحديث و المعاصر (غير منشورة)، الجزء الأول، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2009–2010، ص ص 96–99.

(5) A.O.M : F80. 506 : Cercle de Souk-Ahras. Résumé historique de L'Année 1856.

(6) Xavier Yacono : les bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigène dans l'Ouest du Tell Algérois, Paris, France, 1953, pp 120, 121.

و في هذا الإطار أنشأ الفرنسيون زمالة عائلة الرزقي و أسندوا قيادتها إلى القايد أحمد صالح الرزقي نجل الشيخ الرزقي بن منصور كبير هذه العائلة، وتقع على بعد 9 كلم من دائرة سوق أهراس و 116كلم عن مقر الإقليم بعنابة "la subdivision de Bône"، و تتشكل من 43 فرقة، و كل فرقة مقسمة إلى عدة دواوير، و تحد هذه الزمالة من جهة الشمال قبائل أولاد علي بن ناصر، و أولاد دبشياس و كيسانة، و قبائل مغانة و العوايد، و أولاد الشيخ، و محاية غربا. و يحدها من جهة الجنوب قبائل أولاد سيدي عيسى، و دائرة قسنطينة، و قبائل بني بربار، و أما من الجهة الشرقية فتحدها قبائل الدبابسة، و زمالة الصبايحية و الدواير و إقليم سوق أهراس. و يخترق زمالة القايد أحمد صالح الرزقي وادي مجردة الذي يلعب دورا محوريا في ري مختلف الأراضي الزراعية، و تتفرع عنه ستة أودية فرعية من الجهة اليمنى، و خمسة أودية من الجهة اليسرى. و تقدر مساحة هذه الزمالة بـ 33975 هكتار منها 5775 هكتار مساحة غابية، و تنمو بها أشجار الصنوبر، و الزيتون و الفستق، و اللوز، و الفلين و نحوها.(1)

و بهذا نلاحظ أن هذه الزمالات لا تختلف كثيرا عن القيادات المنبثقة عن مرسوم الماريشال "فالي"، و حتى و إن اختلفت عنها في بعض الجوانب فإنها تتفق معها من حيث الهدف من إنشائها و هو خدمة مقاصد الإدارة الاستعمارية.

و في ختام حديثنا عن قيادات هذه العائلات سواء المشمولة بمرسوم الماريشال "فالي" أو تلك التي لم يشملها هذا المرسوم، نقول أنه رغم المجهودات التي بذلها هؤلاء الرؤساء الأهليون بمختلف تسمياتهم و مناصبهم في سبيل خدمة المشروع الكولونيالي إلا أنهم لم يتمكنوا من بسط سلطتهم على مختلف القبائل التابعة لهم، فكانوا يواجهون صعوبات جمة في جباية الضرائب، بل أكثر من ذلك كانوا يخشون على أرواحهم و لم يطب لهم المقام في ربوع قياداتهم. و هذا الوضع ينطبق بالأساس على الخليفة أحمد المقراني زعيم عائلة المقراني، الذي عينه الفرنسيون خليفة على مجانة، و الذي لم يتمكن من فرض السلطة الاستعمارية، و لم يتمكن من لجم تهديدات خليفة الأمير عبد القادر بمنطقة المسيلة التي كانت تشكل امتدادا جغرافيا لقيادته، كما أن شيخ العرب بوعزيز بن قانة زعيم عائلة ابن قانة فضل الانتقال إلى مدينة قسنطينة عام 1841م خوفا على روحه لأن عاصمة قيادته كانت مهددة من قبل خلفاء الأمير عبد القادر.(2)

---

(1) A.O.M :10H16. Histoire Geographique et statistique de chaque tribu. Zmala du Caid Ahmed Salah ben Rezgui.

(2) Roger Germain: op.cit, p 7.

يضاف إلى هذا أن القبائل التابعة لقيادته لم تكن كلها خاضعة له، بل كانت كلمته مسموعة فقط لدى القبائل الرحل بحكم انتمائه إليها.[1] و هكذا نلاحظ أن الإدارة الاستعمارية الممثلة في شخص حاكمها العام الماريشال "فالي" قد تمكنت من ضم هذه العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة إلى صفها بواسطة هذا المرسوم الشهير سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. و الثابت أن الماريشال فالي باختياره لهذا الأسلوب يكون قد جنح إلى تلافي سياسة المجابهة و الترهيب تجاه هذه العائلات الفاعلة بالشرق الجزائري لعله ينعم بالسلام و الأمن في هذه المنطقة ذات التضاريس المعقدة و الوعرة، و التي اشتهرت بمقاومتها الباسلة للغزاة عبر مختلف الحقب التاريخية، و لعله ينجح أيضا في إعلان حرب بالوكالة ضد أعدائه المناهضين للوجود الاستعماري بالارتكاز على خدمات هذه العائلات، و غني عن البيان أن أعداءه في ذلك الحين هما الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي.

[1] صالح فركوس: المرجع السابق، ص 301.

II- موقف العائلات الكبرى من مقاومة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي

يعتبر الأمير عبد القادر* من أبرز وجوه المقاومة الوطنية المسلحة ضد المحتل الفرنسي، وأحد أطواد استمرارية الدولة الجزائرية، حيث قاد مقاومة منظمة ومسلحة امتدت على مدى خمسة عشر سنة كاملة (1832م -1847م)، غير أنه اضطر في نهاية المطاف إلى الإستسلام ووضع السلاح. أما الحاج أحمد باي فقد قاوم هو الآخر المستعمر لمدة ثمانية عشر سنة

* من أهم الدراسات التي تناولت حياة الأمير عبد القادر ومقاومته:

- يحيى بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الطبعة 3، تونس، 1983.

- بوعلام بسايح: الأمير عبد القادر مغلوبا لكن مظفرا: من لويس فيليب إلى نابليون الثالث، ترجمة خليل أحمد خليل، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.

- عز الدين إسماعيل وآخرون: الأمير عبد القادر الجزائري، دار العودة، بيروت، لبنان، 1975.

- الأمير عبد القادر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي، بيروت، لبنان، 1966.

- الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، الطبعة الثانية، دمشق، سوريا، 1966، 3 أجزاء.

- الأمير عبد القادر: نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر، القاهرة، مصر، د.ت.

- الأمير عبد القادر الجزائري: المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، دار الطاسيلي للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989.

- قدور بن محمد بن رويلة: وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، دمشق، سوريا، 1910.

- وزارة الثقافة الجزائرية: مجلة الثقافة، العدد 75، خاص بالأمير عبد القادر، 1983.

- Marie d'Aire : Abdelkader, quelques documents nouveaux lus et approuvés par l'officier en mission auprès de l'Emir, Amiens, France, 1900.
- Abdelkader, sa jeunesse, rôle politique et religieux, rôle militaire, sa captivité, sa mort, nouvelle édition par J. Pichon, Paris, France, 1905.
- Adrien Berbrugger : Echange des prisonniers. Négociations entre Mgr. L'Evêque d'Alger et Abdelkader , Paris, France 1844.
- Adrien Berbrugger : Relation de l'expédition de mascara ». Paris, France, 1836.
-Abdelkader Boutaleb : L'emir Abdelkader et la formation de la nation Algérienne , Editions Dahlab, Alger, Algérie, 1990.
- Bruno Etienne : Abdelkader, éditions Hachette, Paris. France, 1994.
- Alfred Rambeau : L'Emir Abdelkader, Paris, France, 1902.
- Dumas Alexandre : Impression de voyage, Paris, France, 1868.
- Paul Azan : L'Emir Abdelkader, Paris, France, 1925.
- Louis Ballesteros : L'Emir Abdelkader en Algérie, Paris, France, 1865.
- George Bell (pseud. Hounan Joachim): Abdelkader Paris, France, 1861.
- Alexis Dales : Notice biographique sur l'Emir Abdelkader sauveur de 13000 chrétiens en Syrie, sa prochaine arrivée à Paris, Paris, France, 1865.
- Eugene Daumas : Voyage de L'Emir Abdelkader dans l'Est de l'Algérie en 1839, Paris, France, 1844.
- Mgr Antoine Adolphe : Abdelkader, sa vie intime, sa lutte avec la France, son avenir, Paris, France, 1860.
- Joseph Legras : Abdelkader, Paris, France, 1929.
- Léon Plee: Abdelkader, nos soldats nos généraux et la guerre d'Afrique, Paris, France, 1854.
- Haroun Pichon : Abdelkader militaire, sa captivité, sa mort (1807-1883), Paris, France, 1899.

(1830م–1848م). و يقسم المؤرخون مدة مقاومته إلى مرحلتين: الأولى تبدأ عام 1830م تاريخ الحملة الفرنسية على الجزائر و تنتهي عام 1837م تاريخ سقوط مدينة قسنطينة في أيدي جيش الاحتلال، أما الثانية فتبدأ من هذا التاريخ الأخير و تنتهي عام 1848م تاريخ استسلامه. و ليس المجال هنا هو البحث في مقاومة الزعمين، إنما هدفنا هو معرفة خلفيات مواقف هذه العائلات من مقاومتهما، و كذلك للوقوف على مدى تأثير مرسوم الماريشال "فالي" على مواقفهم و علاقاتهم برائدي المقاومة الوطنية المذكورين.

1- موقف العائلات الكبرى من مقاومة الأمير عبد القادر

سعى الأمير عبد القادر إلى أن يوسع أفق دولته ويمد حدودها إلى أقصى الشرق الجزائري حيث أنشأ بهذه المنطقة ثلاث مقاطعات وهي: برج حمزة (البويرة)، بسكرة ومجانة.[1] و كان شديد الحرص على التواصل مع خلفائه بهذه المنطقة وسائر المتعاونين معه، ومنهم علي ابن سالم الورقلي الذي وجه له رسالة عام 1847م أحاطه علما فيها بأنه يتتبع أخباره بواسطة خليفته محمد الصغير بن عبد الرحمان، وطلب منه أن يبذل قصارى جهده من أجل تزويده بكل أخبار المنطقة أولا بأول، ويبين له صحيحها من باطلها ودون تمهل وتقصير.[2]

وإذا كان الأمير عبد القادر حريصا على تتبع أخبار مقاطعة قسنطينة التي تعتبر بعيدة نسبيا على عاصمة دولته كما يفهم من هذه الرسالة. فما هو موقف العائلات الكبرى التي ندرسها بهذه المقاطعة من مقاومته؟ هل تخندقت في صفه وحاربت المستعمر وأعوانه بهذه المقاطعة؟ أم أنها مالت للمستعمر و استجابت لإعلان الماريشال "فالي" في مطلع عام 1838م و مرسومه في 1838/09/30م وضايقت نفوذ الأمير بهذه المقاطعة؟.

سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات، وذلك بإبراز موقفين رئيسيين لهذه العائلات: الموقف الأول و هو الموقف الذي انتصر للأمير، بينما الموقف الثاني ناصبه العداء وتعاون مع المستعمر في محاربة خلفائه بالمقاطعة.

---

(1) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر– الفترة الحديثة والمعاصرة – الجزء الثاني،م.و.ك، الجزائر، 1988م، ص 266.

(2) الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 929، رسالة الأمير عبد القادر إلى علي بن سالم الورقلي، في 6 ربيع الثاني 1263هـ (الموافق لـ 1847/03/23م)، وثيقة رقم 40.

أ- الموقف المتعاون مع مقاومة الأمير عبد القادر

تعاونت كل من عائلة المقراني، و عائلة أولاد عز الدين، و عائلة ابن جلاب، و عائلة بوعكاز الذواودة مع الأمير عبد القادر، و سنحاول تفصيل ذلك في ما يلي:

- **عائلة المقراني**

ذكر "مرسيي" أن الأمير عبد القادر عندما شرع في البحث عن خلفاء له وممثلين في مختلف المقاطعات التابعة لدولته، كان قد انتقل إلى منطقة الونوغة بسور الغزلان خلال شهر ديسمبر عام 1837م، فسارع إليه أحمد بن محمد المقراني وأهداه حصانين والتمس منه أن يمنحه منصب خليفة مجانة، وهو نفس الالتماس الذي تقدم به إبن عمه محمد بن عبد السلام المقراني غير أن الأمير عبد القادر مال إلى هذا الأخير لأنه رأى فيه علامات الذكاء والنبوغ والتفوق. [1]

ويبدو أن المبرر الذي ساقه هذا الضابط الفرنسي حول ميل الأمير عبد القادر إلى الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني ونفوره من أحمد بن محمد المقراني يجوز فيه النظر، لأن السبب الحقيقي يكمن في أن أحمد بن محمد المقراني كان حليفا للحاج أحمد باي وهو خصم الأمير عبد القادر، حيث قربه الحاج أحمد باي منه، وفي مقابل ذلك قام بإبعاد صهره محمد بن عبد السلام المقراني، وهذا بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمة عام 1830م.[2]

الراجح أن الفرنسيين كانوا يتتبعون أخبار الإجراءات الإدارية والتعيينات وسائر التصرفات التي كان يباشرها الأمير عبد القادر مع خلفائه ومنهم محمد بن عبد السلام. وهذا ما نفهمه من الرسالة التي بعث بها القنصل الفرنسي المعتمد لدى دولة الأمير النقيب "دوماس" إلى الجنرال "أوفراي" "Auvray" القائد الأعلى للقوات العسكرية الفرنسية بمقاطعة وهران، حيث كتب له: «...في يوم الخميس الفارط، بلغتنا أخبارا مؤداها أن الأمير عبد القادر قام بتعيين محمد بن عبد السلام المقراني كممثل له على منطقة البيبان. وأن هدفه من وراء هذا الإجراء واضح و لا يخرج عن أحد الاحتمالين: فإما أنه كان يروم تأمين سلطته بالمنطقة، أو أنه كان يرغب في إرهاب القبائل التي ما زالت مترددة في مسألة الاعتراف بسلطته من عدمها...» .[3]

(1) Ernest Mercier : Le Bachaga Mokrani et les causes de l’insurrection indigène de 1871, op.cit, p 13.

(2) يحيى بوعزيز: «وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871»، الثقافة ، مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، العدد 39، السنة 1977، ص 12.

(3) George Yver : Les Correspondances du capitaine Daumas consul de France à Mascara 1837-1839, op.cit : Lettre adressée à Auvray, le 07 janvier 1838 , pp 77-78 .

وادعى "بربروجر" "Berbrugger"– الذي زار الأمير عبد القادر في معسكره في 1838/08/15م وأهداه هدية ثمينة تتمثل في مخطوط عربي عثر عليه في مدينة قسنطينة يحمل عنوان "دليل الحيران" أن الخليفة محمد بن عبد السلام المقراني دخل في طاعة الأمير تحت الضغط والترهيب وأنه زاره أثناء إقامته لدى الأمير وتبادل معه أطراف الحديث، وحدثه بحسرة عن أيام زهو عائلته، وعصرها الذهبي الذي عاشته خلال الحقبة العثمانية، حينما كان زعماؤها يجبرون الحكام العثمانيون على دفع ضريبة المرور عندما كانوا يجتازون مضيق أبواب الحديد، و قد تحسر كثيرا حينما انقلبت الأوضاع و أصبحت عائلته هي الملزمة بدفع هذه الضريبة للأمير عبد القادر.[1] وهو إدعاء باطل لأن محمد بن عبد السلام المقراني كان قد اختار معسكر الأمير عن طواعية بعدما انفض من حول الفرنسيين، وهذا ما نفهمه من فحوى الرسالة التي أرسلها الماريشال فالي إلى وزير الحربية حينما اعتبر ميل محمد بن عبد السلام المقراني وتعاونه مع الأمير بمثابة خيانة للفرنسيين، حيث ورد فيها: «...إن خيانة الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني قائد مجانة أصبحت حقيقة لا غبار عليها، إن هذا الشيخ الذي حدثتكم عن استسلامه للأمير سابقا، يواصل الآن تأليب قبائل البيبان ضدنا...» .[2] أما كان حريا بالماريشال "فالي" أن يكون صريحا مع وزيره و يقول له أن هذا الشيخ عاد إلى جادة صوابه وانتصر لقضيته الحقيقية التي يتبناها الأمير عبد القادر؟.

مهما يكن من أمر، فإن الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني كان يحكم مناطق واسعة باسم الأمير عبد القادر تضم الحضنة، وونوغة، والقرقور. [3] ولم يتوان الأمير عبد القادر على تدعيمه بالمنطقة، حيث أشار النقيب "دوماس" إلى ذلك في إحدى مراسلاته التي وجهها إلى أحد الضباط الفرنسيين حيث جاء فيها: ((...لقد بلغتنا أخبارا مفادها أن الأمير عبد القادر قام بإرسال قوة عسكرية إلى خليفته محمد بن عبد السلام المقراني تتشكل من ثلاثمائة فارس نظامي تحت إشراف وقيادة الآغا الحاج بوليفة...) [4]

---

[1] Louis – Andrien Berbrugger : « Voyage au camp d'Abdel - Kader», in Revue des deux mondes, op.cit, p p 75,76.

[2] George Yver : correspondance du Maréchal Valée (octobre 1837- Mai 1838), Tome I, op.cit : lettre Adressée au ministre de la guerre le 16 Mars 1838, p 297.

[3] يحيى بوعزيز : "مظاهر المقاومة وروادها في الشرق الجزائري"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة،الجزائر، العدد 55، السنة 1980، ص13.

[4] Georges Yver : Les correspondances du capitaine Daumas consul de France à Mascara 1837-1839, op.cit : Lettre adressée à Guéhenneuc le 05 Aout 1839, p 474.

وفي مقابل ذلك عمل الخليفة محمد بن عبد السلام المقراني على تدعيم قوة الأمير بالمنطقة وأرغم قبائلها على الانضواء تحت راية الأمير. وأشار الماريشال "فالي" في إحدى مراسلاته إلى هذه المسألة حيث ذكر: (...أن الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني يواصل حربه ضد قواتنا، وأنه أجبر العديد من القبائل على الإذعان لسلطة الأمير ، وسلب العديد من الغنائم، و أرسلها إلى الأمير عبد القادر...). [1]

كان تعيين محمد بن عبد السلام المقراني خليفة للأمير على مجانة قد أدى إلى توسيع نفوذه في مقاطعة الشرق الجزائري التي كان الحاج أحمد باي قسنطينة يعتبرها تابعة له. وهو الأمر الذي وسع من الصراع الخفي الذي كان قائما بين الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر. [2] وهو الصراع الذي وظفته الإدارة الاستعمارية في خدمة أهدافها الاستعمارية، و ذلك ما نلمسه في المراسلة التي بعثها الماريشال فالي إلى "نيڤريي" حيث كتب له قائلا: (...لو اندلعت الحرب بين الزعيمين فإننا سنقطف ثمارها، وسنجني منها فوائد جمة، ورغم ذلك فليس من مصلحتنا المجازفة بالتدخل فيها بصورة مباشرة...). [3]

اشتد الصراع إذن بين الزعمين و تسممت العلاقة بينهما، و قد امتد هذا الصراع الثنائي إلى خلفائهما في المنطقة، حيث أن تعيين محمد عبد السلام المقراني من قبل الأمير كان قد أثار سخط إبن عمه أحمد بن محمد المقراني الذي اعترض على هذا القرار و شرع يتقرب أكثر من الفرنسيين، كما أن دخول محمد بن عبد السلام المقراني في خدمة الأمير تسبب في إحداث فجوة سحيقة بينهما، فعمل محمد بن عبد السلام على منع اقتراب إبن عمه من منطقة حكمه. [4]

و الواقع أن الفرنسيين عملوا بمختلف السبل والوسائل من أجل التملص من بنود معاهدة التافنة التي عقدوها مع الأمير عام 1837م، فراحوا يبحثون عن حجج جديدة لإعلان الحرب ضده. و هكذا ادعوا أن هذه المعاهدة تسوغ لهم بسط سيادتهم على مقاطعة قسنطينة.[5]

---

(1) Georges Yver : correspondance du Maréchal Valée (octobre 1837-Mai1838), Tome I, op.cit : Lettre adressée au ministre de la guerre le 23 Février 1838, p 269.

(2) يحيى بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، الجزء الأول، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 431.

(3) Georges Yver : op.cit : Lettre adressée au Négrier le 29 Avril 1838, p 347.

(4) Ernest Mercier : op.cit, p 13.

(5) إسماعيل العربي: "معاهدة التافنة أو انتصار الدبلوماسية الجزائرية"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ش.و.ن.ت، الجزائر، عدد 11، عام 1974، ص 41.

و ليس من حق الأمير أن يمد سلطانه إليها ما دام قد تنازل عنها للفرنسيين. ومن هذا المنطلق، فعندما عين الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني خليفة له على مجانة، يكون قد اغتصب بنودها التي تمنعه من بسط نفوذه في منطقة مجانة و البيبان، و على هذا الأساس أرسل الماريشال "فالي" برقية إلى الأمير جاء فيها: (...لقد قلتم لنا سابقا أنكم تعرفون جيدا الحدود التي رسمتها معاهدة التافنة، وكنتم قد أكدتم أن حدود السيادة الفرنسية تنتهي عند وادي خضراء. إننا نؤكد لكم بأن فهمكم للحدود التي رسمتها هذه المعاهدة ينطوي على كثير من القصور، وإنني أدعوكم إلى قراءة المادة الثانية من هذه المعاهدة بكثير من العمق و الدقة، لأنها تضع هذه الحدود عند وادي خضراء وما وراءه...).[1] و بهذا فإن الفرنسيين حاولوا مغالطة الأمير عبد القادر، وإتهامه بانتهاك حرمة هذه المعاهدة ولا سيما المادتين الثانية والثالثة منها. *

والأصل أن الإدارة الاستعمارية كانت تدرك جيدا قوة ووزن الخلفية محمد بن عبد السلام المقراني، كما كانت تدرك أيضا أهمية التحالف معه، وعليه رأت أنه من مصلحتها ضمه إلى الصف الفرنسي، وفي الوقت نفسه محاولة اعتماد أسلوب الترغيب معه بدلا من أسلوب الترهيب، والأهم من ذلك كله أنها إذا تمكنت من استدراجه ثانية إلى صفها تكون قد ضايقت الأمير عبد القادر بمقاطعة قسنطينة، وهذا ما يمكن استنتاجه من الخطاب المطول الذي أرسله وزير الحربية الفرنسي إلى الماريشال "فالي"، والذي تكلم فيه على ضرورة التفكير الجدي في نسج علاقات وطيدة مع هذا الخليفة. وحاول هذا الوزير من خلال هذا الخطاب الظهور بمظهر العارف والخبير بمسائل التوازنات الإستراتيجية بالمنطقة، و التي تتحكم إلى حد بعيد في مستقبل الوجود الفرنسي بها، حيث حدثه قائلا: «...إذا كانت فرنسا ترغب فعلا في بسط هيمنتها على مقاطعة قسنطينة، فما عليها إلا

(1) Georges Yver : op.cit : Lettre adressée a Abdelkader le 10 Janvier 1838, p180.

* أثارت معاهدة التافنة كثيرا من اللغط القانوني والسياسي، وثار الجدل حول تفسير المادة الثانية منها بين الإدارة الفرنسية والأمير، ففي الوقت الذي كان فيه الأمير متمسكا بالنص العربي الذي يضع الحدود الفرنسية في مقاطعة قسنطينة قبل وادي خضراء، فإن النص الفرنسي لا ينسجم معه ويضع هذه الحدود عند هذا الوادي وما بعده، حيث يستعمل عبارة " jusqu'à L'oued Khadra et au delà".و كان الفرنسيون قد قاموا بتحريف النص الفرنسي وأضافوا هذه العبارة بحثا عن مبررات اغتصابها.

حول هذه المسألة ينظر:

- Collette et Francis Jeanson : l'Algérie hors la loi, Éditions ANEP, Algérie, 2006, pp 40,41.
- Charles-Robert Ageron : Genèse de l'Algérie Algérienne, Édition Bouchene, Paris, France, 2005, pp 27-31.

السيطرة على الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر، وإذا كانت ترغب فعلا في السيطرة على هذا الطريق فلا مناص من التحالف مع محمد بن عبد السلام المقراني. ويبدو أن هذا الخيار لم يحن وقته حاليا... »[1]

يبدو أن الفرنسيين كانوا متخوفين أيما تخوف من تعاظم وزن خليفة الأمير محمد بن عبد السلام المقراني في منطقة مجانة، لذا سارعوا إلى تتبع مختلف نشاطاته والاستعانة بمخبرين يرصدون كل حركاته، ويحررون تقارير ثم يرسلونها إلى السلطات العسكرية الفرنسية. و أشار الماريشال "فالي" إلى ذلك في إحدى مراسلاته قائلا أنه «... قام بتنصيب شيخ قبيلة بني يسر المتاخمة لمنطقة مجانة بهدف رصد ومراقبة نشاطات الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني. وقد تعهد هذا الشيخ بإبلاغ الجنرال "نغريي" بأدق المعلومات ذات الصلة بخليفة الأمير بهذه المنطقة...»[2]

و الحقيقة أن خليفة الأمير عبد القادر كان يتصدى بعنف لكل حركة تمرد استهدفت زعزعة سلطة الأمير بالمنطقة، حيث تمكن من القضاء على مقاومة الشيخ مسعود زعيم قبيلة ريغة القبالة الذي حاول تصفية نفوذ الأمير بالمنطقة، والتحم معه في عدة معارك سنة 1839م، وحقق فيها انتصارات عظيمة عليه. ورغم ذلك فإنه لم يرق إلى مستوى تطلعات الأمير الذي قام بعزله واتهمه بالتقصير في أداء المهام لأنه فقد خمسة وعشرين فارسا من فرسانه و خمسة وسبعين حصانا في هذه المعارك التي خاضها ضد زعيم هذه القبيلة المناوئة لمقاومته بالمنطقة.[3] و كان رد فعل الأمير في مثل هذه الحالة نابعا من قناعته أن خليفته يجب أن يكون شديد الحرص على جنده، و يكون أيضا في مقدمة الجيش أثناء المعارك التي يخوضها،[4] و عليه فقد استغنى عن خدماته واستخلفه بكاتبه أحمد بن عمر أصيل منطقة أولاد سيدي عيسى بالمدية، وكلف صهره الحاج مصطفى بمرافقة الخليفة أحمد بن عمر إلى مقر قيادته الجديد بمجانة، وقد زوده بقوة عسكرية تقدر بزهاء ثلاثمائة وخمسون حصانا.[5]

(1) Georges Yver : Op. Cit : Lettre adressée a Valée le 17 Janvier 1838, P 197.
(2) Ibid : Lettre adressée au Ministre de la Guerre le 27 Janvier 1838, P 210.
(3) L. Ch. Féraud : «Histoire des villes de la province de Constantine : Bordj – bou – Arréridj» op.cit, pp 313-314.
(4) إسماعيل العربي:" حكومة الأمير عبد القادر، إدارتها ومهامها"، مجلة الثقافة، تصدر عن وزارة الثقافة، الجزائر، عدد 75، سنة 1983، ص 224.
(5) L.Ch. Féraud : Op. cit, P 314.

و الواقع أن هناك من نازع هذه الرواية و تكلم عن سبب آخر دفع بالأمير إلى تنحية خليفته، فقد ذكر المترجم الفرنسي "أندريان ديلبيش" "Andrien Delpeche" نقلا عما سجله الحسين بن علي ابن عم الأمير عبد القادر رواية أخرى مضمونها أن هذا الأخير الذي كان يشغل منصب نذير بيت المال (أي مفتش الضرائب) في دولة الأمير هو الذي حدث الأمير حول هذه المسألة، ونصحه بعزله لأن وجوده بالمنطقة من شأنه أن يؤدي إلى سخط السكان ويخدش علاقته بهم، فخاطبه قائلا: "يا مولاي إن كنت ترغب في كسب طاعة أهالي المنطقة، فما عليك إلا الاستغناء عن خدمات عائلة المقراني"، فأخذ الأمير بنصيحة ابن عمه واتخذ قرارا بعزل محمد بن عبد السلام المقراني.[1]

و يضيف المترجم الفرنسي أن السبب الذي دفع بالأمير عبد القادر إلى اتخاذ هذا القرار يكمن في أن خليفته خان الأمانة التي ائتمنه عليها الأمير، حيث قام بإنقاص قيمة الأموال التي جمعها من الضرائب التي حصلها واحتفظ بجزء بينما قام بإرسال الجزء المتبقي إلى بيت المال. وعلى هذا الأساس غضب الأمير من هذا السلوك المشين، فاتخذ قرارا بعزله وتعويضه بكاتبه السالف الذكر.[2]

و بصرف النظر عن أسباب هذا العزل، فالثابت أن الأمير كان قد استغنى عن خدمات محمد بن عبد السلام المقراني بعد أن دخل في خدمته لفترة ناهزت السنتين.

غير أن خليفة الأمير الجديد لم يتمكن من ممارسة مهامه على أحسن وجه، كما أنه لم يتمكن من تحقيق طموح الأمير. وقد لاحظ هذا الأخير أن أحمد بن عمر تنتفي فيه شروط الاستقامة والكفاءة ، وعليه لجأ إلى خليفته الأول محمد بن عبد السلام المقراني واستدعاه ثانية وقام بتنصيبه خليفة له على مجانة.[3]

و في أواخر شهر أكتوبر من عام 1839 م اجتازت القوات الفرنسية منطقة البيبان أو "أبواب الحديد" " Les portes de fer"كما يحلو للفرنسيين تسميتها.[4] مما أدى إلى استئناف الحرب بين الأمير عبد القادر والفرنسيين الذين نقضوا ميثاقهم، واندلعت هذه الحرب في 1839/11/20م. [5]

---

(1) Andrien Delpeche : « Histoire d’El – Hadj Abdelkader par son cousin El – Hossine Ben Ali Ben Ali Taleb », in R.A n° 20, Année 1876, P 434.

(2) Idem.

(3) يحي بوعزيز: كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المرجع السابق، ص 18.

(4) Charles- Robert Ageron : Op.Cit, P 17.

(5) Moulay Belhamissi : Histoire de Mostaganem des origines à l’occupation Française, Centre National d’études historiques, Alger, Algérie, 1976, P 150.

و خلال ذلك فكر الفرنسيون في مواجهة الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني في منطقة زمورة، غير أنهم تخلوا عن هذه الفكرة في آخر لحظة، واضطروا إلى مراجعة الخطة التي ضبطوها في البداية، وغيروا وجهتهم مباشرة إلى هذا المضيق.[1]

و قد ثار الجدل بين المؤرخين حول موقف خليفة الأمير من الفرنسيين الذين عبروا هذا المضيق. فمنهم من قال أن قوات هذا الخليفة تصدت للفرنسيين والتحمت معهم في معارك ضارية، ومنهم من ذهب عكس ذلك وقال أن قافلة الفرنسيين مرت بسلام ولم تواجه أية صعوبة تذكر. وتبنى الرأي الأخير محمد الصالح العنتري الذي كان معاصرا لتلك الوقائع رغم اعترافه بصعوبة ذلك المسلك حيث قال:« ... والحال أن تلك الطريق صعبة فسلكها من غير فتن ولا هرج وذلك من سياسة المارشيال فالي وتدبيره وحزمه في أموره...» .[2]

و يؤيده في ذلك "شارل هنري شرشل "Ch. H. Churchill" الذي ذكر أن الفرنسيين أثناء مرورهم بهذا المضيق اعترضتهم قبائل المنطقة، فاستظهروا لهم رخصة مرور عليها ختم الأمير، فأخلوا سبيلهم وسمحوا لهم بالمرور، غير أنه تبين فيما بعد أن هذه الرخصة كانت مزورة.[3] و يضيف العقيد إسكوت أن " الدوق دورليان" " Le Duc d'Orleans" الذي رافق الماريشال " فالي" في هذه الرحلة هو الذي اهتدى إلى هذه الفكرة حيث طلب من "بوردن " أحد يهود مدينة وهران أن يقلد له ختم الأمير عبد القادر و يختم وثيقة السفر، ويقدمها إلى الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني عند اعتراضه له.[4] و إذا صحت هذه الرواية فإن خليفة الأمير عبد القادر لم يواجه الفرنسيين أثناء مرورهم بهذا المضيق الخطير الذي كان يرهبهم كما كان يرهب العثمانيين من قبلهم.

غير أن هناك من يرى أن مرور الفرنسيين بهذا المضيق كانت قد رافقته أحداث دامية، وهذا الرأي تبناه الضابط الفرنسي "فيرو" الذي ذكر أن الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني التحم مع القوات الفرنسية في معركة ضارية أثناء اجتيازهم لهذا المضيق، غير أن قوة شكيمة الجيش الفرنسي جعلته يتراجع ويفشل في مواجهتهم، والأكثر من ذلك فقد كلفته هذه المواجهة فقدان زهاء ثلاثين فارسا من رجاله، وعدد غير قليل من رؤوس أغنامه.[5] و سواء التحم

---

(1) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 16.

(2) محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص 152.

(3) Charles Henry Churchill : La vie d'Abdelkader, introduction et notes de Michel Harbart, ENAL, Alger, Algérie, 1991, PP199-200.

(4) الكولونيل إسكوت. مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر عام 1841، ترجمة و تعليق إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص115.

(5) L. Ch. Féraud :«Histoire des villes de la province de Constantine : Sétif. Op.cit, p97.

هذا الزعيم المقراني مع القوات الفرنسية أم لم يلتحم، فالشيء الأكيد أنه كان يبسط سلطته على هذا المضيق باسم الأمير عبد القادر.

و في عام 1840م جهز الضابط الفرنسي" لافونتين" "La Fontaine" حملة عسكرية ضخمة وتوجه بها إلى محمد بن عبد السلام المقراني، وتمكن من إلحاق الهزيمة به. وهو الأمر الذي رفضه الأمير عبد القادر فقام بعزله مرة أخرى وأعاد أحمد بن عمر الذي أسلفنا الحديث عنه. ورغم ذلك واصل محمد بن عبد السلام المقراني مضايقته للفرنسيين باسمه الخاص، حيث أغار على مراكزهم الواقعة بمدينة برج بوعريريج متخذا من جبال بني عباس مقرا له.[1] فما مصير هذا الزعيم المقراني في ظل تخلي الأمير عن خدماته؟ هل بقى ثابتا على موقفه المناهض للمستعمر؟ أم حدثت تطورات أخرى في موقفه ؟ وكيف كانت نهايته؟

ذكر" فيرو" أن الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني بقي ثابتا على موقفه المعادي للمستعمر خلال السنوات التي تلت عزله من قبل الأمير، وبقي يؤازر كل ثورة تندلع في وجه المستعمر، وفي هذا المنظور حاول الانضمام إلى الثورة التي أعلنها بعض زعماء المنطقة عام 1846م في وجه المحتل مثل مولاي الطيب في عموشة وسي موسى ومولاي محمد في الساحل، وسي ساعد التباني في بوطالب غير أنهم رفضوا خدماته وفضلوا عدم التعاون معه.[2] وبرر "فيرو"هذا الموقف بأن " كبريائهم وعزتهم منعتهم من التعاون والتواصل معه إذ كان كل واحد منهم يطوق إلى التفوق والسيادة " [3]

وهو تبرير ينطوي على كثير من القصور لأنه من غير المتصور أن يرفض هؤلاء الثائرين تنسيق العمل مع هذا الزعيم المقراني لأن السياق العام للأحداث يفترض التعاون بينهم لاسيما وأن لديهم عدو مشترك هو المحتل الفرنسي. و بقي الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني ثائرا على ذلك الحال إلى أن وهنت قواه، فاتجه إلى مرابط شلاطة سي بن علي الشريف الذي رتب له إجراءات الاستسلام، فدخل في خدمة المستعمر الفرنسي إلى أن قضى نحبه عام 1847م. [4]

---

(1) L. Ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine:Bordj-bou-Arreridj. » op.cit , p315.

(2) Idem.

(3) Idem.

(4) Ibid : p 316.

و خلاصة القول أن فرع أولاد عبد السلام لعائلة المقراني مال إلى الأمير عبد القادر، ويمكن إدراج هذا الميل في سياق الانتقام من الحاج أحمد باي الذي انتهج سياسة عدائية ضده رغم علاقة المصاهرة التي كانت تربطه به ، أما فرعي أولاد الحاج وأولاد القندوز، فقد انتصبا في المعسكر المعادي لقضية الأمير عبد القادر.

– عائلة أولاد عز الدين

تعرض المؤرخون بالدراسة إلى مواقف العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة من مقاومة الأمير عبد القادر، و تكلموا عن هذه العلاقة في معرض حديثهم عن مقاومة الأمير عبد القادر، إلا أنهم حسب اطلاعنا أهملوا الكلام عن موقف عائلة أولاد عز الدين من هذه المقاومة، حيث أننا لم نعثر على شيء يشير إلى ذلك. ورغم سكوت المصادر التاريخية عن هذا الموقف إلا أن ذلك لم يمنعنا من محاولة التعرف على موقف هذه العائلة من مقاومة الأمير عبد القادر وذلك بالاستنتاج والترجيح بناء على السياق العام الذي جرت فيه الأحداث.

الراجح أن عائلة أولاد عز الدين وقفت موقف المؤيد لمقاومة الأمير عبد القادر، وذلك لعدة اعتبارات أبرزها:

- لقد كانت هذه العائلة، عائلة ثائرة ورافضة للوجود الاستعماري خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي، وهو الموقف الذي تزامن مع مقاومة الأمير التي توسعت إلى الشرق الجزائري. وعلى هذا الأساس شنت ضدها الإدارة الاستعمارية العديد من الحملات العسكرية الضخمة أبرزها الحملة الكبرى التي توجهت من مدينة قسنطينة تجاه منطقة الزواغة وذلك في أواخر شهر جويلية عام 1848م، والتي أدت إلى تحطيم ممتلكاتها. [1] وقد استمر تمرد هذه العائلة على السلطة الاستعمارية إلى غاية شهر أكتوبر عام 1849م.[2] و عليه من الجائز القول أن هذه العائلة تعاونت مع الأمير عبد القادر التي جمعها به عدو مشترك وهو المستعمر الفرنسي.
- لقد تعاونت عائلة أولاد عز الدين مع أعوان الأمير عبد القادر في أقصى الشرق الجزائري، ومنهم الثائر سي زغدود حينما هاجم المراكز الفرنسية المتواجدة بمنطقة الحروش بالقرب من مدينة سكيكدة عامي 1842م و 1843م، [3] و كان الأمير عبد القادر على اتصال مع هذا الثائر،[4]

[1] عميراوي احميدة: جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري(بداية الاحتلال)، المرجع السابق، ص51.

[2] Charles-Robert Ageron : L'Algérie algérienne de Napoléon III à De Gaulle, Éditions Sindbad, Paris, France, 1980, p 51.

[3] L.Ch. Féraud : op.cit, p 251.

[4] L.Ch. Féraud « Histoire des villes de la province de Constantine : Gijelli » in R.S.A.C, Année 1870, p 252.

و يزوده بالسلاح والذخيرة، وعمل هذا الثائر على حشد همم الناس وحثهم على الجهاد والانتصار للقضية الوطنية التي يتبناها الأمير عبد القادر.[1] و بهذا يمكن ترجيح موقف هذه العائلة المنتصر للأمير في ضوء سكوت المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الأحداث، وكذلك في ضوء غياب وثائق تنفي أو تثبت هذا الموقف.

- **عائلة ابن جلاب**

اختلف المؤرخون حول تاريخ اتصال عائلة ابن جلاب بالأمير عبد القادر، وذهب بعضهم إلى القول أن بداية الاتصال كانت إثر مبايعته كأمير للجزائريين في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر حيث اجتمعت به الوفود من كل نواحي البلاد. وكان من بين هذه الوفود وفد من تقرت وبلاد سوف.[2] و الراجح أن وفد تقرت الذي تكلم عنه المؤرخ المذكور هو وفد عائلة ابن جلاب التي كانت تبسط سيادتها على هذه المدينة.

أما جمهور المؤرخين، فيذهب إلى الاعتقاد أن اتصال هذه العائلة بالأمير كان متأخرا بعض الشيء عن ذلك التاريخ، حيث اقترن كلامهم عن علاقة الأمير بهذه العائلة بصراعه مع الطريقة التيجانية، وحصاره لقصرها بعين ماضي، و توسيع حدود دولته « في الجنوب إلى القفر، فيما وراء وادي سوف، حيث مجالات التوارك من بقايا الملثمين» .[3] و قد امتنع شيخ الطريقة التيجانية عن التعاون معه بحجة أنه « إذا كان الله جل جلاله هو الذي جلب الفرنسيين إلى الجزائر، فهو المؤهل والقادر دون سواه على رميهم في البحر إذا أراد ذلك، وأنه في غنى عن أذرع التيجاني الذي لا يملك القوة والنفوذ، والذي يفضل حياة الهدوء والدعة والعبادة»،[4] فجهز الأمير حملة عسكرية لتأديبه، فسيطر على عين ماضي مقر حكم التيجانيين، و أرسل وفدا إلى عائلة ابن جلاب التي كانت

(1) L.Ch. Féraud : «Documents pour servir à l'histoire de Philippeville » in R.A, n° 19, Année 1875, pp 244,245.

(2) إبراهيم محمد الساسي العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر،2007 ، ص289.

(3) محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، الجزء الأول، شرح وتعليق ممدوح حقي، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007، ص358.

(4) Colonel Trumlet : «Notes pour servir l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1846 » in ; R.A n° 21 ; Année 1877, p 255.
Voir aussi :
- Louis Rinn : Marabout et Khouan, librairie- Editeur, Alger, 1844, p 426.

تبسط سيادتها على مدينتي تقرت وسوف،[1] ملتمسا من سلطانها الدخول في طاعته ومساعدته على محاربة الغزاة الفرنسيين أعداء الدين و الوطن. وقاد هذا الوفد كل من الخليفة محمد الخروبي "وليون روش" "Léon Roches".* و يخبرنا هذا الأخير أن الأمير عبد القادر تمادى مع سلطان هذه العائلة بهذه المناسبة، حيث أرسل له هدايا ثمينة على ظهور الأحصنة والبغال والجمال و أكرمهم سلطان تقرت وأحسن ضيافتهم.[2] وكان من نتائج هذه الزيارة اعتراف هذه العائلة بسلطة الأمير وإعلان ولائها الصريح له، فقام الأمير ببناء مدينة تاكدامت،[3] ، التي استحدثها كوحدة إدارية جديدة بعد انتصاره على محمد الصغير التيجاني، وعين على رأسها الخليفة ابن بكير كمكافأة له على الدور البارز الذي لعبه داخل جيش الأمير أثناء محاصرته لعين ماضي.[4]

---

[1] أبو القاسم سعد الله : خلاصة تاريخ الجزائر : المقاومة والتحرير 1830-1962 ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2007، ص 33.

* ليون روش L. Roches من مواليد 1809/09/27م بفرنسا، انتقل إلى الجزائر عام 1832م، شغل منصب مترجم محلف في الجيش الفرنسي عام 1835م، وبعد توقيع معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر والفرنسيين عام 1837م، كلفه هؤلاء باختراق جيش الأمير والتجسس عليه، فتظاهر بالإسلام وأخذ اسم عمر بن عبد الله، وتقرب من الأمير وحاز ثقته، فجعله كاتبه الخاص وزوجه بمسلمة، وخلال إقامته بمعسكر الأمير تمكن من معرفة أدق أسراره التي كان يرسلها دون تمهل إلى المسؤولين الفرنسيين، وبعد إتمام المهمة التي كلف بها فر إلى الجيش الفرنسي وقلد منصب كبير المترجمين ثم بعد ذلك كلفه الجنرال "بيجو" بمهمة أخرى تنصرف إلى محاولة استصدار فتوى من قبل علماء مسلمين تبيح استسلام الجزائريين للمحتل، وتبعا لذلك زار تونس واستطاع بمساعدة أحد التيجانيين أن ينالها من علماء القيروان، ثم اتصل بعلماء الأزهر بمصر فصدقوا عليها، كما صدق عليها شريف مكة والطائف، ثم أرسلها إلى الحاكم العام الفرنسي عام 1841م. عاد روش إلى الجزائر عام 1842م، وفاضت روحه عام 1901م، وقد ترك مذكرات شخصية نشرت تحت عنوان :" 32 عاما عبر الإسلام « Trente deux ans à travers l'Islam» .

حول ليون روش L. Roches ومهمته داخل جيش الأمير ينظر :

- يوسف مناصرية : مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، م.و.ك، الجزائر، 1990، ص ص23-34.
- يوسف مناصرية :"ليون روش داخل جيش الأمير عبد القادر" سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية جامعة قسنطينة، العدد 9/8، السنة 1983، ص ص 5-18.
- محمد بوعياد :" عبد القادر الإنسان"، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، العدد 75، السنة 1983، ص ص277-284.

[2] Léon Roches : Dix ans à travers l'Islam (1834-1844), préface de M. Carraby, Paris, France, 1904, p p 152-183.

[3] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900 ، الجزء الأول، المرجع السابق، هامش ص281.

[4] الكولونيل اسكوت : المصدر السابق، ص 112.

و قد اعترفت هذه العائلة بسلطة الأمير رغم الفترة العصيبة التي كانت تمر بها، حيث كان زعماؤها متباغضين متنافرين.[1] واستفاد الأمير عبد القادر من اعتراف هذه العائلة بسلطته، حيث شجعت بعض القبائل الأخرى على الانضمام إلى معسكره ويتعلق الأمر بقبائل الغرابة، أولاد خليف، وأولاد نايل.[2]

و بهذه الطريقة وطد الأمير عبد القادر علاقته بهذه العائلة الكبرى في الجنوب القسنطيني، ويبدو أن هناك عنصر مهما ساهم إلى حد بعيد في توثيق العلاقة بينهما، يتمثل في عدائهما المشترك للطريقة التيجانية التي كانت تضايق الأمير عبد القادر وسلاطين بن جلاب على حد سواء في هذه المنطقة.

- **عائلة بوعكاز الذواودة**

تعاون الشيخ فرحات بن السعيد زعيم هذه العائلة مع الفرنسيين أثناء احتلالهم للجزائر العاصمة عام 1830م، وكذلك أثناء حصارهم لمدينة قسنطينة عامي 1836م و1837م. غير أنهم عندما أقدموا على تعيين علي بن عيسى* الخليفة السابق للحاج أحمد باي خليفة على منطقة الساحل، أخذت ثقته تهتز بالفرنسيين لأنه كان يتصور أنه أجدر بهذا المنصب من علي بن عيسى، و قد تصادفت هذه الشكوك مع المساعي التي باشرها الأمير عبد القادر في الشرق الجزائري والمتمثلة في مراسلته لبعض أعيان هذه المنطقة، وعليه شرع في التقرب من الأمير لعله يلتفت له ويسند له منصبا إداريا.[3]

---

[1] أبو القاسم سعد الله : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المجلد الخامس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2005، ص 264.

[2] أديب حرب : المرجع السابق، ص 32.

* عندما وصل الحاج أحمد باي إلى دفة الحكم بالبايلك القسنطيني عام 1826م، قرب منه علي بن عيسى ومنحه منصب باشحامبة أي قائد الجيش، وبعد إحكام الفرنسيين قبضتهم على مدينة قسنطينة عام 1837م، فضل علي بن عيسى التعاون معهم، فعينه الماريشال "فالي" خليفة على الساحل في 1838/09/30م، فخدم السلطة الاستعمارية بتفان كبير، وكان قاسيا جدا مع السكان، فأخضع عدة قبائل للسلطة الاستعمارية بوحشية، وقام بتصفية العديد منهم، وقدم كثيرا منهم إلى مجلس الحرب الذي أصدر أحكاما في حقهم بالسجن والإعدام والنفي ونحو ذلك ، ونظرا للخدمات الجليلة التي قدمها للفرنسيين، قلده "الدوق دومال" وسام الشرف في 1839/10/13م، ثم استغنوا عن خدماته و قاموا بنفيه إلى جزيرة سانت مارغاريت مع الأشغال الشاقة لمدة عشرين سنة.

حول علي بن عيسى وجهوده إلى جانب أحمد باي وتعاونه مع الفرنسيين ينظر:

-Xavier Yacono : «Les premiers prisonniers de L'ile Ste Marguerite (1841-1843)» in, Revue d'histoire Maghrébine n°1 ; année 1974, pp 39-56.

[3] إبراهيم مياسي : "من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر"، د.م.ج الجزائر، 1999، ص 47.

وأشار النقيب "دوماس" في إحدى مراسلاته إلى ذلك حيث كتب: " ... لقد فوجئت أن فرحات بن السعيد أحد حلفائنا أخذ يتقرب من الأمير عبد القادر...". [1]

ويبدو أن محاولاته، أفضت إلى استجابة الأمير لرغبته، حيث كشف الأمير من اتصالاته به، وكان الفرنسيون يعلمون جيدا بهذه الاتصالات،[2] فحاول وزير الحربية الفرنسي أن يضمه أكثر إلى المعسكر الفرنسي ويبعده عن معسكر الأمير حيث سمح للماريشال "فالي" أن يمنح فرحات بن السعيد إدارة بعض المناطق بالجنوب، و قال له:".. إننا نسمح لكم بتشكيل مقاطعة إدارية في بعض المناطق الخاضعة للسيادة الفرنسية بالجنوب القسنطيني، وإسناد إدارتها إلى الشيخ فرحات بن السعيد، ولكم السلطة التقديرية الكاملة في تحديد هذه المقاطعة..."[3] غير أن الشيخ فرحات بن السعيد كان خلال ذلك قد دخل في خدمة الأمير عبد القادر، [4] فتحققت بذلك أمنية هذا الشيخ في استعادة منصب شيخ العرب، وهي الأمنية التي كان ينتظرها منذ فترة بعيدة حتى ينتقم من غريمه بوعزيز بن قانة.[5]

وقد عمل الشيخ فرحات بن السعيد على تدعيم سلطة الأمير عبد القادر بالجنوب القسنطيني والتمكين له، و حارب نفوذ الحاج أحمد باي و أخضع منطقة الزيبان إلى سلطة الأمير وهو الأمر الذي أثار حفيظة الفرنسيين الذين راسلوه واستفسروه حول ذلك وطالبوه أن لا يمد نفوذه إلى هذه المنطقة.[6] علما أن الأمير كان في تلك الفترة مرتبطا بمعاهدة التافنة مع الفرنسيين التي تمنعه من مد نفوذه إلى هذه المنطقة.

و يفهم مما كتبه "فيرو" أنه في الوقت الذي كان فيه فرحات بن السعيد يدعم سلطة الأمير في المنطقة، لم يكن هذا الأخير راضيا عليه، لأنه عندما أرسل كاتبه الحسن بن عزوز رفقة شقيقه الحاج علي إلى الأمير من أجل تجديد الثقة فيه، كان الأمير قد اتخذ قرارا بتعيين الحسن بن عزوز خليفة له على بسكرة والزيبان، و كلف خليفته البركاني الذي كان متواجدا في منطقة بوسعادة بتنصيبه في منصبه الجديد، ولهذا الغرض جند قوة عسكرية تتشكل من سبع مائة جنديا من المشاة وألف ومائتين فارسا، إضافة إلى عدد

(1) George yver :«Les correspondances du capitaine Daumas, consul de France à Mascara», op.cit : lettre adressée à Rapatel le 31 mars 1838, p 155.

(2) George yver : Correspondance du Maréchal Valée Octobre (1837- Mai 1838), Tome I, op.cit : Lettre adressée au ministre de la guerre le 04 janvier 1838, p 166.

(3) Ibid : Lettre adressée à Valée le 17 janvier 1838, p 194.

(4) أديب حرب ، المرجع السابق، ص 22.

(5) Paul Azan : L'Emir Abdelkader (1808-1838), Paris, France, 1925, pp111,112.

(6) احميدة عميراوي: دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 175.

معتبر من الأسلحة والذخيرة، و التمس البركاني من الشيخ فرحات بن السعيد أن يرافقه إلى مدينة بسكرة، لتنصيب الحسن بن عزوز. و رغم الوضعية النفسية الحرجة التي كان يمر بها جراء عزله من منصبه إلا أنه قبل السير معه وخاطب الحسن بن عزوز قائلا له :" هكذا توجهت إلى الأمير رسولا، وعدت إلينا خليفة". وقد وعده بمساعدته في مباشرة مهامه الجديدة إلا أنه اشترط عليه أن يعمل جاهدا من أجل تصفية نفوذ الحاج أحمد باي وعائلة ابن قانة من المنطقة. و على إثر ذلك أعاد فرحات بن السعيد اتصالاته بالماريشال فالي والحاكم العسكري لمقاطعة قسنطينة بطريقة سرية، غير أن خليفة الأمير الحسن بن عزوز تمكن من العثور على إحدى رسائله، فأرسلها إلى الأمير، كما عثر غريمه بوعزيز بن قانة على رسالة أخرى كان قد أرسلها للفرنسيين، فحولها هذا الأخير إلى أحمد بلحاج أحد أعوان الأمير، الذي سلمها هو الآخر إلى الحسن بن عزوز، فانكشف أمره، لذلك أمر الأمير بإيداعه السجن. [1]

إذا كان ليس غريبا أن يحيط بوعزيز بن قانة علما خليفة الأمير باتصالات فرحات بن السعيد بالفرنسيين رغم أنه كان في المعسكر المعادي له، فإنه ليس غريب أيضا أن تتصل عائلة بوعكاز بالفرنسيين و تلتمس منهم التوسط لها لدى الأمير لإطلاق سراح فرحات بن السعيد كما تؤكد بعض الوثائق، [2] لأن الصراع التقليدي القائم بينهما ازداد شدة في بداية الاحتلال و بالأساس بعد اندلاع مقاومة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي. [3] و بعد المعارك التي خاضها الحسن بن عزوز ضد الفرنسيين لاسيما معركة وادي سلسو عام 1840م التي انكسر فيها، فقد استغنى عنه الأمير وتخلى عن خدماته واستدعى الشيخ فرحات بن السعيد مجددا. [4]

وعمل الشيخ فرحات بن السعيد على تقوية نفوذ الأمير بالمنطقة إلى أن قتل غدرا من قبل البوازيد عام 1841م بمنطقة أولاد جلال بضواحي مدينة بسكرة، ونفذ البوازيد عملية القتل مع سبق الإصرار والترصد حيث انتظروه في إحدى الزوايا، وترصدوا قدومه وطعنوه بالسيف طعنة الرجل الواحد لأنهم كانوا يعتقدون أن الرصاص لا يخترق جسده! وقد دفن الشيخ فرحات بن السعيد من قبل أنصاره بمسجد سيدي خالد بضواحي مدينة بسكرة. [5]

---

[1] L.Ch.Féraud : « Les Ben-Djellab Sultans de Tougourt, Notes historiques sur la province de Constantine » in R.A N° 28, Année 1884, pp 227-229.

[2] A.O.M : 01H04 : Correspondance: Lettre du Hadj Bey Ben Said datée le 05 Mars 1839.

[3] عبد الحميد زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي، التطورات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية (1837–1939)، الجزء الأول، ترجمة مسعود حاج مسعود، مطبعة دار هومة، الجزائر، 2005، ص 79

[4] محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص ص 350،351..

[5] Le Commandant Seroka : Op cit , pp 420,421.

هكذا كانت نهاية الشيخ فرحات بن السعيد وهو فعلا شخصية غامضة ومثيرة للجدل فقد كانت بدايته مع المستعمر أما نهايته فكانت ضده وتحديدا في معسكر الأمير عبد القادر، فهل تشفع له هذه النهاية عن الزلات والمزالق التي ارتكبها حينما تخندق في المعسكر الفرنسي خلال السنوات الأولى للاحتلال؟.

ب- الموقف المعادي لمقاومة الأمير عبد القادر :

تبنت هذا الموقف عائلة ابن قانة بشكل واضح، و إلى حد ما عائلة بوعكاز بن عاشور و زعيمها الشيخ أحمد بوعكاز الذي كانت علاقته هشة بالفرنسيين. فما هو الدور الذي لعبته كل منهما؟

- عائلة ابن قانة

لقد عملت عائلة ابن قانة على مضايقة خلفاء الأمير في منطقة الجنوب القسنطيني واصطدمت معهم في عدة معارك، ولعل أهم معركة يذكرها المؤرخون دارت بين هذه العائلة الموالية للفرنسيين وخليفة الأمير الحسن بن عزوز هي معركة وادي سلسو في 1840/03/24م،[1] حيث قام شيخ العرب بوعزيز بن قانة إلى جانب ابنه محمد بن قانة وابن أخيه سي أحمد بلحاج باستنفار قوة عسكرية ضخمة ضمت أكبر قبائل الجنوب القسنطيني، و ألحق هزيمة بجيش الحسن بن عزوز في معركة دامية. و بعد انتهاء هذه المعركة، قام شيخ العرب بقطع تسعمائة أذن* من جثث الموتى ووضعها في أكياس، وكلف أحد أفراد عائلته

(1) Le Commandant Seroka : op.cit, p409.

* كان المسؤولون الفرنسيون يخصصون مكافأة مالية لكل عسكري فرنسي أو لكل متعاون معهم من الأهالي يقوم بتصفية أحد الثائرين الجزائريين، أو أحد المقاومين في ساحات الوغى، وقدرت قيمتها في البداية بخمسة فرنكات فرنسية، ثم ارتفعت إلى عشرة فرنكات، وحتى يحصل القاتل عليها، كان عليه إحضار رأس المقتول بعد أن يقطعها من جثتها كدليل مادي يثبت الواقعة، ولما كان حمل هذه الرأس وتقديمها كوسيلة إثبات يكلف جهدا من حامله لا سيما إذا كانت كبيرة الحجم، اهتدى الفرنسيون إلى وسيلة أخرى للإثبات لا تكلف قاطع الرأس جهدا، وفي الوقت نفسه تضمن حقه في الحصول على هذه المكافأة، وتتمثل في تقديم زوج من الأذنين المقطوعتين فقط والاستغناء عن باقي أجزاء الرأس، وقد شجعت هذه الطريقة السهلة على قتل أكبر عدد ممكن من الجزائريين وحز رؤوسهم وقطع آذانهم وبالتالي الحصول على أكبر مبلغ مالي ممكن، وقد خصص هؤلاء القادة لهذا الغرض براميل توضع فيها هذه الآذان، وخوفا من أن يصيبها التعفن قبل العودة إلى مراكز القيادة العسكرية والحصول على المكافأة المالية الموعودة كانوا يسكبون عليها الملح كمادة حافظة. وبهذه الطريقة كانت هذه الآذان تحافظ على حالتها الطبيعية لمدة أطول.

حول هذه الجرائم البشعة ينظر :

- فرانسوا مسبيرو : سانت أرنو أو الشرف الضائع، ترجمة مسعود حاج مسعود، مراجعة أحمد بكلي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص ص 185-186.
- اندري برنيان، أندري نوشي، ايف لاكوست : الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة اسطمبولي رابح و منصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، 1984. ص 284.
- الفضيل الورتيلاني : الجزائر الثائرة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1992، ص 43.

وهو خالد بن قانة بجمعها إلى جانب ثلاثة رايات للخليفة المهزوم وإرسالها إلى قائد القوات العسكرية الفرنسية بقسنطينة كعربون لولائه وخضوعه للإدارة الاستعمارية. وهو الأمر الذي أثلج صدر القائد العسكري الفرنسي الجنرال "غالبوا" الذي قلد بوعزيز بن قانة وسام ضابط الشرف La croix d'officier كما منحه قيمة مالية معتبرة قدرت بخمس وأربعين فرنك فرنسي.[1]

و رغم أن القادة العسكريين الفرنسيين أكدوا في تقاريرهم على الدور المحوري الذي لعبته عائلة بن قانة في هذه المعركة، وتكلموا بحماس عن زعيمها شيخ العرب بوعزيز بن قانة، إلا أن هناك بعض الروايات تنفي هذا الدور، وتقول أن عائلة ابن قانة كانت غائبة تماما عن مسرح أحداث هذه المعركة، وذكر "فيرو" أن هناك من يقول بأن معركة وادي سلسو عام 1840م التي انكسر فيها جيش خليفة الأمير كانت قد دارت بين قوات الحسن بن عزوز وقوات قبيلة الغرابة التي تمردت على سلطته ورفضت الدخول في طاعة الأمير، و تمكنت من تحطيم شوكته في هذه المعركة، أما عائلة ابن قانة فكانت غائبة تماما عن مسرح هذه الأحداث، وكل ما في الأمر أن زعيمها شيخ العرب عندما بلغت مسامعه أخبار هذه المعركة سارع إلى ميدانها وادعى بأنه هو الذي حقق هذا النصر، و قام باحتجاز مدفعين وعدة رايات لخليفة الأمير، وقام بقطع تسعمائة أذن بشرية وأرسلها إلى السلطات العسكرية الفرنسية بمدينة قسنطينة مدعيا أن قواته هي التي هزمت خليفة الأمير في هذه المعركة، وقد أكد صحة هذه الرواية بعض زعماء المنطقة ومنهم سي أحمد بلقاضي.* [2] وعندما طرح السؤال على شيخ العرب حول مدى صحة هذه الأخبار من عدمها كذبها، واعتبرها من نسج خيال بعض المتآمرين على عائلته.[3] ولا يهمنا كثيرا صدق أو زيف هذه الرواية، إنما الشيء الذي يهمنا هو الدور الكبير الذي لعبته هذه العائلة في إضعاف مقاومة الأمير بهذه المنطقة.

---

(1) Ernest Mercier: Histoire de Constantine, op.cit, p.489.

* ينحدر أحمد بلقاضي من عائلة بلقاضي الشهيرة التي كانت تحكم إمارة كوكو بجبال جرجرة بمنطقة القبائل الكبرى خلال القرن السادس عشر ميلادي وقد تعاونت هذه العائلة المتنفذة بالجنوب القسنطيني مع السلطات الاستعمارية، التي عينت أحمد بلقاضي قايدا على منطقة باتنة في 1844/05/25م. حول ذلك ينظر :

– مختار هواري : سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجاه بعض العائلات المتنفذة في الجنوب القسنطيني1837م–1870م، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الأوراس الحديث والمعاصر (غير منشورة)، جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر، 2008–2009، ص ص23–51.

(2) L.Ch ; Féraud:op.cit, pp 260,261.

(3) Bouaziz Bengana : op.cit ; p77.

كان شيخ العرب بوعزيز بن قانة يتبع كل الطرق والوسائل من أجل القضاء على خلفاء الأمير عبد القادر بمنطقة الزيبان، حيث لم يكتف بأسلوب المواجهة المباشرة معهم، بل عمد أيضا إلى أسلوب الخداع للإيقاع بهم بغية القضاء عليهم أو تسليمهم إلى الفرنسيين، وهذا ما يمكن استنتاجه من الرسالة التي بعث بها خليفة الأمير الحسن بن عزوز إلى محمد بن الصغير بن أحمد بلحاج. ويفهم من فحواها أن الحسن بن عزوز كان يريد استشارة محمد بن الصغير بن أحمد بلحاج حول إمكانية التعاون مع شيخ العرب الذي راسله و طلب منه تكثيف الجهود المشتركة معه من أجل استدراج المحلة الفرنسية، ثم الانقضاض عليها [1]

و يبدو أن أخبار هذه الرسالة وصلت إلى مسامع السلطات الاستعمارية الفرنسية، وخوفا من أن يتخذ الفرنسيون إجراء معاديا ضده أو ضد عائلته بسبب تصرفه دون استشارتهم، قام شيخ العرب بإخطار الفرنسيين بهذا الموضوع، وكتب رسالة إلى القائد العسكري لمقاطعة قسنطينة يبرئ فيها ساحته من الاتهامات الموجهة له من قبل الحسن بن عزوز خليفة الأمير عبد القادر.[2]

هذا، و قد واصلت عائلة ابن قانة مضايقتها لكل خلفاء الأمير بالمنطقة، فعندما عين هذا الأخير خليفته محمد الصغير بن أحمد بلحاج، وهو أحد أقرباء شيخ العرب، غضب هذا الأخير و قام باستنفار قواه ودخل في حروب دامية معه وقد تصدى هذا الخليفة بعنف لقوة ابن قانة التي عضدتها القبائل المتحالفة معه و الكتائب الفرنسية، وفي نهاية المطاف ضعفت قوى خليفة الأمير وأصابها الوهن إثر الحملة العسكرية التي شنها الفرنسيون على مدينة بسكرة عام 1844م. [3]

ومهما يكن من أمر، فإن الخليفة أحمد بلحاج قد تمكن من إحراج الفرنسيين بالمنطقة وممثلهم شيخ العرب بوعزيز بن قانة، واستطاع كذلك أن يصل إلى قلوب السكان، فنال تأييد سكان قرى منطقة الزيبان وظل يشكل خطرا حقيقيا على الوجود الفرنسي بهذه المنطقة، لذلك اتخذ القائد العسكري لمدينة بسكرة النقيب "سانت جرمان"Saint Germain" قرارا بمنح مكافأة مالية قدرها عشرة آلاف فرنك فرنسي لكل شخص يقوم بتصفيته.[4]

(1) A.O.M : 01H04 : Correspondance ; Lettre du Hadj Bey Ben Said, S.D.

(2) A.O.M01H04 : Correspondance ; Lettre de Bouaziz Ben Gana.

(3) ابراهيم مياسي : لمحات من جهاد الشعب الجزائري، د.م.ج، الجزائر، 2007، ص ص 70-73.

(4) صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844م-1871م، المرجع السابق ، ص ص 305،306.

وبعد إحكام الفرنسيين قبضتهم على مدينة بسكرة، خطط خليفة الأمير عبد القادر للاستيلاء عليها، فاقتحم قصبتها في صبيحة 12 ماي 1844م، و سيطر على المدينة.[1]

و كان الخليفة محمد الصغير بن أحمد بلحاج يتواصل مع الأمير والمتعاونين معه في الشرق الجزائري ويزودهم بأخباره وانتصاراته التي يحققها على الفرنسيين، ومنهم السيد ابراهيم بن عون. فعلى إثر هذا الانتصار الباهر الذي حققه في مدينة بسكرة أرسل له رسالة، أخبره فيها بنبأ إقتحامه لقصبة مدينة بسكرة، كما أحاطه علما بالأسلاب والغنائم التي تحصل عليها نتيجة لهذا الهجوم.[2]

و كان الفرنسيون ينتقمون من الثائرين، وقد اتخذ هذا الانتقام عدة صور بشعة، لعل أبرزها مصادرة وحجز أملاكهم، و في مقابل ذلك كانوا يوزعون المحجوزات التي تشمل العقارات ونحوها على خلفائهم والمتعاونين معهم، وقد طبق هذا الإجراء على خلفاء الأمير عبد القادر بمنطقة الزيبان حيث وزعت ممتلكاتهم العقارية على أفراد عائلة ابن قانة لقاء وقوفهم إلى جانبهم في محاربة هؤلاء الخلفاء.[3]

وباشر هذا الإجراء الدوق "دومال" بنفسه عام 1840م حيث فرض الحجز على أراضي الخليفة أحمد بلحاج بعد ضمور مقاومته في منطقة الزيبان، و قدرت مساحة الأراضي المحجوزة بـ 156.4874 هكتار وزعت كلها على أفراد عائلة ابن قانة.[4]

على هذا النحو كان موقف عائلة ابن قانة من مقاومة الأمير عبد القادر، لقد حاربت وجوده ونفوذه بالجنوب القسنطيني، وهو موقف مفترض لا يمكن تصور عكسه طالما أن هذه العائلة كانت أكثر العائلات وفاء للإدارة الاستعمارية.

---

[1] إبراهيم مياسي : المرجع السابق، ص ص 80، 81 .

[2] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية ، الحافظة 212، الملف 239،: رسالة الخليفة محمد الصغير ابن عبد الرحمن إلى إبراهيم بن عون، في 25 ربيع الثاني سنة 1260 هـ (1844/04/20م)، وثيقة رقم 11.

[3] أحمد حسين السليماني :" نزع الملكية العقارية للجزائريين 1830–1870"، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1954/11/01، العدد 06، السنة 2002، ص 121.

[4] Djilali Sari : « l’Algérie à la veille de l’insurrection de 1871 » in, Majallat El Tarikh, centre national d’études, Année 1980, p 21.

– عائلة بوعكاز بن عاشور

الواقع أن الشيخ أحمد بوعكاز بن عاشور، لم يبق ثابتا على موقفه المناهض للاستعمار، حيث شرع في التعاون مع الفرنسيين من أجل القضاء على نفوذ الأمير عبد القادر لاسيما في المناطق القريبة من مقر قيادته. ولعل ابرز خدمة قدمها لهم تتمثل في اشتراكه إلى جانبهم في مقاومة خليفة الأمير عبد القادر وصهره الحاج مصطفى الذي فرض حصارا محكما على مدينة سطيف عام 1840م، حيث قام بمساعدتهم على تموين هذه المدينة وكسر الحصار المفروض عليها من قبل هذا الخليفة، كما ساعدهم على الوصول إلى مدينة جيجل وتموينها و التي كانت محاصرة أيضا،(1) كما قام بإجهاض محاولة سكان فرجيوة عندما انفضوا من حول المحتل عام 1840م، وحاولوا تحطيم المراكز العسكرية الفرنسية في مدينة سطيف استجابة للدعوة التي وجهها لهم خليفة الأمير عبد القادر بالمنطقة.(2)

ويبدو أن الفرنسيين لم يطمئنوا إلى شيخ فرجيوة، بل كانوا متخوفين من ارتباطه بالأمير عبد القادر رغم الخدمات الجليلة التي قدمها لهم وتعاونه الواضح معهم في محاربة خليفته الحاج مصطفى. وكان الشيخ أحمد بوعكاز يعمل بكل ما أوتي من قوة من أجل إقناعهم بمدى صدقه في التعامل معهم، محاولا في الوقت ذاته إبعاد كل التهم التي تتكلم عن علاقته بالأمير عبد القادر وتقديم الدليل المادي على ذلك. و في تلك الأثناء كان الأمير يبحث عن دعم زعماء القبائل ورؤساء العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة، و يطلب منهم التعاون معه من أجل محاربة الفرنسيين. و كان الشيخ أحمد بوعكاز من بين هؤلاء حيث تلقى رسالة خطية من الأمير يدعوه فيها إلى التعاون معه إلا أنه رفض ذلك بحجة أنه صديق للفرنسيين وأنه معين من قبلهم بمقتضى قرار إداري، و على إثر ذلك سارع الشيخ أحمد بوعكاز إلى القائد العام الفرنسي الجنرال "نيغريي" لإطلاعه على فحواها،(3) وبذلك يمكن القول أن هذه الرسالة كانت بمثابة الفرصة السانحة له لإقامة الدليل المادي على إبراز حسن نيته لهم، وإثبات براءته من التهمة الموجهة له.

(1) L.Ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 96

(2) رمضان بورغدة: "جوانب من تاريخ فج مزالة خلال العهد الاستعماري الفرنسي"، كتاب الملتقى الأول: كتامة، فج مزالة عبر العصور والحضارات 24/23 ماي 2005، ص 94.

(3) ابراهيم مياسي : المرجع السابق، ص 56.

و لم يكتف الشيخ أحمد بوعكاز بهذا فحسب بل ظل يتجسس على الأمير وسائر أنشطته بالمنطقة، ويزود الفرنسيين بكل الأخبار المتعلقة به. وفي هذا السياق قام بتوقيف أحد مبعوثي رئيسه المباشر أحمد بلحملاوي خليفة فرجيوة عام 1841م، وانتزع منه رسالة خطية كان متجها بها إلى منطقة مجانة لتسليمها إلى خليفة الأمير عبد القادر هناك. وتضمنت هذه الرسالة أفكارا جريئة ومعادية للوجود الفرنسي بالجزائر رغم أن هذا الخليفة كان معينا من قبل الفرنسيين ويعمل تحت وصايتهم ويأتمر بأوامرهم، و تكلم الخليفة أحمد بلحملاوي فيها على صداقته لخليفة الأمير وعلى استعداده التام للتعاون معه من أجل الإطاحة بالفرنسيين ومحاربتهم وتفريق جموعهم بالمنطقة.[1] ونشر "فيرو" محتوى هذه الرسالة، وعندما قدم الشيخ أحمد بوعكاز هذه الرسالة إلى الفرنسيين، حاول أن يبرز إخلاصه الشديد لهم فخاطبهم قائلا: « أنظروا إلى درجة إخلاصي لكم، وها هي ثمار الثقة التي منحتموها إلى الذين قربتموهم منكم. » [2] والسؤال الذي يثار في هذا السياق. هل كان فعلا خليفة فرجيوة بلحملاوي يتواصل مع الأمير عبد القادر ويتبادل الخطابات مع خليفته في مجانة؟ وهل حقا هذه الرسالة من خط يده أم أن للمسألة ملابسات أخرى؟

قبل الإجابة على ذلك، يجدر بنا القول أن الشيخ أحمد بوعكاز كان نائبا للخليفة بلحملاوي على مشيخة فرجيوة، وكان كذلك يحقد عليه [3] ، وربما كان يتصور أنه أجدر منه بهذا المنصب وذكر "فيرو" أن هذه الرسالة لم تكن بخط بلحملاوي وإنما كانت مزورة، حيث قام بكتابتها أحد أعوانه في غفلة منه ووضع عليها ختمه الخاص بغير علمه كذلك، حينما كان مستسلما للنوم، وأن الشيخ أحمد بوعكاز كانت له اليد الطولى في هذه العملية، وقام بذلك حتى يتخلص منه لأنه كان رئيسه الإداري المباشر، وإذا تم توقيفه فإن منصب الخليفة يؤول إليه تلقائيا، وما يؤكد صحة هذه الرواية أنه في تلك الأثناء انتشرت شائعات بين سكان المنطقة تؤكد هذا الطرح.[4] ولا تهمنا كثيرا تفاصيل هذه الرسالة إن كانت بقلم الخليفة بلحملاوي أم أنها كانت مزورة، إنما الشيء الذي يهمنا في هذا السياق هو أن المستعمر الفرنسي عرف كيف يخترق الصف الجزائري ويوظف زعماء هذه العائلات الكبرى، ومنهم الشيخ أحمد بوعكاز في مشروعه الاستعماري، ويتخذه عنصرا مهما يحارب به الأمير عبد القادر.

(1) L.Ch. Féraud op.cit, p 97.
(2) Idem.

(3) يحيى بوعزيز : المرجع السابق ، ص 29.

(4) L.Ch. Féraud : op.cit, p 97.

بعد عرضنا لمختلف مواقف العائلات الكبرى من مقاومة الأمير عبد القادر، و التي تراوحت بين المعاداة و المساندة، نتساءل الآن عن موقف عائلة الرزقي؟ هل انتصرت لمقاومته أم أنها وقفت إلى جانب المستعمر؟

لا بد من الإشارة إلى أننا لم نعثر على شيء يشير إلى موقفها بوضوح، و رغم ذلك يمكننا استنتاجه بناء على قرائن و شواهد وقعت في خضم السياق العام للأحداث في ذلك الحين منها:

- أن الأمير عبد القادر كان يتواصل مع شيخ الحنانشة محمد الحسناوي الذي انتصر لمقاومته و كان أحد أعوانه بالشرق، و كان يتبادل معه الرسائل و الخطابات.[1]
- أن الشيخ الرزقي بن منصور كبير هذه العائلة كان على خلاف شديد مع الشيخ الحسناوي بسبب التنافس على زعامة مشيخة الحنانشة.[2] و على هذا الأساس من المتصور أن عائلة الرزقي لم تتعاون مع الأمير عبد القادر الذي انتصر له غريمها الشيخ الحسناوي، و لم تناصبه العداء أيضا، و ما يعزز هذه الفرضية أكثر بعدها الكبير على مسرح أحداث هذه المقاومة.

و بناء على ما تقدم نلاحظ أن جل العائلات الكبرى انتصرت للأمير، و حتى الذين حاربوه كانوا قد تعاطفوا معه في البداية مثل الشيخ أحمد بوعكاز الذي كان يتواصل معه عن طريق ممثله في الشرق الحاج مصطفى.[3] و هذا يدل دلالة واضحة على أن مقاومة هذا الزعيم اتخذت بعدا وطنيا ثوريا، و عبرت عن آمال النخب الجزائرية و السواد الأعظم من الشعب الجزائري الرافض للوجود الاستعماري.

---

(1) حول ذلك ينظر:

الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 29:

- رسالة خليفة الأمير عبد القادر محمد الصغير بن عبد الرحمان إلى الشيخ الحسناوي في 08 ربيع النبوي 1259 هـ (1844م)، وثيقة رقم 37.
- رسالة الأمير عبد القادر إلى الشيخ الحسناوي في 06 ربيع الثانية 1263 هـ (1847م)، وثيقة رقم 41.

(2) L.Ch.Féraud : « Les Harar seigneurs des Hanancha. Etudes historiques sur la province de Constantine », op.cit, pp 360-365.

(3) Ibid, p 93.

2- موقف العائلات الكبرى من مقاومة الحاج أحمد باي

لم يكن موقف العائلات الكبرى موقفا موحدا من مقاومة الحاج أحمد باي، فمنهم من فضل الميل إلى صف مقاومته و منهم من ناصبه العداء و فضل الخضوع للمستعمر و التعاون معه للإطاحة بهذا الباي و سنوضح ذلك في ما يلي:

أ- الموقف المتعاون مع مقاومة الحاج أحمد باي

تعاونت كل من : عائلة بوعكاز بن عاشور، و عائلة أولاد عز الدين، و عائلة المقراني، و إلى حد ما عائلة الرزقي مع الحاج أحمد باي أثناء مقاومته للمحتل قبل و بعد عام 1837م.و في ما يلي نعرض إلى موقف كل عائلة على حدا.

- عائلة بوعكاز بن عاشور

كان الشيخ أحمد بوعكاز زعيم هذه العائلة من أشد المقربين للحاج أحمد باي،[1] و قبل سقوط مدينة قسنطينة بفترة وجيزة، بعث أعيان المقاطعة رسالة إلى السلطان العثماني يحيطونه فيها علما بأنهم ينازلون الفرنسيين، و يلتمسون منه كذلك إسناد منصب الباشا إلى الحاج أحمد باي،[2] و كان الشيخ أحمد بوعكاز بن عاشور من الموقعين على هذه الرسالة.[3]

و بعد سقوط المدينة في قبضة المحتل عاد الشيخ أحمد بوعكاز إلى مقر حكمه بفرجيوة، و ظل يترقب الأحداث عن بعد، و لم يقطع صلته نهائيا بالحاج أحمد باي، بل ظل يتواصل معه بصورة سرية،[4] حيث أكد المسؤولون السامون الفرنسيون بالمقاطعة أن الشيخ أحمد بوعكاز كان أمله كبيرا في انتصار الحاج أحمد باي على القوات الغازية، و كتب القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة تقريرا إلى الحاكم العام ذكر فيه أن الشيخ أحمد بوعكاز "كان عطفه تجاه بايه كبيرا، و لم يفقد الأمل في عودته و انتصاره" [5]

---

[1] صالح فركوس: الحاج أحمد باي قسنطينة (1826م – 1850م) د.م.ج، الجزائر، 1993، ص 56.

[2] أرجمند كوران: المرجع السابق، ص ص 59،60.

[3] جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914، د.م.ج، الجزائر، 1993، ص 85.

[4] L.CH.Féraud : «Ferdjioua et Zouara.Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 93.

[5] صالح فركوس: المرجع السابق ، ص 97.

و بهذا يمكن القول أن الشيخ أحمد بوعكاز وقف إلى جانب الحاج أحمد باي قبل سقوط عاصمته في أيادي القوات الغازية، أما بعد ذلك فقد حدثت تطورات انتهت باستسلامه للفرنسيين و دخوله في خدمتهم.

– عائلة أولاد عز الدين

بالرغم من سقوط العاصمة في قبضة الاحتلال الفرنسي، فإن رؤساء بعض العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة و زعماء بعض قبائلها، لم يفقدوا الأمل في استرجاعها. فبعد فشل المجهودات العسكرية في إطار القوة العسكرية التي رافقت الحاج أحمد باي في صد العدوان، جنحوا إلى المساعي السياسية و الدبلوماسية. و في هذا الإطار وقع أن أعيان مقاطعة قسنطينة و رؤساء العائلات الكبرى و العلماء و الفقهاء و أعيان البوادي و عددهم اثنان و خمسون شيخا على عريضة أرسلها الحاج أحمد باي إلى البرلمان البريطاني في شهر يناير 1834م، يلتمسون منه يد العون لوقف الغزو الفرنسي للجزائر و إعتداءاته البربرية،التي طالت حرمة المساجد و أماكن العبادة و المقابر و أراقت دماء الأبرياء، و داست على أدنى القيم الانسانية. و كان شيخ زواغة من بين الموقعين على هذه العريضة،[1] حيث وقفت عائلته بزعامة الأخوين محمد و بورنان إلى جانب مقاومة الحاج أحمد باي. [2]

– عائلة المقراني

إثر سقوط الجزائر العاصمة في قبضة المحتل الفرنسي عام 1830م عاد الزعيمان المقرانيان محمد بن عبد السلام المقراني من فرع أولاد عبد السلام، و أحمد بن محمد المقراني من فرع أولاد الحاج رفقة قواتهما إلى قسنطينة إلى جانب قوات الحاج أحمد باي. و لعب صهره محمد بن عبد السلام المقراني دورا كبيرا في حمايته من المخاطر التي كانت تتهدده لا سيما في المنطقة التي كان المقرانيون يبسطون سيادتهم عليها. [1]

(1) Abdeljelil Temimi : op.cit , pp 135-137.

(2) صالح فركوس: المرجع السابق، ص 98.

(3) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 120.

غير أن سياسة الحاج أحمد باي تجاه شيوخ هذه العائلة، و ميله إلى فرع دون الآخر، أثرت بشكل أو آخر على موقف زعماء هذه العائلة من مقاومته. و يبدو أن ميله إلى فرع أولاد الحاج كان واضحا مما جلب له متاعب كثيرة من فرعي العائلة الآخرين، و تجلى هذا الميل عندما أسند قيادة مجانة إلى أحمد بن محمد المقراني.[1]

و الواقع أن هذا الإجراء أثار غضب صهره محمد بن عبد السلام المقراني الذي رأى في ذلك تحيزا كبيرا لفرع أولاد الحاج، و خصما كبيرا من كرامة فرع أولاد عبد السلام، و عليه أخذ يفكر بطريقة جدية في الاستسلام إلى السلطات الاستعمارية و التعاون معها للقضاء على مقاومة الحاج أحمد باي الذي حرمه من حقه الطبيعي كزعيم لهذه العائلة. فأخذ يتواصل مع الحاكم العام الفرنسي أنذاك، و يتبادل معه الخطابات و الرسائل، و يتدارس معه إمكانية الإطاحة به و القضاء على حكمه و مقاومته. [2]

و لم يكن محمد بن عبد السلام المقراني يرسل هذه الخطابات بمفرده إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية، بل كان برفقة بعض الزعماء الآخرين الساخطين على الباي. [3]

و شاءت الصدف أن يعثر الحاج أحمد باي على إحدى هذه المراسلات فأعطى الأمر بإلقاء القبض على محمد بن عبد السلام، و وضعه في سجن القصبة بمدينة قسنطينة. و ذكر "مرسيي " أنه بقي قابعا فيه إلى غاية عام 1837م تاريخ سقوط مدينة قسنطينة في قبضة الاحتلال الفرنسي حيث استغل حالة الفوضى التي عمت المدينة إثر سقوطها و فر منه.[4]

و يبدو أن هذه الرواية غير صحيحة، و الدليل على ذلك أن الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني كان من الموقعين على الرسالة التي أرسلها أعيان مقاطعة قسنطينة إلى السلطان العثماني يلتمسون فيها منه منح لقب الباشا للحاج احمد باي. و كانت هذه الرسالة مؤرخة في 21 ربيع الأول عام 1251هـ الموافق لـ 17 جويلية 1835م.[5]

---

[1] Ch.L.Féraud : « Histoire des villes de La province de Constantine, Bordj-Bouaréridj » op.cit, p 302.

[2] Ibid : p 310.

[3] Esquer Gabriel : Correspondance du général Voirol (1833-1834), Paris, France, 1924, p 426 : lettre adressée à Voirol le 12 avril 1834.

[4] Ernest Mercier : Le Bachaga Mokrani et les causes de L'insurrection indigène de 1871, op.cit , p 12.

[5] جمال قنان: المرجع السابق، ص ص 83-86.

و عليه فإنه لا يتصور أن يباشر الشيخ محمد بن عبد السلام هذه التصرفات و هو سجين. و ما يؤكد هشاشة هذه الرواية أيضا أن الحاج أحمد باي يذكر في مذكراته أن هذا الزعيم المقراني كان من الشخصيات البارزة التي لبت النداء الذي وجهه إلى رؤساء القبائل و زعماء العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة لمواجهة الاحتلال الفرنسي الذي كان يهدد عاصمة البايلك القسنطيني.(1)

و بعد سقوط مدينة قسنطينة عام 1837م، بقي أحمد المقراني وفيا للحاج أحمد باي، حيث اتصل به، و طلب منه اللجوء إلى إقليم قيادته، غير أن الحاج أحمد باي فضل الابتعاد إلى الصحراء بناء على نصائح بوعزيز بن قانة. (2)

و في تلك الأثناء، حاول أحمد المقراني العودة إلى مقر حكمه بمجانة، إلا أنه لم يتمكن من دخولها بسبب اعتراضه من قبل سكان المنطقة، و قوات محمد بن عبد السلام المقراني، و عليه بدأ يشعر بالوحدة و التهميش، فاتصل بصديقه أحمد بوعكاز شيخ فرجيوة و طلب منه النصيحة و التوجيه، فاجتمع به رفقة مساعده و شخصيات أخرى من بينهم حمودة بن الشيخ و الخليفة علي بن باحمد و مهدوا له الطريق للاتصال بالسلطات العسكرية الفرنسية بمدينة قسنطينة، و بهذه الطريقة دخل هذا الزعيم المقراني في خدمة الإدارة الاستعمارية.(3)

على هذه الشاكلة كان موقف الفرعين الرئيسيين لعائلة المقراني من مقاومة الحاج أحمد باي. و يبدو أن الفرع الآخر لهذه العائلة و هو فرع أولاد القندوز انحاز إلى المعسكر المعادي لمقاومته، و راح يحاول القضاء عليه أثناء عودته إلى مدينة قسنطينة حيث إعترض بعض وجهائه سبيله، غير أن الحاج أحمد باي تمكن من إلقاء القبض عليهم و تصفيتهم. (4)

- **عائلة الرزقي**

ذكر "فيرو" أنه تحصل على بعض الوثائق من أحد القساوسة الفرنسيين، و هو القس "دير" " Le pasteur Dürr " بالمغرب تشير إلى أن الشيخ الرزقي كان يتواصل مع الفرنسيين الذين سيطروا على مدينتي عنابة و قالمة في بداية الاحتلال، و كان يمد القادة الفرنسيين الذين أحكموا قبضتهم على مدينة قالمة بالمعلومات المتعلقة بكل النشاطات و الاستعدادات التي كان يباشرها الحاج أحمد باي لمواجهتهم.(5)

---

(1) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 69.

(2) العياشي روابحي: "الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837م و ردود فعل أعيان أريافها". حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية و الانسانية، العدد 05، السنة 2010، ص 369.

(3) Colonel Robin : L'insurrection de la grande Kabylie en 1871, Alger, 1901, p p 96-98.

(4) L.Ch.Féraud : «Notice sur les ouled-Abd-en-Nour» in R.S.A.C, Année 1864, pp 182-185.

(5) L.Ch.Féraud : « Notes sur une collection d'autographes arabes de l'ancien ministre de France au Maroc »op.cit, p 102.

و تحدث هذا الضابط عن هذه المسألة في موضع آخر، إلا أنه قال بأن الشيخ الرزقي لم يكن حسن النية في التعامل مع الجيش الفرنسي، بل كان ينقل أخباره، و كل تحركات الفرنسيين إلى الحاج أحمد باي، و لعب دورا مركزيا في التجسس على المعسكر الفرنسي الذي كان يضايق جيوش الحاج أحمد باي بالذرعان قرب مدينة عنابة عام 1836م، حيث تمكن بفضل دهائه من اختراقه، غير أنه بمجرد أن تمكن من الحصول على معلومات سرية وخطيرة تتعلق بوضعهم بالمنطقة أقفل هاربا إلى مدينة قسنطينة قاصدا الحاج أحمد باي لتزويده بهذه المعلومات. و رغم ملاحقته من قبل الفرنسيين إلا أنهم لم يتمكنوا من القبض عليه. [1]

و ذكر الباي في مذكراته أن الشيخ الرزقي كان من الزعماء الذين عضدوه في المقاومة حينما كان الفرنسيون يهددونه،[2] غير أن علاقة الباي بهذا الشيخ كانت قد ساءت بعد ذلك، فتوقف عن مؤازرته كما توقفت عن مساعدته أيضا العائلات الأخرى بسبب التطورات التي طرأت على علاقتها بالمستعمر الذي أصدر مرسوم المارشال "فالي" عام 1838م الذي ضمها إلى صفه.

ب- الموقف المعادي لمقاومة الحاج أحمد باي

تبنت هذا الموقف العائلات و بعض الفروع العائلية التي تعاونت مع المستعمر منذ عام 1830م، حيث عمل زعماؤها على تشجيع المستعمر في تحطيم مقاومة الحاج أحمد باي، و استدراجه إلى احتلال مدينة قسنطينة عاصمة بايلكه. و من أجل تحقيق هذا الغرض لجأت هذه العائلات إلى كل السبل و الوسائل. فبالإضافة إلى الجهود الفردية التي باشرتها كل عائلة على حدا ضد مقاومته، عمدت هذه العائلات إلى أسلوب التكتل و التحالف، و الأكثر من ذلك، أنها تعاونت مع أعدائه. فكيف تم ذلك؟

أولا: الجهود الفردية.

قامت بعض العائلات بمجهودات فردية من أجل القضاء على مقاومة الحاج أحمد باي، و تتمثل هذه المجهودات في محاولة التقرب من المستعمر و محاولة استدراجه لاحتلال مدينة قسنطينة. و العائلات المعنية في هذا السياق هي عائلة بوعكاز الذواودة و عائلة ابن جلاب و عائلة ابن قانة التي تعاونت مع الباي ثم انقلبت ضده، و في ما يلي نعرض إلى جهود كل عائلة على حدا.

---

[1] L.Ch.Féraud : « Les Harar seigneurs des Hanencha. Etudes historiques sur la province de constantine » op.cit, p 372.

[2] محمد العربي الزبيري : المصدر السابق، ص 69.

- **عائلة بوعكاز الذواودة:**

كان الشيخ فرحات بن السعيد زعيم هذه العائلة من ألذ أعداء الحاج أحمد باي، حيث سعى إلى إجراء اتصالات جدية مع الفرنسيين عارضا عليهم خدماته و التعاون معهم من أجل الاجهاز على الحاج أحمد باي. و كانت أولى اتصالاته بهم خلال الأشهر القليلة الأولى التي تلت سقوط الجزائر العاصمة حيث باشر أول اتصال له مع الجنرال الفرنسي "برتزين" "Berthèzene" (الذي حكم الجزائر في الفترة الممتدة من جوان 1830م إلى غاية ديسمبر 1831م) خلال شهر فيفري عام 1831م عن طريق سي محمد بن الدين أحد مرابطي الجزائر العاصمة الذائعي الصيت.[1] غير أن الحاكم العام الفرنسي كان يصرف النظر عن الرسائل التي ترد إليه من طرفه و من طرف سائر الناقمين على الباي و يفضل السكوت و عدم الرد عليها.[2]

و عندما باشر "الدوق دي روفيغو" "Duc de Rovigo" مهامه كقائد عام للجيش الفرنسي في الجزائر، واصل فرحات بن السعيد اتصالاته به، و أرسل له خطابا تحدث فيه عن معاركه التي يخوضها بنجاح ضد الحاج أحمد باي و انتصاراته الساحقة عليه، مؤكدا له أن فرسانه تمكنوا من إلحاق الهزائم الشنيعة بفرسان الحاج أحمد باي.[3]

و إثر ذلك وجه الدوق رسالة إلى وزيره يخبره فيها بالحرب التي يخوضها الشيخ فرحات بن السعيد ضد الحاج أحمد باي حيث كتب له: "إن الشيخ فرحات بن السعيد الذي حدثتكم عنه في رسائل سابقة يخوض حاليا حربا طاحنة ضد أحمد باي".[4] و فعلا فقد دارت معارك ضارية بين الحاج أحمد باي و الشيخ فرحات بن السعيد بالجنوب القسنطيني، أهمها معركة القصر شرق مدينة بسكرة في شتاء عام 1832م التي انكسر فيها جيش الحاج أحمد باي الذي كان مدعما من طرف عائلة ابن قانة.

(1) L.Ch.Féraud : « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur La province de Constantine » in R.A n° 27, Année 1883 p 453.

(2) L.Ch.Féraud : «Histoire des villes de Constantine –Bordj Bouarrerij », op.cit, p 310.

(3) L.Ch.Féraud : « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur La province de constantine » op.cit, p 554.

(4) Gabriel Esquer : correspondance du Duc de Rovigo (1831-1833) Tome I, Typographie Adolph Jourdan, Alger, 1914 : Lettre adresée au ministre de la guerre le 02 Fèvrier 1832, p 175.

و قام الشيخ فرحات بن السعيد خلال هذه المعركة بقتل عدد كبير من فرسان عائلة ابن قانة، كما قام بجز أربعين رأسا منهم و أرسلها إلى مدينة بسكرة. فغضب الحاج أحمد باي من هذا التصرف الأهوج و قرر الانتقام منه، فاتصل بشيخ العرب بن قانة و اتفق الطرفان على إعداد جيش و الاتجاه به بصورة سرية إلى مدينة بسكرة للنيل من الشيخ فرحات بن السعيد. و قاد هذه الحملة علي بن عيسى، وتمكنت قوات الباي هذه المرة من اقتحام المدينة وتحطيم شوكة الشيخ فرحات بن السعيد. [1]

و في وقت لاحق كتب الدوق دي روفيغو رسالة أخرى إلى وزيره للحربية أخبره فيها بأنه استقبل وفدا أرسله الشيخ فرحات. و قد عبر فيها هذا الدوق عن إعجابه بهذا الشيخ، حيث قال له:" أن الشيخ فرحات يشرف على قبيلة محاربة و ذات بأس عظيم، و يقدر عدد فرسانها بثلاثة آلاف فارس".[2] و يفهم من هذه الرسالة أن الدوق يلتمس من مسؤوليه في العاصمة الفرنسية باريس الموافقة على تعاونه مع هذا الشيخ ضد الباي.

و رغم أن الفرنسيين لم يكونوا يهتموا كثيرا بطلبات الشيخ فرحات بن السعيد، إلا أن ذلك لم يثن عزيمته من تكثيف اتصالاته بهم. و قد نجم عن تنقلات وفود هذا الشيخ إلى الجزائر العاصمة حدوث جريمة بشعة في حق سكان قبيلة العوفية * العزل. و قد اتخذ الدوق هذا القرار حينما بلغته أخبارا مفـــادهـــا

---

(1) Le commandant Seroka : op.cit, pp 388, 389

(2) Gabriel Esquer : op.cit : Lettre adresée au ministre de la guerre et au président du consiel le 29 mars 1832, pp 367, 368.

* إن من يقرأ عن مجزرة العوفية التي كان مهندسها "الدوق دي روفيغو" بروية لا يصدق أن تصل قدرة الإنسان على إنتاج الحقد و الضغينة ضد أخيه الإنسان إلى هذا الحد. لقد أمر هذا السفاح جنده بتصفية أفراد هذه القبيلة عن بكرة أبيها و التمثيل بجثث الموتى. و تنفيذا لهذا الأمر العسكري حاصر الجنود الفرنسيون أفراد هذه القبيلة في ليلة السادس إلى السابع من أبريل عام 1832م حينما كانوا مستسلمين لنوم عميق فقاموا بقتلهم بطرق وحشية لا يقوى اللسان على وصفها، و زحوا رؤوسهم و ثبتوا البعض منها على رؤوس أسلحتهم، و قيل أن بعض الجنود أكلوا بعضها !! و غنموا ما كسبت أيادي هذه القبيلة. و ما تبقى من الأسلاب عرض في سوق باب عزون بالجزائر العاصمة. وقد صدم الناس و بقوا مشدوهين حينما لاحظوا أساور النساء و هي مشدودة إلى أيادي مقطوعة و مخضبة بالدماء، كما لاحظوا أيضا أقراطا ذهبية مشدودة في آذان صاحباتها. و الأخطر من ذلك كله أن القيادة العسكرية الفرنسية و بإيعاز من الدوق الفرنسي أصدرت بيانا في 1832/04/08م أشادت فيه ببسالة جنودها وأبدت ارتياحا كبيرا لهذا الجرم.

للمزيد من التفاصيل حول هذه المجزرة ينظر:

جيلالي صاري: "إبادة قبيلة العوفية بوادي الحراش" الثقافة مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، العدد 77، السنة 1983، ص ص 125-128

أن أفراد هذه القبيلة اعترضوا سبيل الوفد الذي أرسله فرحات بن السعيد إلى الدوق الفرنسي، غير أنه تبين فيما بعد أن هذه القبيلة كانت بريئة من التهمة المنسوبة إليها و أيد بعض المسؤولين الفرنسيين ذلك.[1] و سجل حمدان بن عثمان خوجة الذي كان معاصرا لهذه المجزرة و شاهد عيان على آثارها المخزية شهادته بكل أسى و حزن عميق، محملا الشيخ فرحات بن السعيد المسؤولية الأدبية و المادية لها.[2]

كان الشيخ فرحات بن السعيد تارة يعرض خدماته على الفرنسيين على المستوى المركزي بالجزائر العاصمة، و تارة أخرى يحاول استدراجهم إلى الصحراء لتعزيز قواته للقضاء على مقاومة الحاج أحمد باي. و إذا كانت إجابتهم عن المطلب الأول يلفها الغموض و التسويف، فإن اجابتهم عن المطلب الثاني اتسمت بالوضوح و الحسم، حيث رفضوا عرضه بسبب تخوفهم الشديد من الظروف الطبيعية القاسية التي تميز الصحراء الجزائرية و عدم مقدرة العسكر الفرنسي على التكيف معها.[3]

كان الدوق الفرنسي يماطل الشيخ فرحات، و في الوقت ذاته كان متخوفا من إحجامه عن عرض خدماته على الفرنسيين إذا أطالوا في هذه المماطلة، و هذا ما يمكن فهمه من الخطاب الذي أرسله الدوق الفرنسي إلى وزيره أنذاك قائلا: "... لو تركنا هذا الشيخ يحارب الحاج أحمد باي بمفرده، فإنه من الثابت أنه يتصالح معه و ينفض من حولنا... "،[4] و على هذا الأساس سارع الدوق الفرنسي إلى مراسلة الزعيم الذوادي بعد فترة وجيزة من ذلك. و كتب له رسالة تحمل عبارات التقدير و المجاملة قائلا له: "...إنني أقدر فيكم جيدا الثقة التي منحتموها إلى شخصنا رفقة والدكم. و تأكدوا أن جميلكم هذا لن يذهب هباء...".[5]

(1) Georges Yver : « Si Hamdan Ben Othman Khodja » in R.A n° 57, Année 1913, p 123.

(2) Hamdan Khodja : op.cit, pp 69, 70.

(3) Gabriel Esquer : op.cit : Lettre adressée à Ferhat Ben Saïd le 31 Juillet 1832, pp 676, 677.

(4) Gabriel Esquer : Correspondance du Duc de Rovigo (1831-1833) Tome II, Ancienne maison Bastide- Jourdan, Alger, 1920 : Lettre adresée au ministre de la guerre le 20 Aout 1832, p 45.

(5) Ibid : Lettre adresée à Ferhat Ben Saïd le 13 septembre 1832, pp 94, 95.

و لم يكن فرحات بن السعيد يتصل بالفرنسيين فحسب، و إنما كان يتصل بالناقمين على الحاج أحمد باي من سكان قسنطينة. و يبدو أن اتصالاته المتكررة بهذه الفئة أفضت إلى استجابة البعض من الأعيان لدعوته الرامية إلى الإطاحة بالباي، و بالمقابل تسهيل عملية الغزو الاستعماري الفرنسي للمدينة، حيث كتبوا له رسالة مؤرخة في 1834/02/24م، يفهم مما ورد فيها أن الشيخ فرحات بن السعيد كان يتصل بهؤلاء الأعيان قبل هذا التاريخ، و كان يطلب منهم تهيئة الأجواء لتسهيل مهمة الفرنسيين الذين يحاربون الحاج أحمد باي. [1]

في 10 جوان 1835م، كتب الشيخ فرحات بن السعيد رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي "الكونت دروي دارلون" "Drouet d'Erlon" حدثه فيها عن مسألة تكثيف الجهود بينهما للإطاحة بالحاج أحمد باي، كما حدثه عن مسألة احتلال مدينة قسنطينة، ذلك الموضوع الذي أرهقه كثيرا و شغل باله ردحا معتبرا من الزمن. [2] و رغم قصر مدة حكم الحاكم العام المذكور (سنة واحدة و إحدى عشر يوما)، إلا أن فرحات بن السعيد أشار في رسالته إلى الوعود التي قطعها هذا الحاكم على نفسه بالتعاون معه من أجل القضاء على الحاج أحمد باي. و هذا يعني أن ثمةاتصالات سابقة لهذه الرسالة قام بها هذا الشيخ، مما يجعلنا نذهب إلى القول أن الشيخ فرحات بن السعيد كان دائم الاتصال بالفرنسين منذ عام 1830م إلى عام 1837م.

و بعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة عام 1837م، اتجه الباي جنوبا نحو مدينة بسكرة بناء على توجيهات بوعزيز بن قانة، و أرسل متاعه إلى القنطرة قرب مدينة بسكرة، ثم قرية منعة بالأوراس. و كان الشيخ فرحات بن السعيد يتتبع أخباره، و كل تحركاته أثناء ذلك، فجهز حملة عسكرية ضخمة ضمت قبائل أولاد عبد النور و البلازمة و الحضنة، و اتجه بها إلى مدينة بسكرة لمحاصرته. و التحم معه في معركة دامية، و ألحق بالباي خسائر فادحة طالت الأرواح و العتاد. و أعلم الماريشال "فالي" بهذا الانتصار الساحق الذي حققه على قوات الباي. [3]

و الواقع أن الفرنسيين كانوا يتتبعون باهتمام شديد هذه المواجهات الدامية بين الخصمين، و الأكيد أن أخبارها كانت تثلج صدورهم، و لا يهمهم فيها كثيرا الطرف المنتصر و الطرف المنكسر لأنهما

[1] عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 129.

[2] L.Ch.Féraud : op.cit, p 125.

[3] Ibid, pp 219, 220.

يمارسان حربا بالنيابة عنهم، و أن إنهاك قوة الطرفين يكون دائما في مصلحتهم. و كان الماريشال "فالي" يسارع إلى إخبار سلطات بلاده في باريس بذلك. فعلى إثر تلقيه خبر اندحار الباي على يد فرحات بن السعيد كتب إلى وزيره قائلا: "... لقد قام الشيخ فرحات بن السعيد بإعلام قائد مدينة قسنطينة بالنصر الساحق الذي حققه على حساب غريمه الحاج أحمد باي، كما أرسل له العديد من الرهائن الذين احتجزهم لديه بمدينة بسكرة ... "(1) و أضاف في موضع آخر: "... إن الحاج أحمد باي في حالة فرار دائمة ...".(2)

الظاهر أن الحاج أحمد باي كان قد انتهج إستراتيجية أخرى لكي يفوت الفرصة على عدوه فرحات بن السعيد، حيث أنه بعد انتهاء هذه المعركة اتجه إلى طولقة و خيم بمحاذاة زاوية سيدي رحال الواقعة بين فوغالة و العمري و شرع يترصد تحركات فرحات بن السعيد و أرسل العديد من مقاتليه لمطاردة أنصار فرحات من أولاد نايل و التحموا معه في معركة ضارية، و انتصروا عليهم و فرقوا جموعهم و قتلوا عددا غير قليل منهم و أحضروا أمام يدي الباي أكثر من خمسين رأسا منهم.

بعد ذلك واصل الحاج أحمد حروبه ضد فرحات بن السعيد، و اشتبك معه في معركة صحيرة، و كانت أشرس معركة دارت بينهما في منطقة الزيبان حيث تمكن الباي من سحق قوات فرحات بن السعيد، و أثخن فيهم بالقتل حيث قام بتصفية (600) فارس. و على إثر ذلك فضل فرحات بن السعيد النزوح إلى أولاد نايل. أما الحاج أحمد باي، فقد شن حملات انتقامية ضد واحات الزاب القبلي و الزاب الظهري، و عضده في ذلك أفراد عائلة ابن قانة و على رأسهم بوعزيز بن قانة. و باشر الباي هذا الإجراء الانتقامي بسبب موقفهم المؤيد لفرحات بن السعيد.(3)

و تحدث الحاج أحمد باي في مذكراته عن هذه المعركة بتفاصيل تختلف بعض الشيء عما أورده المترجم الفرنسي "فيرو" لاسيما من حيث عدد القتلى و الوجهة التي سلكها فرحات بن السعيد بعد هزيمته، حيث ورد في مذكراته: "... ثم واصلت طريقي إلى الصحراء، و في منعطف من منعطفات الطريق وجد جنودي أنفسهم وجها لوجه مع جنود فرحات ... غير أنني و بدون أدنى تردد أمرت فرساني أن يحملوا و

(1) George Yver : Correspondance du Maréchal Valée (Octobre 1837-Mai 1838), Tome I, op.cit, Lettre adresée au ministre de la guerre le 27 Janvier 1838, p 209.

(2) Ibid, p 213.

(3) L.Ch.Féraud : op.cit, pp 223, 224.

الحواجز التي تعترضنا و دارت معركة حامية الوطيس، فسالت الدماء من كل جانب، و فقد فرحات ما يزيد عن ثلاثمائة من أجناده ما بين جريح و قتيل. و هكذا تخلصت من فرحات الذي اضطر على الرغم من الشجاعة التي أبداها إلى الفرار ... و لجأ إلى بلاد سوف بين الجريد و تقرت...". [1] لقد كانت المواجهة حامية بينهما، و قد اعترف فيها الحاج أحمد باي بشجاعة خصمه.

جدير بالذكر، أن الشيخ فرحات بن السعيد لم يكتف بحروبه المعلنة في وجه الباي، بل عمد إلى تأليب قبائل المقاطعة ضده، و في هذا الإطار ظل يتواصل مع سكان قبيلة التلاغمة و يحرضهم ضد الباي. ففي عام 1838م بعث لهم بعدة رسائل و خطابات تحرضهم على الثورة ضده.[2] و رغم الجهود التي بذلها فرحات بن السعيد في التمكين للفرنسيين و محاربة الحاج أحمد باي إلا أنهم كانوا يتباطؤون في الاستجابة لطلباته، لاسيما تلك المتعلقة برغبته في الحصول على المساعدات المادية و البشرية لمحاربة هذا الباي، و أشار هذا الأخير إلى ذلك في مذكراته. [3]

و يبدو أن قوة الحاج أحمد باي بدأت تضعف تدريجيا لاسيما بعد دخول بعض القادة الأهليين و بعض المقربين منه في خدمة الفرنسيين، مما رجح الكفة لصالح الفرنسيين و المتحالفين معهم و على رأسهم فرحات بن السعيد، و أشار إلى ذلك وزير الحربية الفرنسي في معرض رده على رسالة أرسلها له الماريشال "فالي" حيث كتب له قائلا: "... لقد تعرفنا من خلال رسالتكم المرسلة إلينا يوم 07 ماي أن الحاج أحمد باي لا يملك في الوقت الحالي موطنا يمكنه من أن ينشأ فيه قيادته ... ذلك أن الإقليم الذي كان يباشر عليه سيادته سابقا، قد انكمش بصورة لافتة للانتباه بفضل مجهودكم في فرض السيادة الفرنسية المباشرة عليه، أو بفضل تعاونكم مع ابن عيسى و فرحات بن السعيد..."[4] و بهذا نخلص إلى القول أن عائلة بوعكاز الذواودة كانت قد ساهمت إلى حد بعيد في إضعاف مقاومة الحاج أحمد باي سواء بتعاونها مع الفرنسيين، أو بحروبها التي قادها زعيمها فرحات بن السعيد ضد هذا الباي.

- **عائلة ابن جلاب**

وقفت عائلة ابن جلاب موقفا معاديا من مقاومة الحاج أحمد باي حيث باشرت عدة اتصالات مع الفرنسيين بعد احتلالهم لمدينة الجزائر العاصمة عام 1830م. و في هذا الإطار باشر سلطان

---

(1) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 81.

(2) L.Ch.Féraud : « Notes sur une collection d'Autographes arabes de L'ancien ministre de France au Maroc » op.cit, p 103.

(3) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 81.

(4) George Yver : op.cit : Lettre adressée à Valée le 17 Mai 1838, p 382.

تقرت علي بن جلاب عدة اتصالات مع "الدوق دي روفيغو" عام 1833م من أجل تحقيق هذا الغرض، و أرسل له عدة رسائل منها رسالة بعثها له رفقة ابنه ذكره فيها بالوعود التي قطعها الفرنسيون على أنفسهم خلال اتصالاته السابقة بهم و التي لم يتحقق منها الحد الأدنى، قائلا له : "... و قد انتظرنا كثيرا تحقيق هذا الوعد الذي لم يتحقق منه شيئا، و طال صبرنا، لذلك فنحن نهيب بكم مرة أخرى للقيام بخطوات عملية تحقق هذا الغرض. لقد علم الحاج أحمد باي بكل الرسائل التي ارسلناها لكم، و جهز جيشا قويا يقوده شيخ العرب بن قانة للنيل منا...". و لما توفي السلطان علي بن جلاب استخلفه ابن أخيه عبد الرحمان بن عامر على رأس المشيخة خلال الأشهر الأخيرة من عام 1833م. و عمل هذا الأخير على مواصلة النهج الذي رسمه له عمه حيث كثف اتصالاته بالفرنسيين و أطلعهم عن رغبته في التعاون معهم من أجل الإطاحة بحكم الحاج أحمد باي و السعي لبسط السيادة الفرنسية في كل الربوع.[1] ففي بداية عام 1834م أرسل سلطان تقرت رسالة إلى الجنرال الفرنسي "فوارول" "Voirol" تحمل هذا المشروع. [2]

و بعد مدة وجيزة من وصول هذه الرسالة إلى الجنرال الفرنسي، قام بمراسلة وزيره للحربية يعلمه بهذه التطورات. و جاء في هذه الرسالة " أن عبد الرحمان سلطان تقرت يبسط سلطانه حاليا على مناطق شاسعة من الجنوب الجزائري، تضم زهاء مائة و خمسين (150) مدينة و قرية، كما أنه يملك جيشا قويا يقدر تعداده 20000 فارس..."[3] و رغم عروض التعاون التي كان سلاطين تقرت يقدمونها للمسؤولين الفرنسيين و محاولة التقرب منهم، إلا أنهم كانوا دائما يتماطلون في الاستجابة لطلباتهم، و لم يقدموا لهم إجابة واضحة و حاسمة بحكم أن الفرنسيين كانوا منشغلين ببسط هيمنتهم على شمال البلاد التي يخوضون فيها حروبا لإخضاعها لذلك كانوا يكتفون بتقديم وعودا لسلاطين بن جلاب للاستفادة منهم لاحقا،[4]

---

(1) L.Ch.Féraud : « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur La province de constantine » in R.A n° 24, Année 1880, pp 298-301.

(2) Esquer Gabriel : Correspondance du général Voirol (1833-1834), Paris, Françe, 1924 : Lettre adréssée au général Voirol le 24 Février 1834, pp 428, 429.

(3) Esquer Gabriel: op.cit : Lettre adressée au ministre de la guerre le 28 Février 1834, p 435.

(4) Mouloud Gaïd : op.cit, p 102.

و بالفعل فإنهم سوف يعتمدون عليهم بشكل مركزي عندما يبسطون هيمنتهم على الجنوب القسنطيني لأنهم كثفوا من اتصالاتهم بالفرنسيين بعد سقوط مدينة قسنطينة عام 1837م، [1] مما يجعلنا نذهب إلى القول أن هذه العائلة انتصبت عدوة للمقاومة التي أعلنها الحاج أحمد باي من البداية إلى النهاية.

- **عائلة ابن قانة**

بحكم العلاقة العائلية التي كانت تربط هذه العائلة بالحاج أحمد باي، فقد آزرته في مقاومته خلال مرحلتها الأولى، غير أنها لم تبق ثابتة على هذا الموقف حيث انقلبت ضده في الفترة التي تلت سقوط مدينة قسنطينة عام 1837م. و يذكر آغا الزيبان بوعزيز بن قانة أن عائلته ساندت الباي في مقاومته منذ عودته من الجزائر عام 1830م، و كان شيخ العرب محمد بلحاج بن قانة أنذاك سنده القوي في مواجهة الصعوبات و المخاطر التي اعترضته أثناء عودته إلى عاصمة البايلك. فقد وقف إلى جانبه بقوة حينما اعترض سبيله بلقندوز المقراني في منطقة كاف تازورت في خريف 1830م، و دارت بينهما معركة ضارية أطنب بوعزيز بن قانة في وصفها و إبراز الدور الكبير الذي قام به أثناءها.[2] و عندما بلغ الباي مشارف مدينة قسنطينة، دافع فرسان شيخ العرب دفاعا مستميتا عنه إلى جانب فرسان عائلة أولاد عزالدين حينما اعترضه المتمردون و منعوه من دخول المدينة. [3]و كان شيخ العرب السند القوي للباي في تأديب القبائل التي خذلته حينما استغلت فرصة الاحتلال الفرنسي للجزائر و انهيار النظام العثماني. و في هذا الاطار تمكن الحاج أحمد باي بواسطة شيخ العرب من إعادة قبيلة السقنية إلى الطاعة بعدما طلب أعيانها من شيخ العرب

(1) L.Ch.Féraud : op.cit, p 104.
(2) Bouaziz Bengana : op.cit, pp 41, 42.
(3) Mouloud Gaïd : op.cit, p 97.

التوسط لهم لدى الباي من أجل التملص من تبعيتهم الإدارية لقائد الزمول [1] *

و يلاحظ أن علاقة الباي بهذه العائلة أخذت تضطرب في الفترة التي أعقبت عودته من الجزائر العاصمة عام 1830م، حيث ذكر بوعزيز بن قانة أنه بعد استقرار الباي بمدينة قسنطينة قام بتثبيت محمد بلحاج بن قانة في منصب شيخ العرب، و عين علي بن عيسى بايا على قسنطينة و أسند إلى نفسه منصب الباشا،[2] غير أن هذا الإجراء أثار حفيظة شيخ العرب. [3]

و بعد سقوط قسنطينة في قبضة المحتل، و توجه الباي نحو الصحراء أرسل له الفرنسيون خطابا يدعونه فيه إلى الاستسلام، و أكدوا له بأنهم سوف يعاملونه معاملة كريمة، و عندما أفصح الباي عن رغبته في التعامل مع هذا الموضوع صاح بوعزيز بن قانة قائلا:"ماذا تفعل أتريد أن تنكث عهدا ضربته على نفسك؟ ألم تقل أنك ستصطحبنا إلى الصحراء، فلا تقبل هذا الاقتراح"[4]

يبدو أن الحاج أحمد باي كان بإمكانه أن يستسلم وفقا لتلك الشروط لولا تدخل بوعزيز بن قانة الذي كان له تأثير كبير عليه، و ربما هذا ما نفهمه من قوله:" ... و ضرب الله مرة أخرى، على بصري غشاوة فأجبت المرسلين بالرفض المطلق ...". [5]

---

(1) L.Ch.Féraud : « Notes historiques sur les tribus de la province de constantine. Les Segnia» in R.S.A.C, Année 1869, p 28.

* الزمول قبيلة سكنت بالقرب من الطريق الرابط بين مدينتي باتنة و قسنطينة، و كانت هذه القبيلة من القبائل المخزنية منذ بداية العهد العثماني. و عندما أحكم الفرنسيون قبضتهم على مدينة قسنطينة عام 1837م، قدمت هذه القبيلة ولائها للإدارة الاستعمارية، فوظفتها لصالح مشروعها الاستعماري ، حيث وقفت إلى جانب الجيش الفرنسي أثناء منازلته لجيش الحاج أحمد باي،.

حول علاقة هذه القبيلة بالإدارة العثمانية و الإدارة الاستعمارية الفرنسية ينظر:

- L.Ch.Féraud : « Notes historiques sur les tribus de la province de constantine : Les Zemoul» in R.S.A.C, Constantine, Année 1869, p-p 38-60.

(2) Bouaziz Bengana, op.cit, p 49.

(3) محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص 126.

(4) محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 79.

(5) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

و يضيف الحاج أحمد باي أيضا في مذكراته أنه حينما غادر مدينة بسكرة متجها إلى وادي سوف، كاتب باي تونس ليلتمس منه نجدة أنصاره الذين انسحبوا إلى التراب التونسي، و في الوقت نفسه أذن لأتباعه بالتوجه إلى هذا البلد من أجل شراء القمح و المواد الغذائية التي نفذت بسبب الحصار الذي ضربه الفرنسيون على سكان المقاطعة. غير أن هؤلاء النازحين لم يحترموا أصول و تقاليد الضيافة و راحوا يحطمون إحدى الزوايا التي كانت تخزن فيها الحبوب و استولوا على محتوياتها. و اضطر الباي أن يعوض كاهية تونس على ذلك حيث أرسل له خمسين ألف ريال من ماله الخاص رغم أن الحاكم التونسي قد تنازل له عن هذا التعويض تقديرا لعلاقة الصداقة التي تجمع بينهما، و كذلك للظروف الإستثنائية التي كان يمر بها [1]

إن الشيء الذي يهمنا كثيرا في هذه الحادثة هو ارتباطها بعلاقة الباي بعائلة ابن قانة و بداية اضطرابها، لأن الباي في مذكراته وجه أصابع الاتهام إلى شيخ العرب بوعزيز بن قانة الذي اتهمه بأنه كان وراء هذا التصرف الشنيع حيث نصح هؤلاء النازحين بالإغارة على هذه الزاوية، و كان له في ذلك سوء النية، إذ كان يروم تأليب التونسيين ضده.[2]

و في تلك الأثناء كان بوعزيز بن قانة يباشر إتصالاته مع الفرنسيين و يطلب منهم التعاون معهم . و لم يترددوا كثيرا في الاستجابة لطلبه، لأن ذلك يمثل لهم مكسبا هاما حيث استجاب الماريشال "فالي" لطلبه.[3] و على إثر ذلك انتقل بوعزيز بن قانة إلى مدينة قسنطينة، بناء على دعوة الفرنسيين، الذين قلدوه منصب شيخ العرب.[4]

لماذا فضل بوعزيز بن قانة التخلي عن الحاج أحمد باي و التعاون مع الفرنسيين في تلك الظروف العصيبة؟ إن السبب المركزي في ذلك يكمن في أن شيخ العرب تأكد بما لا يدع مجالا للشك أن قوة الباي انهارت و وهنت، و عليه فالبقاء إلى جانبه يعني بالضرورة ضياع هيبته و انكسار مركزه السياسي و الاجتماعي،. و مهما يكن من أمر فإن ميل هذه العائلة للفرنسين يمكن أن نلخصه في سبب واحد و هو أنها " رأت مستقبلها مع الأقوى".

---

(1) محمد العربي الزبيري: المصدر نفسه، ص ص 83، 84.

(2) المصدر نفسه، ص 84.

(3) Bouaziz Bengana, op.cit, p 52.

(4) Ministere de la guerre : Tableau de la situation des établissements français dans L'Algerie, 1839, imprimerie Royale, Paris, Françe, 1840 p 2.

و بصرف النظر عن ذلك، فإن دخول عائلة ابن قانة في طاعة الفرنسيين أثر بشكل سلبي على مقاومة الحاج أحمد باي. فبالإضافة إلى أن الباي فقد أحد أعوانه، فإن هذه العائلة عضدت الجيوش الغازية في منازلتها لجيوشه. و من أمثلة ذلك أنه في عام 1840م، شن الجيش الفرنسي حملة عسكرية واسعة ضد الحراكتة، و ناصرت عائلة ابن قانة الفرنسيين في ذلك حيث كان زعيمها سي محمد الصغير بن قانة أحد أركانها إلى جانب بعض الزعماء الأهليين و قايد مدينة عنابة. و التحم الجيش الغازي مع جيش الحاج أحمد باي في منطقة وادي مسكيانة، و تمكن الحاج أحمد باي من مواجهتهم. [1]

و في نهاية عام 1843م أسند الفرنسيون القيادة العسكرية لمقاطعة قسنطينة إلى "الدوق دومال" ، فانتهج إستراتيجية محكمة للقضاء على مقاومة الحاج أحمد باي. و في هذا المنظور شن حملة عسكرية على مدينة بسكرة عام 1844م، و بعد احتلالها اتجهت أنظاره إلى جبال أولاد سلطان التي يرابط بها الحاج أحمد باي،[2] الذي كان سقيما و يلقى تعاطفا كبيرا من قبل السكان الذين فكروا في نقله و تحريره من الطوق الذي ضربه الفرنسيون عليه بمساعدة عائلة ابن قانة. و عندما بلغت هذه الأخبار مسامع شيخ العرب سارع إلى قطع الطريق أمامهم بغية منعهم من التحرك. وكان الجيش الفرنسي في تلك الأثناء يخترق تلك المناطق الجبلية، و يمارس أبشع صور الإرهاب و القتل و التنكيل في حق السكان، و قد غنم شيخ العرب بن قانة من هذه المعارك كميات معتبرة من الحبوب كان السكان يحتفظون بها في مخازن أعدت لهذا الغرض. [3]

هذا، و قد بقيت عائلة ابن قانة تطارد الحاج أحمد باي إلى أن انهارت قواه ، بل أكثر من ذلك أن بعض أفرادها فضلوا حضور مراسيم استسلامه التي كانت يوم 05 جوان 1848م. و كان الحاج أحمد باي أثناء ذلك قد لاحظ أحد أفراد هذه العائلة فغضب غضبا شديدا و تجهم وجهه، و تراجع بعض الشيء إلى الخلف، ثم ذكر القائد الفرنسي "سان جرمان" بالوعد الذي قطعه على نفسه الذي مؤداه أن الاستسلام لا يجب أن يتم بحضور الزعماء الذين خذلوه، ثم خاطبه مشيرا إلى بوعزيز بن قانة قائلا: "إن هذا الذي أمامكم، هجرني بجبن، فأبعدوه من أمامي"، [4] و أضاف الباي: "... إن أولاد ابن قانة هددوني و اتعبوني، و سيهددونكم و يتعبونكم أنتم كذلك. [5]

---

(1) عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 116.

(2) يحي بوعزيز: "أربعة حوادث في ثلاث وثائق"، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الإعلام و الثقافة بالجزائر، العدد 45، السنة 1978، ص 16.

(3) عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 124.

(4) Ernest Mercier : Histoire de constantine, op.cit, pp 523, 524.

(5) يحيى بوعزيز: موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 391.

و على إثر ذلك أمر القائد العسكري الفرنسي بإبعادهم من أمامه، ثم أمر فرقة "الصبايحية" "Spahis" * التي كانت تتشكل من ثلاثين فارسا بمرافقة الباي و التوجه به إلى مدينة بسكرة في انتظار إجراءات تسفيره إلى مدينة الجزائر العاصمة التي قضى فيها نحبه [1]

و بهذا نخلص إلى القول أن عائلة ابن قانة خدمت الباي في البداية، غير أن مواقفها تغيرت بعد سقوط مدينة قسنطينة في قبضة المحتل عام 1837م. فتعاون زعماؤها مع الفرنسيين ضد الحاج أحمد باي بحثا عن مجد تصوروا أنهم يحققونه بتحالفهم مع المحتل، و لم يراعوا في ذلك رابطة الدم التي تربطهم بهذا الباي. و لم يلجمهم عن ذلك أيضا الوازع الديني و الوطني و الأخلاقي الذي يفترض عدم التعاون مع الغزاة. على هذا النحو كان موقف هذه العائلات الكبرى الثلاثة من مقاومة الحاج أحمد باي، و قد انتصبت عدوة لمقاومته، و باشرت في سبيل ذلك جهودا فردية مضنية، كما باشرت جهودا جماعية أخرى.

ثانيا: الجهود الجماعية

بعد سقوط الجزائر العاصمة في قبضة المحتل الفرنسي عام 1830م، اهتدى زعماء العائلات المعادية للحاج أحمد باي إلى أسلوب التكتل و التحالف فيما بينهم للإطاحة بمقاومته، فقام فرحات بن السعيد و الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني رفقة بعض الزعماء الآخرين بمراسلة الحاكم العام الفرنسي أنذاك الجنرال "برتيزين" "Berthezène" عام 1831م، ملتمسين منه التقدم إلى مدينة قسنطينة قصد إخضاعها و تحطيم حكم "الطاغية" أحمد باي، غير أنه صرف عنهم النظر.[2]

---

* الصبايحية "Spahis" هي فرقة عسكرية تتشكل من عناصر جزائرية متعاونة مع الجيش الفرنسي، تنصرف مهمتها المركزية إلى مساعدة الفرنسيين على فرض "السلم و التهدئة" على حد تعبير الفرنسيين أي فرض السيطرة الاستعمارية الفرنسية على البلاد و التحكم في مقدراتها. و قد تم تأسيس هذه الفرقة بمقتضى الأمر الملكي الصادر بتاريخ 07 ديسمبر 1841م الذي أدمج هذه الفرقة في الجيش النظامي الفرنسي المعروف بـ "الجيش الإفريقي". و في شهر جويلية 1845م، صدر أمرا ملكيا ينص على تشكيل هذه الفرقة في المقاطعات الثلاثة، و يلاحظ أن الفرنسيين أنشأوا هذه الفرقة في كل مستعمراتهم. و كانت فرقة كل مستعمرة تتميز بزيها و لباسها الرسمي الذي يختلف عن زي و لباس المستعمرة الأخرى. فمثلا كان الصبايحية الجزائريين يتميزون ببرانيسهم الحمراء، بينما صبايحية المغرب الأقصى كانوا يتميزون ببرانيسهم الزرقاء الداكنة. و استمر العمل بهذه الفرقة خلال الحقبة الكولونيالية برمتها.

- حول نشاط هذه الفرقة خلال الفترة الاستعمارية ينظر:

Colonel Yves Jouin : « Gloire des Spahis », in historia magazine, n° 203, Editions Jules Tallandier, Paris, France, 1971, pp 315-320.

و ينظر كذلك:

علي خلاصي: الجيش الجزائري في العصر الحديث، دار الحضارة للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 2007، ص ص 140-145.

(1) Ernest Mercier : op.cit, p 524.

(2) L.Ch.Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Bordj-Bou-Arreridj » op.cit, p 310.

و في بداية عام 1833م، تقدم كل من سلطان تقرت زعيم عائلة ابن جلاب، و الشيخ فرحات بن السعيد الذوادي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة و الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني إلى جانب زعماء و شيوخ آخرون إلى السلطات العسكرية الفرنسية طالبين منها التعاون معهم من أجل القضاء على "الدموي" الحاج أحمد باي، و بالتالي السيطرة على مدينة قسنطينة. [1]

و تواصلت جهود هذه الجبهة من أجل تحقيق هذا الغرض. ففي عام 1834م شكل زعماء هذه الجبهة وفدا مشتركا و اتجهوا إلى الحاكم العام الفرنسي الجنرال "فوارول" "Voirol" و طلبوا منه مساعدتهم في القضاء على هذا الباي و احتلال مدينة قسنطينة. و رغم أنه استمع إليهم بروية إلا أنه لم يقدم لهم إجابة واضحة و صريحة، و حاول مراوغتهم مدعيا أنه لا يملك الصفة في الرد على انشغالهم، قائلا أن هذه المسائل تعد من صميم صلاحيات وزير الحربية.[2] و يبدو أن الحاكم العام كان يرغب في كسب الوقت حينما تصرف مع هذا الوفد بتلك الطريقة الملتوية.

و قد شجعت هذه الخطوة بعض العائلات الكبرى الأخرى أو بعض فروعها الناقمة على الباي على القيام بخطوات مماثلة تحقق هذا الغرض. و هذا الكلام ينطبق على فرع أولاد القندوز من عائلة المقراني، و كذلك على أحد شيوخ عائلة بوعكاز بن عاشور و هو دراجي بن عاشور الذي كان متضايقا كثيرا من بن عمه الشيخ أحمد بوعكاز، إضافة إلى شخصيات أخرى كانت متباغضة مع الباي. و قد اتفقت كل هذه الأطراف على ضرورة مساعدة الفرنسين و تشجيعهم على المضي قدما لاحتلال مدينة قسنطينة و تحطيم حكم الحاج أحمد باي، و وحدت كلمتها تحت شعار واحد يحمل العبارة الآتية: "أيها الفرنسيون سارعوا إلى احتلال مدينة قسنطينة و تحطيم شوكة حاكمها أحمد باي و ستجدوننا في عونكم".[3]

و في عام 1835م عين الفرنسيون الجنرال "كلوزيل" "Clauzel" حاكما عاما على الجزائر للمرة الثانية، و كانت مسألة احتلال قسنطينة و الإطاحة بحكم بايها إحدى إنشغالاته المركزية لاسيما بعد تقلده لعصا الماريشالية خلال السنة التي التحق فيها بالجزائر.
و لتحقيق هذا المشروع راح يتواصل مع الشيخ فرحات بن السعيد زعيم عائلة بوعكاز الذواودة، و بعض الزعماء الآخرين الذين كانوا يتبادلون معه الرسائل و الخطابات و يزودونه بمختلف الأخبار

---

(1) Ernest Watbled : op.cit, p 208.
(2) Mouloud Gaïd : op.cit, p 104.
(3) L.Ch.Féraud : « Les Ben-Djellab Sultans de Touggourt. Notes historiques sur la province de Constantine »in R.A n°28, Année 1884, p 124.

المتعلقة بالمنطقة، و في الوقت نفسه كانوا يشجعونه على احتلال هذه المدينة و القضاء على الحاج أحمد باي.[1]

و عموما، فإن زعماء هذه العائلات لم يكتفوا بكل هذه الجهود المبذولة لإجهاض مقاومة الحاج أحمد باي، بل تعاونوا مع أعداءه، فهل لنا معرفة ذلك؟

ثالثا: التعاون و التنسيق مع أعداء الحاج أحمد باي.

لجأ زعماء العائلات المعادية للحاج أحمد باي إلى التعاون مع أعداءه للقضاء على مقاومته. و لعل أبرزهم إبراهيم باي الكريتلي، و المملوك يوسف، و سنعرض إلى ذلك بشيء من التفصيل.

- **التعاون مع إبراهيم باي الكريتلي**

قبل التعرض إلى الاتصالات التي باشرها زعماء هذه العائلات بإبراهيم الكريتلي، يجدر بنا ابتداء تقديم لمحة موجزة عن هذه الشخصية حتى نتمكن من فهم و الربط بين الأحداث التي نسوقها. فكيف ظهر إبراهيم باي الكريتلي؟ و ما هي مبررات ظهوره؟ و كيف كانت نهايته و مصيره؟

الواقع أن ظهور هذا الباي ذو الأصول الكريتية (جزيرة كريت) ارتبط بالغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م. فما أن سقطت الجزائر العاصمة في قبضة المحتل، حتى تضاعفت آمال هذا الباي المغضوب عليه في العودة إلى حكمه بقسنطينة الذي سلب منه عام 1824م، فراح يتبع كل السبل التي توصله إلى هذا الهدف. فتارة يراسل سكان مقاطعة قسنطينة، و بالأساس سكان مدينة عنابة للانتصار لقضيته، و تارة أخرى يطلب النجدة من بايات تونس التي كانت ملاذا آمنا له حينما ضايقه الحاج أحمد باي قسنطينة و صهره محمد بن قانة، و تارة ثالثة يضم قواه إلى المناهضين للاستعمار الفرنسي.[2]

و يبدو أنه قبل التعاون مع الفرنسيين لكنه ما لبث أن شق عصا الطاعة عنهم، و راح يستنهض همم سكان مدينة عنابة و يدفع بهم إلى الثورة في وجه الغزاة، و هذا ما أكده الحاج أحمد باي في مذكراته.[3]

[1] Ernest Mercier: Les deux sièges de Constantine 1836-1837, librairie L.Poulet, Constantine 1896, p 08.

[2] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830–1900، الجزء الأول، المرجع السابق ص ص 147، 148.

[3] محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص ص 26، 27.

و أكد هذه الوقائع كذلك الجنرال الفرنسي "دي كورنوليي لوسينلبير" "De Cornilier-Lucinliere" الذي ذكر أن الفرنسيين دخلوا في مفاوضات جدية مع إبراهيم الكريتلي الذي كان معتصما بقصبة المدينة عام 1831م، و كان رافضا لكل شروط الاستسلام التي وضعها الفرنسيون،[1] و أشار كذلك حمدان بن عثمان خوجة إلى خبر احتماء إبراهيم الكريتلي بقصبة المدينة، و مغادرته لها بعد اضطراب أوضاع المدينة و انتشار الفوضى بها. [2]

و مهما يكن من أمر، فإن إبراهيم الكريتلي كان مستعدا للتعاون مع أي طرف يعيد له حكمه، و قد انتهى به الأمر إلى التعاون مرة أخرى مع الفرنسيين. و لما تمكنوا من احتلال مدينة عنابة عام 1832م و سيطروا على قصبتها، و وظفوا رجاله العارفين بخبايا المدينة في خططهم، شتتوا جمعه و سجنوا ابنه و أخذوا أفراد عائلته رهائن ثم اغتالوه عام 1834م،[3] غير أنهم كانوا يدعون البراءة من دمه و يوجهون أصابع الإتهام إلى الحاج أحمد باي قسنطينة بحجة العداء القائم بينهما.[4]

على هذا النحو كانت نهاية إبراهيم الكريتلي الذي ركب الغرور رأسه و تعاون مع الغزاة ضد أبناء وطنه. و بعد هذه النبذة عن حياته، هل لنا الآن أن نتعرف على علاقته ببعض العائلات الكبرى التي حاربت الحاج أحمد باي، و حاولت شل مقاومته؟

عندما شرع إبراهيم الكريتلي في بناء جبهته المناهضة للحاج أحمد باي قسنطينة، كانت أخبارها تستقطب الشخصيات الناقمة على الباي. و كان الشيخ فرحات بن السعيد زعيم عائلة بوعكاز الذواودة أول و أبرز الشخصيات التي اتصلت به، و عملت على تحقيق حلمه الذي أراده أن ينتهي بالقضاء على الحاج أحمد باي و احتلال مدينة قسنطينة عاصمة حكمه.[5]

و كان إبراهيم باي الكريتلي قد اتجه إلى مدينة المدية في خريف عام 1830م، و بعث بعدة رسائل إلى السكان يعلمهم فيها بأن الفرنسيين الذين أحكموا قبضتهم على مدينة عنابة في صيف عام 1830م قاموا بتعيينه بايا على مدينة قسنطينة خلفا للحاج أحمد باي. و في هذه الأثناء كان

---

[1] De Cornilier-Lucinliere : La prise de Bône et de Bougie, Paris, France, 1895, p 110.

[2] Hamdan Khodja : op.cit, p 191.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 148، 149.

[4] L.Ch.Féraud : « Documents pour servir à L'histoire de Bône », op.cit, pp 261, 262.

[5] Mouloud Gaïd : Mokrani op.cit, p 40.

الشيخ فرحات بن السعيد يتبادل الخطابات و الرسائل مع هذا الباي المزعوم، و جند له عدد غير قليل من القبائل المعادية للحاج أحمد باي التي كانت قد انتصرت لقضيته، و اتفقت على السير نحو مدينة قسنطينة قصد محاصرتها و القضاء على حكم الحاج أحمد باي. و لما علم هذا الأخير بهذه التطورات كلف محمد بلحاج بن قانة بتفريق جموعهم. و بالفعل فقد تمكن هذا الزعيم من القضاء عليهم في معركة مشيرة التي دارت رحاها في خريف عام 1830م. (1)

و يبدو أن متاعب الحاج أحمد باي مع هذه الجبهة لم تنته بانتهاء هذه المعركة، حيث واصل الشيخ فرحات بن السعيد مساعيه الحثيثة إلى جانب إبراهيم الكريتلي لإجهاض مقاومة هذا الباي الذي كان يناوش الفرنسيين الذين احتلوا مدينة عنابة التي تشكل امتدادا جغرافيا لبايلكه، و تنطوي على أهمية إستراتيجية إستثنائية. و قد أشار "الكونت دروي ديرلون" "Le Comte Drouet d'Erlon" الذي كان حاكما عاما للجزائر خلال الفترة الممتدة من 1834/05/27م إلى 1835/08/08م في إحدى التقارير التي وجهها إلى وزير الحربية الفرنسي إلى هذه المعارك.(2)

و لعل أبرز ملاحظة على هذا التقرير، أن الحاكم العام الفرنسي كان يريد أن يصور الحاج أحمد باي في صورة المقاوم الضعيف، بينما حاول أن يبرز أعداءه الذين تحالفوا معه على أنهم يحوزون على مركز قوي. و الراجح أن هذا الحاكم كان يريد مغالطة وزيره لكي يبرز له أن سياسته في الجزائر ناجحة، و أن كل خياراته سليمة.

الواقع أن هذه الجبهة التي التحمت مع قوات الحاج أحمد باي في هذه المعركة لم تكن تقتصر على الأطراف المذكورة فحسب، و إنما انضم إليها طرف فاعل من عائلة بوعكاز بن عاشور حكام فرجيوة، و يتعلق الأمر بماغورة بن عاشور. و برر "فيرو" سبب انضمامه إلى هذه الجبهة بسياسة الإقصاء التي مارسها ضده الحاج أحمد باي قبل الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م و بعدها. فقبل هذه الحملة كان الحاج أحمد باي قد نزع قيادة مشيخة فرجيوة منه و أسندها إلى ابن عمه بورنان ابن دراجي،

(1) L.Ch.Féraud : « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur La province de constantine » in R.A n° 27, Année 1883, pp 444, 445.

(2) A.O.M : F 80. 1672 : Rapport du Comte Drouet d'Erlon gouverneur général des possessions Françaises dans le nord de l'Afrique adressé au ministre de La guerre, S.D.

وأدى هذا الإجراء إلى تأزم العلاقات بينهما، كما أدى إلى تمرد ماغورة على سلطة الباي. [1]

بهذا يتبين لنا أن زعماء بعض العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة وقفوا وراء إبراهيم باي الكريتلي من أجل الإطاحة بالحاج أحمد باي و إجهاض مقاومته التي أعلنها في وجه المحتل الفرنسي، و رغم النهاية المأساوية التي آل إليها مصير هذا الباي المزعوم، إلا أن ذلك لم يلجمهم من التعاون مع أي عدو آخر للباي علهم يحققوا مبتغاهم، فالتفوا حول المملوك يوسف.

- **التعاون مع المملوك يوسف.** *

قبل التطرق إلى اتصال هذه الجبهة بهذا المملوك، نرى من الجائز أن نسوق لمحة موجزة عن ظروف التحاق هذا المغامر بالجيش الفرنسي و المواقف المختلفة منه، و المسؤوليات المناطة له.

كان المملوك يوسف من المقربين إلى الكونت "كلوزيل" أيام حكمه للجزائر خلال عهدته الأولى عام 1830م، و لولا هذا الحاكم العام لأفل نجمه حيث جعله مترجمه الخاص.[2] و عندما عين "كلوزيل" كحاكم عام على الجزائر للمرة الثانية عام 1835م، انتعشت حظوظ هذا المغامر في تقلد المسؤوليات داخل الجيش الفرنسي، حيث قام هذا الماريشال بإزاحة حاكم مدينة عنابة العسكري "مونك ديزر" "Monk d'uzer" و تعويضه بهذا المغامر. [3] الذي كان سيء السمعة في الأوساط السياسية و العسكرية الفرنسية لأنه كان منحرفا أخلاقيا.[4]

من المتصور أن القيادة الفرنسية لم تكن تبغض المملوك يوسف بسبب سوء أخلاقه، و إنما بسبب الثروة التي حققها بغير وجه حق. فالجزائر كانت زمنئذ تشكل قبلة للعسكريين الفرنسيين الحالمين بالثروة و الكسب غير المشروع. و ليس أدل على ذلك من أن هذا المملوك أسس شركة تجارية بذمة مالية يتشكل وعاءها من أموال "المتمردين".[5]

---

[1] L.Ch.Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur La province de constantine », op.cit, p 23.

* حول المملوك يوسف و الخدمات التي قدمها للفرنسيين ينظر:

- Marcel Emerit : « Le mystère de yusuf » in, R.A n° 96, Année 1952, pp 385-399.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 39.

[3] Ernest Mercier : Les deux sièges de Constantine (1836-1837) op.cit, p 8.

[4] Charles-André Julien :op.cit, p 132.

[5] المهدي البوعبدلي: "لمحات من تاريخ بونة الثقافي و السياسي، و دور بعض علمائها عبر التاريخ" محاضرات و مناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، 10-19 يوليو 1976م، مدينة عنابة، المجلد الأول، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1976، ص 61.

و كان صديقه "كلوزيل " لا يفوت فرصة إلا و دافع فيها عنه في مختلف مراسلاته. [1]

و مهما يكن من أمر فإن حياة المملوك يوسف و نشاطه داخل الجيش الفرنسي، لاتهمنا كثيرا في هذا السياق، فالذي يهمنا أن هذا المغامر كان يتصل بسكان المقاطعة ويغالطهم، ويطلب منهم الانتصار لقضيته التي تستهدف القضاء على حكم الفرنسيين وحكم الحاج أحمد باي على حد سواء. وحتى يستقطب قلوب الناس فقد تظاهر باعتناقه الإسلام وهذا ما أكده الحاج أحمد باي في مذكراته.[2]

والأصل أن هذه الأفكار استهوت بعض المغامرين على شاكلته لا سيما أولئك الذين كانت عاطفتهم الوطنية والدينية فاترة، كما استهوت بعض المنبوذين والمغضوب عليهم في عهد الحاج أحمد باي، ويضاف إليهم بعض ضعفاء النفوس الذين كان لهم استعداد كبير للتواصل مع الاستعمار مقابل مكاسب هزيلة. ومن زعماء العائلات الذين تواصلوا مع هذا المغامر نجد الشيح فرحات بن السعيد زعيم عائلة بوعكاز الذواودة، والشيخ ماغورة بن عاشور، أحد الوجوه البارزة من عائلة بوعكاز بن عاشور. وكذلك الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني زعيم فرع أولاد عبد السلام من عائلة المقراني.

و الحقيقة أن جهود زعماء هذه العائلات واتصالاتهم بالفرنسيين تكثفت خاصة خلال الفترة الممتدة ما بين عام 1833م وعام 1836م. و كان الشيخ فرحات بن السعيد الذوادي رائدا في ذلك حيث عمل على تشجيع الفرنسيين بهدف الاستيلاء على مدينة قسنطينة والقضاء على الحاج أحمد باي، حيث أرسل ابن أخيه الشريف إلى الفرنسيين الذين كانوا يسيطرون على مدينة عنابة إذ ذاك، لكي يزودهم بكل المعلومات الضرورية التي تساعدهم على التقدم نحو قسنطينة، وعلى إثر استقرار الشريف بوعكاز الذوادي في مدينة عنابة، تمتنت علاقته بالفرنسيين و المملوك يوسف الذي لعب دورا حاسما في الإعداد للحملة الفرنسية الأولى على مدينة قسنطينة عام 1836م. [3]

[1] Gabriel Esquer : Correspondance du Maréchal Clauzel, gouverneur général des possessions Françaises dans le nord de L'Afrique (1835-1837) Tome I, Editions Larose, Paris, France, 1948 : Lettre adressée au ministre de la guerre le 27 décembre 1835, p 387.

[2] محمد العربي الزبيري: المصدر السابق، ص 41.

[3] L.Ch.Féraud : « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A N° 28, Année 1884, P 124.

على إثر تعيين هذا المملوك بايا على مقاطعة قسنطينة، سارع إليه العديد من الزعماء والشخصيات عارضين عليه خدماتهم، وفي الوقت نفسه كانوا يشجعونه على القيام بعمل عسكري ضد الحاج أحمد باي، ومن ثمة السيطرة على مدينة قسنطينة، ولم يكن هؤلاء إلا من الناقمين على الباي. [1] و كان هؤلاء الشيوخ وزعماء بعض العائلات الكبرى مصحوبين بشخصيات أخرى قدمت كذلك ولاءها للمملوك يوسف، و عبر الجميع على استعدادهم الكامل للتعاون معه من أجل إنجاح كل عمل عسكري يستهدف القضاء على حكم الحاج أحمد باي واحتلال عاصمة حكمه مدينة قسنطينة.[2] و أشار محمد الصالح العنتري أيضا إلى ذلك حينما تكلم عما أسماه بـ "أكابر وطن قسنطينة" الذين راسلوا المملوك يوسف.[3]

و كان المملوك يوسف قد لاحظ الحماس الشديد الذي كانت تشعر به هذه الجماعة، كما لمس أيضا درجة الضغينة والكراهية التي تكنها للحاج أحمد باي حيث كتب له أحدهم خطابا أكد له فيه بأنه سيعضده بقوة كبيرة إذا أراد السير نحو مدينة قسنطينة لتحطيم شوكة الحاج أحمد باي، وكعادة الزعماء الأهليين أنذاك في تعاملهم مع مثل هذه المواقف، فقد أحاطه علما بأنه سيرسل له ابنه لكي يحتجزه رهينة لديه حتى يتأكد من حسن نيته و يصدق كلامه.[4] و الحقيقة أن هذه الجماعة لم تطمئن إلى المملوك يوسف فرفضت مواصلة التعامل معه [5] و أكد هذا الخبر الجنرال "دامريمون" الذي كان حينها يباشر مهام الحاكم العام للجزائر، حيث كتب إلى وزيره قائلا: "...أن الذين انخرطوا في جيشنا، و منحناهم الثقة الكاملة، و قلدناهم رتبة ضابط في الجيش الإفريقي، إنفضوا من حولنا يوم 28 أوت الفارط، و تخلوا عن القضية الفرنسية...".[6] و قد إدعى الفرنسيون أن سبب مغادرة هذه الجماعة للجيش الفرنسي يعود إلى المعاملة المشينة التي كان يعاملهم بها المملوك يوسف، إذ كان يعاملهم على "الطريقة التركية". أما المدعى عليه فكان ينفي كل هذه التهم و يقول أن هذه الجماعة بترت صلتها به بسبب تلكؤ

(1) Ernest Mercier : op.cit, P 8.
(2) L.Ch.Féraud : « Document pour servir à l'histoire de Bône » op.cit, pp 242, 243.
(3) محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص 133.
(4) L.Ch.Féraud : op.cit, P 243.
(5) Ernest Watbled : op.cit, pp 261, 262.
(6) A.O.M : F 80. 1672 : Rapport du Comte Damrémont gouverneur général des possessions Françaises dans le nord de l'Afrique adressé au ministre de La guerre, Fevrier, 1837.

الإدارة الفرنسية عن شن حملة عسكرية ضد مدينة قسنطينة. [1] و الحقيقة أن الرأيين يجوز فيهما النظر، فلا إدعاءات الفرنسيين صحيحة، و لا دفوعات المملوك يوسف مؤسسة، لأن الفرنسيين كانوا حينئذ حاقدين عليه و يرومون الإطاحة به، كما أن هذا المملوك من جهته كان يرغب في مهاجمة المسؤولين في الإدارة الفرنسية الذين كانوا يحملونه المسؤولية التقصيرية تجاه كل مزالقهم في الجزائر، و هذا مؤشر على أن الساسة الفرنسيون كانوا في ذلك الحين متباغضين إلى أبعد الحدود، و لم يكن يوحدهم إلا موضوعا واحدا هو الوضع في الجزائر و كيفية السيطرة عليها.

و في ختام حديثنا عن بداية علاقة الإدارة الاستعمارية بالعائلات الكبرى و انعكاساتها على المقاومة الوطنية بقيادة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي، نقول أنه بالرغم من أن هذه العلاقة تعود إلى عام 1830م تاريخ الحملة الفرنسية على الجزائر، إلا أنها كانت سطحية في البداية، حيث اقتصرت على بعض الزعماء الذين كانت علاقتهم متباغضة مع الحاج أحمد باي. و على هذا الأساس فإن اتصالهم المبكر بالفرنسيين يمكن أن يفسر على أنه انتقام من هذا الباي. غير أن هذه العلاقة تطورت فيما بعد خاصة بعد صدور مرسوم الماريشال "فالي" عام 1838م، الذي قننها و أضفى عليها صبغة رسمية. و تبعا لذلك دخلت هذه العائلات في خدمة المستعمر الذي كان حينئذ يحارب المقاومة الوطنية و روادها و خاصة الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي. و قد عضدته في ذلك هذه العائلات، و بهذا يكون هذا المرسوم قد أحدث فجوة سحيقة بين هذه العائلات و رائدي المقاومة الوطنية، وكان أيضا امتحانا عسيرا لهذه العائلات، و للقادة الجزائريين بصفة عامة الذين كانوا مخيرين بين الولاء لفرنسا أو الانتصار للقضية الجزائرية بقيادة هذين الرائدين. فهل الذين تخلوا عنهما و انضموا إلى المعسكر الفرنسي هم قادة و أعيان حقيقيون و صفوة المجتمع الجزائري؟ أم ينسحب عليهم رأي المؤرخ الفرنسي " كاميل روسي" "C.Rousset " الذي قال: " ... أن الفرنسيين وجدوا صعوبات حقيقية عندما طفقوا يبحثون عن القادة و الأعيان الذين يتعاونون معهم، لأن القادة الحقيقيين انضموا إلى الأمير عبد القادر الذي فضلهم و فضلوه، و لم يبق للفرنسيين إلا المغضوب عليهم الذين لفظهم مجتمعهم و تبرأ منهم... "؟ [2]

و الأهم من هذا كله أن مرسوم الماريشال "فالي" كان إحدى الآليات الاستعمارية التي نظر و خطط لها الفرنسيون بعناية فائقة و نفذها هذا الماريشال للتأسيس لحكم المستعمر و التمكين له و القضاء على المقاومة الوطنية كما سنعرف في الفصل الموالي من هذه الدراسة.

---

(1) L.Ch.Féraud: op.cit, p 248.

(2) Camille Rousset : La conquête de L'Algérie (1841-1857), Tome I, 3ème édition, éditeur libraire, Plon Nourrit et Cie, Paris, France, 1904, p 284.

الفصل الثالث : دور العائلات الكبرى في التمكين للإدارة الاستعمارية

IV- الدور العسكري

1- دور عائلة المقراني

2- دور عائلة بوعكاز بن عاشور

3- دور عائلة أولاد عز الدين

4- دور عائلة الرزقي

5- دور عائلة ابن قانة

6- دور عائلة بوعكاز الذواودة

7- دور عائلة ابن جلاب

V- الدور الضريبي

1- دور عائلة المقراني

2- دور عائلة بوعكاز بن عاشور

3- دور عائلة أولاد عز الدين

4- دور عائلة الرزقي

5- دور عائلة ابن قانة

6- دور عائلة بوعكاز الذواودة

7- دور عائلة ابن جلاب

VI- المساهمة في التصدي للأخطار الخارجية و حماية الحدود الشرقية للجزائر و دعم جيوش فرنسا و مصالحها في الخارج

1- المساهمة في محاربة ثوار بلدان الجوار

أ- محاربة الثائر الطرابلسي غومة المحمودي (1841م – 1858م)

ب- محاربة الثائر التونسي علي بن غداهم عام 1864 م

2- المساهمة في حماية و مراقبة الحدود الشرقية للجزائر

3- دعم مصالح فرنسا و جيوشها في الخارج.

الفصل الثالث : دور العائلات الكبرى في التمكين للإدارة الاستعمارية

عندما عين الفرنسيون القادة الأهليين الجزائريين على رأس المناطق المسندة لهم اعتبارا من عام 1838 م تاريخ صدور مرسوم الماريشال « فالي » عملوا منذ الوهلة الأولى على توظيفهم و الاستعانة بخدماتهم في السيطرة على المناطق التي لم يتمكنوا من احتلالها، فانكب هؤلاء القادة على خدمة المستعمر و التمكين له و إخضاع السكان لإرادة الفرنسيين، و قدموا خدمات جليلة لهم، حيث رافقوهم في مختلف الحملات العسكرية التي كانت تشن ضد السكان الرافضين للوجود الاستعماري، و ترجموا إرادة المستعمر في قمعهم، و كانوا أيضا يمثلون عيون المستعمر الساهرة على الأمن الاستعماري على مستوى القيادات التي كانوا يسطون عليها حكمهم، إذ كانوا يرصدون كل حركات السكان و القبائل، و يعلمون السلطات الاستعمارية بكل ما يحدث على مستوى قياداتهم، و كانوا بالموازاة مع ذلك مخلصين و أوفياء في عملية جباية الضرائب التي كانت تفرض ظلما و عدوانا على السكان، و لعبوا دورا محوريا في دفع السكان و القبائل إلى الإذعان إلى إرادة السلطة الاستعمارية التي تجبر السكان على دفعها لهؤلاء القادة الأهليين، و الذين هم بدورهم يحولونها دون إبطاء إلى الخزينة الفرنسية.

و لم يكتف هؤلاء القادة بهذه المهام فحسب، بل قدموا خدمات أخرى للفرنسيين الذين كانوا في أمس الحاجة إليها في تلك الفترة العصيبة، حيث كانوا يراقبون الحدود الشرقية للبلاد، و يسهرون على حمايتها خدمة للمصلحة الاستعمارية، كما تصدوا بقوة للأخطار و ثورات بلدان الجوار التي امتد لهيبها إلى تراب مقاطعة قسنطينة، و آزروا و دعموا جيوش فرنسا و مصالحها في الخارج.

فما هو الدور الذي لعبه قادة هذه العائلات في التمكين للمستعمر الفرنسي؟ و ما هي مظاهر هذا الدعم ؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عنه و تفصيله و مناقشته من خلال أمثلة و وقائع في ثنايا هذا الفصل.

I- الدور العسكري

عضد زعماء العائلات الكبرى الجيوش الفرنسية في حملاتهم العسكرية التي شنوها ضد السكان و سائر القبائل الثائرة بحكم معرفتهم العميقة بطبائع السكان و جغرافية المنطقة، و عملوا على مراقبة كل تحركات السكان، و تخابروا لصالح المحتل لأنهم كانوا يمثلون أعين الإدارة الاستعمارية،

و تنافسوافي تقديم كل خدمة من شأنها أن تسهل عملية الاحتلال. و في ما يلي نسوق أمثلة عن مساهمة هذه العائلات في هذا المجال.

1- دور عائلة المقراني

كانت عائلة المقراني في طليعة العائلات الكبرى التي خدمت الإدارة الاستعمارية في هذا المجال، فقد رافق زعيمها الخليفة أحمد المقراني الجنرال « غالبوا » « Galbois » الذي كان يشغل منصب القائد الأعلى للقوات العسكرية الفرنسية في مقاطعة قسنطينة أثناء مهمته العسكرية الاستطلاعية التي قادته إلى مدينة سطيف خلال شهر ماي من عام 1839م. و كان هذا الخليفة مرفوقا بفرقة من « القوم » « Goum » * التابعة له، إضافة إلى عدة قبائل أخرى أعلنت ولائها للإدارة الاستعمارية. و كانت هذه الخدمة التي قدمها الخليفة للفرنسيين سببا في حصوله على مزيد من الحظوة و التبجيل لدى الفرنسيين. و بالموازاة مع ذلك ازدادت شهرته بين السكان و القبائل المنضوية تحت قيادته، و ذلك بفعل الصدى الواسع الذي تركته هذه المهمة التي قام بها هذا القائد الأعلى للمنطقة [1].

* القوم فرسان من الأهالي مدربون عسكريا و بارعون في ركوب الخيل، و يمثلون القوة الرئيسة لرؤساء الأهالي، حيث كانوا يأتمرون بأوامرهم و يخضعون لتوجيهاتهم. و قد استحدث الفرنسيون هذه الفرقة في بداية الاحتلال لتعضد رؤساء الأهالي و تساعدهم على إحكام قبضتهم على السكان.

و يبدو أن الفرنسيين حافظوا على هذه الفرقة و حرصوا على استمرارية وجودها رغم تخليهم عن خدمات العائلات الكبرى حيث استمر العمل بها خلال القرن العشرين، إلا أنهم أعادوا تنظيمها و هيكلتها. و كان يشترط في كل فارس يريد الانخراط في صفوف هذه الفرقة أن يكون عمره يتراوح ما بين 16 سنة و 40 سنة، و أن يكون مالكا لفرس أصيل. و قبل أن يباشر مهامه في هذه الفرقة كان الفارس ملزما بأداء اليمين و القسم بالوفاء لفرنسا. و تدوم مدة خدمته في هذه الفرقة ثلاث سنوات قابلة للتجديد. و في مقابل عمله داخل هذه الفرقة تمنح له عدة امتيازات تتمثل خاصة في حصوله على قطعة أرضية تتراوح مساحتها ما بين 15 و 18 هكتارا. حول هذه الفرقة ينظر:

Jean Aucoutirier : « L'armée d'Afrique », in historia Magazine, spécial n° 486, Année 1987,P87

[1] L .Rinn :op.cit,pp 23, 24

و في 28 أكتوبر 1839م، اجتازت القوات الفرنسية مضيق أبواب الحديد، و هو المضيق الذي كان خاضعا لنفوذ عائلة المقراني[1]. و كانت هذه القوات تحت قيادة الماريشال « فالي » و الدوق دورليان *« Le duc d'orleans ». هذا الأخير الذي تحفظ كثيرا على المشاركة في هذه الحملة بسبب « سمو ضميره » و لأنه كان يدرك أيضا أن اختراق الفرنسيين لهذا المضيق يعني استفزازا للأمير عبد القادر و اغتصابا لمعاهدة التافنة التي كانت تنص على أن هذه المنطقة تشكل امتداد لسيادة دولته.[2]

و أثناء مرور هذه الحملة بالمناطق الخاضعة لنفوذه، قام الخليفة أحمد المقراني بلعب دور المخبر لصالح القوات الفرنسية، [3] و بذل جهودا كبيرة من أجل توفير الأمن لها، حيث استأجر عدة مرشدين و أعوان عضدوا الجيش الفرنسي، كما جند عدة فرسان آخرين حرصوا على توفير الأمن لهذه القوات و عدم عرقلة مرورها بهذا المضيق الذائع الصيت، و الأكثر من ذلك أنه صرف أموالا طائلة و وزعها على بعض القبائل لإقناعها بعدم التعرض للفرنسيين بسوء أثناء مرورها بأراضيهم [4] و رغم ذلك اعترض سكان المنطقة القوات الفرنسية و طلبوا منها دفع ضريبة المرور التي كان الحكام العثمانيون يدفعونها لهم في السابق مقابل السماح لهم باجتياز هذا المضيق، غير أن الخليفة أحمد المقراني تدخل لصالح الفرنسيين و قام بدفعها لهم من ماله الخاص حتى يضمن مرور القوات الفرنسية بسلام. [5]

(1) Charles-André Julien :op.cit,P151

* الدوق دورليان هو الابن الرابع للملك الفرنسي لويس فيليب توفي عام 1843م عن سن مبكرة إثر حادث عارض. حول ذلك ينظر:

Jean Dautry : Histoire de La Révolution de 1848 en France, Editions Hier et Aujourd'hui, Paris, France, 1948, pp 57,58.

(2) Kateb yacine : Abdelkader et L'indépendance algérienne, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1983, p 25.

(3) Henri Garrot : Histoire générale de L'Algérie, Paris, France, 1910, pp 824, 825.

(4) أديب حرب: المرجع السابق، ص 165.

(5) L.ch.Féraud : « Histoire des villes de Constantine : Bordj bou Arrérij », op.cit, p 248.

و لم يكتف بتقديم هذه الخدمات فحسب، بل سعى أيضا إلى تزويد الفرنسيين بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية حول المسمى أحمد بن عمر خليفة الأمير عبد القادر الذي كان يسعى لاعتراض سبيلهم.[1]

و بهدف تأمين الطريق الرابط بين مدينتي سطيف و برج بوعريريج، و تدعيم مركز الخليفة أحمد المقراني، أنشأت الإدارة الاستعمارية مركز عين الترك العسكري غرب مدينة سطيف في مطلع عام 1840م، غير أنها تراجعت عن هذه الفكرة بسبب قيام سكان منطقة الحروش قرب مدينة سكيكدة بمهاجمة مراكز الفرنسيين، و تبعا لذلك تخوفت الإدارة الفرنسية من أن تؤدي تلك العمليات إلى قطع الطريق بين مدينتي قسنطينة و المدن الساحلية شمالا، فقررت إخلاء هذا المعسكر، غير أنها انتقمت من السكان انتقاما ارعن، فخربت ممتلكاتهم و دمرت مزارعهم و كل ما ملكت أياديهم، و وجهت لهم تهمة التخابر لصالح الأمير عبد القادر و مساندته بالمنطقة. و بالموازاة مع ذلك كان الخليفة أحمد المقراني يقوم بمجهودات بالغة الأهمية لتزويد الفرنسيين بمعلومات دقيقة حول أحمد بن عمر خليفة الأمير عبد القادر الذي كان يسعى بكل ما أوتي من قوة لمقارعتهم. بهذه المناطق.[2]

هذا، و قد واصل الخليفة أحمد المقراني مضايقة أعداء فرنسا بالمنطقة و بالأساس خلفاء الأمير عبد القادر و على رأسهم الحسين بن عزوز بالمسيلة الذي عمل على استرجاع هذه المنطقة حينما ألحقها الفرنسيون بالخليفة أحمد المقراني، حيت أشاع بين السكان أخبارا مؤداها أن الأمير عبد القادر قام بعزله، ثم جدد رضاه عليه، غير أن السكان لم يثقوا في أقواله، فألقوا عليه القبض، و سلموه إلى الخليفة أحمد المقراني الذي سلمه هو الآخر و دون إبطاء إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية التي أودعته السجن بمدينة قسنطينة، ثم قامت بنفيه إلى جزيرة القديسة مارغاريت عام 1841م.[3]

و خلال عام 1843م عضد الخليفة أحمد المقراني الجنرال «سيلاغ» « Sillegue » أثناء رحلته الاستطلاعية التي قادته إلى مدينة بوسعادة، فعمل الخليفة أحمد المقراني على تجنيد سكان المناطق المجاورة لاستقباله حيث تقدم له وجهاء و أعيان أولاد نايل عارضين خدماتهم و مبدين استعدادهم للتعاون مع الفرنسيين[4]

(1) L.ch.Féraud : « Histoire des villes de Constantine : Sétif », op.cit, pp 99,100
(2) Ibid :pp 107,108
(3) L.ch.Féraud : »Les ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur La province de Constantine », in R.A n° 28, Année 1884, pp 327,328.
(4)Mouloud Gaid :Mokrani, op.cit, p 52.

و ذكر البارون «هنري أوكابيتين » « H.Aucapitaine » أن سكان هذه المناطق استقبلوه استقبالا حارا و متميزا [1] و هو الأمر الذي أثلج صدره، فشكر الخليفة أحمد المقراني على دوره الإيجابي في خدمة المشروع الكولونيالي بالمنطقة، فارتفعت معنوياته و ازدادت ثقته في نفسه لاسيما و أن مكانته أخذت تتخلخل في عيون مسؤوليه المباشرين وأعدائه على حد سواء[2]. و يبدو أن الفرنسيين كانوا يدركون جيدا الدورالبارز الذي كان يلعبه هذا الخليفة لصالحهم، لذلك فقد كان ضمن أعيان مقاطعة قسنطينة الذين كرمهم « الدوق دومال » « Le Duc d'Aumale » في العاصمة الفرنسية باريس عام 1844م[3] كما منحه الملك الفرنسي« لويس فليب »رتبة ضابط فرقة الشرف[4] *.

و خلال شهر ماي من عام 1847م باشر الماريشال « بيجو » « Bugeaud » حملة عسكرية واسعة على إقليم وادي الساحل، و قام بإخضاع قبيلة بني عباس الثائرة، و فرض عليها ضريبة سنوية قدرت بـ 50.000 فرنك فرنسي، و ألحقها بقيادة مجانة التي كان على رأسها لخضر المقراني و هو نجل الخليفة أحمد المقراني، فعمل على خدمة إدارة الماريشال بيجو و أخلص إليها إخلاصا كبيرا يضاهي إخلاص والده.[5]

و الثابت أن تلك الخدمات كانت تنصرف بالأساس إلى إخضاع السكان، و نتيجة لذلك، فقد قلده الفرنسيون هو الآخر وسام فرقة الشرف عام 1851م، و شارك لخضر المقراني في العديد من الحملات العسكرية التي شنها الجيش الفرنسي ضد السكان الثائرين و الرافضين للوجود الفرنسي، و كان دوره بارزا عام 1857م حينما أجبر عدة قبائل في منطقة جرجرة على الاستسلام و طلب الأمان.[6]

[1] Le Baron Henri Au capitaine : « Notice sur Bousaada », in , R.A n° 06, Année 1862, p 59

[2] Mouloud Gaïd: op.cit, p 52

[3] محمد الصالح العنتري : المصدر السابق، ص ص ، 62،16.

[4] صالح فركوس : المرجع السابق، ص 384.

* فرقة الشرف، فرقة عسكرية فرنسية أنشئت على يد نابليون بونابرت عام 1802م .

حول ذلك ينظر:

- Petit dictionnaire Français, librairie larousse, Paris, France, 1978, p 721

[5] Mouloud Gaïd : Histoire de Bejaïa et de sa région depuis L'antiquité jusqu'à 1954, Editions Mimouni, Alger, Algérie, 1991, p 155.

[6] L.Ch Féraud : « Histoire des villes de Constantine : Bordj-bouarririj », op. cit, pp 320,321.

و في عام 1852م، زار الحاكم العام الفرنسي الجنرال « راندون » « Randon » مدينة سطيف فاستقبله، الخليفة أحمد المقراني، فكرمه هذا الحاكم العام مقابل الخدمات التي قدمها للفرنسيين حيث دنا منه و ركب إلى جانبه أمام عيون الضباط الفرنسيين و السكان.[1]

و في عام 1861 كرم الفرنسيون الباشاغا محمد المقراني و هو نجل الخليفة السابق أحمد المقراني، و منحوه أيضا رتبة ضابط فرقة الشرف [2] مثلما منحوها لوالده سابقا، كما وجهوا له دعوة في السنة الموالية أي عام 1862م لحضور مراسم حفل الصيد الذي أقيم بقصر « كومبيين » « Compiegne » بالعاصمة الفرنسية باريس.[3] و على هذا الأساس يمكن القول أن الفرنسيين كانوا يدركون جيدا قيمة الخدمات التي كانت تقدمها عائلة المقراني لهم، لذلك كانوا يغدقون على زعمائها بهذه التكريمات حتى يضمنون استمرارية ولائها، و بالتالي استمرارية نجاح المشروع الكولونيالي.

2– دور عائلة بوعكاز بن عاشور

عملت عائلة بوعكاز بن عاشور التي كان على رأسها الشيخ أحمد بوعكاز، على تمكين الفرنسيين و دعمهم و إخضاع السكان و القبائل للسلطة الاستعمارية على مستوى قيادتها. و من صور ذلك أن الشيخ أحمد بوعكاز عضد القوات الفرنسية التي قادها الجنرال « غالبوا » أثناء المهمة الاستكشافية التي باشرتها للتعرف و استكشاف الطريق الجبلي المؤدي إلى مدينة سطيف عبر المنطقة الأثرية بجميلة خلال شهر ديسمبر عام 1838م. و قد كانت المهمة شاقة و صعبة و محفوفة بالمخاطر بسبب تضاريسها الوعرة و طريقها الجبلي، و كذا الظروف المناخية القاسية التي تميزت بتهاطل الأمطار و الثلوج. و الأخطر من ذلك أن سكان هذه المناطق كانوا يترصدون مرور القوات الفرنسية من أجل اعتراض سبيلها ومحاربتها، غير أن الشيخ أحمد بوعكاز تمكن بواسطة تأثيره و نفوذه أن يجنب هذه القوات مخاطر هذه الاعتداءات. و كان زعيم فرجيوة يؤكد للفرنسيين بأن قواتهم لن تمس بسوء، طالما كان موجودا إلى جانبهم، حيث حدث الجنرال « غالبوا »قائلا له:

[1] يحيى بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني و الحداد)، المرجع السابق، ص 57.

[2] Mouloud Gaid : op.cit, p 63

[3] Annie Rey-Goldzeiguer : Le Royaume Arabe, La politique Algérienne de Napolean III 1861-1870, E.N.A.G Editions, Alger, Algérie, 2010, P 183.

« .. بإمكانكم إعطاء الأمر إلى فرقة الرماة التابعة لجيشكم التي تؤمن لكم الطريق بالعودة إلى الديار، تأكدوا أنه إذا وطأت أقدامكم إقليمنا، فلا أحد يمكنه أن يمسكم بأذى، و أنه لن تطلق رصاصة من أية بندقية، لأننا سنعمل على توفير الأمن لكم، و أعلموا أن كلمتنا مسموعة لدى عموم السكان، و أنني المسؤول الأول على هذا الإقليم... ». و فعلا، فقد التزم الشيخ أحمد بوعكاز بكل وعوده، حيث رافق الحملة الفرنسية شخصيا رفقة قواته إلى أن مرت بسلام و ابتعدت عن إقليمه.[1]

و قد اعترف الفرنسيون بالجهود الكبيرة التي بذلها الشيخ أحمد بوعكاز أثناء مرور قواتهم بهذه المنطقة الجبلية. فبالرغم من احترازهم الشديد و الاستنفار الكبير الذي أبدته الكتيبة الثالثة للجيش الفرنسي، المعروف بالجيش الإفريقي، إلا أن ذلك لم يجنبهم متاعب السكان الذين كانوا يسعون للانقضاض عليهم، و أثناء ذلك كان شيخ فرجيوة يتصدى لهم بقوة و حزم و يفرق جموعهم [2]

و عندما بدأت القوات الفرنسية رحلتها الشهيرة المعروفة برحلة الأبواب الحديدية في شهر أكتوبر من عام 1839م بقيادة الماريشال « فالي » و ابن الملك الفرنسي « الدوق دورليان » استقبلها الشيخ أحمد بوعكاز في معسكر بني قشة موجها التحية لهذا الدوق و للمارشال « فالي »، و كانت فرصة ملائمة لتقليده برنوس التولية. و قد عمل شيخ فرجيوة على توفير الأمن لهذه القوات حيث كان مرفوقا بمائة و خمسين فارسا، و رافق هذه القوات حتى بلغت قرية جميلة الأثرية الواقعة شمال مدينة سطيف، بعدها تعهد بتوفير الأمن للقوات الفرنسية التي تستعمل الطريق الرابط بين مدينتي قسنطينة و سطيف مرورا بمدينة ميلة. و قد التزم شيخ فرجيوة بالعهد الذي قطعه على نفسه، فمنذ ذلك الوقت لم يلحق أي أذى لا بالأشخاص و لا بالممتلكات الفرنسية التي كانت تستعمل ذلك الطريق، و إذا حدث و أن لحق مكروه بالفرنسيين عبر هذا الطريق، و سلبت منهم بعض أغراضهم، فإن الشيخ أحمد بوعكاز يتولى مهمة البحث عن المعتدين و عندما يعثر على تلك الأغراض، فإنه يرجعها دون تمهل إلى أصحابها، و كان يتابع تلك العملية باهتمام و دقة شديدتين.[3]

[1] L.ch.Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques Sur la province de Constantine » op.cit, pp 93,94

[2] L.ch.Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Setif » op.cit, p 96

[3] L.ch.Féraud : « Ferdjioua et zouara.Notes historiques. Sur la province de Constantine » op.cit, p 96.

و تجدر الإشارة إلى أن إقليم فرجيوة كان من الناحية النظرية يخضع إلى الإشراف المباشر إلى الخليفة بلحملاوي الذي كلفه الفرنسيون بهذه المهمة، غير أنهم كانوا يتوجسون منه و يتهمونه بالضعف و لم يطمأنوا له، و قد أكدت رحلة الأبواب الحديدية هذه التخوفات. و في مقابل ذلك ازدادت هيبة الشيخ أحمد بوعكاز الذي نظروا إليه على أنه وحده دون سواه سيد هذه المنطقة و لا ينازعه فيها منازع.[1]

و لم يدخر شيخ فرجيوة جهدا من أجل التمكين للفرنسيين، و يذكر « فيرو » أنه خلال أربعينات القرن 19م، لعب دورا محوريا في دفع العديد من زعماء القبائل إلى الاستسلام و طلب الأمان في مناطق وادي الساحل و عموشة و منهم المسمى عمار بن عبيد و آخرون كانوا كلهم يناصبون العداء الشديد للإدارة الاستعمارية [2]

و الواقع أن هذه المجهودات المبذولة من جانب الشيخ أحمد بوعكاز كانت تثلج صدور القيادة الفرنسية و المسؤولين العسكريين الفرنسيين. و قد أشار « فايسات » « vayssettes » إلى ذلك حيث ذكر أن الماريشال « سانت أرنو » كان يشيد في مختلف تقاريره و رسائله التي كان يوجهها إلى مسؤوليه بالمجهودات الكبيرة التي كان يقوم بها هذا الشيخ في سبيل إخضاع سكان هذه المناطق الجبلية و دفعهم إلى الإذعان للسلطة الاستعمارية لاسيما و أنهم درجوا على الثورة و رفض المستعمر و مشاريعه الاستعمارية.[3]

و يبدو أن الشيخ أحمد بوعكاز كان من القادة الأهليين الأكثر قربا من المسؤولين الفرنسيين و قادتهم، حيث لم يكتف بالوقوف إلى جانبهم على المستوى العسكري أي أثناء حروبهم ضد السكان و القبائل الثائرة، بل كان يتدخل في مختلف المواقف، و يقدم خدمات أخرى للفرنسيين من ذلك مثلا أنه في شتاء عام 1842م ساءت الأحوال الجوية و هاجمت إحدى السفن الشراعية الفرنسية التي كانت متواجدة بالقرب من شاطئ رأس بوقارون بالقل، و التي كان على متنها بحارة فرنسيون و قامت بدفعها و نقلها إلى مصب وادي الزهور.

[1] Ernest Mercier : Histoire de Constantine, op.cit, p 474.

[2] L.ch.Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : setif » op.cit, p 134

[3] Eugene Vayssettes : « Suite et fin de L'histoire de Constantine sous la domination Turque, Troisième période 1792 à 1837 » in R.S.A.C , Année 1869, p 533.

و على إثر ذلك سارع سكان المنطقة و ألقوا القبض على البحارة الفرنسيين الثمانية الذين تقطعت بهم السبل، و توجهوا بهم إلى شيخهم الذي زودهم ببعض الألبسة، و أمر بتشغيلهم في مجال البناء، و ذلك في انتظار فديتهم. و لما بلغت أخبار هذه الحوادث مسامع الشيخ أحمد بوعكاز سارع دون إبطاء إلى افتدائهم، و وفر لهم البغال التي نقلتهم إلى مدينة قسنطينة حيث استقبلهم رئيس القطاع العسكري القسنطيني يوم 1842/06/11م [1]، و هذا بعد أن قضوا فترة عصيبة من الأسر ناهزت الستة أشهر.

و كان الشيخ أحمد بوعكاز يغدق على الفرنسيين أيضا بالهدايا الثمنية، و في هذا المنظور أهدى حصانا إلى الحاكم العام الفرنسي « ديتبول » « D'hautpoul » (1850م-1851م) حينما زار مدينة قسنطينة عام 1851م. [2]

و كان هذا الشيخ أيضا أكثر الزعماء الأهليين ثراء [3] ، و أكد ذلك للفرنسيين و صرح أن ثروته تقدر بـ 100.000 فرنك فرنسي، و كميات معتبرة من المجوهرات و المعادن النفيسة و الأثاث. [4]

و لما كان يتمتع بهذه الوضعية المادية المريحة، فقد وظف ثروته في خدمة المشروع الكولونيالي كذلك. و من صور ذلك أنه في عام 1859م نسج علاقات ودية مع بعض المسؤولين العسكريين الفرنسيين فنصحوه بشراء عقارات في قلب مدينة قسنطينة، فاستجاب لنصيحتهم و قام بشراء منزلين بوسط هذه المدينة، و بعد تهيئتهما وافق على إيجارهما للإدارة الاستعمارية التي خصصتهما لإدارة شؤون المكتب العربي لهذه المدينة في مطلع عام 1860م. [5]

و بناء على ما تقدم، جاز لنا القول أن الشيخ أحمد بوعكاز وظف كل إمكاناته، و كل ما ملكت يداه في خدمة الإدارة الاستعمارية، و هو الدور الذي كان الفرنسيون ينتظرونه منه، و هذا ما يفسر اهتمامهم الشديد به من خلال الجهود التي بذلوها لضمه إلى صفهم، و بالمقابل الاستغناء عن خدمات رئيسه بلحملاوي الذي اسندوا له منصب خليفة فرجيوة ابتداء ثم اتهموه بالضعف لأنه لم يكن في مقدوره السيطرة على مختلف القبائل و سكان المنطقة، و هي عادة الفرنسيين و أسلوب تعاملهم مع هذه الزعامات الأهلية التي فضلت التعامل معهم.

(1) L.ch.Féraud : « Documents pour servir à L'histoire de philippeville : collo », in R.A n° 20, Année 1876 pp 26,27
(2) Ernest Mercier : op.cit, p 537
(3) Annie Rey-Goldzeiguer :op.cit, p 254
(4) A.O.M :F80. 1679 : Bouakaz à Abdelkader, le 17/07/1865
(5) Ernest Mercier : op.cit, p 586.

3- دور عائلة أولاد عز الدين

إلى جانب عائلة بوعكاز بن عاشور بفرجيوة، لعبت عائلة أولاد عز الدين بالزواغة دورا هاما في التمكين للاحتلال الفرنسي. ففي 10 فيفري عام 1838، قام الجنرال نيغريي « Négrier » بجولة عسكرية قادته إلى مدينة ميلة. و قد استقبله بعض القادة الأهليين و بعض السكان مبدين رغبتهم في التعاون مع الإدارة الفرنسية، و كان من ضمنهم الشيخ بورنان بن عز الدين أحد زعماء عائلة أولاد عز الدين الذي تقدم إلى هذا الجنرال مبديا احترامه و ولاءه الشديدين له، و نتيجة لذلك فقد أسند له منصب شيخ الزواغة [1]

و لعل بداية خدمة هذه العائلة للفرنسيين كانت في شهر أكتوبر عام 1839م، حينما تقدم زعيمها الشيخ محمد إلى« الدوق دورليان» و المارشيال « فالي » عندما اخترقا مدينة ميلة خلال رحلة الأبواب الحديدية المشهورة حيث أبدى لهما حسن نيته في التعامل مع الفرنسيين، معلنا في الوقت نفسه طاعته و إخلاصه لهم. و منذ ذلك الوقت قام الشيخ محمد بمعية شقيقه بورنان بن عز الدين بإدارة شؤون منطقة الزواغة، و ساعده في ذلك عدة أفراد من المخزن كانوا يأتمرون بأوامره و يخضعون لسلطته [2]

و في 30 من جانفي 1850م عين الجنرال « دي سانت أرنو » « De saint-Arnaud » *

(1) Ibid : p, 458

(2) يحي بوعزيز: كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المرجع السابق ، ص 33

* اشتهر «دي سانت أرنو» بسياسته الجهنمية تجاه سكان مقاطعة قسنطينة، حيث لجأ إلى سياسة الأرض المحروقة في منطقة القبائل الصغرى لإخضاع السكان و إرهابهم. و هو لا يختلف عن القادة العسكريين الفرنسيين الذين سبقوه في حكم الجزائر و الذين اقترفوا جرائم بشعة في حق الأهالي مثل «الدوق دي روفيغو» « Savaray Duc de Rovigo » صاحب مقولة « هاتوا لي الرؤوس، سدوا قنوات المياه المعطوبة بواسطة رأس أول بدوي تقع عليه أيديكم »، و الجنرال بيجو Bugeaud الذي انتهج أسلوب المحارق ضد السكان، و صالحب مقولة « أختقوهم بالدخان مثل الثعالب ». و لم يكن « دي سانت أرنو » يختلف عن هؤلاء القادة، و قد قال عنه مواطنه الأديب « فيكتور هيغو » « victor Hugo » « إن لهذا الجنرال ما لابن آوى من مسار مهني ».

حول ذلك ينظر:

فرانسوا مسبيرو : سانت آرنو أو الشرف الضائع، ترجمة مسعود حاج مسعود، مراجعة أحمد بكلي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص ص 7, 8.

قائدا عاما لمقاطعة قسنطينة خلفا للجنرال «هربيون » « Herbillon » فتقدم له القادة الأهليون في مقاطعة قسنطينة لإلقاء التحية عليه، و أداء زيارة مجاملة له في مقر حكمه بمدينة قسنطينة. و كان الشيخ محمد بن عز الدين من بينهم، فأسند له منصب قايد الزواغة، بينما حافظ والده على منصبه كقايد على الجهات الواقعة على الضفة اليسرى للوادي الكبير.(1) هذا، و قد لعبت هذه العائلة بواسطة زعمائها دورا محوريا في التمكين للإدارة الفرنسية بهذه المناطق التي كانت تبسط عليها سيادتها و لاسيما تلك الممتدة ما بين مدينتي قسنطينة و سطيف مرورا بمدينة جيجل، حيث دفعت بالعديد من القبائل إلى الاستسلام و تخليها عن مواقفها المعادية للمستعمر. و لما كانت هذه المناطق قريبة من نفوذ عائلة بوعكاز بن عاشور، فقد شاركتها هي الأخرى في دفع تلك القبائل للاستسلام.(2)

و يفهم من بعض التقارير العسكرية الفرنسية أن الشيخ بورنان كان يمثل العين الساهرة على الأمن الاستعماري بالمنطقة، حيث كان يسارع و دون إبطاء إلى إخطار السلطات العسكرية الاستعمارية بكل تحركات السكان و أنشطتهم المختلفة التي تستهدف المصالح الفرنسية و سائر القادة الأهليين المتعاونين مع المستعمر بالمنطقة. و في هذا المنظور كتب القائد العام لقسمة قسنطينة تقريرا إلى القائد الأعلى للقوات البرية و البحرية الفرنسية بالجزائر العاصمة بتاريخ 04 من سبتمبر 1858م حدثه فيه عن بعض التطورات التي حدثت على مستوى قيادة الشيخ بورنان و المتعلقة بالأمن الاستعماري في هذه المنطقة. و أشار في هذا التقرير إلى الدور المحوري و الايجابي الذي قام به هذا القايد لصالح الإدارة الفرنسية حيث أحاطه علما بالثورة التي قامت بها بعض قبائل المنطقة و التي استهدفت المصالح الفرنسية و بعض الزعماء الأهليين المتعاونين معها بسبب عدم انصياعهم للضرائب التي فرضتها عليهم الإدارة الاستعمارية نتيجة للحرائق التي أتت على الغابات، و التي وجهت لهم تهمة إشعالها. و جاء في هذا التقرير: « لقد أخبرنا القايد بورنان بأن قبائل أولاد علي، و المشاتي، و أولاد بوكريمال، و البعض من قبيلة أولاد حناش و أولاد العربي انفضوا من حولنا، و أعلنوا عصيانهم و ثورتهم ضد مصالحنا و أعواننا بسبب رفضهم الالتزام بالضرائب و المغارم التي فرضتها عليهم لجنة الانضباط التي حملتهم المسؤولية الكاملة عن الحرائق التي اندلعت في الغابات القريبة منهم، و قد

(1) Ernest Mercier : op.cit, p 534

(2) Omar Kerdja : La conquête Française du Djurdjura. Du débarquement de 1830 à La veille de L'offensive de 1857, Tome I, éditions Le savoir, Algérie, 2007, p 215

اشتبكوا معنا في عدة معارك، و أطلقوا النار علينا. و من حسن حظنا أن جنودنا و سائر المتعاونين معنا لم يصابوا بأدنى أذى »[1]

و بناء على ما تقدم يجوز لنا القول أن القايد بورنان ساهم إلى حد كبير في دعم الفرنسيين و إخضاع السكان و مراقبتهم و التخابر لصالح المحتل، و خنق ردود أفعال و مقاومة القبائل المنضوية تحت سلطته. تلك المقاومة التي اتخذت أشكالا و أساليب متعددة منها أسلوب حرق الغابات الذي أشار إليه التقرير المذكور. و هو أسلوب اعتمده سكان هذه المنطقة كغيرهم من سكان القطر الجزائري برمته كرد فعل على سياسة المستعمر الجائرة بهدف إنهاك اقتصاد الكولون، و الحيلولة دون وضع أياديهم على هذه الأراضي. و الثابت أن هذه القبائل حينما كانت تقوم بحرق هذه الغابات كان هدفها هو ترويع هؤلاء الكولون و إجبارهم على التخلي عن هذه الأراضي التي سلبوها منهم ظلما و عدوانا. و إذا كانت هذه الحرائق تساهم في تقوية القدرات النفسية لهؤلاء السكان و تشجعهم على الاستمرار في المقاومة، فإنها بالمقابل كانت تحط من معنويات الفرنسيين و الكولون و حتى المتعاونين معهم من الزعماء الأهليين و منهم قائد عائلة أولاد عز الدين الشيخ بورنان.

كان الشيخ بورنان كثير التواصل مع المسؤولين العسكريين الفرنسيين، حيث كان يزودهم بكل المعلومات المتعلقة بالأحداث و الوقائع التي تحدث على مستوى قيادته و التي تستهدف الوجود الاستعماري، و هذا ما أشارت إليه إحدى التقارير الفرنسية و التي جاء فيها «... لقد حدثت اضطرابات و قلاقل كثيرة خلال الأيام القليلة الماضية على مستوى سوق أولاد عيدون، و قد أحاطنا القايد بورنان علما بكل تفاصيل هذه الأحداث، و رغم ما قام به هذا القايد من مجهودات بهدف القضاء على حالة العصيان بهذه المنطقة إلا أنه لم يتمكن من ذلك... »[2]. و يفهم من تقرير آخر كتبه رئيس القطاع العسكري القسنطيني في 1858/11/17م، أن القايد بورنان كان يمثل العين الساهرة على الأمن الاستعماري على مستوى قيادته، حيث جاء فيه: « ... أن الشيخ بورنان أحاطه علما أنه في يوم

(1) A.O.M : 2H19 : Rapport du général commandant de division à Monsieur le commandant des forces de Terre et de Mer, expédié le 04 Septembre 1858, n° 57.

(2) I.S.H.M.N.T : A.O.M, serie Tunisie 25H16 (2) Dossier n° 2, Bobine A 22 : Rapport du général de division, Commandant de la province de Constantine à son Altesse impériale le prince chargé du Ministère de L'Algérie et ses colonies, Le 25/10/1858, folio 243.

15 من نوفمبر 1858م قام البعض من السكان المنضوين تحت سلطته و لاسيما أولاد عيدون، و أولاد علي، و المشاتي، و القبالة، و بني عائشة، و بعض سكان عواط و بني مسلم، و حملوا السلاح معلنين تمردهم، و هاجموا الشيخ بوترمين أحد أعواننا، و قد دارت بينهما مواجهة دامية. و في صبيحة الأمس 16 نوفمبر 1858م تجددت مواجهتهم و استمرت إلى غاية منتصف النهار. و يبدو أنه من المستعجل تأديب هؤلاء السكان، و لهذا الغرض فإنني قمت بتحضير رتل يتشكل من ثلاث كتائب عسكرية... ».[1]

و الواقع أن هذه الخدمات الثمينة التي كان يقدمها القايد بورنان إلى الإدارة الاستعمارية الفرنسية كانت تثير إعجاب الفرنسيين بشخصه و عليه فغالبا ما كان المسؤولون العسكريون الفرنسيون يشيدون بمناقبه في مختلف تقاريرهم و مراسلاتهم. من ذلك مثلا التقرير الذي كتبه القائد العسكري الأعلى لمقاطعة قسنطينة، و الذي وجهه إلى مسؤوليه السامين بتاريخ 21 من يناير 1860م حدثه فيه عن الدور الايجابي و المحوري الذي كان يباشره القايد بورنان لصالح المشروع الكولونيالي على مستوى قيادته حيث ذكر فيه : « ...إن القايد بورنان تمكن بواسطة قوة شخصيته و نفوذه و تفانيه في خدمة القضية الفرنسية أن يكسب قلوب سكان القبائل المنضوية تحت إمرته. و تبعا لذلك فقد دفع بالعديد من الأشخاص الذين درجوا على مناصبتنا العداء الشديد إلى الاستسلام و التخلي عن شكاياتهم و مطالبهم المتكررة التي كانت تحرجنا كثيرا... ».[2]

يتبين لنا من خلال ما تقدم أن عائلة أولاد عز الدين لعبت دورا مهما في التمكين للإدارة الاستعمارية على مستوى المناطق الخاضعة لنفوذها، و هي مناطق وعرة من حيث تضاريسها، و صعبة من حيث طبيعة سكانها الذين درجوا على رفض المستعمر و مشاريعه الاستعمارية.

4- دور عائلة الرزقي

تعاونت عائلة الرزقي مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية منذ عام 1838م، حيث منح أحد زعمائها و هو ابراهيم الرزقي حكم دائرة قالمة من قبل الماريشال « فالي »، فدعمت هي الأخرى المستعمر الفرنسي و مشاريعه، و حاربت القوى الوطنية شأنها في ذلك شأن العائلات الأخرى، و لعب القايد

[1] A.O.M : 2H18 : Rapport du général de division, Commandant des forces de Terre et de Mer, en Algérie au gouverneur général, expédié le 17 Novembre 1858 n° 54 ينظر الملحق رقم 7.

[2] A.O.M : 2H19 : correspondance : Affaires politiques et Militaires : Insurrection dans le Hodna 1860. Affaires des Babor 1860. Rapport du général de division, commandant de Constantine sur les évènements qui se sont passés dans la petite Kabylie de la division de Constantine depuis le mois de juillet 1858, Rapport expédié le 21 janvier 1860.

إبراهيم الرزقي دورا محوريا إلى جانب القوات الاستعمارية الفرنسية في محاربة الشيخ الحسناوي عندما كان ثائرا في بداية الاحتلال الفرنسي.(1)

و بالموازاة مع ذلك، وقف الشيخ الرزقي بن منصور كبير هذه العائلة إلى جانب القوات العسكرية الفرنسية أثناء حملاتها المتكررة ضد قبيلة الحنانشة التي كانت ثائرة خاصة خلال الفترة الممتدة ما بين عامي 1839م –1843م، و فقد العديد من رجاله و على رأسهم أحد أبنائه الذي قضى نحبه في إحدى المعارك التي دارت بين الجيش الفرنسي و فرسان هذه القبيلة الثائرة، و تبعا لذلك أسند له الجنرال « باراغاي ديلييه » « Baraguay d'Hilliers » القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة منصب شيخ الحنانشة.(2)

و في عام 1852م، كان أحمد الصالح الرزقي و هو ابن أخ القايد إبراهيم الرزقي أحد الوجوه البارزة لهذه العائلة حيث أسندت له قيادة الناظور التي كانت تعد إحدى أبرز قيادات دائرة قالمة الثلاثة كما قدمنا. و يبدو من خلال رسائله التي كان يرسلها إلى الماريشال « راندون » « Randon » عام 1854م أنه كان يواجه متاعب جمة في حكم القبائل المنضوية تحت سلطته لاسيما و أن دائرة قالمة و المناطق المجاورة لها اشتهرت بثورتها الدائمة في وجه المحتل الفرنسي، حيث كان يشكوه فيها تصرفات أعدائه الذين كانوا يتسببون له في الكثير من القلاقل على مستوى قيادته.(3)

و الثابت أن أعداءه المعنيين في هذا السياق هم السكان الثائرين و الرافضون لأي شكل من أشكال الهيمنة الاستعمارية، و الذي عمل على إخضاعهم و حاول جاهدا لجم ثوراتهم.

5– دور عائلة ابن قانة

كانت عائلة ابن قانة على رأس عائلات الجنوب القسنطيني التي لعبت دورا هاما في التمكين للمستعمر الفرنسي بهذه المنطقة الحيوية، لاسيما و أن الفرنسيين كانوا يدركون جيدا أهمية السيطرة على الصحراء الجزائرية منذ أن وطأت أقدامهم أرض الجزائر عام 1830م، إذ فكروا في احتلالها منذ

(1) H'sen Derdour : op.cit, pp 392-399

(2) Ministère de la guerre : précis historique, op.cit, p 3

(3) A. Cour : « Note sur une collection d'autographes arabes de L'ancien ministre de France au Maroc » op.cit, p 103.

البداية، [1] و رغم ذلك لم تتجه أنظارهم إليها إلا بعد أن أحكموا قبضتهم على الجزء الشمالي، فعملوا على إخضاعها تدريجيا إلى هذا الجزء. [2]

و قد أدركوا حقيقة ذات بعد إستراتيجي مؤداها أنه ليس في مقدورهم الشعور بالأمن في الجزائر دون السيطرة على صحرائها، لأنها كانت تشكل قاعدة خلفية للثورات الشعبية التي تندلع في الجزائر منذ بداية الاحتلال، و كانت أيضا ملاذا آمنا للثوار الذين كانوا يفضلون الاعتصام بها بعيدا عن أعين الرقابة الاستعمارية.[3] و أكد ذلك العقيد « تروملي » « Trumelet » الذي ذكر أن الحاكم العام الفرنسي الجنرال « راندون » « Randon » كان يتصور أن السيطرة على الشمال الجزائري يجب أن يخطط لها انطلاقا من جنوبه، فإخضاع الصحراء هو في واقع الأمر بمثابة صمام آمان للتحكم في الشمال.[4]

و عندما احتل الفرنسيون صحراء قسنطينة التي تعد جزءا مهما من الصحراء الجزائرية، وجدوا مساندة كبيرة و تأييدا غير متناه من لدن عائلة ابن قانة، فما هي الخدمات التي قدمتها هذه العائلة لهم؟ و ما هي مظاهر ذلك.؟

كانت عائلة ابن قانة من أكثر عائلات الجنوب القسنطيني تفانيا في خدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية. فكان زعيمها بوعزيز بن قانة شيخ العرب من الزعماء الأهليين الذين عضدوا الحاكم الأعلى لمقاطعة قسنطينة الجنرال « غالبوا » « Galbois » إلى مدينة سكيكدة من أجل استقبال ابن الملك الفرنسي الدوق دورليان الذي وصل إلى ميناء هذه المدينة يوم 08 من أكتوبر 1839م.[5] و عندما انتقل وفد هذا الدوق إلى مدينة قسنطينة تهافت على زيارته رؤساء الأهالي و قدموا له الهدايا الثمينة كالخيول المسومة و نحوها. [6]

---

(1) Alfred G.Martin : « L'action Française dans Le sahara, Conférence faite à la réunion des officiers de Saida Le 1er Avril 1893 » in R.A n° 37, Année 1893, p 333.

(2) Marc côte : L'algérie ou L'espace retourné, Media-plus, Constantine, Algérie, 1993, pp 167,168

(3) إبراهيم مياسي : توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص 76.

(4) Colonel Trumelet : Les Français dans le désert, Paris, France, 1887, p 498

(5) Ernest Mercier : op.cit, p 478

(6) محمد الصالح العنتري : المصدر السابق، ص 150

و خلال مدة إقامته بهذه المدينة، احتفل الفرنسيون بالذكرى الثانية لسقوطها تحت سيطرتهم في 13 أكتوبر 1839. و قد استغل الدوق هذه المناسبة ليدشن نصبا تذكاريا للعسكريين الفرنسيين الذين قتلوا أثناء الحملتين الفرنسيتين على هذه المدينة سنتي 1836م و 1837م، و حضر قداسا دينيا أقيم في كنيسة السيدة الإفريقية، و هي الكنيسة التي أقامها الفرنسيون ظلما و عدوانا محل إحدى جوامع هذه المدينة العتيقة [1] و قد حضر شيخ العرب بوعزيز بن قانة هذا الحفل إلى جانب وجهاء أهليين آخرين أمثال ابن عيسى، و بلحملاوي، و شيخ الإسلام محمد الفقون. [2]

و يذكر بوعزيز بن قانة في مذكراته أنه استنفر رفقة الخليفة بن عيسى قوة ضخمة من الفرسان جاءت إلى مدينة قسنطينة لإلقاء التحية على ابن الملك، و قدر عدد فرسانها بألفي (2000) فارس.[3] و اغتبط « الدوق دورليان » بهذا الحفل و ذلك الاستقبال البهيج، فقلد هؤلاء الرؤساء الأهليين و على رأسهم شيخ العرب بوعزيز بن قانة وسام جوق الشرف« légion d'honneur ».[4]

هكذا إذن نرى كيف صنع المستعمر بهؤلاء الزعماء الأهليين أمثال بوعزيز بن قانة الذين حاربوه بقوة أثناء حصاره لمدينة قسنطينة عامي 1836 و 1837م، ثم بعد ذلك استدرجهم إلى معسكره فأخذوا يحاربون المشروع الذي كانوا يؤمنون به و يدافعون عنه فيشاركون المحتل في احتفالات ذكرى سقوط مدينتهم قسنطينة.

و كان شيخ العرب السند القوى للفرنسيين الذين أخذوا في التوسع جنوبا، فعندما بلغت قواتهم مدينة باتنة خلال شهر فيفري 1844م في اتجاهها إلى مدينة بسكرة قصد إخضاعها، وجدته قد وفر لها ألف (1000) بعير لحمل التجهيزات المختلفة للجيش و أثقاله، و تمكنت قواه التي عضدتها قوات العقيد الفرنسي « بيتافوكو » « Buttafuoco » من تفريق جموع القبائل التي اعترضت سبيلهم.[5]

---

(1) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1900، الجزء الأول ، المرجع السابق، ص 210

(2) Ernest Mercier : op.cit, p 480

(3) Bouaziz Bengana : op.cit, p 68

(4) Ernest Mercier : op.cit, p 480

(5) عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 119.

و بهذا يمكن القول أن عائلة ابن قانة ساعدت القوات الفرنسية على احتلال مدينة بسكرة التي دخلتها يوم 04 مارس 1844.(1)

لقد استعان الفرنسيون بقوات هذه العائلة لفرض النظام الاستعماري و مراقبة تحركات قبائل الجنوب القسنطيني. و لم يتوان شيخ العرب على نجدتهم و تقديم المساعدة لهم كلما طلبوها منه، بل كلما أمروه بتقديمها. و يذكر الرائد « سيروكا » « Seroka » العليم بأخبار الجنوب القسنطيني أن الرائد «سان جرمان » « saint – Germain » الذي كان يكابد متاعب كبيرة مع القبائل الثائرة بهذه المنطقة المضطربة كقبيلة النمامشة، قد أمر شيخ العرب عام 1846م بتجهيز قوة و التحرك بها دون إبطاء إلى منطقة الذهبية الواقعة على بعد سبع فراسخ « lieues » من ليانة و وضعها في حالة تأهب قصوى استعدادا لأي طارئ.(2)

و في عام 1850م ضرب وباء الكوليرا مقاطعة قسنطينة، و كان وقعه ثقيلا على مدينة بسكرة حيث أدى إلى هلاك عددا كبيرا من السكان، و لم يستثن من ذلك حتى الضباط السامون الفرنسيون، و على رأسهم قائدهم الأعلى النقيب «سادي » « sadde » الذي قضى نحبه نتيجة لهذا الوباء(3)

و تذكر السيدة «دي باركي » « C.du parquet » التي زارت مدينة بسكرة في وقت لاحق للفترة التي ندرسها في مذكراتها أن عائلة ابن قانة تضامنت مع الفرنسيين و عطفت عليهم عطفا شديدا خلال هذه المحنة التي عصفت بهم كما عصفت بالأهالي الذين زهق خمس أرواحهم. بل أكثر من ذلك أن وجهاء هذه العائلة التمسوا من الإدارة الفرنسية مغادرة المدينة، و تركها تحت مسؤوليتهم لكي يجنبوا الجيش الفرنسى العديد من ضحايا هذا الوباء ! (4)

و في تلك الأثناء أي في عام 1850م، كانت قبائل الأرباع و الحرازلية في ثورة مستمرة ضد الفرنسيين بالمنطقة. و كانت القيادة العسكرية الفرنسية تتحرج كثيرا من سلوك هذه القبائل، و تبعا

(1) Commandant Seroka : op.cit, p 429
(2) Ibid, p 441
(3) Ernest Mercier : op.cit, p 536.
(4) Mme C.du Parquet : « Une excursion à Biskra Le 15 Avril 1879 » in Revue des deux mondes, op,cit ; p 259

لذلك تلقى قايد بسكرة محمد الصغير بن قانة أمرا بملاحقتهم، فجهز حملة قوامها ثلاثمائة (300) فارس عملت على مطاردة هذه القبائل الثائرة.[1]

إن المجهودات التي كان يقوم بها القايد محمد الصغير بن قانة في سبيل التمكين للفرنسيين كانت تترك انطباعا حسنا لدى القادة العسكريين الفرنسيين الذين اعتبروه من أبرز القادة الأهليين الأكثر إخلاصا لفرنسا لأنه كان يمدهم بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية تتعلق بـ « الفوضويين و المتمردين » الذين كانوا يعملون على خلخلة أمن فرنسا. و لم يكن دور هذا القايد يقتصر عند هذا الحد فحسب، بل أنه كان يعمل دون هوادة على قطع دابر الفوضى و كل حركات التمرد في المناطق الخاضعة لسلطته، و ذلك بتصديه الفوري و القوي لها في حالة حدوثها.[2]

و نفهم من إحدى البرقيات التي أرسلها أحد المسؤولين الفرنسيين الذي كان يشرف على تصريف شؤون شعبة باتنة إلى الحاكم الأعلى لمقاطعة قسنطينة بتاريخ 30 أوت 1870م أن القايد محمد الصغير بن قانة كان يوظف رجاله سرا و علانية من أجل رصد كل التحركات المشبوهة التي تحدث على مستوى قيادته، و تبليغ السلطات الاستعمارية الفرنسية بذلك، حيث ورد في إحدى هذه البرقيات ما يشير إلى ذلك، إذ كتب هذا الرائد الفرنسي: « لقد اتصل بنا أحد رجال محمد الصغير بن قانة، و هو في واقع الأمر مخبر مكلف من قبل هذا القايد بالتجسس لصالح قضيتنا، حيث أحاطنا علما بأن شخصا غريبا ينحدر من أصول تونسية و تحديدا من جزيرة جربة دخل التراب الجزائري و استقر بمنطقة تاوزرت منذ ثمانية أيام، و بحوزته مبلغا معتبرا من المال. و قد أدعى بأن الهدف من زيارته هو شراء الأقمشة و المنسوجات. و يبدو أن لديه أهدافا أخرى لم نتمكن من تحديدها بدقة، لأنه منذ نزوله بهذه المنطقة لم يقم بشراء و لو قطعة واحدة من هذه المنسوجات. و في كل الحالات نحن نتتبع نشاط هذا الشخص و سنعمل على إفادتكم بكل تحركاته أولا بأول »[3]

---

(1) Commandant Seroka : op.cit, p 526

(2) I.S.H.M.N.T : A.O.M, Serie Tunisie 25H16 (2), Dossier n° 2 Bobine A 22 : Rapport du 25/10/1858, Folio 243.

(3) A.O.M : 2H57 : Dépêche télégraphique du commandant de la subdivision de Batna à Mr le général commandant de la province de constantine, nombre de mots 298, expédiée le 30/08/1870 à 4H50m.

و الراجح أن القايد محمد الصغير بن قانة كان قد تلقى الأمر من الفرنسيين من أجل تكثيف الجهود لمراقبة و رصد كل تحركات السكان و بالأساس الأجانب لأنه في تلك الأثناء انتشرت عدة أخبار مؤداها أن بعض العملاء البروسيين الذين كانت بلادهم تخوض حربا طاحنة ضد فرنسا انتقلوا إلى البلاد التونسية و عملوا على تحريض القبائل الجزائرية ضد المصالح الفرنسية انطلاقا من التراب التونسي، بل أن بعضهم دخل إلى التراب الجزائري، و استقر ببعض المناطق الجنوبية الشرقية للجزائر[1] لأن الرائد الفرنسي المكلف بتصريف شؤون شعبة باتنة أشار في برقيته المذكورة إلى هذه المسألة، و حدث حاكمه الأعلى لمقاطعة قسنطينة قائلا له في موضع آخر: «... إن الأخبار التي أفادنا بها هذا العميل السري المكلف من قبل القايد محمد الصغير بن قانة تنطوي على أهمية استثنائية، فقد كشفت لنا أيضا حقيقة الدسائس و المكائد التي كانت بروسيا تحيكها ضد بلادنا... »[2].

و في يوم 1871/10/28 كتب القايد أحمد بولخراص بن قانة رسالة * إلى الجنرال « دي لاكرو » « Delacroix » رئيس القطاع العسكري القسنطيني، استهلها كما درجت العادة بعبارات المجاملة و الاحترام و التقدير و السلام، ثم حدثه عن المتاعب و الصعوبات التي واجهها أثناء تنقله رفقة القبائل البدوية التي كانت تفضل حياة الترحال بين الصحراء و المناطق التلية بحثا عن الكلأ و المياه، حيث كتب له : « إلى حضرة المعظم الأرفع الهمام الأنفع سعادة الجنرال لاكروه الحاكم الكبير بقسنطينة و ساير (كذا) عمالتها أيده الله و رعاه بمنه أمين الســـلام عليكم و الرحمة

---

[1] حول هذا الموضوع ينظر:

- الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية:
  - صندوق 219، ملف 333 : الحرب الفرنسية البروسية سنة 1870م، و تأثير هذه الحرب على المستعمرات الفرنسية خاصة الجزائر.
  - صندوق 255، ملف 723: قضية عبور شخصين بروسيان عبر التراب التونسي للجزائر و بث البلبلة خاصة بعد إعلان الحرب الفرنسية الروسية

[2] A.O.M : 2H57 : Dépêche télégraphique du commandant de la subdivision de Batna, op.cit

* إلى جانب هذه الرسالة المحفوظة بمركز إيكس أون بوفانس بفرنسا، توجد رسالة مترجمة إلى اللغة الفرنسية من قبل الفرنسيين ، و يبدو أن هذه الرسالة كانت مودعة في الأرشيف الخاص لهذا القايد، ثم إنتقلت إليهم، لأنه كتب على هامشها عبارة « لنفسي »، و إلى جانبها توقيعه الخاص، أي أنه أرسلها إلى القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة و احتفظ بنسخة منها لنفسه كما تقتضي أصول المراسلات الادارية.

والبركة... و ليكن في علمك خير إن شاء الله أننا من يوم رحولنا (كذا) من أرض التل مع الأعراب بقصد دخول أرض الصحراء و أنا في تعب عظيم... ».[1] و من الجائز القول أن « التعب العظيم » الذي تحدث عنه أحمد بولخراص بن قانة يتمثل في صراعه مع هؤلاء البدو الذين اشتهروا بمعاداتهم الشديدة للإدارة الاستعمارية الفرنسية و محاولاته التصدي لهم حينما كانوا يهددون المصالح الفرنسية بالمنطقة.

و بعد ذلك ذكره بأن الرائد العسكري الفرنسي الذي يعمل تحت سلطته أحاطه علما بهذه المتاعب حيث ذكر له : «... و الظاهر أن سعادة السيد الكماندة عرفك بذلك على التفصيل... ».[2] ثم بعد ذلك أكد له على إخلاصه و وفائه في خدمة الدولة الفرنسية قائلا له «... ولا زلنا و نزال عاكفين في جلب ما فيه النفع العام أو الخاص للدولة... »،[3] كما أكد له في موضع آخر من هذه الرسالة على هذا الإخلاص الشديد حينما كلفه الحاكم العسكري لمدينة بسكرة بالتوجه إلى مدينة تقرت للإشراف على تصريف شؤونها حيث سار إليها رفقة أهله و جميع عياله. و رغم أنه كان سقيما و متعبا إلا أنه لم يتوان لحظة واحدة عن طاعة الدولة الفرنسية إذ قال: «... و لم نقدر نتخلف (كذا) حتى لحظة واحدة كل ذلك طاعة في حكام الدولة و سماعا لأوامرها و سعيا كاملا فيما يعد النفع إليها و يزيد في رفع هيبتها و قوتها... »[4] كما أخبره بأنه لم يلق صعوبة تذكر عندما دخل مدينة تقرت لأن قبائل العرب الغرابة المنضوية تحت سلطته كانت لها أملاك كبيرة بهذه المدينة. و عليه فإنه من المتصور أن تكون علاقاتهم ودية مع أهل تقرت حيث ذكر: «... و لتعلم سيدنا أنه لما كان العرب الغرابة أهل أملاك في تقرت و جميع القرى المضافين إلينا و كثيرا من سكانهم خماسة عليهم و خدام لهم لم يحصل لنا التعرض (كذا) من أجلهم وقت الدخول... »[5]

---

[1] A.O.M : 2H57 : Lettre de Ahmed Boulkharas Bengana à Mr Le Commandant de division de constantine le général Delacroix, expédiée le 28/10/1871, n° 12 8 ينظر الملحق رقم .
[2] Idem.
[3] Idem.
[4] Idem.
[5] Idem.

و تكشف لنا هذه الرسالة أن عائلة ابن قانة عملت كل ما في وسعها من أجل فرض النظام الاستعماري في مناطق نفوذها. و كان زعمها القايد أحمد بولخراص بن قانة يتفاني في خدمة الإدارة الاستعمارية و يعمل جاهدا للتصدي لكل ردود أفعال القبائل و الأعراش التي تعادي المصالح الفرنسية هناك. و كان يراسل السلطات الاستعمارية الفرنسية ليحيطها علما بكل أعماله و مجهوداته التي كان يقوم بها في هذا المجال. و ربما كان هدفه من وراء ذلك هو التقرب أكثر من الفرنسيين حتى لا يتخلوا عنه و عن خدماته كما تخلوا عن خدمات بعض الزعماء الأهليين الآخرين في تلك الفترة.

و بالموازاة مع ذلك، فإن هذه الرسالة تكشف لنا عن سيادة نظام الخماسة في تلك المنطقة و في كل مناطق القطر الجزائري برمته حينئذ. و غني عن البيان أنه نظام اقتصادي اجتماعي بائس كرسه النظام الاستعماري الفرنسي و باركه القادة الأهليون و زعماء العائلات الكبرى و منهم عائلة ابن قانة، فبواسطته تحكم الفرنسيون و هؤلاء القادة في رقاب السكان و مصائرهم لأنه سلبهم حقوقهم بل كرامتهم، و بالتالي جعلهم ينصاعون دون تردد لأوامر السلطة الاستعمارية و يحجمون على محاربتها.

و الواقع أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية كانت تقدر جيدا الخدمات الثمينة التي يقدمها لها رؤساء الأهالي و منهم شيخ العرب بوعزيز بن قانة. فبالإضافة إلى الأوسمة و النياشين التي كانت تعلقها على صدورهم في مناسبات عديدة، فقد كانت تقدم لهم منحة سنوية، و كانت قيمة المنحة التي يتقاضاها شيخ العرب عام 1859م تقدر بستين ألف 60.000.00 فرنك فرنسي [1] و هو مبلغ معتبر في تلك الفترة الزمنية. و رغم ذلك فإنه يبقى مبلغا رمزيا في منظور شيخ العرب لأن ثروة عائلته كانت كبيرة جدا. [2]

و بهذا تبين لنا أن عائلة ابن قانة وظفت كل إمكاناتها المادية و العسكرية في خدمة الفرنسيين، و وقفت إلى جانبهم أيضا في مختلف محنهم و كذلك أثناء الكوارث الطبيعية و الأوبئة و الجوائح. و كان الأحرى بها أن توظف ثروتها الطائلة في إسعاف الأهالي الذين سحقهم المستعمر، و زادتهم هذه الجوائح بؤسا و حرمانا.

---

[1] أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 87.

[2] Omar Chair : op.cit, p 310.

6- دور عائلة بوعكاز الذواودة

أما عائلة بوعكاز الذواودة، فلا يمكن الكلام عن خدماتها التي قدمتها للإدارة الاستعمارية دون الكلام عن زعيمها فرحات بن السعيد الذوادي الذي يحلو للفرنسيين أن يلقبوه بـ « ثعبان الصحراء » « Le serpent du désert » و نجله علي باي. و قد بسطنا الحديث في غير هذا المكان عن أخبار تعاون فرحات بن السعيد مع الفرنسيين ابتداء و وفاته في معسكر الأمير عبد القادر انتهاء. أما الآن فسنحاول أن نبسط الكلام عن علي باي والخدمات التي قدمها للفرنسيين في المناطق التي أسندوها له.

نصب الفرنسيون القايد علي باي بن فرحات بن السعيد قائدا على تقرت و وادي ريغ و إقليم وادي سوف، و قدم له العقيد « ديفو » « Desvaux » برنوس التولية يوم 1854/12/26م. و أقام الفرنسيون لهذا الغرض حفلا بهيجا بساحة قصبة تقرت حضره أعيان المنطقة. و بعد الانتهاء من مراسم التولية توجه القايد علي باي و الوفد المرافق له إلى مسجد المدينة ليتلقى المبايعة من طرف الأعيان و الشيوخ و القادة. و في نهاية هذه المبايعة قرأت سورة الفاتحة !، ثم ألقى العقيد الفرنسي « ديفو » كلمة قبح فيها صنيع حكام عائلة ابن جلاب الذين قال عنهم بأنهم ظلموا الناس و أكلوا أموالهم بغير وجه حق، فطالب الحضور بوضع ثقتهم الكاملة في السلطات الفرنسية التي منحتها هي الأخرى لعلي باي الذي سيعمل على نشر الأمن و السلم في الربوع باسم السلطة الفرنسية.[1] و السؤال الذي يثور في هذا السياق. ما هي الأسباب التي جعلت الفرنسيين يميلون إلى هذا الزعيم الأهلي دون سواه من الزعماء الأهليين الآخرين خاصة من أبناء عمومته الذين وهبوا أنفسهم أيضا لخدمة المشروع الكولونيالي في المنطقة؟

و الأصل أن علي باي لم يكن الزعيم الأهلي الوحيد من عائلة بوعكاز الذواودة الذي كان مرشحا لنيل هذا المنصب حيث كان ينافسه في ذلك أبناء عمومته، و هذا ما يؤكده التقرير الذي حرره النقيب « مارميي » « Marmier » رئيس المكتب العربي لقسمة باتنة حيث أكد فيه أن « علي باي بن فرحات بن السعيد إلى جانب أبناء عمومته من عائلة بوعكاز الذين التقيناهم

---

(1) L.ch.Féraud : « les Ben Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de constantine », in,R.A n° 28, Année 1882, pp 115,116.
- voir aussi : commandant Seroka : op.cit, p 562.

يوم 1852/03/08 تبنوا سياسة حكيمة و جيدة تجاه وجودنا بالمنطقة تنصرف بالأساس إلى المحافظة على الوضع الراهن و ضمان الأمن و الاستقرار بالمنطقة » .[1]

و يبدو أن إسناد هذا المنصب الحساس إلى علي باي بن فرحات بن السعيد لم يكن بمحض الصدفة، بل كان نتيجة لدراسة معمقة لسيرة هذا الزعيم منذ أن كان والده فرحات بن السعيد على قيد الحياة. ذلك أن علاقته بالفرنسيين تعود إلى السنوات الأولى للاحتلال حيث كان يلعب دور الوسيط بين والده و الجنرال « فوارول » « Voirol » قبل أن يحكم الفرنسيون قبضتهم على مدينة قسنطينة عام 1837م. و قد أشار والده الشيخ فرحات بن السعيد إلى ذلك حينما أرسل خطابا إلى هذا الجنرال حثه فيه على السير إلى مدينة قسنطينة للإجهاز على الحاج أحمد باي.[2]

و كان الفرنسيون ينظرون إليه بعين الإعجاب و يفضلونه عن سائر أبناء عمومته، حيث وصفه تقرير بقلم أحد الضباط الفرنسيين بأنه كان «... مطيعا للإدارة الفرنسية، و ليس له طموح كبير و ذلك عكس ابن عمه نهمان بن ذباح بوعكاز ذو الطموح غير المتناهي... ».[3]
و ربما هذه هي الأسباب التي جعلت الإدارة الفرنسية تسند هذا المنصب الحساس لعلي باي، يضاف إلى هذا أن والده فرحات كان يحظى بسمعة طيبة و احترام كبير في الأوساط الشعبية و كان أسمه يشكل رمزا للكفاح و الشجاعة، و قد قيلت في وفاته قصائد من الشعر الملحون.[4] لأن نهايته كانت في معسكر الأمير عبد القادر كما عرفنا. و على هذا الأساس فإن توليته لهذا المنصب سيجلب ولاء سكان تقرت و المناطق المجاورة. لأن مسألة الولاء حينئذ كانت مسألة مرنة، و كانت مرتبطة بالزعيم أو الرمز. فكان يكفي أن يتبنى زعيم عائلة أو عشيرة موقفا معينا حتى ينجذب إليه كل أتباعه و مؤيديه حتى و لو كان هذا الانجذاب نحو الإدارة الفرنسية مثلما هو حال القايد علي باي لأن التحالفات العائلية و العشائرية كانت في تلك الفترة أقوى بكثير من التحالفات الوطنية و القومية بل كانت على حسابها أحيانا.

[1] A.O.M : 10KK30 : Rapport du capitaine Marmier Le 08/03/1852 n° 89.
[2] عبد الحميد زوزو: محطات في تاريخ الجزائر. دراسات في الحركة الوطنية و الثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة)، المرجع السابق، ص ص 124، 125.

[3] A.O.M : 10KK1 : Rapport du 02/02/1856 n° 18.
[4] L.ch.Féraud : « les Ben Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de constantine », in,R.A n° 28, Année 1884, pp 334-336.

لقد انكب علي باي بن فرحات بن السعيد على خدمة الفرنسيين شأنه في ذلك شأن بقية زعماء العائلات الكبرى الأخرى. و في هذا المنظور قام رفقة المهندس الفرنسي « م.جي » « M.Jus » في الفاتح من ماي عام 1856م بإعطاء الأمر لحفر أول جب لاستخراج الماء من أعماق الأرض. و قد دامت مدة هذا المشروع زهاء خمسة أسابيع حيث أنه في 09 جوان من السنة نفسها تم الإعلان عن نهاية هذه الأشغال، فتدفق الماء بشكل كبير من عمق ستين (60) مترا و بقوة 4 آلاف (4.000) لتر في الدقيقة الواحدة.[1] و بالغ « فيرو » كعادته في وصف فرحة السكان بهذا الحدث حيث ذكر أن أحد الشعراء نظم قصيدة شعرية قرأها في هذه المناسبة، و تحدث فيها عن هذه النعمة التي وهبها الله عز و جل إلى سكان الصحراء كما مدح فيها الفرنسيين و أعوانهم الذين أنجزوا هذا المشروع. [2]

و أثنى الفرنسيون على المجهودات الجبارة التي قام بها علي باي في سبيل التمكين لهم ابتداء بالحاكم العام لمقاطعة قسنطينة الجنرال « ديفو » (1855م-1864م) و انتهاء بالضباط الآخرين الذين عاصروا تلك الفترة و سجلوا أحداثها أمثال « فيرو » و « تروملي ». فقد كتب « ديفو » رسالة إلى سكان وادي سوف عام 1858م نصحهم فيها بضرورة الإذعان للحكم الفرنسي الذي سيجلب لهم الأمن و السلام، كما حدثهم فيها على مناقب علي باي الذي وصفه بالقائد العادل و الشجاع و نصحهم باحترامه و الالتزام بتوجيهاته و الاذعان لأوامره و نواهيه، كما أمره بقراءة هذه الرسالة على سكان المنطقة و تعليقها في الأماكن العمومية و مختلف المداشر و أهم ما ورد فيها: « ...و أن العصيان لأوامرنا و الفساد في وطننا يجلب عليكم ما تكرهه الأنفس، و الواجب عليكم أن تنصتوا إلى سي علي بن فرحات بن سعيد الذوادي لكونه عادلا و شجاعا و خديما صادقا، و نحن نعزه معزة تامة حيث لم يقض شيئا إلا بأمرنا و نهينا »[3]

أما « فيرو » فقد كان مهتما كثيرا بتتبع أخبار هذا الزعيم الأهلي، حيث كان يرصد كل تحركاته حتى خارج إقليم قيادته. فقد ذكر في معرض ملاحظاته الأثرية التي أرسلها إلى الجهات

---

[1] L.ch.Féraud : « Les Ben Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de constantine », in,R.A n° 31, Année 1887, p 35.
[2] Ibid : pp 37,38.
[3] احميدة عميراوي : بحوث تاريخية، شركة دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الثانية، عين مليلة، الجزائر، 2006، ص ص 175، 176.

المكلفة بجمع الآثار و المحافظة عليها خلال رحلته الأثرية التي قام بها بين مدينتي سطيف و بسكرة عام 1859م أنه وصل إلى مدينة بسكرة على الساعة الثامنة و النصف صباحا، و لاحظ القايد علي باي رفقة سي معمر أحد مرابطي تماسين، متبوعا بزهاء خمسة عشر عنصرا من الطوارق، و عددا غير قليل من السوافة. و كان هذا الموكب ممتطيا صهوة الجمال من نوع المهارة [(1)]، كما أثنى عليه في موضع آخر و تكلم عن مجهوداته الكبيرة في التمكين للمشروع الاستعماري حيث قال أن علي باي قام إلى جانب القوات الفرنسية بمحاربة القبائل الثائرة، و ساهم بشكل لافت للانتباه في خنق كل الثورات التي عصفت بمقاطعة قسنطينة خلال سنوات الستينات من القرن 19م. [(2)]

و كان العقيد « تروملي » يقاسمهم النظرة نفسها إلى هذا القايد، فقد ذكر بأن علي باي كان يتواصل مع العقيد « سيروكا » « Seroka » الذي كان وقتها يدير شؤون شعبة باتنة، حيث زاره في معسكره في 1864/12/08م، و أحاطه علما بالوضع العام على مستوى قيادته، فأطمئن له هذا القائد الفرنسي، و أعجب بالمجهودات التي كان يقوم بها القايد علي باي لصالح الإدارة الفرنسية. [(3)]

لقد تفانت عائلة بوعكاز الذواودة عن طريق زعيمها علي باي بن فرحات في خدمة مقاصد الإدارة الفرنسية بالجنوب القسنطيني، شأنها في ذلك شأن عائلة ابن قانة التي أسلفنا الحديث عنها فكما كان وجهاء هذه الأخيرة يتبادلون الرسائل و الخطابات مع الفرنسيين ليحدثونهم عن إخلاصهم لهم و عن سعيهم الحثيث لخدمة قضيتهم، كان بالموازاة مع ذلك وجهاء عائلة بوعكاز الذواودة يراسلون الفرنسيين و يحدثونهم بأريحية عن هذا الموضوع. و ربما كانوا يتنافسون في خدمة الفرنسيين، و كان الفرنسيون يدركون ذلك جيدا، و يشجعون ذلك طالما كان ذلك التنافس في مصلحتهم.

كان علي باي يراسل الفرنسيين، و يعلمهم بمختلف مجهوداته في مجال التمكين لهم بالمناطق الخاضعة لنفوذه. ففي 18 من أكتوبر 1871م كتب رسالة إلى القائد العام لمقاطعة قسنطينة الجنرال « دي لاكروا »

---

(1) L.ch Féraud : « Entre Setif et Biskra » in, R.A n° 4, Années 1859. 1860 , p 200.

(2) L.ch Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 349

(3) Colonel Trumelet : « Notes pour servir à L'histoire de L'insurrection dans le sud de la province d'Alger de 1864 à 1869 », in R.A. n° 25, année 1881, pp 42,43.

تشبه إلى حد بعيد من حيث محتواها الرسالة التي أشرنا إليها سابقا و التي بعثها القايد أحمد بولخراص بن قانة إلى ذات القائد العام، حدثه فيها عن إخلاصه الكبير في خدمة القضية الفرنسية، كما حدثه عن المجهودات التي قام بها في سبيل إخضاع السكان لإرادة الإدارة الاستعمارية الفرنسية. فقد استهلها كما درجت العادة بعبارات التقدير و المجاملة قائلا له : « المعظم الأرفع الهمام الأنفع سعادة السيد الجنرال لاكروا الحاكم الكبير بقسنطينة و ساير (كذا) عمالتها أيده الله أمين السلام عليك و رحمة الله و بركاته أما بعد فإنا نسئل عن أحوالك المرضية أدامها الله على الخير و السلامة» .[1]

ثم ينتقل هذا القايد الأهلي إلى الحديث عن محبته للدولة الفرنسية و إخلاصه لها رغم المشاق التي تكبدها جراء ذلك من هلاك عدد كبير من رجاله و ضياع أملاكه و نحو ذلك، حيث يقول: «... هذا و إني لازلت على عهد الصدق و المحبة في خدمة الدولة السعيدة و صحة الاعتقاد بها و صفاء النية معها في السر و العلانية مدة حياتنا إن شاء الله تعالى و بصدق ما ذكر و تحقيق ما سطر تحملنا المشاق النكيرة في هذا السنة و استدركتها المهمات الثقيلة في موت عسكرنا و موت إخواننا و نهب أموالنا و مع وجودكم لا بأس بما يلحقنا من النهب و التعب و الموت و الأخذ و لا يضرنا ذلك (كذا) في جانب الدولة فالمرجو من الله انتصارها و استقام أحوالها... »[2]. بعد ذلك يحيطه علما بالدور الكبير الذي باشره في سبيل إخضاع سكان المنطقة لإرادته و بالتالي لإرادة السلطة الاستعمارية الفرنسية، و يتعلق الأمر بتصديه للاضطرابات التي أعلنتها قبائل العرب الشراقة التي اشتهرت بتمردها على السلطة الاستعمارية، و بنجاح المهمة التي كلفه بها العقيد الفرنسي الذي كان يشرف على تصريف شؤون المنطقة حيث ذكر له: « ... كان كلفنا بالوقوف مع العرب الشراقة بخمود (كذا) اضطرابهم و تسكين روعتهم فبذلنا الجهد في إرشادهم إلى عمل الخير و الصلاح و ترك أسباب الفتن كما يجب عند ذالك (كذا) فامتثلوا و انتهوا عما نهوا عنه و نزلت العافية بتيسير الله في جميع القرى و أهل البادية بوطن الصحراء من الخنقة إلى أولاد جلال و جميع مسالك الطرق مأمونة من الغارات و اللصوص... ».[3]

---

[1] A.O.M : 2H57 : Lettre de Si Ali Bey ben Ferhat kaid de Tougourt à Monsieur le général Delacroix Commandant de La province de constantine, expédiée Le 18 octobre 1871, n° 19 ينظر الملحق رقم09 :

[2] Idem .

[3] Idem.

و يتكلم له في موضع آخر من هذه الرسالة عن رغبته الشديدة في الاجتماع بحضرته بمدينة قسنطينة، غير أن المسؤولين العسكريين و على رأسهم العقيد الفرنسي الذي يشرف على إدارة شؤون باتنة منعه من ذلك، و رغم ذلك فإنه لم يفقد الأمل في هذه الزيارة قائلا له «... و لا زالت رغبتنا في الاجتماع بك فالمرجو من الله تيسير ذالك (كذا)... ».[1]

بعد ذلك أخذ يحدثه عن التسويات التي اقترحتها الإدارة الفرنسية على قبائل المنطقة و خاصة العرب الغرابة و قبائل الصحاري و غيرها، والتي كانت متطاحنة حول مناطق الانتجاع و الحدود المرسومة بينها، و عدم احترام بعضها لهذه التسويات المقترحة، إلا أنه استثنى من ذلك القبائل التابعة له إلى جانب بعض القبائل الأخرى فيقول له: «... أما نحن و العرب امتثلنا و اتبعنا ما أمرونا به الحكام كما يجب... ».[2] فهو بذلك يريد أن يبين للفرنسيين أنه خادم مطيع لهم في الظروف العصيبة، و أنه أيضا يتحكم بصورة جيدة في مفاصل القيادة المسندة إليه من قبل الفرنسيين.

و بهدف فرض هذه التسويات، ذكر علي باي في رسالته أن أحد الضباط الفرنسيين برتبة نقيب انتقل إلى هذه الأعراش لتعريفهم بحدودهم المرسومة، غير أنهم بقوا مصممين على عدم الاعتراف بها، مما دفع به إلى التحرك و دون تمهل إلى إخطار العقيد الفرنسي الذي كان المسؤول الأول على المنطقة. و تبعا ذلك تقدم النقيب الفرنسي إليه فاستنفر قوة عسكرية من فرسانه توجه بها إلى هذه الأعراش المتمردة و أجبرهم على الامتثال لأوامر السلطة الفرنسية و احترام الحدود المرسومة لكل عرش، و ضرورة التزام كل عرش باحترام " السيادة الترابية" للعرش الآخر، كل هذا في إطار الامتثال لأوامر السلطة الفرنسية. و عبر عن ذلك بقوله: «... فمنعناهم من العبور عنها قهرا... » [3]

و انطلاقا مما تقدم يتبين لنا أن الفرنسيين عندما عينوا علي باي بن فرحات بن السعيد قايدا على تقرت لم يكونوا مخطئين في اختيارهم، لأن خدماته لهم كانت ثمينة. و ربما هذا ما يفسر إعجابهم الشديد به.

7-دور عائلة ابن جلاب

لا يكتمل الحديث عن الدور الذي لعبته عائلات الجنوب القسنطيني محل هذه الدراسة في التمكين للاحتلال دون التطرق إلى الدور الذي لعبت عائلة ابن جلاب. فبعدما أحكم الفرنسيون

[1] Idem.
[2] Idem.
[3] Idem.

قبضتهم على مدينة بسكرة عام 1844م، أعلن عبد الرحمان بن جلاب سلطان هذه العائلة ولاءه لهم و رضي بدفع ضريبة سنوية لهم لقاء السماح له بشراء المواد الغذائية الأساسية كالحبوب و نحوها من المناطق التلية.[1] و بدخول هذه العائلة في طاعة الفرنسيين و في الخدمة الفعلية لإدارتهم، تكون الإدارة الاستعمارية قد حققت مكاسب كبيرة، حيث عملت هذه العائلة على تسهيل مهمة التوسع الاستعماري بالجنوب القسنطيني[2]

و قد أخذ هذا التوسع أيضا طابعا استكشافيا و علميا. ففي عام 1847م استقبلت الصحراء الجزائرية وفودا من المستكشفين الفرنسيين منهم « ماريوس غارسين » « Marius Garcin »، و « م.دي شوفاريي » « M. de chavarrier »، كما استقبلت بعثة وزارية خاصة من العاصمة الفرنسية باريس، إضافة إلى الزيارة العلمية التي قام بها مهندس المناجم الفرنسي « ديبوك » « M.Dubocq »، و السيد « ديبوسكي » « Dubosquet » رئيس المكتب العربي لدائرة بسكرة. و يفهم من إحدى التقارير العسكرية الفرنسية التي أرسلها الضابط الفرنسي ديبوسكي الذي رافق مهندس المناجم المذكور أن مقاصد الإدارة الفرنسية من وراء هذه الزيارة تنصرف بالأساس إلى معرفة كنوز مدينة تقرت و منطقتها و ما تزخر به من ثروات باطنية، بالإضافة إلى معرفة الموقف الحقيقي لسلاطين بن جلاب من الوجود الفرنسي بالمنطقة إضافة إلى الوقوف على طبيعة العلاقات التجارية مع المناطق الجنوبية ذات المساحة المترامية الأطراف.[3]

و خلال زيارة هذه الوفود إلى مدينة تقرت مقر حكم سلاطين بن جلاب، استقبلهم سلطان هذه العائلة و رحب بهم ترحيبا كبيرا.[4] و بهذا يكون السلطان عبد الرحمان بن جلاب حسب الرائد « سيروكا » قد برهن على حسن نيته في التعامل مع الإدارة الفرنسية،

---

[1] L.ch.Féraud : »Les ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur La province de Constantine », in R.A n° 24, Année 1880, p 304.

[2] أحميدة عميراوي : دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، شركة دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الثانية، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 176.

[3] A.OM : 1kk8 : Rapport du lieutenant Dubosquet sur Touggourt le 25/04/1848, n° 67

[4] L.ch. Féraud : op.cit, p 304.

فمنذ ذلك الوقت توطدت علاقته بالفرنسيين، و زارهم في دائرة بسكرة التي استقبله فيها الرائد « سان جرمان » « St Germain »، غير أنهم رفضوا تزويده بالأسلحة و العتاد لاستعمالها في محاربة أعدائه في واحات سوف.[1]

و رغم ذلك فإن سلطان تقرت لم يحجم على خدمة الفرنسيين. ففي عام 1850م، نجده يتعاون مع قايد بسكرة محمد الصغير بن قانة في محاربة القبائل الثائرة في وجه المحتل لاسيما قبائل الأرباع و الحرازلية حيث زوده بمعلومات دقيقة حول تحركاتهم، و أشار له بأن هذه القبائل استقرت بواحة الهجيرة الواقعة على بعد عشرين فرسخا. « 20 lieues » جنوب غرب مدينة تقرت.[2]

و في عام 1853م كتب سلمان بن جلاب و هو ابن عم السلطان عبد الرحمان الجلابي رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر قال له فيها : «... خدمت الدولة الفرانسوية (كذا) و اديت ما علي من اللازمة و نقيت (كذا) المنافقين من الورود (كذا) لبلادي و أخذتهم و أرسلت كسبهم إلى الحاكم ببسكرة السيد الكماندة كلنو(كذا)... ».[3]

و بصرف النظر عن السياق العام الذي كتبت فيه هذه الرسالة لأنها جاءت كمرافعة من سلمان الجلابي الذي أراد استخلاف قيادة تقرت بعد وفاة ابن عمه عبد الرحمان عام 1852م، إلا أنه حاول من خلالها إبراز فضله عليهم عساهم أن يسندوا له هذا المنصب. إن هذه الرسالة تبرز لنا وفاء سلمان الجلابي للفرنسيين و دوره الكبير الذي لعبه في التمكين لهم في مجال تحصيل المجابي، و كذا في مجال محاربة الثائرين أو « المنافقين »على حد توصيفه و توصيف الفرنسيين للثوار في تلك الفترة، و منعهم من التقرب إلى المناطق التي كانت تابعة له، و قيامه بمصادرة أرزاقهم و كل ما ملكت يداهم و وضعها بين يدي الحاكم العسكري ببسكرة الرائد « غلينون » « Glenon ».

و بهذا يكون سلمان بن جلاب قد نافس ابن عمه السلطان عبد الرحمان في خدمة الفرنسيين و التمكين لهم بالجنوب القسنطيني أو صحراء قسنطينة كما كان الفرنسيين يسمونها.

[1] Commandant Seroka : op.cit, p 501
[2] Ibid, pp 526, 527
[3] I.S.H.M.N.T : Archives du Ministère des Relations Exterieures, quai d'Orsay, Paris, France, Série correspondance politique, carton n° 13, Bobine 291 : Lettre du Selman ben Ali ben Djellab cheik de Tougourt au sultan grand gouverneur, datée au Radjab 1269, Folio 212. ينظر الملحق رقم 10.

لقد سقنا أمثلة عديدة عن دور العائلات الكبرى في التمكين للمستعمر الفرنسي في المجال العسكري بالأساس. و غني عن البيان أن هذه الأمثلة ذكرت على سبيل المثال لا الحصر لأن خدمات هذه العائلات كانت أكثر بكثير من ذلك، و هي خدمات لا تترك مجالا للشك في أن الفرنسيين استفادوا منها كثيرا و ساعدتهم على تثبيت أقدامهم بالجزائر و القضاء على كل حركة ثورية تستهدف وجودهم. و لم تقتصر خدمات هذه العائلات على هذا الجانب فحسب، بل طالت أيضا الخدمات المتعلقة بجباية الضرائب كما سنبين ذلك في ما يلي.

II- الدور الضريبي

بعدما أحكم الفرنسيون قبضتهم على الجزائر عام 1830م، سنوا حزمة كبيرة من الضرائب على الجزائريين، و كلفوا القيادات الأهلية بجبايتها. و ليس المجال هنا هو البحث في السياسة الضريبية التي باشرها المستعمر الفرنسي في الجزائر، لأن تلك السياسة لا تعنينا في هذا المجال، و إنما الذي يعنينا هو دور العائلات الكبرى في جباية الضرائب لصالح الإدارة الفرنسية. و حسبنا التذكير بأن هذه القيادات الأهلية كانت تباشر هذه العملية السيئة السمعة خلال السداسي الأول من كل سنة حيث كانت تضبط القوائم خلال شهر يناير، بينما عملية الاستخلاص كانت تتم خلال شهر ماي. و قد تميزت هذه العملية بالتعسف و الظلم و تجاوز السلطة و انتشار الرشوة و سائر أنواع التجاوزات و التصرفات غير الحميدة أثناء عملية جبايتها. و كان الطرف الضعيف في كل هذه العملية هو الفلاح الجزائري الذي كان يلتزم بدفعها، و بالمقابل لا يستفيد منها إطلاقا لأن الذين يستفيدون منها هم الكولون و مختلف المصالح الإدارية الفرنسية. و كانت هذه الضرائب تفرض على السكان في كل الظروف و في كل الأحوال بما في ذلك سنوات القحط و المسغبة، و لم يراع فيها الجانب الإنساني.[1]

هذا، و قد فرضت الإدارة الاستعمارية الفرنسية ضرائب كثيرة و مجحفة أثقلت كاهل السكان الجزائريين، فبالإضافة إلى ضريبة زكاة العشر التي تعود في الأصل إلى العهد العثماني، و التي حافظت عليها الإدارة الفرنسية، فقد ألزم السكان بدفع أصناف أخرى من الضرائب وفقا لأحكام القانون الفرنسي [2]

[1] أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص ص 77، 78

[2] أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 46.

الصادر بمقتضى الأمر الملكي بتاريخ 17 يناير 1845 الذي نظم عملية جبايتها و التي اصطلح على تسميتها بالضرائب العربية،[1] و الثابت أن الضرائب العربية هي الضرائب التي يدفعها الجزائريون دون سواهم، أي أنها لا تخاطب الكولون.

و من أجل تبرير سياستهم الضريبية الخرقاء، ساق الفرنسيون عدة حجج واهية منها أن الجزائريين لهم أموال طائلة، هم في غنى عن صرفها، لأن حياتهم اليومية بسيطة و غير معقدة و لا تكلفهم مصاريف كثيرة، فهم لا يسكنون المنازل المجهزة و المكلفة، و إنما يسكنون الخيام و البيوت القصديرية و المنازل البسيطة. و ما يستهلكونه هو من صنع أياديهم أو من حيواناتهم، و عليه فأموالهم مكنوزة لديهم، و من الملائم أن تفرض عليهم الإدارة الفرنسية هذه الضرائب حتى يستفيدوا منها في مختلف المشاريع التي تدشنها الإدارة الفرنسية لصالحهم من منطلق أن عوائد الضرائب تنعكس على المنفعة العامة. [2] و هو إدعاء باطل بطلانا مطلقا لا يحتاج إلى إقامة الدليل لدحضه.

و قد تعددت تسميات الضرائب العربية المفروضة على الجزائريين و اختلفت من منطقة لأخرى. ففي مقاطعة قسنطينة مثلا كان سكان المناطق الخاضعة للحكم المدني ملزمين بدفع ضرائب الزكاة، و العشر و الحكر، و اللزمة الثابتة، و اللزمة البيتية، و لزمة النخيل، في حين كان سكان المناطق الخاضعة للحكم العسكري ملزمون بدفع كل أصناف الضرائب المذكورة باستثناء ضريبة اللزمة البيتية [3]

و كانت ضريبة زكاة العشر تدفع على المحاصيل الزراعية بمعدل 20 فرنك فرنسي لكل هكتار من الأرض المزروعة، أما ضريبة الزكاة المفروضة على الأنعام فتختلف من حيوان إلى آخر، فالجمل ضريبته حوالي 4 فرنكات فرنسية، و البقرة ضريبتها حوالي 3 فرنكات، و الخروف ضريبته حوالي 0.20 فرنك فرنسي، بينما الماعز كانت ضريبته 0.15 فرنك فرنسي. و لم تكن المقادير ثابتة، بل كانت تختلف من سنة إلى أخرى. و كانت قيمتها تحدد سنويا بناء على توجيهات القادة الأهليين و رؤساء العائلات الكبرى و مسؤولي المكاتب العربية لأنهم كانوا أكثر إطلاعا و احتكاكا بعامة السكان.

[1] Charles-Robert Ageron : Les Algeriens Musulmans et la France 1871-1919, Tome premier, op.cit, p 250

[2] أبو القاسم سعد الله :المرجع السابق، ص 77.

[3] عبد الحميد زوزو: نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830- 1900، المصدر السابق، ص 126.

و كانت ضريبة الحكر منتشرة في مقاطعة قسنطينة دون سواها من المناطق الأخرى. و يتشكل وعاؤها من الأموال المستخلصة من كراء أراضي الدولة (البايلك) أي أراضي العرش التي يحوز فيها السكان على حق الاستغلال بينما ملكيتها تؤول إلى الدولة أي الإدارة الاستعمارية الفرنسية. أما ضريبة اللزمة فكانت منتشرة بشكل كبير في منطقة الزواوة، و هي تلزم كل شخص يكون قادرا على حمل السلاح. و بمفهوم المخالفة يعفى منها الأطفال و العجزة و كل شخص سقيم، و يدفعها المكلف بها تعويضا عن دفع ضريبة الزكاة و العشر. أما سكان الصحراء المالكون لحقول النخيل فيدفعون ضريبة لزمة النخيل عن كل نخلة.

و لم تكتف الإدارة الفرنسية بفرض هذه الضرائب فحسب، بل أضافت إليها أصنافا أخرى من الضرائب كضريبة نقل البضائع الرسمية التي يؤديها الجزائريون دون مقابل، و ضريبة حراسة الغابات، و ضريبة حراسة المدن و غيرها. و كان الجزائريون يزودون الخزينة العمومية الفرنسية بأكثر من 20 مليون فرنك فرنسي، و هو رقم يتجاوز المبلغ المالي الذي كان الفرنسيون يقدمونه إلى خزينة بلادهم في فرنسا. و الثابت أن هذه الضرائب ساهمت إلى حد كبير في تدمير ثروة السكان و دفعت بهم دفعا إلى الاستسلام و طلب الأمان.[1]

و المؤكد أن السكان الذين يرفضون دفع هذه الضرائب يتعرضون إلى أقصى أصناف العقوبات كتطبيق الحجز على ممتلكاتهم و مصادرتها، بل ربما أحيانا اللجوء إلى أسلوب الإكراه البدني ضدهم. و في كل هذه الممارسات كان القادة الأهليون و زعماء العائلات الكبرى يلعبون دورا محوريا في تحصيلها و جبايتها على مستوى القيادات الخاضعة لسلطتهم.

و قد رأينا فيما مضى أن الخلفاء و رؤساء الأهالي المخاطبين بأحكام مرسوم الماريشال « فالي » كانوا ملزمين بجباية الضرائب و المغارم و استخلاصها من السكان التابعين لقياداتهم وفقا لأحكام المادة الخامسة من هذا المرسوم. و تطبيقا لذلك، شرع هؤلاء الخلفاء في تنفيذ المهمة التي أوكلت لهم. و في ما يلي نسوق أمثلة على ذلك.

1- دور عائلة المقراني

لقد ساهمت عائلة المقراني في تزويد الخزينة الفرنسية بأموال طائلة يتم استخلاصها من مختلف

(1) أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص ص 76، 77.

القبائل المنضوية تحت قيادتها في شكل ضرائب مختلفة، فقد كانت قبيلة الونوغة تزود الخزينة العمومية الفرنسية بضريبة سنوية تصل قيمتها الإجمالية إلى 24.500 فرنك فرنسي، و كان الخليفة أحمد المقراني يؤكد للإدارة الفرنسية أنه سيعمل على رفع قيمة هذه الضريبة حتى تصل إلى 30.000 فرنك فرنسي. [1]

و يبدو أن الإدارة الفرنسية كانت شديدة الحرص على متابعة عملية استخلاص هذه الضريبة من قبل عائلة المقراني. فقد كانت تنبه الخليفة أحمد المقراني بكل تقصير يصدر من جانبه في هذا المجال. ففي عام 1849م لفتت إنتباهه إلى أن لديه مخلفات ضريبية تعود إلى عام 1847م، و طالبته بتسديدها دون إبطاء. و يلاحظ أن قبيلة مجانة المخزنية التي كانت معفاة من الضريبة كانت مشمولة بهذه المطالبة الضريبية إلى جانب قبائل أخرى غير مخزنية. و عندما احتج الخليفة أحمد المقراني على هذا الإجراء، ادعت المصالح الضريبية أن تلك المطالبة وقعت سهوا.[2] و هو إدعاء ضعيف الحجة، لأنه لا يتصور أن تخطأ مصالح الضرائب الفرنسية في تقدير هذه المسائل الحيوية بالنسبة لها. فهدف الإدارة الاستعمارية كان التضييق على هذه العائلة و على زعيمها أحمد المقراني تمهيدا للتخلي عن خدماته و خدمات عائلته بصفة عامة، و هي سياسة لم تتبعها مع هذه العائلة فحسب، بل درجت عليها مع سائر العائلات الأخرى.

2- دور عائلة بوعكاز بن عاشور

أما عائلة بوعكار بن عاشور بفرجيوة، فقد كان وضع زعيمها الشيخ أحمد بوعكاز استثنائيا. فإذا كان رؤساء الأهالي الآخرين المخاطبون بتدابير أحكام مرسوم الماريشال « فالي » الصادر عام 1838م ملزمون بدفع ثلثي الضريبة مع الاحتفاظ بالثلث الباقي، فإن الشيخ أحمد بوعكاز كان يقوم بدفع ضريبة سنوية ثابتة و محددة و ذلك بصرف النظر عن قيمة الضريبة التي كان يحصلها.[3]

و ذكر الضابط الفرنسي « فيرو » أن قيمة هذه الضريبة كانت لا تتجاوز 40.000 ألف فرنك فرنسي، و عندما استفسره الفرنسيون عن سبب ضعف مساهمته الضريبية، كان يجيبهم بأنه لا يستطيع جبايتها من سكان و قبائل قيادته بصورة دائمة و مستمرة، و رغم ذلك فقد كان يحترم مواعيد تقديمها، حيث كان ملتزما بتقديمها للخزينة الفرنسية بطريقة منتظمة، غير أن رقم هذه الضريبة

(1) A.O.M : 1KK2 : Correspondance Générale de la division : Rapport de la subdivision le 08/02/1845, n° 8.

(2) A.O.M : 44KK7 : Correspondance Générale de la division de constantine Rapport de la subdivision de Setif Le 28/12/1850.

(3) A.O.M : 1KK8 : Correspondance Générale de la division : Rapport du 17/06/1848 de Constantine, n° 62.

كان يرتفع بشكل لافت للانتباه في السنوات اللاحقة، [1] حيث وصلت عام 1861م إلى 50.000 فرنك فرنسي، و كان وعاؤها يتشكل من ضريبتين أساسيتين هما ضريبة اللزمة المقدرة بـ 36.500 فرنك فرنسي و ضريبة العشور المقدرة بـ 13.500 فرنك فرنسي.[2] هذا، و قد واصلت قيمة هذه الضريبة ارتفاعها بصورة تدريجية حيث قدرت في مطلع عام 1864م بـ 75.000 فرنك فرنسي. [3]

3- دور عائلة أولاد عز الدين

الواقع أن الاستثناء الضريبي لم يكن حكرا على عائلة بوعكاز بن عاشور و زعيمها الشيخ أحمد بوعكاز، بل شمل أيضا جارتها عائلة أولاد عز الدين بالزواغة. و قد عرفنا فيما مضى أن المنطقة التي كانت تبسط عليها هذه العائلة سيادتها كانت من المناطق المحرمة على الفرنسيين بفعل مقاومة سكانها للوجود الاستعماري، و هي المقاومة التي كان الفرنسيون يحاولون تشويه صورتها و ينعتونها بأوصاف مشينة و غير حميدة كاللصوصية و نحو ذلك. و بفعل هذا الوضع كانت علاقة الإدارة الاستعمارية بكبير هذه العائلة الشيخ محمد علاقة فاترة وضعيفة. و رغم ذلك كان يرسل إلى الفرنسيين قدرا قليلا من الضرائب التي كلف بجبايتها من السكان، و كان الفرنسيون يصرفون النظر عن ذلك و يتلافون مضايقته، و ادعى « فيرو » أن سبب ذلك يعود بالأساس إلى انشغالهم بمسائل أخرى أكثر أهمية. [4] و هو مبرر يجوز فيه النظر، لأن الفرنسيين لم يتمكنوا من إحكام قبضتهم على هذه المنطقة بصورة كاملة ، و ليس بسبب انشغالهم بأمور ذات أولوية كما يدعون.

4- دور عائلة الرزقي

كانت عائلة الرزقي تبسط سيادتها على مناطق شاسعة على مستوى دائرة قالمة، و سوق اهراس و تبسة. و كان زعيمها ابراهيم الرزقي يؤدي ضريبة ثابتة للإدارة الاستعمارية منذ بداية الاحتلال الفرنسي. و قد حددت المادة الخامسة من القرار الإداري الذي أصدره الماريشال « فالي » في الفاتح من نوفمبر 1838م، المنظم للتقطيع الإداري لإقليم مدينة عنابة صلاحيات هذا القايد، حيث أوكلت له مهمة جباية الضرائب التي يتولى استخلاصها من قبائل دائرة عنابة، ثم يحولها إلى الحاكم العسكري للدائرة،

---

(1) L.ch.Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur La province de Constantine », op.cit, p 92.

(2) A.O.M : 1KK8 : Correspondance Générale de la division de Constantine : Rapport du 07/11/1861 n° 537.

(3) A.O.M : 2H27 : Lettre du khalifat de Ferdjioua à M^{r} le Commandant de division de Constantine, Le 24 Avril 1864.

(4) L.ch. Féraud : op.cit, p 250.

على أن تحاط هذه العملية برقابة صارمة حيث تحرر في محاضر تسجل عليها كل المعطيات المتعلقة بهذه العملية. و في مقابل ذلك فإن القايد ابراهيم الرزقي لا يتقاضى راتبا شهريا، بل يكتفي بالاحتفاظ بثلث ضريبة العشر التي يقوم بجبايتها و تقديم القيمة المتبقية إلى الخزينة العمومية الفرنسية. [1]

5- دور عائلة ابن قانة

أما عائلة ابن قانة بالجنوب القسنطيني، فقد كان زعيمها شيخ العرب بوعزيز بن قانة يزود الخزينة الفرنسية بمبلغ مالي معتبر. و تبعا لأحكام مرسوم الماريشال « فالي » الذي تكلمنا عنه في غير هذا الموضع، فقد كان شيخ العرب يقدم للفرنسيين ثلثي مبلغها و يحتفظ بالجزء المتبقي. و إلى جانب ذلك، كانت قبائل البدو الرحل التابعة لقيادته ملزمة هي الأخرى بدفع ضريبة سنوية للإدارة الفرنسية يقوم باستخلاصها شيخ العرب بوعزيز بن قانة. و عموما كانت قيمة الضريبة التي يقدمها للخزينة الفرنسية تقدر بأكثر من 44.000 فرنك فرنسي.[2] و بهذا يجوز القول أن عائلة ابن قانة كانت تقدم ضريبة ذات قيمة معتبرة و مفيدة للخزينة الفرنسية. و قد صدقت توقعات الجنرال « غالبوا » رئيس القطاع العسكري القسنطيني حينما خاطب حاكمه العام الماريشال « فالي » في تقرير وجهه له بتاريخ 1838/12/29م متحدثا له عن محاسن الاعتماد على بوعزيز بن قانة في المشروع الكولونيالي مؤكدا له بأنه بإمكانه أن يوفر للخزينة الفرنسية مبلغا ماليا يمكن أن يصل إلى 50.000 فرنك فرنسي.[3]

و رغم ذلك كان الفرنسيون يشككون في قيمة الضرائب التي يزودهم بها، و كانوا يتهمونه بإخفاء جزء منها و عدم إعلامهم بكل الأموال التي يقوم باستخلاصها.[4] و ربما كانوا يرومون استفزازه من وراء هذه الاتهامات، لأنهم كانوا يدركون جيدا مدى إخلاصه للسلطة الفرنسية.

(1) Capitaine Maitrot : op.cit, p 355

(2) A.O.M : 1KK3 : Correspondance Générale de la division de Constantine : Lettre du Gouverneur général au capitaine Saint-Germain, datée le 19/01/1845, n° 3.

(3) L.ch.Féraud : »Les Ben-Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur La province de Constantine », in R.A n° 28, Année 1884, p 236.

(4) A.O.M : F 80. 493 : Bureaux arabes : Rapports de Constantine 1846, cercle de Biskra. Rapport de la 2éme quinzaine de Décembre 1846.

6- دور عائلة بوعكاز الذواودة

لقد رأينا فيما مضى أن الفرنسيين أسندوا منصب شيخ العرب في بداية الأمر إلى الشيخ فرحات بن السعيد زعيم عائلة بوعكاز الذواودة و ذلك بمقتضى أحكام مرسوم الماريشال « فالي » عام 1838م، و كلفوه بجباية الضرائب، و عرفنا كيف خدم الإدارة الاستعمارية، و كيف انتهى به الأمر بالعزل من منصبه و تعويضه ببوعزيز بن قانة عام 1840م.

و عندما عين الفرنسيون نجله علي باي قايدا على مدينة تقرت في 1854/12/26م، فقد عمل هو الآخر كل ما في وسعه من أجل التمكين للفرنسيين و الإخلاص في خدمتهم و إرغام السكان على دفع الضرائب، بل وقد بالغ في ذلك، كما تشير التقارير الفرنسية، حيث كانت قيمة الضريبة التي كان يقوم بجبايتها من السكان و يقدمها إلى خزينة الإدارة الفرنسية مرتفعة جدا، و هذا بالمقارنة مع قيمة الضريبة التي يقدمها الزعماء الأهليون الآخرون، حيث قدرها تقرير بقلم أحد المسؤولين العسكريين الفرنسيين بتاريخ 1856/02/02م بـ 55.837 فرنك فرنسي.[1] أي خلال المرحلة الأولى من بداية حكمه كقايد لمدينة تقرت و المناطق المجاورة لها.

انكب القايد علي باي على تمكين الفرنسيين ضريبيا، و مارس كل وسائل القهر و الترهيب من أجل جعل السكان و القبائل التابعة له تذعن لإرادة المحتل الفرنسي. و ربما تجاوز الحدود التي رسمها له الفرنسيون، حيث جمع خلال مدة حكمه التي دامت زهاء تسع عشرة سنة من سكان و قبائل وادي سوف و وادي ريغ ضريبة مرتفعة قدرت باثنين و ثلاثين مليون فرنك فرنسي. و قد لاقى أهل وادي سوف في فترة حكمه من جوره و تجاوزاته الضريبية و تعديه بأنواع المظالم، و نالهم من الخطب و ضروب الهوان ما لم يوصف من ذلك مثلا أنه أرسل خطابا إلى بعض من أثرياء وادي سوف ألزمهم فيه بدفع ضريبة افتراضية، سببها أن جواسيسه و عيونه بالمنطقة أحاطوه علما أن تلك الجماعة تآمرت على قتله !

و من أخبار تجاوزاته الضريبية أيضا أنه في عام 1862م أمر بتصفية المسمى الشيخ عون الذي وجه له تهمة التآمر عليه، ثم بعد ذلك فرض عقوبة جماعية على سكان عرش أولاد أحمد بتهمة قتل هذا الشيخ. و قد تمثلت هذه العقوبة في غرامة مالية قدرها ستة آلاف 6.000 فرنك فرنسي تدفع سنويا إلى إبنه محمد و ذلك إلى غاية بلوغه سن الرشد. و لما كان إبن الهالك صبيا صغيرا غير مميز، فقد ألزم سكان هذا العرش بدفعها لمدة إثنتي عشرة سنة كاملة. و الطريف في ذلك أن الابن لم يقبض من

[1] A.O.M : 10KK1 : Correspondance du Cabinet : Rapport du 02/02/1856, n° 18.

هذه الضريبة سوى قيمة سنة واحدة، و أما أموال السنوات الإحدى عشرة الأخرى، فقد أخذها القايد علي باي ظلما و عدوانا ! [1]

و لم يكتف علي باي بجباية الضرائب المفروضة على السكان المنضوين تحت قيادته فقط، بل كان يلعب دور الوسيط بين الإدارة الفرنسية و بعض القبائل الأخرى التي كانت ترضى بدفع الضرائب مقابل الحصول على الأمان. و في هذا السياق يذكر العقيد « تروملي » أن القايد علي باي كان يتلقى الضريبة التي تقدمها له قبيلة الشعانبة ليحولها بعد ذلك إلى الخزينة الفرنسية. و قد فضلت هذه القبيلة الاستسلام و طلب الأمان بسبب اضطراب الأوضاع الأمنية على مستوى طرقات مدن متليلي، و ميزاب، و ورقلة. و هي الأوضاع التي أعاقت نشاطهم التجاري. و قد قدرت الضريبة المفروضة على هذه القبيلة بألف 1.000 فرنك فرنسي عام 1867م.[2]

و بصرف النظر عن صحة هذه الروايات أو زيفها، فالشيء الثابت أن القايد علي باي حكم سكان مدينة تقرت و المناطق المجاورة لها بقبضة حديدية، و خدم الإدارة الاستعمارية في مختلف المجالات و مكنها من الناحية الضريبية.

7- دور عائلة ابن جلاب

كانت عائلة ابن جلاب قد وطدت علاقتها بالإدارة الاستعمارية الفرنسية بعد احتلال مدينة بسكرة عام 1844م، و كان وجهاؤها قد رضوا بدفع ضريبة سنوية مقابل السماح لهم باقتناء بعض المواد الاستهلاكية من المناطق التلية كما رأينا سابقا. و ذكر تقرير بقلم أحد ضباط المكاتب العربية عام 1845م أن قيمة الضريبة السنوية التي كانت تقدمها هذه العائلة للخزينة الفرنسية حينئذ قدرت بـ 20.000 فرنك فرنسي.[3]

و انطلاقا من الأمثلة التي سقناها حول دور العائلات الكبرى في التمكين للفرنسيين في مجال الضريبة يتضح لنا أن هذه العائلات كانت تشكل رافدا مهما من روافد الإدارة الاستعمارية في مجال جباية الضرائب، لاسيما و أن قيمتها كانت تحدد و تضبط انطلاقا من عدة معطيات و معايير أبرزها

[1] إبراهيم محمد الساسي العوامر: المرجع السابق، ص ص 314، 315.

[2] C. Trumelet : « Notes pour servir à L'histoire de L'insurrection dans le sud de La province d'Alger de 1864 à 1869 », in R.A n° 26, Année 1882, p 348.

[3] A.O.M : F80. 493 : Rapports des bureaux arabes de la division de Constantine : Rapport de quinzaine du bureau arabe de la subdivision de Biskra du 1er au 15 mai 1845.

توجيهات و توصيات قادة هؤلاء العائلات الذين يشرفون فيما بعد على عملية تحصيلها، و يعاقبوا الرافضين الامتثال لها أو على الأقل يبلغون عنهم لدى السلطات الاستعمارية، و هي بالتالي عملية سيئة السمعة و تثير امتعاض السكان و تساهم بشكل مركزي في تدمير ثروتهم.

III- المساهمة في التصدي للأخطار الخارجية و حماية الحدود الشرقية للجزائر و دعم جيوش فرنسا و مصالحها في الخارج.

كانت مسألة ضبط الحدود بين الجزائر المستعمرة الفرنسية و إيالة تونس إحدى المسائل الخلافية بين قيادتي الطرفين، و مما زاد في تفاقمها أن الجماعات البشرية المقيمة على الحدود كانت تتنقل بحرية بين البلدين، و لم ينظر إليها على أنها جماعات أجنبية لأنها تنتسب إلى الأمة الإسلامية و بالتالي فإن مسألة جنسيتها لم تكن مطروحة، لأن هذه المسألة طرحت اعتبارا من القرن 19م، ضمن المنظومة القانونية الجديدة التي استحدثها الاستعماري الأوروبي الحديث في مستعمراته.[1]

و في هذا المنظور كان الفرنسيون يعملون على مراقبة حدود الجزائر الشرقية لتحقيق أمنهم الاستعماري في هذه المناطق التي كانت تأوي الفارين من البطش الاستعماري و الثائرين على إرادة السلطة الاستعمارية. و لتحقيق هذا الغرض استعانت الإدارة الاستعمارية بقادة العائلات الكبرى و بالأساس قادة العائلات القريبين من هذه المناطق الحدودية الذين عملوا على ترجمة إرادة المستعمر بهذه المناطق، كما عضدوا الجيوش الفرنسية أثناء تصديها لبعض الثوار التونسيين والطرابلسيين الذي ثاروا ضد نظام حكمهم، و نقلوا نشاطهم الثوري إلى بعض مناطق مقاطعة قسنطينة، و لم يقتصر دور هذه العائلات على ذلك فحسب، بل تجاوزه إلى أبعد من ذلك حيث راحوا يترجمون إرادة المستعمر كذلك حتى على الصعيد الخارجي، فساهموا في حماية المصالح الفرنسية و دعم جيوشها في الخارج، ذلك ما سنحاول تفصيله تباعا.

1- المساهمة في محاربة ثوار بلدان الجوار

ساهم زعماء بعض العائلات الكبرى في محاربة بعض الثائرين الطرابلسيين و التونسيين الذين نقلوا مدهم الثوري إلى تراب مقاطعة قسنطينة، و تصدوا لهم إلى جانب الجيوش الفرنسية عندما تسللوا إلى هذه المنطقة. و في ما يلي نبسط الحديث عن ثائرين بارزين.

[1] عبد الكريم الماجري : المرجع السابق ، ص359.

أ- محاربة الثائر الطرابلسي غومة المحمودي * (1844م – 1858م).

في عام 1856م تسلل غومة المحمودي إلى البلاد التونسية رفقة أربعين نفرا من أنصاره و مؤيديه عبر الجنوب الجزائري[1] و كان الفرنسيون يتوجسون خيفة من نشاط هذا الثائر، لذلك حاولوا لجم حركته بالاعتماد على القوة التي كانت توجد تحت إمرة القايد علي باي. و هذا مانلمسه من المراسلات التي كان يتبادلها الرسميون الفرنسيون حول هذا الموضوع، حيث كتب الحاكم العام الفرنسي بالجزائر رسالة إلى وزير الحربية بتاريخ 1856/07/29 قال له فيها «... أن الشيخ غومة الذي شكل موضوع برقيتكم المرسلة إلينا بتاريخ 1856/07/03، قام بمراسلة علي باي قايد تقرت ملتمسا منه السماح له بشراء الحبوب من أسواقنا. و على إثر ذلك قام علي باي بإرسال هذه الرسالة إلى القائد العسكري لشعبة بسكرة، كما أطلع عليها قائد القطاع القسنطيني الجنرال « ديفو» لإبداء الرأي.و فور بلوغنا هذا النبأ فإننا أعطينا أوامرنا بعدم السماح لهذا الشيخ بالتزود من أسواقنا...» [2]

* غومة المحمودي زعيم قبلي و حاكم لمنطقة الجبل الغربي بإيالة طرابلس، أعلن الثورة ضد الأسرة القرمانلية الحاكمة بسبب الضرائب المجحفة التي فرضتها على السكان عام 1841م، غير أنه نفي إلى الخارج. و رغم ذلك بقي ثائرا على نظام الحكم بطرابلس، و حاول الاحتماء بإيالة تونس غير أن محمد باي تونس أبعده و منعه من الاستقرار بالبلاد التونسية. و بسبب ذلك فقد نزح إلى الجزائر و فضل الاحتماء بالجنوب الشرقي.

بقي غومة المحمودي وفيا لنهجه الثوري إلى أن قتل يوم 1858/03/25م من قبل أعوان باشا طرابلس بالقرب من منطقة غدامس، و قد غدر به قاتلوه بعد ما منحوه الأمان. و بعد قتله حزت رأسه، ثم أمر كاهية غدامس بإرسالها إلى طرابلس. و عندما بلغت هذه الأخبار مسامع الباشا أعطى الأمر بعدم السماح بنقلها إلى طرابلس تلافيا لردود أفعال السكان و احتجاجاتهم ضد هذا الصنيع البربري. و رغم ذلك تصرف أعوان الكاهية عكس أوامر الباشا و أوصلوها إلى طرابلس يوم 1858/04/08م. فغضب الباشا و سلط عليهم غرامة مالية باهضة قدرت بـ 20.000 بسيطة تركية.

حول ثورة غومة المحمودي و نهايته المأساوية ينظر :

-I.S.H.M.N.T : Archives du Ministère des Relations Extérieures, Quai d'orsay, Paris, France, Série Correspondance Politique, Dossier n° 1 carton n° 18, Bobine 293 : Détails sur la mort du cheikh Ghouma, extrait d'une lettre traduite de L'Arabe de Tripoli datée le 25 chaâban 1274 H, 9 Avril 1858. Folio n° 70, 71, 72

- و ينظر كذلك:

عبد الكريم الماجري : المرجع السابق ، ص ص 161- 164

[1] محمد أمحمد الطوير: مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني في إيالة طرابلس الغرب 1835- 1858م، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، سلسلة دراسات معاصرة 4، الجماهيرية العربية الليبية، 1988، ص 73.

[2] I.S.H.M.N.T : A.O.M, Série 25H16 (1), Dossier n° 1 Bobine A21 : Lettre du gouverneur général au ministre de la guerre, expédiée le 29/07/1856, Folio 37.

كما تحدث في موضع آخر من هذه الرسالة عن مسوغات هذا الموقف و أوضح له بأنه إذا تم السماح له بالتزود بهذه المواد الغذائية فإن ذلك يتنافى مع المصالح الفرنسية بالجنوب الجزائري، لأن هذه المنطقة الحيوية تحولت في تلك الأثناء حسب توصيفه إلى وكر لنشاط « المتعصبين » « les fanatiques » أمثال الناصر بن شهرة و محمد بن عبد الله اللذين أحكما قبضتهما عليها و عاثوا فيها فسادا » [1].

و كان رد وزير الحربية على هذه الرسالة سريعا حيث كتب له خطابا بارك فيه الإجراء الذي باشره الحاكم العام فيما يخص هذا الموضوع.[2] و أرسل له خطابا آخر تكلم فيه عن موقف القنصل الفرنسي المقيم بطرابلس الغرب الذي كان يقاسمهم النظرة نفسها حول هذا الموضوع رافضا منح جواز تنقل(Un sauf- conduit) إلى هذا الثائر الطرابلسي لعبور التراب الجزائري. [3]

و بهذا نرى أن المسؤولين الفرنسيين وحدوا كلمتهم على ضرورة منع هذا الثائر من عبور التراب الجزائري معتمدين في ذلك كعادتهم على رؤساء الأهالي و على رأسهم القايد علي باي. و إذا كانوا قد وحدوا كلمتهم حول ضرورة مكافحة هذا الثائر فلأنهم كانوا يخشون أن يتم التنسيق بينه و بين الثائرين الجزائريين هناك الذين كانوا يسمونهم بـ « المتعصبين » و نلمس ذلك من خلال الرسالة التي أرسلها الحاكم العام الفرنسي إلى وزيره عام 1857م [4] لاسيما و أن الشيخ غومة المحمودي كانت له علاقات طيبة مع سكان الجنوب الجزائري و سائر الثائرين هناك، بل أنه كان لديه إبن اسمه محمد السوفي، و سمي كذلك لأنه ولد بمنطقة سوف.[5]

هذا، و قد أثنى قائد القطاع القسنطيني عن دور القايد علي باي أثناء محاربته لهذا الثائر الطرابلسي في خطابه الذي أرسله إلى وزيره للحربية، حيث ذكر له أن هذا الثائر نقل مده الثوري إلى منطقة الأغواط التي دخلها على رأس 200 خيمة في شتاء عام 1857م. و كان دور علي باي بارزا أثناء مرافقته لبعض الخيام الطرابلسية التابعة للشيخ غومة المحمودي و التي فضلت تركه و النزوح إلى منطقة وادي سوف حيث جاء في هذه المراسلة : «... ثمة قسم من الخيام الطرابلسية التابعة للشيخ غومة انفضت من حوله

[1] Idem.
[2] Ibid : Lettre du Ministre de la guerre au gouverneur général le 07/08/1856, Folio 38.
[3] Ibid : Lettre du Ministre de la guerre au gouverneur général le 10/08/1856, Folio 39.
[4] Ibid : Lettre du Gouverneur Général au Ministre de la guerre expédiée le 21/12/1857, Folio 97.
[5] ابراهيم مياسي: « من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة » مجلة الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الاتصال و الثقافة، الجزائر، العدد 113، عام 1996، ص 220.

و فضلت الانتجاع بمنطقة سوف، و على إثر ذلك أعطينا أوامرنا إلى القايد سي علي باي بمرافقتها و التوجه بها إلى بسكرة. فقام سي علي باي بتنفيذ هذه المهمة بنجاح... » [1] و بناء على ما تقدم يمكن القول أن الفرنسيين وجدوا الدعم الكافي من قبل القايد علي باي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة أثناء صراعهم مع الثائر الطرابلسي غومة المحمودي. و لم نعثر على وثائق تبين لنا دور العائلات الأخرى في محاربته، فهل ذلك يعود إلى أن تحركات هذا الثائر كانت محدودة و بعيدة نسبيا عن المناطق التي كانت هذه العائلات تبسط سيادتها عليها؟ أم بسبب إعراض تلك العائلات عن محاربته نتيجة لروابطه العائلية بسكان المنطقة ؟ أم أن للمسألة خلفيات أخرى؟.

ب- محاربة الثائر التونسي علي بن غداهم * عام 1864م.

كان الثائر علي بن غداهم يفضل الاحتماء بالشرق الجزائري كلما اشتد عليه الكرب و الضغط بالبلاد التونسية، و كان الفرنسيون يخشون نشاطه بهذه المنطقة. و قد عمل هذا الثائر على خلخلة الوجود الفرنسي بالجنوب القسنطيني.[2] و يبدو أن ثورته لقيت تعاطفا كبيرا من لدن سكان الحدود الشرقية الجزائرية، فتحرجت الإدارة الفرنسية كثيرا جراء ذلك، خاصة و أن القيادة الفرنسية بدائرة تبسة تلقت في تلك الأثناء رسالة وردت فيها العبارة الآتية: «... إذا كنتم مسلمين فذلك خير لكم، و أما إذا كنتم مسيحيين، فإننا سنوحد كلمتنا وراء سيدنا علي بن غداهم، و نجيش جيشا يصل تعداده إلى 40.000 فارس، و عدد غير قليل من المشاة، و نسير به للاجهاز عليكم... ». [3]

(1) ISHMNT : A.O.M, op.cit : Lettre du Général Commandant de la province de Constantine à Mr le gouverneur général au sujet du cheikh R'houma, expédiée le 29/12/1857, Folio 94.

* ينحدر علي بن غداهم من قبيلة ماجر إحدى قبائل البادية التونسية أعلن الثورة ضد نظام الحكم في تونس عام 1864م، و تجمعت حوله القبائل التونسية و أشهرت السلاح في وجه سلطة محمد الصادق باي (1859- 1882م) الذي ألقى مقاليدها بين يدي وزيره الأكبر مصطفي خزندار، غير أن هذا الأخير انتهج سياسة مالية طائشة ارتكزت خاصة على رفع المجابي و المكوس، فكانت سببا مباشرا لقيام هذه الثورة.

حول ثورة علي بن غداهم عام 1864 ينظر:

عبد المجيد كريم، الهادي جلاب : الحركة الإصلاحية بالبلاد التونسية 1815م- 1920م، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة الآداب و الفنون و العلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1994، ص ص 14، 15.

(2) L.ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 348.

(3) I.S.H.M.N.T : A.O.M, Série : Tunisie 25H n° 25H2. Dossier n° 2, Bobine A2 : Dépêche Télégraphique du Général Commandant de la division à Mr le Gouverneur Général Expédiée le 21/05/1864 à 9H30m, Folio 63.

و رغم احترازات الإدارة الاستعمارية إلا أن علي بن غداهم تمكن من نقل عائلته إلى قبيلة أولاد عبد النور بضواحي قسنطينة. غير أن الفرنسيين أعطوا أوامرهم بطردها نحو الحدود الشرقية.[1]

و بغية لجم نشاطات هذا الثائر بالشرق الجزائري، اعتمدت الإدارة الفرنسية كعادتها على الوسطاء الأهليين، و على رأسهم القايد علي باي. و في هذا المنظور كتب القائد الأعلى للقطاع القسنطيني برقية وجهها إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر بتاريخ 14 من يناير 1865م حدثه فيها عن المعلومات التي أرسلها له القائد العسكري الأعلى لقسمة تبسة. و قد أشار هذا الأخير إلى الدور الذي لعبه القايد علي باي الذي كان مرابطا بمنطقة فوسانة في محاصرة الثائر علي بن غداهم الذي اضطر إلى التراجع إلى منطقة تالة.

و بحسب المعلومات التي قدمها القائد العسكري لتبسة دائما، فإن علي باي لم يكن القائد الأهلي الوحيد الذي عضد الفرنسيين في هذه المهمة، بل كان إلى جانبه أيضا القايد سي أحمد بن محمد بن بوضياف أحد الوجوه البارزة لعائلة بوضياف.* [2] و رغم ذلك، فقد تمكن علي بن غداهم من التسلل إلى الداخل الجزائري و الاحتماء بقبيلة الحنانشة، [3] و تحدث تقرير آخر بقلم الجنرال « دارجانت » « Dargent » من تبسة عن قوة عسكرية قادها كل من علي باي، و القايد محمد بوضياف، و القايد سي أحمد زروق إلى جانب الجنرال روستن Ruston حاصرت الثائر بن غداهم من كل الجهات على الحدود الشمالية الشرقية و أوقعته بين فكي كماشة، إلا أنه تمكن من الإفلات

---

[1] Ibid : Dépêche Télégraphique du Général commandant de la province de Constantine à Mr le gouverneur général à Alger, expédiée le 29/04/1866 à 9H27 m, Folio 252.

* كانت عائلة بوضياف من العائلات المتنفذة بالجنوب القسنطيني تعاونت مع الفرنسيين كغيرها من العائلات الأخرى، فمنحوا كبيرها العربي بوضياف منصب شيخ الأوراس. و كانت لهذه العائلة علاقة مصاهرة مع عائلة ابن قانة.

حول ذلك ينظر:

- مختار هواري: المرجع السابق، ص 17

[2] ISHMNT : A.O.M, Série : Tunisie 25H, carton n° 25H3, Dossier n° 3, Bobine A2 : confirmation du dépêche télégraphique du gouverneur général commandant de la province de constantine à son excellence le maréchal gouverneur général de L'Algérie le 14/01/1865 Folio : 116, 117.

[3] ISHMNT : Archives du Ministère des Affaires extérieures. Quai d'Orsay, Paris, France, série Correspondance politique, Dossier n° 2, carton 24. Bobine 296 : Rapport du consul général de France à Tunis à Mr le ministre des affaires étrangères à Paris, le 14/01/1865, Folio 257.

و التوجه إلى المناطق القريبة من مدينة قسنطينة. [1]

و في 07 من يناير 1867م كتب رئيس القطاع العسكري القسنطيني برقية إلى الحاكم العام أطلعه فيها على التقرير الذي أرسله له القائد العسكري لقسمة تبسة في 04 يناير 1867م. تكلم هذا التقرير عن المعارك التي خاضها القايد علي باي إلى جانب الجنرال « روستن » على الحدود الشرقية للجزائر ضد الثائر علي بن غداهم الذي تحصن بمنطقة وادي سراط على رأس قوة عسكرية تعدادها 200 فارسا.[2] و بهذا نلاحظ أنه رغم القوة العسكرية التي كانت تستنفرها فرنسا من أجل وضع حد لنشاط هذا الثائر إلا أنها لم تتمكن منه، و يلاحظ كذلك أن القادة الأهليين و منهم القايد علي باي لعبوا دورا محوريا في التصدي لهذا الثائر.

2- المساهمة في حماية و مراقبة الحدود الشرقية للجزائر

بذل قادة العائلات الكبرى مجهودات كبيرة لحماية حدود الجزائر الشرقية خدمة للمصالح الفرنسية، كما سهروا على توفير الأمن بهذه المناطق. و من العائلات التي باشرت هذه المهمة نجد عائلة الرزقي. ففي 1844/06/06 كتب الجنرال « راندون » الذي كان وقتها يتولى تصريف شؤون دائرة عنابة رسالة إلى القايد محمد الصالح الرزقي بن منصور بناء على طلب هذا الأخير عام 1844م، حدثه فيها عن كاهية تونس الذي اغتصب الحدود الشرقية الجزائرية. و يبدو أن هذه الرسالة كانت كرد لرسالة سابقة لم نعثر عليها في الملف الذي توجد به ، بعثها له القايد محمد الصالح و يريد من خلالها معرفة رأي هذا الجنرال حول هذا الموضوع لأن « راندون » حدث هذا القايد بالقول : «... لقد أعلمتمونا من خلال رسالتك أن الكاهية دخل التراب الجزائري، و وصل إلى منطقة القصيبة... ».[3]

بعد ذلك يواصل « راندون » كلامه و يأمر القايد محمد الصالح بالتصدي بقوة لمثل هذه التصرفات، فيقول له: «... إنني أعطيك أمرا بأن تعترض بقوة كل عمل يستهدف سلامة حدودنا... »[4]

---

(1) Ibid : Dépêche télégraphique du Général commandant de la province de Constantine à Mr le gouverneur général à Alger expediée le 21/01/1866 à 9H 30m Folio 133.

(2) ISHMNT : A.O.M, Série : Tunisie 25H, carton n° 25H3, Dossier n° 3 Bobine A2 : Dépêche télégraphique du gouverneur commandant de la province de Constantine à Mr le gouverneur général à Alger, expédiée le 07/01/1867 à 10H, Folio n° 100. ينظر الملحق رقم11.

(3) ISHMNT : A.O.M, Série : Tunisie 25H, carton 25H9, Dossier n° 5 Bobine A 10 : Lettre du Général Randon au Caid Mohamed Salah datée le 06/06/1844, Folio 503.

(4) Idem.

ثم يحاول الرفع من معنوياته فيقول له:«... كن شهما و مقداما، و لا تخش شيئا لأن الفرنسيين سيكونون وراءك و سيعضدونك في كل خطوة تخطوها في هذا الاتجاه، و أنهم لا يسمحون بأي حال من الأحوال للتونسيين أهل الشرق أن يحكموا قبضتهم على بلاد الجزائريين أهل الغرب... »[1].

هكذا إذن كان القايد محمد الصالح الرزقي بمثابة العين الساهرة على الأمن الاستعماري على الحدود الشرقية للجزائر، إذ كان يحيط السلطات العسكرية الفرنسية علما بكل الوقائع و الأحداث التي تقع على الحدود و يساهم في سحقها و التصدي لها، و ذلك بعد أن يأخذ رأي المسؤولين الفرنسيين الذي عينوه في منصبه.

و في 1851/09/27 كتب رئيس المكتب العربي لدائرة عنابة تقريرا أرسله إلى مدير الشؤون الأهلية بمقاطعة قسنطينة، حدثه فيه عن المعلومات التي قدمها له القايد محمد الصالح الرزقي تخص مسألة الحدود الشرقية للجزائر مؤكدا له أن هذه الحدود اتسمت بالغموض خلال الحقبة العثمانية. و كانت تتغير ضيقا و اتساعا تبعا لقوة و ضعف حكام الكيانات السياسية شرقا و غربا، كما حدثه عن علاقة الحنانشة ببايات قسنطينة و معاناتهم بين الولاء المزدوج لبايات قسنطينة و نظام الحكم في تونس، و أشار إليه أيضا إلى العلاقة الضريبية التي كانت تربط أحرار الحنانشة ببايات قسنطينة و حكام تونس [2].

لا يمكن في واقع الأمر نكران حيوية المعلومات التي أدلى بها القايد محمد الصالح الرزقي للفرنسيين، خاصة و أنها قدمت لهم في وقت كانت فيه الحدود الشرقية للجزائر غير مضبوطة، و كانت أيضا تشكل إحدى الانشغالات المركزية للإدارة الاستعمارية، كما أن المعلومات التي قدمها لهم حول قبيلة الحنانشة لا تقل أهمية عن ذلك لأن الفرنسيين كانوا يعانون متاعب كثيرة مع هذه القبيلة الثائرة، و كانوا يعملون جاهدين من أجل تدجينها، و عليه فإنه من الجائز القول أن القايد محمد الصالح الرزقي لم يعمل فقط على مساعدة الفرنسيين على حماية الحدود، بل كان أيضا يتخابر لصالحهم و يعمل جاهدا على تسهيل عملية الاحتلال.

[1] Idem.

[2] Ibid : Dossier n° 6 : Lettre du chef du bureau arabe de Bône datée le 27/09/1851 à Mr le directeur des affaires arabes de la province de Constantine au sujet des renseignements donnés par la Caid Mohamed Salah le 26/09/1851, Folio 599.

و في غضون ذلك تلقى القايد محمد الصالح الرزقي أمرا من السلطات العسكرية الفرنسية بقالمة يقضي بضرورة تنقله إلى قبيلة الهمامة التونسية المتاخمة لحيز انتجاع قبيلة الحنانشة الجزائرية، و توقيف شيخها صالح بن دالي الذي أبدى سلوكات عدوانية تجاه الفرنسيين في تلك المناطق الحدودية.(1)

و تنفيذا لهذا الأمر باشر القايد محمد الصالح الرزقي حملة عسكرية « Une razzia » ضد هذا الشيخ، و الحتم معه في معركة حامية كبدت الطرفين خسائر مادية و بشرية، حيث فقد القايد محمد الصالح الرزقي شقيقه محمد بلحاج الرزقي البالغ من العمر 20 سنة، و بالمقابل أصيب الشيخ صالح بن دالي بجروح، إلا أنه تمكن من الفرار، و فقد أربعة من رجاله، من بينهم كذلك شقيقه.و بعد نهاية المعركة حمل قايد الحنانشة جثتين منهم رفقة أسرى من بينهم بعض فرسان كاهية الكاف، و بعض الأسلاب و اتجه بهم إلى سوق اهراس لعرضهم أمام الفرنسيين. و على إثر ذلك أصدر رئيس القطاع العسكري القسنطيني أمرا يقضي بضرورة احتفاظ قايد الحنانشة بكل هذه الأسلاب التي حصدها من هذه المعركة، و إعطائه السلطة التقديرية الكاملة أثناء تقسيمها على فرسانه الذين شاركوا في هذه الحملة، إلا أنه ألح عليه على ضرورة تحري العدل أثناء عملية التقسيم و ذلك باعتماد قاعدة كل حسب مجهوده ! (2)

و نفهم مما تقدم أن القادة الأهليين الذين كانوا يغنمون هذه الغنائم، و منهم قايد الحنانشة كانوا يحرمون من التصرف فيها، حيث كانوا ملزمين بوضعها تحت تصرف السلطات الفرنسية التي تقول كلمتها النهائية فيها، إلا أن الفرنسيين تصرفوا هذه المرة بصورة استثنائية و أعطوا حرية التصرف إلى هذا القائد الأهلي علهم يخففون من الحزن و الأسى الذي انتابه إثر فقدان شقيقه في المعركة المذكورة، و يحسسونه بأنه مهم و طرف فاعل بالنسبة لهم، كما نفهم أيضا أن الفرنسيين لم يكلفوا أنفسهم عناء محاربة هذا الشيخ الذي كانوا يتهمونه بمجاهرته لعدائهم، و هو العداء الذي يمكن أن يكون انتصارا و مؤازرة للثوار الجزائريين الذين كانوا يحتمون بالمناطق الحدودية التونسية عندما يشتد

(1) ISHMNT : A.O.M, Série 25H : Carton 25H10, Dossier n° 1, Bobine A11 : Lettre du Général Commandant de la province de constantine à Mr le gouverneur général au sujet du mouvement de la frontière de Tunis dans le cercle de Guelma, datée le 20/10/1851, Folio 4,5.

(2) Ibid : Lettre du général commandant de la province de constantine à Mr le Gouverneur Général au sujet de razzia opérée sur le nommé Salah Ben Dali des Hamama, datée le 12/02/1852, Folio 18, 19.

عليهم الضغط الاستعماري، فأوكلوا مهمة محاربته إلى قايد الحنانشة. فهل كانوا يهدفون من وراء ذلك تفادي خسائر مادية و بشرية محتملة في صفوفهم؟.

و في 1852/02/18 تلقى رئيس القطاع العسكري القسنطيني رسالة من المكتب السياسي التابع للحاكم العام يأمره فيها بضرورة إخلاء سبيل أسرى كاهية الكاف الذين جلبهم معه قايد الحنانشةبعد المعركة المذكورة. و هذا بعد نجاح المحادثات التي تمت بين القنصل الفرنسي و باي تونس حول هذه المسألة.[1]

و يبدو أن الفرنسيين تحصلوا على تنازلات من جانب التونسيين مقابل ذلك، تتعلق أساسا بمشكلة الحدود غير الثابتة و وضع القبائل الحدودية، و إلا ماكانوا يقدمون على تحرير أسرى كاهية الكاف بهذه السرعة.

و نظرا للنجاح الكبير الذي حققه القايد محمد الصالح الرزقي في هذه المعركة المذكورة و فقدانه لشقيقه إلتمس مدير الشؤون العربية بقسمة عنابة بالنيابة من المسؤولين الفرنسيين منح هذا القايد وسام جوقة الشرق، و إلزام باي تونس بدفع « دية » لهذا القايد تقدر بـ 15.000 فرنك فرنسي لجبر الضرر الذي لحق بهذه العائلة الأهلية الكبرى الأكثر قربا و احتراما للحكومة الفرنسية » على حد توصيف هذا المسؤول العسكري الفرنسي. [2]

و من خلال الرسالة التي أرسلها رئيس القطاع العسكري القسنطيني إلى الحاكم العام في تلك الأثناء نفهم أن المسؤولين الفرنسيين في مقاطعة قسنطينة كانوا لا يرغبون في التصالح مع المسؤولين التونسيين إثر تلك المعركة، حيث حدثه عن عدم وجاهة الحجج التي ساقها باي تونس مؤكدا له أن كاهية الكاف كان سيء النية و كان دائما يروم اغتصاب حدود الجزائر الشرقية. [3]

و ربما هذا ما يفسر الغارات و الغزوات المتعددة التي كان يقوم بها قايد الحنانشة ضد القبائل التونسية القريبة من الحدود الشرقية للجزائر، و هي الغارات التي كانت تتم بأمر من السلطات الاستعمارية الفرنسية أو على الأقل بعلم منها، لأنه كان ملزما بإطلاع الفرنسيين بنتائجها، و بالأسلاب التي يسلبها أيضا، و عادة ما كان يحقق فيها انتصارات ساحقة على هذه القبائل

---

[1] Ibid : Lettre du bureau politique à Alger à Mr le général commandant de la province de constantine au sujet de la razzia opérée sur le nommé salah ben Dali chez les Hamama, datée le 18/02/1852, Folio 21.

[2] Ibid : Lettre du directeur des Affaires Arabes par intérime de la subdivision de Bône à Mr le colonel commandant supérieur du cercle de guelma, objet : Affaire des Hamama, datée le 05/03/1852, Folio 60, 61.

[3] Ibid : Lettre du Général Commandant de la province de Constantine à Mr le gouverneur général au sujet des Affaires qui ont eu lieu chez les Hamama, datée le 08/03/1852, Folio 22.

ففي 1852/02/07م كتب شيخ قبيلة شارن الحدودية رسالة إلى أحمد باشا باي تونس تكلم فيها عن الغزوة التي باشرها القايد محمد الصالح الرزقي ضد فرقتين تابعتين لهذه القبيلة و هما فرقة أولاد منصور، و فرقة الهجارصة حيث: «... غار عليهم و أخذ للفرقة الأولى جميع (كذا) ثمانمائة شاتا من الضأن، و مائتين شاتا أيضا من المعز و أربعون (كذا) ناقة من الإبل و ثلاثون (كذا) رأسا من البقر و ستة من الخيل و خمسة أبغال (كذا) و أخذ للفرقة الثانية أيضا أربعمائة شاتا (كذا) و خمسة و خمسون شاتا (كذا) و مائتين و خمسون (كذا) من ذو المعز (كذا) و خمسون (كذا) ناقة من الإبل و ثلاثة من الخيل و أربعة أبغال (كذا)... ». [1]

و في 1852/04/26 كتب كاهية الكاف رسالة إلى باي تونس حدثه فيها عن المعركة التي دارت بين قبيلة أولاد مسعود الجزائرية القاطنة بأقصى شمال شرق الجزائر و قبيلة وشتاتة التونسية المقيمة بأقصى غرب تونس مؤكدا له أن القبيلة الجزائرية كانت السباقة لإعلان عدوانها على جارتها التونسية و ذلك بتحريض من القايد محمد الصالح الرزقي. [2]

كان الفرنسيون يمنعون القبائل التونسية من ممارسة نشاطها الفلاحي على مستوى المناطق الحدودية الجزائرية، إلا أنهم كانوا يستثنون من ذلك القبائل التي ترضى بدفع ضريبة معلومة. و كانوا يشددون رقابتهم على هذه المناطق لاسيما خلال موسم الحرث و البذر. و نفهم من التقارير التي كانوا يتبادلونها حول هذه المسألة أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء التنقل إلى هذه المناطق من أجل مراقبتها، و إنما كانوا يكلفون قايد الحنانشة للقيام بهذه المهمة. و كان هذا القايد بمثابة العين الساهرة على ضمان حرمة هذه الحدود حيث كان يبلغ أوامر السلطة الفرنسية لهذه القبائل و يحثها على ضرورة الالتزام بأوامرها و الامتناع عن نواهيها. [3]

---

(1) Ibid : Copie d'une Lettre des derniers scheikhs de la tribu Tunisienne de Sharen au Bey, au sujet d'une razzia faite par le Caid de la tribu Algérienne des Hanancha sur la fraction des Sharen : les O. Mansour et les Hadjarsa, datée le 15 Rabia II 1268 (07/04/1852) Folio 13.

(2) Ibid : Traduction : Extrait de la Lettre du kahia du Kef au Bey en date du 4 Radjab 1268/(26/04/1852) , Folio 24

(3) Ibid : Rapport au lieutenant colonel commandant supérieur du cercle de Guelma adressé par le chef du bureau arabe de la subdivision de Bône en tournée sur les difficultés survenues sur les frontières Algéro-Tunisiennes, daté le 05/04/1852, Folio 68, 69.

و إلى جانب ذلك لعب القايد أحمد بن دحماني أحد الوجوه المبارزة لعائلة الرزقي دورا فاعلا في التمكين للمستعمر على مستوى الحدود الشرقية كما تشير إلى ذلك إحدى التقارير التي كتبها رئيس القطاع العسكري القسنطيني عام 1864م. و يفهم من هذا التقرير أن الفرنسيين كانوا يثقون فيه كثيرا لأنهم كلفوه بمهمة استقبال ثلاثة موظفين فرنسيين يعملون في مصالح البرق بمدينة الكاف التونسية القريبة من الحدود الشرقية الجزائرية. و أكد هذا التقرير أن المهمة المركزية للقايد أحمد بن دحماني كانت تنحصر في استقبال هؤلاء الرعايا الفرنسيين الثلاثة و حمايتهم في منطقة الحدود، و عليه فإن مشاركة هذا القايد في العمليات العسكرية التي كانت دائرة في تلك الفترة كانت ثانوية.[1]

و يتضح أيضا من هذا التقرير أن الحاكم العام الفرنسي أعطى الأمر إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني بكتابة مقال و نشره في جريدة المبشر * يشيد فيه بمناقب هذا القائد الأهلي

[1] ISHMNT : A.O.M, Série : Tunisie 25H, Carton 25H2 Dossier n° 2, Bobine A 2 : Rapport du général commandant de la province de Constantine à son excellence le maréchal gouverneur général de L'Algérie à Alger au sujet du Caid si Ahmed ben Dahmani qui a aidé la rentrée des trois employés de la station télégraphique du kef, adressé le 20/05/1864, Folio 62. ينظر الملحق رقم 12.

* صدرت جريدة المبشر في 1847/09/15م، و كانت ثالث جريدة عربية في الوطن العربي بعد جريدة التنبيه التي أنشأها نابليون بونابرت بمصر عام 1800م، و جريدة الوقائع المصرية التي أصدرها محمد علي باشا عام 1828م كذلك بمصر.

و الواقع أن صدور هذه الجريدة كان بأمر ملكي وقعه ملك الفرنسيين لويس فيليب. وكانت مصالح الولاية العامة بالجزائر هي التي تسهر على إصدارها باللغة العربية إلى جانب اللغة الفرنسية. و قد تميزت بركاكة أسلوبها، و طغيان اللغة العامية و الأجنبية على ألفاظها.

و قد أصدرت سلطات الاحتلال الفرنسي هذه الجريدة لكي تحقق مقاصدها الاستعمارية. فإذا كانت تصدر باللغة العربية القريبة إلى العامية، فلأن الإدارة الفرنسية كانت تعلم جيدا أن السواد الأعظم من الشعب الجزائري كان في تلك الفترة لا يفهم إلا هذه اللغة. و كانت هذه الجريدة تنشر عبر صفحاتها مختلف القوانين و التشريعات التي تصدر عن الولاية العامة، كما كانت تنشر مقالات تهدف إلى تحطيم الروح المعنوية للجزائريين الذين تخندقوا في معسكر الأمير عبد القادر المناهض لوجودهم بالجزائر، و كانت تشجع السكان على الركون إلى حياة الدعة و الاستسلام، و تشيد بمناقب المتعاونين معها من الجزائريين، و كانت تغالط الرأي العام الوطني و تحاول أن تصور للجزائريين بأن فرنسا رزقها الله بهذا البلد الجزائر، و أن الذي يقف ضد وجودها بالجزائر كمن يقف ضد الإرادة الالهية، و أن فرنسا ستبقى بالجزائر إلى الأبد بفضل قوة جيوشها التي تعمل على محاربة من يثور ضدها من « أهل الشيطنة » كما ورد في افتتاحية عددها الثاني عام 1847م.

حول هذا الموضوع ينظر:

- محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص ص 19-21.

و كذا بسيرته الحميدة نتيجة لجهوده المضنية في سبيل التمكين للمشروع الاستعماري على مستوى قيادته و كذلك على مستوى الحدود الشرقية للجزائر. غير أن رئيس هذا القطاع فضل التريث إذ لم يرسله إلى هذه الجريدة في الوقت الذي طلب منه فيه لأنه قدر أن الظروف لم تكن مناسبة في تلك الفترة. و حاول أن يقنع الحاكم العام بما قام به مبينا له أن نشر هذا المقال في تلك الأثناء من شأنه أن تكون له تداعيات خطيرة على أمن وحياة الرعايا الفرنسيين الذين كلف هذا القايد بحمايتهم أثناء دخولهم إلى التراب الجزائري.[1] و على هذا الأساس يمكن القول أن القايد سي أحمد بن دحماني كان من الرؤساء الأهليين الأكثر إخلاصا للقضية الفرنسية، و إلا ما كان ينال شرف نشر سيرته الذاتية عبر صفحات هذه الجريدة ذات المقاصد الاستعمارية الصرفة.

و في مطلع عام 1865م أشارت بعض التقارير الفرنسية إلى تقاطر عدد كبير من اللاجئين التونسيين على الحدود الشرقية للجزائر. و كانت الإدارة الفرنسية تتبع أخبار حركاتهم باهتمام كبير، و تحاول تنظيم عملية نزوحهم إلى التراب الجزائري بالاعتماد على رؤساء الأهالي و منهم القايد علي باي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة الذي استنفر فرقة من « القوم » و سار بها إلى الجهة اليمنى من وادي فوسانة لكي يباشر المهمة التي كلفه بها الفرنسيون و المتمثلة في حمايتهم من اللصوص، و كذا التصدي و منع فرق القوم التونسية من الولوج إلى التراب الجزائري لمتابعة هؤلاء اللاجئين الفارين إلى الجزائر.[2]

و يبدو أن القايد علي باي باشر هذه المهمة التي كلف بها على أحسن وجه، و هذا ما يمكن استنتاجه من البرقية التي أرسلها رئيس القطاع العسكري القسنطيني إلى الحاكم العام بتاريخ 18 يناير 1865م حيث أكد له فيها بأن القايد علي باي كان يقوم بتغيير موقعه أثناء مراقبته لهذه القبائل و كان يختار بدقة الوضعية الملائمة التي تسمح له برصد كل حركاتهم.[3]

---

(1) ISHMNT : A.O.M , Bobine A2: Serie Tunisie 25H, Carton 25H2, Dossier n° 2 : Rapport du Général de la Province de Constantine, op.cit.

(2) ISHMNT : A.O.M , Bobine A3 série : Tunisie 25H carton 25H3 Dossier n° 3 : dépêche télégraphique du général commandant de la province de Constantine à Mr le gouverneur général d'Algérie à Alger, expédiée le 12/01/1865 à 6h30m, Folio 109, voir aussi la confirmation de cette dépêche, Folio 110.

(3) Ibid : confirmation d'une dépêche télégraphique de Mr le général commandant de la province de Constantine à S.E le maréchal gouverneur de l'Algérie à Alger le 18/01/1865, Folio 131.

و حدث رئيس القطاع العسكري القسنطيني مسؤوله في برقية أرسلها له في اليوم نفسه عن هذه المشكلة (أي مشكلة نزوح اللاجئين التونسيين إلى التراب الجزائري) مؤكدا بأنها سوف تحل في القريب العاجل و أن القايد علي باي سوف يغادر معسكره الذي أقامه على الحدود رفقة الجنرال « روستن » ليلتحق بمقر قيادته. [1]

و يبدو أن الجنرال « روستن » فضل العودة إلى معسكره بمفرده و هذا عكس ما قاله رئيس القطاع العسكري القسنطيني في برقيته السابقة التي أرسلها إلى الحاكم العام حينما قال بأنه عاد رفقة القايد علي باي، حيث كتب له برقية أخرى بتاريخ لاحق ذكر له بأنه في الوقت الذي غادر فيه هذا الجنرال معسكره كان القايد علي باي مرابطا على ضفاف وادي فوسانة. [2]

لم تحل مشكلة تدفق المهاجرين التونسيين إلى التراب الجزائري كما ذكر رئيس القطاع العسكري القسنطيني في البرقية السابقة بالطريقة التي خطط لها المسؤولون الفرنسيون ذلك أن القبائل التونسية عاودت نزوحها إلى الجزائر في تلك الفترة. و من أجل التصدي لها و منعها من تجاوز الحدود قاد الجنرال « روستن » قوة عسكرية و سار على رأسها إلى الحدود الشرقية، و عضده في هذه المأمورية القايد علي باي إلى جانت قادة أهليين آخرين، و تمكنت هذه القوة من إجبار هذه القبائل على العودة من حيث أتت. [3]

و جاء في إحدى برقيات رئيس القطاع العسكري القسنطيني عام 1864م أن «... القايد علي باي أحاطنا علما بأن هناك عدة قبائل طرابلسية أعلنت النفير، و انفضت من حول الحكم العثماني هناك، و أن نجل الشيخ غومة المحمودي هو أحد محركي روح الثورة في هذه القبائل... » [4]

---

[1] Ibid : Dépêche télégraphique de Mr le général commandant de la province de Constantine à Mr le gouverneur général à Alger le 18/01/1865 à 9h, Folio 130.

[2] Ibid : Dépêche télégraphique du Général Commandant de la province de Constantine à Mr le gouverneur général à Alger le 22 Janvier 1865 à 9h20m, Folio 143.

[3] Ibid : confirmation d'une dépêche télégraphique de Mr le général commandant de la province de Constantine à S.E le maréchal gouverneur à Alger, 23/02/1865, Folio 155.

[4] ISHMNT : A.O.M, série : Tunisie 25H, carton 25H2, Dossier n°2, Bobine A2 :dépêche télégraphique du général commandant de la division à Mr le Gouverneur général à Alger, expédiée le 29/04/1864 à 8h du matin, Folio 25. ينظر الملحق رقم 13.

و بهذا يتضح لنا أن القايد علي باي كان يلعب دور المخبر لصالح الفرنسيين حول كل الأنشطة الثورية، و كل التحركات التي كانت تقوم بها كل الجماعات البشرية و مختلف القبائل في بلدان الجوار على مستوى الحدود الشرقية للجزائر سواء كانت قبائل تونسية تروم الولوج إلى التراب الجزائري هروبا من قمع نظام الحكم في تونس، أو مختلف الحركات الثورية المناهضة للحكم العثماني في البلاد الطرابلسية التي وجدت في الجنوب القسنطيني ملاذا آمنا لها بدءا من غومة المحمودي الذي تم القضاء عليه عام 1864م كما رأينا و إبنه الذي أراد مواصلة ثورة والده. و كان الفرنسيون متعاطفين مع هذه الحركات، و غني عن البيان أن ذلك يدخل في إطار محاولتهم الحصول على مكاسب في هذه البلاد التي كانت تابعة للدولة العثمانية و التي كانت تعرف في قاموس السياسة الأوروبية آنذاك بالرجل المريض.

و الواقع أن حماية الحدود الشرقية للجزائر لم تكن حكرا على قادة العائلات الذين تكلمنا عنهم سابقا، و إنما أيضا شاركتهم في ذلك عائلة ابن جلاب. ففي 18 من يناير عام 1851م كتب قاضي نفطة رسالة إلى باي تونس أعلمه فيها بأن قبيلة الشرفة أصيلة منطقة نفطة نزحت إلى الجنوب الشرقي الجزائري يومي 15و 16 من الشهر نفسه.[1] و الراجح أن ثمة تنسيقا حدث بين السلطات التونسية و الإدارة الاستعمارية بمقاطعة قسنطينة حول هذا الموضوع الذي تحرجت منه السلطات الفرنسية. و على هذا الأساس أعطى القادة الفرنسيون أوامرهم إلى رؤساء الأهالي للتصدي لنزوح هذه القبيلة و منعها من الاستقرار بالجزائر. و قد باشر هذه المهمة سلطان تقرت الشيخ عبد الرحمان بن جلاب إلى جانب القايد بن شنوف زعيم عائلة بن شنوف.* و تبعا

[1] ISHMNT : A.O.M, série : 25H Tunisie, carton 25H1, Dossier n°1, Bobine A1 : Lettre du consul de France à Tunis à Mr le général de la province de Constantine, le 03/02/1851, Folio 61.

* كانت عائلة بن شنوف من العائلات التي خدمت الإدارة الاستعمارية في الجنوب القسنطيني. كان زعيمها القايد أحمد باي بن شنوف الذي أسند له الفرنسيون قيادة الزاب الشرقي و أحمر خدو و بني سليمان عام 1850م. و كان الفرنسيون معجبون بخدماته و منهم رئيس القطاع العسكري القسنطيني الذي قال عنه عام 1858م «... أنه يعد من القادة الأهليين الأكثر إخلاصا للفرنسيين، فهو يمدنا بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية تتعلق بـ " الفوضويين و المتمردين" الذين يهددون أمننا أحيانا. و لم يقتصر دور هذا القايد عند هذا الحد فحسب، بل أنه يعمل بلا هوادة على قطع دابر الفوضى و كل حركات التمرد و العصيان في المناطق الخاضعة لسلطته، و ذلك بتصديه القوي و الفوري لها في حالة حدوثها... »

- حول ذلك ينظر:

-ISHMNT : A.O.M, série : Tunisie 25H, carton 25H 16 (2), Dossier n° 2, Bobine A22 : Rapport du général de division commandant de la province à son altesse impériale le prince chargé du Ministère de l'Algérie et ses Colonies, Folio 240, 241.

لذلك عادت هذه القبيلة إلى موطنها الأصلي و حيز انتجاعها بالبلاد التونسية. و قد أشارت إلى هذه الوقائع رسالة الحاكم العام للجزائر التي أرسلها إلى القنصل العام الفرنسي المعتمد بتونس عام 1851م.[1]

إن حماية الحدود و مراقبتها تعد من المهام الخطيرة و الحساسة لكل دولة، و قد لاحظنا أن زعماء بعض العائلات الكبرى كانوا قد ساهموا إلى جانب الفرنسيين في مباشرة هذه المهمة التي تخدم مقاصد الإدارة الاستعمارية بالجزائر، و هذا يدل على أن هذه العائلات عملت على تذليل الكثير من الصعوبات التي واجهت المشروع الاستعماري الفرنسي ليس فقط على مستوى القيادات التي كانت تبسط عليها سيادتها، و إنما أيضا في المناطق البعيدة عن نفوذها. لقد ترجم قادة هذه العائلات إرادة المستعمر الفرنسي، و حرموا القبائل التونسية من الولوج إلى التراب الجزائري، و مارسوا أسلوب الإغارة على ممتلكات هذه القبائل، و زهقوا الكثير من أرواحها، و غنموا الغنائم و الأسلاب حتى على الأرض التونسية. كل ذلك بهدف إرضاء القادة الفرنسيين، و تحقيق مقاصد الإدارة الاستعمارية الفرنسية التي أدركت أن تنقل هذه القبائل إلى التراب الجزائري من شأنه أن يشكل خطرا حقيقيا على أمنها الاستعماري. و بهذا يمكن القول أن هذه العائلات ساهمت إلى جانب المستعمر في خلق واقع جديد فرض على هذه القبائل التونسية التي كانت تسكن قرب الحدود الجزائرية، حيث منعت من دخول التراب الجزائري في الوقت الذي كانت فيه تتنقل بحرية كاملة و لم تكن تفرق بين التراب الجزائري و التراب التونسي.

3- دعم مصالح فرنسا و جيوشها في الخارج

في عام 1860م ألح القنصل العام الفرنسي المقيم بتونس على ضرورة إنشاء وكالة قنصلية في منطقة الجريد باعتبارها منطقة حدودية حيوية مقترحا أن يشرف على تسييرها المسمى محمد بن رابح ذو الأصول الجزائرية، و يكون للقايد علي باي اليد الطولى في إدارة شؤونها لأن هذا القنصل كان قد طور علاقته به منذ أكثر من ثلاث سنوات. و بحسب رسالة القنصل العام الفرنسي المقيم بتونس التي أرسلها إلى الحاكم العام بالجزائر في 1860/04/14، فإن المهمة المركزية لهذه الوكالة تنصرف إلى :

[1] ISHMNT : A.O.M, série : 25H Tunisie, carton 25H9, Dossier n° 9, Bobine A10 : Lettre du Gouverneur Général de l’Algérie à Mr le consul Général de France à Tunis au sujet des Chorfa refugiés sur le territoire Français, expédiée le 13/03/1851, Folio 353.

«... الحماية الفعلية للجزائريين و بالأساس سكان وادي سوف الذين تربطهم علاقات تجارية وطيدة مع منطقة الجريد التونسية، و كذلك تسليط الرقابة الكاملة على عمليات اللصوصية و تهريب البارود التي تتم عبر هذه المنطقة الحدودية... » [1]

و يبدو أن شهرة القايد علي باي نالت إعجاب هذا الديبلوماسي الفرنسي، لذا راسله و أحاطه علما بهذا الموضوع كما طلب منه الاتصال بالعون المذكور للتعرف عليه و النظر في المطالب و النزاعات التي قد تثور بين الجزائريين و التونسيين، و التي يكون أحد السكان المنضوين تحت قيادته طرفا فيها، و هذا ما أشارت إليه مراسلة رئيس القطاع العسكري القسنطيني إلى الحاكم العام بالجزائر في تلك الأثناء. [2]

تحفظ المسؤولون السامون الفرنسيون في الجزائر من هذا الإجراء. و نلمس هذا التحفظ لدى الحاكم العام الفرنسي الذي رأى بأن تكليف الموظفين الأهليين بهذه المأمورية الحساسة يعد من وجهة النظر القانونية إجراء معيبا و ينطوي على كثير من القصور، لأن هذه المأمورية هي في واقع الأمر من صميم المشمولات المركزية للقادة العسكريين الفرنسيين على مستوى مقاطعة قسنطينة دون سواهم. [3]

و بناء على ذلك راسل الحاكم العام وزيره بالعاصمة الفرنسية باريس لإبداء الرأي حول هذه المسألة، و كان رأي وزير الحربية من رأي الحاكم العام حيث أكد له أن جميع الاتصالات التي ستتم بين القايد علي باي و الوكيل القنصلي بالجريد يجب أن تخضع إلى رقابة السلطة الفرنسية بقسمة بسكرة. [4]

---

(1) ISHMNT : A.O.M série 25H Tunisie, carton 25H 16 (2), Dossier n° 3 Bobine A 22 : lettre du consul général de France à Tunis à Mr le général commandant supérieur des forces de terre et de mer en Algérie, expédiée le 14/04/1860, Folio 350.

(2) Ibid : Lettre du général commandant de division de Constantine à Mr le commandant supérieur des forces de terre et mer à Alger au sujet d'un agent qui serait chargé de représenter dans le Djerid les intérêts des sujets français, expédiée le 23/03/1860, Folio 342

(3) Ibid : Accusé de réception d'une dépêche relative au né Mohamed ben Rabah du gouverneur général commandant supérieur des forces de terre et de Mer en Algérie à Mr le consul général de France à Tunis, daté le 14/04/1860, Folio 355.

(4) Ibid : Lettre du Ministre Secrétaire d'état de l'Algérie et ses colonies à Mr le Général Commandant Supérieur des Forces de terre et de Mer en Algérie au sujet des relations de l'agent consulaire de France au Djerid de Tunis avec le Kaid de Touggourt, expédiée le 07/06/1860, Folio 344.

و على إثر ذلك سارع الحاكم العام الفرنسي إلى إخطار رئيس القطاع العسكري القسنطيني برأي وزير الحربية في الموضوع مؤكدا له بأن تعليمات الوزير تؤكد صراحة على أن كل المراسلات التي تتم بين القايد علي باي و القنصل الفرنسي يجب أن تخضع حصريا إلى رقابة القائد العسكري بقسمة بسكرة.(1)

و الواقع أن ما يمكن استنتاجه من خلال ما تقدم أن الفرنسيين كانوا يعولون كثيرا على خدمات القايد علي باي في التصدي إلى حركات السكان الثورية على مستوى الحدود التي تهدد أمنهم الاستعماري هناك، و هي الأنشطة الثورية التي يسمونها اللصوصية و التهريب و نحو ذلك. و رغم ذلك فإنهم رفضوا التنازل له عن صلاحية النظر في النزاعات التي تثور بين التونسيين و الجزائريين التابعين لقيادته بحجة أن هذه المهام من صميم صلاحيات القادة العسكريين الفرنسيين دون سواهم. و بهذا فإن الفرنسيين يكونون قد أكدوا على نظرة الاحتقار التي كانوا ينظرونها إلى هؤلاء القادة الأهليين الذين كانوا يعتبرونهم مجرد أعوان و وسطاء يباشرون مهام استعصى عليهم إنجازها، أو أن تنفيذها ينطوي على مخاطر جسيمة كجباية المغارم و الحروب العدوانية التي يشنونها على السكان و التي يسمونها « Les razias » و نحوها من المهام السيئة السمعة الأخرى التي تثير ردود أفعال السكان و تدفعهم دفعا إلى الثورة التي يسمونها التمرد و العصيان.

و ذكر تقرير بقلم رئيس القطاع العسكري القسنطيني عام 1869م أن القايد علي باي قام بزيارة إلى زاوية نفطة بالجنوب الغربي التونسي و استقبل استقبالا حسنا من قبل مقدمي الطريقة الرحمانية هناك.(2) و الراجح أن القايد علي باي كلف بهذه المأمورية من قبل الفرنسيين لكي يقوم بجمع معلومات كافية حول هذه الزاوية التي كانت متعاطفة من الثوار الجزائريين بحكم انتمائها إلى الطريقة الرحمانية المناهضة للوجود الاستعماري بالجزائر، و بحكم قربها أيضا من الحدود الشرقية للجزائر.

(1) Ibid : lettre du gouverneur général commandant supérieur des forces de terre et de mer en Algérie à Mr le général commandant de division de Constantine au sujet de la création d’une agence consulaire au Djerid, expédiée le 13/06/1860, Folio 345.

(2) ISHMNT : A.O.M série 25H Tunisie 25H, carton 25H 18 (2), Dossier n° 2 Bobine A 26 : Rapport du général de division de la province de Constantine à son excellence le Marechal de France, Gouverneur Général de L’Algérie à Alger le 15/11/1869 au sujet des Marabouts de Nafta, Folio 37, 38, 39.

و لم يكتف قادة العائلات الكبرى بمؤازرة الجيش الفرنسي داخل الجزائر فحسب، بل عضدوه في حروبه التي شنها في المناطق البعيدة بآسيا و أوروبا. فعندما اندلعت حرب القرم * (1854م. 1855م) شاركت عائلة الرزقي إلى جانب الجيوش الفرنسية، و ذلك عن طريق زعيمها الكبلوتي بن الطاهر الرزقي الذي كان قائدا لإحدى السرايا العسكرية الفرنسية برتبة قائد جوقة الشرف Commandeur de la légion d'honneur[1]. و يبدو أن الفرنسيين كافئوه بعد ذلك نتيجة لدفاعه عن العلم الفرنسي في الخارج و إخلاصه لهم، حيث أسندوا له قيادة الحنانشة عام 1858م [2] و هذا بعد أن أزاحوا عمه أحمد صالح الرزقي من هذا المنصب بسبب « عدم كفاءته و رعونته، و سوء طباعه و قلة حزمه » كما ورد في إحدى البطاقات الشخصية الخاصة بهذا الزعيم الأهلي و المحفوظة بأرشيف مدينة إيكس أون بروفانس الفرنسية.[3]

* حرب القرم « La guerre de Crimée » نسبة إلى شبه جزيرة القرم الواقعة شمال البحر الأسود التي اغتصبها الروس عام 1783م. و في عام 1854م أعلنت فرنسا و بريطانيا و الدولة العثمانية الحرب ضد روسيا بهذه المنطقة، و استغلت فرنسا في ذلك الوقت ولاء الجزائريين للدولة العثمانية و أوهمتهم بأن هذه الحرب هي من أجل الدفاع عن الإسلام و المسلمين من ظلم الروس.

و يبدو أن هذه الدعوة لقيت استجابة من لدن سكان الجزائر، فنظم فيها بعض شعراء الشعر الملحون في الجزائر عدة قصائد منهم الشاعر محمد بن اسماعيل أصيل مدينة الجزائر الذي كتب قصيدة شعرية تحت عنوان "حرب القرم" التي ترجمها محمد بن شنب و نشرها عبر صفحات المجلة الإفريقية عدد 51، عام 1907. و تبعا لذلك أنشأت فرنسا جيشا من الجزائريين وصل عدده إلى ألفي جندي، و كان هذا الجيش يتشكل من عدة أفواج و كتائب أبرزها كتائب الزواوة التي صنعت نصر الجيش الفرنسي في معاركه الطويلة، و هي الكتائب التي قال عنها الجنرال « دي سانت أرنو » سيئ السمعة أن عناصرها كانت أحسن العناصر العسكرية في العالم، و قال عنها الجنرال « بومغارتن » « Boumgarten » أنهم في طليعة جيوش العالم. و بفضل شجاعتهم و كفائتهم الحربية كان العسكريون الفرنسيون يقولون عنهم أنهم « ثعالب في الجزائر و نمور في مدينة فردان الفرنسية » .

حول هذه الحرب و إقحام الجزائريين فيها ينظر:

- M.sapin –Lignieres : « les Zouaves, vous connaissez ? », in historia magazine, editions Jules Tallandier Paris, France n° 221, pp 874-880.
- Lespes R(capitaine en retraite) : Les Troupes Indigènes au service de la France, iditeur, Imprimerie Minerva, Alger, 1928, p 24.
- André Féguéron : Gloire à l'armée d'afrique, Editeur France Ets,Ginou, Monrouge, 1987, p 79.
- Mohamed ben chaneb : « la guerre de crimée et les Algeriens », in R.A n° 51, année 1907, pp 169-222.

(1) H'sen Derdour : op.cit, p 435.
(2) A.O.M : 6h 33 : Fiche sur Kablouti ben Tahar.
(3) A.O.M : 6H 33 : Fiche sur Ahmed Salah ben Resguy.

و هي مسوغات ضعيفة، لأن الفرنسيين كان همهم الوحيد هو إضعاف هذه العائلة عن طريق تشجيع الصراع بين فروعها من أبناء العمومة، و هي سياسة، درجت عليها الإدارة الاستعمارية الفرنسية مع سائر العائلات الكبرى الأخرى.

أما عائلة المقراني، فبالرغم من أننا لم نعثر على ما يثبت أو ينفي مشاركتها في هذه الحرب، إلا أن هناك من تحدث عن قيام الباشاغا محمد المقراني رفقة أفراد عائلته بجمع مقدار معتبر من المال و تبرع به إلى العسكريين الذين حاربوا ضمن الجيش الفرنسي في هذه الحرب، و ذلك بعد عودتهم إلى أرض الجزائر.[1] و عندما اندلعت الحرب البروسية الفرنسية في جويلية من عام 1870م، جدد بعض القادة الأهليين من هذه العائلات وفاءهم للإدارة الفرنسية و كان على رأسهم الباشاغا محمد المقراني الذي تعهد بتقديم يد المساعدة لهم رغم المضايقات التي كانت تمارس عليه من قبل الفرنسيين، [2] إذ وعدهم بتزويدهم بـ 1500 فارس من فرقة « القوم » التي توجد تحت تصرفه لكي تعضد الجيش الفرنسي في الجبهة. [3]

و في ختام هذا الفصل نخلص إلى القول أن العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة كانت وفية و مخلصة إخلاصا مستمرا للإدارة الاستعمارية من خلال حرصها الشديد على عرض و تقديم خدماتها المختلفة للفرنسيين داخل الجزائر و خارجها. و كانت الخدمات التي قدمتها هذه العائلات للفرنسيين ثمينة جدا. فبواسطتها تمكنوا من إحكام قبضتهم على ربوع مقاطعة قسنطينة. هذه المقاطعة التي كان ثلثي أجزائها خارج السيطرة الفرنسية في بداية تحالفهم مع هذه العائلات. [4]

لقد قدمت هذه العائلات للفرنسيين كل أشكال الدعم المادي و المعنوي و البشري، كما مكنت الفرنسيين ضريبيا من خلال إجبار السكان على تزويد الخزينة الفرنسية بكل أصناف الضرائب. و كانت هذه العائلات تمثل العين الساهرة على أمن حدود الجزائر، و تصدت أيضا إلى جانب الجيوش الفرنسية إلى كل المخاطر الأجنبية، و آزرت جيوش فرنسا في حروبها الخارجية. و قد اعترف الفرنسيون بكل هذه المجهودات الجبارة التي بذلتها هذه العائلات لصالحهم، و قالوا أنه بواسطة قادة

[1] يحي بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني و الحداد)، المرجع السابق، ص 59.

[2] Mouloud Gaid : Mokrani, op.cit, pp 78, 79.

[3] بسام العسلي: محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية، دار النفائس، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان 1986، ص ص، 126، 127.

[4] Roger Germain : op.cit p 6.

هذه العائلات وطئت أقدامهم المناطق التي لم يكن يدر بخلدهم الوصول إليها"وتهدئتها و فرض النظام فيها". [1]

و رغم هذا كله إلا أن بعض الكتاب و المؤرخين الفرنسيين كانوا ينكرون هذه الخدمات و لا ينظرون بعين الإعجاب لهذه العائلات، و منهم « مرسيي » الذي قال أن هؤلاء القادة الأهليين لم تكن لهم سلطة فعلية و لا نفوذ مادي أو أدبي على السكان التابعين لسلطتهم، و أنه لم يكن بمقدورهم إدارة شؤونهم و ممارسة مهامهم إلا تحت حماية الجيوش الفرنسية[2]. و هو يتناقض مع الأمثلة و الشواهد التاريخية التي عرفناها في هذا الفصل. و يبدو أن هذا المؤرخ كغيره من المؤرخين الفرنسيين كان يدرك جيدا قيمة الخدمات التي قدمها زعماء هذه العائلات للفرنسيين لكنه كان يتحاشى ذكرها، و يحاول دائما إبراز هؤلاء القادة الجزائريين الذين تعاونوا معهم في صورة سلبية و غير حميدة لأن الفرنسيين كانوا في أعماق أنفسهم يحتقرونهم عندما انضموا إلى صفهم و تخلوا عن قضيتهم الحقيقية التي تفترض محاربتهم .

(1) L.Rinn : Histoire de L'insurrection indigène de 1871, op.cit, p 23.
(2) Ernest Mercier : Histoire de Constantine, op. cit, p 474.

الفصل الرابع : دور العائلات الكبرى في القضاء على الثورات و المقاومات الشعبية إلى جانب الفرنسيين 1845- 1871م

1-مقاومة محمد بن عبد الله، و مولاي ابراهيم (1845م- 1853)م

2-مقاومة الزعاطشة عام 1849م

3-مقاومة محمد الأمجد بن عبد المالك (الشريف بوبغلة) (1851م- 1854م)

4-ثورات البابور و بلاد القبائل

5-مقاومة سي الصادق بلحاج (1858م – 1859م)

6-مقاومة محمد بوخنتاش عام 1860م.

7-مقاومة الشريف محمد بن عبد الله (1842م – 1895م)

8-مقاومة أولاد سيدي الشيخ (1864م- 1873م)

9-مقاومة الناصر بن شهرة (1851م- 1871م)

10- مقاومة بوشوشة (1869م- 1874م)

11- مقاومة محي الدين نجل الأمير عبد القادر (1870م- 1871م)

الفصل الرابع: دور العائلات الكبرى في القضاء على الثورات و المقاومات الشعبية إلى جانب الفرنسيين (1845م- 1871م)

لعبت العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة دورا محوريا في القضاء على الثورات الشعبية التي عصفت بهذه المقاطعة خلال الفترة التي ندرسها، حيث عضدت الجيوش الاستعمارية أثناء ملاحقتها للثوار و تضييق الخناق عليهم إلى جانب السكان المؤيدين لهم. و ما دام غرضنا هو الحديث عن دور هذه العائلات في القضاء على هذه الثورات، فلا نريد أن نثقل كاهل هذه الدراسة بالتوسع في تفاصيلها خوفا من الإطالة التي قد تؤدي إلى الخروج عن ا لموضوع، و الأكثر من ذلك أن أخبار هذه الثورات أصبحت معروفة إلى حد بعيد و مبسوطة في العديد من الدراسات التاريخية.

و لما كانت هذه الثورات كثيرة العدد، فإنه من الصعب التوقف عند كل واحدة منها و إبراز دور هذه العائلات في القضاء عليها إلى جانب الجيوش الفرنسية، لذلك سنقصر الحديث على أبرزها. و تتمثل هذه الثورات في ما يلي:

- مقاومة محمد بن عبد الله، و مولاي ابراهيم (1845م- 1853)م
- مقاومة الزعاطشة عام 1849م
- مقاومة بوبغلة، (1851م – 1854)م
- ثورات البابور و بلاد القبائل
- مقاومة سي الصادق بلحاج (1858م – 1859م)
- مقاومة محمد بوخنتاش عام 1860م.
- مقاومة الشريف محمد بن عبد الله (1842م – 1895م)
- مقاومة أولاد سيدي الشيخ (1864م- 1873م)
- مقاومة الناصر بن شهرة (1851م- 1871م)
- مقاومة بوشوشة (1869م- 1874م)
- مقاومة محي الدين نجل الأمير عبد القادر (1870م- 1871م)

فما هو الدور الذي لعبته هذه العائلات في قمعها و القضاء عليها إلى جانب الجيوش الفرنسية؟ و هل كان بإمكان هذه الجيوش القضاء على هذه الثورات في غياب مشاركة هذه العائلات في ذلك؟

1- مقاومة مولاي محمد بن عبد الله و مولاي ابراهيم (1845م- 1853م)

في بداية شهر سبتمبر من عام 1845م اندلعت مقاومة مولاي محمد بن عبد الله بمنطقة سور الغزلان « بهدف سحق المسيحيين من بلاد الاسلام الجزائر » على حد تعبير العقيد الفرنسي « روبن » « Robin ».[1] و قد امتدت مقاومته من ا لجزائر العاصمة بالوسط إلى غاية منطقة القل في الشرق [2] و كان هذا الثائر على اتصال دائم بالأمير عبد القادر الذي كان يقاوم الفرنسيين بالغرب الجزائري. [3]

و قد عضده في مقاومته الشريف مولاي ابراهيم أحد رفاقه القدامى، كما انضم إليهما أحمد الطيب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر بالمنطقة، و حاولوا تنسيق العمل الثوري ضد المصالح الفرنسية في جبال جرجرة، فانتشرت أخبارهم بهذه الجهات و لاقوا تأييدا كبيرا من لدن الأعيان و السكان و لاسيما رجال الدين و على رأسهم الشيخ المبارك شيخ زاوية آيت بو علي الرحمانية في منطقة بني ودالة الذي زودهم بالسلاح و العتاد. [4] و قد ردت الادارة الاستعمارية على مقاومة الرجلين ردا عنيفا حيث قام قائد شعبة المدية الجنرال « ماري » « Marey » باستنفار قوة عسكرية ضخمة لمواجهة الثائر مولاي محمد بن عبد الله تتشكل من 250 فارسا و زودهم بـ 2400 قطعة سلاح و سار بها لمواجهته. و من العائلات التي عضدته أثناء منازلته لهذا الثائر، نجد عائلة المقراني التي سخر زعيمها الخليفة أحمد المقراني فرقة من "القوم" و سار بها إلى جانب الجيش الفرنسي و كادت هذه الفرقة أن تسحق قوى هذا الثائر حيث ألحقت به أضرارا بليغة و تمكنت من تصفية العديد من فرسانه، الأمر الذي أجبره على مغادرة المنطقة للتحصن بجنوب مرتفعات جرجرة ذات التضاريس الوعرة، و على إثر ذلك غير الفرنسيون خطتهم الحربية حيث طلب الجنرال « ماري » من زميله الجنرال « دار بونفيل » « D'arbounville »قائد سطيف موافاته بقوة عسكرية إضافية من أجل القضاء على هذا الثائر.

---

(1) N.Robin : « Histoire du cherif Boubarla », in R.A n° 25, Année 1881, pp 66,67

(2) عبد الكريم بوصفصاف و آخرون : المرجع السابق، ص 301

(3) A.O.M : F80. 493 Bureaux arabes, Rapports de Constantine 1846 : cercle de setif : Rapport de la 2éme quinzaine de juin 1846.

(4) يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع و العشرين، المرجع السابق، ص 70

و تنفيذا لهذه الإستراتيجية سارت قوة هذا الأخير من سطيف، فوقعت قوات مولاي محمد بين فكي كماشة حيث زحفت عليه القوتان و حاولتا ضربه ضربة رجل واحد يومي 11 و 12 من نوفمبر 1845م في معسكره بأولاد عزيز.

و لم يكن هذا الثائر عاثر الحظ، حيث فوت الفرصة على الفرنسيين و أعوانهم من فرقة القوم التي كان على رأسها خليفة مجانة أحمد المقراني، فولوا الأدبار مدحورين مذمومين، و تمكن فرسانه من تصفية ستة جنود و جرح أربعين جنديا فرنسيا. [1]

و من العائلات التي حاربت مولاي محمد أيضا بالمنطقة، نجد عائلة بوعكاز بن عاشور بواسطة قائدها الشيخ أحمد بوعكاز. و يبدو أن الثائر مولاي محمد إنتهج إستراتيجية الهجوم بدل الدفاع مع شيخ فرجيوة لأنه اخترق قيادته في أواخر عام 1846م. [2]

[1] N.Robin : op.cit, pp 68-70

[2] A.O.M : F80. 493 : Bureaux arabes, Rapports de Constantine 1846 : cercle de Constantine Rapport de la quinzaine de Novembre et de la 2éme quinzaine de Décembre 1846.

و باشر هجوما على إحدى المراكز التي أقامها هذا الشيخ في منطقة غبولة لاستقبال صهره محمد السعيد بن علي الشريف * الذي عينه الفرنسيون شيخا على شلاطة، فاشتبك معه في عدة معارك دامية. و على إثر ذلك قام الشيخ أحمد بوعكاز بفرض عقوبات قاسية على سكان غبولة بسبب موقفهم المتعاطف مع مولاي محمد، فصادر ممتلكاتهم، و كل ما ملكت أياديهم، كما حرمهم من ممارسة نشاطهم التجاري في المناطق التابعة لقيادته.[1]

* هو محمد السعيد بن علي الشريف الذي ينحدر من عائلة عريقة في العلم و الدين، و تدعي كذلك الشرف، تسكن بوادي الساحل في منطقة القبائل، و كان مرابطا لزاوية شلاطة الشهيرة بمنطقة أقبو. و يقول « فيرو » أن محمد السعيد بن علي الشريف تعاون مع الفرنسيين منذ بداية الاحتلال، حيث انتقل إلى منطقة بني عباس التي كانت تشكل إمتدادا جغرافيا لقيادة عائلة المقراني، و قدم ولائه للجنرال « بيجو ». و نظرا للحماس الشديد الذي ميز بداية اتصاله بالإدارة الاستعمارية، ظن الفرنسيون أن سلوكه كان ينطوي على سوء نية، غير أنهم سرعان ما تأكدوا من حسن نيته و إخلاصه الشديد لهم، فتبددت مخاوفهم و منحوه السلطة الزمنية حيث أسندوا له منصب باشاغا شلاطة عام 1869م.

سافر محمد السعيد بن علي الشريف إلى فرنسا لطلب العلم فتعلم لغة الفرنسيين و تشبع أيضا بثقافتهم، و نتيجة لذلك « تغيرت أفكاره التي كانت متحجرة، و لطفت طباعه التي كانت سيئة، و عدل مزاجه الذي كان متقلبا ! » كما يقول « فيرو »، فكان من الزعماء الأهليين القلائل الذين فهموا حقيقة الحضارة الفرنسية و ثقافتها على حد توصيف هذا الضابط دائما، و نتيجة لذلك كافئه الفرنسيون و منحوه وسام جوقة الشرف. و إذا كان « فيرو » معجبا بهذه الشخصية التي عاصرها فإن الرحالة الألماني « هاينريش فون مالتسان » الذي التقى به اتخذ منه موقفا نقيضا لذلك تماما حيث وصفه بصفات غير حميدة إذ قال بأنه كان بخيلا، و بعد أن تخلى عن بخله تحلى بصفة نقيضة لها و أكثر سوءا منها و هي الإسراف الشديد في إنفاق الأموال الطائلة التي كانت لديه بغرض الاستيلاء على قلوب السيدات. و كان من الرؤساء الأهليين الذين صنعتهم فرنسا صنعا و جعلت منهم عملاء خاضعين حيث « كان يتمرغ في التراب أمام الشخصية الرسمية الفرنسية » و كان لا يقلد الفرنسيين إلا في العادات السيئة و المشينة و « كان نموذجا لإنسان نصف همجي، يتصور أنه يتقرب إلى سيده المتمدن بتقليده في عاداته ».

و رغم ذلك، فإن محمدا السعيد بن علي الشريف أدين من قبل القضاء العسكري الفرنسي بعد ثورة المقراني عام 1871م بسبب مواقفه المريبة حيث انتصب في المعسكر المعادي لسياسة التبشير التي قادها "الكاردينال لا فيجري" عام 1868م و التي كانت من الأسباب المركزية لهذه الثورة، غير أنه استفاد من قرار العفو الذي أصدره الحاكم العام الماريشال "ماكماهون" في ذلك الحين.

حول هذه الشخصية الأهلية و علاقتها بالإدارة الفرنسية ينظر:

- هاينريش فون مالتسان: ثلاثة سنوات في شمال غرب إفريقيا، ترجمة ابو العيد دودو، الجزء الثاني، المصدر السابق، ص ص 141،142

و ينظر كذلك:

- Annie Rey-Glodzeiguer : index Biographique, op.cit, p 757
- L .ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de constantine : Bougie », in R.S.A.C, Année 1869. pp 367, 368.

[1] L.ch. Féraud, « Histoire des villes de la province de constantine : Setif » op.cit, p 127.

هذا، و قد واجه الشيخ أحمد بوعكاز متاعب كثيرة مع هذا الثائر الذي أنهك قواه العسكرية، لذلك كان لا يتوانى عن الاستنجاد بالقوات الفرنسية لتدعيم صفه من أجل محاربته لأنه في تلك الأثناء تمكن من تأليب قبائل جيجل و القل ضد الفرنسيين و أعوانهم بالمنطقة [1] . و عندما أدرك الفرنسيون الخطر الذي كان يشكله مولاي محمد على وجودهم بالمنطقة استجابوا للطلب الذي وجهه لهم هذا الشيخ، فجيشوا جيشا قوامه 2000 عنصر، و ساروا به من سطيف لمطاردة هذا الثائر، وقاد هذا الجيش العقيد « شاسلو » « chasseloup » [2]

و في تلك الأثناء باغت الشيخ أحمد بوعكاز الثائر مولاي محمد بهجوم كاسح أفضى إلى إنهاك قواه، حيث قضى على ثلاثين عنصرا من رجاله، و سلب منه مائة بندقية، كما صادر رايته. [3] و رغم انكساره في هذه المعركة إلا أنه بقي وفيا لنهجه المعادي للشيخ أحمد بوعكاز. ففي 03 أوت 1847م نظم مولاي محمد هجوما على مدينة جيجل، فتصدى له خليفة فرجيوة و تمكن من إبعاده من المنطقة. و منذ ذلك الوقت اختفت أخباره لعدة أشهر. [4]

و كما حارب الشيخ أحمد بوعكاز مولاي محمد، فقد حارب أيضا رفيقه مولاي إبراهيم الذي عكف على كتابة عدة خطابات وجهها إلى زعماء القبائل حببهم فيها في فكرة المقاومة و دعاهم إلى حمل السلاح و الثورة في وجه الإدارة الاستعمارية. و قد وصلت خطاباته إلى سكان و قبائل القل و جيجل في جبال البابور، غير أن الشيخ أحمد بوعكاز رفقة زعيم أهلي آخر يدعى سي الجودي قاما بتثبيط عزائم الناس و حاربا بقوة الأفكار التي كان يدعو إليها [5]. و بهذا الشكل يتبين لنا أن الفرنسيين إعتمدوا بشكل كبير على فرسان زعيمي عائلتي المقراني و بوعكاز بن عاشور أثناء محاربتهم للثائرين مولاي محمد و مولاي إبراهيم، و هو ما كان ينتظروه منهما.

2- ثورة الزعاطشة عام 1849م

اندلعت ثورة واحة الزعاطشة في شهر جويلية عام 1849م، و لم يتعامل الفرنسيون معها بجدية حين اندلاعها. و يذكر رئيس المكتب العربي لسور الغزلان (أومال Aumale سابقا) أن تفكيرهم في مواجهتها لم يبدأ ينضج

[1] N.Robin : op.cit, p 227.
[2] Ernest Mercier : op.cit, p 515.
[3] L.ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit, pp 102, 103.
[4] N.Robin : op.cit, p 227.
[5] يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 70.

إلا في بداية شهر أكتوبر من السنة نفسها[1]. و الحقيقة أن الفرنسيين كانوا في ذلك الوقت يتلافون حرارة الصيف، و قد استمرت هذه الثورة حتى نهاية عام 1849م. و لم تكن جغرافيتها منحصرة على واحة الزعاطشة فحسب، بل مسحت المناطق المتاخمة لها.[2]

و إذا كانت لكل ثورة دوافع و خلفيات، فثمة اختلاف بين المؤرخين في تقديم أحدها على الآخر. فقد ركز الفرنسيون على العوامل الخارجية، و تراخي قبضة فرنسا في الجزائر إثر تداعيات ثورة 1848م بفرنسا و تخلخل أركان عرش الملك لويس فيليب، [3] و ما انجر عنه من عزل نجله « الدوق دومال » « le Duc d'Aumale » بالجزائر و استخلافه بالجنرال « كافينياك » « Cavaingnac ». [4] و ذكر الرائد « سيروكا » العليم بأخبار الجنوب القسنطيني أن جماعة البساكرة الذين كانوا يقيمون بالجزائر العاصمة كانوا ينقلون أخبارا إلى مدينة بسكرة مؤداها أن الفرنسيين ذاقت بهم أرض الجزائر بما رحبت، و أن جيوشهم تستعد لمغادرتها، و تبعا لذلك انتهز سكان المنطقة هذه الفرصة و أعلنوا الثورة،[5] بقيادة الشيخ بوزيان الذي كان أحد رجال الأمير عبد القادر، و الذي رأى في منامه أن نبي الخلق محمد عليه الصلاة و السلام كلفه بتطهير أرض الإسلام من دنس الكفار.[6] فخاض عدة معارك أربكت العسكريين الفرنسيين و أعوانهم بالمنطقة، و جعلتهم يعترفون بضعف جيوشهم في مختلف تقاريرهم.[7] و قد ردت الإدارة الاستعمارية بعنف على هذه الثورة حيث حشدت قوة عسكرية ضخمة، وصل عددها إلى خمسة آلاف جندي [8] مستعينة في ذلك بكل فرقها و فصائلها العسكرية بما في ذلك فرقة اللفيف الأجنبي. و قد فرضت القوات الفرنسية حصارا محكما على الواحة انتهى بتدميرها و قتل مئات من السكان و التمثيل بجثث الثوار و على رأسهم الشيخ بوزيان و نجله الذين زحت رأسيهما و عرضتهما في ساحة المعركة [9].

---

(1) G.Bourjade : « Notes chronologiques pour servir à L'histoire de L'occupation française dans la région d'Aumale 1845- 1887 » in R.A n° 32, Année 1888, p 284.

(2) أبو القاسم سعد الله: خلاصة تاريخ الجزائر. المقاومة و التحرير– 1830–1962، المرجع السابق، ص ص 48–50.

(3) L.ch. Féraud : « Documents pour servir à L'histoire de Philippeville » op.cit, p 365.

(4) Paul Azan : Conquête et Pacification de L'Algérie, Paris, France, S.D, p 396.

(5) Le Commandant Seroka : op.cit, p 504.

(6) L.ch. Féraud : « Les Ben-djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 29, Année 1885, p 399.

(7) A.O.M : 2H25 : Opérations militaires : cercle de Biskra. Note additionnelle de la 2éme quinzaine du mois de Mai 1849.

(8) صالح فركوس: تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال– المراحل الكبرى–، المرجع السابق، ص 232.

(9) Georges Blond : Histoire de la légion étrangère 1831. 1981, Editions du club de France Loisirs, Paris, avec L'autorisation de la librairie Plon, France, 1981, pp 38-41.

و أيا كان الأمر، فالثورة أجهضها الفرنسيون بطريقة بربرية، و حاول بعض كتابهم تبرير عدوانهم، بل حتى تشويه أسبابها و خلفياتها، فقد ربطوها كما قد منا بالعوامل الخارجية. و الحقيقة أن هذه العوامل لا يمكن إهمالها و قد تكون وجيهة أحيانا، إلا أن القول بأنها مقدمة عن سائر العوامل، فذلك رأي يجوز فيه النظر، لأن السبب المركزي لهذه الثورة هو رفض سكان المنطقة بزعامة الشيخ بوزيان للوجود الاستعماري. فقد درجت عادة هؤلاء الكتاب الفرنسيين على ربط هذه الثورة بالعنصر الأجنبي حتى يجردوها من دوافعها الوطنية.

و جدير بالذكر أن الفرنسيين ارتكزوا على بعض العائلات الكبرى التي قدمت لهم مختلف أشكال الدعم أثناء حصارهم لواحة الزعاطشة فما هي هذه العائلات؟ و ما هو الدور الذي لعبته خلال ذلك؟.

بالرغم من الاحتراز و التدابير التي باشرتها الإدارة الفرنسية بهدف عزل الثورة إلا أن تأثيرها اتسع و خرج عن النطاق الذي أراده الفرنسيون. و في هذا المنظور وصل صداها إلى قيادة المقراني، و تحديدا إلى دائرة بوسعادة التي ظهر بها الزعيم محمد بن علي بن شبيرة الذي دعا الناس إلى الجهاد، و أرسل العديد من المساعدات للشيخ بوزيان أثناء منازلته للفرنسيين. [1] كما عمل على تهييج السكان ضد الفرنسيين، و أخبرهم بأنهم غلبوا في واحة الزعاطشة، و عقد لهذا الغرض العديدمن الاجتماعات منها الاجتماع المنعقد يوم 11 من أكتوبر 1849م مع وجهاء المنطقة و رجال الدين و رؤساء القبائل، أقسم لهم فيه بأنه يعلن نفير الجهاد ضد الفرنسيين.[2]

و يخبرنا البارون « أوكابيتين » « Au capitaine » أنه تمكن من تحبيب فكرة الثورة للسكان، فأستقطب سكان أولاد نايل، و عدد غير قليل من السكان الآخرين. و كاد أن يحكم قبضته على مدينة بوسعادة لولا مسارعة الخليفة أحمد المقراني إلى نجدة المدينة و الدفاع عنها، و بعد ذلك توالت النجدات الفرنسية بقيادة العقيد « دوماس » « Daumas » الذي تمكن من فك الحصار المفروض عليها.[3] و على إثر ذلك انتقم الفرنسيون من السكان انتقاما قاسيا، و فرضوا غرامة باهضة عليهم، و اسندوا إدارة المكتب العربي لهذه الدائرة إلى النقيب « بان » « Pein »، [4] و بهذه الطريقة تم إبعاد تأثير ثورة الزعاطشة عن دائرة بوسعادة. و إلى جانب ذلك عضد الخليفة أحمد المقراني بـ « قومه » الجيش الفرنسي أثناء منازلته لثوار الواحة، و خاض إلى جانبه

(1) ابراهيم مياسي: مقاربات في تاريخ الجزائر 1830– 1962، المرجع السابق، ص 95 .

(2) L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Bousaada op.cit, p 358.

(3) Le Baron Henri Au capitaine :op.cit , pp 59,61.

(4) Youssef Nacib : Cultures Oasiennes. Bousaâda : Essai d'histoire sociale, ENAL, Alger, Algerie, 1986, p 180.

معركة سيدي مرازي يوم 12من نوفمبر 1849م التي كانت من أشرس المعارك التي جمعت ثوار واحة الزعاطشة بالجيوش الفرنسية [1]

أما عائلة ابن قانة، و هي العائلة القريبة من مسرح أحداث هذه الثورة، فقد اعتمد عليها الفرنسيون أيضا في القضاء على هذه الثورة. ففي 17 من سبتمبر 1849م جهز بولخراص بن قانة قايد منطقة الزاب الشرقي قوة عسكرية قدرت بـ 450 رجلا و 400 فارس، ثم سار على رأسها من أجل مؤازرة القائد الفرنسي « سان جيرمان » « ST Germain » الذي دخل في مواجهة مع الثوار في منطقة سريانة. و قد تكلمت المصادر الفرنسية عن انكسار الثوار في هذه المعركة رغم مؤازرة سكان المنطقة لهم و امتناعهم عن تسديد الضرائب، و إحجامهم عن إرسال حيواناتهم للعمل في الجيش الفرنسي في إطار نظام السخرة المعمول به حينئذ. [2]

و في 17 من أكتوبر 1849م، و هو اليوم الأول للحصار الذي فرضه الفرنسيون على الواحة، تقدم شيخ العرب بقواته لدعم القوات الاستعمارية [3] و رغم المجهودات التي قدمها شيخ العرب للفرنسيين في هذه الثورة إلا أنه اتهم من قبلهم بلعب دور مزدوج تارة في صف الفرنسيين و تارة أخرى في صف الثوار.[4] بل أن التقارير الفرنسية اتهمته صراحة بإحجامه على تقديم العون للفرنسيين أثناء حصارهم لهذه الواحة، و قالت بأن موقفه السلبي كان واضحا وضوحا نافيا للجهالة، و عليه فقد اقترح أحد الضباط ضرورة التعامل معه بصرامة، و في الوقت نفسه تحميله المسؤولية التقصيرية إزاء ذلك. [5] و كتب ضابط فرنسي آخر تقريرا آخر شكك فيه في ولاء عائلة ابن قانة للفرنسيين حيث قال : « إن عائلة ابن قانة لم تكن في واقع الأمر مرتبطة بقضيتنا إلا من حيث الظاهر و دليلنا على ذلك أن الأخطاء و الزلات التي ترتكبها جيوشنا كانت تثلج صدور أفراد هذه العائلة ».[6]

---

(1) يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، المرجع السابق، ص 66.

(2) عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 144.

(3) عمار عمورة: موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر و التوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر 2002، ص 148.

(4) Halim Cherfa : op.cit, p 73

(5) A.O.M : 10H17 : Renseignements géographiques et historiques. Subdivision de Batna Historique (1846). Notice sur les tribus, Cartes, Rapport du Bivouac de Barika le 18 Décembre 1849.

(6) A.O.M. 2H24 Mémoire relatifs aux événements accomplis dans la subdivision de Batna du 16 octobre 1848 au 6 décembre 1849.

و بهذه الكيفية يتبين لنا أن الفرنسيين كانوا يمارسون ضغوطا على هذه العائلة، حيث لم يكتفوا بالتشكيك في عجزها عن محاربة ثوار الزعاطشة – و هي من صميم المهام التي أسندها الفرنسيون لها منذ الاعتراف لها بمنصب شيخ العرب– بل ظلوا يشكون حتى في ولائها لهم. تلك هي بالذات إستراتيجية المستعمر تجاه هذه العائلة، لأن هدف المستعمر من وراء ذلك هو البحث عن مسوغات قصد تقزيم سلطاتها و تجزئة قيادتها تمهيدا لإضعافها، و هي سياسة عامة درجت عليها الإدارة الاستعمارية مع سائر العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة.

3– مقاومة محمد الأمجد بن عبد المالك (الشريف بوبغلة)* (1851م– 1854م)

في عام 1851م أعلن الثائر بوبغلة الثورة في وجه الفرنسيين ببلاد الزواوة المعروفة بتضاريسها الوعرة [1] و يشير الضابط الفرنسي « روبن » الذي اهتم كثيرا بدراسة هذه الثورة أن هذا الأخير كان يقول للناس أنه « مول الساعة »، و أن الله عز و جل اصطفاه للدفاع عن حياض هذا الوطن و رمي المسيحيين في البحر.[2] و يبدو أن سكان المنطقة احتضنوا هذه الثورة بسرعة فائقة، و هذا ما يفسر رد الفعل العنيف للسلطات الاستعمارية عليها حيث شنت ضدها العديد من الحملات العسكرية أبرزها حملة عام 1854م.[3] و عندما بلغت مسامعه أنباء هذه الحملة، قرر بوبغلة و بإيعاز من المجاهدة فاطمة نسومر الاستنجاد بفرقة « المسبلين » الذين وضعوا أنفسهم تحت تصرف هذا الثائر، فتصدوا بقوة لجيش الغزاة. [4] و مهما يكن من أمر، فالثورة دامت زهاء خمس سنوات كاملة، و انطفأت شعلتها عام 1854م، و رغم ذلك فقد شكلت مقبرة حقيقية للجيش الفرنسي، كما أنها أخرجت منطقة الزواوة المعروفة بتضاريسها الوعرة من عزلتها الجبلية و جعلتها تتفاعل مع الوضع الجديد الذي آلت إليه الجزائر. [5] و يمكن القول أن الفرنسيين

* تذكر المصادر التاريخية أنه لقب بهذا الاسم لأنه كان حريصا على اصطحاب بغلة رمادية اللون في سائر تنقلاته و تحركاته. حول ذلك ينظر:

- سعيد بورنان : شخصيات بارزة في كفاح الجزائر 1830، 1962، الجزء الأول ، رواد المقاومة الوطنية في القرن التاسع عشر، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الثانية ، الجزائر، 2004، ص 123

[1] عبد الكريم بوصفصاف و آخرون: المرجع السابق، ص 258

[2] N.Robin : op.cit , p 317.

[3] N.Robin : « Les Imessebelen », in R.A n° 18, Année 1874, p 403.

[4] مبارك الخليجي: « المسبلون أو الفدائيون الجزائريون الأولون » مجلة الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، العدد 2، السنة 1971، ص 43

[5] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1830– 1900)، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 351.

لم يتمكنوا من إجهاض هذه الثورة إلا بتضافر عدة جهود منها الدعم الذي قدمته بعض العائلات الكبرى موضوع دراستنا، و لاسيما العائلات القريبة من جغرافية هذه الثورة و يتعلق الأمر بعائلة المقراني، و عائلة بوعكاز بن عاشور، و إلى حد ما عائلة أولاد عز الدين، و كذا عائلة الرزقي، و في ما يلي نفصل في ذلك.

لقد لعبت عائلة المقراني دورا مركزيا في محاربة هذا الثائر منذ انطلاق شرارة ثورته. و أشارت التقارير الفرنسية إلى وصول تأثير هذه الثورة إلى دائرتي برج بوعريريج و بوسعادة منذ البداية، و هي مناطق تشكل عمقا استراتيجيا لقيادة المقراني.[1]

و أشار تقرير سري بقلم قائد دائرة سوق اهراس مؤرخ في 1851/03/03م إلى ما يثبت انتقال الشريف بوبغلة إلى منطقة بني عباس الواقعة بقيادة المقراني، حيث جاء فيه «... انطلاقا من المراسلة السرية التي وجهها لنا السيد القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة بتاريخ الفاتح من مارس عام 1853م، فإن « الدرويش » بوبغلة الذي زرع الرعب في منطقة القبائل، قد اخترق وادي الساحل ثم انتقل بمفرده إلى بني عباس... »[2]

و قال القائد العام للقطاع العسكري لمقاطعة الجزائر العاصمة في تقرير له عن الوضع العام في الجزائر الذي أرسله إلى الحاكم العام أن: « ... الشريف بوبغلة انتقل بصورة نهائية إلى منطقة بني مليكش، و أنه قام بتصفية بعض المتعاونين معنا. و من أجل حماية القبائل الصديقة التي فضلت الركون إلى الدعة و الاستسلام، و رفضت اعتناق أفكاره، فإننا قمنا بإرسال تعزيزات عسكرية إلى منطقة بني منصور، كما قمنا بإرسال فرقة من "القوم" تتشكل من 190 حصانا إلى قبيلة بني عباس. و نتمنى أن تكون هذه التراتيب كافية للجم نشاط هذا الثائر الذي حط عصا ترحاله بمركز بني عباس يوم 03 من ماي الماضي رفقة فرسانه الذين عضدتهم فرقة « السوقة العسكرية Le contingent militaire » التابعة لقبيلة بني مليكش، و قد تصدينا لهم بحزم و التحمنا معهم في معركة حامية، و ولوا الأدبار منكسرين بعدما جرح ثلاثة من عناصرهم... ».[3] و بهذا يمكن القول أن انتقال الثائر بوبغلة إلى قيادة المقراني كان حقيقة لا يمكن نكرانها، و أن الفرنسيين كانوا يتتبعون أخباره و يترصدون كل حركاته، و يتبادلون التقارير حول نشاطه سرا و علانية.

---

(1) A.O.M : 40KK8 : Correspondance avec la division/ Département : Rapport du colonel Bossquet au général de salles le 18/11/1851 n° 192.

(2) A.O.M : 33K1 : Cercle de Guelma : Bureau des Affaires arabes : Rapport confidentiel du 03/03/1853.

(3) ISHMNT : A.O.M, série 25h Tunisie, carton n° 25H10, Dossier n° 1 Bobine A 11 : Rapport du général de division commandant de la division d'Alger à Mr le gouverneur général de l'Algérie sur la situation politique de l'Algérie, expédié le 19 Mai 1853, Folio 320.

و في تلك الأثناء كان الفرنسيون ينظرون إلى الخليفة أحمد المقراني إلى جانب مرابط آقبو محمد السعيد بن علي الشريف على أنهما سيقدمان لهم يد العون للقضاء على هذا الثائر و منع تسرب أفكاره إلى المناطق الخاضعة لنفوذهما.[1]

و يبدو أن الخليفة أحمد المقراني خيب آمالهم هذه المرة، حيث أن الشريف بوبغلة زار قيادة المقراني عام 1851م، و طاب له المقام في مجانة مقر هذه القيادة، و أمضى فيها عدة أيام و ألب السكان ضد الفرنسيين، كما حثهم على رفع راية الجهاد في وجههم، و رغم ذلك لم يتدخل الخليفة أحمد المقراني ليمنعه من ذلك [2].

و يفهم بمفهوم المخالفة لما ذهب إليه "مرسيي" أن هذا الخليفة شجعه على الاستقرار هناك، لأنه نظر إليه على أنه لاجئ يحتاج إلى الحماية. [3] و تضيف بعض المصادر أن الخليفة أحمد المقراني كان يتتبع أخبار هذا الثائر بالمنطقة أولا بأول، و كان يعلم بمختلف النشاطات التي كان يباشرها على مستوى قيادته، و رغم ذلك فقد أحجم عن التبليغ عنه للفرنسيين، و السبب في ذلك أن الخليفة كان قد تعهد له بأنه لن يتخذ منه موقفا معاديا في حالة لجوئه إلى تراب قيادته. و هذا انطلاقا من مراسلة سابقة تمت بينهما. و عليه فإن موقف الخليفة في هذه الحالة يمكن تصنيفه في خانة الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه سابقا ليس إلا. [4]

غير أن هناك من ينازع هذه الرواية، و يقدم رأيا مخالفا لها. و هذا الرأي يتبناه جمهور المؤرخين و المهتمين بأخبار عائلة المقراني. فقد نفى المؤرخ « رامبو » « Rambaud » هذه الرواية المتداولة، و رأى أن الخليفة أحمد المقراني ظل وفيا للفرنسيين، و خاض إلى جانبهم معارك طاحنة ضد هذا الثائر قبل أن يسافر إلى أداء مناسك الحج عام 1852م أي خلال الفترة التي انتقل فيها الشريف بوبغلة إلى مقر قيادته.[5] و يؤيده في ذلك المترجم العسكري « غين » « L.Guin » الذي يؤكد أن الخليفة أحمد المقراني حشد قوة كبرى من فرقة "القوم"، عضد بها الجيش الفرنسي أثناء منازلته لهذا الثائر، و بفضل جهوده تمكن الفرنسيون من تضييق الخناق على الشريف بوبغلة في منطقة بني عباس، و بني مليكش [6]

---

(1) Mouloud Gaid : Histoire de Bejaia et de sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954, op.cit, p 156.

(2) L. Rinn : op.cit, pp 31, 32.

(3) Ernest Mercier : Le Bachaga Mokrani et les causes de L'insurrection de 1871, op.cit, p 15.

(4) Mouloud Gaid : Mokrani, op.cit, p 56.

(5) يحي بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني و الحداد)، المرجع السابق، ص 57.

(6) L. Guin : « Notes historiques sur les Adoura », in R.A n° 17, Année 1873, p 118.

و أمام تضارب هذه الروايات، فقد عسر علينا الأخذ بإحداها و الجزم بأن الخليفة أحمد المقراني اتخذ موقفا معاديا أو مؤيدا من هذا الثائر. غير أنه بالنظر إلى تطور العلاقة بين الإدارة الاستعمارية الفرنسية و الخليفة أحمد المقراني في تلك الفترة تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن هذا الخليفة تعاون مع الفرنسيين أثناء محاربتهم للثائر بوبغلة، و مع ذلك فقد كانوا يتهمونه بالتقصير من منطلق أن الإدارة الاستعمارية كانت في تلك الفترة تبحث عن المسوغات و الحجج من أجل تقزيم سلطته و جعله تحت السلطة المباشرة لضباط المكاتب العربية، لذلك عملت بكل أوتيت من قوة من أجل بلوغ هذا الهدف، و الراجح أنها كانت تتهمه بالتقصير في أداء المهام تجاه هذا الثائر حتى تضيق عليه و تقلص من صلاحياته.

و الواقع أن ثمة روايات تاريخية تذهب إلى الاعتقاد أن نهاية الثائر الشريف بوبغلة كانت على يد زعماء عائلة المقراني. فقد ذكر « مرسيي » أنه صفي على يد أحد المقرانيين في إحدى المعارك التي نشبت بينهما يوم 20 من ديسمبر 1854م بسبب خلاف وقع بينهما.[1] و أما سبب هذا الخلاف فيعود إلى أن هذا الثائر سارع إلى الاستيلاء على بعض الممتلكات التابعة لعائلة المقراني، غير أن المقرانيين استنجدوا بالقوات الفرنسية التي كانت مرابطة بالمنطقة، و دخلوا في مواجهات مع قواته أفضت إلى إصابته بجروح بليغة سببت له عجزا عن الحركة، بينما فر معظم رجاله أبرزهم عبد القادر المذبوح، و هو الأمر الذي سهل عملية تصفيته من قبل أبناء الخليفة أحمد المقراني، و بومزراق المقراني، و لخضر المقراني.[2]

و يوضح لنا النقيب « بورجاد« Bourjade » » الطريقة الوحشية التي اغتيل بها الشريف بوبغلة على يد زعماء عائلة المقراني، حيث يذكر أنه عندما أصيب هذا الثائر بجروح شلته عن الحركة، سارع إليه المدعو لخضر بن دراجي و هو أحد رجال لخضر المقراني، و قام بقطع رأسه بواسطة خنجر كان يحمله، بعدها حمل ذلك الرأس و نقله إلى مدينة برج بوعريريج ليعلق في إحدى ساحاتها العمومية على عمود إلى جانب ختمه الخاص و بعض من أسلحته، و حصانه يوم 28 من ديسمبر 1854م، فانتشر خبر هذه الواقعة بسرعة بين السكان الذين توافدوا على المكان للوقوف على النهاية الوحشية لهذا الثائر.[3]

---

[1] Ernest Mercier : Histoire de Constantine, op.cit, p 561.

[2] صالح عوض: معركة الاسلام و الصليبية في الجزائر 1830م. 1962م، ج1، الزيتونة للاعلام و النشر، تونس، د.ت، ص 162.

[3] G.Bourjade : « Notes chronologiques pour servir à l'histoire de l'occupation Française dans la région d'Aumale 1845-1887 », in R.A n° 33, Année 1889, pp 271, 272.

و قد أشاد « فيرو » بسيرة لخضر المقراني قاتل الشريف بوبغلة و وصفه بالرجل الحيوي و الذكي ذي المظهر الفاتن، و الحائز على صفات النبل، التي لم تكن تتوفر عند إخوانه الآخرين، و بسبب هذه الصفات فقد كرمه الفرنسيون و وجهوا له دعوة لحضور حفل توزيع الصقور عام 1851م بالعاصمة الفرنسية باريس و قلدوه وسام صليب جوقة الشرف.[1] و يضيف هذا الضابط الفرنسي أن لخضر المقراني قام بمراسلة المسؤول العسكري السامي بسطيف، وحدثه عن خلفيات و ظروف عملية اغتيال هذا الثائر، حيث كتب له : « لقد تعهدت سابقا للعقيد « دارجانت » « Dargent » بأنني سأضع حدا للشريف بوبغلة و أكدت له أن يحيطك علما بتعهداتي ..... لقد أزعجني هذا الرجل كثيرا، و كان علي أن أقتله لأنني اقتنعت بذلك اقتناعا راسخا بأنني سأنفذ هذا الصنيع حتى و إن أحجم عن مضايقتي.... إن الله عز و جل وفقني في القضاء عليه لأنه وضعه أمامي يوم الثلاثاء مساء، فقمت بتصفيته. إنني أشكركم جزيل الشكر على النصائح التي قدمتموها إلي. فبواسطتها تمكنت من تفويت الفرصة على هذا الخبيث و قتلته. و عموما فإن الله عز و جل كافئني على حسن سيرتي و سهل علي عملية قتله ».[2]

و يلاحظ أن العقيد « روبن » العليم بأخبار مقاومة هذا الثائر، يذكر أنه لم يقتل خلال المعركة التي تمت الإشارة إليها، و إنما قتل في وقت لاحق لها. و تتلخص وقائع المعركة التي قتل فيها هذا الثائر حسب رواية هذا العقيد أن لخضر المقراني خطط لهذه المؤامرة بمعية أفراد من عرش بني مليكش و قام بدفع مبلغ مالي يقدر بـ 2000 فرنك فرنسي للمدعو « أعراب أوكروش » مقابل قيامه بعملية الاغتيال، و عندما قام بقتله قطع رأسه و نقلها إلى لخضر المقراني، فادعى هذا الأخير بأنه هو الذي قام بقتله[3]. و الواقع أن هناك من ينازع واقعة اغتيال هذا الثائر على هذه الشاكلة و يورد ملابسات أخرى تختلف بعض الشيء عن ملابسات واقعة الاغتيال المذكورة لاسيما فيما يتعلق بالفاعل، أي منفذ عملية القتل. و هذه الرواية تبرئ ساحة لخضر المقراني من هذه العملية، و توجه تهمة القتل إلى سكان عرش بني مليكش الذين غدروا بهذا الثائر و قتلوه بعدما ائتمنهم و حضر إلى مأدبة عشاء دعوه إليها، بعدها طلبوا من القائد الفرنسي التستر على هذه الواقعة، و الادعاء بأنه قتل في المعركة السابقة الذكر حتى لا تمس سمعتهم. و الأصل أن هذه الرواية تعتمد على رسالة

[1] L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Bordj-Bou-Arriridj » op.cit, p 320.
[2] Ibid : p 321.
[3] N.Robin : « Histoire du chérif Boubarla », in R.A n° 28, Année 1884, p 180.

وجهها باش عدل*بني مليكش إلى القيادة الفرنسية في 09 جانفي 1855م يروي فيها واقعة الاغتيال على النحو المذكور.[1] و مهما يكن من أمر، و بصرف النظر عن تضارب الروايات حول نهاية هذا الثائر، فالثابت أن عائلة المقراني ساهمت إلى جانب الإدارة الاستعمارية في محاربة ثورته. و كان الفرنسيون يدركون ذلك جيدا و رغم ذلك فإن ضباطهم ظلوا يناصبوهم العداء الشديد. و ذلك يندرج في إطار السياسة الاستعمارية التي تهدف إلى التخلي تدريجيا عن خدمات هذه العائلة.

و أما عائلة بوعكاز بن عاشور، فقد قدمت هي الأخرى عن طريق زعيمها الشيخ أحمد بوعكاز مختلف المساعدات للجيش الفرنسي أثناء منازلته لهذا الثائر. ففي 07 من ماي 1851م انطلقت حملة عسكرية فرنسية بقيادة الجنرال « سانت أرنو » عبر الطريق الرابط بين ميلة و جيجل، و القل، [2] و تمكنت من بلوغ مشارف مدينة بجاية و كان هدفها ملاحقة الشريف بوبغلة. و خلال هذه الحملة كان الشيخ أحمد بوعكاز السند القوي للفرنسيين، حيث و فر لهم الأمن و الدعم الكاملين و ضاعف من حظوظهم في التضييق على رجال بوبغلة. و نتيجة للجهود التي قدمها لهم هذا الشيخ، فقد وعدوه بمكافأة هامة تليق بمقامه. و في 15 أوت1851م قلدوه وسام ضابط جوقة الشرف إلى جانب بعض الزعماء الأهليين الآخرين. [3]

و ما يقال عن دور عائلة بوعكاز بن عاشور و زعيمها الشيخ أحمد بوعكاز في محاربة الشريف بوبغلة يقال كذلك عن جارتها عائلة أولاد عز الدين و زعيمها بورنان الذي عضد هو الآخر حملة « سانت أرنو » الذائعة الصيت ضد منطقة القبائل الصغرى[4] التي لم يكن هدفها المركزي هو تأديب القبائل الثائرة في منطقة البابور فحسب، و إنما أيضا التضييق على النشاط الثوري للشريف بوبغلة

* الباش عدل هو نائب القاضي، يتم تعيينه من قبل الوالي العام الفرنسي بعد أخذ رأي وزير العدل حافظ الأختام، و ينظر الباش عدل في مختلف القضايا و النزاعات التي ينظر فيها القاضي، و يتلقى تكوينا في مجال القضاء، و في نهاية هذا التكوين يؤدي اليمين القانونية أمام الجهات القضائية الفرنسية المختصة و هو إجراء جوهري، يلزم بأدائه قبل أن يباشر مهامه، و يقع تحت طائلة البطلان كل حكم قضائي يصدره هذ الباش عدل الذي لم يؤد هذا اليمين.

– حول هذه المسألة ينظر:

- Emile Larcher : Traité Élémentaire de Législation Algérienne, tome premier, éditions Arthur Rousseau, Paris, France, 1903, p 669.

[1] يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، المرجع السابق، ص 493

[2] L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Gijelli », op.cit, pp 256, 257.

[3] Ernest Mercier : op.cit, pp 537-540.

[4] Charles-Robert Ageron : L'Algérie Algérienne de Napoléon III à De Gaulle, éditions sindbad, Paris, France, 1980, p 51.

الذي حاول جاهدا استغلالها لصالح ثورته. [1] و قد لعب الزعيم بورنان دورا محوريا في محاربة القبائل الثائرة في مناطق وادي النجاء، و فج باينان، و الودية، و فج العربة، و قرية كازان، و فج منازل، و العروسة، و استمات في الذود عن الجيوش الفرنسية و حمايتها، و كاد أن يفارق الحياة في إحدى المعارك حيث أصيب بجروح بليغة. و نظرا لهذا الدور الذي لعبه لصالح الجيش الفرنسي كرمه القادة الفرنسيون مثل صديقه الشيخ أحمد بوعكاز و منحوه وسام ضابط جوقة الشرف نتيجة لسلوكه الحميد و سيرته الحسنة !. [2]

أما عائلة الرزقي بشرق المقاطعة، فقد أخطر الفرنسيون زعيمها القايد أحمد صالح الرزقي بضرورة التحلي باليقظة و الاستعداد لأي طارئ، و العمل على رصد كل تحركات هذا الثائر، لأن الفرنسيين كانوا يتوجسون خيفة من أن ينقل هذا « الدرويش » نشاطه الثوري إلى الإقليم الذي يخضع لسلطة القايد أحمد صالح الرزقي، كما وجهوا له تعليمة تقضي بضرورة توقيفه في حالة إلقاء القبض عليه. [3] هكذا نرى إذن كيف أن هؤلاء القادة الأهليين وقفوا إلى جانب المستعمر الفرنسي أثناء محاربته للشريف بوبغلة. و ليس غريبا أن يقلدهم هذا المستعمر الأوسمة و النياشين التي صورها لهم بأنها أوسمة السلوك الحميد و السيرة الحسنة، و هي في واقع الأمر ليست كذلك. فالفرنسيون كانوا يدركون جيدا أبعاد هذه الترتيبات على نفسيتهم و بالتالي أثرها الايجابي على مشروعهم الاستعماري. و ربما السرعة التي قلد بها الزعمان المذكوران تجد لها تفسيرا في شعور مهندس حملة القبائل الصغرى الجنرال «سانت أرنو » بالنخوة إثر نجاحه في « تهدئة » « Pacification » منطقة القبائل الصغرى و تقليده عصا الماريشالية من قبل مسؤوليه في باريس نتيجة لسيرته الحميدة و تفانيه في خدمة المشروع الكولونيالي ! [4] فأغدق عليهما هو الآخر بالهدايا و النياشين و الأوسمة لأنهما ساعداه في الحصول على هذه الترقية الثمينة.

4- ثورات البابور و بلاد القبائل

كانت منطقة البابور في صدر الاحتلال الفرنسي تشمل المناطق الممتدة من زواغة إلى سيدي مروان و القرارم و بني خطاب و بني ياجيس و بني عزيز و أولاد عاشور و أولاد عسكر و زرارة و منتورة و زغاية و سائر الأقاليم الأخرى الممتدة ما بين فج مزالة و ميلة. [5] و كان سكان هذه المناطق إلى جانب سكان القبائل في ثورة دائمة ضد الفرنسيين منذ عام 1830م، لذلك

(1) N.Robin : « Histoire du chérif Boubarla » in R.A n° 25, Année 1881, pp 337, 338.

(2) L.ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 327.

(3) A.O.M : 33K1, Cercle de Guelma : Bureau des Affaires Arabes : Rapport confidentiel du 03/03/1853.

(4) Jean Dautry : Histoire de la révolution de 1848 en France, éditions Hier et Aujourd'hui, Paris, France, 1948, p 329.

(5) عبد الكريم بوصفصاف: انتفاضة الثامن ماي 1945 و مظاهرها السياسية و العسكرية في منطقة فج امزالة (فرجيوة)، كتاب الملتقى الأول: كتامة، فج مزالة عبر العصور و الحضارات في 23، 24 ماي 2005، ص 49.

كان الفرنسيون يصنفون هذه الأقاليم ضمن « المنطقة المتوحشة الرافضة للحضارة الفرنسية » و هي المنطقة الممتدة من السفوح الشرقية لجبال البابور غربا إلى جبال الإيدوغ شرقا.[1] و ذلك بسبب ثورة سكانها المتواصلة ضد الفرنسيين الذين لم يتمكنوا من إحكام قبضتهم عليها إلا بحلول عام 1857،[2] بل بعد ذلك لأن « التهدئة النهائية » لهذه المنطقة كانت عام 1860م إثر نجاح الفرنسيين في القضاء النهائي على ثورة بني خطاب.[3]

و قد وجد العسكريون الفرنسيون المغامرون و الحالمون بالمناصب العليا و الترقيات التي حرموا منها في هذه الثورات فرصتهم الذهبية لتحقيق طموحاتهم،[4] إذ كتب الجنرال «سانت أرنو » و هو أحد أقطاب هؤلاء الطامعين رسالة إلى شقيقه عام 1851م قائلا له «... لقد قمت بتحضير حملة جيجل بحب و حماس لا نظير لها، لأن نجاحها مرهون بتقلدي عصا الماريشالية... ».[5]

و في سبيل إخضاع سكان هذه المناطق، اتبع هذا القائد « سياسة الأرض المحروقة »، فأمر بحرق 200 قرية، و تخريب جل الأشجار المثمرة.[6] و سمح لجنوده بالتنكيل و التمثيل بجثث القتلى، بل و مكافأة كل جندي يبالغ في ذلك، حيث خصص مكافأة مالية تقدر بعشرة فرنكات لكل جندي يقطع أذني ثائر و يحضرهما أمام عيون مسؤوليه ![7] و لنا أن نتصور حجم التقتيل الجماعي للسكان، و الدمار الاقتصادي الذي لحق بهذه المناطق. و لا شك أن هذه الممارسات تدرج في خانة الجرائم الوحشية التي تصنفها أحكام القانون الدولي العام حاليا ضمن جرائم الحرب، و الجرائم ضد الإنسانية.

و كعادتها استعانت الإدارة الاستعمارية بزعماء العائلات الكبرى من أجل إخضاع هؤلاء السكان. و كانت عائلة المقراني من العائلات التي ساعدت الفرنسيين على اختراق منطقة القبائل و احتلالها عن طريق زعيمها لخضر المقراني نجل الخليفة أحمد المقراني الذي عضد القوات الفرنسية التي كان يقودها الجنرال «ماكماهون » « Mac-Mahon » و الجنرال «راندون » « Randon » في

(1) Andrien Berbrugger : « Chronique », in R.A n° 6, Année 1862, p 475.
(2) Charles-Robert Ageron : « Naissance d'un peuple », op.cit, p 167.
(3) L.ch. Féraud : « Mœurs et Coutumes kabyles I », in R.A n° 6, Année 1862, pp 275-277.
(4) Omar kerdja : op.cit, p 218.
(5) Ibid, p 215.

(6) الزبير سيف الاسلام : ثورة المقراني في حديث مع الأولاد، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص 61.

(7) أندري برنيان، أندري نوشي، إيف لاكوست: الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة إسطمبولي رابح و منصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، 1984، ص 284.

حملاتهما العسكرية التي شنوها على المنطقة عام 1854م.[1] و قد اعترف الفرنسيون بالمجهودات الجبارة التي قام بها هذا القائد الأهلي لصالحهم أثناء غزوهم لمنطقة جرجرة عام 1857م، إذ كان له الفضل الكبير في غزوها و فرض الحكم الاستعماري بها.[2] و تحدث « فيرو » بإعجاب كبير عن لخضر المقراني و ذلك في معرض كلامه عن الأبناء الخمسة الذين تركهم الخليفة أحمد المقراني الذي توفي عام 1853م، و قال بأن لخضر المقراني قضى نحبه هو الآخر خلال المدة التي تلت حملة جرجرة الذائعة الصيت عام 1857م إثر تناوله لسم دس له في الطعام من قبل إخوته الأربعة الآخرين الذين كانوا يحقدون عليه بفعل خصاله الحميدة التي تميز بها، و قد انتشرت شائعات بين السكان تؤكد صحة هذه الرواية. [3] *

[1] Mouloud Gaid : Histoire de Bejaia et de sa région depuis L'antiquité jusqu'à 1954, op.cit, pp 161, 162.

[2] L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Bordj-bou-arreridj », op.cit, p 321.

[1] Ibid, p 321.

* الراجح أن لخضر المقراني قتل من قبل الفرنسيين أو على الأقل بإيعاز منهم، فقد درجت العادة أنهم كانوا يتتبعون هذا الأسلوب مع بعض زعماء العائلات الكبرى التي يشكون في ولائها، أو الذين يخشون انفضاضهم من حولهم، ثم يلصقون تهمة القتل بأقاربه و يروجون لها في أوساط السكان حتى تترسخ و يقتنع بها الجميع. فهم بهذا الأسلوب يزيحون الأطراف التي يخافون تمردها، و في الوقت نفسه يعملون على إحداث شرخ داخل أفراد عائلة الزعيم المقتول وفقا لسياسة « فرق تسد » ، و كذلك محاولة تقديم صورة قاتمة على العلاقة القائمة بين أفراد هذه العائلات الكبرى و تصويرها على أنها علاقة تتسم بالجفاء و الصراع على السلطة، و الخيانة و نحو ذلك. فهم بذلك يحاولون إبراز أن الملاحم و البطولات هي ميزات جيوشهم، بينما الخيانات و سائر السلوكات المقيتة هي ميزات سواهم من المتعاونين معهم من الجزائريين. و يورد المؤرخون عدة أمثلة عن ذلك، فقد اختفى عدة زعماء على النحو المذكور مثل عبد الرحمان بن جلاب عام 1852م و قيل أنه قتل من قبل ابن عمه سلمان بن جلاب، و كذلك محمد بن عز الدين زعيم عائلة أولاد عز الدين بالزواغة الذي مات مسموما عام 1854م و قيل أن أخاه بورنان هو الذي خانه و دس له السم في الطعام، و صفي الشيخ مسعود، شيخ ريغة عام 1857م بالطريقة نفسها، و كذلك زعيم عائلة أولاد سيدي الشيخ سي حمزة الذي قضى نحبه عام 1861م في ظروف غامضة، و الذي خلفه إبنه سي بوبكر الذي قتل هو الآخر مسموما عام 1862م.

– حول أسطورة تسميم القادة الأهليين ينظر:

- Colonel Trumelet : « Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger de 1864 à 1869 » in R.A n° 26, Année 1882, p 358.
- L.ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 328.
- Annie Rey- Goldzeiguer : op.cit, p 173.

و في عام 1856م اندلعت عدة ثورات و انتفاضات في جبال البابور استهدفت المصالح الفرنسية و المتعاونين معها، و أفضت إلى مقتل ثلاثة شيوخ كانوا يمثلون عيون الإدارة الفرنسية في المنطقة منهم شيخ خراطة الذي كان يشغل منصب قايد. و تبعا لذلك شن الفرنسيون حملات بربرية ضد السكان انتهت بإنشاء مركز عسكري بمنطقة تاقيطونت يسهر على حراسة السفوح الشمالية لجبال البابور.[1] و في عام 1858م ثار سكان الوادي الكبير، و جيجل، و القل بسبب إقدام السلطات الاستعمارية على منح غابات الفلين إلى المعمرين الأوروبيين الذين تقاطروا على الجزائر بهدف استغلالها و استثمارها لصالحهم، فقاموا بإشعال الحرائق التي أدت إلى إتلاف 550 شجرة، كما امتنعوا عن دفع الضرائب، فتدخلت الإدارة الاستعمارية بقوة و أجهضت حركتهم الثورية و أنشأت مركزا عسكريا بالميلية .[2]

و يبدو أن انطفاء ثورتهم لم تكن إلا ظاهريا، حيث عادوا إلى الثورة خلال السنوات اللاحقة. و كعادتها سارعت الإدارة الاستعمارية إلى خنق حركتهم الثورية مستعينة في ذلك بزعيم فرجيوة الشيخ أحمد بوعكاز الذي عضد القوات الاستعمارية الفرنسية في كل عملياتها العسكرية التي شنوها ضد هذه المناطق الثائرة إلى غاية عام 1861م.[3]

و إلى جانب عائلة بوعكاز بن عاشور، آزرت عائلة أولاد عز الدين هي الأخرى الجيوش الفرنسية أثناء قيامها بإخضاع سكان هذه المناطق. و قد عضد زعيم هذه العائلة القايد بورنان الجنرال « دي سانت أرنو » أثناء حملته العسكرية على جيجل عام 1851م. و استمات بمعية فرسانه في الدفاع عن الجيش الفرنسي أثناء مهاجمته من قبل السكان الذين اعترضوا سبيله عندما اخترق الأقاليم الخاضعة لسلطة هذا الزعيم، و خاض معارك طاحنة ضدهم، تعرض خلالها إلى جروح بليغة أصيب بها أثناء إحدى المعارك، كما قتل و جرح العديد من فرسانه خلال هذه المعارك، و نتيجة لذلك كافأه الفرنسيون و منحوه وسام صليب فارس جوقة الشرف.[4]

---

[1] L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de constantine : Gijelli », op.cit, p 280.
[2] Charles-André Julien : op.cit, pp 427, 428.
[3] L.ch. Féraud : op.cit, pp 282-286
[4] L.ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara : Notes historiques sur la province de constantine », op.cit, p 327.

و ذكر الماريشال « ماكماهون » « Mac-Mahon » الذي كان حينئذ قائد مقاطعة قسنطينة في مذكراته أنه في عام 1852م قام بغزو أراضي أولاد عيدون و الوادي الكبير، و كان يستقبل يوميا من قبل رؤساء القبائل التي يمر بها. [1] و من المتصور أن الشيخ بورنان زعيم عائلة أولاد عز الدين، كان من ضمن هؤلاء القادة الأهليين، لأن المناطق التي غزاها ماكماهون كانت تحت سلطته. [2] بهذا يتضح لنا أن سلطات الاحتلال الفرنسي واجهت متاعب كبيرة في سبيل فرض الحكم الاستعماري في هذه المناطق الجبلية المتميزة بوعورة تضاريسها و بسالة سكانها المحبين للحرية و الرافضين للحكم الاستعماري، و هذا بالرغم من ارتكاز هذه السلطات على دعم العائلات الكبرى.

5- مقاومة سي الصادق بلجاج (1858م- 1859م).

سي الصادق بلحاج هو زعيم أولاد أيوب المتواجدين بجبل أحمر خدو على سفوح جبال الأوراس، ناوش الفرنسيين رفقة عدد هائل من أتباعه أثناء حصارهم لواحة الزعاطشة عام 1849م. [3] و في عام 1858م أعلن الثورة في وجه المستعمر انطلاقا من جبال الأوراس و استطاع أن يحشد الأنصار و المؤيدين إلى صفه لاسيما بعد ما أصبح مقدما للإخوان الرحمانيين بهذه المنطقة، فتوسعت ثورته و شملت منطقة الزيبان برمتها، و نظم عدة هجومات استهدفت المراكز الحيوية الفرنسية.[4]

و أمام تعاظم مخاطر هذه الثورة، اتخذت السلطات الاستعمارية قرارا يقضي بمواجهتها. و هكذا قاد كل من الجنرال « غاستو » « Gastu » و الجنرال « ديفو » « Desvaux » حملة عسكرية ضخمة و اتجها بها إلى مدينة بسكرة يوم 19 من ديسمبر 1858م. و قد انتهت هذه الحملة بالقضاء على الثورة و توقيف مهندسها سي الصادق بلحاج رفقة رفاقه البالغ عددهم ثمانية و ثمانين ثائرا [5]

(1) المارشيال ماكماهون: فتح الجزائر، مذكرات المارشال ما كماهون رئيس جمهورية فرنسا سنة 1873م ، ترجمة حامد مصطفى، الشركة الاسلامية للطباعة و النشر، بغداد، العراق، د.ت، ص 161

(2) L.ch. Féraud : op.cit, p 327.

(3) يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، المرجع السابق، ص 104

(4) عمار عمورة : المرجع السابق، ص 149

(5) L.ch. Féraud : « les ben-djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de constantine », in R.A n° 30, Année 1886, p 106.

و الواقع أن قضاء الفرنسيين على هذه المقاومة كان بمساعدة قادة أهليين بارزين بالمنطقة، أبرزهم قادة عائلة ابن قانة لاسيما و أن هذه الثورة دارت وقائعها في المناطق التي كانت تشكل امتدادا جغرافيا لقيادة هذه العائلة. فقد قام قايد بسكرة سي محمد الصغير بن قانة بمجهودات كبرى من أجل خنق هذه المقاومة، و حاول أن ينسق العمل الثوري مع بعض أعوانه في سيدي عقبة لوضع حد لها. [1]

و يبدو أن عائلة بوعكاز الذواودة، كانت كذلك من العائلات التي تعاونت مع الفرنسيين أثناء صراعهم مع سي الصادق بلحاج بحكم قربها من أحداث هذه المقاومة، و كذلك بحكم علاقتها الوطيدة مع الفرنسيين. فقد كتب الجنرال « ديفو » « Desvaux » رسالة إلى سكان وادي سوف عام 1858م أثنى فيها على مناقب زعيم هذه العائلة علي باي ابن فرحات قائلا لهم « الواجب عليكم أن تنصتوا لنصائح سي علي بن فرحات بن سعيد الذوادي لكونه عادلا و شجاعا و خديما صادقا و نحن نعزه معزة تامة حيث لم يقض شيئا إلا بأمرنا و نهينا.... ».[2]

يضاف إلى هذا أن الفرنسيين كانوا يتبادلون الرسائل مع زعيم هذه العائلة. فقد كتب الجنرال « ديفو » « Desvaux » رسالة إلى علي باي إلى جانب زعيم أهلي آخر يدعى سي محمد العيد بتاريخ 14 من فيفري 1859م أي بعد القضاء على هذه الثورة، حدثه فيها عن قائدها الصادق بلحاج و المعارك التي خاضها ضده، و ذكر له أيضا بأن العقوبة التي سلطها الفرنسيين على السكان المتعاطفين معه يتحمل وزرها هذا الثائر الذي زاغ عن النهج الذي رسمه له الله عز و جل لأنه "ترك ما أوصى به الله من العافية لعباده و اتبع هدى نفسه" !. [3] فهو بذلك يحاول تبرير الانتقام البربري الذي باشرته إدارة بلاده ضد السكان العزل، لأنه كان انتقاما وحشيا طال السكان في أرواحهم و ممتلكاتهم. و يلاحظ كذلك أن « ديفو » حاول أيضا من خلال هذه الرسالة تشويه صورة هذا الثائر الذي اتهمه بالخروج عن تعاليم الإسلام التي تدعوه إلى الجنوح إلى حياة الدعة و الاستسلام. !

و هي أفكار باطلة تنطوي على كثير من المغالطات، فهل الثائر الذي يحمل السلاح في وجه الفرنسيين الغزاة يكون قد خرج عما أوصى به الله عز و جل؟ .

---

[1] عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 154

[2] احميدة عميراوي: بحوث تاريخية، المرجع السابق، ص ص 175، 176

[3] احميدة عميراوي: المرجع نفسه، ص 168.

6- مقاومة محمد بوخنتاش عام 1860م

في مطلع عام 1860م ظهر الثائر محمد بوخنتاش في أولاد رحاب و هم من أشراف أولاد دراج، و يدعون بالبراكتية داعيا الناس إلى الجهاد، و تمكن من حشد عدد غير قليل من أصحاب النفوذ و الشهرة و التأثير و رجال الدين و العلماء و القضاة و نحوهم، مما ساعد على انتشار ثورته بسرعة في جهات كثيرة من منطقة الحضنة و المسيلة. و لما بلغت أنباء هذه الثورة أذان الكولونيل « بان » « Pein » الذي كان متوليا على باتنة، جيش جيشا يتكون من القناصة و الصبايحية و الرماة و زحف به على بريكة، و عضده في ذلك الجنرال « نيم ديماريست » « Némes-Démarest » الذي تحرك من سطيف على رأس جيش آخر و عسكر به في منطقة « شجرة أوادا ». و لما إلتقى الجمعان توجها إلى هذا الثائر، و ضرباه ضربة رجل واحد في معركة خنق أم الحمام الشهيرة يوم 25 من مارس 1860م.[1] فاستسلم محمد بوخنتاش و خرب معسكره، و قتل حوالي مائة من رجاله كما قتل و جرح العشرات من الجنود و الضباط الفرنسيين [2]

تلك هي حركة محمد بوخنتاش و موقف المستعمر منها باختصار. فهل لنا أن نعرف دور العائلات الكبرى التي ندرسها في القضاء عليها إلى جانب قوا ت الاحتلال الفرنسي؟

بالنظر إلى جغرافية هذه الثورة و المناطق التي مسحتها، فإن العائلات التي يفترض أن تعضد القوات الفرنسية في محاربة هذه الثورة هي عائلة المقراني، و عائلة بوعكاز بن عاشور، و عائلة أولاد عز الدين بحكم قربهم منها. و بالفعل فقد وقفت عائلة المقراني إلى جانب الفرنسيين أثناء محاربتهم لهذا الثائر حيث شارك الباشاغا محمد المقراني كعادته إلى جانب القوات الفرنسية في خنقها، و لم يتأثر بالقرارات التي اتخذتها الإدارة الفرنسية ضد أبناء عمومته عندما انتزعت منهم بعض الأراضي التي كانت تابعة لهم، كما أنه لم يساوم الإدارة الفرنسية ليجعلها تتراجع عن المضايقات التي كانت تباشرها ضده و ضد أفراد عائلته.[3]

أما الشيخ أحمد بوعكاز زعيم عائلة بوعكاز بن عاشور، فقد لاحظ عليه الفرنسيون تأييده لهذه الثورة، و أخذوا يراقبونه و يحصون كل حركاته، و يستدرجونه إلى الإقامة في مدينة قسنطينة مع الاحتفاظ بلقبه الشرفي كخليفة على فرجيوة [4]

(1) L.ch. Féraud : op.cit, pp 107-110.

(2) L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Setif », op.cit, p 164.

(3) L. Rinn : op.cit.cit, p 35.

(4) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 192.

و يبدو أن موقف عائلة أولاد عز الدين كان شبيه إلى حد كبير بموقف عائلة بوعكاز بن عاشور، فقد أتهمها الفرنسيون كذلك بتأييدها لمعظم ثورات البابور، و ثورة محمد بوخنتاش فقاموا بعزل زعيمها القايد بورنان و نفيه من المنطقة إثر العمليات التي قام بها الجيش الفرنسي على مناطق البابور خلال الفترة الممتدة ما بين عامي (1858م و 1860م).[1]

و بناء على ما تقدم، نخلص إلى القول أن الفرنسيين كانوا قد وظفوا زعماء هاتين العائلتين في إحكام قبضتهم على تلك المناطق الجبلية و عندما تبين لهم أنهم أحكموا سيطرتهم عليها شرعوا يتخلصون منهم بصورة تدريجية مرتكزين في ذلك على عدة حجج منها أن هؤلاء الزعماء وقفوا موقفا سلبيا من هذه الثورات، و هي حجج واهية لأن الفرنسيين أنفسهم اعترفوا بالخدمات الجليلة التي قدمتها لهم هاتان العائلتين في بداية المطاف.

7- مقاومة الشريف محمد بن عبد الله (1842م- 1895م)

تعد مقاومة الشريف محمد بن عبد الله بحق من أطول المقاومات الشعبية التي واجهت الفرنسيين، حيث تجاوزت مدتها نصف قرن من الزمن. فمن يكن هذا الثائر الذي تسميه الكتابات الفرنسية بشريف ورقلة و تقدمه في صورة المغامر ذي الطموح غير المتناهي؟ و ما هي أبرز المحطات التي ميزت كفاحه الثوري؟ و ما هو الدور الذي لعبته بعض العائلات في لجم نشاطه الثوري إلى جانب الجيوش الفرنسية؟.

تذكر المصادر الفرنسية أن هذا الثائر تعاون ابتداء مع الفرنسيين الذين منحوه منصب خليفة على تلمسان، و كلفوه بمحاربة الأمير عبد القادر عام 1842م.[2] و يبدو أنهم لم يطمئنوا إليه، فشرعوا يضايقونه. و بسبب ذلك قرر زيارة الأماكن المقدسة لأداء مناسك الحج عام 1846م، [3]

[1] يحي بوعزيز: « ثورات سكان الزواغة و فرجيوة و البابور ضد الاستعمار الفرنسي و قضية الحاج عز الدين »، مجلة الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الاعلام و الثقافة بالجزائر، العدد 40، السنة 1977، ص 13.

[2] Gouvernement Général de L'Algérie : « Notes pour servir à L'historique d'Ouargla », in, R.A n° 64, Année 1923, p 394.

[3] L.ch. Féraud : « Les Ben-Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine, in RA n° 25, Année 1881, p 122.

و هناك أخذ ينسق العمل الثوري مع المسمى محمد بن علي السنوسي الذي نفي هو الآخر إلى تلك البقاع عام 1849م، فقرر دخول الجزائر و وصل إلى ورقلة عام 1851م عبر طرابلس الغرب بمباركة و تأييد الدولة العثمانية و أعلن نفير الجهاد ضد الفرنسيين، فاستجاب السكان لدعوته بفضل رسائل صديقه السنوسي التي كان يرسلها إلى وجهاء ورقلة و المناطق المجاورة لها. [1] غير أنه واجه معارضة من لدن بعض سكان الجنوب، فتصدى لها بقوة من ذلك مثلا أنه فرض حصارا محكما لمدة أكثر من ثلاثة أسابيع على بلدة قرارة في صيف عام 1852م، قام خلالها بقطع ألفين نخلة حسب ما يذهب إليه أحد الكتاب الفرنسيين. [2]

و مهما يكن من أمر، فإن مقاومة هذا الثائر كانت قد خلخلت الفرنسيين و أعوانهم بالمنطقة لاسيما بعدما عضده الثائر الناصر بن شهرة. و قد ذكر أحد المؤرخين المعاصرين لتلك الوقائع أن فترة خمسينات القرن 19م كانت فترة عصيبة بالنسبة للفرنسيين في الصحراء لأن هذه المنطقة كانت تأتمر بأوامر هذين الثائرين. [3] و نفهم من إحدى وثائق الأرشيف الوطني التونسي أن هذا الثائر فضل مغادرة التراب الوطني و الاحتماء بالبلاد التونسية، و ربما ذلك بسبب قلة إمكاناته و قوة شكيمة جيوش أعدائه. و لم يركن هناك للراحة بل واصل عمله الثوري انطلاقا من التراب التونسي، فتضايق منه الفرنسيون و الرسميون التونسيون على حد سواء و هذا ما أشارت إليه رسالة أحد الرسميين التونسيين عام 1854م التي كتبها إلى ممثل فرنسا بتونس، حيث كتب « .... المكلف بأمور الدولة الفرنساوية و القنصل جنرال بحاضرتنا تونس، أما بعد فإنه بلغنا كتابك في شأن الرجل الشريف الذي قدم من الغرب، و الجواب أننا سمعنا به.... ».[4] و أكد له في رسالة أخرى عزمه على محاربته، كما أعلمه بالتجاوزات التي ارتكبها في بلاده قائلا له بأنه « ... أغار على رعيتنا ما بين نفطة و توزر و أخذ لهم قدر ثلاثين بعيرا و وقعت بينهم القتلى و الجرحى... ».[5]

---

[1] L.ch Féraud : « Les Ben-Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine » in R.A n° 30, Anné 1886, p 425.

[2] A. De C. Motylinski : « Notes historiques sur le Mzab : Guerara depuis sa fondation » in R.A, n° 28, année 1884, pp 440, 441.

[3] A.Coyne : « le Mzab », in RA n° 23 Année 1879, p 206.

[4] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 212، الملف 239، الملف الفرعي الثاني: رسالة المشير التونسي أحمد باشا باي تونس إلى القنصل الفرنسي بتونس بتاريخ 08 جمادي الثانية 1270 هـ (و هو تاريخ يوافق شهر مارس عام 1854م)، وثيقة رقم 01.

[5] الأرشيف الوطني التونسي: المصدر نفسه، رسالة المشير التونسي أحمد باشا باي تونس إلى القنصل الفرنسي بتونس بتاريخ 08 جمادي الثانية 1270 هـ (و هو تاريخ يوافق شهر مارس عام 1854م)، وثيقة رقم 02.

و بفضل ذلك، عاد هذا الثائر إلى الجنوب الجزائري، معلنا الثورة مجددا انطلاقا من العرق الغربي، فأصطدم بالباشاغا سي بوبكر ولد حمزة زعيم عائلة أولاد سيدي الشيخ الذي أوقفه وسلمه للفرنسيين عام 1861. [1]

و ذهب « فيرو » إلى القول أن إدارة بلاده قامت بنفيه إلى جزيرة كورسيكا، ثم نقلته إلى سجن عنابة الذي فر منه عام 1870م قاصدا طرابلس الغرب للالتقاء برفيقه القديم السنوسي، و هناك قضى نحبه عام 1876م. [2] و هي رواية تجافي الحقيقة التاريخية لأن هناك مراسلات و تقارير تكلمت عن نشاطه الثوري داخل البلاد التونسية بعد هذه الفترة من ذلك مثلا رسالة القنصل الفرنسي إلى الوزير الأول التونسي مصطفي خزندار عام 1865م التي حدثه فيها على ضرورة وضع حد لنشاط هذا الثائر داخل التراب التونسي،[3] كما كتب له رسالة أخرى في تلك الأثناء حدثه فيها كذلك عن ذات الموضوع مدعيا «... أنه أصبح سقيما جراء الأوضاع المعيشية المزرية التي يعيشها بعيدا عن عائلته... »[4] و في فترة متأخرة وردت أخبار من القنصل الفرنسي تفيد بأنه كان موجودا بنفزاوة رفقة عدد كبير من رجاله فشرع الفرنسيون في البحث عنه.[5]

و يبدو أن ثائر ورقلة بقي وفيا لنهجه الثوري إلى غاية وفاته. ففي عام 1881 احتل الفرنسيون تونس، و خوفا من مضايقاتهم له انسحب إلى التراب الليبي، و لم يطب له المقام هناك، حيث عاد إلى الجنوب التونسي بعد فترة وجيزة أين قضى نحبه هناك عام 1895م. [6]

و بعد هذه اللحمة المختصرة عن مقاومة هذا الثائر الذي شغل بجهاده بال الفرنسيين لمدة طويلة، و ملأ بنشاطه الثوري حيزا معتبرا من الفضاء الجزائري و التونسي و الليبي، لنا أن نتساءل قائلين: ما الدور الذي لعبته بعض العائلات الكبرى في محاولة إجهاض مقاومته إلى جانب الجيوش الفرنسية؟

(1) Colonel Trumelet : op.cit , p 358.

(2) L. ch. Féraud : op. cit, p 433.

(3) A.N.T : Série historique, Boite 212, Dossier 239, n° 02 : Lettre du consul Général de France à Tunis au Premier Ministre Mustapha Khaznadar, le 1er mars 1865, Folio 3.

(4) Ibid : Lettre du Consul Général de France à Tunis au Premier Ministre Mustapha khaznadar, le 08 mai 1865, Folio 5.

(5) الأرشيف الوطني التونسي : المصدر السابق: رسالة الوزير الأول التونسي إلى المكلف بالجريد بتاريخ 21 ربيع الثانية 1296 هـ (1876)، وثيقة رقم 7.

(6) محمد المرزوقي: صراع مع الحماية، دار الكتاب الشرقية، تونس، 1973، ص 268.

ففي بداية شهر أكتوبر من عام 1851م شن الثائر محمد بن عبد الله هجوما كاسحا على منطقتي تماسين و تقرت الخاضعتين لسلطنة عائلة ابن جلاب. و كان جيشه يتشكل من 100 فارس، و 100 جندي من المشاة معظمهم ينحدرون من قبائل الشعانبة و المخادمة. و لما بلغت هذه الأخبار مسامع شيخ تقرت السلطان عبد الرحمان بن جلاب استنجد بعائلة ابن قانة لكي تمده بيد المساعدة. و على إثر ذلك سار الشيخ بن قانة دون تمهل على رأس 400 فارس، فاحتمى الثائر محمد بن عبد الله بجنائن النخيل بتماسين. غير أن قوات بن جلاب باغتته و التحمت معه في معركة اسفرت على مقتل خمسة جنود و جرح خمسة آخرين من قوات بن جلاب، بينما فقد محمد بن عبد الله ثلاثين جنديا من قواته، أما عدد جرحاه فكان يتراوح ما بين ثمانية و عشرة جرحى.

و رغم هذه الهزيمة إلا أنه فضل المكوث بتماسين لعله يتمكن عن السيطرة عليها مرة أخرى مستغلا في ذلك حلول عيد الأضحى المبارك الذي صادف يومي 6 و 7 من أكتوبر من عام 1851م. و في يوم 8 من أكتوبر من السنة نفسها عاود عبد الرحمان بن جلاب هجومه على قوات محمد بن عبد الله فأضطر هذا الأخير إلى الانسحاب نحو ورقلة من أجل مواصلة عمله الثوري ضد الفرنسيين و أعوانهم. (1)

و في بداية عام 1852م، حقق الشريف محمد بن عبد الله انتصارات كبيرة على القوات الغازية بالقرب من تقرت مما شجعه على مواصلة مضايقته للفرنسيين بمنطقة الزيبان، و عندما بلغت هذه الأنباء مسامع الفرنسيين جيش الرائد « كولينو » « Collineau » الذي كان وقتئذ يتولى تصريف شؤون بسكرة بالنيابة ثلة من جنوده، و اتجه بها صوب هذا الثائر الذي اعتصم بجنوب وادي جدي من أجل مواجهته. و كانت القوة العسكرية الفرنسية، هزيلة من حيث العدد إذ كانت تتشكل من فصيلتين من صيادي إفريقيا، و 25 عنصرا من جنود الصبايحية، و 80 جنديا من الخيالة التابعين للمكتب العربي. أما قوات ثائر ورقلة فكانت كبيرة جدا عددا و عدة. و بغرض تقوية الجيش الفرنسي و زيادة حظوظه في الانتصار على قوات هذا الثائر تقدم شيخ العرب بن قانة بقوة عسكرية تعدادها 400 فارس عضد بها الجيش الفرنسي، و التحم الطرفان في معركة دامية انكسر فيها الفرنسيون انكسارا ساحقا و ولوا أدبارهم مهزومين.

(1) Gouvernement Général de l'Algérie : op.cit, p 396.

و بالرغم من المشاركة القوية لشيخ العرب بن قانة في هذه المعركة إلى جانب القوات الاستعمارية إلا أن الفرنسيين شككوا في نواياه و حملوه المسؤولية التقصيرية الكاملة لفشلهم في هذه المعركة و قالوا أنه لم يعط الأمر لكل فرسانه لمواجهة هذا الثائر بل كلف نحو مائة منهم فقط بعبور وادي جدي للالتحام به، و احتفظ بالعدد الباقي مما تسبب في وهن الجيش الفرنسي. و قد فسر بعض الضباط الفرنسيين هذا السلوك بالخيانة و سوء النية، لذا لم يتحرج بعضهم من ا لمطالبة بإعدامه. (1)

و سواء كانت اتهامات الفرنسيين لشيخ العرب صحيحة أم باطلة، فليس غريبا أن يعاملوه بهذه المعاملة الفظة. و قد رأينا فيما مضى أنه بالرغم من مشاركته الواضحة إلى جانبهم في خنق ثوار واحة الزعاطشة عام 1849م إلا أنهم وجهوا له التهمة نفسها، و على هذا الأساس من الجائز القول أن هذه التهم هي في واقع الأمر من نسج خيال هؤلاء الضباط الفرنسيين الذين كانوا يرومون تبرير فشلهم في مواجهة هذا الثائر الذي خلخل كيانهم بالجنوب القسنطيني، و من جهة أخرى محاولتهم تقزيم سلطة هذه العائلة المتنفذة.

و في نهاية عام 1852م أحكم محمد بن عبد الله قبضته على منطقة الأغواط، و خاض معارك طاحنة ضد الفرنسيين و أعوانهم حيث قضى على نحو 200 رجل منهم، كما غنم زهاء 22 ألف رأس من الأغنام و الإبل. و على ذلك شن الفرنسيون هجوما بربريا على المنطقة أسفر على نتيجة كارثية إذ وصل عدد القتلى في صفوف السكان إلى نحو 2000 قتيل. و على إثر ذلك احتل الفرنسيون الأغواط في 1852/12/04م (2)

و رغم الضربات الموجعة التي تلقاها هذا الثائر، إلا أنه واصل نشاطه الثوري ضد الفرنسيين و أعوانهم. ففي 1853/01/13م، خاض معركة دامية ضد سي أحمد بلحاج بن قانة الذي كان قايدا لقبائل العرب الشراقة، حيث جيش جيشا يتكون من 300 فارس واجه به قوات هذا الثائر التي كانت تتشكل من قبائل الشعانبة و الأرباع و الحرازلية، و التي استولت على مواشي قبائل السوامة و رحمان المنضوية تحت لواء حكم عائلة ابن قانة. و رغم الدفاع المستميت الذي أبداه فرسان سي أحمد بلحاج بن قانة إلا أن ثائر ورقلة تمكن من الاستيلاء على كل ممتلكات هذه القبائل. (3)

(1) L.ch. Féraud : « les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 29 Année 1885, pp 426-428.
(2) Henri Garrot : op.cit, pp 890, 891.
(3) L.ch. Féraud : « Les Ben-Djelleb sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 30, Année 1886, p 428.

يقول « فيرو » أن ثائر ورقلة انتقل إلى إقليم النمامشة، و استقبله سكان هذا الإقليم بحفاوة لا متناهية لاسيما و أنهم كانوا يكنون عداوة كبيرة للإدارة الاستعمارية، فزودوه بما كان يحتاج من مستلزمات كالحبوب و الذخائر و نحو ذلك. و على إثر ذلك انتقمت منهم الإدارة الفرنسية انتقاما شديدا حيث قاد كل من الرائد « دي برنوس » « De Bernus » « و بونفالي » « Bounvallet » القائد الأعلى لتبسة حملة من الانتقام البربري تتشكل من كتيبة عسكرية من صيادي إفريقيا و 50 عنصرا من الصبايحية و 75 عنصرا من الرماة ، أغاروا بها على السكان و قتلوا 63 رجلا و نهبوا 300 خيمة. [1]

و قد استمر هذا الثائر في تأليب سكان و قبائل الجنوب الشرقي الجزائري ضد الفرنسيين، و كان يهدد ورقلة و تقرت مقر حكم عائلة بوعكاز الذواودة و زعيمها علي باي. ففي 1861/08/15م قاد هجوما على ورقلة بواسطة جيش من الطوارق، و عضدته في هذا الهجوم قبائل الشعانبة، و هي قبائل اشتهرت بصداقتها القديمة للطوارق، كما انضمت إليه فيما بعد قبائل المخادمة فاستعد القايد علي باي لصد هجوماتهم، و جهز لهذا الشأن جيشا يتشكل من 1500 جندي من المشاة و 170 فارسا جلهم من سكان وادي سوف. و اتصل به البعض من وجهاء الشعانبة و المخادمة من ضعفاء النفوس و طلبوا منه التقدم إلى ورقلة و وعدوه بالمساعدة بهدف القضاء على هذا الثائر. و على إثر ذلك تحرك علي باي و وصل إلى منطقة نفوسة في 1861/10/01م ثم توجه إلى ورقلة. و في تلك الأثناء كان شريف ورقلة يتحصن بواحة الرويسات، و دارت بينهما معركة حامية انكسرت فيها قوات علي باي فعاد خائبا منكسرا يجر أذيال الهزيمة آخذا طريقه إلى مقر حكمه بتقرت. و أما سبب هذه الهزيمة فيعود إلى قوة شكيمة جيش هذا الثائر، و كذلك بسبب إحجام جنود المشاة السوافة الذين كانوا يشكلون العمود الفقري لجيش القايد علي باي عن مقاتلة قوات شريف ورقلة. فأتهمهم الفرنسيون بالخوف و الغدر و الخيانة و نحو ذلك كما ورد في إحدى تقارير مصالح الشؤون العربية المنشورة في نشريات الحكومة العامة للجزائر. [2]

---

(1) L. ch. Féraud : « les Harar. Seigneurs des Hanencha. Etudes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 462.

Voir aussi :

- Abdelkrim Hanani : Tebessa à travers l'histoire. Receuil de textes, chihab éditions, 2009, p 125.

(2) Gouvernement Général de l'Algerie : op.cit, pp 405, 406.

هكذا صورت لنا المصادر الفرنسية هؤلاء الجنود المشاة. أما كان حريا بالفرنسيين أن يقولوا بأن هؤلاء السوافة الذين استقدمهم القايد علي باي لمواجهة شريف ورقلة استيقظت ضمائرهم و عادوا إلى جادة صوابهم و رفضوا مقاتلة إخوانهم الذين يدافعون عن قضية حقيقية هي قضية كل الجزائريين؟ و أنهم بموقفهم هذا يمثلون قمة الشجاعة لا الخوف، و قمة الإخلاص و الوفاء لا الغدر و الخيانة. و لكن الفرنسيين دائما نجدهم يحاولون تشويه هذه الحقائق. فالذين يتعاونون معهم يقدمونهم في صورة أبطال أما الذين ينتصبون في المعسكر المعادي لمشروعهم الاستعماري فينعتونهم بتلك الصفات المقيتة.

و قد بالغ « فيرو » العليم بأخبار هذه الثورات حينما وصف المقاومين الجزائريين أمثال شريف ورقلة بالمتعصبين و الأميين و المتحجرين ذهنيا و المتقوقعين على أنفسهم و الرافضين لإنسانية الحضارة الأوروبية التي تعمل بلاده على نشرها في الجزائر، و قال عنهم أيضا أنهم كانوا يعملون كل ما في وسعهم من أجل اجتثاث الوجود الفرنسي من الجزائر لأنهم ينظرون إليه على أنه وجود مؤقت و محكوم عليه بالزوال.[1] و مهما كان الأمر، فلا نريد التوسع في هذا المجال لأن هذا ليس موضوع حديثنا، و الدخول في تفاصيله قد يخرجنا عن الموضوع الذي ندرسه. و نقول في النهاية أن القايد علي باي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة لعب دورا مركزيا في محاربة شريف ورقلة لاسيما في المناطق القريبة من مقر حكمه. و هو الدور الذي شاركه فيه زعماء عائلة ابن قانة، و عائلة ابن جلاب كما قدمنا، وعليه فإن هذا الثائر كان يحارب على جبهات عديدة، و هو ما يفسر تنقلاته المتكررة داخل التراب الجزائري و خارجه حتى يفوت الفرصة على أعدائه من الفرنسيين و عن غير الفرنسيين المتعاونين معهم.

8- مقاومة أولاد سيدي الشيخ (1864م-1873م)

يعود أصل عائلة أولاد سيدي الشيخ إلى الخليفة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه-. [2] و في فجر الإسلام استقر أجداد هذه العائلة بمكة المكرمة، ثم انتقلوا إلى مصر و منها إلى تونس خلال القرن الرابع عشر ميلادي. و لما كانت هذه العائلة ذات نفوذ ديني كبير، فقد نالت حظوة كبيرة، و أوكل لها حكام تونس مهام سياسية حساسة.[3]

[1] L.ch. Féraud : « les Ben-Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 23, Année 1879, p 54.

[2] Louis Rinn : Marabouts et Khouan, librairie éditeur, Alger, 1884, p 351.

[3] Colonel Trumelet : Les Français dans le désert, 2ème Édition, Paris, France, 1885, p 81.

و رغم ذلك فإن هذه العائلة لم يطب لها المقام بتونس، فهاجرت غربا في بداية القرن 15م، و حطت عصا ترحالها بإقليم بني عامر بالجزائر. و من أجدادها المشهورين الشيخ عبد القادر بن سي محمد بن بوساحة (1545م- 1614م) الذي كان مقدما للطريقة الشاذلية، و الذي شيد قصرا بالبيض و انشأ به زاوية عرفت بإسمه.

و بعد وفاته نشب خلاف بين أبنائه الكثيرين فانقسموا إلى فريقين : الفريق الأول استقر شرق ضريح والدهم، بينما استقر الفريق الثاني غربه. فعرف الفريق الأول بأولاد سيدي الشيخ الشراقة، بينما عرف الفريق الثاني بأولاد سيدي الشيخ الغرابة.[1] و خلال العهد العثماني أنشأ أولاد سيدي الشيخ قيادة شاسعة في جنوب البايلك الغربي استقلت عن السلطة المركزية، و وصل نفوذها إلى التراب المغربي. [2] و قد سيطر أولاد سيدي الشيخ على جزء هام من تجارة القوافل التي كانت تتم مع إفريقيا جنوبا، فتضاعفت أرباحهم و بالتالي قويت شوكتهم الأدبية و نفوذهم الأمر الذي دفع بالبايات إلى إقامة علاقات معهم مبنية على الاحترام المتبادل دون الحصول على ضريبة، خاصة و أن مداخيلهم كانت تفوق مداخيل البايات. [3]

و بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وظف الفرنسيون هذه العائلة في مشروعهم الاستعماري لكي يسيطروا على الجنوب الغربي، فعينوا سيدي حمزة خليفة على الصحراء، فتفانى في خدمة الفرنسيين و عرفهم بمختلف الدروب الصحراوية الوعرة لأنه كان ملاحا حقيقيا للصحراء.[4] و شارك إلى جانبهم في عدة حملات عسكرية استهدفت القبائل الثائرة في الحدود الغربية منها حملة أفريل 1853م البربرية التي انتهت بتحطيم و مصادرة كل أملاك هذه القبائل و سلب نحو عشرين ألف بعير و ثلاثين ألف رأس غنم. [5] و في عام 1861م توفي سيدي حمزة في ظروف غامضة. و قيل أنه لقي حتفه مسموما من قبل الفرنسيين. [6]

---

[1] Louis Rinn : op.cit, pp 352, 353.

[2] Djilali Sari : L'Insurrection de 1881- 1882, Centre National d'études historiques, S.N.E.D Alger, Algérie, 1981, p 29.

[3] Louis Rinn : « le Royaume d'Alger sous le dernier Dey », in R.A n° 41, Année 1897, p 125.

[4] Louis Rinn : « Nos Frontières Sahariènnes : III : Nos Frontières à L'Ouest du Djebel Amor et des Oueled- Sidi-chikh avant 1864 », in R.A n° 20, Année 1886, pp 185,186.

[5] Colonel Trumelet : « Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864 » in, R.A n° 30, Année 1876, p 180.

[6] Louis Rinn : op.cit, p 186.

و على إثر ذلك عين الفرنسيون ابنه أبابكر خليفة له، و لكن بلقب باشاغا الذي كان يعتبر أقل مكانة من المنصب السابق. [1] و بعده جاء الابن سليمان، و عمل الفرنسيون على التقزيم من صلاحيات هذه العائلة و مضايقتها. و كانت تلك السياسة من الأسباب المركزية التي دفعت بزعمائها إلى إعلان الثورة المسلحة في 16 من فبراير 1864م.[2] غير أن الرسميين الفرنسيين كانوا يقولون في تقاريرهم أن السبب المركزي لهذه الثورة هو التعصب الديني [3] و هو إدعاء باطل لأنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى تشويه الهدف الوطني لهذه الثورة.

و قد انضمت إلى الثورة في بدايتها معظم القبائل الصحراوية، و التحم الثوار في معارك ضارية مع الجيوش الفرنسية، و تمكنوا من القضاء على الكولونيل "بوبريتر" "Beauprêtre" * الذي كان أحد الشخصيات العسكرية المهمة، و إبادة الفرقة الفرنسية بكاملها في إحدى المعارك التي دارت رحاها بالبيض، كما استشهد خلال هذه المعركة زعيم الثورة سيدي سليمان. و رغم الإجراءات التي باشرها الفرنسيون لعزل هذه الثورة إلا أن تأثيرها انتشر في معظم أجزاء الوطن، فحققت بذلك وحدة الكفاح الوطني.[4]

و يقول "تريملي" أن الشرق الجزائري بقي بعيدا عن تأثير هذه الثورة إلى غاية نهاية شهر أوت 1864م [5]

---

(1) Annie Rey- Goldzeiguer : op.cit, p 280.

(2) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1860–1900، ج 1، المرجع السابق، ص 184

(3) A.O.M : F 80. 1679 : Rapport sur l'insurrection de 1864.

* اشتهر "بوبريتر" بسياسته الجهنمية تجاه القبائل الثائرة و نتيجة لذلك تدرج في المسؤوليات العسكرية بسرعة فائقة، و حصل على وسام ضابط جوقة الشرف رغم أنه يكاد أن يكون أميا إذ لا يعرف إلا النزر اليسير من القراءة و الكتابة. تولى شؤون المكتب العربي في سور الغزلان، ثم ذراع الميزان عام 1851م، فتيزي وزو عام 1855م. ساهم بقوة في خنق الثورات التي كانت تعصف بهذه المناطق، ثم نقل إلى الغرب الجزائري، و حصل على رتبة عقيد.

حول هذا الضابط و مساره المهني ينظر:

Beaussier : « Notice sommaire sur le colonel Beauprêtre », in, R.A n° 14, Année 1870, pp 441-444.

(4) عمار قليل: ملحمة الجزائر الجديدة، ج1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1991، ص 53.

(5) Colonel Trumelet : « Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger de 1864 à 1869 seconde partie », in R.A n° 23, Année 1879, p 408.

غير أنها انتشرت بهذا الإقليم بشكل واضح مع نهاية هذه السنة.[1] و عمت السواحل الشرقية لبجاية و منطقتها [2] و هذا يعني بالضرورة أن زعماء العائلات التي ندرسها سيعملون إلى جانب القوات الاستعمارية للقضاء على هذه الثورة بالمنطقة، فما هو الدور الذي لعبته هذه العائلات من أجل القضاء على ثورة أولاد سيدي الشيخ؟

عندما اندلعت هذه الثورة أعلن الباشاغا محمد المقراني زعيم عائلة المقراني استمرار ولاء عائلته إلى الإدارة الاستعمارية الفرنسية، و طمأن المسؤولين الفرنسيين بأنه سيعمل بكل ما يملك من قوة لمنع تسرب أخبار هذه الثورة إلى مختلف القبائل و السكان التابعين لسلطته. و يتعلق الأمر خاصة بسكان و قبائل منطقة الحضنة، و الونوغة و أولاد ماضي.[3]

و رغم ذلك كان الفرنسيون يتوجسون منه خيفة حيث كانوا يشككون في نواياه تجاههم، و يتبادلون الخطابات و التقارير حول علاقته المريبة بالفرنسيين في ذلك الحين. و من الجائز القول أن بعض التقارير الفرنسية تحدثت عن إمكانية تواصله و تعاونه مع ثوار أولاد سيدي الشيخ. و هذا ما يمكن استنتاجه من التقرير الذي أرسله القائد العسكري لقسمة سطيف إلى قائد القطاع العسكري القسنطيني حدثه فيه حول هذا الموضوع قائلا:« ... يبدو أن الباشاغا محمد المقراني مهتم أيما اهتمام بكل الأنشطة و السلوكات العدوانية التي يقوم بها ثوار أولاد سيدي الشيخ ضدنا، و كان دائما كثير السؤال عن أخبارهم. لقد سألني مؤخرا حول هذا الموضوع فأجبته بأن زعيمهم سي قدور بن حمزة يروم ضرب القبائل المتحالفة معنا. و أعلموا سيدي أننا استقينا هذه المعلومة الدقيقة من مصدر موثوق بالجنوب الغربي لمقاطعة وهران... » [4]

[1] حول ذلك ينظر:

- عبد الحميد زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي: التطورات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية 1887- 1939، الجزء الأول ، المرجع السابق، ص 163.

- Djilali Sari : le désastre démographique, S.N.E.D Alger, Algerie 1982, p 195.

[2] رشيد قايد: « نضال بجاية و منطقتها ضد الاستعمار الفرنسي »، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، عدد 19، عام 1974، ص 60.

[3] A.O.M : 6H 28 : Rapport adressé par le chef du bureau arabe de Bordj- bou-arréridj au commandant du cercle le 22/02/1867.

[4] A.O.M : 2H57 : Rapport adressé par le commandant de la subdivision de Setif au Général Commandant de la province de Constantine, le 21/07/1870.

و يقول «مرسيي » أن الباشاغا محمد المقراني رفض التنسيق مع ثوار أولاد سيدي الشيخ بسبب كبريائه واعتقاده بأنه أكثر حظوة و اعتبارا منهم، إلا أنه لم يقطع الصلة نهائيا بهم حيث ظل يتواصل معهم و يتبادل معهم الرسائل و الخطابات. و كانت علاقته بهم طيبة و الدليل على ذلك أن تأثير ثورتهم وصل بقوة إلى منطقة الحضنة التي تشكل امتدادا جغرافيا لقيادته.(1)

و نفهم مما قاله «مرسيي »أن الباشاغا محمد المقراني رفض الانضمام إلى هذه الثورة ليس بسبب التزاماته التي تربطه بالفرنسيين كباشاغا، و إنما بسبب كبريائه. فلو كان متواضعا لأنضم إلى ثورتهم و ذلك يتناقض مع المهمة التي كلف بها من قبل الفرنسيين تلك المهمة التي تفترض الوقوف إلى جانبهم في كل الأحوال بصرف النظر عن كل الاعتبارات، كما أن تواصله مع الثوار يعد كذلك خرقا لالتزاماته كباشاغا. و بهذا فإن الباشاغا محمد المقراني حسب « مرسيي » يعد مقصرا في أداء مهامه سواء شارك في هذه الثورة أو أحجم عن المشاركة فيها، أو آزرها بطريقة غير مباشرة. و يبدو أن « مرسيي » شأنه في ذلك شأن الكتاب الفرنسيين كان دائما يحط من قيمة هذه القيادات الأهلية التي تعاونت معهم، و يحاول دائما تصويرهم في صورة سلبية، و ذلك يدخل في إطار الإستراتجية الكولونيالية العامة الرامية إلى التخلص التدريجي من هذه القيادات بعدما حقق الفرنسيون بهم أهدافهم و مقاصدهم.

و مهما يكن من أمر، فإن تأثير ثورة أولاد سيدي الشيخ وصل المناطق الخاضعة لقيادة المقراني، و بالأساس منطقة الحضنة، التي انتقل إليها سي الفضيل بن علي كاتب الباشاغا سليمان بن حمزة قائد ثوار أولاد سيدي الشيخ و زار أفراد عائلته بزاوية قرية الديس، و عمل على تهييج الناس هناك، و دعاهم إلى الثورة على الفرنسيين و أعوانهم و عقد العديد من اللقاءات مع عدة شخصيات متنفذة بالمنطقة منهم الزعيم إبراهيم بن عبد الله السوامي الذي اقتنع بأفكاره و دعا الناس إلى محاربة الفرنسيين أسوة بثوار أولاد سيدي الشيخ. و تبعا لذلك انتشرت أفكار الثورة في المنطقة بصورة لافتة للانتباه. فاستعد سكان بوغار و سور الغزلان و أولاد سيدي عمر و أولاد سيدي إبراهيم ببوسعادة للثورة. و أصبحت أسواق المسيلة تبيع الأسلحة و الدخائر، و قام سكان أولاد ماضي بشراء كميات معتبرة من الأسلحة. و رفض سكان أولاد نايل الامتثال لتعليمات قائدهم السعيد بن بوداود المقراني و هو ابن عم الباشاغا محمد المقراني حينما دعاهم إلى المحافظة على هدوئهم و عدم الانضمام إلى هذه الثورة.

(1) Ernest Mercier : Le Bachagha Mokrani et les causes de l’insurrection indigène de 1871, op.cit, p 16.

غير أن الثورة التي تزعمها قائد السوامة إبراهيم بن عبد الله انتشرت بشكل واضح و هددت مصالح الفرنسيين و أعوانهم، و ذلك رغم الاستعدادات الفرنسية و قيام الباشاغا محمد المقراني رفقة فرقة « قومه » بقمع هذه الثورة، و العمل على الحد من انتشارها. هذه الثورة التي تعد امتدادا لثورة أولاد سيدي الشيخ بالغرب الجزائري، حيث كان يتتبع أخبارها و يرصد تحركات و أخبار قبائل أولاد سيدي إبراهيم، و أولاد فراج و أولاد عيسى الذين أعلنوا النفير عام 1864م بالحضنة. و كان الباشاغا محمد المقراني يرسل هذه الأخبار دون تمهل إلى السلطات العسكرية الفرنسية.[1]

و يذكر « ماكماهون » في مذكراته أن الباشاغا محمد المقراني وقف إلى جانب الجنرال « دولاكروا » أثناء تحركات أرتاله التي كانت تتنقل بين بوسعادة و منطقة وادي درميل، و كان يوفر لها الحماية اللازمة أثناء حركتها خاصة خلال الفترة الممتدة ما بين 20 و 30 سبتمبر 1864. [2] و بسبب هذا الموقف ناصبته هذه القبائل العداء الشديد، و نظمت هجوما عنيفا استهدف معسكره ليلة 1864/09/30م، و كادت أن تقضي عليه لولا تدخل الحامية الفرنسية المرابطة بوادي درميل. [3] و كان على رأس هذه الحامية العقيد « دولاكروا » الذي أعطى الأمر بمتابعة الثوار و اقتفاء أثرهم، فاشتبكوا معهم و سحقوهم في معركة فاصلة أفضت إلى نتائج فاذحة في الأرواح حيث قدرت الخسائر البشرية بـ 150 قتيلا و 200 جريح في صفوف الثوار، بينما كانت خسائر الفرنسيين تتراوح ما بين 13 و 16 قتيل و 16 جريحا حسب تقديرات العقيد « تروملي ». [4]

و يقول « رين » العليم بأخبار ثورة الباشاغا محمد المقراني، أن هذا الأخير كان يمثل العين الساهرة على الأمن الاستعماري بالمناطق التي تسرب لها نفوذ ثوار أولاد سيدي الشيخ. و في هذا السياق كان يبلغ السلطات العسكرية الفرنسية ببرج بوعريريج بمختلف التحركات المشبوهة التي كانت تقوم بها قبيلة أولاد ماضي المناهضة للوجود الاستعماري، حيث شرع وجهاء هذه القبيلة يحببون فكرة الثورة لدى سكان أولاد ماضي و القبائل المجاورة لها و يحثوهم على ضرورة الانضمام إلى ثورة أولاد سيدي الشيخ. [5]

---

[1] L.ch. Féraud: op.cit, pp 368-378.

[2] الماريشال ماكماهون: المصدر السابق، ص 192.

[3] L.ch.Féraud : op.cit, p 374.

[4] Colonel Trumelet : « Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864 », in R.A n° 24, Année 1880, p 104.

[5] L.Rinn : Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, op.cit, p 41.

و انطلاقا مما تقدم، يمكن القول أنه ليس هناك أدنى شك في أن المقرانيين آزروا الفرنسيين أثناء منازلتهم لثوار أولاد سيدي الشيخ و كل السكان و القبائل المنتصرة لهم.

و إلى جانب عائلة المقراني التي حاربت ثوار أولاد سيدي الشيخ، نجد عائلة بوعكاز الذواودة بالجنوب القسنطيني، حيث خاض زعيمها علي باي حروبا طاحنة إلى جانب الفرنسيين ضد سي الأعلى* زعيم عائلة أولاد سيدي الشيخ الذي كان من الشخصيات المهمة في قيادة الثورة، حيث التحم معه في عدة معارك منذ نهاية عام 1864م وبداية عام 1865 أي منذ بداية تسرب نفوذ هذه الثورة إلى المناطق الشرقية للبلاد. ففي ليلة 1864/12/31م إلى 1865/01/01م، هاجم ثوار أولاد سيدي الشيخ قريتي العالية و الطيبات، ثم نزحوا صوب منطقة ورقلة أين كان ينتظرهم سي الأعلى الذي انتقل إلى هذه المنطقة من الناحية الغربية للبلاد عبر إقليم وادي ميزاب. و اتفق جميع الثائرين

* تصف المصادر الفرنسية الثائر سي الأعلى شقيق الخليفة سيدي حمزة بأوصاف غير حميدة، لأنه حارب الفرنسيين على كل الجبهات، كما كان يشجع الثائرين الآخرين على مقاومتهم أمثال بوشوشة و الناصر بن شهرة و غيرهما. و قد اشتهر سي الأعلى بمهاجمته لقوافل القبائل التي تتعامل مع الفرنسيين، لذلك قالوا عنه أنه من فئة الصعاليك و قطاع الطرق الصحراوية. كان سي الأعلى ينسق العمل الثوري مع ابن أخيه محمد، هذا الأخير الذي يعد من الأبناء الأربعة الذين تركهم سيدي حمزة بعد وفاته من زوجته رقية بنت الحرمة، و كان محمد ولد سيدي حمزة شابا باسلا و محاربا. و كانت أمه رقية بنت الحرمة تشجعه كثيرا على مقارعة الفرنسيين أعداء الوطن و الدين، لذلك قال عنها « رين » بأنها « الروح الشريرة داخل المعسكر المعادي لفرنسا » « l'âme damnée du soff anti-français » وكان سي الأعلى عم محمد ولد سيدي حمزة من دهاة الحرب ، و رجلا من رجال ثورة أولاد سيدي الشيخ و أحد أركانها الكبار، حارب الفرنسيين إلى آخر أيام حياته حيث قضى نحبه عام 1895م. و يبدو أن الحاكم الفرنسي « جول كومبين » « Jules Camban » الذي حكم الجزائر في فترة لاحقة للفترة التي ندرسها، درس سيرة هذا الثائر، و ربما أعجب به أيضا حيث اقتنع بأن سي الأعلى لم يكن صعلوكا أو لصا كما وصفه المسؤولون الفرنسيون في السابق، بل كان رجل حرب يدافع عن قضية حق أريد بها باطل. و نلمس هذه القناعة من خلال الرسالة التي أرسلها إلى وزير الخارجية الفرنسي في 1896/07/21م التي حدثه فيها قائلا: « من بين كل أعدائنا السابقين، فإن سي الأعلى صنع الاستثناء. لقد كان رجلا حازما، شهما و شجاعا، و الأكثر من هذا كله كان رجل حرب لأنه حاربنا حتى آخر يوم من حياته، و رفض الاستسلام حتى بعد دخول سي قدور بن حمزة في طاعتنا »

حول ذلك ينظر:

- L.Rinn : « Nos Frontières Sahariennes : V- la politique d'éffacement 1872 à 1881 » in, R.A n° 30, Année 1886, p 209 et suite.
- A.O.M : F80. 1698 : Lettre de Jules Cambon Gouverneur Général de l'Algérie au Ministre des Affaires Étrangères le 21/07/1896.

على مهاجمة ورقلة و إحكام قبضتهم عليها. و عضدهم في ذلك الثائر الناصر بن شهرة الذي حضر إلى المنطقة بعد ما كان مستقرا بمنطقة نفزاوة بالبلاد التونسية. و قد التقى الجميع بحفرة الشاوش و اتفقوا على مهاجمة ورقلة و السيطرة عليها، و أيدتهم في ذلك قبائل المخادمة و بني ثور و الشعانبة. غير أن الفرنسيين علموا بهذه الاستعدادات عن طريق أعوانهم من أولاد السعيد عتبة، فكلفوا الضابط « سيروكا » بملاحقة سي الأعلى و أتباعه.

و في تلك الأثناء كان علي باي رفقة أفراد قواته من « القوم » يترصد الأحداث عن كثب. فتقدم إلى الفرنسيين و زودهم بما كانوا يحتاجون من مؤن و دخائر و اتجهوا إلى حفرة الشاوش لمباغتة الثوار يوم 31 من يناير 1865م، و دارت مواجهة حامية بين الطرفين أفضت إلى انسحاب ثوار أولاد سيدي الشيخ بزعامة سي الأعلى إلى جنوب شرق ورقلة.[1] و كما درجت عادتهم انتقم الفرنسيون انتقاما وحشيا من السكان حيث صادروا منهم 250 خيمة، و أكثر من 1500 بعير. [2]

بعد ذلك تلقى القايد علي باي أمرا من السلطات الفرنسية يقضي بضرورة مراقبة كل قبائل منطقة ورقلة لأن علاقتها بالفرنسيين كانت حينئذ فاترة، و يمكن أن يستغل هذا الفتور من طرف الثائر سي الأعلى في أي لحظة. و خلال شهر أكتوبر من عام 1865م عاود سي الأعلى هجوماته على قبائل الأرباع، فاستعد الفرنسيون بكل قواتهم لمواجهته. و أرسلت النجدات لعلي باي بغية التصدي لنشاطه الثوري. و كان هذا القايد يطلع الفرنسيين بكل الأخبار التي ترده حول نشاط الثائر سي الأعلى حيث أحاطهم علما بأنه كان يعمل على جمع كل قواه لإحكام قبضته على ورقلة ، و نتيجة لذلك احتاط الفرنسيون لذلك و تحركت قواتهم و دخلت المدينة يوم 1866/06/08م.[3]

و عموما يمكن القول أن القايد علي باي لعب دورا هاما في التصدي لثورة أولاد سيدي الشيخ بالصحراء الشرقية للجزائر و تمكن من محاربة كل القبائل المنتصرة لها. و شهد الفرنسيون بذلك و منهم الضابط « رين » الذي قال عنه أنه تمكن رفقة قبائل البدو في هذه المناطق من أن يستقطب معظم قبائل الشعانبة إلى الصف الفرنسي، و هي قبائل اشتهرت ببأسها و بعدائها الشديد للفرنسيين. [4]

[1] Gouvernement Général de l'Algérie : op.cit , pp 414, 415.
[2] L.ch. Féraud : « Les Ben-Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine » , in R.A n° 31, Année 1887, p 22.
[3] Gouvernement Général d'Algérie : op.cit, pp 419, 420.
[4] Louis Rinn : « Nos Frontieres Sahariennes : II- la défence de nos Frontières sahariennes à l'Est du Djebel Amour », in R.A n° 30, Année 1886, p 176.

و قد رأينا فيما مضى أن الثائر ابراهيم بن عبد الله السوامي كان ينسق العمل الثوري مع ثوار أولاد سيدي الشيخ بمنطقة الحضنة منذ عام 1864م. و يبدو أنه نقل نشاطه الثوري إلى الصحراء جنوبا إثر المضايقات التي كان يتلقاها من قبل الفرنسيين و أعوانهم من عائلة المقراني بهذه المنطقة. فأصطدم بالقايد علي باي الذي تمكن من إلقاء القبض عليه يوم 1866/09/12م بمنطقة بئر تواتي، و قدمه رفقة نجله إلى السلطات العسكرية الفرنسية التي أحالتهما على مجلس حربي الذي حكم عليهما بالنفي إلى جزيرة القديسة مرغاريت.[1]

و لم تكن عائلة بوعكاز الذواودة لوحدها تحارب ثوار أولاد سيدي الشيخ بالجنوب القسنطيني، بل كانت إلى جانبها أيضا كما درجت العادة عائلة ابن قانة التي كانت من أكثر العائلات مؤازرة للفرنسيين أثناء صراعهم مع هؤلاء الثوار، حيث عمل زعماؤها على إقناع القبائل المنضوية تحت قيادتهم بعدم التعرض للفرنسيين و عدم الانتصار لزعماء الثورة الذين نقلوا مدهم الثوري إلى هذه القبائل ما بين عامي (1864م و 1865م) [2] و رغم هذه المجهودات المبذولة من قبل عائلة ابن قانة، فإن نفوذ الثورة تسرب إلى قبائل أولاد نايل التي أعلنت النفير في نهاية عام 1864م. و على إثر ذلك شكل العقيد « سيروكا » الذي كان يتولى شؤون إدارة قسمة باتنة جيشا لتأديب هذه القبائل. و عضدته في هذه المهمة عائلة ابن قانة، حيث جهز كل من محمد الصغير بلحاج بن قانة قايد عرب الغرابة، و علي بلقيدوم بن قانة قايد عرب الشراقة فرقتين من « القوم » قدمتا الدعم الكافي للقوات الفرنسية.[3]

و في 1865/02/10م وحدت قبائل الشعانبة و المخادمة قواها و انضمت إلى الثائرين سي الأعلى و رفيقه الناصر بن شهرة بالقرب من ورقلة و حاولوا ضرب المصالح الفرنسية هناك. غير أن الفرنسيين تصدوا بقوة إلى هذه الحركة، و ذلك بالاعتماد على بعض القادة الأهليين بهذه المنطقة. و كان على رأس هؤلاء القادة سي بولخراص بن قانة إبن أخ شيخ العرب الذي استنفر قوة كبيرة من فرقة « القوم » التي كانت تتشكل من البدو الرحل صنع بها نصر الفرنسيين في المواجهة التي اندلعت بينهم و بين الثوار. هذا إلى جانب الزعماء الأهليين الآخرين و هم سيدي الطيب بن حرز الله قائد أولاد زكري، و الموهوب بن شنوف

[1] L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Bou-saada », op.cit, p 378.

[2] صالح فركوس: إدارة المكاتب العربية و الاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844- 1871م، المرجع السابق، ص 341.

[3] Gouvian Marthe et Edmond : op.cit, p 11.

قائد بني بوسليمان، إضافة إلى قائد الخيالة بقصر تقرت. و بعد هذه المعركة انتقل الثائر سي الأعلى إلى الجهة الجنوبية الغربية من الوطن إثر بلوغه خبر وفاة إبن أخيه سي محمد الذي كان يقود الثورة هناك. [1] و على إثر ذلك طلبت قبائل الشعانبة الأمان بعد انكسارها في هذه المعركة، خاصة و أن الفرنسيين انتقموا منهم انتقاما شديدا، و غنموا منهم 250 خيمة و 1500 بعير.[2]

كان هذا إذن موقف عائلة المقراني، و عائلة بوعكاز الذواودة، و عائلة ابن قانة من ثورة أولاد سيدي الشيخ. و إذا كان موقف هذه العائلات على النحو الذي سقناه. فما هو موقف العائلات الأخرى التي ندرسها من هذه الثورة لاسيما عائلتي بوعكاز بن عاشور و أولاد عز الدين، و عائلة ابن جلاب باعتبارهم أكثر قربا من جغرافية هذه الثورة؟.

حدثنا « فيرو » عن أخبار ثورة أولاد سيدي الشيخ في مقاطعة قسنطينة، و قال بأن هذه الثورة التي وصل لهيبها إلى الشرق في نهاية عام 1864م، و خلخلت الأمن الاستعماري بهذه الجهة كادت أن تتسبب في قيام ثورة عارمة في منطقة البابور. و تسببت أيضا في تهديد أمن الطريق الرابط بين سطيف و بجاية، كما امتدت إلى بني حسن و بني مرعي في تكيتونت. و لم يقتصر تأثير هذه الثورة على هذه المناطق فحسب، بل شمل أيضا مناطق أخرى واسعة كبني ملول، و بني سليمان. و هاجم الثوار الذين وصل عددهم إلى زهاء خمسة آلاف ثائر معسكر أو عكاز و عملوا على إرهاب السكان و ترويعهم و أجبروهم على حمل السلاح و مارسوا أسلوب القوة و العنف لإلزام الناس على احتضان فكرة الثورة كما يذهب إلى ذلك هذا المترجم العسكري الفرنسي.[3]

لا نريد مناقشة « فيرو » عندما ادعى أن الثوار أرهبوا سكان هذه المناطق و أجبروهم على حمل السلاح لأن الذي يحمل السلاح في وجه المشروع الاستعماري يعد من وجهة نظره دائما فوضويا و متمردا و نحو ذلك. إن الذي يهمنا كثيرا في هذا السياق أن هذا المترجم لم يتكلم عن دور عائلتي بوعكاز بن عاشور و أولاد عز الدين في خنق هذه الثورة إلى جانب الجيوش الفرنسية بحكم أن هذه المناطق و بالأساس منطقة البابور تشكل عمقا استراتيجيا لقيادة بوعكاز بن عاشور و امتدادا جغرافيا لها، و هي قريبة أيضا من قيادة أولاد عز الدين. و السبب في ذلك أن الفرنسيين كانوا في ذلك الحين قد شرعوا يتخلصون تدريجيا من هاتين العائلتين

(1) Colonel Trumelet : « Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger de 1864 à 1869 », in R.A n° 25, Année 1881, p 93.

(2) Gouvian Marthe et Edmond : op.cit, p 11 voir aussi :
Gouvernement général d'Algérie : op.cit, p 416.

(3) L.ch. Féraud : « Histoire des villes de la province de Constantine : Bougie », in R.S.A.C, Année 1869, pp 396-398.

بعدما استفادوا من خبرتهما في حكم و إدارة قبائل المنطقة. ففي تلك الفترة كان الشيخ بورنان زعيم أولاد عز الدين منفيا خارج الوطن، كما أن الشيخ أحمد بوعكاز زعيم عائلة بوعكاز بن عاشور كان رهن الإقامة الجبرية بقسنطينة منذ عام 1861. و سنعرض إلى ذلك لاحقا.

و ما يقال عن هاتين العائلتين يقال كذلك عن عائلة ابن جلاب بالجنوب القسنطيني القريبة هي الأخرى من مسرح أحداث هذه الثورة، حيث سكتت المصادر عن الكلام عن دور هذه العائلة في محاربة ثوار أولاد سيدي الشيخ. و هو أمر طبيعي لأن هذه العائلة في تلك الفترة فقدت مجدها السياسي قبل اندلاع هذه الثورة، و ذلك اعتبارا من عام 1854م تاريخ سقوط حكم هذه العائلة و تخلي الفرنسيين عن خدماتها. و سنعرض إلى هذه المسألة أيضا في حينها لاحقا.

9- مقاومة الناصر بن شهرة (1851م- 1875م).

أعلن الناصر بن شهرة الثورة في وجه الفرنسيين عام 1851م، غير أنه أعتقل و وضع رهن الإقامة الجبرية ببوغار، ففر منها [(1)] و اتجه جنوبا و كان من المحركين الرئيسيين للثورة التي خلخلت الوجود الفرنسي بصحراء قسنطينة في بداية النصف الثاني من القرن 19م.[(2)] و نسق العمل الثوري مع ثائر ورقلة محمد بن عبد الله، و اشتبك مع الفرنسيين في عدة معارك دامية بالصحراء الشرقية تارة ينتصر فيها و أخرى ينكسر. [(3)]

و في تلك الأثناء كان عدد كبير من الجزائريين، و بالأساس سكان الصحراء الشرقية يفضلون الهجرة إلى البلاد التونسية ليقضون بها بقية أعمارهم باعتبارها بلدا مسلما لأن بلدهم أصبح محكوما من قبل« الكافر ».[(4)] و ربما كان الناصر بن شهرة يقاسمهم هذه النظرة، و نلمس هذه القناعة في ثنايا الرسالة التي أرسلها إلى محمد باي تونس عندما قدم له مسوغات مغادرته الجزائر و استقراره ببلدة توزر التونسية إذ قال له «... أننا خارجين (كذا) من بلادنا في طاعة الله و رسوله، و لا يخصنا في بلادنا حرمة إلا من أجل الدين... ».[(5)] و كان الناصر بن شهرة يفضل النزوح هناك عندما يشتد عليه الضغط من قبل الفرنسيين و أعوانهم بالصحراء الشرقية، و عادة ما كان يعلم السلطات التونسية

---

(1) L.Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, op.cit, pp 663, 664.

(2) Coyne : op.cit , p 206.

(3) Gouvernement général de L'algérie : op.cit, pp 401-403.

(4) Jamel Haggui : les Algeriens Originaires du Sud dans la ville de Tunis pendant l'époque Coloniale (1881-1956) :Mozabites, Souafas et Ouarglias, Mémoire de D.E.A en Histoire Contemporaine, Université de Manouba Tunisie, 2003-2004, p 14.

(5) الأرشيف الوطني التونسي: الحافظة 212، الملف 237: رسالة الناصر بن شهرة إلى محمد باي ، و هي لا تحمل أي تاريخ والراجح أنه كتبها ما بين 1855م و 1859م، و هي فترة حكم هذا الباي، وثيقة رقم 4

بدخوله بلادهم. ففي عام 1855م وجه هذا الثائر رسالة إلى محمد باي و التمس منه الحماية. [1]

و لما كان هذا الثائر يتخذ من التراب التونسي مأوى له للراحة و التخطيط لمحاربة الفرنسيين، فقد تضايق منه الرسميون التونسيون، و قاموا بطرده بصفة نهائية من تونس عام 1875م ليستقر بدمشق [2] و هناك تدخل الأمير عبد القادر لصالحه، و كتب رسائل إلى السلطات التونسية ملتمسا منهم مساعدته على تصفية أملاكه بتونس، [3] و قدر لهذا الثائر أن يموت غريبا عن الوطن الذي كافح من أجل حريته ردحا معتبرا من الزمن حيث قضى نحبه عام 1884م. [4]

كانت هذه باختصار أخبار مقاومة الناصر بن شهرة للفرنسيين من بدايتها إلى نهايتها. فما هو الدور الذي لعبته العائلات الكبرى في القضاء عليها إلى جانب الجيوش الفرنسية؟

عندما أدرك الفرنسيون خطورة الأنشطة الثورية التي كان يقوم بها الناصر بن شهرة و السكان المتعاطفين معه ضد وجودهم بالجنوب القسنطيني، و تأكدوا كذلك من عدم مقدرة و قصور أعوانهم عن لجم نشاط الثائرين الآخرين، لجئوا إلى أسلوب آخر عساهم أن ينالوا عن طريقه مبتغاهم و يحقق لهم الأمن و الاستقرار في هذه المناطق الصحراوية المترامية الأطراف. و في هذا المنظور اقترح « مكماهون » الحاكم العام للجزائر تشكيل مخزن ورقلة عام 1868م و إسناد عملية الإشراف عليه إلى القايد علي باي. و تتمثل المهمة المركزية لهذا المخزن في ضرب العناصر الثائرة على مستوى الحدود الشرقية للجزائر، و بالأساس الثائر الناصر بن شهرة الذي كان كثير الحركة و التنقل بين الجنوب الشرقي الجزائري و الجنوب الغربي التونسي. و قد خول الحاكم العام لعلي باي بمقتضى هذا الإجراء الحق في مطاردة الثوار حتى داخل التراب التونسي، و خصص لهذا الغرض غلافا ماليا معتبرا قدره 240.000 فرنك فرنسي، منها 23.300 فرنك فرنسي تقدم إلى علي باي في شكل مبلغ إضافي

(1) لم نعثر على الرسالة الأصلية، و إنما عثرنا على الرسالة المترجمة إلى الفرنسية. حول ذلك ينظر

- A.N.T : Série Historique, Carton 78, Dossier 930 : Lettre traduite de l'Arabe du cheikh Bennacer Ben chohra à S.A le bey M'hamed (sans date et portant au verso le cachet de Ben Djellab), Folio 12.

(2) L.Rinn : op.cit, p 623

(3) الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 929:

– رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير خير الدين بتاريخ 8 محرم 1293هـ (1876)، وثيقة رقم 22.

– رسالة الأمير عبد القادر إلى مصطفى بن اسماعيل بتاريخ يوم السبت 02 رمضان المعظم 1297هـ (1880م)، وثيقة رقم 25.

(4) بوزيد قصيبة : « ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871م »، مجلة الأصالة، تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، العدد 6، عام 1975، ص ص 60، 61.

و مساعدة مالية يعزز بها هذا القايد حملاته العسكرية التي يشنها ضد هؤلاء الثوار و خاصة الناصر بن شهرة، و كذلك أيضا من أجل ضرب القبائل التونسية المتعاطفة معه مثل قبيلة الهمامة التي اشتهرت بمعاداتها للوجود الفرنسي.[1]

بهذا يتبين لنا أن الفرنسيين و على رأسهم حاكمهم العام كانوا يعولون كثيرا على هذا القايد الأهلي في محاربة الناصر بن شهرة الذي زعزع أمنهم بالجنوب الشرقي الجزائري. و ربما يكون مكماهون بواسطة هذا الإجراء، قد قلد الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث* حينما خصص « جلالته » عام 1866م غلافا ماليا قدمه إلى القادة الأهليين الجزائريين الأكثر إخلاصا لفرنسا كمساعدة لهم جراء الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالجزائر في ذلك الحين. و كانت قيمة هذا الغلاف المالي على المستوى الوطني تقدر بـ 638.000 فرنك فرنسي، و قد نال منها القادة الأهليين بمقاطعة قسنطينية 90.000 فرنك فرنسي، و حاز القايد علي باي على أكبر قيمة حيث قدر نصيبه بـ 40.000 فرنك فرنسي.[2]

و تنفيذا لهذه الإستراتيجية باشر القايد علي باي رفقة فرقة « القوم » المنضوية تحت لوائه عدة حملات عسكرية « وقائية » ضد الثائر الناصر بن شهرة و رفيقه محمد بوعلاق** و لاحقهما إلى التراب التونسي و تحديدا إلى بلدة نفزاوة التي كان الناصر بن شهرة يرابط بها للراحة و التخطيط لمحاربة الفرنسيين و أعوانهم. و قد تمكن علي باي إثر ذلك من « تأديب و معاقبة » أربع قرى تونسية كانت تقدم

(1) A.O.M: F80. 903. Budget 1868.

* هوشارل لويس نابليون بونابرت (1808 – 1873)، و هو ابن أخ نابليون الأول، شغل منصب رئيس جمهورية فرنسا (1848م – 1852م)، ثم إمبراطور فرنسا (1852م – 1870م) ، إشتهر بإعلانه الحرب على بروسيا عام 1870م، و انكساره فيها مما أدى إلى تراجع مكانة فرنسا دوليا، فعزل من منصبه و انتقل إلى العيش في انجلترا.

حول هذه الشخصية ينظر :

- المنجد في اللغة و الإعلام، منشورات دار المشرق، الطبعة الثالثة و الثلاثون بيروت، لبنان، 1992، ص 568.

Voir aussi :

- Petit dictionnaire Français (dictionnaire des noms propres), librairie Larousse, Paris, France, 1978, p 729.

(2) A.O.M : F80. 1680 : Secours de L'empereur aux Indigènes le 21/03/1866.

** محمد بوعلاق هو زعيم قبيلة أولاد يعقوب التي كان حيز انتجاعها يضم المناطق الحدودية الجنوبية الشرقية للجزائر و المناطق الحدودية الجنوبية الغربية لتونس. و قد انتصبت هذه القبيلة شوكة مغروسة في حلق الإدارة الفرنسية، حيث حاربت الفرنسيين لمدة غير قصيرة فاقت العشرين عاما. و كانت لهذه القبيلة صلات قوية مع زاوية نفطة الرحمانية بتونس التي كان رئيسها مصطفى بن عزوز الذي ناصب العداء هو الآخر للفرنسيين اعتبارا من عام 1849م، و حول زاويته ملجأ لكل جزائري لاجئ أو مطرود من قبل الفرنسيين. و كانت هذه الزاوية مأوى للراحة و التخطيط لمقارعة الفرنسيين و أعوانهم. و عندما أدرك الفرنسيون خطرها على وجودهم بالجنوب الشرقي عملوا كعادتهم على تدجينها لكي تحيد عن نهجها الثوري، فشجعوا الشيخ الحسن بن عثمان صديق الفرنسيين على تولي شؤونها و عندما سيطر عليها دخل في صراع مع تارزي نجل مصطفى بن عزوز. حول ذلك ينظر:

- L.Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, op.cit, pp 89, 90.

الدعم المادي و المعنوي له، و تشكل كذلك قواعد خلفية لنشاطه الثوري. و قد خلفت هذه الحملات حسب تقرير الحاكم العام الفرنسي الذي أرسله إلى إمبراطوره 62 قتيلا من سكان هذه القرى إضافة إلى قيمة معتبرةمن الغنائم غنمها علي باي من سكان هذه القرى و قد شملت 185 بندقية، و 4000 رأس من الأغنام، و 60 رأسا من الإبل، و 8 رؤوس من الخيل، إضافة إلى كميات معتبرة من التمور التي كانت تشكل الغذاء الرئيس لهؤلاء السكان. (1)

هكذا يتراءى لنا أن الثائر الناصر بن شهرة أجبر الفرنسيين و أعوانهم على فتح جبهة أخرى من جبهات صراعهم مع الثوار الجزائريين كانوا في غنى عنها، لملاحقة الثوار الجزائريين الذين كانوا يحتمون بالبلاد التونسية عندما يشتد عليهم الضغط الاستعماري، و هو الأمر الذي دفع بالفرنسيين إلى مضاعفة عمليات مراقبة الحدود الشرقية للجزائر. هذه الحدود التي كان الحاكم العام "مكماهون "كثير التوجس منها إذ حدث إمبراطوره في إحدى التقارير بالقول: «... إن الحدود الشرقية للجزائر تتطلب منا دائما رقابة مستمرة، و التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتحقق إلا بضرورة استحداث جهاز مؤهل و يحوز على كفاءة عالية... »(2)

و رغم ذلك فإن الفرنسيين لم يتمكنوا من مراقبة هذه الحدود و التحكم في حركة تنقل الجزائريين إلى البلاد التونسية على أحسن وجه، فتعاملوا مع هذا الوضع بنوع من الواقعية، حيث طلبوا من بايات تونس أو ضغطوا عليهم أن يتعاملوا مع الجزائريين المهاجرين إليهم كرعايا فرنسيين و ليس كرعايا بايات تونس بصفتهم لاجئين في بلد مسلم. و تبعا لذلك أصبح الجزائريون ملزمين بتسجيل أنفسهم لدى المصالح القنصلية الفرنسية بتونس من أجل الحصول على الجنسية الفرنسية.(3)

و غني عن البيان أن الهدف من وراء هذه الإجراءات هو مراقبة الجزائريين المقيمين بتونس و محاولة الفرنسيين و أد كل الحركات الثورية التي تستهدف الوجود الفرنسي بالجزائر انطلاقا من التراب التونسي لاسيما العناصر الثورية التي عضدت الثائرين الجزائريين أمثال الناصر بن شهرة و سواه من الثائرين الآخرين.

(1) A.O.M : 11h 37 : Rapport adressé par le gouverneur général à l'empéreur le 10/10/1868.
(2) Ibid : Rapport adressé par le gouverneur général à l'empéreur le 16/09/1868.
(3) عبد الكريم الماجري : المرجع السابق، ص ص 356، 357.

من المتصور أن الحملات التي كان يقوم بها الفرنسيون و أعوانهم لمطاردة الثائر الناصر بن شهرة و المتعاطفين معه على التراب التونسي كانت تضايق كثيرا الرسميين التونسيين منذ انطلاق ثورته، لذا أعطوا تعليماتهم إلى الجهات المختصة لوضع حد لنشاط هذا الثائر رفقة مرافقه محمد بوعلاق اليعقوبي. و نعلم من التقرير الذي أرسله القنصل الفرنسي « ليون روش » « L.Roches » إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسي في 1858/12/24م أن محمد بوعلاق تم توقيفه بأمر من باي تونس، بينما لم يشمل هذا التوقيف الناصر بن شهرة الذي بقي حرا طليقا، لذلك أكد هذا القنصل لوزيره بأنه سيحاول إقناع الباي التونسي بضرورة وضع حد لنشاطه.[1]

و يبدو أن محاولات القنصل الفرنسي لقيت استجابة لدى الرسميين التونسيين، حيث كتب الباي محمد الصادق رسالة إلى الوزير مصطفى خزندار أكد له فيها أن «... ما صدر من محمد بن بوعلاق اليعقوبي و من ناصر بن شهرة من الغارات التي أوجبت مضرة الوطن الذي هم به الآن فرأينا أن نأمر لبني زيد بالتمكن عليهما و على من انضم إليهم... ».[2] و نفهم من هذه الرسالة أن محمدا بوعلاق لم يتم توقيفه، و هذا عكس ما كتبه القنصل الفرنسي لوزيره. فهل هذا يعني أن مصالح الباي التونسي قدمت معلومات خاطئة للقنصل الفرنسي حتى تتلافى طلباته المتكررة أم أن القنصل الفرنسي هو الذي قدم معلومات خاطئة لوزيره لكي يبرزله أنه يعمل على تمثيل المصالح الفرنسية بالبلاد التونسية على أحسن وجه؟ أم أن محمد بوعلاق تم توقيفه لفترة وجيزة ثم أطلق سراحه؟

و في عام 1860م كتب الباي التونسي رسالة إلى المكلف بالأعمال الفرنسي بتونس أكد له فيها بأنه أعطى أوامره إلى الجهات الأمنية المختصة من أجل توقيف الناصر بن شهرة.[3] و بهذا نلاحظ أن الفرنسيين واصلوا اتصالاتهم مع السلطات التونسية حول نشاط هذا الثائر إلى أن تم نفيه نهائيا إلى الخارج عام 1875م كما قدمنا.

---

(1) ISHMNT : Archives du Ministère des Relations Extérieures, quai d'orsay, Paris France, Série : Correspondance Politique, Dossier n° 1, Carton n° 18, Bobine 293 : Rapport du Leon Roches à son Excellence Mr le Comte Walenski, Ministre des Affaires Étrangères le 24/12/1858, Folio 147.

(2) الأرشيف الوطني التونسي السلسلة التاريخية : الحافظة 212، الملف 237: رسالة الباي محمد الصادق إلى الوزير مصطفى خزندار بتاريخ 15 ربيع الثانية 1276 (1859م) ، وثيقة رقم 3.

(3) ISHMNT : A.O.M. Serie Tunisie 25h, Carton 25h 16 (3), Dossier 3, Bobine A 22 : Lettre traduite de l'Arabe de S.A. le Bey de Tunis au chargé d'Affaires de France, datée le 29 Rabia el Anouar 1277 (1860).

لا نود التوسع أكثر في أخبار احتماء الناصر بن شهرة بالبلاد التونسية، و أثر ذلك على العلاقات الفرنسية التونسية لأن ذلك لا يهمنا كثيرا. فالذي يهمنا في هذا السياق هي تلك الحملات التي شنها القايد علي باي نيابة عن الفرنسيين بالبلاد التونسية ضد الناصر بن شهرة. و هي إستراتيجية جديدة كما نفهم حول تعامل الإدارة الاستعمارية مع هذا الموضوع، و هي ترتكز أساسا على تقديم الدعم المادي و المعنوي للرؤساء الأهليين لوضع حد للأنشطة الثورية التي كان يقوم بها هؤلاء الثائرون و خاصة الناصر بن شهرة. و يلاحظ أن هذه الإستراتيجية لم تأت أكلها، الأمر الذي جعل الحاكم العام الفرنسي بالجزائر « مكماهون » يشعر بالإحباط و خيبة الأمل و يتشاءم كثيرا عندما يتحدث عن الوضع في الجزائر. و هذا ما أكده في خطابه الذي وجهه إلى مجلس الحكومة في أواخر عام 1869م الذي تحدث فيه على سوء الوضعية الاقتصادية و الأمنية للجزائر، مؤكدا على أنه إذا كان تدني الوضع الاقتصادي بالجزائر مرده النكبات و الأوبئة و الجوائح التي عصفت بالجزائر في سنين القحط و المسغبة (1867م – 1868م)، فإن سوء الوضعية الأمنية يعود بالأساس إلى (الفوضى التي أحدثها هؤلاء المنافقون) على حد توصيفه، أي الثوار الذين زعزعوا الأمن في الجزائر عموما، و كان على رأسهم الثائر الناصر بن شهرة في الجنوب القسنطيني الذي تمكن من كسب قلوب سكان وادي سوف و وادي ريغ، بل وسكان الجريد التونسي أيضا الذين عصوا أوامر باياتهم و احتضنوا الناصر بن شهرة و رفقاءه. و نتيجة لذلك أمر « مكماهون » علي باي قايد تقرت باقتفاء أثر الناصر بن شهرة و ملاحقته إلى منطقة الجريد بالبلاد التونسية. [1]

و في 1870/08/30م كتب القائد العسكري الفرنسي الذي كان يتولى شؤون قسمة باتنة برقية إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني قال له فيها : «...أن القايد علي باي أحاطنا علما بواسطة رسالة وجهها لنا أن الناصر بن شهرة تصالح مع بوعلاق. و أن هذين الزعيمين يحضران لحملة مشتركة ضدنا و يشاركهما فيها أهالي قبيلة الهمامة التونسية... »[2].

---

[1] ابو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1860–1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص 197، 198.

[2] A.O.M : 2H 57 : Dépêche télégraphique du commandant de la subdivision de Batna à Mr le général commandant de la province de Constantine, nombre de mots 298, expédiée le 30/08/1870 à 4H 50m. ينظر الملحق رقم 14.

و تبين لنا هذه البرقية أن القايد علي باي لم يكتف بمحاربة الثائر الناصر بن شهرة فحسب، بل أنه أيضا كان يتجسس عليه و يتتبع أخباره و علاقاته المختلفة مع المحيطين به و سائر أحواله و يرسلها دون تمهل إلى المسؤولين العسكريين الفرنسيين. كما تبين لنا أيضا أنه بالرغم من المجهودات الجبارة التي كان الفرنسيون يبذلونها بمساعدة القايد علي باي إلا أنهم لم يتمكنوا من لجم نشاط الثائر الناصر بن شهرة لأن مناصريه كانوا يتزايدون يوميا باعتباره كان يدافع عن قضية عادلة تنصرف إلى تحرير البلاد من الغزاة الفرنسيين، و لم يكن مناصروه من أبناء الجزائر فحسب، بل من أبناء البلاد التونسية أيضا من أهالي قبيلة الهمامة.

و الواقع أن تعاون التونسيين مع الثائر الناصر بن شهرة لم يكن وليد عام 1870م فحسب، بل كان سابقا لهذا التاريخ. و هذا ما يمكن أن نستنتجه مما كتبه الزعيم الأهلي محمد بن عمار بن شنوف حينما حدث الفرنسيين مفتخرا بماضيه و مجهوداته التي قام بها أثناء محاربته للثائر الناصر بن شهرة حيث قال : «... عملت مع الإدارة الفرنسية إحدى عشر سنة منها سبع سنين على رأس ستين فارسا في الزاب الشرقي، حراسة على المفسدين الذين يغيرون من حكم تونس (كذا) مثل المفسدين ناصر بن شهرة و محمد بوعلاق، و وقعت فتنة بيننا و بين ناصر بن شهرة و معه ناس من حكم تونس (كذا)... »[1]

و خلال عام 1871م وجه عدد من ولاة الأقاليم الغربية التونسية عدة رسائل إلى الحكومة التونسية يحيطونها فيها علما بتحركات الثائرين الجزائريين الذين كثفوا نشاطاتهم الثورية على المناطق الحدودية بين الجزائر و تونس. و من هؤلاء الثائرين محي الدين نجل الأمير عبد القادر الذي سنبسط الحديث عنه لاحقا، و كذلك الناصر بن شهرة و غيرهما. ففي شهر مارس من عام 1871م كتب المسمى أحمد بن صميدة رسالة إلى المسؤولين الكبار في الحكومة التونسية أحاطهم علما فيها بمكان تواجد الناصر بن شهرة رفقة محي الدين نجل الأمير عبد القادر، كما أشارت الرسالة أيضا إلى دور القايد علي باي في محاربة هذين الثائرين حيث ورد فيها ما يلي : «... إعلام مني. نعم سيدي هو بلغنا (كذا) في ساعة التاريخ (كذا) أن إبن الحاج عبد القادر كان نازلا بالرقعة و معه بالناصر في أناس قلال (كذا) إلى أن أتاه علي باي متاع سوف (كذا) ففر من منزله و نزل بنفزاوة

[1] A.O.M : 10H 58 : Documents, Problèmes Africains. Lettre de Amar Benchenouf, S.D.

و الآن بها (كذا) و دمتم في أمن الله و السلام من خديمكم أحمد بن صميدة عفى الله في حجة الحرام 1287 ... ».[1] إن الشيء الملاحظ في هذا السياق، هو الدور الذي لعبه قايد تقرت علي باي في محاربة الناصر بن شهرة، حيث كان يطارده بصورة دائمة و مستمرة في الجزائر و تونس على حد سواء، و ذلك تطبيقا للأوامر التي كان يتلقاها من المسؤولين الفرنسيين.

و خلال شهر جويلية من عام 1871م، كتب الناصر بن شهرة رسالة إلى أحد شيوخ بلدة نفزاوة التونسية حدثه فيها عن عودة القايد علي باي إلى منطقة الزيبان بالجنوب القسنطيني. [2]

و بهذا نلاحظ أن الناصر بن شهرة كان يخطر التونسيين من الوجهاء و الأعيان كشيخ بلدة نفزاوة بصراعه مع هذا القايد مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن هؤلاء كانوا يؤيدونه و لو بصورة ضمنية في حربه التي كان يخوضها ضد الفرنسيين و أعوانهم مثل القايد علي باي.

و إذا كان علي باي قايد تقرت قد حارب الناصر بن شهرة في الجنوب القسنطيني و طارده حتى داخل التراب التونسي، فإن قادة عائلة ابن قانة أيضا نافسوا هذا القايد في محاربته، و دخلوا في صراع معه و ذكر تقرير بقلم القائد الأعلى للقطاع العسكري القسنطيني عام 1868م أن الناصر بن شهرة هاجم مدينة بسكرة يوم 1868/06/27م، و ألحق خسائر مادية بليغة بالفرنسيين و غير الفرنسيين المتعاونين معهم، و قدرت هذه الخسائر بنحو 113.400 فرنك فرنسي. [3]

و رغم أن التقرير لم يشر صراحة إلى موقف عائلة ابن قانة من هذا الهجوم، إلا أنه من المتصور أن قادة هذه العائلة اشتبكوا معه أو على الأقل تبنوا موقفا مناهضا له سواء خلال هذا الهجوم أو بعده لأن هذه المنطقة كانت من مشمولات قيادة هذه العائلة، كما أن الأعوان الفرنسيين الذين تكلم عنهم هذا التقرير هم قادة هذه العائلة المفترضون.

و نفهم مما كتبه الضابط « رين » أن الصراع بين هذه العائلة و الناصر بن شهرة برز بصورة جلية عام 1871م عندما أعلن المقرانيون ثورتهم ضد المستعمر الفرنسي، حيث انضم إليهم هذا الثائر و شرع في كتابة الرسائل و إرسالها إلى قادة و وجهاء الجنوب القسنطيني، يدعوهم فيها إلى حمل

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 929: رسالة أحمد بن صميدة حول مكان محي الدين و الناصر بن شهرة عام 1287هـ، الموافق لشهر مارس 1871، وثيقة 31. ينظر الملحق رقم 15.

[2] A.Cour : op.cit, p 106.

[3] I.S.H.M.N.T : A.O.M, Série Tunisie 25H, Carton 25h3, Dossier 2, Bobine A3 : Lettre du Général de division Commandant de la province à Mr le Maréchal le 08/07/1868.

السلاح و الانضمام إليه، و إلى كل الثائرين على المستعمر الفرنسي آنذاك أمثال محي الدين نجل الأمير عبد القادر الذي استقر بالصحراء الشرقية و شرع يستعد لمنازلة الفرنسيين. و كان الناصر بن شهرة يبشرهم من خلال هذه الرسائل بقدوم قوة عسكرية كبيرة سيرسلها السلطان العثماني إلى الجزائر تعمل على تخليص هذا البلد من براثن الاستعمار الفرنسي.[1]

و يضيف « رين » أنه في تلك الأثناء تمكن الناصر بن شهرة من فرض وجوده بالمنطقة، و تمكن من إحكام قبضته على تقرت. و عندما بلغت هذه الأخبار مسامع الشريف بوشوشة الذي كان هو الآخر ثائرا على السلطة الاستعمارية، أسند له منصب خليفة على هذه المنطقة. و الواقع أن سيطرته عليها كانت مؤقتة و لم تدم طويلا، حيث تصدت له عائلة ابن قانة، و طارده زعيمها بولخراص بن قانة رفقة قوة عسكرية استنفرها لهذا الغرض. و قبل أن تدق هذه القوة أبواب المدينة، كان الناصر بن شهرة قد تلقى نبأ قدومها فغادرها يوم 1871/10/16م.[2]

لا تترك هذه الأمثلة التي سقناها ، مجالا للشك في أن عائلة بوعكاز الذواودة و عائلة ابن قانة حاربتا الثائر الناصر بن شهرة إلى جانب الفرنسيين خاصة بمنطقة الجنوب القسنطيني. و كان هذا الثائر ينسق عمله الثوري مع ثائرين آخرين و منهم الشريف بوشوشة الذي سنبسط الحديث عنه تباعا، و نحاول إبراز دور هذه العائلات في محاربته إلى جانب الفرنسيين.

10- مقاومة بوشوشة (1869م – 1874م)

هو أحمد بن التومي بن إبراهيم، و يلقب ببوشوشة بسبب خصلة كانت بارزة من شعر رأسه الكثيف. و تقول المصادر الفرنسية أن الشرف الذي نسبه إلى نفسه، إنما هو في الحقيقة شرف زائف لأن منبته ليس شريفا، و لم يكن يحوز حتى على الثروة و الجاه. [3] و صور لنا الفرنسيون و منهم « رين » الثائر بوشوشة بأوصاف غير حميدة، فتارة يصفه بالمغامر من الدرجة الدنيا، [4] و تارة أخرى يصفه بالفار من العدالة بسبب هروبه من السجن عام 1862م، بعدما دخله بتهمة اللصوصية و الصعلكة ! [5]

---

(1) L.Rinn : op.cit, p 106.
(2) Ibid, pp 107, 108.
(3) Gouvernement Général de l'Algérie : op.ci, pp 428, 429.
(4) L.Rinn : « Deux chansons Kabyles sur l'insurrection de 1871 », in R.A n° 31, Année 1887, p 59, voir la marge.
(5) L.Rinn : Histoire de l'insurrection indigène de 1871, op.cit, p 79.

و عندما اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864م، حاول بوشوشة الانضمام إليها، غير أنه لم يتمكن من ذلك، فسافر إلى تونس و طرابلس الغرب، ثم عاد إلى الجزائر عام 1865م، بعدها فكر في أداء مناسك الحج، غير أنه تراجع عن ذلك بسبب سنين الجائحة الكبرى و المجاعة التي عصفت بالجزائر عامي 1867م و 1868م، و التي حالت دون سفر الحجاج إلى هذه البقاع. (1)

خاض بوشوشة حروبا دامية ضد الفرنسيين و أعوانهم، و مما زاد في قوة مقاومته انضمام العديد من زعماء المقاومة المسلحة إلى حركته مثل سي الزبير ولد سيدي الشيخ الذي أصبح صهره، و الناصر بن شهرة، و الشريف محمد بن عبد الله الذين استقبلوه بحفاوة عند دخوله ورقلة عام 1871.(2)

لم يتمكن الفرنسيون من توقيفه إلا في ربيع عام 1874م، حيث جهزوا ضده قوة عسكرية كبيرة قادها الآغا بن إدريس من تقرت الذي حاصره جنوب عين صالح و ألقى عليه القبض في 1874/03/31م، و اقتيد صحبة مرافقيه إلى سجن قسنطينة، ثم أحيل على القضاء العسكري الذي حكم عليه بالإعدام، و نفذ هذا الحكم في 1875/06/29م بمعسكر الزيتون بإحدى ضواحي مدينة قسنطينة. (3) أما الآغا بن إدريس، فقد كافأه الفرنسيون لقاء «ذكائه و حزمه في العمليات التي باشرها ضد المتمرد بوشوشة » و أسندوا له منصب آغا ورقلة. (4)

أما المجال الجغرافي الذي كان يتحرك فيه الثائر بوشوشة، فكان الصحراء الجزائرية من أقصى غربها إلى أقصى شرقها. أما مجاله في الصحراء الشرقية أي المنطقة الجغرافية التي تشكل محور دراستنا فكان ينشط كثيرا في مناطق المنيعة، و وادي سوف، و تقرت و ورقلة. و قد حاول الفرنسيون لجم نشاطه في هذه المناطق الصحراوية بالاعتماد على أعوانهم من الزعماء الأهليين، و منهم زعماء عائلتي ابن قانة و بوعكاز الذواودة بحكم قربهما من مناطق تحرك هذا الثائر.

فورقلة و تقرت و سوف كانت كلها مناطق تابعة لحكم القايد علي باي من عائلة بوعكاز الذواودة، و تمكن بوشوشة من أن يربك الفرنسيين و أعوانهم بهذه المناطق، و كان أيضا يهدد المناطق القريبة من بسكرة مقر حكم عائلة ابن قانة التي تتولى مشيخة العرب.

---

(1) Le Comte de Margon : Insurrection dans la province de constantine de 1870 à 1880, Paris, France, 1883 pp 11, 12.

(2) L.Rinn : « Deux documents indigènes sur l'insurrection de 1871 », in R.A n° 35, Année 1891, pp 26, 27.

(3) Ibid : pp 76, 77.

(4) Gouvernement Général de L'Algerie : op.cit, p 438.

و على هذا الأساس رأى الفرنسيون أن أعوانهم من هاتين العائلتين لم يقوما بما طلب منهما في هذه المناطق، و قصروا في تأدية مهامهما و عليه اتجه الحاكم العسكري لمنطقة باتنة الضابط « أدلير » « Adler » إلى بسكرة في أفريل من عام 1871م و استدعى زعيمي هاتين العائلتين و هما القايد علي باي و محمد الصغير بن قانة، و حملهما المسؤولية التقصيرية إزاء ما حدث بالمنطقة من اضطرابات و « فتن » و آخذهما على انغماسهما في الخلافات و الخصومات العائلية و عدم تحكمهما في الوضع الأمني لاسيما تهديدات الثائر بوشوشة. و تبعا لذلك تلقى القايد علي باي أمرا بالتمركز بالزاب الشرقي من أجل توفير الأمن بجنوب منطقة بسكرة، أما محمد الصغير بن قانة، فقد كلف بتوفير الأمن بين منطقتي الوطاية و الدوسن. [1]

و يبدو أن هذا الموقف المتشدد من جانب الفرنسيين تجاه حلفائهما التقليديين بالجنوب القسنطيني كان نتيجة الضغوطات التي كانوا يواجهونها في ذلك الحين داخليا و خارجيا. فمنطقة الصحراء الشرقية و الجزائر عموما كانت حينئذ تشهد اضطرابات عنيفة جراء التطورات التي ظهرت على مسرح الأحداث كما سنرى لاحقا مثل دخول محي الدين نجل الأمير عبد القادر إلى نفطة و تبسة، و اندلاع ثورة المقراني في ربيع عام 1871م. و كان الثائر بوشوشة يستقطب كل زعماء المقاومة الوطنية الناقمين على الوجود الاستعماري، كما انضم إليه أيضا زعماء جماعة المداقنة *

[1] Henri Garrot : op.cit, pp 978, 979.

* تذكر المصادر الفرنسية أن هذه الجماعة تأسست بتيديكلت عام 1869م، و مارست عمليات السطو و الإغارة على أملاك الغير في مناطق الصحراء الشرقية للجزائر، و بعض المناطق الحدودية للبلاد التونسية كمنطقة نفزاوة. و تشكلت هذه الجماعة من ثوار الشعانبة والمخادمة و بني ثور، و أولاد سيدي الشيخ، و غيرها من الجماعات الأخرى التي فضلت هذا الأسلوب بسبب انتشار المجاعة و اشتداد الكرب على السكان في تلك الأثناء. و كانت هذه الجماعة تتشكل من زهاء 100 خيمة، و لها تنظيمها السياسي و الاجتماعي المستقل، حيث كان يسيرها مجلس يعرف بمجلس الجماعة يتشكل من وجهائها و كبارها. و كان مقرها الرئيس بمنطقة عين صالح التي اتخذت منها مركزا لعملياتها المختلفة، حيث كانت تباع فيه كل الغنائم و الأسلاب التي كانوا يسطون عليها، كما كانت مكانا للتزود بكل ما تحتاجه هذه الجماعة من مؤن و مواد غذائية و نحو ذلك. و بقيت هذه الجماعة على ذلك النهج لمدة عشرين سنة كاملةأي إلى غاية عام 1889م تاريخ القضاء عليها من طرف قبيلة مغربية شنت ضدها غزوة أفضت إلى هلاك معظم أفرادها و تحطيم القشرة الصلبة لجيشها.

أما عن سبب تسميةهذه الجماعة بـ « المداقنة » فيذكر "لوشاتليي" « le chatelier » العليم بأخبارها أنه ذات يوم اندلعت ملاسنات بين أفراد هذه الجماعة و هم ابن شراير و معطي الله الشعانبي و أبوبكر بن عبد الكريم، فقال معطى الله لأبي بكر : « إنكم لستم من أهل الخير لأنكم تعتدون حتى على من يحسن لكم صنعا، إنكم كالطوارق المداقنات »، فأنتشر خبر هذه الواقعة بين الناس في تلك المناطق، و أطلقت هذه التسمية بعد ذلك على هذه الجماعة التي كانت تمارس السطو و اللصوصية عبر المناطق الصحراوية.

حول جماعة المداقنة ينظر:

- Le Chatelier : « Les Medaganat : I- Medagan et les Premiers Medaganat- Insurrection de Bouchoucha- Capture du Chérif », in R.A n° 30, Année 1886, pp 45, 46.
- Gouvernement Général de L'Algérie : op.cit, p 438.

و خلال شهر أكتوبر من عام 1871م جهز القايد بولخراص بن قانة حملة و عزم على مواجهة الثائر بوشوشة الذي استولى على قصور وادي ريغ، و تمكن هذا القايد من استرجاع هذه المناطق إلى حضيرة السيطرة الفرنسية، كما دخل تقرت و انتزعها هي الأخرى منه. [1] و في تلك الأثناء كانت ورقلة تابعة لسلطة الثائر بوشوشة، فعمل القايد بولخراص بن قانة على انتزاعها منه. و لتحقيق هذا الغرض، اتفق مع قايد جماعة السعيد عتبة في صحراء الحمادة و هاجماه في منطقة كويف الحبة الواقعة بين قورارة و العالية يوم 1871/11/07م. [2]

كانت قوات بوشوشة تتشكل أنذاك من 40 فارسا و 200 عنصر امتطوا ظهور الجمال من نوع المهارة * التابعة لشعانبة بوروبة و المواضي و المخادمة، بينما قوات جماعة السعيد عتبة كانت تتشكل من 450 فارسا. و قبل أن تندلع المواجهات بين الطرفين جرت اتصالات بينهما إلا أنها فشلت بسبب تمسك بوشوشة بمبدأ استسلام أعدائه الذين كانوا متأكدين من انتصاراتهم بسبب تفوقهم العددي. و دارت معركة دامية بين الطرفين أفضت إلى إصابة بوشوشة بجروح بليغة على مستوى الفخذ، و قتل 56 عنصرا من رجاله، و جرح العديد منهم، بينما فقد قائد جماعة سيدي عتبة هو الآخر 38 عنصرا من فرسانه. [3]

و تجدر الإشارة أن المصادر التاريخية التي اعتمدناها في تتبع وقائع هذه المعركة تكلمت عن دور قايد جماعة السعيد عتبة إلى جانب القائد بولخراص بن قانة في التحضير لهذه المعركة، غير أنها سكتت عن دور هذا الأخير خلالها، و اكتفت بالحديث عن تفاصيل المعركة التي دارت بين الثائر بوشوشة و قايد جماعة السعيد عتبة. فهل انسحب القايد بولخراص بن قانة من هذه المعركة، و ترك رفيقه يواجه قوات الثائر بوشوشة لوحده؟

---

(1) Gouvernement Général de L'Algérie : op.cit pp 434, 435.

(2) Le Comte de Margon :op.cit, pp 65, 66.

* عرف قاموس اللغة الفرنسية جمال المهري « Mehari » كما يلي : « المهري كلمة عربية، جزائرية المنبت و تعني سلالة من الإبل الممتازة، الوحيدة السنام« dromadaire » الرشيقة القدود، السريعة السير.و بفضل هذه الخصائص فإن مالكيها يعتمدون عليها في مختلف السباقات »

حول ذلك ينظر:

- Paul Robert : op.cit, p 1175.

(3) Gouvernement Général de L'Algérie : op.cit, p 435.

الواقع أننا لم نعثر على ما ينفي أو يثبت انفصال بولخراص بن قانة عن رفيقه قايد جماعة السعيد عتبة في هذه المعركة، إلا أننا عثرنا بأرشيف إيكس أون بروفانس على وثيقة تحدثت عن إمكانية تعاون القائدين في مواجهة الثائر بوشوشة بعد هذه المعركة حيث كتب رئيس سرية دائرة الأغواط تقريرا إلى رئيس قسمة المدية حول الوضع العام و مستجدات الجنوب الجزائري جاء فيه : «... ليس هناك جديد يذكر حول نشاط الشريف بوشوشة منذ نهاية المعركة يوم 1871/11/07م. و يبدو أن بوشوشة لم ينتقل إلى ورقلة لكي يضع أغراضه هناك حتى يكون في مأمن من هجوم مباغت يقوده قايد جماعة السعيد عتبة، و الذي سوف يعضده في هذا الهجوم المحتمل القايد بولخراص بن قانة... ».[1]

و مهما يكن من أمر، فإن الفرنسيين وجدوا من ينوب عنهم في مواجهة الثائر بوشوشة، و لم يكن يهمهم كثيرا من يتصدى له سواء كان قائدا أهليا واحدا أو قائدين أهليين إثنين، و سواء كان من عائلة ابن قانة أو سواها، خاصة و أنهم كانوا في تلك الأثناء منشغلين كثيرا بثورة المقرانيين التي فجروها في مارس 1871م، و الذين اتصلوا بهذا الثائر قصد تنسيق الجهود معه أو ربما من أجل تسهيل عملية نزوحهم إلى نفطة و الهجرة إلى البلاد التونسية كما سنعرف لاحقا.

إن الحديث عن صراع بوشوشة مع الفرنسيين و أعوانهم بصحراء قسنطينة كما تسميها المصادر الفرنسية لا يكتمل إلا إذا سلطنا الضوء عن صراعه مع القايد علي باي الذوادي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة. ففي خلال شهر مارس من عام 1871م فكر الثائر بوشوشة في السيطرة على ورقلة التي كانت تابعة لآ غوية علي باي. وكان عليه البحث عن الأنصار و المؤيدين من أعداء هذا القايد في هذه المنطقة، مثل قبائل الشعانبة بوروبة، و سائر قبائل البدو فاجتمع بهم و أقنعهم بأنه « مول الساعة » أرسله رب الجلالة لاستئصال المسيحيين من أرض الجزائر. و قبل أن يباشر هذه العملية كان قد اتصل بوجهاء هذه القبائل ، و حدثهم عن ضعف الجيوش الفرنسية و انكسارها أمام جيوش بروسيا عام 1870م، مؤكدا لهم استحالة انتصارها عليهم إذا أعلنوا الثورة في وجهها. بعد ذلك حدثهم قائلا : « إذا طلبتم مني القيام بهجوم خاطف على قوات علي باي المرابطة بورقلة، فإنني لن أوافقك على ذلك. و أما إذا أردتم أن أحكم قبضتي بصورة نهائية على ورقلة، فذلك ما أروم القيام به.

[1] A.O.M : 2H 57 : Rapport du chef d'escardon commandant supérieur du cercle de laghouat au général chef de la subdivision de media au sujet des nouvelles du sud, expédié le 19/11/1871.

و أعلموا أنني لا أنوي مباشرة الخيار الأخير إلا إذا تعهدتم إلي بأنكم ستسعون إلى تحقيق أحد الخيارين : النصر أو الشهادة ». و على إثر ذلك أكد له الجميع بأن كل قبائل الشعانبة بوروبة و المخادمة ستسير وراءه إذا اختار طريق محاربة علي باي. بعدها سار بوشوشة إلى ورقلة، فسيطر عليها دون صعوبة بسبب وجود عدد كبير من أنصاره هناك باستثناء بعض الجماعات الميزابية التي رفضت دخوله فأمر بتصفية بعضهم. [1]

و قد حمل « لوشاتليي » « Le chatelier » مؤرخ جماعة المداقنة القايد علي باي مسؤولية ضياع هذه المدينة و سقوطها في قبضة بوشوشة، و قال بأن سيطرة هذا الثائر على هذه المدينة يعود بالأساس إلى تراخي و خمول هذا القايد أو إلى خيانته. و في كلتا الحالتين فمسؤوليته في ذلك ثابتة. [2] و بعد ذلك اتجه بوشوشة إلى قمار لأنه لم يجد علي باي بورقلة، و رفض شيخ الطريقة التيجانية محمد الصغير بن الحاج التجاني استقباله و استطاع أن يؤثر على موقف سكان قمار و يقنعهم بضرورة مؤازرته في التصدي لهذا الثائر. و في النهاية اتفق الطرفان على أن يقوم السكان بدفع مبلغ ماليا لبوشوشة مقابل رحيله عن قريتهم! [3]

و إذا صحت رواية ابراهيم محمد الساسي العوامر حول هذه الحادثة، فإن الشريف بوشوشة كان قد عاث فسادا بقمار، حيث حرض فرسانه الذين رافقوه في هذا الهجوم على قتل أحد رجال هذه القرية، لأنه أتهمه بإخفاء أموال و حلي و أثاث السكان بالزاوية التيجانية، و لم يكتف بهذا الصنيع فحسب بل أعطى الأمر لقواته بتحطيم كل أبواب المتاجر و الاستيلاء على كل السلع و الأموال المودعة بها. [4] و يضيف صاحب هذه الرواية أن والده كان يملك متجرا كبيرا بهذه القرية، تعرض إلى التحطيم من قبل رجال بوشوشة، الذين نهبوا كل محتوياته من سلع و أموال، و لم يتركوا له سوى منديل واحد ! [5]

و مهما يكن من أمر فإن بوشوشة لم يستقر بواحة قمار و فضل مغادرتها بحثا عن القايد علي باي الذي كان يتتبع كل تحركاته بالمنطقة. و على إثر مغادرته لقرية قمار اتصل به عدد غير قليل من شيوخ المنطقة الذين كانوا تابعين لصف عائلة ابن قانة و عرضوا عليه خدماتهم مؤكدين له

[1] Gouvernement Général de L'Algerie : op.cit, pp 431, 432.
[2] Le Chatelier : op.cit, p 47.
[3] Le Comte de Margon : op.cit, pp 26, 27.
[4] ابراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص ص 318،319.
[5] المصدر نفسه، ص 319.

بأنهم سيعملون على مساعدته إذا رام إحكام قبضته على تقرت و أراد أن يقضى على نفوذ عائلة بوعكاز الذواودة و زعيمها القايد علي باي. [1]

و هكذا فإن صحت أخبار هذه الحوادث، فإنها تبين لنا كيف كانت مسألة الو لاءات و التحالفات التي تربط الجماعات العشائرية و القبلية في المنطقة. فقد كانت حقا تحالفات و ولاءات مرنة و غير ثابتة بحيث كانت تساير المصالح الآنية لتلك الجماعات. فهذه الجماعة التي تنتمي إلى صف عائلة ابن قانة عرضت خدماتها على الشريف بوشوشة إذا رام الإجهاز على القايد علي باي لأن مصلحتها افترضت ذلك و هي معاداتها لعائلة بوعكاز الذواودة. هذا في الوقت الذي يفترض فيه أن تنتصب هذه الجماعة في المعسكر المعادي لبوشوشة بحكم أن هذا الأخير يحارب المشروع الاستعماري الذي تتبناه عائلة ابن قانة في المنطقة. و من جهة أخرى تبين لنا هذه الوقائع أيضا بما لا يدع مجالا للشك أن الآلة الاستعمارية الفرنسية تمكنت من توسيع الفجوة بين العائلتين المذكورتين لتصبح فجوة سحيقة انطلاقا من سياسة « فرق تسد » المنتهجة بالمنطقة إلى درجة أن أتباع عائلة ابن قانة اختلطت عليهم الأمور و أصبحوا لا يفرقون بين المستعمر الفرنسي الذي تحالفوا معه و عدوه الشريف بوشوشة، فكان همهم الوحيد هو التعاون مع أحدهما أو كليهما من أجل الوصول إلى هدفهم و هو القضاء على نفوذ غريمتهم عائلة بوعكاز الذواودة و زعيمها القايد علي باي، تلك هي بالذات إستراتيجية المستعمر الفرنسي تجاه هذه العائلات الكبرى، الذي انتهج تجاههم سياسة مقيتة جعلتهم يفكرون تفكيرا آنيا، و أعمتهم عن رؤية عدوهم الحقيقي الذي اغتصب بلدهم ظلما و عدوانا.

و في 1871/05/15م دخل بوشوشة مدينة تقرت و أحكم قبضته على قصبتها، و قام بتحطيم الحامية الفرنسية. و بذلك تمكن من الحصول على قاعدتين هامتين بالمنطقة هما ورقلة و تقرت، و هو الأمر الذي تحرجت منه الإدارة الفرنسية كثيرا، و تبعا لذلك أعطت أوامرها إلى القايد علي باي بضرورة استرجاع مقر قيادته خلال الأيام الأولى من شهر جوان 1871م. و امتثالا لهذا الأمر، جهز القايد علي باي قوة عسكرية وصل عددها إلى 6000 فارس حاصر بها مدينة تقرت. و لما بلغت هذه الأخبار مسامع بوشوشة جهز هو الآخر حملة عسكرية لفك الحصار المفروض عليها، و اشتبك الطرفان في معركة دامية تمكن خلالها بوشوشة من توجيه

(1) Le Comte de Margon : op.cit, pp 29-31.

ضربات مؤلمة لجيش علي باي رغم قوة عدده و عدته، فأضطر هذا الأخير إثر ذلك إلى فك الحصار الذي فرضه على المدينة و التراجع، بل و الهروب بعيدا عن مقر قيادته ببسكرة.[1]

و لعل أحداث هذه المعركة ضمنها القايد علي باي في الرسالة التي أرسلها إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني الجنرال « دي لاكروا » في تلك الأثناء، حيث حدثه عن دوره الكبير الذي لعبه في محاربة هذا الثائر كما أشار إلى مقتل و هلاك عدد كبير من رجاله و كذلك من الذين ساروا إلى جانبه لمحاربة هذا الثائر، حيث قال له: «... و لماء (كذا) آذنونا الحكام بالتوجه إلى تقرت لكف الشريف و بعد أثار (كذا) العسكر و الفسيلة (كذا) و الذواودة توجهوا معنا جميع العرب و أهل الزيبان دون تقصير و اقتحموا مشقة الصيف و لم يعتبروا شدته و قاتلوا معنا قتال النصر و ماتوا (كذا) من رجالهم و جرحوا و لعل عدد الموتى و الجرحا (كذا) منهم مر بسمعك ذكره و بيانه... ».[2]

و الواقع أن القايد علي باي كان قد اتصل بالحاكم العسكري لبسكرة قبل كتابته لهذه الرسالة التي وجهها إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني. ففي 1871/05/27م تقدم هذا القايد بشكوى لدى حاكم بسكرة يشكوه فيها تجاوزات عائلة ابن قانة و تحالفها ضده متهما قادتها بالتواطؤ مع الثائر بوشوشة و تشجيعه على احتلال مدينتي ورقلة و تقرت. غير أن الحاكم العسكري الفرنسي صرف عنه النظر، و تصرف معه بفظاظة و اتهمه بالتقصير في أداء المهام كقايد وحمله بالتالي المسؤولية التقصيرية إزاء كل انكساراته أمام الثائر بوشوشة، كما توعده بإحالته على القضاء العسكري ليقول كلمته في سيرته، و يسلط عليه عقوبة قاسية إذا ثبت من خلال الوقائع أنه قصر فعلا في أداء مهامه أثناء منازلته للثائر بوشوشة، و لم يتخذ كل التدابير الاحترازية التي تشل هذا الثائر من الولوج إلى مناطق قيادته.[3]

(1) Gouvernement Général de L'Algérie : op.cit, p 433.
(2) A.O.M : 2H57 : Lettre de si Ali Bey ben Ferhat Kaid de Tougourt à Mr le Général Delacroix Commandant de la province de constantine, 18/10/1871.
(3) Le Comte de Margon : op.cit, pp 53-54

و قد شكا كذلك القايد علي باي في الرسالة التي بعثها إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني المشار إليها سابقا تجاوزات عائلة ابن قانة حيث أكد له فيها بأن حالة الفوضى و الثورات التي اندلعت في منطقة الجنوب القسنطيني سببها قادة عائلة ابن قانة الذين كانوا سببا مباشرا في سقوط مدينة تقرت في قبضة الثائر بوشوشة، و ما انجر عنها من قتل لإخوانه الذواودة و كذا من « العسكر » الفرنسيين.[1] مضيفا له في موضع آخر من هذه الرسالة : «... و لاكن (كذا) إنني متعجب حيث صار النظر إلينا بعين القلة (كذا) من ذالك (كذا) أن السيد الكماندة ترك من قومنا ماية فارس (كذا) و أراد يعطي (كذا) راتبها إلى سي بو الأخراص (كذا) يعمل بها (كذا) قوم في تقرت فلا أدري مع السبب الداعي في ذالك (كذا) ... ».[2]

و من خلال ما ورد في هذه الرسالة يمكن أن نخلص إلى نتيجتين هامتين هما:

– أن القايد علي باي لم « يقصر في أداء مهامه » في محاربة الثائر بوشوشة كما يدعي الفرنسيون، و إنما كانوا يتهمونه بالتقصير أحيانا و الخيانة أحيانا أخرى بحثا عن مسوغات و مبررات من أجل تقزيم صلاحياته و صلاحيات عائلته بصورة عامة، و هي سياسة درجوا عليها مع سائر العائلات الكبرى تمهيدا للتخلي عن خدماتهم لأنهم نالوا منهم ما راموا الحصول عليه و هو إحكام قبضتهم على مقاطعة قسنطينة بعدما شاركوهم في حروبهم العدوانية التي شنوها ضد الثوار و السكان المتعاطفين معهم.

– تكشف لنا هذه الرسالة مرة أخرى مدى خطورة السياسية الاستعمارية التي كانت فرنسا تنتهجها تجاه العائلات الكبرى و لاسيما تجاه عائلتي ابن قانة و بوعكاز الذواودة، و هي سياسة « فرق تسد » مستغلة في ذلك عنصر الجفاء و العداوة التقليدية المستشرية بين هاتين العائلتين منذ العهد العثماني. و قد أتت هذه السياسة أكلها حينما أصبح الإخوة في الوطن و الدين (عائلتي ابن قانة و بوعكاز الذواودة) يشتكون خلافاتهما إلى المستعمر الفرنسي الذي اصطنعها. ألم يكن حريا بهما توحيد كلمتهما و جهودهما و يثوران في وجهه؟.

[1] A.O.M : 2H57 , op.cit.
[2] Idem.

11- حركة محي الدين نجل الأمير عبد القادر (1870م- 1871م).

في نهاية عام 1870م، و بداية عام 1871م حاول محي الدين الذي كان مستقرا مع والده الأمير عبد القادر في دمشق أن يعلن الثورة في وجه الفرنسيين مستغلا في ذلك انهزام فرنسا في حرب 1870م أمام بروسيا.[1] و قد فضل محي الدين إخفاء أمره عن والده، فطلب منه السماح له بالذهاب إلى الإسكندرية بمصر بغية الراحة و الاستجمام، فلبى والده هذا الطلب.[2] و يذكر تقرير مجهول المصدر أن محي الدين انتقل بعد ذلك إلى تونس، فأتصل به الوجهاء و الكبراء و استقبله الجنرال خير الدين و وزيره خزندار بقصر الباردو استقبالا حارا، لاسيما وأنهما لم يكونا على دراية بالهدف من زيارته. و حتى يصرف عنه الأنظار كان محي الدين يبالغ في التعمية و التنكر، و كان يحدث محيطه الضيق عن مناقب فرنسا و فضائلها على المسلمين، كما كان ميالا إلى دراسة المخطوطات العربية و الإسلامية.[3]

و الراجح أن هذا التقرير كان بقلم أحد عملاء المخابرات التونسية التي كانت تتوجس خيفة منه ، فعملت على رصد كل تحركاته، لأن صاحبه أكد في نهايته « أنه بالرغم مما يبديه محي الدين للفرنسيين من احترام و تبجيل إلا أننا نقوم بمراقبته عن كثب »، فأدرك محي الدين أنه ليس من الحصافة البقاء بتونس، فسافر منها متجها إلى الشام في 1870/11/21م، غير أنه فضل تغيير وجهته بمجرد وصوله إلى مالطا، حيث اتجه إلى طرابلس الغرب، ثم انتقل إلى مدن توزر و نفطة و نفزاوة بتونس. [4] و تبعا لذلك أعطت السلطات التونسية الأمر بمراقبة دقيقة لحدودها الغربية مع الجزائر، كما أصدرت أمرا بالقبض على محي الدين.[5]

(1) عبد الجليل التميمي : بحوث و وثائق في التاريخ المغاربي: الجزائر و تونس و ليبيا 1816م- 1871م، منشورات مركز الدراسات و البحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان، تونس 1985، ص 26.

(2) يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب، الجزء الأول ، ص 357.

(3) I.S.H.M.N.T : A.O.M, Série Tunisie 25H, carton 25H18, Dossier n° 4 : Bobine A 26, Rapport anonyme Expédié à un Ministre Tunisien le 05/11/1870, Folio 155, 156, 157.

(4) ضيف الله محمد الأخضر: محاضرات في النهضة العربية الحديثة، د.م.ج، الجزائر، 1981، ص ص 39، 40.

(5) I.S.H.M.N.T : A.O.M : op.cit, dépêche télégraphique confidentiel du directeur de transmission de Tunis datée le 06/11/1871, Folio 18.

و الراجح أنها باشرت هذا الإجراء بطلب من السلطات الفرنسية إن لم نقل بضغط منها، لأن القنصل الفرنسي المعتمد بتونس كان يراسل مسؤوليه بباريس و يطلعهم على أخبار محي الدين.[1] خاصة و أن الفرنسيين في الجزائر و فرنسا اختلطت عليهم الأمور في تلك الأثناء و لم يتعرفوا بدقة على مكان وجود محي الدين إن كان بالحدود الشرقية للجزائر أو أنه انتقل إلى الإسكندرية.[2] بل أنهم لم يتمكنوا حتى من تحديد هويته و سنه بدقة، و ترتيبه العمري بالنسبة لإخوانه في الأسرة كما أشارت إلى ذلك مراسلاتهم.[3] غير أن محي الدين تمكن من تفويت الفرصة على السلطات الأمنية التونسية و اجتاز الحدود و وصل إلى منطقة تبسة، فألتف حوله حشد كبير من الأنصار، و التحم مع الفرنسيين في معركة دامية في شهر مارس عام 1871م بمنطقة تبسة و التي انكسر فيها.[4] و رغم ذلك واصل جهاده ضد الفرنسيين، و حتى يستقطب أكبر عدد ممكن من الأنصار، استعمل محي الدين ختم والده في بعض الرسائل.[5]

و عموما يمكن القول أن حركة محي الدين أجهضت و اختفت بسرعة نتيجة لعدة عوامل منها عودة الجيش الفرنسي إلى الجزائر بعد مشاركته في حرب 1870م، و كذلك موقف والده المعارض لحركته حيث قام بتحرير رسائل وجهها إلى السلطات الفرنسية قبح فيها نشاط ابنه، و أكد فيها أنه سيتبرأ منه إذا بقى متمسكا بسلوكه الأرعن الداعي إلى مقاومة الفرنسيين ! [6]

---

[1] I.S.H.M.N.T : Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Quai d'Orsay, Paris, France, Série : Affaires Politiques, Carton 4, Bobine 520 : Fils d'Abdelkader, Folio 428.

[2] Ibid : Lettre du Gouverneur Général d'Algérie adressée au Ministre de la guerre Français le 10/01/1871, Folio 426.

[3] Ibid voir notamment les lettres suivantes :

- Lettre d'Adolphe Crémieux Ministre de la Justice et Garde des Sceaux à Mr le Délégué du Ministre des Affaires Étrangères Français le 12/01/1871, Folio 425.
- Lettre du Délégué du Ministre des Affaires Étrangères à Mr le Ministre de la Justice et Garde des Sceaux le 12/01/1871, Folio 424.
- Renvoi à Mr le Délégué du Ministre des Affaires Étrangères de la Dépêche du Consul à Tunis, S.D, Folio 427.

[4] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية الحافظة 212، الملف 240: رسالة محمد قعيد إلى الوزير خير الدين في 8 محرم الحرام 1288 (الموافق لـ 1871/03/30) ، وثيقة رقم 17.

[5] يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 359.

[6] Mohamed cherif sahli : op.cit , pp 156, 157.

و بعد هذه اللمحة الموجزة عن حركة محي الدين، هل لنا أن نتعرف الآن على دور العائلات التي ندرسها في محاربته إلى جانب الفرنسيين؟

انتصب القايد علي باي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة كعادته في المعسكر المعادي لحركة محي الدين نجل الأمير عبد القادر مترجما بذلك إرادة السلطات الاستعمارية الفرنسية. و قد أشرنا إلى ذلك سابقا في معرض الحديث عن دور القايد علي باي في محاربة الثائر الناصر بن شهرة إلى جانب الفرنسيين، ذلك أن محي الدين نجل الأمير عبد القادر كان قد دخل التراب الجزائري رفقة هذا الثائر، و تصدى لهما القايد علي باي. و يفهم من الرسالة التي بعثها المسمى أحمد بن صميدة إلى المسؤولين الكبار في الدولة التونسية أن محي الدين كان مستقرا بإحدى المناطق الجنوبية الشرقية للجزائر، و يترصد الأوضاع هناك عن كثب، و لما علم بقدوم القايد علي باي لمهاجمته غادر مكانه و اتجه إلى بلدة نفزاوة بالبلاد التونسية .[1]

و إذا كان موقف عائلة بوعكاز الذواودة من حركة محي الدين على النحو الذي ذكرناه، فإن موقف عائلة ابن قانة لا يختلف عنها. فالرسائل العديدة التي وجهها محي الدين إلى الأعيان و رؤساء القبائل و العشائر و العائلات الكبرى، و بقايا رجال الدين و رجال السيف، كانت قد وصلت إلى معظم مناطق القطر الجزائري بحكم كثرة عددها إذ بلغت زهاء 200 رسالة، [2] و التي أكد فيها أن « الله جل جلاله أمره بسحق الأعداء الفرنسيين » [3] لم تستثن منها عائلة ابن قانة، حيث وصلت قادتها رسائل تدعوهم إلى التجند و الاستعداد لمواجهة الفرنسيين أعداء الدين و الوطن.

غير أن قادة هذه العائلة لم يكتفوا بعدم الاستجابة لها فحسب بل تبرءوا منها، كما تبرءوا من محي الدين، و اتصلوا بالسلطات الاستعمارية الفرنسية و سلموها لها. [4] و هو موقف مفترض لا يمكن تصور عكسه لأن هذه العائلة درجت على معاداتها لكل حركة ثورية تستهدف الوجود الفرنسي بالجزائر. و ربما لم يكن محي الدين مطلعا إطلاعا عميقا على علاقة هذه العائلة بالفرنسيين و إلا ما كان يراسلها و يعرض عليها التعاون و يدعو قادتها إلى التجند لمحاربة الفرنسيين.

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية الحافظة 78، الملف 229: رسالة أحمد بن صميدة حول مكان محي الدين مؤرخة في حجة الحرام 1287هـ ، و هو تاريخ يوافق شهر مارس 1871م ، وثيقة 31.

[2] أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص 229.

[3] Charles- Robert Ageron : op.cit, p 11.

[4] أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص 229.

فموقفها من هذه المسائل هو موقف ثابت، ينصرف إلى مؤازرة الجيوش الفرنسية في حروبها العدوانية التي تخوضها ضد كل شكل من أشكال المقاومة. و قد تقاسمت معها هذا الموقف عائلة بوعكاز الذواودة بقيادة علي باي الذي ناصب العداء هو الآخر إلى محي الدين نجل الأمير عبد القادر.

و قبل أن ننهي الكلام عن حركة محي الدين و دور العائلات الكبرى في محاربته، نرى من الجائز أن نعطي فكرة عن موقف عائلة المقراني من حركته رغم أن المقرانيين لم يشاركوا إلى جانب الجيوش الفرنسية في محاربة محي الدين، كما لم يقفوا إلى جانبه أيضا لأنهم كانوا في تلك الأثناء يستعدون لإعلان ثورتهم، مما قد يوحي بأن إثارة هذه المسألة قد تخرجنا عن الموضوع الذي ندرسه و هو دور هذه العائلات في محاربة محي الدين. و رغم ذلك فإن موقفهم جدير بالمناقشة لارتباطه بموقف الأمير عبد القادر الغريب من حركة ابنه، و الذي أثار كثيرا من اللغط و النقاش. فقد ذهب بعض الكتاب و المؤرخين الفرنسيين و منهم « رين » إلى القول أنه من بين الأعيان الجزائريين الذين راسلهم محي الدين كان الباشاغا محمد المقراني الذي رفض التنسيق معه، بحجة أنه كان كثير الاعتداد بنفسه، و بحكم أنه الباشاغا و الإقطاعي الذي رفض أن يكون تابعا لمحي الدين الذي هو أدنى منه شأنا و اعتبارا، إضافة إلى ذلك فإن محي الدين هو إبن خصمه الأمير عبد القادر. لأن هذا الأخير كان قد نصب محمد بن عبد السلام المقراني و هو من أبناء عمومة الباشاغا محمد المقراني خليفة له على مجانة، بدلا من والده أحمد المقراني خلال السنوات الأولى للاحتلال أي خلال الفترة التي كان فيها الأمير عبد القادر مقاوما. و بما أن الخليفة أحمد المقراني انضم إلى الصف الفرنسي اعتبارا من عام 1838م، فهذا يعني أن الأمير عبد القادر كان بالضرورة عدوا و خصما للخليفة أحمد المقراني، بل و لعائلته برمتها [1]. و حاول هؤلاء الكتاب أيضا الربط بين موقف الأمير عبد القادر الرافض لحركة ابنه و خلافه مع الثوار المقرانيين، ذلك أن حركة محي الدين كانت قد انطلقت في خضم الاستعدادات و التحضيرات لثورة المقراني عام 1871م التي عرفتها منطقة الحدود الشرقية للجزائر، حيث حاول محي الدين استنفار صبايحية زمالات الحدود الشرقية و ثوار أولاد خليفة، و ذلك بالتعاون مع عائلة الرزقي الحناشية [2]. فبهذه الاستنتاجات و المقاربات برر « رين » و غيره من الكتاب الفرنسيين رفض المقرانيين التعاون مع محي الدين، كما برروا موقف الأمير عبد القادر من حركة ابنه.

(1) L.Rinn : op.cit, pp 106-109.

(2) يحي بوعزيز : « وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر و الدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 » مجلة الثقافة ، وزارة الإعلام و الثقافة، الجزائر العدد 39، عام 1977، ص ص 11، 12.

و هي استنتاجات تنطوي على كثير من القصور لأن الأمير عبد القادر كان متعاطفا مع الثوار المقرانيين و لم يقم الدليل على أنه كان معاديا لهم لاسيما بعد ضمور ثورتهم و هجرة عدد كبير منهم إلى البلاد التونسية، حيث راسل المسؤولين التونسيين الكبار و استوصاهم خيرا بهم كالرسالة التي بعثها إلى الوزير التونسي خير الدين في 1872/06/08م.[1] و كذلك الرسالة التي بعثها في تلك الأثناء إلى الوزير التونسي رستم طالبا منه تقديم يد العون للمقرانيين و «... المساعدة فيما يعرض لهم من الأمور... »، [2] كما كتب رسالة أخرى إلى الوزير خزندار في 1872/07/02م ملتمسا منه «... الاعتناء بالفئة المقرانية و أولاد يللس... أو توجيههم جميعا إلى الديار الدمشقية... ».[3]

أما عن أسباب موقف الأمير عبد القادر الغريب من حركة إبنه، فالراجح أنه كان ناتجا عن قناعة دينية و التزام أخلاقي أساسه الوفاء بالعهد الذي يقطعه المسلم على نفسه، و الذي قطعه هو مع أعدائه الفرنسيين إثر استسلامه عام 1847م، خاصة و أنه كان كثير الكلام عن مسألة الوفاء بالعهد في مختلف تصرفاته، فقد حدث وزير الحربية الفرنسي عام 1839م قائلا له « إن ديني يحضرني من نقض عهودي » [4]. كما تحدث أيضا في موضع آخر عن هذه المسألة قائلا: « و أما أصحاب الدين الطالبون للآخرة القاصدون رضى الله فلا يخالفون شيئا عاهدوا عليه أو وعدوا به أو ائتمنوا عليه » [5].

لقد اتضح لنا من خلال ما تقدم أن سكان مقاطعة قسنطينة تصدوا للغزو الاستعماري الفرنسي بقوة انطلاقا من الثورات الشعبية التي قادها ثائرون و مقاومون آمنوا بمبدأ الدفاع عن هذا الوطن الذي أغتصب ظلما و عدوانا من قبل الفرنسيين اعتبارا من عام 1830م. و ثورتهم في الحقيقة هي ثورة واحدة مستمرة تثور في منطقة، و عندما تصاب بالوهن تشتعل في منطقة أخرى لأن هدفها كان هدفا وطنيا واحدا و هو الفكاك من المستعمر الفرنسي. و قد تمكن هؤلاء الثوار من إرباك السلطات الاستعمارية الفرنسية، و نظامها الاستعماري الذي كان هشا.

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 229: رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير التونسي خير الدين بتاريخ غرة ربيع الثاني 1289 هـ ، وثيقة رقم 65.

[2] المصدر نفسه: رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير التونسي رستم ، وثيقة رقم 66.

[3] المصدر نفسه : رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير خزندار في 25 ربيع الثانية 1289 هـ ، وثيقة رقم 64.

[4] Charles H. Churchill : op.cit, p 195

[5] الأمير عبد القادر الجزائري: المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل و الإلحاد، دار الطاسيلي للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى، الجزائر، 1989، ص 228.

غير أن هذه الثورات كانت قد أجهضت و كان مآلها الفشل، و كان مصير العديد من قادتها و المتعاطفين معها بائسا، حيث تمت تصفيتهم بطرق انتقامية و بربرية، كما لاقى السكان المتعاطفون معها شتى أنواع الجور و المظالم و سلطت عليهم أبشع أنواع المغارم، و نالهم من الخطب و ضروب الهوان ما لا يمكن وصفه.

و الأصل أن الفرنسيين لم يكن في مقدورهم القضاء على هذه الثورات، و تصفيتها بتلك الصور المشينة لو لم يرتكزوا على رؤساء العائلات الكبرى لأن هؤلاء هم الذين كانوا يحاربون الثوار نيابة عنهم بحكم معرفتهم لطبيعة السكان و جغرافية المنطقة، و هي منطقة معروفة بوعورة تضاريسها و تعقيداتها المختلفة، و بالتالي فإن المصاعب التي واجهها هؤلاء الثوار و السكان بصفة عامة حينئذ لا تكمن في العدو الخارجي المتمثل في الجيش الفرنسي فحسب، و لكن أيضا في هذه العائلات التي وظفها المستعمر الفرنسي في السيطرة على مفاصل الجزائر، و تصدى بواسطتها بقوة لهذه الثورات.

و لأن هذه العائلات كانت تمثل نخبة المجتمع، كان يفترض منها أن تتبنى طموحات هذا المجتمع و أفكاره و مشاريعه التي تنصرف إلى مقارعة الاستعمار الفرنسي و الذود عن حياض هذا الوطن، غير أن هذه العائلات قلبت ظهر المجن لمجتمعها و تخلت عن دورها الريادي الحقيقي المفترض و راحت تتعاون مع المستعمر منذ البدايات الأولى للاستعمار. و بدلا من أن تكون الصخرة التي تتحطم عليها المشاريع الاستعمارية، كانت الأداة التي تسوغ السياسة الكولونيالية و تحارب القوى الوطنية، و تتصدى بشراسة للثورات الشعبية، و كل من يقف ضد إرادة المستعمر و سياسته الخرقاء في الجزائر.

الفصل الخامس : سياسة الإدارة الاستعمارية تجاه العائلات الكبرى و ردود أفعالها

I- سياسة الإدارة الاستعمارية تجاه العائلات الكبرى

1- سياسة فرق تسد

2- التضييق المستمر على العائلات الكبرى.

أ- تقليص و تقزيم سلطة العائلات الكبرى و تجزئة قياداتها.

ب- مضايقة العائلات الكبرى ضريبيا

ج- إتهام رؤساء العائلات الكبرى بالتقصير في أداء المهام الموكلة لهم.

د- تجريد العائلات الكبرى من الامتيازات الممنوحة لهم

هـ- إصدار القانون المشيخي le Senatus Consulte في 1863/04/22م.

II- مقاومة العائلات الكبرى للإدارة الاستعمارية

1- مقاومة عائلة أولاد عز الدين.

2- ثورة عائلة ابن جلاب

أ- مواجهة الفرنسيين و أعوانهم بالاعتماد على الجهود الخاصة.

ب- تنسيق الجهود و التعاون مع بعض الثائرين الجزائريين

أولا- التنسيق و التعاون مع ثائر ورقلة الشريف محمد بن عبد الله.

ثانيا- التنسيق و التعاون مع الثائر الناصر بن شهرة.

ثالثا- التنسيق و التعاون مع الثائر بوشوشة.

رابعا- التنسيق و التعاون مع محي الدين نجل الأمير عبد القادر.

3- ثورة الزواغة و فرجيوة عام 1864م و إرتماء عائلة بوعكاز بن عاشور فيها.

4- ثورة عائلة الرزقي

5- ثورة المقراني عام 1871م

1. عوامل قيامها

أولا: العوامل الداخلية

ثانيا- العوامل الخارجية.

ب- اندلاع الثورة

الفصل الخامس : سياسة الإدارة الاستعمارية تجاه العائلات الكبرى و ردود أفعالها

في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر عملت الإدارة الاستعمارية الفرنسية كما عرفنا على استمالة العائلات الكبرى لإحكام سيطرتها على المنطقة، و اعترفت لهذه العائلات بامتيازات عديدة، و منحت رؤساءها ألقابا و أثقلت صدورهم بالأوسمة و النياشين. و تبعا لذلك خدموا الإدارة الفرنسية بإخلاص، بل و تفانوا في خدمتها، حيث مكنوها من بسط نفوذها و تحطيم الكثير من الثورات. و بعد أن ركزت الإدارة الفرنسية نفوذها في الجزائر، عملت تدريجيا على تحطيم كبرياء هذه العائلات متخذه في سبيل ذلك عدة أساليب تحقق هذا الغرض، و ذلك تمهيدا للاستغناء عنها و إذابتها ضمن المجتمع الجزائري الذي سلطت عليه سياسة جائرة. و كان من الطبيعي جدا أن تكون لهذه السياسة ردود أفعال من جانب هذه العائلات، و تجسد ذلك في الثورات التي أعلنتها معظم هذه العائلات في وجه الإدارة الفرنسية. فما هي السياسة التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية تجاه هذه العائلات؟ و ما هي أبرز معالمها؟ و ما هي العائلات التي ثارت في وجه المحتل؟ و هل ثمة علاقة سببية حقيقية بين ثورات هذه العائلات و السياسة الاستعمارية المنتهجة ضدهم؟ أم أن ثوراتهم كانت ذات خلفيات و أسباب أخرى؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في ثنايا هذا الفصل حيث سنفتتح الكلام عن سياسة الفرنسيين تجاه هذه العائلات و بعد ذلك نعرض لثوراتهم.

II- سياسة الإدارة الاستعمارية تجاه العائلات الكبرى

شجعت الإدارة الاستعمارية الفرنسية العداوة بين هذه العائلات، و ذلك انطلاقا من سياسة « فرق تسد »، و بالموازاة مع ذلك عملت على التضييق المستمر عليها انطلاقا من عدة إجراءات عملية كالتقليص من نفوذهم، و تجريدهم من الامتيازات التي منحت لهم، و التشكيك في موالاتهم و إخلاصهم لهم، و اتهامهم بالتقصير في أداء المهام الموكلة لهم و نحو ذلك. و في مايلي نعرض إلى كل هذه المسائل.

1- سياسة فرق تسد

اشتهر الفرنسيون بسياسة فرق تسد التي يسمونها سياسة الصفوف « **Cofs** » و التي ترتكز على إثارة النعرات و الفتن الداخلية بين القبائل و الطرق الصوفية و العائلات الكبرى.

و قد شجعوا هذه السياسة بين العائلات بهدف تدجينها و الاستفادة من خدماتها في مشروعهم الاستعماري، لأنهم أدركوا حقيقة مؤداها أن التنافس الذي تفرزه هذه السياسة بين هذه العائلات هو الذي يسهل و يسوغ الوجود الاستعماري في الجزائر.[1] و هم بذلك يكونون قد قلدوا العثمانيين في هذه السياسة الخرقاء.

و من الأمثلة البارزة على هذا التنافس، ما كان بين عائلة بوعكاز الذواودة و عائلة ابن قانة في الجنوب القسنطيني. و قد رأينا فيما مضى أن العائلة الأولى كانت تتولى مشيخة العرب في العهد العثماني، و عندما وصل الحاج أحمد باي إلى دفة حكم البايلك القسنطيني عام 1826م منح هذا المنصب إلى أخواله من عائلة ابن قانة. و تسبب هذا الإجراء في تشنج العلاقة بين العائلتين، و اندلاع صراع حميم بينهما استغله الفرنسيون لصالحهم. و نعلم أيضا أن عائلة بوعكاز قد أنجبت فرحات بن السعيد الذي قربه الفرنسيون إليهم من عام 1830م إلى عام 1838م، و بالمقابل كانت عائلة ابن قانة حينئذ متحالفة مع الحاج أحمد باي الذي كان يخوض المقاومة ضدهم. و في عام 1838م انفضت عائلة ابن قانة من حول صهرها الحاج أحمد باي، و انضمت إلى الفرنسيين الذين منحوها منصب شيخ العرب. و نكاية فيهم انضم فرحات بن السعيد إلى الأمير عبد القادر، و بقي في معسكره إلى أن قضى نحبه عام 1841م.

لم تضمحل مكانة عائلة بوعكاز بوفاة زعيمها فرحات بن السعيد، حيث بقيت كثيرا من قبائل المنطقة تعتز بانتمائها إلى هذه العائلة، و كان الفرنسيون يؤكدون باستمرار لبوعزيز بن قانة المنتشي بوفاة غريمه فرحات بن السعيد بأنهم يقفون إلى جانبه في صراعه الذي يخوضه ضد عائلة بوعكاز من أجل السيطرة على المنطقة [2]. و في الوقت نفسه كانوا يتصلون بعائلة بوعكاز و يقدمون لها الضمانات نفسها. و بالموازاة مع ذلك كانوا يسلخون قبائل تابعة لقيادة إحدى العائلتين و يمنحوها إلى الأخرى قصد إذكاء نار الفتنة و العداوة بينهما. ففي عام 1850م فكرت القيادة الاستعمارية الفرنسية في سلخ قبائل أولاد زكري من عائلة ابن قانة و ضمها إلى عائلة بوعكاز. غير أن القائد الأعلى لقسمة باتنة تحفظ بشدة عن هذا الإجراء مبررا تحفظه بالمخاطر التي قد تنجم عنه، و المتمثلة في إمكانية تأليب عائلة ابن قانة لهذه القبائل ضد الوجود الفرنسي، مؤكدا أنه رغم وجاهة هذا الإجراء إلا أن ظروف تنفيذه لم تحن بعد، لأنه كان يرى أن الوقت المناسب لتفيذه يكون عندما تصبح هذه العائلة ضعيفة و غير قادرة على فرض الأمن و الاستقرار بالمنطقة، و عند ذلك يصبح ضعفها مسوغا لمباشرة هذا الإجراء [3]

[1] A. Vaissière : op.cit, p 19.
[2] A.O.M : 10H18 : Résumé de L'historique du Cercle de Biskra, Année 1846.
[3] A.O.M : 10 KK 30 : Rapport du Commandant Supérieur du Cercle de Batna à M^r le Commandant supérieur de la province de Constantine le 12/08/1849

و كان من الطبيعي جدا أن تؤتي هذه السياسة أكلها، و تلقي بظلالها على علاقة العائلتين. و تبعا لذلك أشتد الصراع بينهما على مناطق النفوذ، و انتهجوا في سبيل ذلك كل السبل الملتوية من أجل كسب ود الإدارة الاستعمارية الفرنسية، و العمل على إبراز مساوئ بعضهما البعض أمام الفرنسيين، و محاولة تأليب القبائل على بعضها البعض، و ضد قائدهم أيضا من ذلك مثلا أن عائلة ابن قانة كانت في كثير من المرات تتسبب في إحداث القلاقل و الاضطرابات في قيادة بوعكاز. [1]

و بالمقابل كان علي باي بن فرحات بن السعيد زعيم عائلة بوعكاز كثير التواصل مع قبائل أولاد زكري التابعة لعائلة ابن قانة، و يدعوها إلى الثورة ضد عائلة ابن قانة. و في الوقت نفسه كان يلتمس من القادة الفرنسيين إسنادها إلى قيادته، و يقول لهم أن عائلة ابن قانة عاجزة عن فرض الأمن و الاستقرار على مستوى المناطق التي تحكمها لأنها لم تتمكن من لجم تمرد هذه القبائل. غير أن الفرنسيين كانوا يدركون جيدا ما كان يدور بخلده لأنهم هم الذين صنعوا تفكيره، و كانوا يتصلون بوجهاء عائلة ابن قانة و يقولون لهم أنهم على علم تام بما كان يقوم به علي باي صاحب النية السيئة ضد عائلتهم صاحبة النية الحسنة في تعاملها مع الإدارة الفرنسية، و أنهم اتخذوا كل التدابير اللازمة لمنعه من عدم تجاوز حدود قيادته و اختراق حدود قيادتهم [2].

و في حقيقة الأمر أن أكثر أصحاب النية السيئة هم الفرنسيون الذين كانوا دائما حريصين على استمرار العداء بين العائلتين حتى يضمنون وجودهم في هذه المنطقة، و ما يؤكد سوء نيتهم أيضا أنهم عينوا علي باي بن فرحات بن السعيد قايدا على تقرت و سوف عام 1854م، و هو الإجراء الذي أثار حفيظة عائلة ابن قانة. و قد رأى وجهاؤها أن هذا الإجراء ينطوي على سوء نية من جانب الإدارة الفرنسية لأنه يمثل خصما من كرامة هذه العائلة، و يحد من نفوذ قيادتها و يقلص منه، و بالمقابل يزيد من نفوذ عائلة بوعكاز بالمنطقة. [3]

---

[1] A.Martel : « A Propos du Sahara de Constantine (1830-1880) : Rivalité de cofs et interprétation de documents », in Revue Maghreb et Sahara, Paris, France 1973, pp 279.280.

[2] Bouaziz Bengana : op.cit, pp 110, 111.

[3] A.O.M : 1 KK 27 : Rapport d'Inspection Général des Bureaux Arabes le 04/12/1855.

و في خضم هذا الصراع انشطرت عائلة ابن جلاب بتقرت إلى شطرين متناحرين كذلك : الشطر الأول بقيادة سلمان بن جلاب الذي إنتصر إلى عائلة بوعكاز و المدعم روحيا من قبل الزاوية التيجانية، أما الشطر الثاني فكان بقيادة ابن عمه عبد الرحمان بن جلاب الذي كان يساند عائلة ابن قانة [1]

و عندما اندلعت المواجهة بين عبد الرحمان بن جلاب و ابن عمه سلمان الذي كان يسير في ظل ثائر ورقلة محمد بن عبد الله عام 1851م، سارعت عائلة ابن قانة إلى نجدة عبد الرحمان بن جلاب، و أمدها الشيخ أحمد بن محمد بن قانة بأمر من شيخ العرب بقوة من « القوم » وصل تعدادها إلى 400 عنصر، صنعت نصر الشيخ عبد الرحمان بن جلاب في هذه المعركة [2]

و بهذا يتبين لنا مرة أخرى أن مسألة الولاءات كانت تتحكم فيها الاعتبارات العائلية، لأن سر مؤازرة عائلة ابن قانة لعبد الرحمان بن جلاب تعود بالأساس إلى كون هذا الأخير له صلة قرابة بهذه العائلة عن طريق والدته التي تنحدر منها،[3] و لكن يجب القول أن هذه الاعتبارات تبقى ذات تأثير ثانوي بالمقارنة مع سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية الرامية إلى إحداث شرخ بين هذه القوى الفاعلة حتى تتمكن من « تهدئة » و إحكام قبضتها على تلك المنطقة.

و في 25 يناير من عام 1852م فارق الشيخ عبد الرحمان بن جلاب الحياة،[4] و قيل أنه قتل من قبل ابن عمه سلمان بن جلاب خلال إحدى المعارك التي دارت بينهما في تلك الأثناء متأثرا بجراحه التي ألحقها به.[5]

و هكذا نرى أن الفرنسيين تعاملوا مع هذه العائلات الكبرى حسب مصالحهم و أهوائهم في التسلط و الاستغلال انطلاقا من سياسة « فرق تسد »، فخلقوا نزاعات و خلافات بينهم، بل و بين الإخوة و أبناء العمومة في العائلة الواحدة، كل ذلك كان لتوهين العرى و الروابط القوية التي كانت تربط بين هذه العائلات منذ أزمنة سحيقة لكي يبقواهم دون سواهم أصحاب اليد الطولى في السيادة و السلطة. و بالفعل نجحوا في ذلك و حققوا مبتغاهم لأنه نتج عن هذه الإستراتيجية المقيتة حدوث

---

(1) A.O.M : 2H22 : Mission du lieutenant De Lettre chez les tribus nomades du cheikh-el Arab en 1848.

(2) Bouaziz Bengana : op.cit, p 121.

(3) أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد 5، المرجع السابق، ص 14.

(4) Commandant Seroka : op.cit, p 535.

(5) L.ch. Féraud : « les Ben-djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 30, Année 1886, p 426.

فجوة سحيقة من الجفاء و البغضاء بين هذه العائلات فجرت الحروب بينهم، و أودت بحياة الكثير منهم، و بالمقابل زادت من قوة الفرنسيين الذين سيطروا على مفاصل البلاد.

2- التضييق المستمر على هذه العائلات الكبرى.

يقول الرائد « سيروكا » في مقدمة عمله التاريخي المتعلق بالجنوب القسنطيني (1830-1855): «... إن معرفة تاريخ و عداوة و صداقة و ثأر هذه العائلات في هذه البلاد المغلوبة، تؤهلنا أكثر لإحكام سيطرتنا عليهم، كما أن معرفتنا الدقيقة لتاريخ الجزائر تجنبنا الوقوع في المزالق و الزلات، لأن الحاضر لا يمكن إدراكه و التعبير عنه إلا بمعرفة الماضي... ».[1]

إن المتأمل في قول هذا الضابط الفرنسي العليم بشأن هذه العائلات، يدرك بداهة أن الفرنسيين درسوا و خبروا التفاصيل الدقيقة المتعلقة بهذه العائلات، و درسوا أيضا تاريخ الجزائر، و وظفوا نتائج دراساتهم في خدمة مشروعهم الاستعماري. ففي بداية الاحتلال توسطوا بهذه العائلات في حكم الجزائر، و منحوهم الألقاب و النياشين و المقابل المادي و الاعتبار المعنوي بهدف تثبيت أركان الحكم الكولونيالي في الجزائر، حيث رأى منظروهم أن أحسن وسيلة للتعامل معهم هي إرضاء طموحاتهم، لأن زعماء هذه العائلات كان لهم غرور كبير و اعتزاز بالنفس خارق للعادة، فأدركوا أنه ليس من اللائق إقصاؤهم و عدم الالتفات إليهم، و يتم ذلك بمنحهم وظائف إدارية، لكن بشرط أن تحقق هذه الوظائف المخططات الفرنسية.[2]

إن الإدارة الاستعمارية الفرنسية لم تكن تهدف من وراء هذه العملية إلى تبجيل هذه العائلات كما تدعي، أو إحداث تطور في البنية الاجتماعية لسكان الجزائر، و إنما كان هدفها المركزي هو السيطرة على البلاد و العباد و إجهاض المقاومة الشعبية المسلحة التي كانت في أوجها، بدليل أنهم لما تمكنوا من تثبيت أقدامهم في الجزائر، شرعوا في التخلص منهم بصورة تدريجية و طبقوا أسلوب الإدارة المباشرة بدل الأسلوب غير المباشر الذي يرتكز على خدماتهم.[3]

---

[1] Commandant Seroka : op.cit, p 378

[2] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، الجزء الأول ، المرجع السابق، ص ص 115، 116.

[3] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830 – 1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص 326، 327.

و قد برز ذلك بشكل جلي خاصة خلال الفترة الممتدة من عام 1857م إلى غاية عام 1864م، حيث وجه رؤساء القطاع العسكري القسنطيني خلال هذه الفترة كل مجهوداتهم من أجل تحقيق هذا الغرض. و تمكن الجنرلان « غاستي » « Gastu » و « ديفو » « Desvaux » من تحطيم شوكة وجهاء و قادة هذه العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة. و قد استوحى المسؤولون الفرنسيون الكبار على مستوى هذه المقاطعة سياستهم هذه من توجيهات الحاكم العام في الجزائر الذي كان يوجه لهم تعليمات تصب كلها في هذا الاتجاه. وكان الحاكم العام « بيليسيي » « Pélissier » من أكبر الحكام العامين تحمسا لتطبيق هذه الإستراتيجية لأنه وجه كل جهود ضباط المكاتب العربية التي أنشأها الفرنسيون اعتبارا من عام 1844م ضد رؤساء الأهالي إذ كان يأمرهم بـ « تقليم أظافرهم »، و حرمانهم من الامتيازات التي منحت لهم. [1]

و الواقع أن الفرنسيين لم يطبقوا هذه السياسة دفعة واحدة، بل توخوا الحذر و البطء و التدرج و المرحلية أثناء ذلك حتى يتلافوا ردود أفعالهم المحتملة، كالثورات و الانتفاضات. و عموما يمكن إيجاز أبرز الإجراءات التي اتبعتها الإدارة الفرنسية للحد من مهام و امتيازات هذه العائلات في النقاط الآتية:

أ- تقليص و تقزيم سلطة العائلات الكبرى و تجزئة قياداتها.

عملت الإدارة الاستعمارية الفرنسية على تقليص و تجزئة القيادات التي كانت هذه العائلات تبسط عليها حكمها بطريقة ممنهجة و بطيئة، حيث جزأت الخلافة الواحدة إلى عدة أجزاء، و أشركت عائلات أخرى منافسة لهذه العائلات في حكم هذه القيادات، و هذا من أجل إضعاف نفوذها و خلق جو متوتر داخل هذه القيادات بحثا عن مسوغات التدخل في شؤونها. و كان هدف الفرنسيين من وراء إدخال عناصر من عائلات أخرى « أقل حظوة » ومنحهم السلطة هو منافسة هذه العائلات لأن ولاء هذه العناصر الجديدة يكون بالضرورة للإدارة الفرنسية التي عينتهم، و أنعمت عليهم بهذه المناصب و « رفعت من قيمتهم »، و ليس للعادات و التقاليد العائلية و القبلية. و الغريب في الأمر أن الفرنسيين درجوا على تسمية هذه العملية بـ « الإصلاح الديمقراطي ». و يقولون أن « دمقرطة » حكم هذه العائلات كان مرحلة ضرورية جاءت كوصفة علاجية لنظام حكم « الأرسطوقراطية العربية » الذي تبناه هؤلاء « الأجواد » و الذي تميز بكثير من القصور[2].

[1] Charles-Robert Ageron : op.cit, p 132.

[2] Tayeb Chentouf: op.cit, pp 165, 166. Voir aussi : L.Rinn : Histoire de l'Insurrection de 1871 en Algérie, op.cit, p 37.

و بهذا فإن الفرنسيين حاولوا تطبيق المفاهيم الأوروبية على المجتمع الجزائري، لأن الأرسطوقراطية العربية التي يتحدثون عنها هي التي عرفتها أوروبا في مرحلة الإقطاع، ثم تحولت إلى مرحلة البرجوازية التي سجلت فيها وصول فئات اجتماعية أقل حظوة إلى الحكم، و ترقت و تدرجت في المسؤوليات حتى و وصلت إلى أعلى السلطة. و أخيرا جاءت مرحلة الديمقراطية، حيث أصبحت فيها المناصب تمنح بحسب الكفاءة لا بحسب الوراثة. و مع مرور الوقت استحدثت آلية أخرى للحصول على هذه المناصب تتمثل في الانتخاب بدل التعيين. و من الذين تبنوا هذا الطرح نجد « أوغسطين بيرك » « Augutin Berque » الذي يسمى هذه التحولات « دورة التاريخ العجيبة بالنسبة للنبلاء الجزائريين » [1]

طبقت إذن الإدارة الاستعمارية الفرنسية « عملية تذويب بطيئة » لهذه الارسطوقراطية العربية حتى أنهكتها، و استمرت على هذا النهج، حتى إذا بلغت سبعينات القرن 19م لم يبق منها سوى « الهيكل العظمي »[2]. غير أن الفرنسيين منظري عملية التذويب هذه يقدمون مسوغات أخرى و يقولون أنها هي التي أدت إلى ضمور هذه الارستقراطية العربية، و لا يتكلمون البتة عن سوء نية إدارة بلادهم في التعامل مع هذه الفئة من المجتمع الجزائري، بل راحوا يلتمسون السبب في تقوقع هذه الفئة على نفسها، و يقولون أن هذه الارستقراطية أفل نجمها لأنها لم تقو على التعامل و التأقلم مع التطورات الاقتصادية الجديدة التي واكبت الغزو الفرنسي للجزائر، و هذا رغم المجهودات التي بذلتها الإدارة الفرنسية من أجل تطويرها و الارتقاء بها، إلا أنها كانت دائما تصطدم بسكون و تصلب رأيها « Son immobilisme têtu! »[3]. و يضيفون أن هذه التطورات أدت إلى خلق برجوازية ريفية موازية أدارت ظهرها لهذه الأرستقراطية و لفظت حكم الأجواد التقليدي، و ذكروا أسبابا أخرى أدت إلى هذا الضعف، و هي أسباب مرتبطة إرتباطا مركزيا بهؤلاء الأجواد كميلهم لحياة الفخفخة و البحبوحة و التبذير، و اضطراب المعاملات المالية بسبب عدم مقدرتهم على التأقلم مع الأوضاع المالية الجديدة و نحو ذلك [4].

---

[1] أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد الخامس،المرجع السابق، ص ص 93، 94.

[2] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، 1830. 1900، الجزء الأول ، المرجع السابق، ص ص 327، 328.

[3] Tayeb Chentouf: op.cit, p 165.

[4] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، 1860. 1900، الجزء الأول ، المرجع السابق، ص ، 119.

و عموما فإن الدارسين الفرنسيين لظاهرة الأرستقراطية العربية في الجزائر و على رأسهم « أ.بيرك » يرجعون سبب تدهور أوضاعها إلى عدم مقدرتها على التكيف مع معطيات الحضارة المعاصرة التي جلبتها فرنسا إلى الجزائر ! إلا أنهم قالوا أن ثمة فئة قليلة صنعت الاستثناء و تمكنت من الاندماج مع معطيات الحياة الجديدة، و هي الفئة التي تملصت من تقاليدها الرجعية البالية و تفرنست !(1).

و هو تصور غير صحيح لأن هذه الأفكار النظرية جاءت لكي تبرر السياسة الاستعمارية الجائرة تجاه هذه العائلات ابتداء، ثم تجاه المجتمع الجزائري برمته انتهاء، لأن هدفها المركزي من وراء هذه العملية لا يتوقف عند تحطيم الارستقراطية العربية التي وجدوها و إنما تحطيم القيم التقليدية للمجتمع الجزائري التي تمسك بها منذ أزمة سحيقة، بهدف اختراقه و تفتيته و تذويبه و إحكام السيطرة الاستعمارية عليه.

و بعد هذا التعريف الموجز بهذا الأسلوب الذي انتهجته الإدارة الاستعمارية تجاه هذه العائلات، نحاول الآن أن نسوق أمثلة عملية على سبيل المثال لا الحصر عن عملية تقليص و تجزئة قيادات هذه العائلات.

خلال عامي 1846م و 1847م، باشرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية عملية سلخ عشرة قبائل من قيادة المقراني و ألحقتها بدوائر و قسمات بسكرة، المدية و البويرة. (2) و في عام 1849 تم استحداث دائرة بوسعادة، و ذلك يعني إنتزاع عدة قبائل في الحضنة و الجنوب من قيادة المقراني. (3) و في عام 1853م قام الفرنسيون بتجزئة قبيلة أولاد نايل الخاضعة لقيادة المقراني إلى ثلاثة فروع، و نصبوا على رأس كل فرع قايدا لا ينتمي إلى عائلة المقراني (4).

و بهدف تقزيم سلطة و نفوذ عائلة بوعكاز بن عاشور بفرجيوة، قامت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بتجزئة قيادتها إلى قسمين عام 1861م، و أسندت حكمهما إلى حفيدي الشيخ أحمد بوعكاز و هما سي أحمد خوجة بوعكاز الذي عين على رأس قيادة فرجيوة، و سي أحمد الدراجي بوعكاز الذي عين على رأس قيادة البابور (5)

---

(1) Augustin Berque : Ecrits sur L'Algérie, Réedition edisud, Aix-en provence, France, 1986, p 66.
(2) A.O.M : 44KK5 : Rapport du 18 mars 1847.
(3) L.ch. Féraud : « Histoire des villes de Constantine : Bordj Bouarrerij », op.cit, p 317.
(4) A.O.M : 40 KK9, Rapport du 3 Novenmbre 1854.
(5) A.O.M : 14KK46 : Rapport du Gouverneur Général au Ministre de la Guerre, Expédié d'Alger le 07 Novembre 1861 au sujet du cheik Bouakaz, n° 537.

و هو الإجراء نفسه الذي باشرته مع جارتها عائلة أولاد عز الدين بالزواغة حيث قسمت قيادتها بعد استسلام كبرائها بين الشقيقين محمد و بورنان عام 1849م، و هذا بعد انتزاعها من إبن أختهما بولخراص الذي اتهموه بعدم الكفاءة و قلة الذكاء، و قلة مردود عمله، كما قالوا عنه أيضا أنه كان ثقيل الظل مع « السكان الجبليين الشبه متوحشين » الذين كان يحكمهم ! [1]

أما في الجنوب القسنطيني، فقد قامت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بانتزاع عدة قبائل مثل قبائل أولاد دراج، أولاد زيان، بني سويق، بني فراج، أولاد سحنون، البرانيس و الصحاري من عائلة ابن قانة عام 1845م، و أسندت إدارتها إلى المرابط سي مقران ذي النفوذ الديني و الأدبي بالمنطقة.[2] و في عام 1850م أعيد تنظيم دائرة بسكرة بشكل يحقق المصلحة الفرنسية و يضعف سلطة هذه العائلة حيث عين عدة قياد على رأس بعض القبائل لا ينتمون إلى هذه العائلة.[3]

و لم تستثن عائلة بوعكاز الذواودة من هذه الإجراءات أيضا، حيث فصلت عن قيادتها دائرة ورقلة خلال السنوات الأولى و التي كانت تابعة لحكم القايد علي باي نجل فرحات بن السعيد الذوادي، و تم إلحاقها بقسمة الجزائر العاصمة. [4] و في إطار التحوير الإداري الذي طرأ على دائرة سوف التابعة لقيادة بن جلاب تم إلحاق كل قرى هذه الدائرة بقيادة سي أحمد باي بن شنوف ما عدا قرى أولاد مسعود التي احتفظت بتبعيتها لقيادة بن جلاب [5]

و عموما يمكن القول أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية انتهجت هذه السياسة الخرقاء ضد هذه العائلات التي تعاونت معها في البداية من أجل إضعافها و توجيه اهتماماتها صوب الصراع مع العناصر الجديدة التي أصبحت تنافسها في الحكم حتى يخلو لها السبيل لتثبيت ركائزها و إنجاح مشروعها الاستعماري.

(1) L.ch. Féraud : Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine, op.cit, p 325.
(2) Bouaziz Bengana : op.cit, p 103.
(3) A.O.M : F80.441 : Cercle de Biskra : Rapport du Ministre de la guerre à Paris à Mr le Gouverneur Général d'Algérie à Alger le 10 Aout 1850.
(4) L.Rinn : « Nos Frontières Sahariennes : la défence de nos Frontières Sahariènnes à l'Est du Djebel Ammour », op.cit, p 177.
(5) L.ch. Féraud : « Les Ben-djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 26, Année 1882, p 111.

ب- مضايقة العائلات الكبرى ضريبيا

كان رؤساء الأهالي يحتفظون بثلث الضريبة التي كانوا يقومون بجبايتها من السكان المنضوين تحت لواء قياداتهم، و يسلمون الثلثين الباقيين إلى الخزينة الفرنسية كما نص على ذلك مرسوم الماريشال فالي عام 1838م، غير أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية سرعان ما تراجعت عن ذلك. و قال قادتها أن هذه النسبة يجب أن يعاد النظر فيها، و عليه تم تخفيض نصيب الرئيس الأهلي إلى عشر الضريبة.[1] و في عام 1854م طال هذا الإجراء عائلة المقراني، و حرم المقرانيون أيضا من مداخيل أخرى[2]. و أدعى القادة الفرنسيون أن تجزئة الضريبة بهذا الشكل ينطوي على كثير من الصعوبات، فأعطوا الأوامر بتوقيفها مؤقتا، و باشروا هذا الإجراء مع عائلة ابن قانة عام 1855م.[3]

و من صور المضايقات الضريبية الأخرى التي طالت الرؤساء الأهليين أيضا ما تعرضت له عائلة المقراني عام 1858م، حينما أصدرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في 1858/02/06م قرارا يقضي بفرض ضريبة الزكاة على هذه العائلة بعدما كانت غير مشمولة بها سابقا [4].

و الثابت أن قيمة الضريبة التي يتحصل عليها الرئيس الأهلي كانت تتقلص بتقلص عدد القبائل التي كان يحكمها. و في هذا المضمار فقدت عائلة ابن قانة ستة أعشار من قيمة الضريبة التي كانت تتقاضاها حيث تم توزيعها على سي أحمد باي بن شنوف و أحمد بن بوعبد الله، اللذين أسندت لهما قيادة الزاب الشرقي[5]. و لم تتوقف الإدارة الاستعمارية الفرنسية عند حد هذه المضايقات المالية، بل تجاوزته كثيرا و أنزلت الرؤساء الأهليين منزلة الموظفين العاديين، و خصصت لبعضهم راتبا شهريا، و طال هذا الإجراء وجهاء عائلة المقراني و على رأسهم الباشاغا محمد المقراني الذي خصص له راتبا سنويا قدر بـ 10.000,00 فرنك فرنسي. [6] و بهذه الطريقة تكون الإدارة الاستعمارية الفرنسية قد أنهكت كاهل هذه العائلات الكبرى بواسطة هذه الإجراءات المالية القاسية مما أثر بشكل سلبي على وضعها المادي و المعنوي.

---

(1) A.O.M : 10KK32 : Rapport du 16 mars 1857.
(2) A.O.M : 40KK60 : Rapport du 21 Décembre 1854, n° 180.
(3) A.O.M : 10KK32 : Rapport du 10 Fevrier 1855, n° 16.
(4) L.Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, op.cit, p 34.
(5) A.O.M : 1KK3 : Rapport du 19 Janvier 1845, n° 3.
(6) A.O.M : 40KK9 : Rapport du 3 Novembre 1845, n° 183.

ج- اتهام رؤساء العائلات الكبرى بالتقصير في أداء المهام الموكلة لهم.

باشر القادة الفرنسيون حملة شرسة من الاتهامات ضد رؤساء هذه العائلات، و اتهموهم بتهم خطيرة، بحثا عن مسوغات تحطيمهم و التخلي عن خدماتهم، من ذلك مثلا أن رئيس القطاع العسكري القسنطيني اتهم صراحة القايد بورنان بن عز الدين زعيم عائلة أولاد عز الدين بالتقصير في أداء المهام التي كلف بها في مجال حفظ الأمن و النظام العام على مستوى قيادته عام 1858م لأنه لم يتخذ كل الإجراءات الضرورية لمنع وقوع الاضطرابات و القلاقل على مستوى قيادته. [1] كما اتهم القايد محمد الصالح الرزقي زعيم عائلة الرزقي بتحريض قبيلة أولاد مسعود المقيمة على الحدود الشمالية الشرقية للجزائر بالإغارة على قبيلة وشتاتة التونسية. و تبعا لذلك تلقى هذا القايد توبيخا من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية، و هذا بعد احتجاج كاهية الكاف بتونس على ذلك.[2] كما أتهم القايد أحمد الصالح الرزقي من عائلة الرزقي أيضا بالخيانة عندما رفض الدخول في مواجهة مع أولاد سديرة المقيمين على الحدود الجزائرية التونسية إثر مشاركته في القوة التي استنفرها رئيس المكتب العربي لسوق أهراس الضابط « بان لاكروا » « Pan-lacroix » و التي توجه بها إليهم لتأديبهم بسبب عدم التزامهم بدفع الضريبة الملقاة على كاهلهم عام 1857م [3].

و اتهم الفرنسيون كذلك الخليفة أحمد المقراني عام 1847م، بتقصيره، و عدم اهتمامه بقبائل منطقة الونوغة. [4] و قالوا أيضا أنه معتد بآرائه و ينفرد باتخاذ القرارات المصيرية دون أخذ رأي مسؤوليه المباشرين. [5] كما اتهموه أيضا بالتواطؤ مع الثائر بوبغلة عام 1851م[6]، و لما توفي عام 1853م قاموا بإلغاء منصبه و قلصوه إلى منصب الباشاغا [7]. و هو منصب أقل قيمة من منصب الخليفة.

---

(1) I.S.H.M.N.T : A.O.M : Série Tunisie 25H, Carton 25H 16 (2), Bobine A 22 : Dossier n° 2 : Rapport du Général de division, Commandant de la province à son Altesse impériale le prince Chargé du Ministère de l'Algérie et ses Colonies, le 25/10/1858, Folios 240, 241.

(2) I.S.H.M.N.T : A.O.M : Série 25 H, Carton 25 H 10 Dossier n° 1, Bobine A11 : Traduction : Extrait de la Lettre du kahia du kef au Bey en date du 4 Radjab 1268H (date Correspondante au 26/04/1862), Folio 24.

(3) A.O.M : 6 H 1, Rapport du Général Périgot de la Subdivision de Bône à Mr le Général de division de Constantine le 07/09/1857.

(4) A.O.M : 40KK5 : Rapport 18/03/1847, n° 726.

(5) A.O.M : F80. 493 : Rapport de Setif de la 1ére Quizaine du Janvier 1846.

(6) Ernest Mercier : le Bachagha Mokrani et les Causes de L'Insurrection Indigène de 1871, op.cit, p 15.

(7) Tahar Oussedik : Mouvement insurrectionnel de 1871, Impression ANEP, Rouiba, Alger, Algerie 1984, p 30.

و بعد ما عينوا نجله محمد المقراني في منصب الباشاغا جردوه من صلاحية اختيار شيوخ القبائل و إقتراح المترشحين لمنصب القايد و أسندوها لضباط المكاتب العربية. [1]

و عندما اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864م أتهم الباشاغا محمد المقراني بتأييدها من خلال تبادل الرسائل مع قادتها، و قال « مرسيي » لو لا كبرياؤه لانضم إليها ! [2] كما أتهم أيضا بتأييده لثورة سكان الزواغة و فرجيوة في مارس 1864م، و زعيمها أحمد بوعكاز، لذلك وجه له الجنرال « ديفو » توبيخا شديد اللهجة. [3]

أما عائلة بوعكاز بن عاشرو بفرجيوة، فقد اتهم شيخها أحمد بوعكاز أيضا بذات التهم التي وجهت إلى زعماء العائلات الأخرى منها تجاوز الصلاحيات الموكلة له و إقدامه على تعيين و عزل شيوخ بني فوغال و عزلهم دون أخذ رأي الإدارة الفرنسية، [4] و أتهم أيضا بتأييده لثورات البابور التي عصفت بالمنطقة خلال خمسينات القرن 19م. [5]

و لم تسلم عائلتا ابن قانة و بوعكاز الذواودة كذلك من هذه التهم رغم تأييدهما المطلق للسياسة الاستعمارية. ففي نهاية عام 1846م احترق الثائر بومعزة المجال الجغرافي لأولاد نايل، و على إثر ذلك اتهم الفرنسيون شيخ العرب بعدم تنفيذ أوامر السلطة الفرنسية القاضية بمحاربته [6]. و عندما اندلعت ثورة سكان واحة الزعاطشة عام 1849م، قال الفرنسيون أن عائلة ابن قانة كانت غائبة تماما عن مسرح الأحداث و لم تساند الفرنسيين في محاربتهم لثوار هذه الواحة، [7] و أنها لم تلجم القبائل البدوية التابعة لقيادتها من الارتماء في هذه الثورة [8]. و بالموازاة مع ذلك أوصى أحد ضباط المكاتب العربية بالجنوب القسنطيني بالعمل على إبعاد عائلة بوعكاز الذواودة من هذه الجهة بسبب إزعاجها المستمر للفرنسيين. [9]

(1) A.O.M : 40 KK9 : Rapport du 05 Novembre 1853, n° 180.
(2) E.Mercier : op.cit, p 16.
(3) L.Rinn : op.cit, p 38
(4) A.O.M : F80. 504, cercle de Djedjeli : Rapport du mois de juillet 1855.
(5) A.O.M : 6H 34 : Rapport du Gouverneur Général au Ministre de la guerre, Expédié d'Alger le 17/05/1856.
(6) A.O.M : F80. 493, cercle de Biskra : Rapport de la 2éme quinzaine de Décembre 1846
(7) A.O.M : 2H 25 : Rapport du 21/05/1849
(8) A.O.M : 10H 18 : Historique du cercle de Biskra pendant l'année 1850, rédigé par le capitaine Boudville.
(9) A.O.M : 10H 30 : Rapport du 4 Janvier 1852, n° 5.

تبين لنا هذه الأمثلة أن الفرنسيين عملوا كل ما في وسعهم من أجل التضييق على هذه العائلات و محاولة إذلال قادتها، و هي سياسة درجت عليها إدارة بلادهم بغية تحطيمهم و التخلي عن خدماتهم.

د- تجريد العائلات الكبرى من الامتيازات الممنوحة لهم

اكتسبت العائلات الكبرى منذ أزمنة بعيدة عدة امتيازات معترف بها من قبل جميع القبائل المنضوية تحت سلطتها، و بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر أبقت الإدارة الاستعمارية عليها. و من أشهر هذه الامتيازات امتياز الحق في استعمال السخرة لتنفيذ بعض الأشغال الكبرى الخاصة بهذه العائلات. و في إطار التضييق على هذه العائلات، أصدرت الإدارة الاستعمارية قرارا يقضي بإلغاء هذا الامتياز. و قد طبق هذا الإجراء على عائلة المقراني عام 1863م حينما ألزم الباشاغا محمد المقراني بالتخلي عن نظام « التويزة »، و هو النظام الذي كان معمولا به منذ زمن بعيد، حيث يقوم السكان التابعون لقيادته بخدمة هذه العائلة في مناسبات عديدة، يمارسون فيها عدة أشغال مختلفة كالحرث و الحصاد و النقل و أشغال البناء و الري و نحو ذلك. و قد امتعض الباشاغا محمد المقراني من هذا الإجراء كثيرا و قال للفرنسيين: « نحن نلتزم بهذا الأمر، و نمتثل إلى كل ما يطلب منا، و مع ذلك فإن حسرتنا كبيرة لأن ذلك ينطوي على كثير من الاحتقار » [1]

هـ- إصدار القانون المشيخي le Senatus Consulte في 1863/04/22م.

اعتبر « السيناتوس كونسولت » أن الأرض المشاعة التي تستغلها القبائل في الجزائر بصفة مستمرة منذ أمد طويل ملك قار و رسمي لها.[2] و إذا كان هذا القانون كما يبدو في ظاهره لا يزيد عن كونه قانونا عقاريا صرفا، فإن المتأمل في باطنه يدرك أيضا أنه قانون إداري لأنه كان يهدف أيضا إلى القضاء على القبيلة و العرش من خلال تنصيصه على إنشاء الدوار و البلدية، و هذا يعني بداهة أنه كان يستهدف سلطة الأجواد[3]. حيث أصبحت هذه الوحدات المستحدثة تباشر مهام تحصيل المجابي و العدالة و السلطة الإدارية، بعدما كانت هذه المهام من المشمولات المركزية لهؤلاء الأجواد. [4]

و في سياق هذا القانون أنشأ الفرنسيون « مجلس الجماعة » و حددت مهمته المركزية في مراقبة و مساعدة رؤساء البلديات أثناء معالجتهم للمسائل المتعلقة بالشأن العام.

(1) L.Rinn : op.cit, p 37.

(2) M.Pouyanne : La Propriété Foncière en Algérie, Thèse de doctorat librairie de jurisprudence ancienne et moderne, Paris, France, 1895. p 217.

(3) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 119.

(4) Charles-Robert Ageron : op.cit , p 132.

وقد أدى ذلك إلى استياء الباشاغاوات الذين أحسوا بأنهم موظفون فاقدون لكل الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في وقت سابق [1]، و لاحظ الفرنسيون هذا الاستياء بالأساس لدى عائلة المقراني التي صارت تخشى تطبيق أحكام هذا القانون [2].

هذه هي إذن أهم الإجراءات التي باشرتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية للحد من صلاحيات العائلات الكبرى و لجم طموحاتها. و يمكن أن نضيف إليها أسلوبا آخر يعد أكثر الأساليب وحشية تمت الإشارة إليه في غير هذا الموضع، يتمثل في القتل و التصفية الجسدية لكل زعيم أهلي يشكون في ولائه. و قد رأينا فيما مضى أن ثمة زعماء أهليين قتلوا في ظروف غامضة، و ادعت الإدارة الاستعمارية الفرنسية أنهم قتلوا من قبل أفراد أسرهم الذين دسوا لهم السم ! مثل لخضر المقراني أحد قادة عائلة المقراني، و عبد الرحمان بن جلاب أحد زعماء عائلة ابن جلاب، و محمد بن عز الدين زعيم عائلة أولاد عز الدين.

و الواقع أن هذه السياسة المنتهجة ضد العائلات الكبرى، كانت لها تداعيات سلبية على الفرنسيين بالجزائر الذين أدركوا أن ثمة علاقة سببية بينها و بين الثورات التي عصفت بالجزائر عام 1864م و التي ضعضعت الوجود الفرنسي بالجزائر، و قال ساستهم أن هذه الثورات كانت نتيجة لقصور واضح في السياسة الفرنسية بهذا البلد المناهضة للأجواد و المبالغة في فرض المجابي على السكان.[3]

و على هذا الأساس رأت القيادة الفرنسية أنه من غير الملائم التخلي عن خدمات هؤلاء الأجواد، و نتيجة لهذا التوجه الجديد في السياسة الفرنسية جاءت رسالة نابليون الثالث التي وجهها إلى الحاكم العام بالجزائر ماكماهون في 1865/06/25م، و التي تدين بشكل صريح سياسة تنزيل العائلات الكبرى بالجزائر، حيث ورد فيها : «... لقد مسسنا بالشوكة الأدبية للعائلات الكبرى، و مسسنا كذلك برفعتها و سمعتها التي رفعتها الأيام ... لا بد من لجم تجاوزات المكاتب العربية، و أنه من الواجب أن ترسل رسائل القادة الأهليين إلى القيادة العليا دون وساطتهم ... و من الواجب كذلك احترام كرامتهم التي تحصلوا عليها من نبل مولدهم و الوظائف التي يباشرونها... لن نسمح اعتبارا من اليوم لشاب حديث الانخراط في العسكرية بإصدار الأوامر لشيخ بلغ من الكبر عتيا و ابيضت لحيته في خدمة قضيتنا... » [4].

---

[1] Mouloud Gaid : Mokrani, op.cit, p 74.

[2] L.Rinn : op.cit, p 60.

[3] Charles–Robert Ageron : l'Algérie Algérienne de Napoléon III à De Gaulle, op.cit, p 70.

[4] Charles–Robert Ageron : les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome premier op.cit, pp 133.

و الأصل أن هذا التوجه الجديد في السياسة الفرنسية لا يمكن فصله عن النوع الغريب الذي تفتقت به ذهنية الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث الموسومة بـ « المملكة العربية ». و يقول ماكماهون في مذكراته أن الإمبراطور كان يروم من وراء هذه السياسة تقليد السياسة التي كانت متبعة في روسيا و الهند، حيث عمد قيصر روسيا إلى جلب الأعيان الذين ثاروا ضده إلى « سان بترسبورغ » و أغدق عليهم بالهدايا و المناصب. و كذلك فعل الانجليز مع بعض العائلات المتنفذة، حيث قاموا بشراء ذممهم، و بهذه الطريقة تلا فى الروس و الانجليز شرهم و هجروا فكرة الثورة [1].

و لتوضيح هذه السياسة زار الإمبراطور الجزائر عام 1863م، وقال مقولته الشهيرة « إنني لست إمبراطور الفرنسيين، بل أنا إمبراطور العرب أيضا ».[2] و في عام 1865م زارها للمرة الثانية، و دامت إقامته فيها أكثر من شهر حيث امتدت من 03 من ماي إلى 07 من جوان 1865م. و بعد نهايتها كتب رسالة إلى الحاكم العام ماكماهون قال له فيها « إن الجزائر ليست مستعمرة أوروبية، أو معسكرا فرنسي، بل هي مملكة عربية ». [3]

و كان الإمبراطور خلال هذه الزيارة الثانية المطولة قد زار أغلب جهات الوطن، و التقى بعدد غير قليل من الشخصيات الأهلية الجزائرية و دعاهم إلى الانخراط في كنف الأمة الفرنسية القوية و المقتدرة مدعما خطاباته بآيات بينات من القرآن الكريم ! [4] و بالموازاة مع ذلك وطد علاقاته بزعماء العائلات الكبرى و منهم الباشاغا محمد المقراني الذي كان يدعوه إلى حضور الحفلات التي كان يقيمها في قصر « كومبين » « Compiène ».[5] كما كان يدعوه رفقة شخصيات أهلية أخرى مثل محمد الصغير بن قانة، و الحاج أحمد بوعكاز بن عاشور رفقة إثنين من أقاربه، و أيضا الأمير عبد القادر و نجليه محمد و محي الدين إلى حضور المعرض الدولي الذي كان يقام سنويا بفرنسا، و الذي شرع العمل به اعتبارا من خمسينات القرن 19م، و كانت تعرض فيه المنتجات الجزائرية بهدف التعريف بها.[6]

(1) الماريشال ماكماهون: المصدر السابق، ص 211

(2) Ernest Mercier : Histoire de Constantine, op.cit, p 604.
(3) Charles-André Julien : op.cit, p 432.
(4) Ernest Mercier : op.cit, p 618.
(5) Annie Rey-Goldzeiguer : op.cit, p 183.

(6) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860–1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص 74، 75.

و مهما يكن من أمر، فإن اعتماد الإمبراطور نابليون الثالث في سياسته على أريحية الجزائريين في التطوير أو سياسته العربية لا يجب أن يفهم منها على أنه كان يروم فعلا تطوير الجزائر و النظر بعين الرأفة إلى هؤلاء الأجواد الذين طالتهم مطارق الإدارة الفرنسية لأنه لم يكن يستهدف سوى خدمة بلده من خلال دعوة الجزائريين بالركون إلى الدعة و الاستسلام، و قبول السيطرة الفرنسية و القانون المشيخي الذي حطم نظام القبيلة و العرش، هذا النظام الذي شكل الإطار الاجتماعي و الثقافي للمجتمع الجزائري منذ أزمنة سحيقة، و كان بمثابة الصخرة التي تحطمت عندها مشاريع المسخ الحضاري.

لقد جاء الفرنسيون بالقانون المشيخي الذي ابتلع سلطة الأجواد و همشهم و جردهم من صلاحياتهم. و عليه يمكن القول أن نابليون الثالث حاول أن يغالط الجزائريين و بالأساس أعيانهم من فئة الأجواد حتى يغير الصورة النمطية التي اتسمت بها إدارة بلاده في الجزائر، و التي ارتبطت في المخيال الجزائري بالظلم و الاستبداد. و على هذا الأساس فإن سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائريين عامة و العائلات الكبرى خاصة لا يمكن فصلها عن السياسة الفرنسية الخرقاء تجاه الجزائر. فعندما كان الفرنسيون في حاجة ماسة إلى تعاون هذه العائلات في المرحلة الأولى من الاحتلال اعترفوا لهم بالريادة و القيادة، و منحوهم قيادات و امتيازات استثنائية، و صرفوا النظر عن كونهم حاربوهم في بداية الاحتلال، غير أنهم بمجرد أن تمكنوا من « تهدئة » الأوضاع و حققوا « السلم » قزموا سلطاتهم و لفظوهم، فثار بعضهم معلنا النفير، و مفجرا الثورة، ذلك كله هو موضوع الجزء الموالي من هذا الفصل.

II– مقاومة العائلات الكبرى للإدارة الاستعمارية

يقول الضابط الفرنسي « رين » أن مسؤولي بلاده عندما وطدوا علاقاتهم بهذه العائلات كانوا يرومون السيطرة على البلاد، و أن رؤساء هذه العائلات قد جيء بهم كخدم لترجمة إرادة الإدارة الفرنسية و تنفيذ أوامرها ليس إلا، غير أنهم لم يستطيعوا هضم هذه الحقيقة و القبول بها و راحوا يطالبون بحقوق ليس من حقهم الحصول عليها. [1] و الحق أن كلام هذا الضابط فيه جانب كبير من الصواب، إلا أنه أهمل الكلام عن الامتيازات التي منحتها إدارة بلاده لهؤلاء الرؤساء الأهليين في بداية الاحتلال و التي تم التنصيص عليها في مرسوم الماريشال فالي السالف الذكر.

[1] L.Rinn : op.cit, p p 21, 22.

وهي الامتيازات التي منحت لهم مقابل قبولهم بمبدأ التعاون معهم و التمكين لهم، فإذا كان رؤساء هذه العائلات مطالبين فعلا بتنفيذ أوامر السلطة الفرنسية، فإنهم في مقابل ذلك منحوا حقوقا و امتيازات استثنائية، إلا أن الفرنسيين نكثوا عهودهم و سلبوها منهم كما عرفنا لأن أنانيتهم أعمتهم عن إدراك حقيقة مؤداها أن رؤساء هذه العائلات لهم كرامة و « حس وطني » أيضا، و هو ما دفع بهم إلى الثورة في وجههم. سنحاول تباعا رصد مقاومة بعض العائلات للإدارة الاستعمارية الفرنسية.

1- مقاومة عائلة أولاد عز الدين.

رغم أن عائلة أولاد عز الدين أبدت تعاونها مع المستعمر الفرنسي منذ بداية احتلاله لمدينة قسنطينة، إلا أن علاقتها به كانت مشوبة بالحذر و التوجس من جانب الفرنسيين، لذلك كان جيش الاحتلال يشن ضدها حملات عسكرية من حين لآخر. و قد شن الفرنسيون هذه الحملات ضدها قبل استسلامها الذي كان عام 1849م، و استمرت هذه الحملات حتى بعد استسلامها و دخولها في خدمة الفرنسيين بسبب مواقفها المعادية لهم في بعض الأحيان.

ففي عام 1847م قاد الجنرال « بيدو » « Bedeau » حملة عسكرية استهدفت مناطق البابور، و كان من نتائجها فرض النظام الاستعماري بهذه المناطق، إلا أن عائلة أولاد عز الدين لم تقبل بالوضع الاستعماري الجديد، و أعلنت عصيانها « و باشرت عمليات اللصوصية و قطع الطرق مما تسبب في انتشار الهلع بين السكان الذين تعكرت أمزجتهم و اضطربت أحوالهم، فهاجوا هيجانا شديدا. و ساد هذا الجو في كل منطقة القبائل الصغرى و المناطق الساحلية » كما يذهب إلى ذلك « فيرو ». [1]

و غني عن البيان أن ما قاله هذا المترجم الفرنسي يجافي الحقيقة التاريخية، فقد درجت العادة أنه دائما يصف ثورات السكان بهذه الأوصاف غير الحميدة حتى يبرر تصرفات السلطة الاستعمارية و ما قامت به من أعمال وحشية ضد هؤلاء السكان الذين جبلوا على معاداتهم و تمسكهم بالعيش في كنف الحرية و الكرامة.

و رغم أسلوب القوة و العنف الذي اتبعه الفرنسيون مع أولاد عز الدين إلا أنهم بقوا أوفياء لإثارة الاضطرابات و الشغب، و هو الأمر الذي دفع بالفرنسيين إلى تجهيز حملة عسكرية أخرى

(1) L.ch. Féraud : « Documents pour servir à L'histoire de philippville », op.cit, p 364.

قصد تأديبهم في منطقة سيدي مروان. و على إثر ذلك انسحب بورنان بن عز الدين زعيم عائلة أولاد عز الدين إلى جنوب الزواغة. و في تلك الأثناء حاول الزعيم الديني مولاي الشقفة * تلطيف الأجواء بين زعماء عائلة أولاد عز الدين و الإدارة الفرنسية، غير أن محاولته باءت بالفشل نتيجة لتشبث الشيخ بورنان بموقفه المعادي للفرنسيين حيث شن هجومات عنيفة استهدفت معسكر سيدي مروان استمرت إلى غاية شهر سبتمبر من عام 1847م. و بالموازاة مع ذلك شكل أولاد عز الدين قوات خاصة قامت بقطع الطريق الرابط بين مدينتي سكيكدة و قسنطينة، و منعت القوات الفرنسية من استعمال هذا الطريق الحيوي، كما دعوا سكان المناطق المجاورة للانضمام إلى حركتهم التمردية فانتصر لهم الشيخ بن فيالة، و أولاد عيدون و شنوا هجوما عنيفا

* هو أحمد بن الشريف مولاي الشقفة الذي ينتسب إلى عائلة بني يدر التي استقرت بجبال جيجل و تحديدا في منطقة أولاد شبيل و بني حبيبي خلال القرن 17م. و قد اختلف المؤرخون و الكتاب حول الجد الأول المؤسس لهذه العائلة، حيث ذهب « رين » إلى الاعتقاد بأن رأس هذه العائلة يدعى محمد العابد. أما « إ. دو نوفو » العليم بشأن الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر فيقول بأن الجد الأول لهذه العائلة هو سيدي أمبارك، في حين ذهبت بعض التقارير الفرنسية إلى الاعتقاد بأن مؤسس هذه العائلة هو محمد الطالب. و إذا كان هناك اختلاف بين المؤرخين حول مؤسس هذه العائلة فإن ثمة اتفاق بينهم حول المكان الذي نزح منه هذا الجد، و كذا الطريقة الصوفية التي ينتمي إليها، حيث أكدت هذه المصادر أن الجد المؤسس لهذه العائلة جاء من المغرب الأقصى و كان ينتمي إلى الطريقة الدرقاوية. أما عن سبب تسمية أحمد بن الشريف بـ « مولاي الشقفة »فإن هذه المصادر تقدم لنا سببا أسطوريا و خياليا مؤداه أن الجد المؤسس لهذه العائلة كانت له كرامات، و عندما رام الهجرة من وطنه تقدم إلى شاطئ البحر، ثم وضع سجادة فوق الماء و ركب فوقها، فتحركت هذه السجادة بفعل قوة الرياح إلى أن وصلت ساحل جيجل ثم توقفت، فنزل إلى الشاطئ حيث وجد بغلة في إنتظاره، فركب على ظهرها ثم سارت و بعد فترة من السير توقفت و جثمت على الأرض في منطقة الشقفة، فحاول سيدها عدة مرات دفعها إلى مواصلة السير إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل، فتأكد بأن المكان الذي توقفت فيه هذه البغلة هو المكان الذي حددته العناية الالهية له للاستقرار فيه. و على إثر ذلك قرر العيش بهذه المنطقة لذلك عرف بـ « مولاي الشقفة » نسبة إلى منطقة الشقفة التي نزل بها.

و تذهب روايات أخرى إلى أن هذا الولي الصالح قدم إلى المنطقة على ظهر شقف أو مركب لذلك سمي بـ « مولاي الشقفة ». و بعد استقراره بهذه المنطقة قام ببناء زاوية له. و بعد وفاته أشرف على ترتيب أمورها أبناؤه و أحفاده الذين يلقبون « بمولاي الشقفة » و منهم أحمد بن الشريف مولاي الشقفة، الذي مال إلى الصف الفرنسي، غير أنه لم يكن محل ثقة الفرنسيين، فكانوا دائما متخوفين منه. و في عام 1851م عينوا نجله الحسين بن أحمد قايدا على عرش بني يدر فخدم الإدارة الفرنسية كبقية القياد و الوسطاء الأهليين، غير أن عائلته انفضت من حول الفرنسيين عام 1871م حينما انضمت إلى ثورة المقراني التي إندلعت خلال هذه السنة.

حول هذه العائلة و علاقة وجهاؤها بالإدارة الفرنسية ينظر :

- A.O.M : F80. 510 : cercle de Djijeli : Rapport de la 2éme quinzaine du mois de Mai 1848.
- L.Rinn : Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, op.cit pp 424-430

و ينظر كذلك:

– إدوارد دونوفو: المصدر السابق، ص ص 98، 99.

على معسكر سيدي مروان، و التحموا مع الفرنسيين في معركة شرسة في قرية جلامة، و كانت القوات الفرنسية تحت إشراف الجنرال « هربيون » « Herbillon » و الرائد « بورباكي » « Bourbaki » . و أفضت هذه المعركة إلى هلاك 60 عنصرا من رجال الشيخ بورنان، و جرح 80 عنصرا آخرا منهم الشيخ بورنان نفسه الذي أصيب بجروح بليغة على مستوى الكتف. و بعد انتهاء هذه المعركة كتب الشيخ محمد بن عز الدين رسالة إلى الجنرال « هربيون » طلب فيها الأمان و أحاطه علما بأنه مستعد للتعاون معه و تقديم كل خدماته له [1]

و ذكر « مرسيي » أن السبب المركزي الذي حفز السكان على حركة العصيان يكمن في الأزمة السياسية التي عرفتها فرنسا في تلك الأثناء و المتمثلة في سقوط الحكومة الفرنسية إثر ثورة جويلية 1848م. و قد استغل أولاد عز الدين هذه الأوضاع و هاجموا السكان الذين كانوا يبدون تعاطفا مع الادارة الفرنسية. و أمام تفاقم الفوضى و العصيان و اضطراب الأمن الذي تسببت فيه هذه العائلة، جهز الفرنسيون حملة عسكرية تتشكل من كتيبتين من سلاح المشاة و سريتين عسكريتين تحت إشراف العقيد « دي فورتو » « Defortou » و سار بها لتأديب هذه العائلة التي لاحق قوتها إلى منطقة وادي النجاء، غير أنه تراجع في نهاية المطاف و اكتفى بتسليط غرامة مالية ضدها قدرت بـ 15.000 فرنك فرنسي [2].

و خلال شهر مارس من عام 1849م، عاد أولاد عز الدين إلى عادتهم الثورية، فأعلنوا عصيانهم و عملوا على تهييج السكان و قبائل منطقة ميلة ضد المصالح الفرنسية، فاستجابوا لدعوتهم و قطعوا الطريق الرابط بين مدينتي قسنطينة و سكيكدة، كما فرضوا حصارا محكما على مدينة جيجل التي تقطعت بها السبل جراء ذلك [3] و نتيجة لذلك دب الهلع في أوساط القيادة الفرنسية التي تخوفت كثيرا من الأوضاع التي كانت مضطربة في مناطق غير قليلة من القطر الجزائري، حيث تزامن عصيان أولاد عز الدين مع ثورةسكان بني حساين و بني زقزق بمنطقة متيجة [4]، و كذلك استعداد سكان واحة الزعاطشة للثورة، حيث استغل الشيخ بوزيان هذه الأوضاع و شرع يحضر لثورته.

[1] L.ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de constantine », op.cit, pp 256-258.
[2] Ernest Mercier : op.cit, pp 524, 525.
[3] L.ch.Féraud : « Histoire des villes de la province de constantine : Gijelli », op.cit, p 255.
[4] Henri Garrot : op.cit, pp 383, 384.

و نتيجة لذلك جهز الجنرال « دي سال » « De salle » حملة عسكرية كبرى و سار بها لمحاربة أولاد عز الدين و القبائل المنتصرة لهم[1] غير أن هذه الحملة باءت بالفشل، و نتيجة لذلك حاول الشيخ أحمد بوعكاز لعب دور الوسيط بين الطرفين و طمأن الفرنسيين أنه بإمكانه أن يساهم في تهدئة الأوضاع و يقنع أولاد عز الدين بالعدول عن مقاومتهم[2].

و في مطلع عام 1849م ظهر في منطقة الشمال القسنطيني و مناطق البابور ثائر يدعى ابن يمينة * الذي تمكن من إقناع أنصاره و مؤيديه بأنه مرسل من قبل جلالة الملك المغربي مولاي عبد الرحمان الذي كلفه بطرد النصارى الفرنسيين أعداء الوطن و الدين من الجزائر.[3] و كان ابن يمينة يتنقل بحرية تامة في فرجيوة و الزواغة، و هي كلها مناطق خاضعة لنفوذ و سلطة عائلتي بوعكاز بن عاشور و أولاد عز الدين. و خلال تنقله بفرجيوة تقرب منه السكان و أكرموه و أهدوه حصانا، ثم بعد ذلك عرج على منطقة الزواغة فاستقبله أولاد عز الدين بحفاوة و قضى في ضيافتهم بضع أيام[4].

---

(1) Général Herbillon : Insurrection Survenue dans le sud de la province de Constantine. Relation du Siège de Zaatcha, Paris, France, 1863, pp 11-13.

(2) A.O.M : 2H 22 : Rapport du Capitaine Saddé de Milah à Mr le Général Commandant de la province de Constantine, le 08 Aout 1849.

* أعلن الثائر ابن يمينة الجهاد في وجه القوات الفرنسية بمنطقة الحروش بالشرق الجزائري في مطلع عام 1849م. و على إثر ذلك قام الجنرال « هربيون » الذي كان يشرف على مراقبة الأوروبيين الذين استوطنوا بالمنطقة بتكليف القايد سعودي و فرقة « القوم » التابعة له برصد و متابعة تحركات هذا الثائر، كما طلب منه تزويده بمعلومات كاملة حول نشاطه. و تبين فيما بعد أن ابن يمينة كان يحوز على شعبية كبيرة بالمنظقة، حيث وصل عدد أتباعه إلى 3000 رجل، و صفتهم المصادر الفرنسية بالمتعصبين « les Fanatiques » و تمكن هذا الثائر بواسطة هذه القوة من محاصرة منطقة الحروش، و وجه خطابا إلى رئيس المركز العسكري الفرنسي النقيب « دو نبويسون » « D'anbuisson » دعاه فيه إلى إعتناق الإسلام مقابل فك الحصار على هذه المنطقة ! و قد أثارت سيطرته على منطقة الحروش هلعا كبيرا في الأوساط العسكرية الفرنسية، فأعد الفرنسيون عدتهم لتحريرها، حيث قاد الجنرال « دي سال » حملة عسكرية كبرى و اتجه بها صوب هذا الثائر. و بمجرد أن بلغت أخبار هذه الحملة مسامع ابن يمينة حتى غادر المنطقة و إتجه للاحتماء بالجبال الوعرة. غير أن القوات الفرنسية المدعومة بفرق « القوم » الأهلية التي كان يقودها الزعيم الأهلي إبراهيم بن عبد الله قايد العلمة لاحقته و تمكنت من القضاء عليه بمنطقة سيدي إدريس يوم 1849/06/05م. و قد تمت تصفيته من قبل أحد فرسان « القوم » المدعو علي بن الفردي. و بعدها سارع الفرنسيون إلى قطع رأسه و إرسالها إلى مدينة قسنطينة حيث القيادة العليا للجيش الفرنسي التي أمرت بعرضها فوق أسوار المدينة لكي ترهب بها السكان و تزرع الرعب في قلوب من تحدثهم أنفسهم على الثورة في وجه الفرنسيين.

حول هذا الثائر و نهايته المأساوية ينظر:

- Ernest Mercier : op.cit. pp 529, 530.

(3) A.O.M : F80. 496 : Bureaux Arabes : Rapports de Constantine en 1849, Cercle de Constantine : Rapport de la 2ème Quinzaine de Mars 1849.

(4) L.ch.Féraud : « Documents pour servir à l'histoire de Philippeville » op.cit, p 366, voir la marge.

و بهذا نستنتج أن أولاد عز الدين لم يكتفوا بثورتهم المعلنة في وجه عدوهم المحتل الفرنسي، بل كانوا أيضا يسيرون في ظل كل ثائر يثور ضد السيطرة الاستعمارية.

و ذكر « فيرو » أنه على إثر ذلك جهز الجنرال « هربيون » « Herbillon » حملة عسكرية و سار بها إلى منطقة الزواغة، و قام بتسليط عقوبة قاسية ضد بورنان بن عز الدين بسبب دعمه الجلي« son appui ostensible » للثائر ابن يمينة و أنصاره بمنطقة سكيكدة،(1) غير أنه لم يحدثنا عن طبيعة هذه العقوبة، إلا أنها معروفة حيث تشمل الغرامة المالية الباهضة و مصادرة أملاك السكان المتعاطفين مع هذا الثائر لأن الفرنسيين درجوا على تسليط هذه العقوبات على السكان في مثل هذه الحالات.

و رغم أن الفرنسيين حاولوا مصالحة أولاد عز الدين حيث اسندوا إلى بولخراص بن عز الدين قيادة القبائل المستقرة على الضفة اليمنى لوادي الرمال إلا أن باقي أفراد هذه العائلة بقوا ثابتين على نهجهم الثوري و يمارسون العنف و يساندون الثائر ابن يمينة الذي كان يهدد المصالح الفرنسية بالمنطقة الممتدة ما بين سكيكدة و الحروش. و تبعا لذلك جيش الجنرال «هربيون » جيشا قويا و اقتحم به منطقة الزواغة خلال شهر ماي من عام 1849م. و على إثر ذلك انسحب الشيخ بورنان إلى بني ميمون، و بني زرقي، و بني يدر، بينما فضل الشيخ محمد كبير العائلة الذهاب إلى صديقه أحمد بوعكاز بفرجيوة. في حين قام الفرنسيون بتخريب قرى بني ميمون و القضاء على شيخ بني حبيبي. أما بقية زعماء عائلة أولاد عز الدين فقد فروا بعيدا و اعتصموا بالجبال الوعرة التي يصعب على الفرنسيين اختراقها.

و عندما اندلعت ثورة واحة الزعاطشة في صيف عام 1849م، عمل زعماء أولاد عز الدين على استغلالها لصالح مقاومتهم بالزواغة ضد المصالح الفرنسية، حيث اتجه الشيخ بورنان إلى منطقة وادي النجاء، و عين النكلة و أغار على ممتلكات القايد بولخراص بن عز الدين الذي وضع نفسه تحت تصرف الفرنسيين، فتدخل زعيم فرجيوة الشيخ أحمد بوعكاز و حاول أن يقترح حلا توفيقيا ينهي حالة الاحتقان بين زعماء عائلة أولاد عز الدين و الفرنسيين. فكتب رسالة إلى الفرنسيين بقسنطينة يقترح فيها عليهم تعيين الشيخ محمد بن عز الدين و شقيقه بورنان بن عز الدين قائدين على المنطقة، و في الوقت نفسه أقنع الشيخ محمد بن عز الدين بضرورة زيارة القيادة الفرنسية بقسنطينة. و قد أدت هذه الخطوة إلى دخول الشيخ بورنان و سائر أفراد عائلة أولاد عز الدين في خدمة الإدارة الفرنسية.(2)

(1) Ibid, p 370.

(2) L.ch .Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes Historiques sur la province de Constantine », op.cit, pp 324-326.

و في 1856/09/26م أغار بورنان بن عز الدين على ممتلكات بعض قبائل المنطقة، و قام بأسر البعض من رجالهم، و صادر قطعان من ماشيتهم، كما أضرم النار في قراهم و مداشرهم و اشتبك معهم في معارك ضارية أفضت إلى مقتل 6 من رجاله و إصابة 12 عنصرا منهم. و في اليوم الموالي أعاد بورنان بن عز الدين هجوماته عليهم غير أن القوات الفرنسية المتمركزة بمدينة سكيكدة تصدت له بقوة، حيث جهزت أربع فرق عسكرية أشرف عليها قائدان أهليان هما القايد سعودي و القايد علي بوصبع، و اشتبكت هذه القوات مع قوات بورنان بن عز الدين في معركة أخرى دامية أفضت إلى مقتل 17 عنصرا و جرح 38 آخر من القوات الفرنسية. و المقابل كانت خسائر بورنان بن عز الدين معتبرة الأمر الذي دفع بالسكان الثائرين إلى الاستسلام و طلب الأمان حيث تدفقت على المعسكر الفرنسي موجات كبيرة من السكان تطلب الاستسلام و ذلك في مساء يوم 1856/09/27م. و رغم ذلك واصلت القوات الأهلية التي كان يشرف عليها القايد سعودي عملية مطاردة الثائرين، و قد استمرت هذه العملية التي باشرتها قوات هذا القائد الأهلي لوحدها أي بغياب الجنود الفرنسيين زهاء 10 أيام كاملة تمكنت خلالها من تضييق الخناق على الثائرين الذين أخذت أعدادهم تتناقص بشكل لافت للانتباه.(1)

و بهذا يمكن القول أنه بالرغم من دخول الشيخ بورنان بن عز الدين في خدمة الفرنسيين إلا أنه بقي يشاغب عليهم، و يثير ضدهم الكثير من الاضطرابات و الفتن و القلاقل. و كان الفرنسيون دائما يتصدون له و يحاربون كل السكان المنتصرين له، إلا أن حربهم المعلنة ضده و ضد هؤلاء السكان كانت في الغالب الأمر حربا بالوكالة، يمارسها نيابة عنهم القادة الأهليون الذين فضلوا التعاون معهم ضد شعبهم. تلك هي سياسة المستعمر المقيتة التي بواسطتها تمكن من إحكام قبضته على المنطقة بأقل تكلفة مادية و بشرية.

و خلال صيف عام 1858م اندلعت حرائق عنيفة في غابات المنطقة التي منحها الفرنسيون للمستثمرين الأوروبيين بغرض استغلالها. و على إثر ذلك سارع القايد بورنان إلى معاقبة السكان حيث فرض عليهم عقوبة جماعية تتمثل في إلزامهم بتقديم غرامات باهضة. و هو الأمر الذي أثار

(1) L.ch . Féraud : « Documents pour servir à L'histoire de Philippeville », op.cit, pp 456, 457.

حفيظة الفرنسيين الذين رأوا أن فرض هذه العقوبة على السكان من شأنه أن يدفعهم دفعا إلى التمرد و الثورة. و لم يكتف الفرنسيون بهذا الموقف فحسب، بل أنهم اعتبروا أن القايد بورنان كان سيء النية لأنه هو الذي تسبب في إشعال هذه الحرائق و ليس سكان المنطقة، لذا وجهوا له تهمة «مؤامرة الحرق العمد » « la Conjuration d'incendiaires »[1]، و قالوا بأن الشيخ بورنان لجأ إلى هذا الأسلوب لأنه رأى أن منح هذه الغابات للمستثمرين الأوروبيين الذين تقاطروا على المنطقة من شأنه أن يحرمه من المزايا التي كان يحصل عليها من إستغلال هذه الغابات. غير أن القايد بورنان كان ينفي نفيا قاطعا هذه التهم الموجهة له، و يقول بأن أولاد حناش هم الذين أضرموا النار في هذه الغابات، لذلك أخذ الإذن من السلطات الفرنسية، و جيش جيشا و سار ضدهم و هاجمهم يوم 1858/07/10م و أضرم النار في مساكنهم و قريتهم، غير أنهم ردوا عليه بعنف شديد و قتلوا العديد من رجاله، ثم تقدموا إلى السلطات الفرنسية بمدينة قسنطينة و أحاطوها علما بكل هذه التطورات و طلبوا منها إرسال لجنة تعكف على التحقيق في هذه التجاوزات[2].

أمام هذه التطورات تدخلت السلطات الفرنسية بقيادة الجنرال «غاستي » « Gastu » الذي سار على رأس قوة عسكرية قوامها 4000 عسكريا، و اتجه بها إلى منطقة الزواغة في 1858/11/22م[3]، و قد تمكنت هذه القوة من وضع حد لهذه الاضطرابات. و بعد ذلك قام الفرنسيون بتوبيخ القايد بورنان و حملوه المسؤولية التقصيرية الكاملة تجاه المشاكل التي حدثت على مستوى قيادته، كما آخذوه على عدم مقدرته إطفاء الحرائق، ثم بعد ذلك فرضوا غرامة جماعية على السكان، إلا أن بعضهم رفض الالتزام بها و خاصة أنصار القايد بورنان. و قد فسرت السلطات الفرنسية هذا الموقف بمثابة التحدي الصريح لإرادتها، فازداد غضب قادتها على القايد بورنان الذي ساءت سمعته و تحطمت شوكته الأدبية في عيون السكان الذين قدموا شكاوى عديدة إلى الجنرال «غاستي » ضده و طلبوا منه توقيفه و تعويضه بموظف فرنسي.[4]

(1) Charles-Robert Ageron : L'Algérie Algérienne de Napoleon III à De Gaulle, op.cit, p 53.
(2) L.ch. Féraud : « Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », op.cit, p 330.
(3) Ernest Mercier : op.cit, p 575.
(4) L.ch. Feraud: op.cit, pp 331, 333.

على إثر ذلك استجاب الجنرال الفرنسي في الحال إلى طلبهم حيث أمر ببناء مركز الميلية على ضفاف الوادي الكبير «لمراقبة هؤلاء الجبليين الذين ناصبوا العداء للفرنسيين عن كثب و لم يرجعهم القايد بن عز الدين إلى جادة صوابهم بسبب عجزه عن ذلك أو رفضه إعادتهم إلى الطاعة رغم قدرته على ذلك » على حد توصيف «مرسيي » (1)

و خلال عام 1859م، اندلعت الحرب الايطالية، و شارك فيها الجيش الفرنسي. و قد اعتمد الفرنسيون خاصة على قواتهم العسكرية المرابطة بالجزائر التي كانت في ذلك الحين بمثابة المدرسة العسكرية التي يتخرج منها ألمع الضباط الفرنسيين. (2) و شارك في هذه الحرب عدد كبير من العسكريين الفرنسيين، و على رأسهم الجنرال «ماكماهون » « Mac-mahon » الذي غادر الجزائر في 1859/04/25م. (3) و قد استغل سكان البابور و بالأساس أولاد عز الدين فرصة غياب الجيش الفرنسي و رفضوا دفع الضرائب، و زجوا بالقبائل الأخرى إلى الثورة. و خلال شهر جوان من عام 1859م جهز الفرنسيون حملة عسكرية و ساروا بها من أجل تأديبهم. و قد أفضت هذه الحملة إلى إعادة هؤلاء السكان إلى طاعة الفرنسيين حيث دفعوهم إلى الإذعان إلى الضريبة، كما اكتشفت السلطات الفرنسية أن مصدر هذه الاضطرابات هم زعماء عائلة أولاد عز الدين و بالأساس قائدهم بورنان، و ألقى الفرنسيون القبض على عدد كبير من أتباع القايد بورنان الذين قاموا باغتيال العمال الفرنسيين الثلاثة الذين بنوا مركز الميلية العسكري الذي أمر بتدشينه الجنرال «غاستي » (4)

و في 1859/07/15م هاجم سكان أولاد عيدون جنودا فرنسيين، و أصابوهم بجروح بليغة. و على إثر ذلك كتب رئيس الملحق العسكري بمركز الميلية الضابط «دي سانت مارس » « De st mars » تقريرا إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني الجنرال «غاستي » حدثه فيه عن هذا الهجوم، و أعلمه بأن القايد بورنان هو الذي شجع أنصاره إلى الاعتداء على هؤلاء الجنود. و من جهته كتب رئيس القطاع العسكري القسنطيني تقريرا إلى وزير الحربية أعلمه فيه كذلك بأن القايد بورنان هو الذي كان وراء هذا الحادث.(5)

(1) Ernest Mercier : op.cit, p 575.
(2) Jacques Madaules : Histoire de France II. De Louis XIV à Nopoleon III. Presse de L'imprimerie Boussière, Saint-Amand, France, 1945, pp 343, 344.
(3) Ernest Mercier : op.cit, p 580.
(4) L.ch. Feraud : op.cit, pp 334, 335.
(5) Charles-Robert Ageron : op.cit, p 54

و خلال شهر أكتوبر من عام 1859م، قام القايد بورنان بتحريض سكان الزواغة و حوض الوادي الكبير، و جزء هام من سكان دائرة جيجل على العصيان و الثورة في وجه الفرنسيين، فأستجابوا له و قاموا بقطع الخطوط الهاتفية التي تربط بين مدينتي قسنطينة و جيجل عدة مرات. و خلال شهر ماي من عام 1860م اتجه الجنرال «ديفو » إلى هذه المناطق على رأس قوة عسكرية كبرى. و عند وصوله وجه دعوة إلى سكان هذه المناطق لالتزام الهدوء و إبداء طاعتهم للفرنسيين، فلبى البعض منهم هذه الدعوة بينما رفض البعض الآخر الاستجابة لها. و كان على رأس الفريق الثاني وجهاء بني خطاب في منطقة سيدي معروف الذين هاجموا الجيش الفرنسي ليلا. [1] و على إثر ذلك إتخذت القيادة العسكرية الفرنسية قرارا يقضي بتوقيف القايد بورنان و إبن أخيه عز الدين بن الشيخ محمد في 1860/05/21م[2]، و احتفظ الفرنسيون بقائدين من هذه العائلة و هما القايد بولخراص الذي كان يحكم منطقة موية، و الحاج بن عز الدين الذي كان يشغل منصب قايد بني يدر بدائرة جيجل[3]. فهل هذه الثورات و حركات العصيان كانت فعلا بإيعاز من عائلة أولاد عز الدين و زعيمها بورنان أم أن الفرنسيين كانوا يوجهون لها هذه التهم بحثا عن مسوغات للاستغناء عنها؟ و أيا كان الأمر، فإن الفرنسيين يكونون بهذا الإجراء قد حطموا معظم أفراد هذه العائلة.

و لما كانت عملية اعتقال القايد بورنان و إبن أخيه عز الدين من الأهمية بما كان، سارع حاكم القطاع العسكري القسنطيني الجنرال «ديفو » إلى إعلام وزير الحربية الفرنسي في باريس بهذا الإجراء، حيث كتب له تقريرا مفصلا عن الجولة المطولة التي قام بها إلى قبائل الزواغة و الوادي الكبير، و أعلمه بكل التدابير التي باشرها أثناء هذه الجولة التي دامت زهاء أربعة أشهر كاملة مؤكدا له بأنه قام بإعلام كل قبائل هذه المناطق بتوقيف أفراد عائلة أولاد عز الدين المشاغبين، و أوضح له أيضا بأنه شرح لهم بالتفصيل أسباب و مسوغات هذا الإجراء و التي تتلخص في تشجيعهم للفوضى و الاضطرابات على مستوى القيادة التي يبسطون عليها سيادتهم [4].

(1) L.ch. Feraud: op.cit, pp 337, 338.
(2) Charles-Robert Ageron : op.cit, p 55
(3) L.ch. Feraud: op.cit, pp 339, 340.
(4) A.O.M : 2H18 : Rapport du Général Commandant de la division de Constantine au Ministre de la Guerre, Expédié le 26/06/1860.

و استنادا إلى ما جاء في هذا التقرير يمكن القول أن القيادة العسكرية الفرنسية بقسنطينة كانت متخوفة جدا من ردود الفعل الانتقامية لسكان المنطقة و بالأساس أنصار القايد بورنان و إلا بماذا نفسر إشراف القائد الأعلى للمقاطعة شخصيا على هذه العملية و استقراره بالمنطقة لمدة طويلة، و اتصاله المستمر بمختلف سكان المنطقة لإقناعهم بوجاهة و شرعية الإجراء الذي اتخذه في حق القايد بورنان و إبن أخيه.

و بعد ذلك أحال الفرنسيون القايد بورنان و ابن أخيه عز الدين على مجلس حرب « Un Conseil de guerre »، غير أن «شاسلو لوبا » « Chasseloup-laubat » الذي عينه الفرنسيون وزيرا لشؤون الجزائر رغم استحسانه لعملية توقيف الرجلين إلا أنه أعاب على المسؤولين العسكريين بقسنطينة إجراء إحالتهما على مجلس حرب لما ينطوي عليه هذا الإجراء من مخاطر لأن إمكانية تبرئتهما من قبل القضاء العسكري واردة حيث قد يعجز عن إيجاد الدلائل المادية التي تدينهم، و في هذه الحالة سيكون مضطرا اضطرارا إلى تبرئة ساحتهما. و إذا تحقق هذا الفرض و أصدر القضاء العسكري حكما يقضى بأن لا وجه لمتابعتهما، فذلك أمر غير محبذ، لذلك نصح هذا الوزير المسؤولين الفرنسيين بقسنطينة بتطبيق عقوبة النفي إلى الخارج و تجنب إحالتهما على مجلس حرب.[1] فتجاوب المسؤولون الفرنسيون بقسنطينة مع هذا الرأي.

و الواقع أن تعاملهم مع زعيمي عائلة أولاد عز الدين في قضية الحال كان تعاملا غير قانوني، لأن القوانين و التراتيب المعمول بها في مثل هذه الحالات تنص صراحة على ضرورة إحالتهما على القضاء العسكري ليقول كلمته النهائية في شأنهما. و هذا ما أكدته النصوص القانونية التي جاء بها مرسوم 1852/12/08م، و كذا قانون العقوبات الفرنسي المعمول به آنذاك.[2] و بهذا تكون القيادة العسكرية الفرنسية قد طبقت عقوبة إدارية ضد القايد بورنان و إبن أخيه في غير موضعها، و ذلك يمثل اغتصابا صريحا للقانون لأنها سمحت للإدارة بممارسة مهام خطيرة تعد من المشمولات المركزية للقضاء. أما الضابط الفرنسي «فيرو »، فراح كعادته يبرر التصرفات الخرقاء لإدارة بلاده حيث قال أن السلطات الفرنسية العليا بقسنطينة قررت تسليط عليهما عقوبة أقل قسوة تمثلت في النفي إلى البلاد التونسية، و كانت رءوفة معهما لأن الرجلين خدما الإدارة الفرنسية و قدما لها خدمات جليلة بعد استسلامهما ![3]

---

[1] Charles-Robert Ageron : op.cit, p 55.
[2] Dictionnaire de droit, publié sous la Direction du Bureau de la Jurisprudence Général, Dalloz, Paris, France 1906, pp 398-400.
[3] L.ch. Feraud: op.cit, p 340.

و في تلك الأثناء قدم أفراد عائلة أولاد عز الدين طلبا جماعيا إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر العاصمة يلتمسون فيه السماح لهم رفقة نسائهم و خدمهم باستصدار جوازات سفر لأداء مناسك الحج. و تقدم بهذا الطلب كل من بورنان بن عز الدين بن الشيخ محمد، فرحات بن عز الدين، محمد الشريف بن عز الدين، محمد بلحاج بن عز الدين رفقة زوجاتهم الخمسة، و أطفالهم السبعة. أما القايد السابق بورنان بن عز الدين فقد طلب من الفرنسيين السماح له باصطحاب خمسة من خدمه و هم: مبارك بن بوترمين، محمد بن زبوشي، صالح بن باش شاوش، صالح بن بوزيد، الشريف بن طلابي. و لما وصل هذا الطلب إلى مكتب الحاكم العام بالجزائر، فضل التريث لأخذ رأي الحاكم العسكري لمقاطعة قسنطينة، و هو صاحب الاختصاص بحكم أن النظر في هذا الطلب هو في الأصل من مشمولاته، ناهيك عن كونه على دراية كبيرة بعلاقة هذه العائلة بالإدارة الفرنسية. و ما أن بلغه هذا الطلب حتى أعطى موافقته عليه دون تحفظ و دون إبطاء.[1] و ربما هذا التجاوب الفرنسي السريع مع طلب أفراد هذه العائلة و موافقتهم الفورية و غير المشروطة على طلب استصدار جوازات السفر يجد له تفسيرا في كون أن الفرنسيين كانوا يرومون التخلص و لو بصورة مؤقتة من أفراد هذه العائلة و بالأساس من زعيمها بورنان بن عز الدين الذي تسبب لهم في متاعب و قلاقل كثيرة على مستوى المناطق التي كان يحكمها.

و على إثر ذلك سافر بورنان بن عز الدين رفقة أفراد عائلته و خدمه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج متجنبا بذلك عقوبة النفي التي سلطت ضده، و هناك أدركه الموت في منتصف عام 1861م، [2] تاركا وراءه إبنين هما علاوة و عبود اللذين سيعرفان رحلة قاسية من النفي و الحنين إلى الوطن كما سنعرف لاحقا.

و في بداية 1864م زار عدد كبير من شيوخ الطريقة الرحمانية المناهضة للوجود الاستعماري بالجزائر منطقة الزواغة، و مناطق أولاد عبد النور، و ميلة و قاموا بتأليب السكان ضد الإدارة الفرنسية، كما شجعوا الناس على حمل السلاح في وجه الفرنسيين أعداء الدين و الوطن. و من بين هؤلاء الشيوخ الحاج حجوج الذي قال لسكان منطقة ميلة أنه أدى مناسك الحج خلال السنة الماضية، و على هامش زيارته للبقاع المقدسة اتصل به نائب السلطان العثماني و كلفه بإعلان الجهاد في وجه الفرنسيين و العمل على سحقهم لأنهم اغتصبوا بلاد الجزائر ظلما و عدوانا.

(1) A.O.M : 2H19 : Rapport du Général Commandant de la division de Constantine à Mr le Gouverneur Général à Alger au sujet du départ pour la Mecque des Ouled Azzedine et leurs serviteurs, adressé le 21/01/1861, n° 97.
(2) Charles-Robert Ageron : op.cit, p 55.

و إلى جانبه ظهر الشيخ بوقرين بمنطقة أولاد عبد النور و هو أحد أعوان عائلتي بوعكاز بن عاشور و أولاد عز الدين، و عمل على تحبيب فكرة الثورة ضد الفرنسيين لدى سكان المنطقة. و بالإضافة إلى ذلك ظهر الشيخ مولاي محمد مقدم الطريقة الرحمانية بالزواغة الذي وجه دعوة عامة إلى كل الناس لحضور اجتماع عقده يوم 1864/03/10م. و خلال هذا الاجتماع دعا الحضور إلى احتضان الثورة التي ستندلع بعد ثمانية أيام، و كانت لمولاي محمد علاقات قوية مع أفراد عائلة أولاد عز الدين حيث استضافه القايد بولخراص بن عز الدين في منزله رفقة أنصاره و مؤيديه الذين كان من ضمنهم علاوة بن عز الدين و عبود بن عز الدين و هما نجلا القايد السابق بورنان بن عز الدين. (1)

و في يوم 1864/03/18م اندلعت ثورة سكان الزواغة و فرجيوة، و كانت بدايتها في شكل هجوم مباغت على برج الزغاية الواقع شمال غرب ميلة، و أحكم الثوار قبضتهم على هذا البرج الذي كان يمثل مقر حكم قايد الزواغة، و بالتالي فهو رمز الاستعمار و الاستعباد(2). فسارع الحاج بن عز الدين قايد بني يدر إلى منزله لكي يحضر أسلحته و رماحه، و بالموازاة مع ذلك أضرم الثوار الذين كانوا يعدون بالمئات النار في هذا البرج، و لم ينجحوا في إلقاء القبض على القايد حمو، إلا أنهم تمكنوا من القضاء على بعض الأعوان الفرنسيين الذين انتصبوا في المعسكر المعادي لثورتهم. (3) و بعد ذلك مباشرة سارع القادة الفرنسيون إلى توقيف كافة أفراد عائلة أولاد عز الدين، (4) حيث تم اعتقال بولخراص بن عز الدين بمقر إقامته بموية، بينما تم توقيف الحاج بن عز الدين بجيجل. أما الشقيقان علاوة بن عز الدين، و عبود بن عز الدين و هما نجلا بورنان فقد تم اعتقالهما بمقر سكنهما بمدينة قسنطينة. (5)

و بعد انتهاء حملة الاعتقالات التي طالت زعماء هذه العائلة كلف الفرنسيون القايد ابن حبيلس بمعاقبة السكان الثائرين. و تنفيذا لهذا الأمر اتجه هذا القايد إلى السكان الثائرين و قاد حملة تأديبية ضدهم و فرض عليهم غرامات حربية « des amendes de guerre »، غير أن هذه المأمورية لم تكن بالسهولة التي تصورها حيث واجه مقاومة باسلة من قبل هؤلاء السكان، و كاد أن يلقي حتفه أثناء تنفيذ هذه المأمورية التي كلفه الفرنسيون للقيام بها نيابة عنهم. (6)

(1) L.ch. Féraud: op.cit, pp 344, 345.
(2) Charles-Robert Ageron op.cit p 56.
(3) L.ch. Feraud: op.cit, p 447.
(4) Charles-Robert Ageron op.cit p 57.
(5) L.ch. Féraud: op.cit, p 348.
(6) Ernest Mercier : op.cit, p 618.

و بناء على ما تقدم ذكره، يمكن القول أن علاقة عائلة أولاد عز الدين بالإدارة الفرنسية كانت تختلف عن علاقة العائلات الأخرى بالفرنسيين حيث غلب عليها طابع التوتر، بل أنها كانت علاقة صراع و حروب في الغالب الأعم منذ بداية الاحتلال، و لم ترق إلى مستوى علاقة التناغم و التعاون كما أن الخدمات التي قدمتها هذه العائلة للفرنسيين كانت هزيلة بالمقارنة مع ثورتها شبه المزمنة ضدهم، الأمر الذي جعلنا نحتار في أي معسكر يمكن أن نصنف هذه العائلة. هل نصنفها في المعسكر المتخندق في الصف الفرنسي بناء على الخدمات القليلة التي قدمها زعماؤها إلى الفرنسيين أم أننا نصنفها في المعسكر المعادي لهم و ذلك بناء على ثورتها المستمرة ضد الوجود الفرنسي منذ البداية؟

لقد عامل الفرنسيون عائلة أولاد عز الدين بهذه المعاملة المشينة، كما عاملوا جارتها عائلة بوعكاز و بالأساس زعيمها الشيخ أحمد بوعكاز إثر ثورة سكان الزواغة وفرجيوة عام 1864م كما سنرى لاحقا.

2– ثورة عائلة ابن جلاب

الواقع أن أعيان عائلة ابن جلاب لم يثوروا كلهم ضد الفرنسيين كما هو شأن بعض العائلات التي انفضت برمتها من حولهم. إن الذي أعلن الثورة في وجههم لم يكن سوى سلمان بن جلاب رفقة مقربيه و خدمه و بعض أنصاره، لذلك فإن الكلام عن ثورة هذه العائلة يعد في واقع الأمر تجاوزا ليس إلا.

عندما أعلن سلمان بن جلاب ثورته اعتبارا من عام 1852م و استيلائه على مدينة تقرت سلك كل السبل و اعتمد كل الوسائل التي توصله إلى مبتغاه و هو محاربته للفرنسيين و أعوانهم المتحالفين معهم ضده، و بالأساس أبناء عمومته، و كذا زعماء عائلة بوعكاز الذواودة الذين أسند لهم الفرنسيون حكم تقرت اعتبارا من عام 1854م، و قد اعتمد سلمان بن جلاب على أسلوبين أثناء ثورته، فتارة نجده يحارب أعداءه معتمدا على قوة جيشه و تجهيزاته الحربية أي إمكاناته الفردية و تارة أخرى كان يفضل التعاون مع بعض الثائرين الجزائريين الذين أعلنوا ثورتهم في وجه المحتل. و في مايلي نتكلم عن هذين الأسلوبين بشيء من التفصيل.

أ- مواجهة الفرنسيين و أعوانهم بالاعتماد على الجهود الخاصة.

بعد ما توفي الشيخ عبد الرحمان بن جلاب عام 1852م ورثه في الحكم نجله عبد القادر بن جلاب. و لما كان هذا الأخير قاصرا حيث لم يكن سنه يتعدى ست سنوات، فقد تولى الحكم تحت وصاية جدته لالة عيشوش التي تنحدر من عائلة ابن قانة و التي كانت تحوز على خبرة واسعة في هذا المجال [1]

[1] Magali Boisnard : Sultans de Touggourt, libraire Orientaliste Paul Guethner, Paris, France, 1933, p 128.

و يقول الماريشال « ماكماهون » الذي كان حينئذ يشغل منصب حاكم مقاطعة قسنطينة في مذكراته أن سلمان بن جلاب كانت له أطماع كبيرة في استخلاف إبن عمه و تنصيبه سلطانا على تقرت من قبل الفرنسيين، غير أن الحاكم العام الجنرال « راندون » كان يعارض ذلك معارضة شديدة، لأن سلمان بن جلاب كان في نظره مجرما و شريرا حيث قام بتصفية العديد من أفراد عائلته من أجل الاستحواذ على الحكم. (1)

كان « ماكماهون » رفقة فريقه المتكون من المسؤولين العسكريين الكبار في مقاطعة قسنطينة متعاطفا بعض الشيء مع سلمان بن جلاب، لذلك حاولوا التأثير على حاكمهم العام لإقناعه بتغيير نظرته تجاه سلمان بن جلاب. و يبدو أن الحاكم العام الفرنسي الذي كان يرغب في إسناد هذا المنصب إلى أحد أفراد عائلة ابن قانة اقتنع بوجهة نظرهم باعتبارهم أكثر قربا مما يحدث في هذه المنطقة، فأعطى الأمر بإسناد هذا المنصب إلى سلمان بن جلاب بشرط اتصاله بالمسؤولين الفرنسيين في باتنة أو بسكرة و التعهد لهم بحسن النية في التعامل مع الفرنسيين و الخضوع التام لإرادة الإدارة الفرنسية، إلا أن سلمان بن جلاب فسر هذا العرض الفرنسي على أنه ينطوي على خدعة كبيرة تحاك ضده هدفها إبعاده عن الحكم، و استغلال فترة غيابه لتعيين أحد أفراد عائلة ابن قانة في هذا المنصب، و عليه رفض الانصياع لهذا العرض. و على إثر ذلك فرض الفرنسيون حصارا اقتصاديا على تقرت، و منعوا وصول قوافل تجارة القمح المتجهة إليها من بسكرة، كما أعطوا أوامرهم بالإغارة على القوافل التجارية الآتية من وادي سوف كذلك. (2)

و كرد فعل على هذه الإجراءات، أحكم سلمان بن جلاب قبضته على مدينة تقرت و قام بتحصينها معلنا نفسه سلطانا بإرادة منفردة، (3) كما حاول كسب باي تونس إلى صفه حيث راسله و طلب منه يد المساعدة لتعزيز صفه لمواجهة الفرنسيين، و هذا ما نفهمه من الرسالة التي وجهها حاكم مقاطعة قسنطينة الجنرال ماكماهون إلى القنصل الفرنسي المعتمد بتونس بتاريخ 07 من مايو 1853 حيث ذكر له فيها «... أن الشيخ سلمان بن جلاب قطع كل صلاته بالإدارة الفرنسية و أعلن « الحرب المقدسة » « La Guerre sainte » ضدنا و التعاون معنا، و اتصل بباي تونس و التمس منه المساعدة، حيث أرسل له وفدا رفيع المستوى يتشكل

(1) الماريشال ماكماهون: المصدر السابق، ص 167.

(2) NICO Keilstra : « The dicline of tribal organization in the souf (South East of Algéria) », in, Revue de L'Occident Musulman et de la Mediterranée », n° 45, 3éme trimestre, Année 1987, pp 14, 15.

(3) L.ch. Feraud : « Les Ben-Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 25, Année 1881, p 198.

من أعيان تقرت و منطقتها وهم : الشيخ بوشمال ، الحاج إبراهيم، الحاج العربي، سي أحمد بن غولان، أحمد بن العربي، حسان لوصيف، العربي بلحاج، محمد بن إبراهيم، و الشيخ بن جار. غير أن هذا الوفد عاد غائبا بسبب موقف باي تونس الذي رفض تقديم كل شكل من أشكال المساعدة لشيخ تقرت، حيث ذكرهم بعلاقته المتينة مع الفرنسيين، بل أكثر من ذلك أنه كاد أن يرفض استقبالهم بصفتهم أعداء فرنسا... » [1]

و في تلك الأثناء حاول الفرنسيون تحطيم ثورة سلمان بن جلاب بواسطة التأثير على أنصاره و محاولة إقناعهم بضرورة التخلي عنه. و في هذا المنظور أرسلوا القايد أحمد باي بن شنوف إلى سكان وادي سوف و طلبوا منه الاتصال بالسكان و إقناعهم بضرورة فض علاقتهم بسلمان بن جلاب، إلا أنه فشل في هذه المهمة. و رغم ذلك توجس سلمان بن جلاب خيفة منهم، و قام بتصفية البعض منهم. و خلال شهر أفريل من عام 1853م جيش سلمان بن جلاب جيشا قوامه 80 عنصرا و قام بمهاجمة بلدة الكونين بحثا عن أعدائه المتعاونين مع الجيوش الفرنسية، و جلهم من أنصار وخدم غريمه عبد الرحمان بن جلاب المتوفى، غير أن عددا مهما منهم استطاع الفرار إلى بلدة قمار، و الاحتماء بسكانها الذين رفضوا تسليمهم إلى سلمان بن جلاب عندما لاحقهم هناك. و لما كانت قواته مصابة بالوهن و الضعف، فلم يتمكن من اختراق أبواب هذه البلدة، فأضطر إلى العودة إلى مقر حكمه بتقرت التي فرض سيطرته عليها بالقوة رغم معارضة الفرنسيين.[2]

و بالموازاة مع ذلك بعث سلمان بن جلاب برسالة إلى الحاكم العام الفرنسي مؤرخة في أوائل ربيع الأول من عام 1271هـ، الموافق لنهاية شهر نوفمبر من عام 1854م، حاول من خلالها تبرير المعاصي التي اقترفها في حق أفراد عائلته مذكرا أياه بأن أسلوب القتل و التصفية الجسدية بين زعماء عائلته يعد ظاهرة طبيعية، و ساق له عدة أمثلة عن ذلك. و في نهاية هذه الرسالة التمس من الحاكم العام أن يصفح عنه و عن الأخطاء التي ارتكبها قائلا له : «... و اليوم ندمت على ما فعلت و في كنفكم دخلت المطلوب منك تستوصي بنا خيرا و تأمر ولات (كذا) الدولة يعطفوا علينا مثل سعادة السيد الجنرال الحاكم بقسنطينة و حكام باتنة و بسكرة ما أبقا لي (كذا) هروب منكم إلا إليكم خديم لكم طايع و الذي تلزمون به (كذا)

---

[1] I.S.H.M.N.T : Archives du Ministère des Affaires Extérieures, Quai d'Orsay, Paris, Série Correspondance Politique, Dossier n° 1, Carton 13, Bobine n° 291 : Lettre du Général Mac-Mahon Général de Division Commandant de la province de Constantine à Mr le Consul Général de France à Tunis, datée le 07/05/1853, Folio 211. ينظر الملحق رقم 16

[2] L.ch. Féraud: « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constnatine », in R.A n° 26, Année 1882, p 113.

نقبلوه على قد (كذا) الطاقة و الاستطاعة و أنا خديمكم و ابنكم... » [1]. غير أن الفرنسيين صرفوا النظر عن رسالته هذه، و عن كل الرسائل التي أرسلها لهم، و كل العروض التي تقدم بها لهم و قال « فيرو » أن دعوته إلى ربط علاقات مع الفرنسيين كانت مجرد كذب و خداع.[2] و الراجح أن سلمان بن جلاب كان يروم توقيع هدنة مع الفرنسيين تجنبه الدخول في مواجهة ضدهم، أو ربما أيضا كان يرغب في تفويت الفرصة عليهم و ربح الوقت من أجل جمع قواه من جديد و اعتماد خطة عسكرية بديلة لمواجهتهم.

و في خريف عام 1854م، تحركت القوات العسكرية الفرنسية لمحاربته، و لما علم بذلك جمع كل أتباعه و مؤيديه بتقرت، و راسل سكان سوف طالبا منهم مساندته لصد الفرنسيين، فاستجاب جمع غفير منهم و ساروا إليه و وعدوه بمقاتلة الفرنسيين إلى جانبه، فشكرهم على موقفهم المؤيد له، كما فرح بقدومهم و أكرمهم و قدم لشيوخهم و وجهائهم هدايا ثمينة، و وعدهم بهدايا أخرى أكثر قيمة في حالة تحقيقه انتصارا كاسحا على الفرنسيين، غير أنه خسر المعركة خسرانا مبينا. بعد ذلك اتجه إلى بلدة تماسين و خيم بها عدة أيام، ثم اتجه إلى سوف حيث مكث بها كذلك مدة معينة، ثم هاجر إلى البلاد التونسية.[3]و هناك شرع يتعاون و ينسق عمله الثوري مع ثائرين جزائريين آخرين، كما لم يقطع صلته بأتباعه و أنصاره في الجنوب الشرقي الجزائري.

ب- تنسيق الجهود و التعاون مع بعض الثائرين الجزائريين

لم يكتف سلمان بن جلاب بإعلان الثورة في وجه الفرنسيين بالاعتماد على إمكاناته الفردية، بل كان أيضا يتعاون مع بعض الثائرين الجزائريين الذين كانوا يقاسمونه الهدف نفسه و هو مقاومة المحتل الفرنسي، كما جمعته بهم ظروف مشتركة تتمثل في هجرتهم إلى البلاد التونسية بهدف الاحتماء بها، و جعلها « قاعدة خلفية » لممارسة نشاطهم الثوري الموجه ضد المحتل الفرنسي. و ظل سلمان بن جلاب في ظل كل ثائر جزائري لعله يسترجع سلطته التي سلبت منه. و إذا أردنا توظيف

[1] نشر « فيرو » نص هذه الرسالة في أصلها العربي، ثم قام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية، حول ذلك ينظر:

- L.ch. Féraud: « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de constantine », in R.A n° 23, Année 1879, pp 49-54.

[2] L.ch. Féraud: « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de constantine », in R.A n° 25, Année 1881, p 199.

[3] إبراهيم محمد الساسي العوامر: المرجع السابق، ص ص 312، 313.

المفاهيم السياسية و القانونية المعاصرة، نقول أن سلمان بن جلاب كان يعتقد أنه « صاحب شرعية » لذلك وجد ضالته في ثائر ورقلة الشريف محمد بن عبد الله، و الناصر بن شهرة، و الشريف بوشوشة، و محي الدين نجل الأمير عبد القادر الذين تعاون معهم و نسق الجهود الثورية معهم. فما مظاهر هذا التنسيق الثوري؟ و كيف كان رد فعل الفرنسيين على ذلك؟.

أولا– التنسيق و التعاون مع ثائر ورقلة الشريف محمد بن عبد الله.

رأينا فيما مضى أن الشريف محمد بن عبد الله كان قد أعلن الثورة في وجه الفرنسيين منذ بداية أربعينات القرن 19م، و بقي يحارب الفرنسيين بالجنوب الشرقي تارة، و تارة أخرى كان ينزح إلى الجنوب الغربي التونسي. و عندما ثار سلمان بن جلاب ضد الفرنسيين في بداية الخمسينات وجه نداء إلى شريف ورقلة من أجل التعاون معه و تنسق الجهود بهدف إعلان الجهاد ضد المسيحيين، كما وجه ذات النداء إلى كل أعداء فرنسا بالمنطقة، و تحصل على دعم سكان سوف و كافة قرى وادي ريغ. و استجاب محمد بن عبد الله للنداء الذي وجهه له حيث سار اتجاهه على رأس قوة عسكرية كبيرة تتشكل من 200 فارس و 800 جندي من الفنطازية و تقدم بها لمؤازرة سلمان بن جلاب المتحصن بمدينة تقرت.[1]

و قد عثر الفرنسيون على رسالة بعث بها سلمان بن جلاب إلى صديقه محمد بن عبد الله يطلب فيها تزويده بمختلف تجهيزات الحرب كالرايات و الأعلام التي يستعملها جنوده في « الحرب المقدسة » التي سيخوضونها ضد الفرنسيين، فتأكدوا بذلك من سوء نيته لأنه في تلك الأثناء كان يتواصل معهم و يعرض عليهم استسلامه.[2] و تبعا لذلك ازدادت مخاوفهم، فاقتنعوا بضرورة مضاعفة القوة من أجل القضاء عليه بمعية رفيقه محمد بن عبد الله، فأعدوا لذلك العدة، و احترسوا كثيرا، و وضعوا خطة عسكرية دقيقة مستفيدين من الأخطاء التي اقترفوها في الماضي. و نلمس ذلك من خلال ما قاله الجنرال « ماكماهون » القائد الأعلى لمقاطعة قسنطينة في مذكراته، و هو الذي أعطى الأمر للقوات الفرنسية بقيادة الجنرال « ديفو » بضرورة التحرك لإحكام السيطرة

(1) L.ch. Féraud: op.cit, p 198.
(2) Ibid : pp 135, 136.

على مدينة تقرت في خريف عام 1854م حيث قال: « كانت توصياتي للعقيد ديفو هكذا: ابذل جهدك في مقابلة جماعات محمد بن عبد الله و سلمان. و في خلال ذلك تجنب أن تشتبك معهم في الواحات إذ أن سكان الواحات يحسنون الدفاع عن أنفسهم على أحسن وجه و ذلك ما وقع لي عند حصار الزعاطشة سنة 1849م، و هو الحصار الذي دام خمسين يوما و كلفنا استخدام قوات كبيرة و خسائر فاذحة. و قد كان على العقيد أن يتجنب مهاجمة تقرت مباشرة و هي المدينة الأكثر أهمية في وادي ريغ يحيط بها سور ذو شرفات و خنادق عميقة واسعة يملؤها الماء دائما. و ذلك ما يجعلها صالحة للدفاع الجدي... » [1]

و في بداية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1854م تلقت القوات العسكرية الفرنسية المرابطة بدائرة باتنة أمرا يقضي بضرورة تحركها دون إبطاء صوب الجنوب لمحاربة سلمان بن جلاب الذي سيطر على مدينة تقرت [2] و في تلك الأثناء كان سلمان بن جلاب، قد أكمل جميع استعداداته لمواجهة الفرنسيين حيث قام بتنظيم عملية الدخول و الخروج إلى مدينة تقرت، فأغلق باب عبد الرحمان أحد الأبواب الرئيسية للمدينة، و الاكتفاء بفتح باب واحد فقط و هو باب الخضراء، و كلف عدة أعوان حراسة يسهرون على التحقيق في هوية الغرباء و الأجانب الذين يدخلون المدينة عبر هذا الباب الوحيد.[3]

و في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1854م حطت القوات الفرنسية عصا ترحالها ببلدة المقرين الواقعة بالجهة الشمالية من تقرت حيت فضل الفرنسيون عدم مواجهة شيخ تقرت بمقر حكمه. و قد عضده في ذلك محمد بن عبد الله، و ذلك عملا بتوجيهات قائد مقاطعة قسنطينة الجنرال ماكماهون، و دارت معركة حامية بين الفريقين بهذه البلدة. و يذهب « ماكماهون » إلى القول أن الخطة التي طبقها الجيش الفرنسي مكنته من تحقيق انتصارات كاسحة على جيش سلمان بن جلاب و ثائر ورقلة محمد بن عبد الله، حيث أفضت إلى قتل 500 فارس، و هو العدد الذي كان يشكل العمود الفقري لجيش هذا الثائر، كما دب الرعب في قلوب و أتباع الثائرين الذين لاذوا بالفرار على غير هدى تاركين أعلامهم و راياتهم و 1000 بندقية و عددا غير قليل من السيوف في مسرح المعركة، و اتجهوا إلى تقرت للتحصن فيها. و خلال الليل غادرها ثائر ورقلة و رفيقه سلمان بن جلاب،[4]

---

[1] الماريشال ماكماهون: المصدر السابق، ص ص 167، 168.

[2] L.ch. Féraud: « Les Ben-Djellab Sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 23, Année 1879, p 55.

[3] L.ch. Feraud : « Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes Historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 23, Année 1881, p 201.

[4] الماريشال ماكماهون: المصدر السابق، ص ص 168، 169.

و هو الأمر الذي سهل على الفرنسيين السيطرة من جديد على مدينتي تقرت و ورقلة في بداية شهر ديسمبر 1854م. [1]

ثانيا- التنسيق و التعاون مع الثائر الناصر بن شهرة.

إلى جانب ثائر ورقلة محمد بن عبد الله، نسق سلمان بن جلاب جهوده الثورية مع الثائر الناصر بن شهرة الذي فتح أمامه أسواق مدينة تقرت للتزود بكل ما كان يحتاجه من سلع و ذخائر[2]. و لم يكن الناصر بن شهرة يتزود من أسواق هذه المدينة بحرية فحسب، و إنما أيضا كان يلجأ إليها للتداوي و الراحة. ففي شتاء عام 1853م خاض هذا الثائر معركة ضارية ضد الفرنسيين إلى جانب رفيقه محمد بن عبد الله، و قد أصيب خلالها بجروح بليغة، فأضطر إلى الانسحاب إلى مدينة تقرت في ضيافة صديقه سلمان بن جلاب ليتلقى العلاج الكافي و العناية اللازمة. [3]

و لعل الفرصة لم تسمح للرجلين بالتنسيق و التشاور في العمل داخل الجزائر بشكل كبير بالقدر الذي سمحت لهم به خارج الجزائر و تحديد على التراب التونسي. فبعد إحكام الفرنسيين سيطرتهم على مدينة تقرت، و سوف و ورقلة و تنصيب ممثليهم من القادة الأهليين على رأس هذه المناطق، هاجر سلمان بن جلاب رفقة رفيقه الناصر بن شهرة إلى منطقة الجريد بالجنوب الغربي التونسي[4]. و هناك تمتنت العلاقات بينهما بشكل كبير كما تمتنت بين سائر الثائرين الآخرين الهاربين هناك من الضغط الاستعماري. فعلى إثر هجرة الناصر بن شهرة إلى البلاد التونسية، نشط في كتابة عدة رسائل إلى الرسميين التونسيين. و نفهم من هذه الرسائل أن علاقته بهم كانت وطيدة، حيث كان يعزيهم في مصابهم من ذلك مثلا رسالة العزاء التي أرسلها إلى محمد باي تونس إثر وفاة أحد أقاربه، و مما ذكر فيها : « عظم الله أجركم ... و يجعل البرك (كذا) فيك ماهش (كذا) في لطاع (كذا) ... » [5].

---

[1] Henri Garrot : op.cit, p 894.

[2] Colonel Trumelet : Les Français dans le désert, op.cit, p 44.

[3] L.ch. Féraud :op.cit, p 207.

[4] أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد الخامس، المرجع السابق ص 363.

[5] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930: رسالة الناصر بن شهرة إلى محمد باي، و هي غي مؤرخة، و يبدو أنها كتبت ما بين عامي 1855م و 1859م، و هي فترة حكم هذا الباي، وثيقة رقم 29.

- Voir aussi la traduction de cette lettre : lettre sans date et portant au verso le cachet de Ben-Djellab, n° 12.

و لا تهمنا كثيرا أخبار هذه الرسالة و غيرها من المراسلات التي كان يرسلها الناصر بن شهرة إلى الرسميين التونسيين، إنما الشيء الذي يهمنا في هذا السياق هو علاقة هذه الرسالة بسلمان الجلابي التي تكمن في أنها كانت موقعة من قبله، كما وضع ختمه عليها، مما يدل دلالة واضحة على أن ثمة علاقة وطيدة جمعت بينهما هناك على التراب التونسي.

و في 1867/02/07م أرسل الحاكم العام الفرنسي برقية إلى رئيس قسمتي وهران و باتنة حدثهما فيها عن المعلومات المتضاربة التي وردت إلى مكتبه حول سلمان بن جلاب ورفيقه الناصر بن شهرة حيث ذكر لهما أنه في الوقت الذي أخبره فيه المسؤولون الفرنسيون بالأغواط أن الرجلين دخلا منطقة ميزاب و متليلي رفقة حشد كبير من الأنصار و المؤيدين لضرب المصالح الفرنسية هناك، بلغته في مقابل ذلك أخبار أرسلها له القنصل الفرنسي المعتمد بتونس تفيد أن سلمان بن جلاب وضع تحت المراقبةالمستمرة بتونس، و أن السلطات التونسية تحرجت كثيرا من سلوكاته و منعته من العودة إلى التراب الجزائري. و في نهاية هذه البرقية ذكر الحاكم العام أن المعلومات التي وردته من الأغواط غير دقيقة و مصادرها ضعيفة و تنطوي على كثير من القصور.[1] و بهذا يمكن القول أن القادة الفرنسيين كانوا يتتبعون باهتمام بالغ أخبار تعاون سلمان بن جلاب مع الناصر بن شهرة، و أن تعاونهما كان قد أربك قادتهم وراحوا يرسلون معلومات خاطئة حول نشاط هذين الثائرين.

ثالثا- التنسيق و التعاون مع الثائر بوشوشة.

أما علاقة سلمان بن جلاب بالثائر بوشوشة، فقد توطدت هي الأخرى بينهما إثر الانتصارات الكاسحة التي حققها هذا الثائر على الفرنسيين و أعوانهم بمنطقة الصحراء. ففي 1871/05/13م سيطر بوشوشة على مدينة تقرت و أخذ ينظم أحوالها، [2] و عين سلمان بن جلاب قايدا عليها [3]. و بهذا نرى أن سلمان بن جلاب و منذ هجرته إلى البلاد التونسية بقي يحلم بالعودة إلى تقرت، و قد سلك في سبيل ذلك كل السبل، و تخندق في معسكر كل ثائر إنفض من حول الفرنسيين، فانتصر إلى الثائر بوشوشة الذي عينه قايدا على تقرت التي فر منها ذات ليلة من عام 1854، و بذلك حقق سلمان بن جلاب حلمه في الاستحواذ على هذا المنصب. و ربما لم يكن يعلم أن الفرنسيين سوف يعيدون إطباق سيطرتهم على هذه المدينة بسرعة فائقة، و إلا ما كان يرضى بشغل هذا المنصب .

[1] A.O.M : 2H57 : Dépêche Telégraphique de Mr le Commandant des Forces à Mrs les Généreaux de division de Batna et Oran Expédiée d'Alger le 07/02/1867.
[2] Le Comte de Margon : op.cit, pp 46, 47.
[3] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860. 1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 281.

رابعا– التنسيق و التعاون مع محي الدين نجل الأمير عبد القادر.

من الثائرين الذين وجد فيهم سلمان بن جلاب ضالته أيضا كان محي الدين نجل الأمير عبد القادر الذي أعلن الجهاد ضد الفرنسيين في نهاية عام 1870م و بداية عام 1871م على الحدود الجنوبية الشرقية للجزائر كما عرفنا سابقا في معرض الكلام عن دور العائلات الكبرى في محاربته. و كان الفرنسيون يتتبعون أخبار العلاقة التي ربطت بين الرجلين باهتمام كبير. فخلال شهر يناير من عام 1871م، ألقت السلطات الأمنية الفرنسية على التراب الفرنسي القبض على أحد الزنوج الفارين من الخدمة العسكرية بالجزائر. و بعد استجوابه تبين أن هذا الشاب البالغ من العمر 26 سنة كانت تربطه علاقات وطيدة بالمسؤولين الفرنسيين بالجزائر و تونس، و كان يعيش بتونس في خريف عام 1870م، كما كان يعرف جيدا محي الدين، و رفيقه سلمان بن جلاب. [1]

و قد تخوفت السلطات الاستعمارية الفرنسية من التقارب الذي جمع بين سلمان بن جلاب و محي الدين فطلبت من السلطات التونسية توقيف سلمان بن جلاب و منعه من الاتصال برفيقه و جماعته. و تبعا لذلك قامت السلطات التونسية باعتقال سلمان بن جلاب و وضعته تحت الحراسة المشددة، و كلفت ثلاثة جنود يقومون بحراسته و يرصدون كل حركاته.[2] و يبدو أن اعتقاله هذا كان لمدة وجيزة ليس إلا، و ربما كان أيضا تحت الضغوط الفرنسية لأن السلطات التونسية سرعان ما أطلقت سراحه، غير أنها بقيت تتبع أخبار تعاونه مع محي الدين، و هذا ما نفهمه من التقرير الذي كتبه أمير الأمراء إلى الوزير التونسي خير الدين، و الذي حدثه فيه عن المجهودات التي قامت بها مصالحه في سبيل جمع معلومات حول نشاط هذين الرجلين، مؤكدا له أن أخبار محي الدين نجل الأمير عبد القادر قد انقطعت « و أما سي سليمان بن جلاب فقد بلغنا أنه في الأيام الفارطة أرسل سيارا لجهة ورقلة (كذا) و نفزة (كذا)... » [3].

---

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الصندوق 255، الملف 723، وثيقة مؤرخة في 1871/01/22م، الساعة 11 و 40 دقيقة، و هي غير مرقمة. و يبدو أن التقرير الذي تضمنته هذه الوثيقة كان بقلم المخابرات الفرنسية بتونس حيث طلب من الجهة الموجه لها العمل على رصد حركات هذا الزنجي و جمع معلومات كافية حول نشاطه بتونس.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 226.

[3] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، صندوق 219، ملف 333: تقرير أمير الأمراء سليم إلى الوزير خير الدين بتاريخ 23 ربيع الأنوار 1288هـ (و هو تاريخ يوافق 1871/06/12م)، وثيقة رقم 90.

و هذا يعني أن سلمان بن جلاب بقى متمسكا بنهجه الثوري، و ظل يتواصل مع أطراف في ورڤلة و تڤرت، لم يحددها هذا التقرير بدقة. أما رفيقه محي الدين فكانت مقاومته في تلك الأثناء قد انطفأت و أخباره انقطعت منذ أفريل 1871م نتيجة لعدة أسباب موضوعية أتينا على ذكرها سابقا حالت دون استمرارها.

و يتبين لنا مما تقدم ذكره أن سلمان بن جلاب كان قد ثار في وجه الفرنسيين لأنهم حرموه من « حقه الشرعي » في الحصول على منصب قايد تڤرت الذي منحوه ابتداء إلى الصبي عبد القادر بن جلاب الذي كان تحت وصاية جدته ذات « الخبرة الواسعة ». و كان الفرنسيون يرومون من وراء هذا الإجراء ذر الرمال في عيون هذه العائلة لأن هذا المنصب سرعان ما انتقل إلى عائلة بوعكاز الذواودة و تحديد إلى زعيمها علي باي بن فرحات بن السعيد عام 1854م. و قد حارب سلمان بن جلاب الفرنسيين انطلاقا من الجزائر و تونس على حد سواء، كما راسل المسؤولين الفرنسيين كذلك في البلدين عارضا عليهم خدماته و مجددا استسلامه. غير أنهم كانوا دائما يرفضون طلبه، بل أنهم لم يتجشموا عناء النظر في رسائله الكثيرة التي كان يرسلها لهم لأنهم كانوا يعرفون جيدا طموحه غير المتناهي، و السبب الحقيقي لثورته، فهمه الوحيد كان استرجاع ملكه المسلوب. و ربما لو أسندوا له هذا المنصب الذي ثار من أجله لوضع السلاح، و حارب إلى جانبهم القوى الوطنية و سائر الثائرين الذين انضم إلى صفهم،! و لعل هذا السبب هو الذي كان وراء فشل ثورته.

3– ثورة الزواغة و فرجيوة عام 1864م و إرتماء عائلة بوعكاز بن عاشور فيها.

عندما اندلعت ثورة سكان الزواغة و فرجيوة خلال شهر مارس من عام 1864م ارتمى فيها أولاد عز الدين كما رأينا، كما ركب موجتها أيضا زعماء و وجهاء عائلة بوعكاز بن عاشور و على رأسهم الشيخ أحمد بوعكاز. و مع محاولتنا صرف النظر في هذا السياق عن الحديث عن ثورة أولاد عز الدين لأننا فصلنا الكلام عنها سابقا، إلا أنه بدالنا من الضروري أن نشير إليها من حين لآخر لأن الكلام عن ثورة عائلة بوعكاز يكون بالضرورة مرادفا للكلام عن ثورة أولاد عز الدين، بل أن تاريخ العائلتين نجده دائما مرتبطا ببعضه البعض بحكم علاقة الجوار التي تربط بينهما، و كذلك بحكم علاقة الصراع و التنافس على الحكم التي كانت قائمة بينهما و التي كان الفرنسيون سببا فيها. فكيف تم ذلك؟ و كيف كان رد فعل السلطات الاستعمارية الفرنسية على موقف شيخ فرجيوة أحمد بوعكاز من هذه الثورة؟.

يقول الضابط الفرنسي « فيرو » أنه قبل اندلاع أحداث ثورة سكان الزواغة و فرجيوة عقد زعماء عائلتي أولاد عز الدين و بوعكاز بن عاشور عدة اجتماعات فيما بينهم من أجل تنسيق الجهود لضرب المصالح الفرنسية في مناطق نفوذهما و ذلك رغم الخلافات الكبيرة التي كانت موجودة بينهما و العداوة التاريخية المستشرية بينهما. و قد جنح زعماء العائلتين إلى التقرب فيما بينهما بفعل المصلحة المشتركة التي جعلتهما يوحدان كلمتهما و يدفعان بسكان المنطقة إلى الثورة في وجه الفرنسيين. هذه الثورة التي اختاروها كأسلوب للتعبير عن سخطهما من السياسة الاستعمارية الحازمة التي باشرها الفرنسيون ضدهما و المتمثلة أساسا في التضييق عليهما و التقليص من مهامهما. و قد دفعوا سكان المناطق المنضوية تحت لوائهما للثورة حتى يظهروا للفرنسيين بأنهما يشكلان عنصرا مهما في معادلة المشروع الاستعماري الفرنسي و توازناته بهذه المناطق، و أن الفرنسيين لا يمكنهم بأي حال من أحوال لجم ثورات السكان و من ثمة الشعور بالأمن و الاستقرار في هذه المناطق دون الارتكاز على خدماتهما.[1] و نفهم من كلام هذا الضابط الفرنسي أنه كان حريصا على ربط ثورة أولاد عز الدين و بوعكاز بن عاشور بأسباب شخصية حتى يفرغها من محتواها الوطني و هي عادة درج عليها معظم الكتاب و المؤرخين الفرنسيين.

كانت أنظار الفرنسيين متجهة إلى الشيخ أحمد بوعكاز الذي قرروا توقيفه بتهمة التسبب في هذه الثورة و التحريض عليها، إلا أنهم كانوا متخوفين و مترددين كثيرا من الإقبال على هذه الخطوة لأنهم كانوا يعلمون أن لديه أتباعا كثيرين في المناطق التي كانت خاضعة لحكمه بفرجيوة أو حتى بمدينة قسنطينة. و هذا ما أشار إليه رئيس القطاع العسكري القسنطيني في تقريره الذي أرسله إلى الحاكم العام بالجزائر في تلك الأثناء حيث ذكر له أن مصالحه على مستوى مدينة قسنطينة تلقت معلومات دقيقة حول هذا الموضوع مؤداها أن توقيف الشيخ أحمد بوعكاز يمكن أن تنجر عنه نتائج وخيمة على الأمن الفرنسي بقسنطينة، و في كل المناطق التي يتركز فيها أتباعه الكثيرون الذين يمكن أن يبدون ردود أفعال انتقامية منا جراء ذلك[2]. و رغم ذلك أقبل الفرنسيون على توقيفه يوم 11 أفريل 1864م.[3] و الثابت أنهم احتاطوا كثيرا لهذه المسألة و باشروا عدة تدابير احترازية تجعلهم بمنأى عن ردود أفعال هؤلاء الأنصار سواء في مدينة قسنطينة أو في سواها من مناطق فرجيوة و الزواغة.

---

[1] L.ch. Feraud : « Histoire des villes de Constantine : Setif », op.cit, pp 165, 166.

[2] A.O.M : 2H69 : Rapport du Général Commandant de la division de Constantine à Mr le Gouverneur Général à Alger, daté le 20/03/1864.

[3] Charles-Robert Ageron : op.cit, p 57.

على إثر توقيفه احتج الشيخ أحمد بوعكاز بشدة على الفرنسيين الذين اتهموه بمحاولة الفرار من قسنطينة محاولا إثبات براءته بمختلف الطرق و الوسائل، فخاطبهم بالقول «... لقد بلغت من الكبر عتيا، و وصلت سن 67 سنة إنني بريء من كل التهم الموجهة لي، إن العونين اللذين أوقفاني قاما بجرد كل ممتلكاتي، و سجلوا في محاضرهما أنني أملك 10.000 فرنك فرنسي، و كميات معتبرة من المجوهرات و الأثاث. فهل يعقل أن الشخص الذي يملك هذه الثروة يفرط فيها و يغادر مدينة قسنطينة و يترك كل أملاكه و أبنائه بها. و الأكثر من هذا أن هذه الثروة تحصلت عليها في كنف الحكومة الفرنسية، فلا يعقل أن أثور ضدها و أطعنها في الظهر. و إذا كان من المتصور أن الفقراء و المسحوقين يثورون ضدكم لأن ليس لديهم شيء يخشون ضياعه، فإنه من غير المتصور أن الأغنياء يقومون بذلك... ».[1]

و بعد القضاء على ثورة سكان فرجيوة و الزواغة، أنشأ الفرنسيون لجنة تحقيق عكفت على دراسة الأسباب الحقيقية لهذه الثورة، كما حددت بدقة الأطراف التي ساهمت في تفجيرها. و خلصت هذه اللجنة إلى أن هذه الثورة كانت بإيعاز من شيوخ و وجهاء كل قبائل المنطقة لاسيما الشيخ يوسف بن رميتة، و الشيخ صالح بن علي، و كل مقدمي الطريقة الرحمانية، و كل ممثلي الشيخ أحمد بوعكاز و أولاد عز الدين بفرجيوة و الزواغة. [2] و بهذا تكون هذه اللجنة قد أدانت صراحة الشيخ أحمد بوعكاز و تمكنت من تثبيت التهمة التي وجهت له، فتم نفيه إلى الخارج كما سنرى لاحقا.

على هذه الشاكلة كانت نهاية الشيخ أحمد بوعكاز، فرغم تحالفه مع الفرنسيين و الدخول في خدمتهم و تمكينه لهم في المناطق الصعبة التي كان يبسط عليها سيادته إلا أنهم لم يطمئنوا له، ففرضوا عليه الإقامة الجبرية بقسنطينة، ثم وجهوا له تهمة التحريض على ثورة سكان فرجيوة و الزواغة عام 1864م، و أنشئوا لجنة أوكلوا لها مهمة التحقيق في هذه الثورة، فثبتت التهمة التي وجهوها له. و على إثر ذلك تم نفيه إلى الخارج. فهل النتائج التي خلصت إليها هذه اللجنة كانت مؤسسة على أسانيد قانونية دامغة و قوية؟ و هل أعضاء هذه اللجنة كانوا حقا أعضاء مستقلون كما تقتضي قواعد التحقيق ينشدون الوصول

---

(1) A.O.M : F80. 1679 : Bouakaz à Abdel kader, le 17/07/1865.

(2) A.O.M : F80 1679 : Rapport du Général Commandant de la division de Constantine à Mr le Ministre de la Guerre au Sujet de la Situation de Benachour, daté le 25/06/1864.

إلى الحقيقة كيفما كانت؟ و هل فعلا قام الشيخ أحمد بوعكاز بتحريض السكان على الثورة ثم حاول مغادرة مدينة قسنطينة للالتحاق بهم أم أن هذه التهمة كانت مجرد مؤامرة « un complot » حاكها الفرنسيون ضد حليفهم السابق حتى يتخلصون منه و من عائلته لاسيما و أن الحجج التى قدمها لهم أثناء مرافعته لتبرير ساحته كانت قوية و وجيهة و منطقية؟. و بصرف النظر عن إدعاءات الفرنسيين و دفوع الشيخ أحمد بوعكاز، فإن الفرنسيين وجدوا في ثورة سكان فرجيوة و الزواغة عام 1864م مسوغا قويا للتخلص من عائلتي أولاد عز الدين و بوعكاز بن عاشور. و هي الإستراتيجية التي سيعتمدونها مع العائلات الأخرى، و خاصة عائلتي الرزقي و عائلة المقراني عام 1871م كما سنعرف.

4- ثورة عائلة الرزقي

ثارت عائلة الرزقي الحناشية ضد الوجود الفرنسي منذ نهاية ستينات القرن 19م. و قاد ثورتها محمد الكبلوتي بن الطاهر الرزقي أحد أحفاد الشيخ الرزقي بن منصور صديق الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة. و قبل أن يثور على السلطة الاستعمارية الفرنسية كان محمد الكبلوتي قد دخل في خدمة الفرنسيين الذين منحوه منصب قايد الحنانشة عام 1858م خلفا لعمه أحمد صالح الرزقي. و كانت بداية عمله مع الفرنسيين بداية متميزة، حيث كان يحظى باحترام كبير من جانبهم. و كان الفرنسيون ينظرون إليه بإعجاب شديد، و يحترمونه احتراما كبيرا في بداية عمله معهم، غير أنهم سرعان ما تخلوا عن خدماته فأزاحوه من هذا المنصب يوم 11 من يناير 1865م.[1]

و اعتبارا من عام 1868م أصبح الكبلوتي عدوا لذوذا للفرنسيين فأعلن ثورته بمنطقة سوق أهراس، و المناطق الشمالية الغربية الحدودية، و شكل فريقا من الخيالة و لجأ إلى البلاد التونسية. و منها شرع يخطط للثورة و ينظم هجماته المتكررة ضد الفرنسيين و أعوانهم. و قد وجد الدعم والمساندة من بعض القبائل التونسية لاسيما بني شنوف إحدى فصائل قبيلة الحنانشة الجزائرية التي أمدته بالسلاح و الخيول. فشن غارات متكررة على قبيلة أولاد خيار شرق منطقة سوق أهراس. و خلال شهر أفريل 1869م اتجه رفقة فرسانه إلى قرى بوحجار و مداوروش لإحكام سيطرته عليهما. و آزره في ذلك بعض الأنصار و المؤيدين التونسيين و بالأساس حليفيه الوفيين له السديري و الوشتاتي اللذين تمركزا في المناطق الحدودية المتاخمة للقريتين. و أمام هذه التطورات تدخلت السلطات الاستعمارية الفرنسية بقوة لوضع حد لهذه الثورة التي بدأت نواتها تتشكل على يد الكبلوتي و أنصاره الجزائريين و التونسيين على حد سواء، فأرسلت قائدا

---

[1] A.O.M : 6H33, Fiche sur keblouti Ben Tahar.

عسكريا جديدا لدائرة سوق أهراس، و هو العقيد « بودي راينو » « Baudet Reynaud » و كلفته بالقضاء الفوري على هذه الثورة. وبالموازاة مع ذلك حاولت الضغط على محمد صادق باي تونس لكي يتبنى موقفا معاديا من الثائر الكبلوتي ويحقق المصلحة الفرنسية. و قد حققت هذه التدابير نتائجها في الحين، حيث أدت إلى إضعاف حركة الكبلوتي، ذلك أن حكام تونس أعطوا أوامرهم بمطاردة هذا الثائر خلال شهر أفريل عام 1870م، فلاحقته إحدى المحلات التونسية حتى الجهات الحدودية، فاحتمى بمنطقة ساقية سيدي يوسف، و هناك راسل الباي التونسي و طلب منه الحماية. و كما درجت العادة كان هذا الباي وفيا لـ « مبادئ الضيافة و الأخوة »، فسمح له بالاستقرار في هذه المنطقة الحدودية.

و لم يتوقف كرم هذا الباي عند هذا الحد، بل أكثر من ذلك منحه قطعة أرض إلا أنه أشترط عليه التوقف عن شن غارات ضد الفرنسيين الموجودين على التراب الجزائري [1].

لا يختلف اثنان في أن موقف الباي التونسي في هذه الحالة من الثائر الكبلوتي و جماعته كان موقفا إنسانيا رصينا متوازنا أملته ظروف موضوعية معينة راعى فيها مختلف التوازنات. فمن جهة لم يفرط في مبادئ القيم الإسلامية و الإنسانية التي تقضي بإغاثة و استضافة و حماية اللاجئين لاسيما إذا كانوا مسلمين، فوفر له و لجماعته الحماية و اقتطعه قطعة أرض على المنطقة الحدودية، و من جهة أخرى حاول أن يكون في مستوى طموح القيادة الاستعمارية الفرنسية من خلال منعه من شن الغارات على الفرنسيين انطلاقا من التراب التونسي، علما أن فرنسا في تلك الأثناء كانت تمارس عليه ضغوطا كبيرة و تفسر موقفه المتعاطف مع المهاجرين الجزائريين على أنه موقفا معاد لها و لمصالحها في الجزائر.

و رغم ذلك فإن الفرنسيين لم يقتنعوا بهذه الإجراءات و « الحلول الوسطى » التي قام بها الباي التونسي تجاه مشكلة الثائر الكبلوتي و جماعته، و كل اللاجئين الجزائريين الذين كانوا يفضلون الاحتماء بالبلاد التونسية. و كانوا يقولون بأن التراتيب التي يباشرها بايات تونس نجاه هذا الموضوع من شأنها أن تشجع « المتمردين » الجزائريين على ضرب المصالح الفرنسية في الجزائر، و تسهل حركة الهجرة إلى تونس، هذا ما نستنتجه من مراسلاتهم التي كانوا يتبادلونها حول هذه المشكلة الشائكة التي كانت تؤرقهم كثيرا.[2]

[1] H'sen Derdour : op.cit, pp 435, 436

[2] I.S.H.M.N.T : A.O.M : Série 25H, Carton 25H18 (2), Dossier n° 2, Bobine A 27 : Lettre du Gouverneur Général d'Algérie au Ministre des Affaires Étrangères le 12/11/1874, Folio 784.

و في بداية عام 1871م اندلعت ثورة الصبايحية في زمالات مجبر و الطارف و بوحجار و عين قطار بالشرق الجزائري، و امتد لهيب هذه الثورة إلى وسط البلاد. و كانت عائلة الرزقي من العائلات التي احتضنت هذه الثورة و شجعت فرسان الصبايحية على العصيان. و قبل أن نعرض إلى دور هذه العائلة الفاعل في هذه الثورة، نرى من الجائز تقديم لمحة موجزة عنها لأن ذلك سيساعدنا على الفهم العميق للأحداث التي نسوقها. فما طبيعة هذه الثورة؟ و ما هي خلفياتها و أسبابها؟.

ففي يوم 1870/07/19م اندلعت الحرب البروسية الفرنسية،[1] وزج الفرنسيون بعدد هائل من المجندين الجزائريين فيها، و قدر عددهم بنحو 20 ألف مجند نصفهم قضى نحبه في المعارك العنيفة التي كانوا طرفا فاعلا فيها. [2] و في بداية شهر يناير عام 1871م، أصدرت القيادة الفرنسية أمرا يقضي بتجنيد فرقة الصبايحية للحرب في فرنسا، و تسفير عدد كبير منهم إلى أوروبا لمواجهة الجيوش البروسية، و هو إجراء يخالف شروط العقد الذي أبرمه جنود هذه الفرقة لأن مهمتهم المركزية كانت تنصرف إلى مراقبة القبائل و التبليغ لدى السلطات الاستعمارية الفرنسية عن كل حركات مريبة يقوم بها السكان و التدخل لقمع حركات التمرد و الشغب تحت إشراف الضباط الفرنسيين أي أن مهامهم كانت محددة جغرافيا داخل القطر الجزائري و تحديدا على مستوى المناطق التي كانوا يسكنونها، و هذا يعني أن قرار تسفيرهم إلى الخارج يعد خرقا واضحا لشروط العقد الذي أبرموه مع الإدارة الفرنسية عند إنتسابهم للعمل داخل هذه الفرقة. [3]

و تنفيذا لهذا الأمر باشرت الإدارة العسكرية الفرنسية إجراءات تسفير هذه الفرقة بدائرة سوق أهراس التي كانت تتمركز بها زمالة عين قطار، و كذلك بشعبة عنابة التي توجد بها زمالة الطارف، و زمالة بوحجار. و قد حدد المسؤولون الفرنسيون موعد ترحيل هذه القوى يوم 22 من يناير 1871م، و ذلك بناء على طلب وزير الحربية الفرنسي[4]. غير أن جنود الصبايحية رفضوا الامتثال إلى قرار التجنيد و ألحوا على عدم مغادرتهم أرض الجزائر، و خاطب صبايحية الطارف الفرنسيين بالقول: « لقد نذرنا أنفسنا لخدمة فرنسا، و نحن مستعدون للدفاع عن أرض الجزائر الفرنسية حتى آخر قطرة من دمائنا.

[1] Jacques Madaule : op.cit, p 357

[2] بوعلام بالسايح: « المقراني »، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، العدد 100. 1988، ص 18.

[3] Charles-Andre Julien : op.cit, p 475.

[4] A.O.M : 36k 39 Rapport Annuel du Cercle de Souk-Ahras pendant l’Année 1871 préparé par le Commandant Supérieur de Souk-ahras : Lettre du Ministre de la Guerre au Commandant Supérieur des Forces de terre et de mer en Algérie, le 16/01/1871.

و قد قبلنا هذه المهمة رغم حالة البؤس التي نعيشها، و قلة الأجور التي نتقاضاها، و غياب العدالة و الحيف و الظلم الذي نواجهه يوميا، و إذا كنا قد قبلنا بالخدمة في مثل هذه الظروف، فإن قبولنا مشروط ببقائنا على أرض إفريقيا، فلا يمكننا بأي حال من الأحوال، و مهما كان المبرر أن نغادر أرض الجزائر و نترك أبناءنا و نساءنا و عائلاتنا » [1].

قلنا إذن أن الصبايحية رفضوا الامتثال إلى أوامر تسفيرهم إلى فرنسا، ففروا من ثكناتهم بأسلحتهم و أمتعتهم، و تجمع حولهم أهاليهم. و قد وجد الغاضبون و القانطون من السلطات الاستعمارية الفرنسية فرصتهم الذهبية للانضمام إليهم، و من هؤلاء الناقمين وجهاء عائلة الرزقي و بالأساس المغضوب عليهم من لدن الإدارة الاستعمارية، و الذين تم الاستغناء عن خدماتهم. و يتعلق الأمر بأحمد صالح الرزقي و أحمد بن دحمان الرزقي. فالأول خدم الإدارة الفرنسية و مكن الفرنسيين و مشروعهم الاستعماري على مستوى المناطق التي حكمها لمدة ستة سنوات (1852م–1858م) قضاها كقايد على قبيلة النبايل، و قبيلة الحنانشة.[2]

و لم يفقد الفرنسيون ثقتهم الكاملة فيه، لذلك لجئوا إليه عندما اندلعت أحداث الصبايحية، فكلفوه بتهدئة خواطر الغاضبين، و تبليغهم قرار العفو الذي أصدره الحاكم العام الفرنسي على العناصر الساخطة و المتمردة، و ذلك في إطار سياسة التهدئة و ذر الرمال في العيون التي اتخذها هذا الحاكم من أجل التحكم في الوضع المضطرب بطرق سلمية، غير أن أحمد صالح الرزقي لم يتمكن من كظم غيضه و إخفاء حقده على الفرنسيين الذين تخلوا عن خدماته و انزلوه منزلة لا تليق به بعدما نالوا منه مبتغاهم. و عوض أن يحدث الصبايحية الغاضبين عن العفو الذي أصدره الحاكم العام في حقهم، و يدعوهم إلى العدول عن قرار العصيان والعودة إلى ثكناتهم، راح يحرضهم على الثورة، و يشجعهم على حمل السلاح ضد فرنسا الضعيفة المنكسرة أمام بروسيا، واصفا الفرنسيين بأوصاف دنيئة و حقيرة قائلا لهم: « أطلقوا النار على الفرنسيين، إنها فرصتكم الذهبية للتخلص من الذل و الهوان الذي فرضه عليكم هؤلاء الفرنسيون أبناء الكلاب. و أعلموا أنهم انكسروا أمام الجيوش البروسية، و أن عاصمتهم باريس قد سقطت و أن الجزائر أصبحت خالية من جيوشهم لأنهم قاموا بترحيلها إلى فرنسا من أجل الحرب » [3]

[1] A.O.M : 2H60 : Rapport du commandant supérieur du cercle de la Calle, le 27/01/1871
[2] A.O.M : 6H33 : Fiche sur Ahmed Salah Ben Resguy.
[3] A.O.M : 2H60 : Rapport politique du général Pouget commandant de la subdivision de Bône sur L'insurrection du district de Souk-ahras en 1871.

و أما أحمد بن دحماني الرزقي، الذي تخلى عن خدماته أيضا الفرنسيون يوم 1869/11/29م بعد فترة طويلة من الخدمة وصلت إلى 13 سنة (1856م –1869م) قضاها كشيخ على أولاد غنيم (1856م – 1858م)، و قايد لقبيلة و يلان (1858م – 1865م) ثم قايد لقبيلة الحنانشة (1865م–1869م) خلفا لمحمد الكبلوتي بن الطاهر الرزقي،[1] فقد كان من أكبر المحرضين على الثورة، و كانت له اتصالات قوية بالثوار الذين فروا من ثكنتهم بزمالة عين قطار يوم 1871/01/23م، و كان عددهم 15 عنصرا، و قاموا باغتيال أحد العسكريين الفرنسيين، غير أن الفرنسيين وجهوا تهمة اغتياله إلى حليفهم السابق أحمد بن دحماني الرزقي [2]. و بذلك تخندق هذا الزعيم الأهلي في المعسكر المعادي للفرنسيين بشكل واضح و جلي سواء كانت هذه التهمة صحيحة أم باطلة.

و في تلك الأثناء غادر محمد الكبلوتي ساقية سيدي يوسف بتونس، و التحق بالثوار، و عضده في ذلك شقيقه الفضيل بن الرزقي، و أحمد صالح الرزقي نجل الرزقي بن منصور. و بذلك تعاظمت قوة الثورة و أصبحت تهدد المصالح الفرنسية بالمنطقة، حيث قام الثائرون بإضرام النار في مزارع الكولون الأوروبيين في منطقة سوق أهراس، كما قاموا بتصفية تسعة منهم، ثم زحفوا على مقر مدينة سوق أهراس في 26 يناير 1871م، و أحكموا حصارهم عليها لمدة ثلاثة أيام، و عزلوها عن محيطها الخارجي حينما قاموا بقطع الخطوط الهاتفية التي تربطها بقالمة. و في 1871/11/30م اشتبكوا مع الفرنسيين في معركة دامية في منطقة عين سنور، و استمرت المناوشات بين الطرفين لأكثر من أسبوع، و أفضت في النهاية إلى مقتل 15 عنصرا في صفوف الجيش الفرنسي.[3] أما الضابط الفرنسي « رين »، فقد قلل من خسائر الفرنسيين في هذه المعركة و قال بأنها كانت ضئيلة تمثلت في إصابة جنديين فرنسيين بجروح، و هلاك ثلاثة خيول، أما الثوار فقد فقدوا ستة عناصر كلهم من أنصار الكبلوتي [4] في حين يذكر المؤرخ الفرنسي « ش. أ.جوليان » أن الثوار الذين نهبوا و أحرقوا مزارع الكولون

---

(1) A.O.M : 6H33 Fiche sur Ahmed Ben Dahmani.

(2) A.O.M : 6H6, Rapport Politique du Général Pouget Commandant de la Subdivision de Bône, op.cit.

(3) André Nouschi : Correspondance du Docteur A.vital avec Ismail Urbain (1845-1874), Paris, France, 1959, pp 316, 317.

(4) L.Rinn : op.cit, p 126.

قاموا باغتيال 14 عنصرا منهم، غير أنه لم يحدثنا عن خسائر الطرف الآخر أي الثوار أو « المتمردين » « les rebelles » على حد توصيفه الذين غادروا التراب الجزائري و دخلوا المجال التونسي [1] على رأس قوة قوامها 83 من فرسان الصبايحية.[2]

الواقع أن عودة الكبلوتي رفقة أنصاره إلى البلاد التونسية كانت قد أثارت بحق حفيظة المسؤولين الفرنسيين و بالأساس قنصلهم العام المعتمد بتونس الذي امتعض كثيرا من موقف المسؤولين التونسيين، و راح يتهمهم في مراسلاته التي كان يوجهها إلى المسؤولين الفرنسيين بأنهم لم يأخذوا على محمل الجد التعهدات التي تعهدوا بها تجاه الفرنسيين فيما يخص مشاكل الحدود المتعلقة بنزوح القبائل الجزائرية « و المتمردين » إلى التراب التونسي، لأنهم بقوا أوفياء لتطبيق سياسة الباب المفتوح أمام الوافدين إليها من الجزائر، و أنهم أغمضوا أعينهم عن دخول الثائر الكبلوتي و الصبايحية و الحنانشة و أولاد خليفة إلى بلادهم، و هذا عكس الخطاب الرسمي الذي يتبناه الباي التونسي و وزيره مصطفى خزندار. [3]

و على هذا الأساس باشرت السلطات الاستعمارية الفرنسية عدة اتصالات مع نظيرتها التونسية بهدف منع الكبلوتي، و جماعته من الصبايحية من شن غزوات تستهدف المصالح الفرنسية بالمناطق الحدودية للجزائر، فاستجابت السلطات التونسية لمطالب الفرنسيين استجابة مشوهة، حيث أمر الوزير خير الدين بتجريد الصبايحية الذين دخلوا التراب التونسي رفقة الكبلوتي من أسلحتهم، كما أمر بجلبهم إلى العاصمة تونس، غير أن خليفة الكاف اكتفى بتوجيههم إلى داخل تونس حتى يبعدهم عن مسرح الحرب و يذر الرماد في عيون الفرنسيين و يتفادى إحراجهم [4].

و على إثر وصوله إلى تونس شرع الكبلوتي في مراسلة المسؤولين التونسيين السامين طالبا منهم الحماية و الأمن له و لكل الأنصار الذين رافقوه، حيث كتب رسالة إلى محمد الصادق باي (1859–1874م) قال له فيها:

---

(1) Charles – André Julien : op.cit, p 476.

(2) L.Rinn : op.cit, p 126.

(3) I.S.H.M.N.T : A.O.M : Série 25H, Carton 25H18, Bobine A26:

- Dossier 4 : Lettre du Consul Général de France à Tunis au Gouverneur Général de L'Algérie le 24/08/1871, Folio 166.
- Dossier 5 : Lettre du Consul Général de France à Tunis au Commandant en Chef à Constantine, le 08/02/1871, Folio 177- Lettre du Consul Général de France à Tunis au Ministre des Affaires Étrangères, le 10/12/1871 Folio 189.

(4) A.O.M : 1KK 163 : Lettre du Général Commandant de la division de Constantine au Général Commandant des Forces de terre et de mer à Alger, le 11/02/1871.

«... و الآن سيدنا فها (كذا) دخلنا تحت حكمك و ممتثلين لأمرك و متشبثين لأمر الله ثم فضلك فإن أنعمت علينا بأعز جواب من عندك مرموقا بأمرك و نهيك فالحمد لله على فضل الله ثم فضلك... »[1]

كما كتب رسالة أخرى في اليوم نفسه إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار حدثه فيها عن أحكام الشريعة المحمدية التي تفرض على المسلم أن يوفر الحماية اللازمة لأخيه المسلم إذا طلب منه اللجوء إلى دياره، حيث ذكره بالآيات القرآنية التي تنص على ذلك و قال له: «... فالمقصود من جزيل فضلك أن تجعلنا تحت جناحك و تنظرنا (كذا) بعين رضاك فإن عين الرضى عن كل عيب كليلة فإن آوتينا فقد قال جل من قائل : « و الذين آووا و نصروا » و قال : «... و ما تفعلوا من خير يعلمه الله »و نسأل الله أن يزيدنا و أياك من فضله و رضاه بجاه نبيه الأواه (كذا) إنه على ذلك قدير و بالإجابة جدير... » [2]

و بالموازاة مع ذلك نشط أعوان الحكومة التونسية على مستوى المناطق الحدودية مع الجزائر في كتابة التقارير إلى السلطات العليا بتونس ليخبروها بكل أنشطة الكبلوتي و جماعته. و في هذا المنظور كتب المسمى محمد قعيد بن سالم رسالتين إلى كل من الوزيرين مصطفى خزندار، و خير الدين أحاطهما علما بوجود الكبلوتي و جماعته بتراب قبيلة أولاد بوغانم[3].

يتبين لنا من خلال هاتين الرسالتين أن المسؤولين التونسيين على مستوى الأقاليم كانوا يترصدون كل حركات هذا الثائر إلا أنهم لم يقدموا على اتخاذ إجراء ضده و هو الأمر الذي أثار حفيظة المسؤولين الفرنسيين في الجزائر و تونس على حد سواء، حيث ألح رئيس القطاع العسكري القسنطيني على المسؤولين في تونس على ضرورة تجريد الكبلوتي و جماعته من فرقة الصبايحية المرافقة له من كل الأسلحة التي تهدد الأمن الفرنسي في مقاطعة قسنطينة. [4]

[1] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية، الحافظة 212، الملف 240: رسالة الكبلوتي بن الطاهر الرزقي الحناشي إلى المعظم السيد الصادق باشا باي المشير في 3 ذو الحجة 1287هـ (و هو تاريخ يوافق 1871/02/24م)، وثيقة رقم 2.

[2] المصدر نفسه : رسالة الكبلوتي بن الطاهر الرزقي إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار في 3 ذو الحجة 1287هـ (و هو تاريخ يوافق 1871/02/24م)، وثيقة رقم 1.

[3] المصدر نفسه:

- رسالة محمد قعيد بن سالم إلى الوزير خير الدين في 08 محرم 1288هـ (و هو تايخ يوافق 1871/03/30م)، وثيقة رقم 3.
- رسالة محمد قعيد بن سالم إلى الوزير خير الدين في محرم 1288هـ (و هو تايخ يوافق 1871/03/30م)، وثيقة رقم 4.

[4] I.S.H.M.N.T : A.O.M : Serie 25H, Dossier n° 4 Bobine A26 : Lettre du Consul de France à Tunis à Mr le Vice Amiral Comte de Gueydon Gouverneur Génréral civil de L'Algérie à Alger, le 24 Avril 1871, Folio 23.

و كتب القنصل الفرنسي المعتمد في تونس رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر شكاه فيها تجاوزات السلطات التونسية المتعاطفة مع الكبلوتي و جماعته قائلا له «... أن القايد السابق الكبلوتي رفقة جماعته المتشكلة من زهاء ثمانين نفرا يتواجدون الآن على التراب التونسي و تحديدا في استضافة أولاد بوغانم. و رغم ذلك فإن السلطات التونسية أغمضت عيونها و لم تحرك ساكنا... » [1].

إذا كان كل الأعوان التونسيين على مستوى الأقاليم الحدودية قد تجاوبوا مع أوامر رصد تحركات الكبلوتي و جماعته، فإن خليفة الكاف صنع الاستثناء و أبدى تعاطفه غير المشروط مع الكبلوتي و جماعة الصبايحية التي عضدته. و لم يكترث إطلاقا بالأوامر التي كانت تأتيه من السلطات العليا و التي تقضي بملاحقته و توقيفه [2].

و بعد أن استقر الكبلوتي بالتراب التونسي أخذ يقوم بنشاط ثوري في المناطق الحدودية، و يهدد مصالح المعمرين، لذلك كان المسؤولون الفرنسيون يتوجسون خيفة منه، و يتخذون بالتالي التدابير الاحترازية تحسبا لأي هجوم يمكن أن يقوم به. ففي 1871/05/17م تلقى رئيس بلدية سوق أهراس برقية عاجلة من محافظ قسنطينة أحاطه علما فيها بأنه وردته معلومات تفيد بأن الكبلوتي يحضر للقيام بحملة عسكرية كاسحة على المدينة. فتخوف المسؤولون الفرنسيون على مستوى هذه الدائرة، و نصحوا الساكنة باتخاذ الحيطة و الحذر، و قاموا بتعليق هذه البرقية في الساحات العمومية للمدينة، و أمروا المعمورين المقيمين بالقرب من المدينة بإخلاء مزارعهم و اللجوء إلى المدينة رفقة عائلاتهم. و تنفيذا لهذا الأمر أعلنت حملة تطوع لنقل أثاث و دواب المعمرين شارك فيها العديد من الأهالي.[3]

و في يوم 1871/05/19م، سار الكبلوتي على رأس قوة عسكرية تتشكل من 70 عنصرا من فرسان الصبايحية الذين هاجروا معه إلى البلاد التونسية، و عدد غير قليل من الأنصار التونسيين و اتجه بها إلى برج فج مروة أين يقيم بعض القادة الأهليين المتعاونين مع الإدارة الفرنسية رفقة فرقة

---

[1] Ibid : Lettre du Consul Général de France à Tunis à Mr le Vice Amiral Comte De Gueydon Gouverneur Général civil de L'Algérie à Alger, le 28 Avril 1871, Folio 26.

[2] A.O.M : 1KK 163 : Lettre du Général Commandant de division de Constantine au Commandant de la Subdivision de Bône, le 16/05/1871.

[3] A.O.M : 2H68 : Rapport de L'Administrateur du district de Souk- Ahras au Général Commandant de Subdivision de Bône, le 17/05/1871.

« القوم » التابعة لهم، و يتعلق الأمر بقياد قبيلة ويلان، و قبيلة أولاد خيار و اشتبك معهم في معركة حامية أفضت إلى سقوط 5 قتلى من فرق القوم التابعة لقياد ويلان و أولاد خيار، و هلاك أربعة من خيولهم. أما الكبلوتي الذي لم يلحق قوته أي أذى، فقد غنم 15 حصانا، و 25 ثورا (1).

و بعد انتهاء هذه المعركة عاد الثائر الكبلوتي مسرعا رفقة جماعته إلى التراب التونسي، و هذا ما أشار إليه أحد الأعوان التونسيين الذي أكد على وجوده بمنطقة ساقية سيدي يوسف الحدودية في اليوم الموالي للمعركة أي يوم 1871/05/20م (2). و على إثر ذلك جهزت السلطات العسكرية الفرنسية حملة عسكرية لملاحقته داخل التراب التونسي دون استشارة السلطات التونسية. و كانت هذه الحملة تتشكل من 50 عنصرا من صيادي إفريقيا مدعومة بفرقة من « القوم »، و حدد يوم 1871/05/29م كموعد لانطلاقها. و بعد الانتهاء من كل الترتيبات، أعطى الفرنسيون أوامرهم بانطلاقها، غير أنهم تفاجئوا برفض فرقة «القوم »السير لمحاربة الكبلوتي، حيث عز عليها أن تحارب هذا الثائر، لأن أفرادها كانوا ينظرون إليه نظرة احترام و تقدير، و من ثم لم يقدروا على مواجهته و حمل السلاح ضده بسبب هيبته و نفوذه الأدبي الذي كان يتمتع به في أوساط السكان، بل حتى في أوساط المتعاونين مع الإدارية الفرنسية كما ورد في التقرير السنوي لدائرة سوق أهراس لعام 1871م (3). و يبدو أن الفرنسيين رفضوا إجبار هذه الفرقة على السير لمحاربة هذا الثائر خوفا من تمردها وانضمامها إلى صفه*.

و في بداية شهر جوان من عام 1871م عاود الثائر الكبلوتي هجوماته على المصالح الفرنسية على مستوى المناطق الحدودية، و تمكن من تجنيد قبيلة وشتاتة و أولاد سديرة في صفه، و سار على

---

(1) A.O.M : 36K29, Rapport Annuel du Cercle de Souk-Ahras pendant L'Année 1871, op.cit.

(2) الأرشيف الوطني التونسي: المصدر السابق: رسالة مصطفى بن قظوم إلى الوزير خير الدين في 22 صفر 1288هـ (و هو تاريخ يوافق يوم 1871/05/20م)، وثيقة رقم 6.

(3) A.O.M : 36K 29, Rapport Annuel du Cercle de Souk-Ahras pendant L'Année 1871, op.cit

* من المتصور أن الفرنسيين تخوفوا من أن يحدث لهم مثلما حدث لقواتهم يوم 1864/04/08م حينما اشتبكوا مع ثوار أولاد سيدي الشيخ شرق مدينة البيض الذين تمكنوا من سحقهم و تصفية قائدهم العقيد « بوبريتر » « Beauprêtre » . و كان سبب انكسار الجيش الفرنسي في هذه المعركة يعود إلى تمرد فرقة « القوم » التي كانت تقاتل إلى جانب الجيش الفرنسي، و التي كانت تساهم في صنع نصره في مختلف المعارك التي كان يخوضها ضد الثوار الجزائريين.

حول هذه المعركة و سبب انكسار الجيش الفرنسي ينظر:

- Henri Garrot : op.cit, pp 917, 918.

رأسها و التحم مع الفرنسيين في معركة دامية بمنطقة الكدجة أفضت إلى مقتل ضابط فرنسي، لذلك طلب يوسف بن علي اليقرو * من الوزير التونسي خير الدين الإسراع في اتخاذ تدابير ردعية و فورية ضد الكبلوتي الذي اعتبره عنصرا خطيرا ليس على الفرنسيين فحسب و إنما أيضا على الحكومة التونسية. (1)

و بعد فترة وجيزة أرسل يوسف بن علي اليقرو برقية أخرى إلى الوزير التونسي خير الدين أعلمه فيها باحتماء الكبلوتي في قبيلة وشتاتة، كما أعلمه بأنه سيشكل قوة عسكرية و يسير على رأسها في القريب العاجل إلى موطن انتجاع هذه القبيلة، و طلب منه أيضا أن يعلمه بمكان وجود هذا الثائر. (2)

---

* يوسف بن علي اليقرو « Allegro » هو وكيل الباي التونسي و القنصل العام للدولة التونسية بالجزائر، كان يمارس مهامه بهذه الصفة في مدينة عنابة. و قد اختلفت المصادر حول تحديد أصله، و ذهب البعض إلى القول أنه من أصول كورسيكية (نسبة إلى جزيرة كورسيكا)، بينما أكد البعض الآخر أنه من أصول تونسية خالصة. و إذا كان المؤرخون مختلفين حول تحديد أصله، فإنهم متفقون على أنه عمل على خدمة المصالح الفرنسية بقوة، حيث عبد الطريق أمام الفرنسيين لفرض حمايتهم على تونس، كما عمل كل ما في وسعه من أجل توسيع الحدود الجنوبية الشرقية لتونس على حساب جارتها ولاية طرابلس الغرب.

و قبل أن يشغل هذا المنصب كان يوسف بن علي أليقرو منخرطا في فرقة صيادي إفريقيا « chasseurs d'Afrique » التابعة للجيش الفرنسي بالجزائر. و قد تدرج في الرتب العسكرية، و لعب دورا محوريا في ترتيب أرضية المفاوضات التي دارت بين الجنرال « بيجو » و الأمير عبد القادر، و التي كللت بتوقيع معاهدة التافنة في 20 من ماي 1837م. و كان الجنرال « بيجو » معجبا به أيما إعجاب، فقلده رتبة ضابط، و تمنى أن يمنحه منصب وكيل القنصل الفرنسي لدى دولة الأمير عبد القادر بمعسكر، و تحدث لوزيره للحربية عن مناقب هذا الرجل في رسالة وجهها له بتاريخ 1837/06/25م قائلا له: « ... إنه قائد لبيب و يتميز برجاحة العقل، و له معرفة دقيقة بعادات و تقاليد و أعراف العرب، و هو يعرف كذلك جيدا كل مكائدهم و حيلهم و نفاقهم و يتكلم لغتهم بإتقان كبير... ».

و قال عنه الأمير عبد القادر أيضا محدثا الجنرال بيجو في إحدى المراسلات : « ... بعدما تبادلنا معه أطراف الحديث، أدركنا أنه رجل حكيم و ذكي و يستمع باهتمام كبير لمحدثه، لذا فإننا نفضل أن يكون دائما وسيطا بيننا و بينكم في كل المحادثات و الاتصالات المتعلقة بالمسائل التي ترونها ذات أهمية... »

حول هذا المغامر ينظر:

عبد الرحمان تشايجي : المسألة التونسية و السياسة العثمانية 1881– 1913، ترجمة عبد الجليل التميمي، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973، ص ص 66، 185–187

Voir aussi : Georges yver : les Correspondances du Capitaine Daumas Consul de France à Mascara 1837-1839 op.cit : Lettre adressée au Général Auvray le 14/04/1838, p 86.

(1) A.N.T : Série H, Boite 212, Dossier 240 : Télégramme de Youcef Allégro de Bône au Ministre Dirigeant à Tunis le 02/06/1871, à 10h 10m, n° 10.

(2) Ibid : Télégramme de Youcef Allégro de Bône au Général Kheiredine à Tunis, le 12/06/1871, n° 8.

غير أن الكبلوتي كان شديد الحركة، و لم يتمكن الفرنسيون من رصد نشاطه و تحركاته رغم الإجراءات الاحترازية التي كانوا يقومون بها.

و في 1871/06/16م نظم الكبلوتي هجوما عنيفا على منطقة القالة الحدودية، و شاركته فيه سرية من فرسان صبايحية بوحجار[1]. و في يوم 1871/06/18م جهز الكبلوتي حملة عسكرية أخرى تتشكل من 100 فارس و 200 عنصر من قبيلة وشتاتة التونسية و قاد هجوما عنيفا على منطقة بوحجار الحدودية، و أغار على عرش الشيانبة و سلب من سكانه 90 رأسا من الأبقار[2]. و كانت هذه الانتصارات التي يحققها على أعدائه الفرنسيين عاملا حاسما في تشجيع القبائل الحدودية التي كانت علاقتها ضعيفة مع الفرنسيين على الانضمام إلى ثورته. [3] و يبدو أن الكبلوتي كان يتنقل بحرية تامة داخل التراب التونسي رغم النداءات المتكررة التي كان يوجهها الفرنسيون إلى نظرائهم التونسيين لأن القياد التونسيين كانوا متعاطفين معه. فخلال شهر جوان عام 1871م جهزت القوات العسكرية التونسية حملة عسكرية ضده، و طلبت من القياد المشاركة فيها بقواتهم، إلا أن هؤلاء القياد رفضوا ذلك، و لم يلتزموا بأوامر مسؤوليهم. [4]

و في صيف عام 1871م اقترح وكيل الباي التونسي بعنابة يوسف بن علي أليغرو على المسؤولين التونسيين و على رأسهم الوزير خير الدين تنظيم حملة عسكرية مزدوجة فرنسية تونسية ضد هذا الثائر الذي وصفه بأوصاف مشينة تقوم بإطباق الحصار عليه من جهة الجزائر و تونس. و هي الحملة التي اعتقد أنها ستنجح دون ريب في القضاء عليه، حيث ستقضي على كل فرص نجاحه و إمكانية الإفلات منها، لأن هذه القوات المشتركة ستحاصره من كل الجهات و ستضعه بين فكي كماشة «... لإتمام غرض الدولتين في التمكن على هذا الكلب (كذا) الكبلوتي ليكون الهناء و العافية في الوطن و الأولى المبادرة بقدوم (كذا) الحملة عما قريب إن شاء الله يكون الظفر به و المؤهل منكم (كذا) أنه يوم بلوغ الحملة للكاف تخبر الهمام سيدي رشيد آغا الكاف يخبرني بالقدوم لملاقات (كذا) الحملة قبل بلوغها الكاف بيوم أو يومين... »[5]

[1] A.O.M : 20KK 45 : Lettre du Général Pouget Commandant de la Subdivision de Bône au Général Commandant de la division de Constantine, le 24/06/1871.

[2] A.N.T : op.cit : Télégramme de Youcef Allegro de Bône au Général Kheiredine à Tunis le 19/06/1871, n° 9 ينظر الملحق رقم 17.

[3] A.O.M : 20KK45 : Lettre du Général Pouget Commandant de la subdivision de Bône, op.cit.

[4] A.O.M : 6H33 : Télégramme du chargé d'Affaires Français à Tunis à Mr le Gouverneur Général à Alger le 02/10/1871.

[5] الأرشيف الوطني التونسي : المصدر السابق، رسالة يوسف بن علي اليغرو إلى الوزير خير الدين في 4 ربيع الثانية 1288هـ (و هو تاريخ يوافق يوم 1871/07/23م)، وثيقة رقم 14

و يبدو أن طلبه هذا لم يلق استجابة جدية من لدن السلطات التونسية، الأمر الذي دفع بوكيل الباي التونسي إلى الانتقال إلى دائرة سوق أهراس، و تقديم طلب آخر التمس فيه من المسؤولين التونسيين السماح له بالولوج إلى منطقة الكاف لمحاربة هذا الثائر.[1] و أمام الإلحاح الشديد للمسؤولين الفرنسيين على نظرائهم التونسيين ببذل مجهود من أجل لجم نشاط هذا الثائر، أعطت السلطات التونسية على المستوى المركزي أوامرها إلى حكام الأقاليم الغربية بتوقيفه، فشنوا حملاتهم العديدة ضده أفضت إلى شل نشاطه الثوري، حيث تقدم الكبلوتي يوم 1871/09/30م إلى إحدى المراكز العسكرية التونسية، و كان مرفوقا بعدد كبير من جماعة الصبايحية التي كانت مدججة بالأسلحة [2]. و على إثر ذلك شرع في تجريد فرسان الصبايحية من أسلحتهم، ثم إيداعها لدى المكلف بالأعمال الفرنسي بالقنصلية الفرنسية بتونس، و بعد ذلك طلبت الحكومة الفرنسية من الباي التونسي تسليمها الكبلوتي[3].

من المتصور أن الرسميين في تونس قدموا وعودا لنظرائهم في فرنسا أو في الجزائر، أكدوا لهم فيها بأنهم سيأخذون مطالبهم على محمل الجد، و أنهم سيقومون بكبح نشاط الكبلوتي، و ذلك بإرساله إلى البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج لأن القنصل الفرنسي المعتمد بتونس أكد لهم هذه المعلومة، و قال لهم أن قضية الكبلوتي انتهت «... و أنه يلف ذنبه استعدادا للسفر إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج... » [4].

غير أن الباي التونسي كان يهدف من وراء ذلك إلى تهدئة خواطر الفرنسيين فحسب، أو ربما لذر الرمال في عيونهم لأنه لم تكن له نية توقيف الكبلوتي أو طرده، بل كان رحيما معه و مع جماعته، وتصرف تصرفا إنسانيا رصينا، و تشبث بما يمليه عليه ضميره الإنساني و حسه الديني من إلزامية حماية و إغاثة اللاجئين، حيث أصدر أوامر تقضى بعدم طرده رفقة جماعته من فرسان الصبايحية، مع الحرص على الاعتناء بهم، و توطينهم بالمناطق الحدودية، و السماح لهم بالاندماج في مختلف القبائل و الأعراش و بالأساس أعراش قبيلة دريد، حيث تلقى أعوان الباي أمرا يقضي بـ «... تقسيم الصبايس (كذا) جماعة الكبلوتي إلى أربعة أقسام كل قسم يكون مع عرش من عروش دريد الأربعة و التحذير عليه (كذا) بأن يرجع منهم من الناحية الغربية و يسعي الفساد مع الأجانب و رد البال من أن يرجع

(1) A.N.T : op.cit : Télégramme de Youcef Allégro de Souk- Ahras à Mr le Ministre dirigeant à Tunis, le 19/09/1871, n° 15.

(2) A.O.M : 6H33 : Télégramme du chargé d'Affaires Français à Tunis au Gouverneur Général à Alger le 02/10/1871.

(3) A.O.M : 6H33 : Lettre du Gouverneur Général d'Algérie à Alger au chargé d'Affaires Français à Tunis le 24/10/1871.

(4) I.S.H.M.N.T : A.O.M, Série 25H, n° 25H18, Dossier n° 5: Lettre du Ministre des Affaires Etrangères à Mr L'Amiral Comte De Gueydon, Gouverneur Général Civil de L'Algerie à Alger, le 20 Décembre 1871, Folio 185.

و يجتمع مع بعضهم بعد القسمة المذكورة... »[1]. و قد تضمن ملحق هذه الرسالة أسماء عروش قبيلة دريد الأربعة، و أسماء فرسان الصبايحية و عائلاتهم، و سائر المهاجرين معهم من قبيلة الحنانشة، و عروش قبيلة دريد الأربعة هم: عرش شيخ بني رزق و استقبل سبعة عشرة عائلة، و عرش شيخ أولاد جوين و استقبل ست عشرة عائلة، و عرش أولاد مناع و استقبل خمس عشرة عائلة، و عرش شيخ أولاد عرفة، و استقبل هو الآخر خمس عشرة عائلة[2]. و يفهم من مراسلات أعوان الباي كذلك أن الباي التونسي اتخذ قرارا يقضي بضرورة تمكين هؤلاء اللاجئين من المأكل و الملبس و الأغطية و مختلف المستلزمات، مع الحرص على توفير كل أسباب الراحة لهم[3].

هكذا حارب الثائر الكبلوتي زعيم عائلة الرزقي الفرنسيين، و كعادة الثائرين الجزائريين كان الكبلوتي يحارب أعداءه الفرنسيين بمجهوداته الفردية، و كذلك بالتعاون مع أطراف أخرى تقاسمه أهدافه و تطلعاته فكان يسير في ظل المناهضين للوجود الاستعماري، و منهم الثوار المقرانيين الذين انفضوا من حول المستعمر يوم 1871/03/16م. [4] و قد شارك في أحداث ثورتهم و معاركها المختلفة التي دارت رحاها في المناطق الشمالية الشرقية من البلاد القريبة من مجال نشاطه الثوري، حيث لعب دورا محوريا في معركة 1871/06/24م، و معركة 1871/08/30م التي فقد فيها شقيقه الفضيل الرزقي. و قد فضل الكبلوتي عدم المجازفة بالذهاب جنوبا لمحاربة الفرنسيين إلى جانب الثوار المقرانيين هناك لأنه كان يعتقد أنه ليس في مقدوره مواجهتهم بسبب قلة إمكاناته المادية و البشرية، و أيضا بسبب الظروف الطبيعية القاسية كما يذهب إلى ذلك الضابط الفرنسي. « رين »[5].

نلاحظ من خلال ما تقدم أن عائلة الرزقي حاربت الفرنسيين بواسطة زعيمها محمد الكبلوتي بن الطاهر الرزقي الذي ثار ضد السلطة الاستعمارية الفرنسية منذ عام 1868م. و لم يتمكن الفرنسيون من إخماد ثورته خاصة بعد احتمائه بالتراب التونسي حيث بقي متمسكا بنهجه الثوري، و متعاونا مع كل طرف يشاركه في الهدف. و قد كلفه هذا الموقف الثوري المستميت و الثابت أن يهاجر إلى المناطق البعيدة بعدما ضاقت به أرض الجزائر و تونس، و سنعرض إلى ذلك لاحقا.

[1] الأرشيف الوطني التونسي: المصدر السابق: رسالة أحمد عبده ابن حميدة إلى الوزير خير الدين في 12 شوال المبارك 1288هـ (و هو تاريخ يوافق شهر يناير 1872م)، وثيقة رقم 16.

[2] المصدر نفسه: ملحق رسالة أحمد عبده اين حميدة إلى الوزير خير الدين، وثيقة رقم 17.

[3] المصدر نفسه: رسالة الطيب بن البراني إلى الوزير خير الدين في 12 شوال المبارك 1288هـ (و هو تاريخ يوافق شهر يناير 1872م)، وثيقة رقم 18

[4] Mouloud Gaid : op.cit, p 108.

[5] L.Rinn: op.cit pp 614-616.

5- ثورة المقراني عام 1871م

أعلن المقرانيون ثورتهم عام 1871م، و رغم أن هناك دراسات عديدة تناولت هذه الثورة، إلا أنها لا تزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة و البحث. و باعتبار أن بحثنا يتناول علاقة هذه العائلة بالإدارة الاستعمارية 1837م – 1871م، إلى جانب العائلات الكبرى الأخرى، فقد حاولنا أن نعمق البحث لنضيف إلى ما درس الشيء الجديد، و هذا انطلاقا من بعض التقارير التي عثرنا عليها في الأرشيف الفرنسي لما وراء البحار بإيكس أون بروفانس و الأرشيف التونسي، و التي تتحدث عن هذه الثورة. فما هي عوامل قيام هذه الثورة؟ و كيف اندلعت؟ و ما هو دور الإخوان الرحمانيين فيها؟ و كيف كانت نهايتها؟

1. عوامل قيامها:

هناك عوامل داخلية و أخرى خارجية ساعدت على قيام هذه الثورة.

أولا: العوامل الداخلية:

تضافرت عدة عوامل داخلية فجرت هذه الثورة. و كانت هذه العوامل مرتبطة بالباشاغا محمد المقراني و عائلته، كما كانت مرتبطة بحالة الجزائر عامة نوجزها في مايلي:

– المضايقات المستمرة للباشاغا محمد المقراني و لعائلته.

إن المضايقات التي انتهجتها الإدارة الفرنسية ضد الباشاغا محمد المقراني و عائلته منذ عام 1853م كانت كافية لاقتناعه بأن الثورة هي السبيل الوحيد لخلاصه من الظلم الممارس ضده، و هكذا قدم استقالة للفرنسيين من منصبه، غير أنها رفضت و طلب منه تجديدها. و في انتظار الرد على طلبه بالقبول أو الرفض حمله الفرنسيون مسؤولية كل ما يحدث على مستوى قيادته، و على إثر ذلك اتصل الباشاغا بمقربيه، و أعلمهم أن الوقت قد حان لإعلان الثورة.[1]

– سياسة فرق تسد

ورث الباشاغا محمد المقراني عن العهد العثماني عداء كبيرا مع أبناء عمومته، و حاول الفرنسيون استثمار هذه العداوة و توظيفها في مشروعهم الاستعماري، و ذلك في إطار انتهاج سياسة الصفوف القائمة على مبدأ « فرق تسد ». و في هذا الإطار حاولوا الإيقاع بينه و بين إبن عمه محمد عبد السلام المقراني الذي كان يشغل منصب قايد عين تاغروت، حيث حاولوا دفعه إلى الاصطدام به حتى يتخذوا من ذلك مسوغا لتحطيمه و تحطيم عائلته بصورة عامة [2].

[1] Mouloud Gaid : op.cit. pp 192, 193.
[2] L.Rinn : op.cit, pp 50, 51

و حتى لا تنكشف خيوط هذه المؤامرة التي كانت تدبر ضده في الخفاء قام الجنرال « أوجيرو » « Augereau » بزيارة إلى برج بوعريريج في 1870/12/15م و دعا سائر فروع العائلة المقرانية إلى عقد جلسة صلح. [1]

و في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يشجعون الخلاف بين فروع عائلة المقراني، فقد خلقوا بالموازاة مع ذلك خلافا سحيقا بين عائلة الحداد- التي ستنضم إلى ثورة المقراني لاحقا – و عائلة ابن علي الشريف، و هما عائلتان مرابطتان متنفذتان بالمنطقة. و قد ظهر هذا الخلاف بشكل جلي حينما ألحق سكان قرية صدوق إداريا بما فيهم عائلة الحداد بباشاغا شلاطة سي محمد السعيد بن علي الشريف، حيث اعترض سي عزيز نجل الشيخ الحداد على هذا الإجراء و رأى فيه خصما من كرامته و مساسا بالشوكة الأدبية لعائلته [2] لأنه كان ينزعج كثيرا من عائلة بن علي الشريف التي أنكر عنها منبتها الشريف، و كان أيضا يحتقر زعيمها الباشاغا محمد السعيد الذي نعته بـ « إبن العار » في العريضة التي كتبها في السجن في مطلع عام 1873م،[3] فقرر الاستقالة من منصبه كقايد على عموشة و تاقيطونت،[4] لأنه لا يستطيع أن يكون تحت إمرة عائلة معادية له و تنزعج هي الأخرى من عائلته كثيرا و تحط من شأنها، و تقول أنها وضيعة الأصل و المهنة بسبب منبتها غير الشريف و ممارستها لمهنة الحدادة. [5]

و أمام هذا الانسداد كلف الفرنسيون الباشاغا محمد المقراني بإجراء صلح بين الطرفين، فكان اللقاء بينهما يوم 1870/08/17م.[6] غير أنه فشل على ما يبدو في إحداث هذا التقارب بينهما لأنه جدد محاولة الصلح بينهما في الفاتح من يناير 1871م. [7]

و بسبب إلحاح المسؤولين الفرنسيين على تحقيق التقارب بين الطرفين المتخاصمين على الزعامة الدينية بالمنطقة، قبل سي عزيز الحداد لقاء غريمه سي محمد السعيد بن علي الشريف و التصالح معه يوم 12 من يناير 1871م.

---

(1) Ernest Mercier : Le Bachaga Mokrani et les Causes de L'insurrection Indigène de 1871, op.cit, p 21.

(2) Bidault (F.L) : La vérité sur L'Algérie, imprimerie Bizion, Bougie, 1871, p 53.

(3) Si Aziz Ben Mohamed Ben cheick El Haddad à ses Juges et ses défenseurs : Mémoire d'un accusé, insurrection de 1871, Imprimeur L.Marle, Rue d'Aumale n° 2, Constantine, Algérie, 1873.

(4) L.Rinn : op.cit, pp 197-199.

(5) Ernest Mercier : op.cit, pp 21,22.

(6) A.O.M : 2H57 : Rapport du commandant de la subdivision de Setif à Mr le Général de la province, le 17/08/1870.

(7) Ernest Mercier : op.cit, p 22

و على إثر انقضاء جلسة الصلح كتب سي عزيز الحداد رسالة إلى الحاكم العسكري لدائرة سطيف العقيد « بوفالي » « Bouvalet » قال له فيها: « المعظم الأرفع سعادة السيد لكرنيل (كذا) بوفالي الحاكم الكبير بوطن سطيف... و بعد، فالإعلام سيادتكم إني قدمت إلى أقبو اليوم لزيارة السيد محمد السعيد بن علي الشريف باشاغا شلاطة امتثالا لأمركم و اصطلحت معه و زال ما كان فاسدا و حسدا بيننا...و نطلب منك أن تكتب له جوابا و تذكر له بأن أبانا الشيخ الحداد فارح بهذا الصلح... »[1].

بهذا يتبين لنا أن الفرنسيين كانوا يشجعون سياسة الصفوف و التفرقة بين عائلتي ابن علي الشريف و الحداد من خلال استفزاز هذه الأخيرة و إلحاقها بإدارة و نفوذ الأولى، و بالموازاة مع ذلك التظاهر بإصلاح ذات البين بينهما. و يبدو أن استفزازهم لعائلة الحداد استمر بأشكال أخرى، و هذا ما يفسر انضمامها إلى ثورة المقراني عام 1871م.

– تردي الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية

عرفت الجزائر في أواخر الستينات من القرن 19م أوضاعا اقتصادية و اجتماعية مزرية عبدت الطريق لقيام ثورة المقراني عام 1871م، حيث داهمتها العديد من المصائب أثرت سلبا على نسيجها الاجتماعي و الاقتصادي، و كانت سببا في تناقص الأنفس و الأموال و الثمرات. ففي مطلع عام 1864م غزت أسراب الجراد الغطاء الطبيعي و سحقت ما صادفته من الخضرة و الثمار. و في عامي 1869م و 1870م أغارت أسرابه مرة أخرى على الغطاء الطبيعي، و كانت قيادة المقراني و بالأساس منطقة مجانة من المناطق الأكثر تضررا بفعلها.[2]

و قد لاقى السكان من ويلها الشدائد، لاسيما و قد تزامنت تلك النوائب مع جفاف عام 1865م، و أدت هذه الأوضاع إلى حدوث مجاعة عظمى و ارتفاع أسعار المعاش حيث وصل سعر صاع* القمح بقسنطينة مثلا إلى أكثر من مائة فرنك فرنسي، كما وصل سعر الصاع من الشعير إلى خمسة و أربعين فرنكا، فكانت الجائحة الكبرى (1867–1868م)[3]، و اضطر الكثير من الناس إلى أكل جذور الحشائش بل الحيات و الكلاب ! [4]

[1] A.O.M : 2H57 : Lettre de Si Aziz Ben Cheik Ben-el Haddad à Mr le commandant de la Subdivision de Setif, le 12/01/1871. ينظر الملحق رقم 18.

[2] يحي بوعزيز: موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر، ج1، المرجع السابق، ص ص 453، 454.

* الصاع وحدة قياس محلية، عمل بها الجزائريون قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، و استمر العمل بها في بعض جهات الوطن بعد الاستقلال، و بعد عام 1830م قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بتغيير الموازين و المكاييل، و حددت وزن الصاع الواحد ما بين 85، 44 كلغ و 39، 45 كلغ من الحبوب.

حول هذا الموضوع ينظر:

- Lemnouar Merouche : Recherches sur L'Algérie à l'époque Ottomane : Monnaies, Prix, et Revenus 1520-1830, editions Bouchène, Paris, France, 2002, pp 287, 288.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 150، 151.

[4] يحي بوعزيز: كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المرجع السابق، ص 165.

و كانت لهذه الأوضاع تأثيرات مباشرة على الوضع الديمغرافي، حيث فقدت الجزائر خلال الفترة الممتدة ما بين 1861م و 1872م حوالي 600 ألف نسمة أي زهاء ربع عدد سكانها في تلك الفترة.[1]

و تكلمت دراسة أخرى عن كارثة ديمغرافية « Un Désastre Démographique » عصفت بالجزائر خلال الفترة الممتدة ما بين 1866م و 1872م تجاوز عدد ضحاياها مليون هالك.[2] و كانت هذه الكارثة مرتبطة ارتباطا مركزيا بالسياسة الاستعمارية الخرقاء التي ضاعفت من خطورتها لأن سياسة الضرائب المجحفة والحالة الصحية المتهرئة للسكان هيأت الوسط الملائم لحدوثها.[3]

يضاف إلى هذا سياسة مصادرة الأراضي التي أفقرت المجتمع الجزائري، حيث فقد الجزائريون زهاء 45 % من أراضيهم بعد ضمور مقاومة الأمير عبد القادر،[4] ناهيك عن النظام الرأسمالي الاستعماري الذي أدى إلى هدم بنية الاقتصاد المحلي و جعله في خدمة الاقتصاد الكولونيالي عندما ارتكز على عنصر التصدير[5]. و عليه فإن أسباب هذه الكارثة تعود بالأساس إلى تلك الكوارث الطبيعية التي عصفت بالجزائر في ذلك الحين، و كذلك بسبب إدماج الجزائر في منظومة التجارة الدولية [6] و الثابت أن الجزائريين بسبب أوضاعهم الاقتصادية و الاجتماعية المزرية كانوا مهيئين للثورة في وجه المحتل، فكانت ثورة المقراني 1871م التي ارتموا فيها بطريقة آلية.

– اتساع حركة التبشير الديني بالمنطقة.

يقول الفرنسيون أنهم يطبقون مبدأ فصل الدين عن الدولة في حياتهم السياسية منذ نجاح ثورتهم عام 1789م، غير أن ممارسات الكنيسة في المستعمرات الفرنسية و منها الجزائر يتناقض مع ذلك تماما،[7] حيث كانت إحدى ركائزه الثلاثة التي أرتكز عليها في الجزائر إلى جانب ركيزتي العسكري الاستعماري، و المعمر المدني [8]

[1] Mohamed Amir : Contribution à l'Étude de l'histoire de la Santé en Algérie, autour d'une Expérience Vécue en A.L.N, wilaya V. Réflexions sur son développement, O.P.U, Alger, Algérie, 1986, p 68.

[2] Djilali sari : op.cit, p 260.

[3] Mahfoud Kaddache, Djilali sari : L'Algérie dans l'histoire 5 : la résistance politique, Bouleversements socio-économiques, E.N.A.L, Alger, Algérie, 1989, pp 204, 205.

[4] محمد السويدي: مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري: تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، د.م.ج.الجزائر، د.ت، ص 118.

[5] عبد الرحمان رزاقي: تجارة الجزائر الخارجية : صادرات الجزائر في بين الحربين العالميتين، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976، ص 26.

[6] Mahfoud Kaddache, Djilali Sari : op.cit, p 204.

[7] إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى و شواطئها، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص 109.

[8] الحبيب الجنحاني: « حركة التبشير و السياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن 19م »، مجلة الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم و الشؤون الدينية، العدد 16، عام 1976، ص 24.

و إذا كانت مهمة غزو الأرض تخص المؤسسة العسكرية، فإن مأمورية غزو الفكر كانت من مشمولات الكنيسة.[1] و في هذا المنظور استغلت الكنيسة مآسي الجزائريين التي عاشوها خلال ستينات القرن 19م، و حاولت بعث و إحياء أمجاد القديس أوغسطين و مآثر الإمبراطورية الرومانية المحتضرة [2]. و تزعم حركة التبشير الديني في الجزائر "الكاردينال لافيجري" « Lavigerie » * الذي أنشأ هيئة دينية عرفت باسم « الآباء البيض » و أنشأ لها مقرا بالجزائر العاصمة[3]. و كان البابا يتواصل مع هذا الكاردينال من روما ويحثه على نشر المسيحية، و في الوقت نفسه خدمة أهداف السياسة الفرنسية في الجزائر. [4]

و بهدف تجسيد هذا المشروع على أرض الواقع زار "لافيجري" المناطق المنكوبة حاملا الصليب في يمينه و الخبز و الدواء في شماله، و جمع الأطفال اليتامى و تعهدهم بالتنشئة و التربية وفق تعاليم الديانة المسيحية [5] و قد تمكن من جمع زهاء 1750 طفلا لا تزيد أعمارهم عن 14 سنة.

---

[1] عبد القادر حلوش: « حركة التنصير في الجزائر (عهد الاحتلال) »، مجلة الرؤية، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، العدد 1، عام 1996، ص 118.

[2] Tahar Oussedik :op.cit, p 9.

* هو شارل مارسيال لافيجري المولود في 1825/10/31م في بايون Bayonne بفرنسا، جامعي أكاديمي حاصل على درجة الدكتوراه في علم اللاهوت، و أستاذ التاريخ الكنسي professeur d'histoire ecclésiastique بكلية اللاهوت بجامعة السوربون (1854م-1856م)، شغل منصب أسقف Evêque مدينة نانسي Nancy الفرنسية عام 1863م، و مطران Archevêque (رئيس أساقفة) الجزائر العاصمة عام 1867م، و بذلك يكون قد عاصر سنوات القحط و المسغبة و المجاعة و الكارثة الديمغرافية بالجزائر.

لم يكن "لافيجري" يحمل مشروعا دينيا فحسب، بل كانت له مواقف سياسية جريئة، حيث انتصب في المعسكر المعادي لحاكم الجزائر الماريشال « ماكماهون » الذي ساعده كثيرا في الحصول على منصب مطران الجزائر، كما تخندق في معسكر المدنيين أثناء صراعهم مع العسكريين، و في عام 1882م قلد « لافيجري » رتبة كاردينال. و نظرا للخدمات الجليلة التي قدمها هذا الكاردينال لإدارة بلاده، بالجزائر، قلده الفرنسيون و سام ضابط فرقة الشرف عام 1886م، قضى نحبه بالجزائر العاصمة عام 1892م عن عمر يناهز 67 سنة.

حول هذه الشخصية الدينية ينظر:

- Annie Rey-Goldzeiguer : Index Biographique, op.cit, p 771.

[3] أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الاصلاحي في الجزائر، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص 55.

[4] محمد الطاهر أو علي: التعليم التبشيري من 1830م إلى 1904، دراسة تاريخية تحليلية، منشورات دحلب، الجزائر، 1997، ص 254.

[5] أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، مطابع دار المعارف، القاهرة، مصر، 1936، ص 61

و عندما اكتشف أهاليهم سوء نيته طالبوا باسترجاعهم، غير أنه رفض إعادتهم إليهم بتواطؤ من الإدارة الفرنسية. و لم يتمكن ذويهم من استرجاع سوى مائتي طفل، أما البقية فقد مات عدد كبير منهم، و أرسل عدد آخر إلى فرنسا [1].

و الواقع أن هذه الممارسات كانت تثير حفيظة وجهاء الجزائر و أعيانها الدينيين و الدنيويين، و منهم الباشاغا محمد المقراني و الشيخ الحداد و الدفع بهما إلى الثورة،[2] و هو ما حدث عام 1871م.

- **رفض الباشاغا محمد المقراني للنظام المدني و امتعاضه من تجنيس اليهود**

في 1870/03/09م وافق المجلس التشريعي الفرنسي على إقامة النظام المدني بالجزائر وإلغاء النظام العسكري، و ذلك يعني انتصار الكولون في الجزائر و التحكم في مقدراتها من خلال فرض قوانينهم المدنية و نظامهم القضائي، كما يعني أيضا الاستغناء عن خدمات رؤساء الأهالي المتحالفين مع النظام العسكري. [3] و قد أدى ذلك إلى استقالة الحاكم « ماكماهون » و كذلك استقالة الباشاغا محمد المقراني بحجة عدم مقدرته على التعامل مع النظام المدني الجديد. [4]

و بعد انكسار فرنسا أمام بروسيا في حرب 1870م تعاظم دور المدنيين، و تزايدت المبادرات الإدارية المتعلقة بالجزائر[5]، فأصدرت مندوبية الحكومة الفرنسية المؤقتة بمدينة « تور » عدة قرارات تخص الوضع في الجزائر، عالجت هذه القرارات ثلاث مسائل جوهرية هي :

- إلغاء النظام العسكري في الجزائر و تعويضه بنظام مدني، و تنزيل رؤساء الأهالي منزلة المعاونين البلديين، و كذلك إلغاء المكاتب العربية.
- إنشاء محاكم الجنايات و جعل الجزائريين يخضعون لأحكامها.
- منح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر بصورة جماعية و إلزامية[6].

[1] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome premier, op.cit, p 302.

[2] يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، المرجع السابق، ص 198.

[3] Charles-Robert Ageron : Histoire de L'Algérie Contemporaine (1830-1979), op.cit, p 39.

[4] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France, Tome premier, op.cit,p 5.

[5] أندري برنيان، أندري نوشي، إيف لاكوست: المرجع السابق، ص 353.

[6] يحي بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني و الحداد)، المرجع السابق، ص ص 128، 129.

و الواقع أن قرار تجنيس يهود الجزائر يعود الفضل في إصداره يوم 1870/10/24م إلى المحامي اليهودي « أدولف كريميو » « A.Crémieux » الذي اهتم بهذا الموضوع لمدة طويلة، حيث زار الجزائر 17 مرة. و عندما عين في منصب حافظ الأختام في مندوبية « بوردو » الفرنسية أقنع حكومة « تور » بهذا الموضوع[1]. و قد رفض هذا القرار من قبل الجزائريين، و كان من الأسباب المركزية لقيام ثورة المقراني عام 1871[2]، التي صرح قائدها الباشاغا محمد المقراني قائلا: «... أنه لهين علي أن أضع عنقي تحت السيف لتقطع على أن أضع نفسي تحت إرادة يهودي... ».[3]

و لم يكن هذا الموقف يترجم قناعة هذا الباشاغا لوحده فقط، بل كان يعبر عن قناعة الشعب الجزائري برمته الذي أصبح يردد في المقاهي و الساحات العمومية كلاما مؤداه أن الفرنسيين انتهى أمرهم طالما أصبحوا خاضعين لحكم يهودي و هذا موعد رحيلهم من الجزائر.[4] و الحقيقة أن هذا الكلام كان قد قيل قبل صدور هذا المرسوم حيث كتب الحاكم العسكري لدائرة سطيف تقريرا إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني ذكر فيه أن «...كل سكان منطقة سطيف يتحدثون هذه الأيام عن التحضيرات التي يقوم بها كل الفرنسيين من أجل مغادرة أرض الجزائر التي ذاقت بهم بما رحبت... » [5]

و بهذا نخلص إلى القول أن توجس عائلة المقراني و على رأسها زعيمها الباشاغا محمد المقراني من النظام المدني و رفضه تجنيس اليهود كان من أسباب قيام ثورة هذه العائلة.

- **ديون الباشاغا محمد المقراني.**

تضررت قيادة المقراني بشكل لافت للانتباه من الأزمة الغذائية التي عصفت بالقطاع القسنطيني خلال الفترة الممتدة ما بين 1867م و 1870م، حيث قطعت أرزاق الناس و أتلفت المحاصيل الزراعية. [6] و من أجل إسعاف المنكوبين اقترض الباشاغا محمد المقراني مبلغا ماليا معتبرا من اليهودي « مسرين » « Mesrine » و وزعه على سكان قيادته المتضررين. و كانت اتفاقية القرض الخاصة بهذا الدين تنص على أن الباشاغا يمكن أن يسدده من الضرائب المفروضة على السكان في حالة إعسارهم.

---

[1] Charles- André Julien : op.cit, pp 467-469.
[2] Marial de Pradel de Lamase : « Le siège de Tizi-ouzou et la révolte de 1871 », in R.A, n° 64, Année 1923, P 120.
[3] فوزي سعد الله: يهود الجزائر، ج2، دار قرطبة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2005، ص 55
[4] L.Rinn : op.cit, pp 119, 120.
[5] A.O.M : 2H57 : Rapport du commandant de la subdivision de Setif à Mr le général commandant de la province, le 06/07/1870.
[6] Andre Nouschi : op.cit, pp 319, 320.

و لما تحقق هذا الفرض تنكرت السلطة المدنية لذلك، و ألزمت الباشاغا على تسديده من أمواله الخاصة، فاشتد غيظه، و اضطر إلى رهن كل أملاكه للوفاء بهذا الدين، و هو الأمر الذي دفع به إلى الثورة للتخلص من الضائقة المالية التي تسببت له فيها السلطة المدنية. [1]

- مشكلة حضيرة عمل جبال البيبان:

في مطلع عام 1871م تم اغتيال أربعة عمال أوروبيين كانوا يشتغلون في حضيرة عمل بجبال البيبان التي كانت تتكفل بمد الطريق الرابط بين قسنطينة و الجزائر العاصمة. و على إثر ذلك أقامت السلطة الاستعمارية المتاريس و التحصينات بمحاذاة برج بوعريريج، فغضب الباشاغا محمد المقراني، و فسر هذه الخطوة بأن الفرنسيين فقدوا ثقتهم فيه. و مما زاد من غضبه أن الدعاية الاستعمارية شنت ضده حملة عدائية، و اقتنع الرأي العام المحلي بأنه هو الذي كان وراء حادثة الاغتيال، فاستاء كثيرا جراء ذلك، و صرح أمام الفرنسيين قائلا: «... إن هذا الموقف يحرجني بقسوة، إنكم مخطئون في هذا التصرف لأنني سأقوم متى رغبت في ذلك بالاستيلاء على المدينة على الرغم من تحصيناتكم ... »[2]، و الحقيقة أن هذا الاستياء تحول إلى ثورة عارمة.

ثانيا- العوامل الخارجية.

تحدث المؤرخون عن ثلاثة عوامل خارجية أساسية ساهمت في تفجير ثورة المقراني هي: التحريض البروسي، موقف الدولة العثمانية و دور محي الدين نجل الأمير عبد القادر. و لما كنا قد فصلنا الحديث عن العامل الأخير في معرض كلامنا عن دور العائلات الكبرى في القضاء على الثورات الشعبية،[3] فإننا نقصر الكلام في هذا السياق عن العاملين الآخرين ليس إلا.

- التحريض البروسي:

عندما اندلعت الحرب البروسية الفرنسية في صيف عام 1870م، لجأ البروسيون إلى توظيف سلاح الدعاية ضد فرنسا في أوروبا و المستعمرات الفرنسية و منها الجزائر [3]. و في هذا الإطار أرسل البروسيون جواسيسهم إلى تونس سرا و علانية، و اتصل أحدهم بالباي التونسي، و قدم نفسه على أنه جنرال بروسي، و تبادل معه أطراف الحديث، و طلب منه المساعدة في تدبير حاجياته بتونس.

[1] L.Rinn : op.cit, p 34

[2] مولود قايد: « ثورة سنة 1871م و نتائجها »، مجلة الأصالة، مجلة تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 23، سنة 1975، ص 54.

[3] ينظر الفصل الرابع: ص ص 274، 275.

[4] بسام العسلي: محمد المقراني و ثورة 1871م الجزائرية، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1986، ص 96.

و قد رتب اللقاء بينهما قنصل السويد المعتمد بتونس. و يبدو أن الباي التونسي لم يكن يعلم بالهدف الحقيقي من زيارته لأنه تلقى بعد انتهاء هذا اللقاء خبرا من أحد أعوانه يدعوه فيه إلى الاحتراس من هذا البروسي[1].

و بالموازاة مع ذلك أرسل البروسيون « جرالد روهلس » « Gerald Rohls » أحد الجنود السابقين في الجزائر رفقة الأستاذ « وتزستاين » « Wetzestein » إلى تونس لتحريض القبائل الجزائرية ضد المصالح الفرنسية انطلاقا من التراب التونسي، غير أن السلطات التونسية تمكنت من رصد نشاطات الجاسوسين فأخبرت مصالح الأمن التونسية [2] التي قامت دون تمهل بالبحث عنهما ، فأرسلت أوامر بالقبض عليهما إلى كل ولاتها بالأقاليم، وخاصة بالمناطق الحدودية مع الجزائر. و قد حددت الأوامر صفات هذين البروسيين بدقة حيث كان أحدهما «... أكحل الشعر و الآخر طويل نحيف... خرجا في زي المسلمين إنهما يتكلمان بالعربي و يقال أن مقصدهما هو تحيير عمالة الجزائر... ».[3]

و امتثالا لهذا الأمر، باشر حكام الأقاليم عمليات بحث واسعة النطاق لإلقاء القبض عل هذين الجاسوسين، و كتب حاكم بنزرت خطابا إلى الباي التونسي أكد له فيه بأنه سيبذل قصارى جهده لإلقاء القبض عليهما على الرغم من أن المعلومات الأولية التي تحصل عليها تفيد بأنه «... لا وجود لهما و أننا لازلنا على ساق الجد في البحث و التجسس عنهما... »[4]. غير أن السلطات التونسية واصلت البحث عنهما و تمكنت من إلقاء القبض عليهما و طردتهما إلى إيطاليا بتاريخ 1870/09/02م[5].

و مهما يكن من أمر فإنه بالرغم من ضعف تأثير المحاولات البروسية في الجزائر، إلا أن الشيء الثابت أن هزيمة فرنسا في حربها مع بروسيا كانت قد حفزت الجزائريين و على رأسهم الباشاغا محمد المقراني على إعلان الثورة.

---

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الصندوق 255، الملف 723: رسالة مجهولة موجهة إلى الباي التونسي في 1870/06/28، وثيقة رقم 1.

[2] عبد الجليل التميمي: المرجع السابق ، ص 30.

[3] الأرشيف الوطني التونسي: المصدر السابق، نسخ مكاتيب صدرت للعمال تتعلق بمحاولة عبور شخصين بروسيين عبر التراب التونسي للجزائر، وثيقة رقم 8.

[4] المصدر نفسه: رسالة عامل بنزرت حسن المقرون إلى الوزير الأول خير الدين في غرة جمادى الأول 1287هـ (و هو تاريخ يوافق 1870/07/30م)، وثيقة رقم 2.

[5] عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص 30.

– موقف الدولة العثمانية:

في نهاية عام 1870م و بداية عام 1871م تقاطر على بعض المدن التونسية مثل قابس، صفاقس و جربة عدة مخبرين أتراك، كما لوحظ وجود ثمانية أتراك يتحدثون اللغة العربية في الجنوب التونسي، قاموا بتوزيع الأموال على الناس. و لما علمت السلطات الفرنسية بهذه الأنشطة ضغطت على الدولة العثمانية لوضع حد لهم، و نتيجة لذلك تم سحبهم إلى طرابلس[1].

و قد دلت الوثائق أن ثمة محاولات جادة قام بها عدة أشخاص مقيمين بطرابلس من أصول تركية حاولوا التسلل إلى الجزائر، إلا أنهم منعوا من ذلك[2]. كما تلقى عامل الأعراض رسالة من الباي التونسي استفسره فيها عن سبب نزوح بعض العناصر الطرابلسية إلى جرجيس و قيامهم بحفر بعض الآبار و إنشاء معسكر لهم بهذه المنطقة[3]. و في تلك الأثناء قام خليفة قابس أيضا بتوقيف ثلاثة طرابلسية كانوا متوجهين إلى الجزائر بهدف إعلان الثورة ضد الفرنسيين، إلا أنهم تمكنوا من الفرار بعد أن قتلوا الحراس الذين كانوا يقومون بحراستهم.[4]. فهل هذه العناصر الطرابلسية التي حاولت الولوج إلى التراب الجزائري عنوة هي عناصر تركية ترغب في إعلان الثورة ضد فرنسا؟ و هل لها علاقة بالأتراك الثمانية الذين تم سحبهم إلى طرابلس؟

الراجح أن هؤلاء الأتراك حاولوا التنسيق، فيما بينهم لمحاربة الفرنسيين، لأن العناصر الثمانية الذين تم طردهم إلى طرابلس كانوا يعملون تحت لواء هيئة دينية تدعى « الجمعية الخيرية الإسلامية للجزائر المحمية ». و قد بعثوا برسالتين إلى الصدر الأعظم محمد نديم باشا: الأولى كانت بتاريخ 1870/09/25م، و كانت توحي بأن الدولة العثمانية كانت على دراية مسبقة بثورة 1871م، بل كانت تشجعها أيضا، أما الرسالة الثانية فكانت بتاريخ 1871/03/28م،

---

[1] يحي بوعزيز، « وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر و الدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871م » ، المقال السابق، ص ص 14–16.

[2] A.N.T : Série H, Boite 255, Dossier 723 : Traduction d'une lettre au gouverneur de Gerbi, adressée le 24 chaoual 1287, (Date correspondante au mois de janvier 1871), n° 55.

[3] Ibid : Traduction d'une lettre au gouverneur de L'Aarad, adressée le 24 chaoual 1287 H (date correspondante au mois de janvier 1871), n° 54.

[4] Ibid : Traduction d'une dépêche télégraphique du Ministre dirigeant au Gouverneur de Sfax adressée au Chaoual 1287 H (Date correspondante au mois de janvier 1871), n° 55.

وهي عبارة عن عريضة وجهتها هذه الجماعة إلى الباب العالي لتذكره بوعوده السابقة القاضية بمساعدتهم على تحرير الجزائر، مقترحة عليه عدة حلول جذرية للقضية الجزائرية، كطلب وساطة الدول الأوروبية، أو الاتصال المباشر بالفرنسيين، أو إلزامهم عند الاقتضاء بالتنازل عن إقليم الجزائر[1]. و بهذا يتبين لنا أن تأثير العوامل الخارجية في ثورة المقراني عام 1871م، كان حقيقة تاريخية لا يمكن نكرانها إلا أنها تبقى عوامل ثانوية بالمقارنة مع العوامل الداخلية.

ب- إندلاع الثورة:

قدمنا أن الباشاغا محمد المقراني كان قدم استقالته من منصبه عام 1870م احتجاجا على قرار إلغاء النظام العسكري الحليف له و لسائر القادة الأهليين، و قد جدد طلب استقالته في 1871/03/09م عندما رفض الفرنسيون طلبه الأول[2]. مما يدل دلالة واضحة على أنه عازم على إعلان الثورة.

في يوم 1871/03/14م ترأس الباشاغا محمد المقراني اجتماعا حربيا موسعا حضره كل أفراد عائلته، و كبار المسؤولين و أعيان المنطقة، [3] تبادل خلاله المجتمعون أطراف الحديث حول الوضع بالمنطقة، و السياسة العدائية التي تنتهجها الإدارة الفرنسية ضده وضد عائلته، و انتهى الاجتماع إلى اتخاذ قرار إعلان الثورة صبيحة يوم 1871/03/16م[4]. كما حددت فيه خطة الثورة كذلك التي تقضي بأن يزحف الباشاغا على برج بوعريريج صبيحة اليوم المذكور على رأس جيش قوامه 6000 فارس. و بالموازاة مع ذلك يتجه شقيقه بومزراق إلى الونوغة وسور الغزلان لإعلان الثورة هناك، و يقوم إبن عمه بوزيد المقراني بتدعيم صف الباشاغا من الجهة الخلفية بقوات إضافية، بينما كلف صهره السعيد بن بوداود المقراني بإعلان النفير في مناطق الحضنة و بوسعادة و أولاد نايل.[5]

و في اليوم الموالي للاجتماع أي 1871/03/15م أرسل الباشاغا رسالتين إلى الفرنسيين قال لهم فيهما بأنه قرر قطع علاقته بهم كما أعاد لهم راتبه الذي تحصل عليه في شهر فيفري.[6]

[1] عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص ص 22، 23.

[2] Mouloud Gaid : op.cit, pp 107, 108.
[3] Le Commandant de Cheyron : Bordj-bou-arréridj pendant L'insurrection de 1871 en Algérie, imprimeur éditeur Henri Plon, Paris, France, 1873, p 17.
[4] Mouloud Gaid : op.cit, p 108.
[5] Colonel Robin : L'insurrection de la grande kabylie en 1871, op.cit, pp 202-205.
[6] Ernest Mercier : op.cit, p 25.

و في مطلع يوم 1871/03/16م هاجم الباشاغا برج بوعريريج و حاصرها لمدة أربعة أيام دون اقتحامها، غير أن الفرنسيين تمكنوا من تفويت الفرصة عليه، و هاجموه من الجهة الخلفية، ثم انتقلوا إلى مجانة. و لما علموا بتنقله إلى مدينة سطيف و محاصرته لها، قاموا بنسف قصره و اتجهوا صوبها و حالوا دون دخوله إليها، [1] فأدرك الباشاغا المخاطر الحقيقية التي تواجه ثورته ففكر في ضم الشيخ الحداد زعيم الطريقة الرحمانية* إلى صفه، فأرسل له وفدا يلتمس منه ضم صوته إلى ثورته التي أعلنها ضد « الرومي »[2]. و هو إجراء ينطوي على بعد نظر كبير لأن «الشيخ الحداد كان شخصية دينية استثنائية ذات تأثير كبير على نفوس الناس، و أن نفوذه الأدبي كان يتزايد يوما بعد يوم ». [3] فقبل الشيخ الحداد الدعوة دون تردد، و كلف نجليه سي عزيز و سي محمد بدعوة المقدمين الرحمانيين للتشاور و الاجتماع في قرية صدوق [4]

[1] صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين (814ق.م- 1962م)، دار العلوم للنشر و التوزيع، مطبعة الشهاب، باتنة، الجزائر، 2002 ، ص ص 188، 189.

* تنتسب الطريقة الرحمانية إلى مؤسسها محمد بن الحاج عبد الرحمان القشتولي الزواوي أصيل قبيلة آيت إسماعيل بمنطقة القبائل الكبرى المولود في بداية القرن 18م، أخذ تعليمه الابتدائي بزاوية الشيخ الصديق بن اعراب بآيت إيراثن، ثم حج بيت الله الحرام، و أكمل تعليمه في الأزهر. و عندما عاد إلى مسقط رأسه أسس الزاوية الرحمانية، و بعد وفاته عام 1794م سمي بعبد الرحمان بوقبرين، و لهذه التسمية بعد خيالي طريف. فعندما دفن من قبل أهله بمقبرة زاويته توجس الحكام العثمانيون من بقاء جثته بمقبرة الزاوية، فقاموا بنقل جثمانه إلى الجزائر العاصمة خوفا من أن يتحول مكان دفنه إلى معقل للثورات، فشاع هذا الخبر بين الناس و اتخذ بعدا أسطوريا، حيث قيل أن جثة سيدي عبد الرحمان انشطرت إلى شطرين : الأول بقي في آيت اسماعيل و الثاني انتقل إلى الجزائر العاصمة، لذا سمي سيدي عبد الرحمان بوقبرين.
لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع ينظر:

- إدوارد دونوفو: المصدر السابق، ص ص 69-71.

- Voir aussi :
- Andrien Delpech : « un diplôme de Mokeddem de la confrérie religieuse Rahmania », in R.A n° 18, Année 1874, pp 118-120.

[2] الطاهر أو صديق: المرجع السابق، ص 157.

[3] A.O.M : 2H57 : Lettre de L'administrateur de district de Bougie au colonel chargé de L'expédition des affaires au sujet des khouan du cheick El Haddad, le 26/03/1871.

[4] يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد و مذكرات إبنه سي عزيز، م.و.ك، الجزائر، 1989، ص ص 17، 18.

و في صبيحة يوم 1871/04/08م، خرج الشيخ الحداد من خلوته، و قد تجاوز سنه الثمانين، و ذهب إلى سوق هذه القرية و ألقى بعصاه فيها قائلا: «... سنلقي بفرنسا مثلما ألقي بعصاي الآن... »[1]. و قد انتشر هذا الخبر بسرعة فائقة في القبائل الكبرى و المناطق القريبة منها التي انتفضت برمتها، حيث قام أتباع الطريقة الرحمانية بمهاجمة مزارع الكولون يوم 1871/04/08م في الأخضرية، بجاية، دلس، سطيف، ذراع الميزان، برج بوعريريج، تيزي وزو و برج حمزة [2]. و كان انضمام الاخوان الرحمانيين إلى الثورة يعني إلتحام صف الأجواد بصف المرابطين، الأمر الذي ساعد على التفاف الشعب حولها[3]. و ادعى بعض الكتاب الفرنسيين و منهم « رين » أن سي عزيز نجل الشيخ الحداد أرغم الناس على اعتناق فكرة الثورة تحت طائلة التهديد بالقتل لكل رافض الانضمام إليها[4]. و بعد معارك طاحنة خاضها الثوار تحت لواء الأجواد و المرابطين استشهد زعيم الثورة الباشاغا محمد المقراني يوم 1871/05/05م بعد أدائه لصلاة الظهر، و وضع له الفرنسيون نصبا تذكاريا في المكان الذي قتل فيه[5]، فخلفه أخوه بومزراق المقراني في قيادة الثورة، و حمل لقب « أمير المجاهدين »[6].

لقد مسحت هذه الثورة مناطق شاسعة من البلاد من زكار و مليانة و شرشال غرب الجزائر العاصمة إلى جيجل و القل شرقا، و امتدت أيضا إلى مناطق الحضنة و المسيلة و بوسعادة، و تقرت و باتنة و بسكرة و عين صالح[7]. و حاول الثوار إسماع صوتهم في الخارج، فكتبوا رسالة إلى ملكة بريطانيا و الدولة العثمانية في 1871/04/20م فضحوا فيها السياسة الاستعمارية الفرنسية[8].

---

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم : « نعيب الانسانيات و العيب فينا و ما للانسانيات عيب سوانا »، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة و السياحة، الجزائر، العدد 95، عام 1986، ص 24.

(2) Pierre Goinard : Algérie L'œuvre Française, editions Robert Laffout, Paris, France, 1984, p 131.

(3) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 253.

(4) L.Rinn : « Deux chansons kabyles sur l'insurrection de 1871 », op.cit, p 56.

(5) Colonel Trumelet :« Lettre du colonel Trumelet au sujet d'une pièrre commemorative indiquant l'endroit oû à êté tué le bachagha Mokrani », in R.A n° 18, Année 1874, pp 475-477.

(6) Charles-Robert Ageron : op.cit, p 6.

(7) يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، المرجع السابق، ص 202.

(8) Mohamed Cherif Sahli : op.cit, p 137.

و بعد سنة من الكفاح المسلح أجبر الثوار على وضع السلاح بعد أن خاضوا زهاء 340 معركة ضد الفرنسيين[1]. و كانت ثورتهم أكبر و أشرس ثورة قام بها المجتمع الريفي الجزائري ضد الوجود الاستعماري الفرنسي خلال القرن 19م[2]، وهي من جهة نظر سوسيوتاريخية مثلت الحد الفاصل لزمن المجد العسكري لمجتمع الريف الجزائري[3] لأنها أدت إلى أفول نجم حكم الأجواد أو «الإقطاعية المحلية» كما يذهب إلى ذلك بعض دارسي المجتمع الجزائري[4]. هذه نبذة موجزة عن ثورة المقراني عام 1871م من بدايتها إلى نهايتها. و الثابت أن لها نتائج و آثار. و قد فضلنا إرجاء الكلام عنها إلى الفصل الموالي من هذه الدراسة لارتباطها الوثيق به.

و في الختام نقول رغم أن هذه الثورات لم تحقق أهدافها المنشودة، إلا أن التاريخ سجلها في سجل الثورات و الملاحم الوطنية التي عرفتها الجزائر خلال القرن 19م. و بقدر ما كانت هذه الثورات تعبر على مدى شساعة الفجوة التي حدثت بين هذه العائلات و الإدارة الفرنسية، بقدر ما كشفت عن حقيقة الوضعية المزرية التي آلت إليها وضعيتهم جراء تحالفهم مع الإدارة الاستعمارية، كما برهنت لنا كذلك هذه الثورات عن مشاعر العزة و الكرامة لدى هذه العائلات و محاولة استرجاعها بعد ما سلبها منهم المستعمر الفرنسي الذي عمل على إذلالهم و تحطيم كبريائهم. و على هذا الأساس ذهب جانب كبير من المؤرخين الفرنسيين إلى القول بأن زعماء هذه العائلات ثاروا ضد السلطة الفرنسية نتيجة لسياسة تقليم الأظافر الممارسة ضدهم. و رغم أن هذا المبرر لا يمكن بأي حال من الأحوال نكرانه، إلا أنه يبقى سببا من الأسباب و ليس سببا وحيدا لهذه الثورات، لأن هذا الرأي يعبر عن أطروحة استعمارية تنصرف بالأساس إلى استبعاد العنصر الوطني عن هذه الثورات. و ليس أدل على ذلك من أن هذه الثورات كانت في الغالب الأعم ذات طابع جماهيري و نادت بطرد «الكافر»، و اتهم الفرنسيون منفذيها بالتعصب الديني، الذي يمكن أن نسميه اليوم بالروح الوطنية مما يبعد عنها شبهة الطابع الشخصي لزعمائها، و يؤكد من ناحية أخرى طابعها الوطني.

---

[1] يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية، المرجع السابق، ص 181.

[2] Benjamin Stora : Histoire de L'Algérie coloniale 1830-1914, ENAL, Alger Algérie 1996, p 40.

[3] Abdelkader Djerloul : «Hors la loi, Violence Rurale et Pouvoir Colonial en Algérie au Début du 20éme Siècle », in Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, Année 1984, p 98.

[4] Mohieddine Djender: op.cit, p 180.

الفصل السادس : آثار و عواقب مقاومة العائلات الكبرى للإدارة الاستعمارية

VII- مصادرة ممتلكات الثائرين و توقيع غرامات الحرب عليهم.

8- مصادرة ممتلكات عائلتي بوعكاز بن عاشور و أولاد عز الدين.

9- مصادرة ممتلكات عائلة ابن جلاب

10- مصادرة ممتلكات عائلة الرزقي و تغريمها

11- مصادرة ممتلكات عائلة المقراني و تغريمها

VIII- النفي إلى الخارج

1- نفي عائلة أولاد عز الدين

2- نفي الشيخ أحمد بوعكاز زعيم عائلة بوعكاز بن عاشور

3- نفي عائلة الرزقي

4- نفي عائلة المقراني

أ- نفي بومزراق المقراني

ب- نفي محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني

IX- الهجرة إلى البلاد التونسية

1- هجرة أولاد عز الدين و المقرانيين

2- هجرة سلمان بن جلاب و محمد الطاهر الكبلوتي

أ- هجرة سلمان بن جلاب

ب- هجرة محمد الطاهر الكبلوتي

X- تدهور أوضاع العائلات الثائرة و تراجع مكانة العائلات الكبرى

1- تدهور الوضعية المادية و الاجتماعية للعائلات الثائرة

أ- تدهور وضعية عائلة ابن جلاب

ب- تدهور وضعية عائلة أولاد عز الدين

ج- تدهور وضعية عائلة المقراني

2- تقهقر مكانة العائلات الكبرى

XI- موقف العائلات المهادنة من السياسة القمعية الممارسة ضد العائلات الثائرة و تطور علاقتها بالإدارة الاستعمارية

1- المساهمة في القضاء على ثورة المقراني عام 1871م إلى جانب الجيوش الفرنسية

2- مواصلة التمكين للمستعمر

3 -إصرار الإدارة الاستعمارية على نهجها المعادي للعائلات المهادنة.

الفصل السادس: آثار و عواقب مقاومة العائلات الكبرى للإدارة الاستعمارية

بعدما تمكنت الإدارة الاستعمارية الفرنسية من إجهاض الثورات التي أعلنتها بعض العائلات الكبرى، باشرت ضدها إجراءات ردعية انتقامية، و عاقبت قادتها و السكان الذين انتصروا لثوراتهم. و إذا أردنا معرفة طبيعة هذا العقاب، نقول إنه العقاب الذي يواجهه الطرف الخاسر و المغلوب من عدوه الغالب المنتقم، حيث أعطت الإدارة الفرنسية أوامرها بمصادرة ممتلكات هذه العائلات و السكان الثائرين، كما فرضت عليهم الغرامات و الضرائب التي تسميها "غرامات الحرب"، و أحالتهم على القضاء الذي أصدر أحكاما جائرة كذلك ضدهم شملت السجن و الأعمال الشاقة و النفي إلى المناطق البعيدة خارج الوطن. و هاجر البعض منهم إلى البلاد التونسية، فتدهورت أحوالهم المادية و الاجتماعية في الجزائر و خارجها نتيجة لهذه الإجراءات القمعية المسلطة ضدهم. و كانت خسائر هذه العائلات الثائرة فادحة و العقوبات المسلطة ضدهم صارمة و النتائج بعيدة المدى.

و بالموازاة مع ذلك واصلت الإدارة الاستعمارية مضايقاتها لكل العائلات التي كانت تربطها بها علاقات وطيدة، و طالت هذه المضايقات كل العائلات الكبرى بما في ذلك العائلات المهادنة، و تمسكت بهذا الإجراء بشكل كبير خاصة بعد عام 1871م. لهذا سنحاول في هذا الفصل التعرف على الإجراءات الردعية التي طبقتها الإدارة الفرنسية ضد العائلات الثائرة و السكان المنتصرين لثوراتهم، و التطرق بصفة موازية إلى علاقة الإدارة الفرنسية بهذه العائلات حتى بعد عام 1871م، حتى نتعرف أكثر على نتائج هذه الثورات ذات المدى البعيد، و ليتبين لنا أيضا إلى أي مصير قاد التحالف مع الإدارة الفرنسية.

و ستكون المراسلات الرسمية و ما تركه لنا الفاعلون من شهادات في شكل رسائل و لوائح مطلبية محفوظة في دور الأرشيف الفرنسي و التونسي من أهم المصادر التي نعتمد عليها. و يبقى السؤال مطروحا حول مدى خطورة العقوبات التي سلطتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية ضد هذه العائلات الثائرة ؟ و مدى انحراف العدالة الفرنسية و تجاوزها للقانون أثناء توقيعها لعقوبة حجز و مصادرة ممتلكات الثائرين، و غرامات الحرب و النفي و الإبعاد و التهجير و نحو ذلك؟ فإلى أي مدى روعي الجانب الإنساني أثناء توقيع هذه العقوبات؟ و ما هو الأثر المادي و الاجتماعي لهذه العقوبات على هذه العائلات؟ هل سياسة الانتقام و الردع كانت تطبق ضد العائلات الثائرة دون سواها أم أن الفرنسيين وضعوا كل العائلات الكبرى التي تعاملوا معها منذ بداية الاحتلال في خندق واحد فتعاملوا معهم بفظاظة و قلصوا من مهامهم و تخلوا عن خدماتهم؟ تلك هي النقاط المركزية التي سنعرض لها و نحاول تفصيلها تباعا.

I– مصادرة ممتلكات الثائرين و توقيع غرامات الحرب عليهم

قامت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بمصادرة ممتلكات العائلات الثائرة، كما طبقت ضدها إجراءات ردعية أخرى أبرزها غرامات الحرب. و في ما يلي نحاول توضيح هذه العقوبات التي طالت كل عائلة ثائرة على حدة.

1– مصادرة ممتلكات عائلتي بوعكاز بن عاشور و أولاد عز الدين

بعد القضاء على ثورة الزواغة عام 1864م، قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بمصادرة أراضي الثائرين و منحتها إلى إحدى الشركات التي أنشأها الفرنسيون و هي الشركة الجزائرية العامة عام 1865م، و قدرت المساحة المصادرة بمقاطعة قسنطينة بـ 89.500 هكتار، كما قامت أيضا بمصادرة نحو 500 رأس من الأبقار، و 4000 رأس من الأغنام و 9200 رأس من الماعز و 400 رأس من الأحصنة[1]. و الثابت أن هذا الإجراء كان قد مس عائلتي بوعكاز بن عاشور و أولاد عز الدين لأن زعمائهما كانوا قد شاركوا بقوة في هذه الثورة.

2– مصادرة ممتلكات عائلة ابن جلاب.

لم يتمكن الفرنسيون من إلقاء القبض على سلمان بن جلاب الذي ثار ضد سلطتهم و تعاون مع أعدائهم، و هاجر إلى البلاد التونسية حيث وجد الدعم و المؤازرة هناك. و رغم ذلك فإنه لم يستثن من العقوبات التي سلطت ضد الثائرين. و في هذا الإطار أصدر الحاكم العام الفرنسي بالجزائر قرارا مؤرخا في الفاتح من أغسطس من عام 1866م نص على توقيع عقوبة الحجز و مصادرة كل ممتلكات عائلته الموجودة على التراب الجزائري و اعتباره عدوا للفرنسيين.[2]

3– مصادرة ممتلكات عائلة الرزقي و تغريمها

بعد إخماد ثورة الصبايحية التي شاركت فيها عائلة الرزقي بفعالية في مطلع عام 1871م، سلطت السلطات الاستعمارية الفرنسية عقوبات قاسية ضد الثائرين شملت أحكاما بالسجن تراوحت بين سنتين و اثنتين و عشرين سنة، إضافة إلى الأعمال الشاقة، و ضمت أيضا خمسة أحكام بالإعدام، و بعض الأحكام الأخرى بالنفي إلى الخارج و الإقامة الجبرية و نحو ذلك.[3] أما الأوروبيون الذين اتهموا بارتكابهم

[1] احميدة عميراوي: قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، شركة دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005، ص ص 156، 157.

[2] بشير كاشة الفرحي: مختصر وقائع و أحداث ليل الاستعمار الفرنسي للجزائر 1830–1962، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 75.

[3] De la Sicotiere : Rapport fait au nom de La commission d'enquête parlementaire sur les actes du Gouvernement de la défense Nationale, Alger, Versailles, 1875, P 743.

بعض التجاوزات فقد تم تبرئة ساحتهم من قبل القضاء العسكري[1] مما يؤكد بما لا يدع مجالا للشك انحراف العدالة الفرنسية.

يضاف إلى هذا، ألزمت عائلات الثائرين بتسديد غرامات حربية "Des contributions de guerre" بهدف تعويض الكولون الذين تضررت أملاكهم جراء هذه الثورة، و كذا تعويض الخسائر المادية التي لحقت بالمرافق الحيوية كمصالح البرق و البريد والهاتف التي تضررت بشكل لافت للانتباه، و خاصة خط الهاتف الرابط بين مدينتي عنابة و سوق أهراس. و قد حددت السلطات الاستعمارية الفرنسية قيمة هذه الغرامة بـ 376.000 فرنك فرنسي[2]. أما المعيار المعتمد في تحديد قيمة هذه الغرامة، فكان بحسب عدد الجابدات * التي تملكها كل عائلة. و قد باشرت الإدارة الاستعمارية إجراءات تحصيل هذه الغرامة بطريقة سريعة و فورية حيث انطلقت عملية جبايتها خلال شهر فيفري من عام 1871م و انتهت خلال شهر ماي من عام 1871م. و تمكنت المصالح المشرفة عليها من جمع 347.000 فرنك فرنسي منها 238.000 فرنك نقدا، و 42.000 فرنك قيمة الحيوانات التي تمت مصادرتها، و 67.000 فرنك كذلك قيمة الحبوب المصادرة[3]، بالإضافة إلى ذلك قامت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بتجريد العائلات الثائرة من كل أسلحتها[4].

و استثنت من هذا الإجراء العائلات التي كانت تقيم على الشريط الحدودي مع تونس، و بررت ذلك بأن هذه العائلات كانت في حاجة ماسة إلى هذه الأسلحة لأنها تستعملها في رد الاعتداءات التي تتعرض لها من قبل بعض القبائل التونسية[5].

و هو مبرر ذو حجية ضعيفة لأن الفرنسيين كانوا حينئذ يتصيدون الفرص بحثا عن مسوغات لفرض حمايتهم على تونس.

(1) L.Rinn : op.cit, pp 122-124.

(2) De la Sicotiere : op.cit, pp 743, 744.

* الجابدة هي إحدى الوحدات التقليدية القديمة المستعملة في قياس مساحة الأرض الزراعية، و قد عرفها المجتمع الريفي الجزائري منذ القديم، و استمر العمل بها خلال حقبة الاستعمار الفرنسي. و هي عبارة عن قطعة أرضية مستغلة من قبل صاحبها الذي يستعمل حيوانين إثنين في حرثها و تقليبها و زراعتها. و لم تكن مساحة الجابدة ثابتة بل كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، و عموما فهي تتراوح بين 12 و 17 هكتار.

حول هذا الموضوع ينظر:

Habib Tangour : « les mots et les choses : Note sur la signification de quelques termes courants », in cirta, Revue historique et sociologique, publiée périodiquement par l'institut des sciences sociales de l'université de Constantine, Algérie, année 1981, P 23.

(3) A.O.M : 36K31 : Divers Rapports sur le recouvrement de la contribution de guerre qui fut imposée aux tribus pour indemniser les colons pendant l'Année 1871.

(4) A.O.M : 6H 33 : Rapport sur le Caid si khaled Ben Ali, le 04 Aout 1872.

(5) A.O.M : 1kk36 : Rapport du Général De la Croix, Commandant de la division de Constantine au Commandant de la Subdivision de Bône, le 09 Décembre 1871.

و في 31 جويلية 1871، أصدرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية قرارا يقضي بمصادرة أراضي العائلات التي شاركت في ثورة الصبايحية. و مس هذا القرار بالأساس عائلة الرزقي و على رأسها الكبلوتي الذي صودرت ممتلكاته المنقولة و العقارية، كما مس هذا القرار أيضا نحو 83 عنصرا من صبايحية زمالة عين قطار و نحو 28 شخصا جلهم ينتمي إلى قيادة الحنانشة، كما تم توقيع الحجز كذلك على كل الأراضي المعروفة في القانون العقاري بأراضي العرش، إضافة إلى كل أراضي الدواوير الثائرة.[1]

و يبدو أن حجم الأملاك المنقولة و العقارية التي كانت تحوز عليها عائلة الرزقي كان كبيرا، و هذا ما يمكن أن نستشفه من الرسالة التي كتبها أحمد بن دحماني الرزقي إلى وزير الحربية الفرنسي في 14 مارس 1874م، و التي ذكر له فيها بأنه ترك لعائلته أموالا طائلة و عقارات تحت رعاية ابن عمه و قام بإحصائها في هذه الرسالة. غير أن السلطات الفرنسية (البايلك) صادرتها من عائلته، و تمثلت هذه الأملاك في 48 رأسا من الإبل، و 90 رأسا من الغنم، و 19 رأسا من البغال، و 19 من الأحصنة، و مائة صاع شعير، و منزلين و حمام. [2]

4- مصادرة ممتلكات عائلة المقراني و تغريمها

بعدما تمكن الفرنسيون من القضاء على ثورة المقراني عام 1871م، قاموا بمصادرة ممتلكات الثوار. و تم هذا الإجراء بطريقة انتقامية حيث لم يخضع لقانون يضبطه، و لم تؤخذ فيه ظروف المخاطبين بأحكامه بعين الاعتبار، فعوقب كل من كانت له صلة بالثورة عقوبة قاسية تمثلت في نزع أرضه و تمليكها للمستوطنين و تدمير القرى، و قطع الأشجار المثمرة و إبادة الماشية و نحو ذلك. و قد حمل السكان مسؤولية خسائر الحرب حيث ألزموا بالتعويض عن الخسائر التي مست المستوطنين و المصالح الفرنسية حسب عدد البنادق و القتلى وفقا للمعايير الآتية:

- يعاقب كل شخص تثبت إدانته بمعاداته لفرنسا أثناء الثورة بغرامة مالية قدرها 70 فرنك للبندقية الواحدة.
- يعاقب كل شخص تثبت إدانته بالمشاركة الفعلية في الثورة بغرامة مالية قدرها 140 فرنكا.
- يعاقب كل شخص تثبت إدانته بمعاداته لفرنسا أو قيامه بمحاصرة مراكز الكولون أثناء الثورة بغرامة مالية تقدر بـ 210 فرنكات فرنسية [3]

و في 31 من أكتوبر 1871م، أصدرت سلطات الاحتلال الفرنسي قرارا يوضح عمليات المصادرة. و لوحظ على هذا القرار ما يلي:

[1] A.O.M : 36 kk 31 : Correspondance du district de souk-ahras le 07 aout 1871.

[2] يحي بوعزيز: « أوضاع المنفيين بعد ثورة 1871 من خلال رسائلهم » مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الإعلام و الثقافة بالجزائر، عدد 42، عام 1978، ص، ص 15، 16.

[3] يحي بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني و الحداد) ، المرجع السابق، ص ص 311، 312.

- أنه مس 4827 مواطنا من السكان الجزائريين.
- شمل قرار المصادرة ممتلكات و أراضي 313 قبيلة جزائرية.
- قدرت المساحة العامة المصادرة بـ 2639999 هكتارا .
- سلطت على السكان غرامة حربية قدرت بـ 365.822,98 فرنك فرنسي [1]

أما بالنسبة لعائلة المقراني، فقد صدر القرار الخاص بمصادرة أملاكها يوم 25 من مارس 1871م. و يتكون هذا القرار من ديباجة و خمسة فصول، و نصت فصوله الثلاثة الأولى على عمليات المصادرة كما يلي:

- أشار الفصل الأول من هذا القرار إلى أن كل الممتلكات المنقولة و العقارية للباشاغا محمد المقراني زعيم ثورة 1871م الموجودة على التراب الوطني وضعت كلها تحت الحجز.
- ألزم الفصل الثاني من القرار كل الحائزين و المستعيرين و العاملين و المستأجرين، و كل الذين يتصرفون في أملاك الباشاغا بأي شكل من الأشكال، و كل الدائنين، و كل الذين تربطهم به علاقة مالية أن يصرحوا بما عليهم و ما بذمتهم في أجل أقصاه ثلاثة أشهر ابتداء من تاريخ صدور هذا القرار في 25 مارس 1871. و بالموازاة مع ذلك ذكر هذا الفصل أيضا أن كل أملاك الباشاغا محمد المقراني وضعت تحت تصرف الدومين العام ليتصرف فيها وفقا لأحكام الأمر المؤرخ في 31 أكتوبر 1845.
- تحدث الفصل الثالث من هذا القرار عن الأملاك المنقولة و العقارية لكل الأعراش و السكان الذين ثاروا ضد السلطة الفرنسية إلى جانب الباشاغا محمد المقراني. و قد صودرت كل أملاكهم و وضعت تحت حيازة الدولة[2].

و تجدر الإشارة إلى أن الإدارة الفرنسية، كانت قد طبقت هذا الإجراء أيضا على عائلة الحداد رغم أنها لم تكن في مستوى ثراء عائلة المقراني، حيث قدرت المساحة المصادرة منها بـ 05 22 25 20 هكتارا، كانت تحتوي على 62 ضيعة فلاحية، و ستة بساتين، و سبعة منازل، و 15 دكانا و ثلاثة إسطبلات، و

[1] Mohamed Elyes Mesli : les origines de la crise Agricole en Algérie du Contonnement de 1864 à la Nationalisation de 1962, Editions Dahleb, Alger, Algérie, S.D, pp 81, 82.

[2] يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 387، 388.

ثلاث رحوات ومعصرة لزيت الزيتون، و مسجد، و قدر عدد الأشجار المثمرة المصادرة بـ 14528 شجرة[1]. بعد ذلك قام الفرنسيون بتجريد عائلة المقراني من كل ممتلكاتها و هذا بعد أن أحصوها بطريقة دقيقة استغرقت فترة طويلة تجاوزت السنتين، و في 29 جويلية 1873م صدرت ستة قرارات تحتوي على كل الأملاك العقارية لفروع عائلة المقراني، و تم مصادرة أملاكهم العقارية، و قدرت مساحة الأراضي المصادرة منهم بـ 22829 هكتارا.[2]

و كانت هذه العقوبة أقصى عقوبة سلطت على الجزائريين خلال الحقبة الاستعمارية برمتها، حيث ألزم المخاطبون بها بضرورة تسديدها بصورة استعجاليه، الأمر الذي دفع بهم إلى بيع مواشيهم و كل ما ملكت أياديهم. [3] و لاحظ « أجيرون » أن ارتفاع نسبة تصدير رؤوس الماشية نحو السوق الفرنسية قد ارتفعت بشكل لافت للانتباه خلال سنتي 1872م- 1873م حيث وصلت إلى 1.200.000 رأس، و لم يكن هذا الارتفاع المفاجئ مؤشرا على تحسن الوضع الاقتصادي العام لدى الجزائريين، و إنما كان نتيجة للسياسة القمعية الفرنسية التي قطعت أرزاقهم، و دفعت بهم إلى بيع أملاكهم و حيواناتهم التي هي مصدر رزقهم الأساسي بأثمان بخسة من أجل توفير المال اللازم لتسديد الغرامات الحربية التي فرضت عليهم ظلما و عدوانا، حيث لم يعودوا يعملون إلا من أجل تسديدها. و قد باع الجزائريون في تلك الفترة قطيعا من الأغنام يتراوح عدده بين ستة و ثمانية رؤوس بخمسة و ستة فرنكات فرنسية، كما باعوا أيضا مجموعة من الثيران بـ عشرة فرنكات فرنسية !.[4]

لقد كانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية تعمل جاهدة للبحث عن مسوغات لتحطيم نفوذ هذه العائلات، فكانت ثوراتهم فرصة ذهبية لتحقيق ذلك، فصادرت ممتلكاتهم المنقولة والعقارية بصورة فردية و جماعية و فرضت عليهم الغرامات الحربية، و هي أساليب هدفها المركزي تحطيم كبرياء هذه العائلات و تفريق جموعهم، و كذلك تكسير شوكتهم الأدبية و نفسيتهم، لأن عملية المصادرة و الحجز كانت أشد وقعا على نفسية هذه العائلات التي كانت أكثر تشبثا بأرضها لأنها رمز وجودها، و كانوا يتمنون العيش عليها طوال حياتهم كما كانوا أيضا يتمنون أن يدفنون فيها بعد مماتهم.

[1] يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد و مذكرات ابنه سي عزيز، م.و.ك، الجزائر، 1989، ص ص 39-41.

[2] يحي بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني و الحداد)، المرجع السابق، ص 318.

[3] Mahfoud kaddache, Djilali Sari : op.cit, p 145.

[4] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, tome premier, op.cit, p34.

II– النفي إلى الخارج

لجأت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى تطبيق عقوبة النفي و الإبعاد ضد العائلات التي ثارت ضد سلطتها، و الواقع أن هذه السياسة القمعية كانت قد طبقت من قبل الفرنسيين ضد القادة و الثوار الجزائريين الذين انفضوا من حولهم و حاربوا مشروعهم الاستعماري منذ أن وطأت أقدامهم أرض الجزائر عام 1830م.

و قبل أن نفتتح الحديث عن عقوبة النفي التي طبقها الفرنسيون ضد العائلات الثائرة، نرى من الملائم أن نسلط الضوء و لو بصورة موجزة عن هذه العقوبة التي طبقها الفرنسيون ضد كل الثائرين الجزائريين منذ بداية الاحتلال دون إغفال إطارها القانوني لأن ذلك سيساعدنا أكثر على فهم مقاصد الإدارة الاستعمارية من وراء تطبيق هذه العقوبة المشينة.

إنه من نافلة القول أن عقوبة النفي و التهجير إلى الخارج من أقسى العقوبات لأنها تنتفي فيها أدنى القيم الإنسانية، و على هذا الأساس كانت محل امتعاض و رفض حتى بعض القادة الفرنسيين أنفسهم. من ذلك مثلا اعتراض وزير الحربية الفرنسي على الإجراء الذي اتخذه « الدوق دي روفيغو » في حق أربعة مقاومين جزائريين من ناحية عنابة حينما قام بنفيهم إلى مدينة مارسيليا الفرنسية عام 1833م. و قال الوزير أن هذا الإجراء ينطوي على مخاطر كبرى تهدد مستقبل المستعمرة لأنه من شأنه أن يؤدي إلى تأجيج مشاعر الحقد و الضغينة ضد الفرنسيين، و يحرج كذلك الحكومة الفرنسية، لذلك حث المسؤولين الفرنسيين بالجزائر على تجنب تطبيقها و نصحهم بإحالة المتهمين على القضاء باعتباره الجهاز المؤهل دون سواه لإصدار هذا الحكم.[1]

و غني عن البيان أن النفي الذي تحدث عنه وزير الحربية الفرنسي هو ذلك الذي كان يتم خارج المسطرة القضائية، لأن النظام القضائي الفرنسي كان حينئذ يعترف بهذه العقوبة.و يجب أن لا نفهم من هذا كله أن القيادة الفرنسية بباريس كانت تتقاسم نظرة موحدة إلى هذه المسألة. و الراجح أنه كان هناك تياران متناقضان داخل السلطة الفرنسية بباريس يتجاذبان هذا الموضوع: الأول رافض و متحفظ من تطبيقها ضد الثوار الجزائريين، أما الثاني فكان يشجع تطبيقها. و يبدو أن الكفة مالت لصالح التيار الثاني لأن السلطات الفرنسية أصدرت قرارا وزاريا في الفاتح من سبتمبر عام 1834م يمنح الحاكم العام الفرنسي بالجزائر سلطة تقديرية واسعة في تسليط عقوبة النفي إلى الخارج في حق

---

(1) Gabriel Esquer : Correspondance du Duc de Rovigo (1831-1833), Tome 3 :Ancienne Maison Bastide-Jourdan, Jules Carbonel, Imprimeur libraire éditeur, Alger 1921 : Lettre du Ministre de la Guerre au Duc de Rovigo, le 06/02/1833, p 621.

الأشخاص الذين يتسببون في خلخلة السكينة العامة و تعكير أجواء النظام العام. و كان هذا القرار من أهم القرارات الوزارية التي أصدرتها السلطات الاستعمارية الفرنسية و المنبثقة عن مرسوم 1834/07/22 الذي ضم الجزائر إلى فرنسا و سماها الممتلكات الفرنسية في إفريقيا الشمالية « Possessions Françaises dans le nord de l'Afrique ».[1]

إن هذا التباين في وجهات نظر السياسيين الفرنسيين حول المسائل المتعلقة بالجزائر، خلال الفترة الممتدة من عام 1830م إلى 1834م يجب أن ينظر له من زاوية واحدة و هي أن السلطة الفرنسية خلال هذه الفترة لم تحدد موقفها بوضوح من الجزائر من وجوب الاحتفاظ بها من عدمه، لذلك يحلو للفرنسيين و مؤرخيهم تسمية هذه الفترة بفترة التردد 1830–1834– « La Période d'incertitude »

و الواقع أن أصل هذه العقوبة في النظام القضائي الفرنسي يستمد مرجعيته من قانون العقوبات الفرنسي الصادر عام 1810م، حيث نصت المادة 17 منه على أن كل شخص تثبت إدانته بمعاداته للنظام السياسي القائم تسلط عليه عقوبة النفي إلى خارج التراب الفرنسي. و في عام 1848م تم تعديل هذا القانون، و أعيد النظر في بعض نصوصه، فتم إلغاء عقوبة النفي، كما تم إلى جانب ذلك إلغاء عقوبة الإعدام التي كانت تطال الأشخاص بسبب أفكارهم و ميولهم و قناعاتهم السياسية. و رغم تدخل المشرع الفرنسي و تنصيصه الصريح على إلغاء عقوبة النفي، إلا أنه من الناحية العملية استمر العمل بها، و بالأساس في الجزائر، و عليه وجد المشرع الفرنسي مرة أخرى نفسه مضطرا إلى مراجعة قانون العقوبات في بعض جوانبه، و لاسيما تلك المتعلقة بالجرائم المعاقب عليها بالنفي إلى الخارج من حيث تكييفها القانوني و توصيفها الدقيق، فأصدرت السلطات الفرنسية مرسوما حكوميا في 1848/06/27م أعاد تطبيق عقوبة النفي إلى الخارج، و تم التصويت عليه يومي 05 و 22 أفريل و يوم 8 جوان 1850 [2].

و بعد ذلك أصدرت الحكومة الفرنسية عدة مراسيم توضح بدقة حيثيات و ملابسات الجرائم المعاقب عليها بهذه العقوبة سواء المرتكبة على التراب الفرنسي أو ببلدان المتروبول. و في هذا المنظور نص

[1] رمضان بورغدة: « الأقضية الاستثنائية والعقوبات الخاصة بالأهالي المسلمين في الجزائر المستعمرة خلال القرن التاسع عشر »،مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري ، قسنطينة، الجزائر، العدد 29، عام 2008، ص 243.

[2] Melica Ouennoughi : Algériens et Maghrébins en Nouvelle Calidonie de 1864 à nos jours Editions Casbah, Alger, Algérie, 2008, p 133.

مرسوم 1858/12/08م على أن الأشخاص الذين يعيشون على التراب الفرنسي أو ببلدان المتروبول يحالون على القضاء العسكري إذا وجهت لهم تهم المساس بأمن الدولة، أو حمل السلاح ضد المصالح الفرنسية، أو استعمال العنف أو التحريض عليه ضد السلطات العمومية، أو التمرد ، أو المساس بالنظام السياسي القائم. و إذا تبين من مجريات التحقيق القضائي أن واحدة أو أكثر من هذه التهم ثابتة في حق شخص أو عدة أشخاص يصدر القضاء أحكاما بالنفي إلى الخارج في حق كل من تورط في ارتكاب جريمة من هذه الجرائم[1].

يتبين لنا من خلال ما تقدم أن عقوبة النفي إلى الخارج أحدثت نقاشا كبيرا في الأوساط القضائية الفرنسية، و لم يقع توافق تام بين رجال القانون و السياسة حول قبول تطبيقها من عدمه، لأن أحكامها عادة ما كانت تتأثر بالاعتبارات السياسية فتنتفي فيها بالتالي روح العدالة، و خاصة في المستعمرات و على رأسها الجزائر التي نفي منها عدد كبير من وجهائها إلى الخارج بطرق قضائية و غير قضائية، و بغير وجه حق.

أما وجهات النفي الأساسية فكانت كورسيكا، و سان مارغاريت، و كيان بغويانا Cayenne (Guyane Française) ، و كاليدونية **الجديدة** Nouvelle calidonée. و كانت عقوبة النفي إلى هذه المناطق أقسى عقوبة تطبق ضد القادة الجزائريين و عائلاتهم الذين ثاروا ضد السلطة الفرنسية، لأن المنفي إلى هذه المناطق البعيدة ليس في مقدوره التواصل مع أهله و أقربائه و أصدقائه. [2]

و حتى وضعه القانوني في بلد المنفى كان وضعا قاسيا و غير إنساني، و من مظاهر ذلك مثلاأن الشخص المحكوم عليه بأقل من ثماني سنوات نفي لا يجوز له العودة إلى دياره بعد قضاء مدة عقوبته، بل عليه البقاء في منفاه لمدة تساوي المدة التي قضاها هناك. أما الأشخاص المحكوم عليهم بأكثر من ثماني سنوات نفي فلا يجوز لهم بأي حال من الأحوال مغادرة منفاهم بعد انقضاء

---

[1] Dictionnaire de droit : op.cit, pp 398-400.

[2] عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 225.

مدة عقوبتهم. و يتعين عليهم البقاء هناك بقية حياتهم، و كل شخص يحاول الفرار تسلط عليه عقوبة إضافية تتراوح بين سنتين إلى خمس سنوات أشغال شاقة في مجال الزراعة و الغابات و نحو ذلك [1]

و بعد هذه اللمحة الموجزة عن عقوبة النفي التي طبقها الفرنسيون ضد الجزائريين الذين انتصبوا في المعسكر المعادي لهم، و السجال السياسي والقانوني الذي أحدثته هذه العقوبة على مستوى مؤسسات الجمهورية الفرنسية، هل لنا الآن أن نتعرف عن العائلات الكبرى التي طالتها هذه العقوبة المشينة؟

1- نفي عائلة أولاد عز الدين

في نهاية عام 1865م أعطت السلطات الاستعمارية الفرنسية أوامرها بترحيل أفراد عائلة أولاد عز الدين إلى جزيرة كورسيكا، غير أنهم اعترضوا على هذا القرار الخطير و ناشدوا المسؤولين الفرنسيين بالتراجع عنه، و كتبوا رسالة جماعية إلى الحاكم العام بالجزائر العاصمة الماريشال «ماكماهون» توسلوا له فيها العفو عنهم ملتمسين منه إطلاق سراحهم و قالوا له : «... نطلب منك أن تنعم علينا و تجمع شملنا مع أهلنا و أولادنا... ». [2]

غير أن الحاكم العام الفرنسي صرف النظر عن طلبهم. و يبدو أنهم عندما تأكدوا من استحالة استجابة الفرنسيين إلى طلبهم بالتراجع عن هذا القرار، التمسوا منهم تطبيق العقوبة الأقل سوء و هي النفي إلى بلد إسلامي، كما كان يرغب كل المنفيين الجزائريين إلى الخارج. غير أن هذا الطلب رفض كذلك من قبل الفرنسيين، و لم يستفد منه إلا الحاج بن عز الدين الذي سمح له بالتوجه إلى البلاد التونسية كمنفى اختياري.

و لم يستجب الفرنسيون إلى طلبه بالجزائر، بل أبدوا موافقتهم عليه في آخر مرحلة، أي عندما وصل إلى مدينة « باسيتا » « Bastia » التي يعد ميناؤها آخر محطة للتوجه إلى جزيرة كورسيكا، حيث سمح له بركوب الباخرة المتجهة من ميناء باستيا إلى ميناء مارسيليا خلال رحلتها المقررة يوم الخميس1865/12/14م، ثم التوجه إلى تونس يوم الجمعة 1865/12/22م.

و قال الفرنسيون أن الاستجابة إلى طلب الحاج بن عز الدين كانت استثناء عن القاعدة،

---

(1) Michel Deveze : Cayenne, déportés et bagnards, Réné Julliard, Imprimé en France, 1965, pp 125, 126.

(2) A.O.M : 2H19 : Lettre d'el Hadj Ben Azzedine ainsi que Allaoua et son Frère Aboud Enfants de Bourenane Ben Azzedine à son Excellence le Marechal Gouverneur Général de l'Algérie datée en Rabia II (1865), n° 153, voir Aussi la Traduction de cette Lettre, n° 152.

و برروا هذا الاستثناء بكون أن هذا المنفي كان يمر بوضعية صحية حرجة لا تسمح له بالاستقرار في جزيرة كورسيكا[1]. و هذا يعني أن الفرنسيين سمحوا للحاج عز الدين وحده دون سواه بالتوجه إلى تونس، و ذلك عكس ما ذهب إليه « فيرو » الذي قال بأنهم أعطوا موافقتهم بالتوجه إلى هذا البلد إلى كل من الحاج عز الدين و بولخراص بن عز الدين. [2]

و في 1866/02/08م كتب رئيس المصالح القضائية العسكرية بمدينة مرسيليا الفرنسية تقريرا إلى الحاكم العام بالجزائر قال له فيه: «... نحيطكم علما سيدي بأن علاقتنا مع تونس قد تحسنت، و عليه أعطينا أوامرنا بإبحار الباخرة التي على متنها سي الحاج بن عز الدين الذي كان ينتظر سفره منذ عدة أسابيع بالتوجه إلى هذا البلد عبر ميناء ستروة بسكيكدة، كما أننا أعطينا تعليمات دقيقة لحرسه من الجندرمة تقضي بمراقبته الدائمة، و منعه من النزول من الباخرة عندما ترسو في مينائي سطورة و بونة (عنابة)... » [3]

و نفهم من هذا التقرير أن المصالح العسكرية بمدينة مرسيليا الفرنسية وجدت صعوبة كبيرة في إقناع التونسيين باستقبال الحاج بن عز الدين ببلدهم، و هذا ما يفسر تعطل سفره الذي كان مقررا يوم 1865/12/22م، كما أشار إلى ذلك المسؤولون العسكريون بمدينة باستيا. فهل تلكأ السلطات التونسية في الاستجابة لطلب الفرنسيين بخصوص الحاج بن عز الدين مرده تخوفها من هذا الزعيم الأهلي « غير المرغوب فيه » أم أن ذلك يعود إلى أسباب أخرى؟

يبدو أن تأخر موافقة التونسيين على الطلب الفرنسي يعود إلى تسمم العلاقة بينهما في ذلك الحين، خاصة و أن الفرنسيين كانوا يمارسون عليهم ضغوطا بسبب الوضع في الجزائر لأن التقرير المذكور تكلم عن مشكلة العلاقات الثنائية بين تونس و فرنسا و قال بأنها تحسنت مما يوحي بأنها لم تكن على أحسن حال في ذلك الحين ، و لم يكن هذا التأخر بسبب تخوف التونسيين من الحاج بن عز الدين

[1] Ibid : Lettre du Quartier Général à Bastia à Mr le Maréchal de Mac-mahon Gouverneur Général de L'Algérie, adressée le 05/12/1865, n° 162.

[2] L.ch. Féraud : <<Ferdjioua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine>>, op.cit, p 348.

[3] A.O.M : 2H20 : Rapport du général de division commandant de division militaire (justice militaire) à Marseille à Mr le gouverneur général de L'Algérie, daté le 08/01/1866, n° 168.

لأن الرسميين التونسيين كانوا أكثر تساهلا مع الثائرين الجزائريين، و كل المنفيين و المهاجرين و المهجرين إليهم من الجزائر التي تحولت إلى «دار حرب » و احتموا ببلادهم التي كانت « دار سلم » في نظر الجزائريين كما في نظر سائر المسلمين.

إثر وصول الحاج بن عز الدين إلى البلاد التونسية كتب القنصل الفرنسي المعتمد بتونس رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر الجنرال « ماكماهون » أخبره فيها بوصول هذا الزعيم الأهلي هناك ناصحا إياه و المسؤولين الفرنسيين بصفة عامة بعدم السماح له بالعودة إلى الجزائر لما ينطوي عليه رجوعه هناك من مخاطر تهدد الأمن الفرنسي[1]. و بهذا نرى أن المسؤولين الفرنسيين سواء في الجزائر أو في فرنسا أو حتى في تونس كانوا يتتبعون أخبار رحلة الحاج بن عز الدين، و رغم حالته الصحية المتدهورة إلا أنهم كانوا يخشون عودته إلى بلاده خوفا على أمنهم الذي يمكن أن يزعزعه إذا أعلن الثورة في وجههم مجددا.

أما بقية أفراد عائلة بن عز الدين فقد تم نقلهم إلى منفاهم بمدينة « كورتي » « Corté » في جزيرة كورسيكا و هي المدينة التي استقبلت أعدادا هائلة من الجزائريين المغضوب عليهم من جانب سلطات الاحتلال الفرنسي، و قد تقاطروا عليها على مراحل، و قدر عدد المنفيين إليها في تلك الأثناء بزهاء 500 فرد.[2]

و لم يطب لأولاد عز الدين المقام هناك حيث نشطوا في كتابة الرسائل إلى رجال السلطة الفرنسية. و لما كانت هذه الرسائل عديدة سنقصر الكلام في هذا السياق على واحدة منها نأخذها كنموذج للرسائل التي وجهوها إلى المسؤولين الفرنسيين بمختلف مستوياتهم. و هذه الرسالة وجهوها إلى الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، و لم تكن بخط أحدهم بل كتبها شخص آخر نيابة عن كل من علاوة بن بورنان و شقيقه عبود و ابن عمهما سي الهادي بن عز الدين الذي كان يشغل منصب قايد عرش بني يدر، حيث ذكروا للإمبراطور بأن المسؤولين الفرنسيين في الجزائر قاموا بنفيهم إلى مدينة « كورتي » بجزيرة كورسيكا بسبب تهمة وجهت لهم تتمثل في تورطهم في عملية نهب منزل قايد الزواغة، و هذا بعد أن أمضوا عقوبة الحبس بمدينة قسنطينة لمدة خمسة أشهر [3] و قد عبروا من خلال هذه الرسالة عن امتعاضهم الشديد من الأطراف التي وجهت لهم هذه التهمة مؤكدين للإمبراطور الفرنسي أنهم كانوا ضحية مؤامرة حيكت ضدهم بروح انتقامية

[1] Ibid : Lettre du Chargé d'Affaires et Consul Général de France à Tunis à son excelence Mr le Maréchal de Marc-mahon, Duc de Maguita, Gouverneur Général de l'Algérie, datée le 20/01/1866, n° 173 ينظر الملحق رقم 19.

[2] Annie Rey-Goldzeiguer : op.cit, p 308.

[3] A.O.M : 2H20 : op.cit, Lettre des Ouled Azzedine à sa Majesté Napoléon III Empereur de France, expédiée le 30/11/1865, Arrivée le 14/01/1866, n° 170.

نسج خيوطها أعداؤهم بالمنطقة، لأنهم كانوا دائما أوفياء لرجال السلطة الفرنسية، و سيرتهم كانت حميدة لا عيب فيها و لا تشوبها شائبة « Une conduite irréprochable » و كانوا أيضا يحترمون القوانين و التراتيب التي تسنها السلطة الفرنسية، لذلك التمسوا من الإمبراطور الفرنسي السماح لهم بالعودة إلى وطنهم خاصة و أن لديهم مسؤوليات عائلية كبيرة و لديهم عائلات تنتظر عودتهم إلى ديارهم. [1]

و لم تخل هذه الرسالة من عبارات الود و المجاملة لشخص الإمبراطور حيث قالوا له بأن الجزائر لا يمكن أن تستقيم أحوالها إلا إذا حكمها جلالة الإمبراطور الذي اعتبروه أفضل حاكم عرفته هذه البلاد منذ سيطرة الفرنسيين عليها، باعتباره إمبراطور العرب و الفرنسيين على حد سواء[2]. و أكد أولاد عز الدين في هذه الرسالة أيضا أنهم يحوزون على سمعة حميدة منذ نزولهم بجزيرة كورسيكا، لذلك قالوا أنه لا مانع له من أن يصدر عفوا إمبراطوريا عنهم و يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم للعيش في كنف الكرامة رفقة أهلهم وسط أراضيهم و جبالهم و غاباتهم مؤكدين أن ذلك ليس بعزيز على جلالة الإمبراطور المعروف بسخائه و رجاحة عقله و رشاد حكمه لفرنسا، « هذا البلد العزيز الذي يستحق كل الحب و الوفاء»[3].

و كان الشقيقان عبود و علاوة نجلا القايد بورنان قد أرسلا في تلك الأثناء أيضا رسالة إلى الإمبراطور نابليون الثالث و زوجته التمسا فيها العفو عليهما و السماح لهما بالعودة إلى أرض الجزائر، غير أن وزير الحربية الفرنسي رأى أنه من باب أولى توجيه هذا الطلب إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر من منطلق أن النظر فيه يعد من مشمولاته المركزية، و ينعقد له دون سواه اختصاص الفصل فيه. [4]

و نلاحظ من خلال هاتين الرسالتين أن أولاد عز الدين عندما خاب أملهم في الحصول على عفو من قبل المسؤولين الفرنسيين على مستوى أدنى توجهوا إلى جلالة الإمبراطور الفرنسي بهذا الطلب. و الثابت أن هذا الإمبراطور يمثل أعلى سلطة سياسية في الدولة الفرنسية، كما وجهوا ذات الطلب إلى زوجته علها تنظر إليهم بعين الشفقة أو على الأقل تؤثر على زوجها ليتخذ قرارا في مصلحتهم. غير أن المسؤولين الفرنسيين و على رأسهم وزير الحربية كانوا يعرقلون وصول طلبهم إلى الإمبراطور الذي قد يأمر بمباشرة خطوة إيجابية في صالحهم متكئين في ذلك على حجة قانونية واهية مؤداها أن النظر في مثل هذه المسائل ينعقد حصريا للمسؤولين الفرنسيين بالجزائر و على رأسهم الحاكم العام.

---

[1] Idem.

[2] Idem.

[3] Idem.

[4] Ibid : Lettre du Cabinet du ministre de la guerre renvoyée à Mr le gouverneur général de l’algérie le 18/01/1866, n° 172 ينظر الملحق رقم 20.

أليس القول بأن النظر في مثل هذه الطلبات ينعقد حصريا إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر قول ضعيف الحجة، و ينتفي فيه عنصر الوجاهة و يرفضه المنطق القانوني و الدستوري السليم لأن كل دساتير العالم و بالأساس دساتير الدول « الديمقراطية » التي تعد فرنسا من روادها تمنح هذه الصلاحية إلى أعلى سلطة سياسية في الدولة و التي يمثلها الإمبراطور الفرنسي في فرنسا؟

في 05 من يناير من عام 1866م توفي عبود بن عز الدين في سجن مدينة « كورتي » و على إثر ذلك تم إخطار المسؤولين الفرنسيين بالجزائر، و على رأسهم حاكمهم العام الماريشال « ماكماهون » ، حيث أرسلوا له تقريرا مفصلا عن أسباب و ظروف وفاته مرفوقا بشهادة تثبت حالة الوفاة « Un extrait Mortuaire ». و ذكر التقرير أن عبود بن بورنان بن عز الدين قضى نحبه نتيجة لتشوقه و حنينه للعودة إلى وطنه. و أضاف التقرير أن وضعيته الصحية كانت مزرية للغاية في أواخر أيام حياته، كما أشار إلى أن القائمين على إدارة سجن مدينة «كورتي » كانوا قد حذروا من خطورة حالته الصحية، و نصحوا القادة العسكريين الفرنسيين بضرورة الالتفات إليه و التعجيل بإعادته إلى وطنه محذرين من مخاطر بقائه في المنفى مؤكدين أن بقاءه هناك قد يؤدي بحياته لأن حنينه إلى وطنه جعله يعيش حياة كئيبة بائسة، و تحول إلى إنسان مخبول و أبله بعد ما كان ذكيا فطنا محبا للحياة. و إذا كان أفراد عائلته المنفيون معه راضين بالعقوبة الأقل سوء المتمثلة في تحويلهم إلى منفاهم الاختياري بتونس، فإنه على العكس من ذلك تماما حيث كان يلح على العودة إلى وطنه الذي لم يكن يرضى عنه بديلا، و تحديدا إلى مسقط رأسه في مقاطعة قسنطينة حيث تعيش أمه و توجد به كل مصالحه. [1]

و عندما توفي عبود بن بورنان سارع شقيقه علاوة الذي كان يعيش معه في ا لمنفى إلى الاتصال بالفرنسيين في مدينة باستيا ليتدخلوا لمساعدته على نقل جثمان شقيقه إلى أرض وطنه حيث طلب منهم الموافقة على إرسال أحد خدم العائلة ليتكفل بهذه المهمة. و على إثر ذلك راسلوا الحاكم العام بالجزائر الماريشال « ماكماهون » و حدثوه حول هذا الموضوع.[2] فطلب هذا الأخير من رئيس القطاع العسكري القسنطيني أن يتصل بعائلة الهالك لكي تقوم بالترتيبات الضرورية لاستقبال جثمانه و تحضير مراسيم الدفن، و في الوقت نفسه تعين شخصا له القدرة الكافية على السفر إلى مدينة كورتي بجزيرة كورسيكا لجلب جثمانه.

[1] Ibid : Lettre du Quartier Général à Bastia à son excellence Mr le Maréchal Gouverneur Général de l’Algérie à Alger, le 10/01/1866, n° 169.
[2] Ibid : Lettre du Quartier Général à Bastia à son excellence Mr le Maréchal Gouverneur général de l’Algérie à Alger, le 06/01/1866, n° 167.

فوقع اختيار العائلة على محمد السعيد بن علي الشريف الشخصية الأهلية المتميزة التي كانت تحظي باحترام الأوساط الفرنسية في مقاطعة قسنطينة، و تم تحديد موعد سفره يوم 30 من يناير 1866م على متن الباخرة المتجهة إلى فرنسا و المكلفة بنقل البريد [1]. و بعد وفاة عبود طرح المسؤولون الفرنسيون قضية شقيقه علاوة على بساط المناقشة، و تبادلوا وجهات النظر حول إمكانية إعادته إلى أرض وطنه. غير أن أنصار هذا الرأي كانوا قليلين، و بالمقابل ثمة معارضون كثيرون. و من معارضيه رئيس القطاع العسكري القسنطيني الذي عبر عن رأيه صراحة حينما خاطب حاكمه العام بالقول : «... ليس من الممكن السماح لعلاوة بن بورنان بالعودة إلى مقاطعة قسنطينة، لكن في مقابل ذلك فإننا لا نرى مانعا من السماح له بالإقامة في تونس... »[2]. و بناء على ذلك أعطى الحاكم العام بالجزائر موافقته بالسماح لعلاوة بن بورنان بالاستقرار في تونس، فوجه تعليماته إلى المكلفين بملفه لأخذ التدابير اللازمة – و هي شبيهة بالتدابير التي اتخذت لنقل الحاج بن عز الدين إلى تونس– لترحيله من جزيرة كورسيكا إلى هذا البلد و ذلك في القريب العاجل، خاصة و أنه كان هو الآخر سقيما و يمر بحالة صحية حرجة تستدعي تغيير الأجواء[3].

و تبعا لذلك سارعت الجهات المختصة بهذا الشأن في فرنسا إلى تنفيذ هذا القرار، حيث طلب منه التحضير السريع للسفر، فحدد موعد وصوله إلى مدينة مارسيليا الفرنسية يوم 1866/02/15م[4]، و قد وصلها في الموعد المحدد. و وفقا للتعليمات الموجهة من قبل الحاكم العام بالجزائر، فإن علاوة بن بورنان سيحول مباشرة إلى تونس عبر الموانئ الجزائرية التي لا يحق له بأي حال من الأحوال من أن تطأ أقدامه بها[5]. غير أن المسؤولين الفرنسيين بفرنسا لم يحترموا التعليمات التي وجهها لهم هذا الحاكم، و رفضوا ترحيله إلى تونس في الموعد المحدد، و أبقوا عليه في إحدى سجون مدينة مارسيليا لمدة طويلة. و هذا ما نفهمه من الرسالة التي وجهتها والدته السيدة اليامنة إلى زوجة الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، و التي التمست منها التوسط لها لدى زوجها ليسمح لها بزيارة ابنها علاوة الذي يقبع في إحدى السجون المارسيلية. و تبين لنا هذه الرسالة أن السيدة اليامنة كانت منكسرة و تعيسة و تعيش حياة بائسة جراء المآسي التي لحقت بها بسبب فقدانها لبعلها الذي وافته المنية في البقاع المقدسة أثناء تأديته لفريضة الحج، و كذلك وفاة ابنها عبود، و تشوقها الكبير لرؤية ابنها الآخر علاوة، و توجسها من أن يكون مصيره كمصير شقيقه عبود. و قد سردت في هذه الرسالة مأساتها الحقيقية، و قالت فيها

[1] Ibid : Dépêche télégraphique du Général commandant de la province de Constantine à Mr le Gouverneur Général à Alger, datée le 29/01/1866, à 6H 20 m, n° 178. ينظر الملحق رقم 21.

[2] Ibid : Dépêche télégraphique du Général Commandant de la province de Constantine à Mr le Gouverneur Général à Alger, datée le 20/01/1866, à 9H 20 m, n° 176. ينظر الملحق رقم 22.

[3] Ibid : Rapport du Gouverneur Général à Alger à Mr le Général commandant de la province de Constantine daté le 31/01/1866, n° 183. ينظر الملحق رقم 23.

[4] Ibid : Lettre du Quartier Général à Bastia à Mr le Maréchal Gouverneur Général d'Algérie à Alger, datée le 09/02/1866, n° 184.

[5] Ibid : Rapport du Gouverneur Général à Alger à Mr le Général commandant de la province de Constantine, daté le 17/02/1866, n° 185.

« ... من عند اليامنة زوجة بورنان بن عز الدين المهمومة التي استعانت بكريم جنابكم العظيم ... و ذلك في أجل (كذا) ولدي المنفي علي و هو علاوة بن بورنان بن عز الدين... و أبوه بورنان المذكور في مكة... و أما ولدي الصغير و هو عبود لم يقدر على مشقة السجن... وهو توفي وفاة في شهر جانفي خمسة أيام من الشهر المذكور(كذا) في هذا العام (كذا) و هو بعيد عني و تركني في الغم و البكي (كذا) فقد أخذوا بخاطري حكام البلاد و بعثولي(كذا) جسد (كذا) ولدي عبود المرحوم أتا (كذا) إلى مرسيليا و هو الآن في منفى مرسيليا من نحو (كذا) ستة أشهر و خفت على ولدي يا سيدتي أن يموت كما (كذا) مات أخيه... و بعد ذلك سيدتي طلبتك أن تتكلمي علي عند السلطان ... كأنك أم الأولاد و تعرف (كذا) محنة الأولاد و قلبك حنين... فإنني خايفة (كذا) على ولدي أن يموت كما (كذا) مات أخيه ... و لم نكسب غيره و عزيز علي و هان (كذا) تحت رجلك... و أنا أم الأولاد ... بعد ذلك نريد سيدتي القدوم إلى مرسيليا عند ولدي ... » [1]

و رغم أن هذه الرسالة كانت مؤثرة جدا كما يبدو من العبارات التي وردت فيها، إذ حاولت من خلالها السيدة اليامنة دغدغة مشاعر الأمومة لدى زوجة الإمبراطور الفرنسي، إلا أنه من الراجح أنها صرفت عنها النظر، و لم تعرها الاهتمام اللازم، لأنه في نهاية عام 1866م، قام الفرنسيون بنقل علاوة بن بورنان إلى تونس، و هذا ما أشار إليه القنصل الفرنسي المعتمد بتونس، في رسالته التي وجهها إلى الحاكم العام بالجزائر الماريشال « ماكماهون »، حيث قال له : « لقد تم إحضار علاوة بن بورنان أمامنا، و تطبيقا لتعليماتكم، فإننا باشرنا كل التدابير الرامية إلى تسليط الرقابة الكاملة عليه، و على كل أفراد عائلته المقيمين بتونس... » [2]

و هكذا نستنتج أن الفرنسيين كانوا بحق متخوفين كثيرا من نقل هذا الزعيم الأهلي إلى تونس، و هذا ما يفسر بقاءه الطويل لمدة ناهزت سنة كاملة في سجون مارسيليا، و قد تواصل تخوفهم منه و من كل أفراد عائلته حتى على التراب التونسي لأن التعليمات التي تحدث عنها القنصل الفرنسي لا يمكن أن تجد لها تفسيرا إلا بتوجس الفرنسيين الشديد منه و من كل أفراد عائلته المستقرين هناك.

[1] A.O.M : 2H19 : Lettre de Yamna L'épouse de Bouranane Benazzedine à sa Majestée L'Empératrice de France, datée le 23 Rabai I 1283 (1866) n° 220.
[2] Ibid : Lettre du Consul Général de France à Tunis à Mr le Maréchal Gouverneur Général de L'algérie à Alger le 02/12/1866.

و غني عن البيان أن الفرنسيين لم يكونوا في تلك الأثناء متخوفين من أفراد هذه العائلة فحسب، بل كانت لديهم هواجس و تخوفات أخرى ناتجة عن الثورة التي أعلنها الثائرون الجزائريون و بالأساس ثوار أولاد سيدي الشيخ، و الناصر بن شهرة، و محمد بن عبد الله، الذين خلخلوا الأمن الاستعماري في صحراء قسنطينة و مما زاد في مخاوفهم و تضعضع أحوالهم أيضا النشاط الثوري الذي قام به الثائر التونسي علي بن غداهم الذي نقل مده الثوري في تلك الأثناء إلى مقاطعة قسنطينة كما عرفنا.

لقد واجه الفرنسيون متاعب كثيرة مع عائلة أولاد عز الدين، لذلك كانوا دائما يبحثون عن مبررات للتخلص منها و من زعمائها. و قد وجدوا في الثورة التي درجوا على إعلانها و التحريض على العصيان أهم المبررات القوية للتخلص منهم. فكانت ثورة عام 1859م بالزواغة و الوادي الكبير و جيجل مبررا لتوقيف القايد بورنان و ابن أخيه عز الدين، كما كانت ثورة عام 1864م الشهيرة التي عصفت بالزواغة، و الوادي الكبير، و جيجل مبررا آخرا لتوقيف باقي أفراد هذه العائلة و الزج بهم في السجون، و نفيهم إلى الخارج مع الحرص على عدم السماح لهم بالعودة أحياء إلى أرض الوطن حتى و إن كانوا على أبواب القبر أو على فراش الموت. و يبدو أنهم تحرجوا كثيرا من إلتماسات باقي أفراد هذه العائلة بالجزائر الرامية إلى نقل جثامين الهالكين في منفاهم إلى أرض الوطن، و إلا ما كانوا يوافقون على إعادتهم إلى أرض الجزائر ليدفنوا فيها.

أما علاوة نجل بورنان، فقد تم نقله هو الآخر من منفاه بكورسيكا إلى البلاد التونسية عام 1864م، و بقي الفرنسيون متوجسين منه و يتتبعون نشاطه و كل حركاته هناك شأنه في ذلك شأن بقية أفراد عائلته التي استقرت بهذه البلاد.[1]

و في نهاية عام 1872م كتب علاوة بن الشيخ بورنان رسالة إلى القنصل الفرنسي المعتمد بتونس يلتمس فيها تسريحا لقدومه للجزائر بهدف مقابلة المسؤولين الفرنسيين و على رأسهم الحاكم العام للتحدث معه حول عدة مسائل تخصه، و في ختام هذه الرسالة حدثه عن ممتلكات عائلته التي تعرضت للنهب و التدمير إثر ثورة المقراني عام 1871م، و خاصة البرج الذي كانت تسكنه و أشار إلى ذلك بالقول: « برجنا الذي هدمته أعوان الدولة »[2].

---

[1] A.O.M : 2H19 : Lettre du consul Général de France à Tunis à Mr le Maréchal Gouverneur Général de L'Algérie à Alger, le 02/12/1866.

[2] Ibid : Lettre en Arabe de Allaoua Ben Bourenane à Mr le consul Général de France à Tunis, datée le 30 Ramadhan 1282 H (Correspond au 1er décembre 1872), n° 123.

و على إثر ذلك اتصل القنصل الفرنسي بالحاكم العام في الجزائر، و أحاطه علما بموضوع هذه الرسالة قائلا له بأن المعني يطلب من السلطات الفرنسية السماح له بالدخول إلى أرض الجزائر لتسوية بعض المسائل المهمة بالنسبة له، مؤكدا بأن قرار الفصل في طلبه ليس من مشمولاته بل من مشمولات السلطات الفرنسية بالجزائر و على رأسها الحاكم العام.[1]

و نفهم من الرسالة التي كتبها رئيس القطاع القسنطيني إلى الحاكم العام في الجزائر في تلك الأثناء أن هذا الأخير لم يتخذ قرارا في هذا الشأن دون أن يأخذ رأي رئيس هذا القطاع باعتباره أكثر إطلاعا على ملف هذا الزعيم الأهلي حيث أفاده علما أنه من غير اللائق السماح لعلاوة بالعودة إلى وطنه لما تنطوي عليه عودته من مخاطر تهدد الأمن الفرنسي بمقاطعة قسنطينة «... و سيكون قرارا سياسيا أرعن و غير مسؤول إذا سمحنا له بالعودة إلى المستعمرة... »[2]. بهذه العبارة اختتم رئيس القطاع العسكري القسنطيني إجابته عن الرسالة التي وجهها له حاكمه العام.

لقد رفض المسؤولون الفرنسيون عودة علاوة بن بورنان إلى أرض وطنه، و الثابت أنهم طبقوا الإجراء ذاته على سائر أفراد عائلته. و رغم ذلك بقي علاوة بن بورنان متمسكا بحقه في العودة إلى وطنه، و حقه أيضا في الحصول على التعويض عن الأضرار التي لحقته و لحقت بكل أفراد عائلته إثر عملية الانتقام التي قامت بها الإدارة الفرنسية ردا على السكان المتعاطفين مع ثورة المقراني عام 1871م. و عندما صمت آذان المسؤولين الفرنسيين بالجزائر عن سماع مطالبه، كتب رسالة إلى رئيسهم بباريس عام 1877م، جدد فيها كل مطالبه لاسيما مطلبه الرئيس المتمثل في حقه في التعويض عن الأضرار التي لحقت به و بعائلته عام 1871م، و تبادل المسؤولون الفرنسيون بالجزائر أخبار هذه الرسالة[3].

و الراجح أن الرئيس الفرنسي صرف النظر عنها، لأن الفرنسيين سواء كانوا في الجزائر أو في فرنسا أو حتى في تونس كانوا يتقاسمون النظرة نفسها إلى علاوة بن بورنان و لسائر أفراد عائلته المستقرين بالبلاد التونسية، و بهذا الأسلوب حطم الفرنسيون نفوذ هذه العائلة كما حطموا نفوذ جارتها عائلة بوعكاز بن عاشور.

---

(1) Ibid : Lettre du consul Général de France à Tunis à Mr le Gouverneur Général de L'Algérie à Alger le 03/12/1872, n° 122.

(2) Ibid : Lettre de Constantine du Général chargé des expéditions et des Affaires à Mr le Gouverneur Général au Sujet de Mr Allaoua Ben Cheikh Bourenane, le 17/12/1872.

(3) Ibid : Lettre d'Alger du Gouverneur Général à Mr le Général Chargé des expéditions et des Affaires à Constantine le 18 Avril 1877, n° 234.

2- نفي الشيخ أحمد بوعكاز زعيم عائلة بوعكاز بن عاشور

بعد قضائهم على ثورة سكان الزواغة و فرجيوة عام 1864م، طبق الفرنسيون عقوبات قاسية طالت المشاركين فيها. و كانت العقوبة التي سلطت ضد الشيخ أحمد بوعكاز هي النفي إلى الخارج، حيث تم نفيه إلى مدينة « بو » « Pau » بالجنوب الفرنسي. و هناك نشط في كتابة الرسائل إلى المسؤولين الفرنسيين الكبار و على رأسهم الإمبراطور نابليون الثالث[1]، حيث كتب له رسالة التمس فيها منه العفو عليه و السماح له بالعودة إلى وطنه مؤكدا فيها دائما على براءته من التهم الموجهة له التي اعتبرها زورا و بهتانا[2]. و بعد تحقيق في سيرته أصدر الإمبراطور الفرنسي قرارا يقضي بالعفو عنه في شهر يناير عام 1866م، فعاد الشيخ أحمد بوعكاز إلى الجزائر التي قضى فيها بقية حياته [3].

من المتصور أن الفرنسيين لم يقدموا على هذه الخطوة إلا بعد أن تأكدوا من أن عودته لا تنطوي على أي خطر يهدد أمنهم، لأنهم كانوا لا يوافقون على عودة المنفيين الذين لا يطمئنون إليهم كما هو حال بعض وجهاء عائلة أولاد عز الدين. و إذا صحت رواية « مرسيي » حول موقف الشيخ أحمد بوعكاز من الاستعدادات التي كان يقوم بها الباشاغا محمد المقراني للقيام بالثورة عام 1871م، يجوز لنا القول و من باب الاستنتاج أن عائلة بوعكاز بن عاشور تحولت إلى عائلة مهادنة للإدارة الاستعمارية بعد عام 1871م لأن زعيمها الشيخ أحمد بوعكاز تحول بعد عودته إلى الجزائر إلى صديق وفي للفرنسيين حيث حاول جاهدا إقناع صديقه الباشاغا محمد المقراني بالتخلي عن محاربتهم، و ذلك عندما قرر هذا الأخير تقديم استقالته من منصبه بحجة أنه لا يستطيع التعامل مع النظام المدني الجديد الذي وافق على تطبيقه المجلس التشريعي الفرنسي في الجزائر عام 1870م. ففي تلك الأثناء التمس أحمد بوعكاز من الفرنسيين السماح له بزيارة صديقه الباشاغا محمد المقراني « لثنيه عن ارتكاب حماقة و خطأ كبيرا إذا أعلن الثورة في وجه الفرنسيين » [4].

---

(1) Charles-Robert Ageron : L'Algérie Algérienne de Napoléon III à De Gaulle op.cit, p 57

(2) A.O.M : F80. 1680 : Mémoires du Cheikh Bouakaz Ben Achour à Pau : Lettre du Cheikh Bouakaz Ben Achour à sa Majesté L'Empereur le 10 Decembre 1864.

(3) Charles-Robert Ageron : op.cit, p 57

(4) Ernest Mercier : le Bachagha Mokrani et les causes de L'insurrection indigène de 1871, op.cit, p 24.

هكذا كانت نهاية عائلتي أولاد عز الدين بالزواغة و بوعكاز بن عاشور بفرجيوة، و هي نهاية بائسة، حيث فرق الفرنسيون جمعهم، و نفوا قادتهم إلى الخارج، و هاجر البعض الآخر منهم إلى البلاد التونسية هروبا من الضغط الكولونيالي. و أما الذين بقوا بالجزائر أو الذين عادوا إليها بعد رحلة طويلة من النفي، فلم تكن حياتهم سعيدة، بل تعرضوا للفاقة و الإملاق بسبب السياسة الاستعمارية الخرقاء التي طبقت ضدهم خاصة بعد عام 1871م. لقد تغيرت أحوالهم تغييرا جوهريا نحو الأسوأ. ففي بداية الاحتلال كانوا أسيادا يحكمون سيطرتهم على مناطق جبلية ذات تضاريس وعرة و كان الفرنسيون وقتها يحسبون لهم حسابات كثيرة، و يجتهدون لكسب ودهم لأنهم كانوا ثائرين ضدهم، و لم يتمكنوا من بلوغ هذه المناطق إلا بعد مرور أكثر من عشرية كاملة من احتلال مدينة قسنطينة، و ذلك بعد بداية تعاون هاتين العائلتين معهم. و لما حققوا بهم السلم في هذه المناطق، و قضوا على ثورات السكان المستمرة قاموا بالقضاء عليهم و نفوهم إلى الخارج متخذين من الثورة التي عصفت بمناطق نفوذهم عام 1864م مسوغا لتحطيم كبريائهم.

3- نفي عائلة الرزقي:

كانت عائلة الرزقي أيضا من العائلات التي طالتها عقوبة النفي إلى الخارج، و هي العائلة التي انفضت من حول السلطات الاستعمارية الفرنسية عندما انتصرت إلى الصبايحية و انضمت إلى ثورتهم عام 1871م، و تبعا لذلك وجهت السلطات الاستعمارية الفرنسية بدائرة سوق أهراس خلال شهر فيفري من عام 1871م تهمة العصيان والتحريض على الثورة و حمل السلاح ضد المصالح الفرنسية لـ 155 شخصا شاركوا بصورة فعلية في هذه الثورة. [1]

و في 13 من يناير 1872م أحيل هؤلاء المتهمون أمام محكمة الجنايات بمدينة عنابة، فصدرت ضدهم أحكام قاسية تراوحت بين السجن و الإعدام والنفي إلى كاليدونيا الجديدة و كورسيكا[2]، و كان ضمن هؤلاء المتهمين قادة عائلة الرزقي، الذين سلطت ضدهم عقوبة النفي إلى الخارج، حيث نفي أحمد الصالح الرزقي الذي شغل منصب قايد الحنانشة خلال الفترة الممتدة ما بين 1852م – 1858م إلى فرنسا، و بقي في منفاه إلى غاية وفاته يوم 28 مارس 1875م [3]. كما نفي أحمد بن دحماني الرزقي

[1] A.O.M : 6H33 : Dossier famille Resgui : Rapport de L'administrateur du district de Souk-Ahras au Général commandant de la subdivision de Bône du 30/06/1871.

[2] A.O.M : 36K30 : État nominatif des indigènes qui se sont mis ouvertement en insurrection au commencement de L'année 1871.

[3] A.O.M : 36K29 : Rapport annuel du cercle de Souk-Ahras, Année 1871.

رفقة أسرته، علما أن هذا الأخير كان قد قضى فترة طويلة في خدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية وصلت إلى نحو 13 سنة كاملة، تقلد فيها عدة مناصب قيادية مهمة على رأس قبائل المنطقة، و كان أحمد بن دحماني من كبار القادة الذين مثلوا أمام محكمة الجنايات بمدينة قسنطينة عام 1873م. و وجهت له هذه المحكمة تهمة تحريض فرقة الصبايحية بسوق أهراس على الثورة، و حكمت عليه بالنفي إلى كاليدونيا الجديدة، أما باقي أفراد أسرته فتم نفيهم إلى فرنسا.[1]

و قبل أن ينفذ الفرنسيون حكم النفي المسلط ضد أحمد بن دحماني التمس منهم العفو، و كتب رسالة إلى وزير حربيتهم حدثه فيها عن أوضاعه بفرنسا و أوضاع عائلته بالجزائر. و قد نشر الأستاذ يحي بوعزيز ست رسائل لستة قادة من المنفيين والمسجونين بفرنسا بعد ثورة المقراني عام 1871 عثر عليها بالأرشيف الفرنسي. و كانت إحدى هذه الرسائل لأحمد بن دحماني الرزقي التي كتبها إلى وزير الحربية الفرنسي في 1874/03/14، حيث ذكر له فيها أن السلطات الفرنسية بالجزائر أودعته سجن مدينة عنابة عام 1871م، ثم نقلته إلى فرنسا و أخبره أيضا في هذه الرسالة بأنه يوجد إلى جانبه بالسجن شقيقان له. أما نجله الكبير فقد نفاه الفرنسيون إلى جزيرة كاليدونيا، ثم أطلقوا سراحه و أمروا بعودته إلى الجزائر. و على إثر وصوله إليها قاموا بإبعاده إلى قرية تاقيطونت الواقعة قرب جبال البابور شمال مدينة سطيف، و ذلك بعيدا عن مسقط رأسه بسوق أهراس. و في ختام رسالته طلب منه إعادة أملاكه المصادرة إلى عائلته و كذا إطلاق سراحه قائلا له « ... حاصله (كذا) سيدي المنستر (كذا) أن تفضل رفيع قدرك علي و هو أحسن لأولادي و عيلتي (كذا) نم الرزق لأني نخدم عليهم و نعيشهم و أيضا سيدي لو كان ابني الكبير الذي ذكرته في تاقيطونت مستقل بخويته (كذا) لم نضيعوا و لم تقع مني إليك الشكوة (كذا)، والمقصود من سيدي المنستر (كذا) أن تنعم علي بالتسريح (كذا) و نطلب من الله أن يرفع مقامك... »[2]

غير أن وزير الحربية الفرنسي لم يستجب لطلبه، و بقى متمسكا بعقوبة النفي. كما تم الحكم بالنفي أيضا إلى كاليدونيا الجديدة على شقيقه صالح بن دحماني الرزقي و خالد بن دحماني الرزقي،

---

(1) Mehdi Lallaoui : Les Kabyles du pacifique, la société européenne des arts graphiques, Paris, France, 1994, p 51.

(2) يحي بوعزيز: « أوضاع المنفيين بعد ثورة 1871 من خلال رسائلهم »، المقال السابق، ص ص 15، 16.

و قاموا بترحيلهم إلى هذه المستعمرة النائية بالمحيط الهادي على متن سفينة الكالفادوس « Le calvados » في الرحلة رقم 11، التي انطلقت من مرفئ "بريست" « Brest » الفرنسي يوم 1874/07/02م و وصلت يوم 1875/01/18م. و كانوا ضمن الأشخاص المنفيين الذين وضعوا تحت حراسة مشددة، و كانت ملفاتهم تحمل بياناتهم الشخصية كما يلي:

- أحمد بن دحماني الرزقي، رقمه 847، الوظيفة مزارع، السن 54 سنة، مولود في سوق أهراس ابن دحماني بن يعلاوي الرزقي و تركية بنت علي.
- خالد بن دحماني الرزقي رقمه 863، الوظيفة مزارع، السن 40 سنة، مولود في قبيلة الحنانشة بسوق أهراس، ابن دحماني بن يعلاوي الرزقي و تركية بنت علي.
- صالح بن دحماني الرزقي رقمه 877، الوظيفة شيخ قبيلة، السن39 سنة، مولود في زمالة الحنانشة، إبن دحماني بن يعلاوي الرزقي و تركية بنت علي [1].

لقد دامت رحلة النفي مدة طويلة فاقت ستة أشهر، و كانت رحلة بائسة و قاسية للغاية، تعرض فيها آل الرزقي إلى جانب إخوانهم الجزائريين الذين واجهوا المصير نفسه إلى أبشع أصناف القسوة و الامتهان كالعري و المجاعة والأسقام و نحو ذلك. و فوق كل هذا كله مرارة البعد عن الأوطان و فراق الأهل و الأحباب و الأصدقاء، لأن الظروف التي أبحروا فيها و التي كانت سائدة داخل سفينة الكالفادوس كانت ظروفا قاسية جدا و تنتفي فيها أدنى معايير الكرامة الإنسانية. و يكفي للتدليل على ذلك أن المنفيين كانوا يوضعون داخل أقفاص تشبه الأقفاص المخصصة للحيوانات المتوحشة، يصل طولها إلى 23 مترا و عرضها 3 أمتار و نصف المتر، بينما لا يتجاوز ارتفاعها مترا و نصف المتر.[2] و هذا يعني أن شخصا متوسط القامة ليس في مقدوره الوقوف و الانتصاب بشكل عادي بداخلها.

بقى هؤلاء القادة في منفاهم إلى جانب إخوانهم الجزائريين الذين سلطت ضدهم عقوبة النفي أيضا، غير أن نهاية أحمد بن دحماني الرزقي

[1] Melica Ouennoughi: op.cit, pp 377, 378.
[2] Mahdi Lallaoui : op.cit, p 56.

كانت بمكة المكرمة حوالي عام 1900م*، حيث قضى نحبه هناك أثناء تأديته لمناسك الحج[1]. و إذا صحت هذه الرواية، فكيف تمكن من مغادرة منفاه و الوصول إلى البقاع المقدسة؟. يبدو أنه استفاد من تدابير قانون العفو الذي أصدرته السلطات الاستعمارية الفرنسية في 1895/08/22، و الذي مس المنفيين الجزائريين الذين أمضوا عقوبتهم في جزيرة كاليدونيا الجديدة [2].

4- نفي عائلة المقراني:

لا يكتمل الحديث عن عقوبة النفي التي طبقتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية ضد العائلات الثائرة دون التطرق إلى عائلة المقراني صاحبة ثورة 1871م، التي طالتها عقوبة النفي هي الأخرى، و نفي منها 15 فردا إلى كاليدونيا الجديدة بعد انكسار ثورتها.[3]

و هناك وثائق كثيرة محفوظة بأرشيف مدينة إيكس أون بروفانس (A.O.M) الفرنسية و الأرشيف الوطني التونسي تتحدث عن هذه العائلة و ترصد حركة أفرادها و هجرتهم القسرية بعد انكسار ثورتها عام 1871م. و أمام غزارة هذه الوثائق و غموضها أحيانا، و تناقض و تضارب المعلومات الواردة فيها أحيانا أخرى عسر علينا الإلمام بها و دراستها دراسة شاملة و دقيقة، لذلك سنقصر الكلام على أبرزها من خلال محاولتنا اقتفاء أثر زعيمين مقرانيين بارزين، أحدهما لعب دورا مركزيا في هذه الثورة و نفاه الفرنسيون إلى كاليدونيا الجديدة،

* ذكر لنا الأستاذ الفرنسي « جاك بودان » من معهد العلوم السياسية بجامعة إيكس أون بروفانس، والمهتم كثيرا بتاريخ منطقة عنابة خلال القرن 19م أن أحمد بن دحماني الرزقي توفي بالمدينة المنورة عام 1891. أما شقيقه صالح بن دحماني، فقد سمحت له السلطات الاستعمارية بالإقامة و الاستقرار بمدينة نوميا Nouméa الكاليدونية. و لم يطب له المقام هناك، ففر منها إلى وجهة غير معلومة. و لم يتمكن الفرنسيون من تحديد مكان وجوده، و بقي متخفيا على ذلك الحال حتى صدور قرار العفو على المنفيين إلى هذه الجزيرة عام 1895م، الذي استفاد منه هو و شقيقه أحمد بن دحماني. و أكد لنا هذا الأستاذ أن هذه المعلومة دقيقة لأنه استقاها من أحد أحفاد عائلة الرزقي الذي عثر عليها هو الآخر بأرشيف كاليدونيا بإيكس أون بروفانس. و قد حاولنا من جهتنا الوصول إليها لكن دون جدوى. و يبدو أن هذه المعلومة هشة لأنها تحدثت عن العفو الذي استفاد منه أحمد بن دحماني و هو ميت ! ، و تحدثت أيضا عن استفادة شقيقه صالح بن دحماني من هذا العفو و هو في حالة فرار، و هو أمر يتناقض مع الواقع و المنطق القانوني السليم.

[1] جمال ورتي: المرجع السابق ص 368.

[2] Mehdi Lallaoui : op.cit, p 94

[3] Seddik Taouti : Les déportés Algériens en nouvelle Calédonie. Histoire d’une Identité exilée, Dar el-oumma, 2éme éditions, Alger, Algérie, 1996, p 78.

و يتعلق الأمر ببومزراق المقراني شقيق الباشاغا محمد المقراني المنحدر من فرع أولاد الحاج. أما الثاني فهو من أبناء عمومته و هو محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني، و تقول الوثائق التي سنعتمد عليها بأنه ينحدر من فرع أولاد عبد السلام، و هو نجل محمد بن عبد السلام المقراني الخليفة السابق للأمير عبد القادر، و قد نفاه الفرنسيون إلى تونس.

أ- نفي بومزراق المقراني

تولى بومزراق المقراني قيادة ثورة 1871م بعد استشهاد شقيقه الباشاغا محمد المقراني، و حمل لقب الجهاد « أمير المؤمنين »[1]. و بعد القضاء على هذه الثورة، أدرج بومزراق المقراني ضمن قائمة الأشخاص الذين أصدرت في حقهم محكمة الجنايات بقسنطينة حكما بالإعدام في 27 مارس 1873م، غير أنها استبدلته بعقوبة النفي إلى الخارج[2]، و هذا بناء على عفو أقره رئيس الجمهورية الفرنسية، و تسلم بومزراق المقراني نسخة منه عندما كان قابعا في السجن المدني بالجزائر العاصمة عام 1873م.[3]

بعد ذلك قام بومزراق المقراني بكتابة العديد من الرسائل إلى المسؤولين الفرنسيين بمختلف مستوياتهم يلتمس منهم العفو أو تخفيف هذه العقوبة حيث وجه هذا الطلب إلى محافظ الجزائر الذي فضل استشارة حاكمه العام الجنرال « شانزي » « chanzy » حول هذا الموضوع. غير أن هذا الأخير رفض رفضا قاطعا قبول طلبه بحجة أن بومزراق المقراني استفاد من تخفيف الحكم القضائي بما فيه الكفاية حينما استبدل حكم الإعدام بالنفي إلى الخارج [4]. و بعد ذلك وجه 16 فردا من المحكوم عليهم بالنفي إلى الخارج و على رأسهم بومزراق المقراني رسالة أخرى إلى الحاكم العام الفرنسي يلتمسون فيها منه نفيهم إلى بلد إسلامي[5]، غير أنه صرف النظر عن طلبهم و تم نفيهم لاحقا.

---

(1) Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome premier, p 6.
(2) Mouloud Gaid : Mokrani op.cit, p 172.
(3) A.O.M : 6H37 : Lettre du préfet d'Alger à Mr le Gouverneur général civil d'Algérie le 13 octobre 1873.
(4) Ibid :Lettre du gouverneur Général civil d'Algérie au préfet d'Alger au sujet de Boumezrag, le 20 aout 1873.
(5) Ibid : Lettre du Gouverneur Général civil d'Algérie au préfet d'Alger de Constantine, le 22 Aout 1873.

و عندما تأكد بومزراق المقراني بأن الفرنسيين ماضون قدما في تنفيذ عقوبة النفي، اتصل بأحد المحامين الفرنسيين و هو الأستاذ « جول غودان » « Maitre Jules Godin » و وكله للدفاع عنه، فباشر هذا الأخير عدة خطوات في هذا الاتجاه أفضت إلى نقله إلى سجن مدني بالجزائر العاصمة مع تأجيل عملية نفيه إلى شهر لاحق[1]. بعد ذلك استفاد من إفراج مؤقت رفقة ستة آخرين من المحكوم عليهم بالنفي، و سمح لهم بالتوجه إلى مدينة قسنطينة لتسوية بعض المسائل ذات الطابع الإنساني قبل تنفيذ حكم النفي في حقهم، و قد استفاد من هذا الإجراء بعد موافقة وزير الداخلية الفرنسي على الطلب الذي وجهه له المحامي الفرنسي المذكور. [2]

نلاحظ مما تقدم أن الفرنسيين كانوا يتعمدون تعقيد الإجراءات القضائية أمام هيئة الدفاع عندما يتعلق الأمر بعقوبة النفي إلى الخارج، حيث يشترطون موافقة وزير الداخلية على كل الطلبات المتعلقة بالشق الإنساني للمحكوم عليهم نهائيا، و هذا حتى يحرمون المدانين من الاستفادة منها.

و بالموازاة مع ذلك واصل بومزراق المقراني مساعيه من أجل الحصول على عفو أو على الأقل تخفيف هذه العقوبة، حيث كتب رسالة أخرى إلى الحاكم العام الفرنسي، و طلب منه أن يتركه « ...في وطن الجزاير (كذا) أو ترسلونا إلى مملكة إسلامية بين إخواننا العرب يعرفون أصلنا و فصلنا و يحنون علينا بإعانتهم نصيب نقتاتو (كذا) به نحن و أولادنا ثم منكم فلا ترسلونا إلى بلد فرانصة (كذا) ... »[3]، كما كتب رسالة أخرى إلى رئيس الجمهورية الفرنسية، و طلب منه قضاء عقوبة النفي في بلده الجزائر[4]. و قال له في رسالة أخرى أنه تألم كثيرا عندما بلغته أخبار من السيد مدير السجن المدني بالجزائر تفيد بأن رئيس الجمهورية الفرنسية الماريشال « ماكماهون » أعطى أمرا يقضي بتسفير كل المحكوم عليهم بالنفي إلى كورسيكا، لذلك التمس منه إبقائه في الجزائر شأنه في ذلك شأن بن علي الشريف، و إن كان ذلك أمرا متعذرا، فقد طلب منه إحضار كل عائلته المقيمة بتونس إلى الجزائر العاصمة و السماح لكل أفرادها بالسفر إلى جزيرة كورسيكا حتى يتسنى له لقاؤهم.

(1) Ibid.: Lettre du Gouverneur Général civil d'Algérie au préfet d'Alger le 31 Aout 1873

(2) Ibid. : Lettre du Ministre de L'intérieur à Mr le Gouverneur Général civil d'Algérie au sujet des sept indigènes clients du Maitre Jules Godin, le 03 octobre 1873.

(3) Ibid : Lettre de Ahmed Boumezrag Ben El-Hadj Ahmed, el Mokrani à Chanzy le Gouverneur Général d'Algérie, le 08 Aout 1873.

(4) Ibid.: Lettre du Gouverneur Général d'Algérie au préfet d'Alger le 12 Octobre 1873.

و قد عبر عن ذلك بالقول: « ... كنت كتبت لك في الماضي على عيالي (كذا) أن تأذن لي و تنعم علي بأن يسكنوا هنا في بلد الجزاير (كذا) و أن نكون تحت حمايتك السعيدة و لازلت راغب فيهن كما هو ظننا بك أن لا تخيب مطلوب الضانين فيك... و اليوم أخبرني السيد الدريكتور (كذا)... بأمر صدر له من جنابك الأعظم مضمنه (كذا) أن السيد المريشال ماكمهون البريزيدان (كذا) ببلد باريز بقى الله وجوده أن كل من حكم عليهم الشرع دبرطسيون سانبل * يكونوا ببلد كورس يعني ينفوا (كذا) فيها بموجب هذا الخبر راني راغب أشد الرغبة و الله المرجو أن تساعدني مجيء عيالي هنا للجزائر... إن قدر الله بالسكن هنا كما كان المنعم عليه من سيادتكم السيد بن علي الشريف... و إن كان الأمر لا مرد له لا بد من القدوم بنا إلى هذا المحل المذكور تكتب لي نفرح بعيالتي (كذا)... علما أنهم في تونس... » [1].

من المتصور أن المسؤولين الفرنسيين بالجزائر درسوا التماسات بومزراق و وافقوا على البعض منها، حيث سمحوا لأفراد عائلته الذين تم نفيهم إلى تونس بالعودة إلى الجزائر. و على إثر وصولهم إلى الجزائر العاصمة كتب بومزراق المقراني رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي من سجنه المدني شكره فيها على حسن صنيعه قائلا له : « ... تبعا للترخيص الذي منحتموه لعائلتي المستقرة بتونس بدخولها إلى الجزائر، يشرفني أن أحيط سيادتكم علما أن كل أفرادها قد وصلوا الجزائر العاصمة هذا الصباح في صحة جيدة، و أنني اعترف لكم بجميلكم و أشكركم جزيل الشكر... ». [2]

بعد ذلك نقل بومزراق المقراني إلى فرنسا، و قام الفرنسيون بنفيه إلى جزيرة كاليدونيا رفقة العديد من إخوانه على متن سفينة الكالفادوس « Calvados » السيئة السمعة في الرحلة رقم 11 التي أبحرت يوم 02 جويلية 1874م من ميناء «بريست » « Brest »، و وصلت يوم 18 يناير 1875م و كان ملفه يحمل البيانات الشخصية الآتية: « أحمد بومزراق بن الحاج أحمد المقراني، رقمه 2601، الوظيفة قايد، مولود عام 1836م بمجانة ابن الحاج أحمد بن محمد بن المقراني ولالة ولد الخويدر » [3]

* دبرطسيون سانبل هي ترجمة حرفية للكلمة الفرنسية Déportation simple و تعني النفي إلى الخارج

[1] Ibid : Lettre de Ahmed Boumazrag Ben el Hadj Ahmed Mokrani au Gouverneur Général de L'Algérie, le 19 décembre 1873. ينظر الملحق رقم 24.

[2] Ibid : Lettre du prison civile d'Alger du Ahmed Boumazrag Ben El Hadj Ahmed Mokrani à Mr le Gouverneur Général de l'Algérie, le 02 fevrier 1874.

[3] Melica Ouennoughi: op.cit, p 378.

و عندما وصل إلى هذه الجزيرة عاش حياة عادية هناك حيث مارس نشاطا كان يربطه دائما بوطنه الجزائر يتمثل في نقل البريد و هو النشاط الذي كان يفضله المنفيون العرب، و بالموازاة مع ذلك فتح محلا لبيع المشروبات ليوفر مصدرا إضافيا لرزقه[1]، و ظل متنقلا بين ثلاث مناطق هي جزيرة الصنوبر « l'île de pins » ثم ديكوس « Ducos »، و أخيرا نيساديو « Nessadiou ».[2]

و في عام 1878م اندلعت ثورة الكاناك « l'insurrection du Canaque »، و هي ثورة شعبية تحريرية أعلنها سكان جزيرة كاليدونيا ضد الوجود الاستعماري الفرنسي الذي اغتصب أرضهم ظلما و عدوانا، و قهرهم اجتماعيا و دمرهم اقتصاديا و ذوبهم فكريا و حضاريا، فطالبوا بالحرية و الاستقلال. و كعادتها تدخلت الإدارة الاستعمارية الفرنسية لقمعها، و وجدت لها سندا قويا من قبل الجزائريين المنفيين هناك. و كان على رأسهم بومزراق المقراني الذي حارب بقوة إلى جانب الجيوش الفرنسية و أبلى بلاء حسنا حيث حرر المدن التي أحكم الثوار الكاليدونيون قبضتهم عليها، و ساهم بشكل فعال في الدفاع عن نوميا العاصمة الكاليدونية، و أعجب الفرنسيون بصنيعه أيما إعجاب. و كتب حاكم كاليدونيا الفرنسي رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر أثنى فيها على الجهود التي قام بها بومزراق المقراني لإجهاض هذه المقاومة مؤكدا له أن الفرقة التي استنفرها هذا الزعيم و المتشكلة من الجزائريين المنفيين هناك كانت قد ساهمت بشكل مركزي في صنع نصر الفرنسيين على السكان الثائرين. [3]

لماذا شارك بومزراق المقراني إلى جانب الجزائريين المنفيين هناك في قمع ثورة الكناك التحررية التي لا شك أنها كانت تذكره بالثورة التي خاضها ضد المستعمر نفسه عام 1871؟ هل أرغم على ذلك أم أنه عرض خدماته على الفرنسيين من تلقاء نفسه؟ ما هو هدفه من وراء ذلك؟ من المتصور أن بومزراق المقراني و الجماعة الجزائرية المنفية هناك شاركت الجيوش الفرنسية في قمع هذه الثورة الشعبية بهدف التقرب أكثر من الفرنسيين طمعا في الحصول على عفو يسهل لهم العودة إلى وطنهم الجزائر لأنهم كانوا دائما يراسلون المسؤولين الفرنسيين بمختلف مستوياتهم و يحدثونهم عن قانون العفو الصادر عام 1880م،

(1) René Basset : l'insurrection Algérienne de 1871 dans les Chansons Populaires Kabyles, Louvain, Paris, France, 1892, p 25.
(2) Melica Ouennoughi : op.cit, p 149.
(3) Mehdi Lallaoui : op.cit, p 93.

و يطالبون بحقهم في الاستفادة من أحكامه، من ذلك مثلا أنهم وجهوا رسالة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية يوم 28 جوان 1888م طالبوه فيها بالتدخل العاجل لمساعدتهم على الاستفادة من أحكام هذا القانون، و كان بومزراق المقراني من الموقعين عليها[1]. و مهما يكن من أمر، فإن الرغبة الجامحة في العودة إلى أرض الوطن لا تبرر بأي حال من الأحوال مؤازرة الجيوش الفرنسية العدوة في قمع ثوار الكاناك الذين ثاروا ضد الظلم و الاستبداد.

لقد ترتب عن الوجود الجزائري في كاليدونيا الجديدة تشكل العديد من الأوضاع و المراكز القانونية الخاصة بعضها كان ذا طابع إنساني، لأن ثمة عددا من الجزائريين قام بشراء قطع أرضية، و منهم من تحصل على امتياز فلاحي، و منهم أيضا من تزوج هناك. و قد نشرت مليكة ونوغي الباحثة في مجال الانتروبولوجيا التاريخية في الدراسة القيمة التي انجزتها حول الجزائريين والمغاربة المنفين هناك منذ عام 1864م العديد من الوثائق التي تبرز هذا الجانب القانوني، منها عقد زواج يخص بومزراق المقراني الذي عقد قرانه مع إمرأة هناك يوم 30 جوان 1898م. [2] و هذا يعني أن الخبر الذي نشرته جريدة الأخبار الصادرة يوم 6 غشت 1905م عن عدم زواجه هناك كان خبرا عاريا من الصحة. فقد أكدت هذه الجريدة ذات التوجه الاستعماري الصرف أن بومزراق المقراني لم يعقد قرانه على امرأة فرنسية هناك، و كل ما في الأمر أنه قام برعاية أرملة أحد أصدقائه الفرنسيين الذي قضى نحبه هناك « غيرة و قياما منه بحسن العهد »[3]. و لا تهمنا كثيرا في هذا السياق الحياة الشخصية و العائلية لبومزراق المقراني في تلك الجزيرة النائية، إن كان تزوج فعلا هناك من فرنسية أم أنه بقي يعيش على ذكرى زوجاته في الجزائر، و هي حياة تهم أكثر الباحثين في مجال الانتروبولوجيا التاريخية.

و الظاهر أن الغربة أثرت فيه كثيرا، كما أثرت كذلك على أفراد عائلته الذين تركهم في الجزائر و على رأسهم نجله الونوغي الذي كان يتتبع بشغف كبير أخبار الإفراج عنه و يتحرق شوقا لرؤيته، و الدليل على ذلك كثرة الرسائل و الخطابات التي وجهها إلى المسؤولين الفرنسيين بالجزائر و التي حدثهم فيها عن والده و طلب منهم مساعدته على السفر مجانا لرؤيته بمنفاه. فقد كتب رسالة إلى السيد الحاكم العام الفرنسي بالجزائر عام 1893م قال له فيها :

[1] يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد و مذكرات ابنه سي عزيز، المرجع السابق، ص 50.

[2] Melica Ouennoughi : op.cit, voir L'annexe n° 7, pp 342, 343.

[3] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860– 1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 265.

«... أطلب من فضل سيدي أن يمن علي بالإذن في الذهاب إلى أبي أحمد أبي مزراق المقراني المنفي ببلاد نمييه كلدني (كذا) منذ اثني و عشرين سنة و اشتاقت نفسي إلى لقائه لطول المدة المذكورة و لا يخفا (كذا) سعادة سيدي حق الأبوة على الابن و أيضا أطلب من كرم الوالي العام أن يكون سفري في بابور البوسطة بغير ثمن حيث لا مانع من ذلك... »[1]، غير أن الحاكم العام الفرنسي رفض الاستجابة لطلبه، و كلف محافظ الجزائر بإعلامه هذا الرفض و تسليمه نسخة منه. [2]

و نظرا للدور المحوري و المتميز الذي لعبه بومزراق المقراني في القضاء على ثورة الكاناك عام 1878م، فقد نال الحظوة و الاحترام من جانب السلطات الاستعمارية الفرنسية سواء في الجزائر أو خارجها. و تبعا لذلك استفاد من قانون العفو، حيث سمح له بالعودة إلى أرض وطنه، فدخل الجزائر يوم 13 جويلية 1905م أي بعد نحو ثلاثين سنة من النفي و قد كان شيخا طاعنا في السن. و ما أن وطأت أقدامه أرض الجزائر، حتى حدث محيطيه بالقول: « أخيرا بلغت التراب الجزائري الذي أحببته كثيرا، رغم المآسي التي تعرضت لها، و المصير البائس الذي سأواجهه مجددا... لقد فقدت كل شيء و فقدت زوجاتي الثلاثة اللواتي تركتهن بالجزائر ... و لم يعد لدي الآن سقف يأويني... ».[3]

و يبدو أنه كان يتواصل مع أهله المتواجدين بالبلاد التونسية، و الدليل على ذلك أنه مباشرة بعد استفادته من قرار العفو الذي كان عام 1904م تقدم بعض أفراد عائلته و هما بوزيد بن أحمد المقراني و علي المقراني بطلب إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية للموافقة على زيارتهم له في الجزائر. فوافقت دون إبطاء على ذلك و منحتهما رخصة للسفر إلى مدينتي برج بوعريريج و الجزائر العاصمة [4]. و لا ندري بعد ذلك إن تمت هذه الزيارة و التقى بومزراق المقراني بأهله لأن المنية أدركته بعد عودته بفترة وجيزة في هذه الجزائر التي لفظت حكم "الأجواد" و نظرت إليهم نظرة ازدراء و احتقار[5].

[1] A.O.M : 6H37 : Lettre du Ounnoughi Ben Ahmed ben Mezrague et Mokrani d'el Abiar à Mr le Gouverneur Général de l'Algérie, le 06 juin 1893. ينظر الملحق رقم 25.

[2] Ibid : Lettre du Gouverneur Général au préfet d'Alger le 21 juillet 1893.

[3] Charles-André Julien : op.cit, p 498.

[4] A.N.T : Serie A, Carton 278, Dossier n° 6 : Lettre du Controleur civil à Mr Pichon le Résident Général de la République Française à Tunis, le 17 Décembre 1904, n° 105.

[5] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome second, Editions Bouchène, Paris, France, 2005, p 819.

و ذكرت جريدة الأخبار أنه قضى نحبه يوم 03 غشت 1905م و دفن في مقبرة سيدي عبد الرحمان الثعالبي بالجزائر العاصمة، و قالت هذه الجريدة أنه توفي سقيما عن عمر ناهز السبعين عاما، و أبنته و ذكرت مناقبه و قالت عنه أنه كان « شهما وطنيا غيورا، صادق النزعة، متوفر الوطنية... و من أعوان أخيه في إثارة الفتنة بالجزائر اجتهادا منه في خدمه بلاده، فما كان من القدر إلا أن قبض عليه و أرسل لنومية حيث قضى نحو الثلاثين سنة محترم الجانب ملازم الطاعة محافظ على كرامة بيته و ملته ». [1]

على هذه الشاكلة كانت نهاية بومزراق المقراني، و هي نهاية بائسة، و أن ما ورد في هذه التأبينية المنشورة في إحدى صفحات جريدة الأخبار ذات النزعة الاستعمارية جدا يدل دلالة واضحة على أنه تحول حقا في نهاية حياته إلى صديق للفرنسيين بعد وصوله إلى منفاه بكاليدونيا الجديدة. و لئن اعتبرته هذه الجريدة شهما وطنيا غيورا، إلا أنها لمحت إلى « الهفوة » التي ارتكبها حينما كان « من أعوان أخيه في إثارة الفتنة ». و غني عن البيان أن الفتنة المقصودة هنا هي ثورة 1871 حينما كان يحارب إلى جانب شقيقه الباشاغا محمد المقراني و استخلفه في قيادة الثورة بعد وفاته. و هكذا يتبين لنا أن الذي يحارب فرنسا و يطالب بحريته يعد من أهل الشيطنة و الفتنة في قاموس هذه الجريدة، و أن الذي يركن إلى الدعة و يحارب إلى جانب جيوشها لقهر المظلومين المطالبين بالحرية و الاستقلال يكون وطنيا شهما و هو حقا منطق استعماري مقلوب.

ب- نفي محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني

سلف الذكر أن ثمة تضارب و تناقض في المعلومات الواردة في الوثائق المحفوظة بأرشيف مدينة أيكس أون بروفانس (A.O.M) الفرنسية و الأرشيف الوطني التونسي التي ترصد حركة المقرانيين بعد إنكسار ثورتهم عام 1871م. و من صور هذا التضارب ما نجده في التقارير التي تتحدث عن محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني. فالوثائق التي سنعتمد عليها تجمع كلها على أنه نجل الخليفة السابق للأمير عبد القادر.

و قد رأينا فيما مضى في معرض حديثنا عن موقف عائلة المقراني من مقاومة الأمير عبد القادر أن والده المتعاون مع الأمير عبد القادر كان يسمى محمد بن عبد السلام المقراني، غير أن هذه

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 265.

الوثائق تارة تسميه محمد بن عبد السلام المقراني أي أنها لا تفرق بين اسمه و اسم والده، و تارة أخرى تسميه محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني. و في كلتا الحالتين فإن التسمية غير دقيقة.

و قد ذكر تقرير بقلم رئيس مصلحة الاستعلامات الفرنسية بتونس عام 1888م أن محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني كان يمارس وظيفة قايد لبعض الأعراش المنضوية تحت لواء قبيلة هاشم التي كان حيز انتجاعها بمنطقة مجانة خلال السنة التي اندلعت فيها الثورة أي عام 1871م، و خدم القضية الفرنسية بإخلاص لذلك قلده الفرنسيون وسام فارس جوقة الشرف « Chevalier de La légion d'honneur ». و عندما اندلعت الثورة انفض من حول الفرنسيين و انضم إلى الثوار. و بعد الهزيمة هاجر رفقة عدد كبير من أسرته و عائلته إلى البلاد الطرابلسية. و لم يطب له المقام هناك، فأجرى اتصالات حثيثة مع محمد الصدوق باي تونس، و طلب منه الموافقة على دخول بلاده رفقة شقيقه عبد الله، فقبل الباي طلبه دون تحفظ، فدخل تونس عام 1873م، و بقي فيها إلى غاية عام 1880م، ثم سافر إلى دمشق و ذلك بعد أن أجرى عدة اتصالات مع الأمير عبد القادر، و أخيرا انتقل إلى القسطنطينية. [1]

و تكلمت تقارير أخرى عن نفيه إلى الخارج عام 1873م، غير أنها لم تحدد الجهة التي نفي إليها مثل تقرير المقيم العام * بتونس الذي وجهه إلى المراقب المدني و الذي أشار فيه إلى ذلك[2]، و كذلك تقرير وزير العدل حافظ الأختام و العبادات الفرنسي الذي تحدث عن مثوله أمام القضاء الجنائي بقسنطينة يوم 06 من جوان 1873م و الذي أدانه بعقوبة النفي إلى الخارج في مكان محصن

---

(1) A.N.T : Serie A, Carton 278, Dossier n° 6 : Renseignements recueillis sur le nommé Mohamed Ben Abdessalem el Mokrani et sur sa Famille par le Capitaine Chef de service des renseignements, le 27 Mai 1880, n° 18.

* استحدث منصب الوزير المقيم العام الفرنسي بتونس بعد انتصاب الحماية الفرنسية على تونس عام 1881م، و هو يمثل أعلى سلطة في البلاد و يمارس عدة مهام و وظائف. فبالإضافة إلى كونه ممثل السلطة الاستعمارية الفرنسية، فهو كذلك وزير خارجية الباي التونسي، و الأميرال قائد البحرية الفرنسية و وزير البحرية التونسية، و يترأس مجلس الوزراء التونسي الذي يضم الوزير التونسي الأكبر و وزير القلم و الاستشارة التونسي، و كل المديرين الفرنسيين، و الكاتب العام للحكومة الفرنسية.

حول ذلك ينظر:

- حسن حسيني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 152.

(2) A.N.T : Serie A, Carton 278, Dossier n° 6 : Note du Resident Général à Mr le controleur civil a sujet de Mohamed ben Ahmed el Mokrani le 30 Avril 1897, n° 56.

شديد الحراسة بسبب ارتكابه لجرم التسبب في حرب أهلية و قيادة مجموعات مسلحة ضد الأشخاص و الممتلكات.[1]

أما الحاكم العام الفرنسي بالجزائر، فقد أثنى على المجهودات الجبارة التي قام بها محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني لصالح القضية الفرنسية، و قال أنه كان يشغل منصب قايد منطقة عين تاغروت عندما اندلعت الثورة عام 1871م، و استجاب للنداء الذي وجهته له القيادة العسكرية الفرنسية عندما طلبت منه إحكام الرقابة على الطريق الرابط بين سطيف و بجاية لمحاصرة الثوار هناك، غير أنه سرعان ما هجر القضية الفرنسية، و انضم إلى معسكر الثوار، و بعد أن انطفأت شعلة الثورة فر كغيره من الثوار المقرانيين إلى البلاد التونسية، و لم تتمكن القوات الفرنسية من إلقاء القبض عليه.[2]

و يبدو أن محمدا بن أحمد بن عبد السلام المقراني لم يلق عليه القبض فعلا، و كان ضمن المقرانيين الفارين إلى البلاد التونسية. و ربما سلطت عليه محكمة الجنايات بقسنطينة حكما غيابيا بالنفي عام 1873م، أو أن الفرنسيين أصدروا هذا الحكم اعتباريا، و تعاملوا مع كل ثائر على السلطة الفرنسية لم يلق عليه القبض و فر إلى الخارج على أنه منفي. و سواء كان هذا الحكم فعليا أو غيابيا أو اعتباريا، فالنتيجة واحدة، و هي أنه مبعد عن أرض وطنه.

كان محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني قد سافر إلى دمشق عام 1880م، لأنه كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالأمير عبد القادر الذي اعتبره « ابنه بالتبني » على حد توصيف رئيس مصلحة الاستعلامات الفرنسية بتونس[3]. و بعد وفاة الأمير عبد القادر عام 1883م، فكر في العودة إلى تونس. و يبدو أن الفرنسيين الذين فرضوا نظام الحماية الاستعمارية على تونس عام 1881م رفضوا عودته مجددا، لذلك لجأ إلى الأمير الهاشمي نجل الأمير عبد القادر و طلب منه أن يساعده على العودة إلى تونس التي ترك فيها العديد من أفراد عائلته و عشيرته التي هاجرت هناك بعد عام 1871م، فقام هذا الأخير بعدة خطوات في هذا الاتجاه أفضت إلى تدخل القنصل الفرنسي بسوريا لصالحه حيث راسل الوزير المقيم الفرنسي

---

[1] Ibid : Lettre du Garde des Seaux Ministre de la justice et des Cultes de Paris à Mr le procureur général à Tunis, le 13 mars 1897, n° 52.

[2] Ibid : Lettre du Gouverneur Général de L'Algérie à Mr le Résident général de France à Tunis au sujet du nommé Mohamed ben Ahmed ben abdessalem el Mokrani, le 09 Avril 1897, n° 55.

[3] Ibid : Renseignements recueillis sur le nommé Mohamed ben Abdessalem el Mokrani et sur sa famille par le capitaine chef de service des renseignements, le 27 Mai 1888, n° 18.

بتونس و طلب منه الموافقة على عودة محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني إلى هناك رفقة زوجيه و أبنائه الذين زودهم بجوازات سفر و رتب لهم كل إجراءات و تراتيب السفر[1]. و على إثر ذلك اتصلت السلطات الاستعمارية الفرنسية بتونس دون إبطاء بالحاكم العام الفرنسي بالجزائر طالبة منه إبداء الرأي[2]، فكان رده في شكل برقية جاء فيها: «... رغم أن محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني حمل السلاح ضدنا عام 1871م، إلا أننا لا نرى مانعا من السماح له بالاستقرار في تونس حيث يعيش العديد من أفراد عائلته... » [3].

كان الحاكم العام الفرنسي بالجزائر من أنصار جلب المنفيين الجزائريين في البلاد الإسلامية إلى البلاد التونسية، مبررا وجهة نظره هذه على أساس أنه إذا كان من الصعب على السلطات الأمنية الفرنسية أن ترصد نشاطهم هناك، فإنه من السهل مراقبتهم في البلاد التونسية التي أصبحت تحت السيطرة الفرنسية، لذلك كان يلح كثيرا على المقيم العام بتونس على ضرورة إحكام رقابة شديدة على كل الأشخاص الذين يشبهون حالة محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني[4].

و تبعا لذلك أعطى المقيم العام الفرنسي بتونس أوامره إلى الجهات الأمنية بفتح تحقيق حول سيرته، و أكدت نتائج هذا التحقيق أن المعني لم يبد سلوكات مشينة تحرمه من العودة إلى تونس خلال الفترة التي استقر بها قبل هجرته إلى دمشق (1873م-1880م).[5] و نتيجة لذلك عاد محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني رفقة أفراد أسرته إلى تونس خلال شهر أوت 1888م و فضل الاستقرار بعاصمتها [6]. و على إثر وصوله إلى تونس حرر الأمير الهاشمي نجل الأمير عبد القادر رسالة بعث بها إلى المقيم العام الفرنسي بتونس تضمنت شكره على المعروف الذي قدمه لهذا المهاجر و عائلته، كما تضمنت عبارات

---

[1] Ibid : Lettre du Consul de France en Syrie à Mr Massicault Ministre de France à Tunis le 24 Avril 1888 n° 13.

[2] Ibid : Lettre du Résident général de France à Tunis à Mr le gouverneur général de l'Algérie à Alger le 16 Mai 1888, n° 14, 15.

[3] Ibid : Télégramme du Gouverneur Général de l'Algérie à Mr le Résident général de France à Tunis au sujet de Mohamed ben Ahmed ben abdessalem el mokrani refugié à Damas, le 18 Mai 1888, n° 16. ينظر الملحق رقم 26.

[4] Ibid : Lettre du Gouverneur Général de l'Algérie à Mr le Résident Général de France à Tunis au Sujet de Mohamed Ben Abdessalem El Mokrani, le 21 mai 1888, n° 17.

[5] Ibid : Lettre du Général de Brigade Saint-Marc commandant de Brigade d'occupation de Tunis à Mr le Résident Général de la République Française à Tunis au sujet du nommé Mohamed Ben Abdessalem El Mokrani qui demande à rentrer en Tunisie, le 30 mai 1888 n° 19.

[6] Ibid : Rapport du contrôleur Civil de Tunis le 04 septembre 1888, n° 28.

المجاملة و الود[1]. و بناء على الرسائل التي كان يحررها إلى مختلف الجهات يمكن القول أنه وجد صعوبات كثيرة تتعلق بالإقامة و السكن في العاصمة التونسية، حيث لم يكن له عنوان ثابت. ففي ظرف سنتين متتاليتين مثلا كان له عنوانان للإقامة الأول هو شارع الحجامين بباب الجزيرة عام 1888م[2]، أما الثاني فهو زنقة سيدي لحسان رقم 17 عام 1889م.[3]

بعد استقراره بتونس باشر محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني رفقة أبنائه خطوات من أجل العودة إلى مسقط رأسه، فراسل الحاكم العام الفرنسي بالجزائر عام 1889م، و طلب منه الحصول على ترخيص لدخول الجزائر و مده بقطعة أرضية و إعانة مالية، غير أن طلبه رفض، و كلف المقيم العام الفرنسي بتونس بتبليغه لهذا الرفض[4]. و هو الطلب الذي تقدم به نجله عبد المجيد المقراني أيضا[5]، غير أنه رفض كذلك، هذا في الوقت الذي كانت فيه السلطات الفرنسية بتونس ترى أنه لا مانع من السماح لأفراد عائلة المقراني و على رأسهم محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني من العودة إلى وطنهم الأصلي.[6] و ربما كان ذلك من الأسباب المركزية التي دفعته إلى العودة سرا إلى الجزائر و الاحتماء بزاوية الهامل ببوسعادة رفقة أربعة من أفراد أسرته، غير أن عيون السلطات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر كانت ترصده، فتدخل محافظ مدينة قسنطينة و أعلم حاكمه العام بذلك و حثه على ضرورة طرده من الجزائر لما ينطوي عليه بقاؤه بها من مخاطر على الوجود الاستعماري[7]. و كان نجله عبد المجيد المقراني قد دخل خلسة كذلك إلى الجزائر عام 1888م، فأصدرت الجهات الأمنية الفرنسية أمرا بالقبض عليه و إلزامه بالعودة إلى تونس[8].

(1) Ibid : Lettre de L'Emir el hachemi Ben Abdelkader du Damas à Mr le Résident Général de la République Française à Tunis le 04 Septembre 1888, n° 29.

(2) Ibid : Lettre du Commissaire Central de Tunis au Résident Général de France à Tunis le 18 mars 1888 n° 35.

(3) Ibid : lettre de Mohamed Ben Ahmed ben Abdessalem El Mokrani à son excellence Mr le Ministre Résident Général de France à Tunis, le 25 octobre 1889, n° 62.

(4) Ibid : Lettre du gouverneur Général de l'Algérie à Mr le Résident Général de France à Tunis au sujet de l'avis du rejet d'une demande formée par Mohamed Ben Ahmed Ben Abdessalem El Mokrani, le 06 septembre 1889, n° 36. ينظر الملحق رقم 27.

(5) Ibid : Lettre de Mohamed ben Ahmed ben abdessalem el Mokrani au Gouverneur Général de l'Algérie le 28 septembre 1899, n° 38.

(6) Ibid : Lettre du Général Paint-Marc Commandant de la Brigade d'Occupation de Tunisie à Mr le Résident Géneral de la République fraçaise à Tunis, le 16 Novembre 1889, n° 41.

(7) A.O.M : 6H37 : Lettre du Préfet de Constantine à Mr le Gouverneur général de l'Algérie au sujet des quatre familles des Ouled Mokrane, le 28 juin 1890.

(8) A.N.T : Serie A, Carton 278, dossier n°6 : Télégramme du Gouverneur Général d'Algérie au préfet de Constantine le 22/11/1888, n° 31.

في بداية عام 1897م أعلم وزير العدل حافظ الأختام و العبادات الفرنسي الجهات القضائية الفرنسية بتونس بأن السيد محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني استفاد فعليا من قانون العفو في الفاتح من فيفري عام 1895م، و يترتب عن ذلك بداهة حقه في الدخول إلى التراب الجزائري. و بالموازاة مع ذلك منحت السلطات الفرنسية بباريس الحاكم العام الفرنسي بالجزائر الحق في الاعتراض على هذا القرار إذا رأى أن عودته إلى الجزائر من شأنها أن تؤدي إلى ضرب و زعزعة النظام العام، فاستغل الحاكم العام هذه السلطة التقديرية الممنوحة له و أغلق أبواب الجزائر في وجه محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني و أصدر تعليمات دقيقة تحقق هذا الغرض [1].

و في تلك الأثناء طلب الحاكم العام الفرنسي من محافظ مدينة قسنطينة أن يجس نبض رأي عام المنطقة التي ينحدر منها محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني لاسيما من حيث نظرة السكان إلى الفرنسيين و علاقتهم بالمقرانيين الذين تفرقت جموعهم بعد ثورة 1871م و بالأساس نظرتهم إلى محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني نجل أحد رموز المقاومة الوطنية المنضوية تحت لواء الأمير عبد القادر. و تبعا لذلك باشر هذا المحافظ تحقيقا معمقا في الموضوع، و توصل إلى نتيجة مؤداها أن قبيلة هاشم و سكان المنطقة مازالوا يحتفظون بكل ذكريات ثورة عام 1871م مؤكدا أنه رغم مرور 26 سنة عن قيامها إلا أن كل السكان مازالوا يكنون احتراما كبيرا لعائلة المقراني، و بالمقابل يبغضون الفرنسيين و أعوانهم بغضا شديدا، و أخيرا نصح حاكمه العام برفض كل طلب يتقدم به محمد بن أحمد بن عبد السلام يرمي إلى العودة إلى أرض الوطن. [2]

و انطلاقا من الوثائق العديدة الأخرى المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي و التي تتحدث عن طلبات أفراد عائلة المقراني المتعلقة بالعودة إلى أرض الوطن يمكن القول أن السلطات الفرنسية كانت مصممة على الاعتراض على عودتهم إلى غاية بداية القرن 20م، حيث منحت لهم عدة تراخيص بالعودة إلى مسقط رأسهم في بداية هذا القرن. [3]

---

(1) Ibid : Lettre du contrôleur civil à Mr le Ministre Résident général de la République Française au Sujet du nommé Mohamed Ben Ahmed Ben Abdessalem el Mokrani, le 28 Mars 1897, n° 53.

(2) A.O.M : 6H37 : Lettre du préfet de Constantine à Mr le Gouverneur Général de l'Algérie au Sujet du nommé Mohamed Ben Ahmed Ben Abdessalem Mokrani le 11juin1897.

(3) A.N.T : Série A, Carton 278, dossier n° 6 : voir notament :

- Lettre du Gouverneur Général de l'Algérie à Mr le Résident Général de la République Française au sujet du nommé Bouzid Ben Mohamed ben Mokrani le 13 décembre 1901, n° 112.
- Lettre du contrôleur civil de Béja à Mr le Résident Général de la république Française au sujet du permet de voyage à Mr Ben Bouzid Ben Mohamed Ben Mokrani, le 23 Décembre 1901, n° 114.
- Lettre du Gouverneur Général de l'Algérie à Mr le résident général au sujet du voyage de chaouch ben Mohamed ben hadj Ben Bouzid Mokrani le 23 décembre 1901, n° 128.

و هذا يعني أن الفاعلين الذين شاركوا في ثورة 1871م أو الذين عاصروها منعوا من العودة إلى وطنهم رغم صدور قانون العفو الذي يضمن لهم حق العودة، و هذا يدل على أن الفرنسيين بقوا متخوفين منهم و من أبنائهم و أحفادهم أيضا الذين سمحوا لهم بدخول القطر الجزائري وفق تراتيب و إجراءات دقيقة و معقدة و تحت رقابة شديدة.

بهذا يتضح لنا مما تقدم أن النفي كان مصير العائلات التي ثارت ضد سلطة المستعمر الفرنسي، و شمل أيضا مقربيهم، و خدمهم و أتباعهم، بل و كل الذين اعتنقوا فكرة الثورة. و لغرض تطبيق هذه العقوبة أنشأ الفرنسيون محاكم و مجالس حربية أحالوا عليها قادة هذه العائلات الثائرة و كل الذين شاركوا في أحداث ثوراتهم سواء من بعيد أو من قريب، لتصدر هذه الجهات القضائية في حقهم أحكاما بالنفي إلى الجزر و المناطق النائية مثل كورسيكا و كاليدونيا الجديدة.

و من الجائز القول أن عقوبة النفي كانت جزء من السياسة الخرقاء التي طبقها الفرنسيون في الجزائر ضد قادة هذه العائلات و كل المؤيدين لثوراتهم، و ذلك خدمة لمقاصد الإدارة الاستعمارية و تحقيق الحلم الفرنسي الرامي إلى إحكام السيطرة الفعلية على الجزائر و فتح أبوابها على مصراعيها أمام موجة تدفق المستوطنين الذين تقاطروا عليها بشكل لافت للانتباه خاصة بعد عام 1871م. و في مقابل ذلك التخلص بصورة نهائية من كل عنصر يقف حائلا دون تحقيق هذا الحلم. و ليس أدل على ذلك من أن الفرنسيين حرموا معظم المنفيين من الاستفادة من قانون العفو الذي ضمن لهم حق العودة إلى الوطن.

III- الهجرة إلى البلاد التونسية:

فضل عدد غير قليل من أفراد العائلات الثائرة الذين لم تمسهم عقوبة النفي إلى الخارج رفقة جماعات أخرى من السكان الهجرة إلى البلاد التونسية. و يتعلق الأمر خاصة ببعض أفراد عائلة أولاد عز الدين، و عائلة المقراني، و يضاف إليهم سلمان بن جلاب زعيم عائلة ابن جلاب و محمد بن الطاهر الكبلوتي زعيم عائلة الرزقي اللذان كانا مطاردين من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية بسبب ثورتهما التي أعلناها ضدهم. و سنبسط الحديث تباعا عن هذه الفئة المهجرة.

1- هجرة أولاد عز الدين و المقرانيين:

بعد انتهاء ثورة سكان الزواغة و فرجيوة عام 1864م، هاجر معظم أفراد عائلة أولاد عز الدين إلى البلاد التونسية. و لم يكن الفرنسيون مطمئنين لوجودها و استقرارها في موطنها الجديد بتونس، لذلك كانوا يتتبعون تحركات و نشاطات أفرادها و يرسلون تقارير مفصلة عنهم إلى الجهات الأمنية و

العسكرية و الإدارية المختصة في الجزائر، من ذلك مثلا ما أشار إليه قنصلهم العام المعتمد بتونس حينما كتب تقريرا إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر الماريشال « ماكماهون » حدثه فيه حول هذا الموضوع مؤكدا له بأنه يبذل قصارى جهده لرصد و تتبع أخبار هذه العائلة التي نزحت إلى هذه البلاد منذ عام 1864م.[1]

أما عائلة المقراني، فقد هجر منها زهاء خمسة مائة (500) فرد إلى البلاد التونسية بعد قضاء الفرنسيين على ثورتها[2]، و أشار تقرير فرنسي إلى أن بداية نزوح المقرانيين إلى البلاد التونسية لم يكن بعد انطفاء شعلة ثورتهم، و إنما كان في خضم أحداثها، ذلك أن المقرانيين لم ينتظروا نهاية ثورتهم ثم مغادرة البلاد و التوجه إلى البلاد التونسية [3].

2- هجرة سلمان بن جلاب و محمد الطاهر الكبلوتي:

هاجر سلمان بن جلاب زعيم عائلة ابن جلاب رفقة عائلته و مقربيه إلى البلاد التونسية، و هي الوجهة نفسها التي قصدها محمد الطاهر الكبلوتي زعيم عائلة الرزقي. غير أن هذا الأخير لم يستقر بها طويلا فغادرها في اتجاه طرابلس الغرب، ثم بلاد الشام و الأستانة، و أخيرا عاد مجددا إلى البلاد التونسية. و لا شك أن ثمة عوامل و خلفيات تحكمت في هجرة هذين الزعيمين إلى هذه المناطق، ذلك ما سنحاول تفصيله تباعا.

أ- هجرة سلمان بن جلاب:

على إثر انكساره في المعركة التي خاضها ضد الفرنسيين عام 1854م، هاجر سلمان بن جلاب رفقة عائلته و خدمه و مقربيه إلى البلاد التونسية، و هناك نشط في كتابة العديد من الرسائل إلى الرسميين التونسيين، يستعطفهم فيها بتقديم يد المساعدة له و السماح له بالاستقرار بتونس، حيث افتتح عهده بتونس بمراسلة محمد باي و هنأه على تقلده ولاية العهد، و في الوقت نفسه قدم له تعزية إثر وفاة أحمد باي[4]. ثم كتب له رسالة

---

[1] A.O.M : 2H 19 : Lettre du consul Général de France à Tunis, à Mr le Maréchal Gouverneur Général de L'Algerie à Alger, le 02/12/1866.

[2] Seddik Taouti: op.cit, p 78.

[3] ISHMNT : A.O.M, Série 25 h, n° 25H18, Dossier n° 5, Bobine A 26 : Lettre du consul général de France à Tunis à Mr le vice Amiral Comte de gueydon Gouverneur Général civil de L'Algérie au sujet de Mohamed ben Abdellah et Illis Ben Bouzid, le 24 novembre 1871, Folio 191.

[4] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930، وثيقة رقم 28، و هي غير مؤرخة والراجح أنه كتبها في منتصف نهاية عام 1855م لأنها أشارت إلى وفاة أحمد باي الأول التي كانت يوم 1855/05/30م، و عادة ما يكون العزاء خلال الأيام الأولى لوفاة الهالك.

أخرى أخبره فيها بقدومه رفقة ثائر ورقلة محمد بن عبد الله إلى منطقة نفزاوة ملتمسا منه الإذن للاستقرار بها[1].

و يبدو أنه انتقل بعد ذلك إلى منطقة الجريد بأمر من السلطات التونسية، إلا أنه تعرض لاعتداء من قبل سلطات توزر، لذلك كتب رسالة إلى باي تونس يطلب منه دفع المظلمة التي تعرض لها و التدخل من أجل استرجاع ممتلكاته التي صودرت منه [2]. و عندما وصل إلى الجريد رفقة أفراد عائلته و قطعان ماشيته و أدواته الزراعية و سائر أغراضه، كتب رسالتين إلى باي تونس و وزيره مصطفى خزندار حدثهما فيها عن الاعتداء الذي تعرض له مرة أخرى من قبل المسمى الحاج السوداني الذي قام بتوقيفه و صادر ممتلكاته، ثم قام بنقله إلى بلدة منوبة، بعدها سار إلى تونس العاصمة. و قد التمس سلمان من خلال هاتين الرسالتين التدخل العاجل لتعويضه عن كل الخسائر التي لحقته، و في نهاية الرسالة التي كتبها إلى الوزير مصطفى خزندار ذكر له أنه أهداه هدية ثمينة تتمثل في حصانين كان يمتطيهما في معاركه التي خاضها ضد الفرنسيين، و طلب منه أن يحتفظ بواحد و يسلم الآخر إلى الباي. [3] و يبدو أن ما كتبه سلمان بن جلاب ليس إدعاء و إنما حقيقة، لأن الاعتداءات التي تحدث عنها ذكرت في إحدى المحاضر التي كتبها أحد الأعوان المكلفين بالسهر على الأمن، و تؤكد صحة الوقائع التي ذكرها سلمان بن جلاب.[4]

و ربما المصاعب التي تعرض لها بالبلاد التونسية هي التي جعلته يقتنع بأنه لا مندوحة له إلا بالاتصال بممثلي فرنسا بتونس من أجل تجديد طلبه للفرنسيين للسماح له بالعودة إلى الجزائر مقابل استسلامه و تخليه عن محاربتهم، و تخليه كذلك عن رفيقه الشريف محمد بن عبد الله، و هذا ما أكده تقرير المكلف بأعمال القنصلية الفرنسية بمدينة قابس، و الذي كان يرصد نشاط الثائرين الجزائريين بتونس و يرسل أخبارهم إلى المسؤولين الفرنسيين بالجزائر عبر القنوات القنصلية. [5]

[1] المصدر نفسه: رسالة سلمان بن جلاب إلى محمد باي في 14 صفر 1272هـ (1855). وثيقة رقم 30.

[2] المصدر نفسه: رسالة سلمان بن جلاب إلى محمد باي في 17 صفر 1272هـ، وثيقة رقم 31، و هي مترجمة إلى اللغة الفرنسية و تحمل رقم 13.

[3] المصدر نفسه: – رسالة سلمان بن جلاب إلى محمد باي في 03 ربيع الأول 1272هـ (1855م) وثيقة رقم 17.

– رسالة سلمان بن جلاب إلى مصطفى خزندار بتاريخ 3 ربيع الأول 1272هـ (1855) وثيقة رقم 18.

[4] المصدر نفسه: محضر الاعتداءات التي تعرض لها سلمان بن جلاب وثيقة غير مؤرخة و تحمل رقم 32.

[5] ISHMNT : A.O.M, Série 25H, Carton 25H 16 (2), Dossier n° 1, Bobine A 22 : Rapport de L'agent Consulaire de Gabes à Mr le Consul Général de France à Tunis, daté le 17/06/1855, Folio 17.

غير أن ممثلي السلطات الفرنسية بتونس رفضوا الاستجابة لطلبه بحجة أن قرار العفو و السماح له بالعودة إلى التراب الجزائري ليس من صلاحياتهم، بل هو من صلاحيات المسؤولين الفرنسيين بالجزائر، و تحديدا الحاكم العام [1].

و في تلك الأثناء فكر سلمان بن جلاب في شراء منزل بتونس، غير أنه لم يكن لديه المال الكافي لشرائه، و عليه أرسل رسالة إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار لمده بإعانة مالية تمكنه من تغطية الجزء المتبقي من سعر ذلك المنزل[2]. و من المتصور أن سلمان شرع يفكر في شراء المنزل ليؤويه رفقة أفراد عائلته بتونس عندما تأكد من استحالة عودته إلى الجزائر بسبب رفض الفرنسيين المتكرر لكل طلباته.

و في 07 من يناير 1856م كتب المسمى محمد بن جلاب ـ و هو أحد أفراد عائلة سلمان بن جلاب ـ رسالة إلى عبد الله السوداني مفتي بلدة توزر يلتمس فيها تدخله لاسترجاع ممتلكات عائلته المصادرة [3]. و نفهم من هذه الرسالة أن السلطات التونسية لم تتدخل بصورة جدية لإعادة أملاك عائلة ابن جلاب المصادرة، لذلك طرق أفرادها كل الأبواب لاسترجاعها. و عندما وجدوا كل الأبواب موصدة في وجوههم، لجئوا إلى رجال الدين علهم يساعدوهم على تحقيق مبتغاهم بواسطة نفوذهم الروحي و الأدبي.

و رغم الموقف الفرنسي الواضح و الصريح من الطلبات التي وجهها سلمان بن جلاب إلى الفرنسيين بخصوص العفو، و إعادة تجديد العلاقات معهم، إلا أن ذلك لم يثنه من تكرار تقديم طلباته، بل و إلحاحه الشديد على ذلك. و في هذا المنظور كتب رسالة إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني يطلب فيها منه تمكين عشرات النساء من عائلته و أقاربه و خدمه رفقة أولادهم من السفر إلى البلاد التونسية قصد الالتحاق بعائلاتهم و أزواجهم[4].

[1] Ibid : Rapport de Léon Roches Consul Général de France à Tunis à Mr le Comte Randon Gouverneur Général de L'Algérie, daté le 16/07/1855, Folio 19.

[2] الأرشيف الوطني التونسي: المصدر السابق، رسالة سلمان بن جلاب إلى الوزير مصطفى خزندار، و هي غير مؤرخة، وثيقة رقم 27، و هي الرسالة نفسها مترجمة إلى اللغة الفرنسية، وثيقة رقم 1.

[3] الأرشيف الوطني التونسي: المصدر نفسه: رسالة محمد بن جلاب إلى عبد الله السوداني مفتي توزر في 28 ربيع الثاني 1272هـ (الموافق لـ 07 يناير 1856م)، وثيقة رقم 16، و هي الرسالة نفسها مترجمة إلى اللغة الفرنسية، وثيقة رقم 15.

[4] I.S.H.M.N.T : A.O.M. Série Tunisie 25 H, Carton 25H2, Dossier n° 1 Bobine A2 : Rapport du général Commandant de division de Constantine à Mr le Général de division Commandant Supérieur des Forces de Terre et de mer à Alger : Liste Nominative des femmes de Ben-Djellab, daté le 25/06/1860, Folio 7.

و في الوقت نفسه كان كثير الاتصال بالمصالح القنصلية الفرنسية بتونس عارضا عليها خدماته، و يترجى المسؤولين الفرنسيين هناك بالسماح له بالعودة إلى بلده لاسترجاع ثروته التي تركها في تقرت غير أن هذه المصالح كانت تغلق الأبواب في وجهه[1].

و كانت إجابة المسؤولين الفرنسيين على طلباته دائما واضحة وضوحا نافيا للجهالة، تنصرف إلى الرفض. و قد حاول رئيس القطاع العسكري القسنطيني تبرير هذا الموقف « غير الإنساني » بكون «... أن النساء اللائي طلب سلمان بن جلاب تمكينهن من السفر إلى البلاد التونسية معظمهن طلقن من أزواجهن الذين سافروا معهم، و تزوجن من جديد، بينما النساء غير المتزوجات فهن يفضلن البقاء بالجزائر و يرفضن السفر إلى البلاد التونسية، و أكثر من هذا كله أن سلمان بن جلاب كان سيء السمعة في وسطه العائلي، لذلك فالجميع يرفض الالتحاق به هناك، لأن الجروح التي تسبب فيها هذا الشيخ لم تندمل بعد. فالناس في تقرت و منطقتها لم ينسوا بعد الجرائم التي ارتكبها، و التي طالت النساء و الرجال و الولدان. و هي جرائم فضيعة وقعت على الأموال و الأشخاص و مازالت محفورة في الذاكرة الجماعية للسكان... » [2]. بعدها أرسل الفرنسيون تقريرا إلى قنصلهم العام بتونس حدثوه فيه عن هذا الرفض[3].

بهذا نستنتج أن الفرنسيين كانوا مصممين على موقفهم المعارض لكل شكل من أشكال التصالح مع سلمان بن جلاب، هذا الأخير الذي أكثر من كتابة الرسائل إليهم و إلى الرسميين التونسيين على حد سواء. فإذا كانت رسائله الموجهة إلى التونسيين يهدف من ورائها إلى استعطافهم لمساعدته على تجاوز المحنة التي عصفت به و بكل أفراد عائلته و سائر خدمه و أتباعه باعتبارهم مهاجرين من « دار الحرب » إلى « دار السلام » ، فإن الهدف من الرسائل التي كان يكتبها إلى الفرنسيين هو محاولة إقناعهم بالتعاون معه مقابل مكاسب دنيوية كأن ينعمون عليه بمنصب، أو ربما دون مقابل!. غير أن الفرنسيين كانوا يرفضون كل طلباته كما رأينا لأنهم كانوا يعرفون طموحه جيدا كما يعرفون طموح سائر القادة الأهليين الذين تعاملوا معهم، لاسيما و أنه في تلك الفترة التي كان يتواصل فيها مع الفرنسيين و يعرض عليهم خدماته كان في الوقت نفسه ينسق العمل الثوري مع أعدائهم من الثائرين الجزائريين الذين احتموا بالبلاد التونسية.

---

[1] Idem.

[2]Ibid : Rapport du général commandant de division à Mr le général de division commandant supérieur des forces de terre et de mer à Alger au sujet d'une demande du cheick Selman, daté le 17/07/1860, Folio 6. ينظر الملحق رقم 28.

[3] Ibid : Dépêche télégraphique adressée au Consul Général de France à Tunis au sujet de la reclamation du cheick dt Touggourt, datée le 20/07/1860, Folio 8.

ب- هجرة محمد الطاهر الكبلوتي:

أما محمد الطاهر الكبلوتي أحد الشخصيات البارزة لعائلة الرزقي، فقد خدم الإدارة الاستعمارية الفرنسية، ثم انفض من حولها منذ عام 1868م، و نظم هجمات متكررة ضد المصالح الفرنسية بالمناطق الحدودية الشرقية، و التحق بثوار الصبايحية عام 1871م. و إذا كان الفرنسيون قد تمكنوا من محاكمة و نفي البعض من قادة عائلته إلى فرنسا و كاليدونيا الجديدة، فإنهم لم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه حيث فضل الهجرة خارج التراب الجزائري و الاحتماء بالبلاد التونسية. و يتضح من خلال الوثائق المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي أن محمد الكبلوتي واصل نشاطه الثوري على المناطق الحدودية الجزائرية التونسية، رغم التعليمات التي وجهت له من قبل السلطات التونسية بعدم السماح له و لجماعته بحمل السلاح في وجه الفرنسيين ، الأمر الذي أثار حفيظة السلطات الفرنسية و التونسية على حد سواء، لأن الفرنسيين كانوا يمارسون ضغوطا كبيرة على نظرائهم في تونس بسبب هذا النشاط. و نتيجة لذلك أصدرت الجهات الأمنية التونسية أوامرها إلى مختلف أعوانها لملاحقته بهدف توقيفه. و تطبيقا لهذا الأمر شرع هؤلاء الأعوان في البحث عنه. و خلال شهر ماي من عام 1871م كتب مجموعة منهم رسالة إلى الوزير التونسي خير الدين أحاطوه فيها علما برجوعه إلى منطقة بوشبكة على الحدود الشمالية الشرقية للجزائر حيث انتظره هناك حشد كبير من سكان النمامشة المنتصرين لقضيته [1].

كما كتب في تلك الأثناء أيضا المدعو مصطفى بن قظوم رسالة إلى هذا الوزير حدثه فيها حول مشاكل الكبلوتي و النمامشة، و الاستعدادات الكبيرة التي يبذلها للجم نشاطه قائلا له : « ... كان بلادنا (كذا) هاته الساعة لما رجعوا من نواحيها النمامشة والكبلوتي فبقت في هناك (كذا) و عافية مع وجودك و الحمد لله و نحن واقفين على ساق الجد في ما يجلب الخاو (كذا) بين الجانبين و عدم مد اليد في تلك الناحية و الذي يريد الدخول من الناحية الغربية إلى المملكة التونسية حفظها الله من كل بلى نصرف عنايتنا فيه كما أذنتنا و نطلب من سيدي أن يأذن لنا الهمام الأرفع أمير الأمراء سيدي رشيد عامل الكاف يكن لنا إعانة في الخاص... » [2]

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية الحافظة 212، الملف 240: رسالة عبد الله بن التليلي و آخرون إلى الوزير خير الدين في صفر 1288هـ (ماي 1871م)، وثيقة رقم 5.

[2] المصدر نفسه: رسالة مصطفى بن قظوم إلى الوزير خير الدين في 2 صفر الخير سنة 1288هـ (الموافق لـ 20 ماي 1871م)، وثيقة رقم 7.

و أمام هذه المطاردات غادر الكبلوتي التراب التونسي و اتجه إلى طرابلس الغرب بصورة مؤقتة حتى يصرف عنه الأنظار، بعد ذلك عاد خفية إلى جهة الكاف على الحدود مع الجزائر، غير أن عيون هؤلاء الأعوان كانت تطارده، فبمجرد أن وطأت أقدامه التراب التونسي قاموا برصد تحركاته، و كتب أمير اللواء مراد عامل دريد رسالة إلى الوزير خير الدين ضمنها كل أخباره حيث ورد فيها: « ... أنه بلغنا خبر من الكاف و وطنها خبر محقق هو أن الكبلوتي توجه إلى بلد طرابلس و من هناك أتى إلى وطننا و أتى إلى خيمته خفية، و لما صار بها يختفي بالنهار و يأتيها ليلا و لما بلغنا ذلك اجتهدنا في البحث عن ذلك كل الاجتهاد باذلين جهدنا في ذلك لعلنا نضفروا به و وجهنا من طرفنا الأجل المرعى سي الطيب بن الحاج البراني شيخ أولاد جوين إلى بلد الكاف و الفحص عنه و ثبوت ذلك. و لما ذهب إلى هناك و تجسس عن ذلك وجد هذا الخبر شائعا ذائعا عن الخاص و العام من الأعلى إلى الأدنى لكن من غير ثبوت و قدم إلينا و أخبرنا بذلك حتى أنه تناهى خبره و بلغ إلى الهمام و الأفخم أمير أمراء عساكر الخيالة سيدي رشيد عامل الكاف و لكن المراد منك أنك تعرفنا بأنه إن ثبت ذلك و ضفرنا به ما يكون وجه العمل فيه و نحن لا زلنا مجتهدين في البحث و الفحص عنه... » [1]. كما طمأن أمير اللواء في رسالة أخرى وزيره خير الدين بأنه يعلم بكل حركاته مؤكدا له « ... أنه ثبت عندنا قدومه و أنه نزل على صفاقس و قدم إلى محله بالكريب و أنه يختفي بالنهار و يأتي إلى منزله بالليل... » [2] و أردف قائلا أنه جمع عدد من أعيان دريد، و اتجه صحبتهم إلى منزله و احكموا حراستهم خفية على منزله ليلا « ... و باتوا محدقين بنزله خفية على وجه العسة يترقبون خروجه إلى أن بان الفجر فلم يظهر لهم، فعند ذلك قصدوا جميعا النزل الذي به خيمته و دعوا أخاه أبو عزيز فحضر بين أيديهم و سألوه عنه فاعترف لهم بقدومه... » [3]

---

[1] المصدر نفسه : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد إلى الوزير خير الدين في 25 جمادي الأولى سنة 1289هـ (الموافق للفاتح من أغسطس من عام 1872م)، وثيقة رقم 20.

[2] المصدر نفسه: رسالة أمير الأمراء مراد عامل دريد و أولاد سيدي عبيد إلى الوزير خير الدين بتاريخ 30 جمادي الأولى 1289هـ (الموافق لـ 05 أغسطس عام 1872م)، وثيقة رقم 21.

[3] المصدر نفسه: الرسالة نفسها.

و رغم ذلك فإن محاولة إلقاء القبض عليه باءت بالفشل، و لم يعثروا عليه « ... لاختفائه بالنهار و إتيانه بالليل... » [1] و أكد له في نهاية هذه الرسالة أن مصالحه ستبذل العناية اللازمة من أجل إلقاء القبض عليه، و أنه سيبلغه بكل جديد يتعلق به.[2]

و يبدو أن الكبلوتي شعر بالحرج نتيجة لهذه المتابعات، فقرر السفر إلى بلاد الشام لعله يحصل على الراحة هناك. و قبل أن يقبل على هذه الخطوة كان قد اتصل بسيدي محمد نجل الوزير التونسي مصطفى خزندار و استوصاه خيرا بأولاده و سائر أفراد عائلته، حيث كتب له رسالة قال له فيها « ... و بلغت إلى مدينة مالطة متوجه إلى الشام بحول الله و قوته و أولادي و إخواني راهم محاجير (كذا) إلى المعظم الأرفع الأمثل الأكمل قرة عينك و ثمرة فؤادك ابنك سيدي محمد دام الله وجوده لنا و لك بجاه سيد الأولين و الآخرين ... ».[3]

و لما وصل الكبلوتي إلى سوريا بلغته أخبار مؤداها أن الأمير عبد القادر المستقر هناك، توسط للثوار المقرانيين الذين هاجروا إلى البلاد التونسية لدى السلطات الرسمية التونسية للحصول على إذن بالاستقرار هناك. و أفضت هذه الوساطة إلى حصولهم على هذا الإذن، فاتصل الكبلوتي بالأمير عبد القادر و التمس منه التدخل لصالحه، فلبى رغبته، و كتب الأمير خطابا إلى الوزير التونسي خزندار، و طلب منه أن يستفيد الكبلوتي من هذا الإجراء أيضا و يسمح له بالعودة إلى تونس قائلا له: « ... أن القائد الكبلوتي كان حضر لطرفنا منذ شهور و هو الآن عندنا يطلب شفاعتنا. فالمرجو من المقام الأسمى و الجناب الأسنى أن يلحقه بهم في الاذن و السكن و يشمله معهم و من يلوذ به بما يفضيه من المكارم و المنن لا زالت حضرته تقلد أعناق الرجال بقلائد نعمها و تدبج رياض الآمال بهواطل سحب كرمها و أنتم أبقاكم الله و متع المسلمين بطول ارتقائكم حيث أنه لم تزل عينكم في اكتساب المحامد ممتنعة السنات و صحيفة محياكم كلها قربات و حسنات فلا نشك في رد الجواب بطلق سراح هذا المأسور من يد الاغتراب و الله تعالى يشكر مساعيكم الحميدة و عوائد نفعك الفريد بمنه و كرمه... » [4].

---

[1] المصدر نفسه: الرسالة نفسها.

[2] المصدر نفسه: الرسالة نفسها.

[3] المصدر نفسه : رسالة الكبلوتي بن الطاهر الرزقي إلى الوزير مصطفى خزندار في 26 جمادي الثانية 1289هـ (الموافق لشهر سبتمبر 1872م) وثيقة رقم 24.

[4] المصدر نفسه: الحافظة 78، الملف 929: رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار، في 2 محرم سنة 1290هـ (الموافق لـ (1873/03/02)، وثيقة رقم 63.

غير أن الوزير التونسي اعتذر عن تلبية طلب الأمير عبد القادر هذه المرة، و سجل في ذيل هذه الرسالة العبارة الآتية: «... يجاب بما يناسب و أن الكبلوتي منعت من الاجابة لطلبه موانع سياسية... »[1]. و الراجح أن السلطات التونسية كانت تواجه ضغوطات كبيرة من قبل نظيرتها الفرنسية التي كانت دائما تطالبها بتوقيف العناصر الثائرة و إبعادها إلى الخارج، و كان الكبلوتي من أبرز العناصر غير المرغوب فيها لدى الفرنسيين.

و رغم ذلك لم يفقد الكبلوتي أمل العودة إلى تونس، فواصل مساعيه لإقناع السلطات التونسية بشرعية طلبه و محاولة إقناعهم كذلك بالسماح له بالعودة هناك، فسافر إلى الأستانة و اتصل بالسلطات العثمانية هناك ملتمسا منها التدخل لصالحه ليعود إلى تونس التي ترك فيها أعز ما يملك من أفراد عائلته، فتدخل الصدر الأعظم محمد رشدي باشا و راسل الباي التونسي و قال له : « ... فقد كنا كاتبنا جنابكم العالي بمكتوب مؤرخ في 16 جمادي الأول سنة 1290 في التوصية برد البال من مهاجري الجزائر الذين انتقلوا منها إلى ولايتكم الجليلة و كنا به بينا به أسماء بعض كبرائهم منهم الشيخ الكبلوتي و في هذه المدة الأخيرة و رد للباب العالي عرض ممضى من الكبلوتي بن الطاهر شيخ قبيلة الحنانشة يعرف فيه أنه بعد أن حصل له و لمن معه المساعدة التامة و المساعفة اللائقة للتوطن بولايتكم الجليلة تحت حماية دولتكم أمرتموه بالرحول منها إلى مكان آخر بموجب طلب قنصل فرنسا... ». [2]

و الراجح أن السلطات التونسية استجابت لهذا الطلب، فقبلت بعودته، إلا أن مدة إقامته بتونس كانت قصيرة، حيث أرغمه الباي على الرحيل بحرا، فركب الباخرة رفقة الثائر الناصر بن شهرة في 1875/06/02م التي انطلقت من ميناء حلق الوادي باتجاه بيروت[3]. و أفاد تقرير فرنسي آخر أنهما توجها إلى مالطا بنية عدم العودة نهائيا إلى البلاد التونسية التي ذاقت بهما[4]، في حين أشار تقرير فرنسي آخر إلى أن الكبلوتي توجه بمفرده إلى بيروت و لم يطب له المقام فيها كثيرا فاتجه

[1] المصدر نفسه: الرسالة نفسها.

[2] المصدر نفسه: الحافظة 212، الملف 240: رسالة الصدر الأعظم رشدي باشا إلى باي تونس في 26 ذي القعدة 1290هـ (الموافق لشهر يناير 1874م)، وثيقة رقم 28.

[3] L.Rinn : op.cit, p 623.

[4] ISHMNT : Archives du Ministère des Relations Extérieures, Quai d'Orsay, Paris, France : Affaires diverses Politiques, Dossier Unique, Bobine 520 : Lettre Anonyme de Versaille, le 19 Juin 1875, Folio 538.

إلى مدينة بروسة التركية، ثم عاد سريا إلى طرابلس الغرب مستغلا في ذلك ظروف الحرب التركية الروسية عام 1877م، و هناك أقام رفقة زوجته الزهرة بنت الشيخ الحسناوي بن بلقاسم. و خلال هذه الفترة كان قد فقد أمه بدرة و زوجته الأولى مبروكة بنت محمد الصالح الرزقي القايد السابق للحنانشة [1]

و كان الفرنسيون يتتبعون أخباره عن طريق القنصل الفرنسي المعتمد بطرابلس لذلك وجهت الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر تعليمات إلى سلطاتها على مستوى مدن عنابة، قسنطينة و باتنة في 1879/06/10 تحدثت فيها عن أخبار هذا الثائر بطرابلس، و حذرت من خطره و إمكانية تأليبه لسكان إفريقيا الشمالية ضد الوجود الفرنسي،[2] لذلك طلبت السلطات الفرنسية عن طريق سفيرها في إسطنبول من نظيرتها التركية التدخل الفوري لإعادة الثائر الكبلوتي إلى مدينة بروسة التركية[3]. و تنفيذا لهذا الطلب تم نقله إلى تركيا و وضع في سجن مدينة بروسة الذي لم يقبع به كثيرا حيث أطلق سراحه فعاد إلى طرابلس الغرب و راسل الوزير التونسي خير الدين و أعلمه بوجوده هناك[4].

و ذكر صاحب الرحلة الحجازية الذي عاصر الكبلوتي، بل و كان ضمن الذين شاركوا في تشييع جنازته إلى مثواه الأخير أنه دخل بعد ذلك خفية إلى تونس، و استقر إلى جانب سكان جلاص دون أن يعرف بنفسه و يكشف هويته، إلا أن خليفة الباي تمكن من اكتشاف أمره، فألقى عليه القبض و سلمه إلى الوزير مصطفى بن إسماعيل الذي أمر بسجنه في داموس مظلم بحلق الوادي. و بعد انتصاب الحماية الفرنسية على تونس عام 1881م، طلب الفرنسيون من الباي التونسي أن يسلمه إليهم إلا أن الباي رفض ذلك. و بفعل الظروف المزرية التي كان يعيشها في زنزانته حيث الرطوبة العالية و الظلام الدامس، انهارت قواه و تدهورت أحواله الصحية [5]، فتدخل نجله محمد و كتب خطابا إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور حدثه فيه عن والده السقيم راجيا منه التدخل من أجل نقله إلى المستشفى لتلقى العلاج

[1] A.O.M : 6H33, Dossier n° 3, subdivision de Bône renseignements sur ex caid des Hanencha Kablouti Ben Tahar le 09 Mars 1879, .369 نقلا عن جمال ورتي: المرجع السابق، ص

[2] Ibid : Circulaire du Gouvernement Général Civil de L'Algérie le 10 juin 1879.

[3] Ibid : Circulaire du Gouvernement Général Civil de l'Algérie à Mr le Général Commandant de la division de Constantine, le 16 juillet 1879.

[4] الأرشيف الوطني التونسي : المصدر السابق: رسالة محمد الكبلوتي إلى الوزير خير الدين، في شهر شعبان 1292هـ (الموافق لشهر سبتمبر 1875م)، وثيقة رقم 30. ينظر الملحق رقم 29.

[5] محمد السنوسي: الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، ج3 الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 198.

« ... لعل الله يرسل شفاءه على يده و إن قرر الله بالموت فإنه يرحمه و السلام... »[1]. و يضيف محمد السنوسي أن السلطات التونسية استجابت إلى هذا الطلب و نقلته إلى مستشفى الصادقي بتونس خلال شهر شعبان عام 1300 هـ (الموافق لشهر جوان 1883م)، و مكث فيه إلى أن وافته المنية ليلة الأربعاء 6 جمادي الثانية عام 1301هـ (الموافق لشهر أفريل 1884م) فدفن بمقبرة الجلاز بالعاصمة تونس[2].

بهذه الطريقة المأساوية كانت نهاية هذا الثائر الذي حارب الفرنسيين، و شغل بال ساستهم. و قد فرض عليه هذا الموقف الهجرة و التهجير إلى المناطق البعيدة، و الدخول إلى السجون و العيش في الخفاء بعيدا عن الأنظار، و لم تكن نهايته على هذا النحو بمفرده بل شاركه فيها أيضا عدة وجهاء من عائلته الذين تم نفيهم إلى الخارج و قد قضوا نحبهم هناك بعيدا عن وطنهم الجزائر الذي حاربوا من أجل استقلاله و حريته.

و بناء على ما تقدم ذكره حول هجرة أفراد العائلات الثائرة الذين لم تسلط عليهم عقوبة النفي نستنتج أنهم هجروا إلى هذه البلاد قسريا لأن هذا الخيار كان مفروضا عليهم فرضا، حيث كانوا يواجهون ضغوطات كبيرة من جانب الإدارة الاستعمارية و أعوانها. فهجرتهم القسرية تشبه في بعض جوانبها عقوبة النفي. و قد انجرت عن كل ذلك آثار وخيمة انعكست على هذه العائلات سواء في الجزائر أو خارجها. فبالإضافة إلى تشتتها و تقطع صلتها بأقاربها ساءت أحوالها الاجتماعية و المادية كما سنرى فيما يأتي.

IV– تدهور أوضاع العائلات الثائرة و تراجع مكانة العائلات الكبرى:

تدهورت الأحوال المادية و الاجتماعية للعائلات التي ثارت ضد الإدارة الاستعمارية و قد مس هذا التدهور العائلات التي نفيت و هجرت إلى الخارج، كما مس أيضا أفرادها الذين بقوا بالجزائر. و بالموازاة مع ذلك قام الفرنسيون بعد القضاء على هذه الثورات التي أعلنوها و خاصة ثورة المقراني عام 1871م بتحطيم هذه العائلات و القضاء عل نفوذها و مناصبتها العداء الشديد. و قد تبنى هذا التوجه غلاة النظام المدني الذي استخلف النظام العسكري، هذا الأخير الذي اشتهر بـ « صداقته » لهذه العائلات. و لم ينتهج الفرنسيون هذه السياسة العدائية تجاه العائلات الثائرة فحسب، و إنما طبقوها ضد كل العائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة، بل في القطر الجزائري برمته، و في مايلي نستوضح ذلك بشيء من التفصيل.

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 185، الملف 1050 مكرر: رسالة محمد بن الكبلوتي إلى الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور (و هي مترجمة إلى اللغة الفرنسية) مؤرخة في جمادي الأولى 1300 هـ (الموافق لـ 1882/04/09)، وثيقة وحيدة.

[2] محمد السنوسي : المصدر السابق، ص 198.

1- تدهور الوضعية المادية و الاجتماعية للعائلات الثائرة

ساءت الأحوال المادية و الاجتماعية للعائلات التي ثارت ضد السلطة الاستعمارية كما يتضح لنا ذلك من خلال الرسائل العديدة التي تركها زعماؤها و المحفوظة بخزائن الأرشيف الوطني التونسي و الأرشيف الفرنسي. فهل ثمة علاقة سببية بين الإجراءات العقابية القاسية التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية تجاه العائلات الثائرة و الوضعية المادية و الاجتماعية البائسة التي آل إليه وضع هذه العائلات؟ و هل أخذ المسؤولون التونسيون و الفرنسيون على محمل الجد نداءات المساعدة التي وجهها لهم زعماء هذه العائلات عبر رسائلهم؟ و هل تجاوب المسؤولون التونسيون و الفرنسيون مع التماسات الأمير عبد القادر و نجله الأمير الهاشمي المستقران ببلاد الشام و الرامية إلى إسعاف المقرانيين المستقرين بالبلاد التونسية؟ ذلك ما سنحاول توضيحه تباعا.

أ- تدهور وضعية عائلة ابن جلاب:

تدهورت الحالة الاجتماعية لعائلة ابن جلاب التي استقرت بالبلاد التونسية بعد ثورة زعيمها سلمان بن جلاب على السلطات الاستعمارية الفرنسية كما يظهر من خلال الرسائل التي كان يبعث بها إلى السلطات التونسية، مثل الرسالة التي بعث بها إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار عام 1864م، و التي شكا له فيها حاله و وضعه المالي غير المريح ملتمسا منه يد المساعدة و حدثه قائلا: «... صرنا من المحتاجين غاية الاحتياج من قلة المصروف(كذا)... »[1]. و يفهم من رسالة أخرى بعثها سلمان بن جلاب إلى محمد الصادق باي تونس* عام 1866م أن السلطات التونسية أخذت مطلبه على محمل الجد، و خصصت له إعانة مالية قدرها 500 ريال شهريا، إلا

[1] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930: رسالة سلمان بن علي بن جلاب إلى الوزير مصطفى خزندار في 28 شوال المبارك (1281هـ (1864م)، وثيقة رقم 21.

* كان لمحمد الصادق باي (1859م -1882)م الفضل الكبير في تطبيق أحكام عهد الأمان الذي وضعه سلفه محمد باي (1855م-1859م). و كان هذا العهد وثيقة أساسية لكل سكان الإيالة التونسية على اختلاف نحلهم و مللهم. و لما وصل محمد الصادق باي إلى دفة الحكم في تونس أمر بتطبيق أصول هذا العهد ضمن دستور عام 1861م الذي ضبط قواعد نظام الحكم و نظم سلطات البلاد. و كانت لمحمد الصادق باي علاقات ودية مع الفرنسيين، و لما زار إمبراطورهم الجزائر في سنوات الستينات من القرن 19م، تنقل هذا الباي إلى الجزائر و التقى بالإمبراطور نابليون الثالث فرحب به و أكرم نزله، و قدم له التهاني على الإصلاحات السياسية التي قام بها في بلاده. حول ذلك ينظر:

حسن حسيني عبد الوهاب : المرجع السابق، ص ص 142، 143.

أن هذه الإعانة كانت غير كافية، و لم يتمكن بفضلها من تغطية الحد الأدنى من متطلبات أسرته التي تتشكل من 16 فردا، الأمر الذي دفع به إلى الاستدانة، فتراكمت عليه الديون التي وصلت قيمتها إلى 1400 ريال. و لم يتمكن من تسديدها، كما لم يتمكن من تسديد سعر المنزل الذي اشتراه، فصار صاحبه يهدده بالطرد، و اشتكى أمره إلى الجهات المختصة التي اتخذت قرارا بحجزه و مصادرته بأمر من المسمى إسماعيل قايد السبسي. و مما زاد في وضعه تأزما أن المصالح المالية المكلفة بتقديم الإعانة المالية التي تقررت له كانت تتماطل في تقديمها له حيث حرمته منها لمدة ثلاثة أشهر متتالية (شهري نوفمبر و ديسمبر 1865م و شهر جانفي 1866م) الأمر الذي زاد من وضعيته سوء حيث كاد أن يقضي نحبه رفقة أفراد أسرته بسبب الجوع، و لم يستطع حتى شراء رغيف خبز ليسد به رمق جوعه و جوع أسرته، لذلك ناشد الباي التونسي بالتدخل العاجل قائلا له في آخر هذه الرسالة : « ...و أعلمتك بما جر علينا (كذا) اعمل لنا تويل (كذا) راني ضعت بالشر (كذا)... متوكل على الله ثم عليك... »[1]

و كتب رسالة أخرى إلى المسمى إسماعيل السنوسي و نجليه أحمد و محمد السنوسي عام 1867م، اشتكى فيها ضنك عيشه، و قلة موارده المالية طالبا منهم مساعدة في شكل هبة تتكون من كمية هامة من الحبوب شاكرا إياهم على إسعافهم له خلال السنة الماضية و مساعدتهم له على تجاوز الظروف الصعبة التي مر بها مذكرا أياهم بأنه لم يتحصل على المساعدة المالية التي خصصتها له سلطات الباي التونسي منذ ستة أشهر. [2]

و رغم المساعي التي باشرها سلمان بن جلاب بهدف الحصول على المساعدة، إلا أن أوضاعه المالية بقيت على حالها، بل وتدهورت أكثر. و هذا ما يمكن استنتاجه من مضمون الرسالة التي كتبها إلى الوزير التونسي خير الدين عام 1870م، و التي حدثه فيها عن وضعه المالي المزري و عدم حصوله على المساعدة المالية المخصصة له منذ ما يقارب ثلاث سنوات حيث كتب :

[1] الأرشيف الوطني التونسي : المصدر السابق: رسالة المهاجر في سبيل الله سلمان بن علي بن جلاب إلى المشير عبد الله سيدي محمد الصادق باي عام 1283هـ (الموافق لعام 1866م) وثيقة رقم 23، و هي مترجمة إلى اللغة الفرنسية و مودعة في الملف نفسه، تحت رقم 5 مكرر. ينظر الملحق رقم 30

[2] المصدر نفسه: رسالة سلمان بن علي بن جلاب إلى إسماعيل السنوسي و نجليه سيدي أحمد و سيدي محمد السنوسي في ربيع الأول 1284هـ (1867م) وثيقة رقم 24. و هي مترجمة إلى اللغة الفرنسية و مودعة في الملف نفسه تحت رقم 4.ينظر الملحق رقم 31

« ...لي عامين و تسعة اشهور (كذا) لا شفت حتى شي (كذا) من غير ست مات **اريال** (كذا) و خمسة و عشرون **اريال** (كذا)... »[1]. و أكد له أيضا في هذه الرسالة أنه التمس المساعدة من اليهود و النصارى الذين اقترضوه مبلغا ماليا لتجاوز ذائقته المالية، غير أنه لم يتمكن من تسديده مما جعلهم يطالبونه بالوفاء بدينه و يمارسون عليه ضغوطا لا متناهية. هذا في الوقت الذي لم يتمكن حتى من توفير المأكل و الملبس الضروريين له و لعياله موجها اللوم إلى الوزير خير الدين إذا لم ينظر إليه بعين الرأفة و الشفقة قائلا له : « ... و أنا محسوب ابنكم و إليكم و عار عليكم و قاعد جعان (كذا) و عريان و عند عيل (كذا) في رقبتي (كذا)... ». [2]

و بعد مرور شهرين من كتابة هذه الرسالة، كتب سلمان بن جلاب رسالة أخرى إلى الوزير خير الدين، و ذكره فيها بالرسالة السابقة، و كذا أوضاعه المالية المتدهورة، و جدد له المطالب ذاتها التي تحدث عنها سابقا، مركزا على مسألة المساعدة المالية التي قال عنها: « و أنا هذلي ثلاثة سنين غير شهر ما اديتش (كذا) الراتب الذي خرج لنا (كذا) من الدار السعيدة... » [3]. و هذا يعني أن الوزير خير الدين لم يأخذ مطالب سلمان الجلابي التي جاءت في الرسالة الأولى على محمل الجد، الأمر الذي دفعه إلى مراسلته للمرة الثانية.

و يبدو أنه استجاب لطلبه عندما راسله للمرة الثانية حيث وجه أمرا إلى المصالح المختصة و المشرفة على هذا الشأن بتسوية الوضعية المالية لسلمان وفق مرحلتين: المرحلة الأولى و تشمل المخلفات المالية التي لم يتحصل عليها قبل شهر أكتوبر عام 1869م، و يتم تسويتها على مستوى اللجنة المالية المخصصة لهذا الغرض (الكوميسيون المالي). و أما المرحلة الثانية التي تبدأ بعد الشهر المذكور، فيتم تسويتها على مستوى مكتب الإعانات المخصص لهذا الغرض. و كان الوزير خير الدين قد أصدر هذا الأمر مباشرة بعد قراءته لرسالة سلمان بن جلاب الثانية حيث كتب في ذيل هذه الرسالة العبارة الآتية: « يطلب تذاكر المرتب السابق عن أكتوبر عام 1286 من الكمسيون المالي و أما مرتبه من أكتوبر المذكور فإنه يطلبه من مصلحة الدخل » [4].

---

[1] المصدر نفسه: رسالة سلمان بن علي بن جلاب إلى الوزير خير الدين في 16 صفر 1287 هـ (1870م)، وثيقة رقم 25. و هي مترجمة إلى اللغة الفرنسية و مودعة في الملف نفسه تحت رقم 3. ينظر الملحق رقم 32.

[2] المصدر نفسه: الرسالة نفسها.

[3] المصدر نفسه: رسالة سلمان بن علي بن جلاب إلى الوزير خير الدين في ربيع الثاني 1287هـ (1870)، وثيقة رقم 26، و هي مترجمة إلى اللغة الفرنسية و مودعة في الملف نفسه تحت رقم 33.

[4] المصدر نفسه: الرسالة نفسها.

كان إذن سلمان بن جلاب يواجه متاعب مالية كبيرة إلى درجة أنه لم يتمكن حتى من توفير لقمة العيش لنفسه و لعائلته. و الثابت أنه كان يعيش في تلك الفترة أسوأ مرحلة من مراحل حياته. و لم يكن من السهل بالنسبة له تقبل هذه الوضعية الجديدة البائسة لاسيما و أنه كان من علية القوم، و هذا ما يفسر كثرة رسائله التي كان يكتبها إلى رجال الدولة التونسية و التي حاول من خلالها استعطافهم و جعلهم ينظرون إليه على أنه عزيز قوم ذل يحتاج إلى رحمة و إغاثة و رعاية خاصة. و قد حاول الرسميون التونسيون الاستجابة لنداءاته من خلال منحه مساعدة مالية شهرية.

غير أن « فيرو » قدم لنا معلومات تتناقض مع كل ما ورد في هذه الرسائل. و نفهم مما كتبه أن علاقة سلمان بن جلاب بالرسميين التونسيين كانت سيئة للغاية إلى درجة أن السلطات التونسية قامت بتوقيفه و اعتقاله بالعاصمة تونس إثر نزوحه إليها[1]. و هو إدعاء باطل على ما يبدو.

إن معلوماتنا عن سلمان بن جلاب و عائلته المستقرة بالبلاد التونسية بعد هذه الفترة شحيحة، بسبب قلة المصادر التي تتحدث عنها. و لم نتوصل إلى معرفة نهايته، و لا نعلم ماذا حدث له و لأسرته بعد ذلك باستثناء ما أفادنا به « فيرو » الذي أكد أنه رغم المضايقات التي باشرتها ضده السلطات التونسية إلا أنه بقي متمسكا بسلوكه الأرعن، وكان عربيدا و ميالا إلى حياة الترف و المجون، و ذا سيرة سيئة. و قد تسبب بسلوكه الطائش المساس بالنظام العام و السكينة العامة، فضاق به الباي التونسي ذرعا و أبعده و أعطى الأوامر بوضعه رهن الاعتقال بالمغرب الأقصى.[2] و أضاف « فيرو » أنه رآه هناك عام 1877م و هو ثملا و في حالة تخبل تام يجوب شوارع مدينة طنجة المغربية، و أنهى حياته أسيرا لشرب الخمر و استهلاك المخدرات[3].

ربما يكون ما ذكره هذا الضابط الفرنسي غير موضوعي و يجافي الحقيقة لأن علاقة سلمان بن جلاب بالرسميين في تونس كانت علاقة حسنة أو على الأقل أنها لم تصل إلى درجة الجفاء و الاصطدام كما صورها لنا، و هذا ما تؤكده رسائله لأنه من غير المتصور أن شخصا منحرفا و عربيدا يتبادل الخطابات و الرسائل مع أعلى مسؤولي الدولة التونسية و يخصصون له مساعدة مالية في شكل راتب شهري.

---

[1] L.ch.Féraud : « les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in R.A, n° 26, Année 1882, p 116.
[2] Idem : p 116.
[3] Idem : pp 116, 117.

و لم تكن السلطات التونسية رءوفة مع سلمان بن جلاب فحسب، بل كانت تقدم يد المساعدة لكل عائلة ابن جلاب التي نزحت إلى البلاد التونسية في منتصف القرن 19م، و هذا ما نفهمه من فحوى الرسالة التي كتبها المدعو حاج عمر بن جلاب إلى السيد الأمين العام للسلطة الفرنسية عام 1887م، و الذي قدم نفسه على أنه نجل أحد أعيان ورقلة الذين ينحدرون من عائلة ابن جلاب الذائعة الصيت في منطقة الجنوب القسنطيني، و الذين نزحوا إلى البلاد التونسية، مؤكدا له أن الجماعة الورقلية * المستقرة بتونس تكن له كل الاحترام و التقدير و تنظر له على أنه سليل عائلة محترمة مضيفا أن كل الورقلية لقوا كل الضيافة و الاستقبال من قبل الباي التونسي. و بعد انتصاب الحماية الفرنسية في تونس عام 1881م تكفل برعايته المدعو سي العربي بن عمر الذي يعمل كترجمان لدى الأمين العام للسلطة الاستعمارية الفرنسية. بعد ذلك طلب منه مساعدته على إيجاد وظيفة تحفظ له كرامته لأنه لا يرغب في البقاء معتمدا على المساعدة التي يقدمها له كفيله المذكور[1]. و بهذا يبدو لنا من خلال ما تقدم أن عائلة ابن جلاب التي نزحت إلى البلاد التونسية عاشت أوضاعا صعبة رغم المساعدات المقدمة لها رسميا و شعبيا.

* الجماعة الورقلية هي إحدى الجماعات الجزائرية المهاجرة إلى البلاد التونسية من منطقة الجنوب الشرقي الجزائري. و تتكون هذه الجماعة من خمسة عروش و هي: بني ابراهيم، بني سيسين، تماسين، بني وقين و الشطوطة. و كان يشرف على إدارة شؤون كل عرش رئيس يسمى الشاوش، ينتخب من قبل أهل عرشه أو يعين من قبل السلطة الفرنسية. و يتولى الإشراف على كل شؤون العروش الخمسة كبير هذه الجماعة و يعرف بالمقدم الذي يشرف على المسائل الداخلية المرتبطة بهذه الجماعة مثل توفير فرص الشغل و توزيعها بطريقة عادلة بين مختلف عروش الجماعة و نحو ذلك، إلا أنه لم يكن يمارس أي دور سياسي أو مخزني. و ما يميز هذه الجماعة هو تضامن و تكافل أفرادها و من مظاهر ذلك وجود دار تخص كل عرش، مثل دار عرش بني إبراهيم المخصصة لإقامة الوافدين الجدد إلى الحاضرة تونس، و العجزة و المصابين بأسقام. و كان يغسل بها الميت قبل دفنه، و يقوم كل أفراد العرش بإيجار هذه الدار، و يساهمون جماعيا في دفع بدل إيجارها. و يمكن أن يكون هذا التضامن على مستوى الجماعة الورقلية بعروشها الخمسة مجتمعة. و من صور ذلك مثلا تكفل كل أفراد هذه الجماعة بجبر الضرر الناجم عن سرقة محل يشرف على تأمينه و حراسته أحد أفرادها، حيث تتكفل الجماعة بتعويض صاحبه تعويضا عادلا. و الواقع أن التضامن و التكافل القائم داخل العرش الواحد أو ضمن هذه الجماعة برمتها لم يصمد طويلا أمام تداخل عدة عوامل ساهمت في انشطار و تصدع العلاقات داخل هذه الجماعة مثل التنافس بين أعيان الأعراش على وظيفة المقدم، و التصادم بين الأعراس الذي كانت تغذيه السياسة الاستعمارية الفرنسية.

حول هذه الجماعة المهاجرة إلى البلاد التونسية وخصوصياتها الاجتماعية و القانونية ينظر:

- عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص ص 515-525.

[1] A.N.T : Série H, Carton 78, Dossier 930 : Lettre d’hadj Amor Ben djellab à Mr le secrétaire général, datée le 2 avril 1887, Folio 35.

و لا يكتمل الحديث عن هذه العائلة في هذا المضمار دون معرفة بقاياها في منطقة تماسين بالجنوب القسنطيني ، و قد لمسنا شح المصادر التي تحدثت عن أخبارها، كما أن هذه المصادر القليلة أشارت إليها بشيء من الغموض و عدم الدقة أحيانا. و ذكر « فيرو » أن سلمان بن جلاب عندما هاجر إلى البلاد التونسية، كان قد ترك ولدين هما مباركة و علي. و قد تعهد المرابط سي محمد العيد التيجاني * شيخ الطريقة التيجانية بتماسين برعايتهما، و قام بتزويج مباركة بالقايد علي باي نجل فرحات بن السعيد الذوادي. أما شقيقها علي بن جلاب، فبعد سنوات عديدة من إقامته بالزاوية التيجانية بتماسين تم إرساله إلى إحدى المدارس بمدينة قسنطينة لمتابعة دراسته. و قد لاحظ عليه الفرنسيون علامات اليقظة و الفطنة و الحيوية، إلا أنهم كانوا يؤاخذونه على أنه كان نزق و سريع الغضب « Son Caractère vif, Irascible » لذلك أطلقوا عليه إسم « فهد الصحراء » «Le Panthère du Sahara ». و قد انخرط في إحدى سرايا فرقة الصبايحية، و تدرج في الرتب و المسؤوليات إلى أن تقلد عصا الماريشالية في هذه الفرقة العسكرية[1]. و هي فرقة سيئة السمعة في أوساط السكان الجزائريين لأنها كانت تترجم إرادة الإدارة الاستعمارية الفرنسية، و تمثل عيونها و آذانها و أقدامها وأياديها، و كان الفرنسيون و أعوانهم يلجأن إليها لكسر و ضرب المقاومة الوطنية و تمرد السكان و القبائل على السلطة الاستعمارية الجائرة.

و من المصادر الأخرى التي أشارت إشارة بسيطة إلى هذه العائلة في نهاية القرن 19م، نذكر الدراسة التي أعدها الكاتبان الفرنسيان « ديبون » و « كوبولاني » « Dépont et Coppolani » حول الجماعات الدينية و الطرق الصوفية في الجزائر، و قد تمت فيها الإشارة إلى عائلة ابن جلاب بصورة عرضية، حيث قالت هذه الدراسة أن هذه العائلة كانت من عائلات مقاطعة قسنطينة التي بقيت تمارس أدوارا سياسية إلى غاية عام 1897م إلى جانب عائلة الرزقي، و عائلة بن علي الشريف، و عائلة بوعكاز بن عاشور، و عائلة بوضياف، و عائلة بن دايخة،

* محمد العيد التيجاني هو نجل الزعيم التيجاني المشهور أحمد التيجاني الذي استقبل ثوار أولاد سيدي الشيخ في زاوية عين ماضي عام 1869م، فاعتبر الفرنسيون هذا الصنيع بمثابة تواطؤ مع الثوار، فنفوه إلى فرنسا رفقة شقيقه البشير التيجاني، و هناك تزوج من الفرنسية "أوريلي بيكار". و رغم عودته إلى الجزائر رفقتها، إلا أنه لم يستطع استرجاع هيبته الضائعة كشيخ حامل للبركة لأن شوكته الأدبية تكسرت و أتباعه انفضوا من حوله. أما نجله محمد العيد التيجاني فقد كان شيخا للطريقة التيجانية بمنطقة تماسين إلى غاية وفاته عام 1875م، و عمل جاهدا على تحييد الزاوية عن الصراع الذي كان قائما آنذاك بين الفرنسيين و زعماء و ثوار المقاومة الوطنية مثل الثائرين محمد بن عبد الله و بوشوشة.

حول ذلك ينظر :

- أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1860– 1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص 332 ، 333.

(1) L .Ch. Féraud: op.cit, p 107.

و عائلة بوعكاز الذواودة، و عائلة ابن قانة، و عائلة الحاج علي و ذكرت هذه الدراسة أيضا أسماء لعائلات أخرى في مقاطعة وهران و مقاطعة الجزائر، و قالت عنها أنها كانت تمارس أيضا أدوارا سياسية و تقدم خدمات للفرنسيين. و الشيء اللافت للانتباه أن المؤلفين اتفقا على نقطة مركزية واحدة و هي التناقص الكبير لعدد هذه العائلات إلى غاية السنة المذكورة.(1)

تحدثت إذن هذه الدراسة عن التراجع الواضح في عدد هذه العائلات بالقطر الجزائري في نهاية القرن 19م، و هو أمر متفق عليه بين المؤرخين. لكن الغريب أنها ذكرت لنا عائلات، و قالت عنها أنها لا تزال فاعلة و بيدها زمام الأمور، و على رأسها عائلة ابن جلاب بتماسين إلى جانب عائلة الرزقي، و عائلة المقراني، و عائلة بوعكاز بن عاشور، و عائلة بن علي الشريف. و الحقيقة أن هذه العائلات كانت قد حطمت و فتتت و هجرت و نفيت و أفل نجمها. و المقابل أنها لم تذكر شيئا عن عائلات دجنها الفرنسيون في تلك الأثناء، مثل عائلة أولاد سيدي الشيخ صاحبة ثورة عام 1864م، و التي تخلت عن خطها الثوري و دخلت في خدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية، ففقدت مكانتها الدينية و الدنيوية و تحطمت شوكتها الأدبية و لفظها أتباعها لتوليها الوظائف الرسمية، و وفاة الشيخ سي الأعلى عام 1895م، فهل معيار قوة و فاعلية هذه العائلات تغير في نظر هذين الكاتبين في نهاية القرن 19م، و أصبح ينسحب على العائلات التي تعاونت معهم في بداية الاحتلال ثم انفضت من حولهم فقاموا بتحطيمها و تفريق جموعها كحال العائلات المذكورة و منهم عائلة ابن جلاب؟ و كيف نظر هذان الكاتبان إلى العائلات التي أبدت في تلك الفترة ولاءها التام للفرنسيين و زكت سلطتهم و سوغت مشاريعهم و روجت لمناقبهم بل و مزجت دماءها بدمائهم؟ هل هي عائلات غير قوية و غير فاعلة لذلك لم يقع ذكرها في الإحصاء الذي قدمه هذان الكاتبان؟ كل هذا الغموض في المعطيات يجعلنا لا نطمئن كثيرا إلى النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة في شقها المتعلق بهذه العائلات إجمالا و عائلة ابن جلاب تحديدا.

(1) Depont et Coppolani : les Confréries religieuses Musulmanes, Alger, 1897, pp 180, 181.

و أشارت دراسة حديثة * حول هذه العائلة إلى أن عائلة ابن جلاب استمرت في الحكم إلى بداية القرن العشرين، ذلك أن الفرنسيين منحوا الحكم إلى شيخها علي بن جلاب الذي ورثه عن والده الشيخ عبد الله بن جلاب. و لما كان علي بن جلاب غير قادر على مباشرة الحكم بنفسه بسبب صغر سنه، فقد منح الحكم إلى والدته التي تولت المشيخة نيابة عنه إلى أن كبر ليباشر مهامه بنفسه كحاكم على منطقة تماسين. و بعد وفاته ترك خمسة أبناء هم : الصغير، السايح، أحمد، منون و خدوج، و آل الحكم إثر ذلك إلى نجله أحمد الذي منحه الفرنسيون رتبة قايد، و استمر في هذا المنصب إلى غاية عام 1908م حيث اضطر إلى التخلي عنه بسبب فقدان بصره فعوضه المدعو عبد القادر الغريب عن هذه العائلة و الذي ينتمي إلى عائلة أخرى تعرف بعائلة أولاد الحاج السعيد. و كان لأحمد بن جلاب ابن يسمى حساني أسند له الفرنسيون منصب كاتب لدى عبد القادر. و أما السايح بن جلاب و الصغير بن جلاب و هما نجلا الشيخ علي بن جلاب، فلم تكن لهما وظائف إدارية، و حتى أحفادهما لم يمارسوا هذه الوظائف، و لم تكن لهم أيضا ميول نحوها لأنهم كانوا أصحاب ثروة و مال و كانت لهم عدة أراض و عقارات يعيشون على عائداتها، و لم يقتفوا أثر أجدادهم في الحكم و الوظيفة. و بهذه الطريقة أزيحت عائلة ابن جلاب من الحكم و طوي التاريخ صفحة مجدها بعد قرون من السيادة و الريادة و الحكم، لتحل محلها عائلة الحاج السعيد[1].

أما الأستاذ أبو القاسم سعد الله فيحدثنا عن القايد عبد القادر بن الحاج السعيد بشيء يختلف جزئيا عما ذكره صاحب الدراسة السابقة، بل و يتناقض معه حينما ينسب منبت و أصل القايد عبد القادر بن الحاج السعيد إلى عائلة ابن جلاب لا إلى عائلة الحاج السعيد، و هذا في دراسته التي أعدها حول الجزائريين الذين مارسوا وظيفة الترجمة في القارة الإفريقية خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية. و قد اعتمد في دراسته على الأخبار التي تركتها السائحة الإنجليزية السيدة « ديفروي » « Mrs.Devereux »

* تحدثت هذه الدراسة عن وضعية هذه العائلة خلال هذه الفترة بشكل مختصر. و يبدو أنه أمام شح المصادر التي تتكلم عنها، فقد حاول صاحبها استقاء أخبارها من أفواه العارفين بتاريخها فأجرى عدة مقابلات مع العديد من الأشخاص، و هي المقابلات التي أكدت له المعلومات المذكورة.

(1) معاد عمراني: المرجع السابق، ص 86.

أثناء الزيارة التي قادتها إلى مدينة تقرت في بداية القرن العشرين، حيث ذكرت أن عبد القادر بن الحاج السعيد هذا كان خريج إحدى المدارس الفرنسية الثلاث*. و يفترض أنه درس في مدرسة قسنطينة بحكم أنها كانت تفتح أبوابها لطلبتها الساكنين بالجهة الشرقية من البلاد. و قد زار مصر في أواخر القرن 19م رفقة إحدى البعثات الفرنسية، و تعرف على نظامها التعليمي و قارنه بالنظام التعليمي المطبق في الجزائر. و هذا يعني أنه أجرى مقارنة بين سياسة الانجليز التعليمية في مصر و نظيرتها الفرنسية في الجزائر و كان عبد ا لقادر معلما في مدرسة تقرت الفرنسية، ثم منحه الفرنسيون منصب قايدا لمدينة تماسين التي كانت مقر الزاوية التيجانية. و قد أعجبت هذه الزائرة الإنجليزية به أيما إعجاب، و قالت أن هندامه كان هنداما ملكيا، و كان يرتدي صدرية مطرزة بالذهب و ألبسة أخرى تليق بالوظيفة التي كان يمارسها. و قد استقبل الوفد الانجليزي الذي كانت ضمنه هذه السائحة و اتجه بأفراده إلى أعلى منارة في تماسين، من أجل رؤية المنطقة بكاملها رؤية واضحة و شاملة[1].

إن الشيء الذي يهمنا كثيرا في هذا السياق هو أصل القايد عبد القدر بن الحاج السعيد،

* في 1850/09/30م قررت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إنشاء ثلاث مدارس عربية إسلامية في المدية و تلمسان و قسنطينة، لتحتضن بعض الدراسات التقليدية الموجهة أساسا لتخريج موظفين جزائريين ترتكز عليهم الإدارة الفرنسية في تسيير و إدارة بعض شؤون الجزائريين كالأعوان القضائيين و وكلاء المحاكم الشرعية و رجال الإفتاء، و المترجمين و معلمي اللغة العربية، و الخوجات (كتاب البلديات المختلطة). و يتلقى الطالب الذي ينتسب إلى هذه المدرسة خلال مدة تكوينه دروسا في اللغة الفرنسية و التاريخ و الجغرافيا و القانون و النظم الإدارية و الحساب و المبادئ الأولية للهندسة و الطب و علوم الكون و الصحة العامة و اللغة العربية و الفقه الإسلامي و التوحيد. و عندما ينهي الطالب المرحلة الأولى من الدراسة المقدرة بأربع سنوات، يتحصل على الشهادة الابتدائية، و تسمح التراتيب المعمول بها داخل هذه المدارس للطلبة العشرة الأوائل من المدارس الثلاث بالالتحاق بالقسمين العاليين في مدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة ليتلقى تكوينا لمدة سنتين في الفقه و التفسير و اللغة العربية و آدابها و تاريخ التمدن الفرنسي، و مبادئ الحقوق الفرنسية والنظام الإداري الجزائري. و عندما يجتاز الطالب هذه المرحلة بنجاح تمنح له شهادة العلوم العليا. و عموما كان عدد طلبة هذه المدارس قليلا، و لم يكن يتجاوز 140 طالبا خلال السنوات الأولى من إنشائها. و خلال فترة الدراسة كان الطلبة يخضعون للنظام الداخلي و يتقاضون منحة دراسة شهرية تقدر بـ 250 فرنكا فرنسيا. و يشترط القانون في الطالب الراغب في الانتساب إلى هذه المدرسة أن يكون سنه يتراوح بين 15 و 20 سنة.
للمزيد من الاطلاع حول هذه المدارس ينظر:

- أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، نشر دار الكتاب البليدة (الجزائر) 1382هـ / 1932م، ص ص 280- 282.

[1] أبو القاسم سعد الله: « المترجمون الجزائريون و إفريقية » الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الاتصال و الثقافة، الجزائر، 1996، عدد 113 ، ص 66.

هل كان فعلا ينتمي إلى عائلة ابن جلاب أم أنه كان ينتمي إلى عائلة الحاج السعيد؟ و إذا كان ينتمي إلى العائلة الأولى فهذا يعني أن عائلة ابن جلاب استمرت في الحكم على الأقل حتى مطلع القرن العشرين، و أما إذا كان ينتمي إلى العائلة الثانية فهذا يعني أن هذه العائلة اضمحل دورها. لا نعلم إذن بالضبط ما هو أصل القايد عبد القادر، و الراجح أنه لا ينتمي إلى عائلة ابن جلاب لأن الفرنسيين انتهجوا سياسة تحطيم هذه العائلات باعتماد هذا الأسلوب الذي يصطلحون على تسميته بأسلوب دمقرطة حكمها. و كل ما في الأمر أن الفرنسيين أزاحوا هذه العائلة من الحكم و أحلوا محلها عائلة الحاج السعيد و جاءوا بالقايد عبد القادر وادعوا أن هذا الأخير ينتمي إلى عائلة ابن جلاب حتى لا يثيروا حفيظة سكان المنطقة الذين درجوا على الانصياع إلى الحكم الجلابي منذ أزمنة بعيدة لأنهم طبقوا هذا الأسلوب في حالات أخرى مماثلة. فقد ذكر الرحالة الالماني هاينريش فون مالتسان الذي زار هذه المنطقة و استقبله القايد علي باي بن فرحات بن السعيد الذوادي أن الفرنسيين عندما عينوا هذا الأخير قايدا على تقرت و أحوازها عام 1854م ادعى أنه من نسل بن جلاب حتى ينال الحظوة اللازمة من لدن سكان تقرت، و يحوز على تأييدهم و لا يظهر في مظهر المغتصب للسلطة و الإدارة[1]. و ربما كان الفرنسيون هم الذين أوحوا له بذلك.

ب- تدهور وضعية عائلة أولاد عز الدين:

رأينا فيما مضى أن الحاج بن عز الدين أحد وجهاء عائلة أولاد عز الدين كان قد راسل السلطات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر انطلاقا من تونس ملتمسا منها الموافقة على عودته إلى وطنه. و بعد تحفظات كثيرة، وافقت على طلبه، فدخل الجزائر، و استقر بمسقط رأسه.

بعد ذلك تدهورت أحواله الاجتماعية والمادية، و أصبح غير قادر على تلبية الحد الأدنى من احتياجاته و احتياجات عائلته خاصة في تلك الفترة العصيبة المتمثلة في سنين القحط و الجوائح التي ضربت الجزائر، فكتب رسالة إلى الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث يطلب فيها يد المساعدة. غير أن الحاكم العام الفرنسي بالجزائر الماريشال « ماكماهون » اطلع عليها و دون في ذيلها العبارة الآتية: « نرى من غير الملائم أخذ بعين الاعتبار ما طلبه صاحبها » [2]

---

[1] هاينريش فون مالتسان: ثلاثة سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الجزء الثالث، المصدر السابق، ص ص 152، 177.

[2] A.O.M : F80. 1861 : Dossier Benazzedine : Supplique de el-Hadj ben Azzedine, Le 20 juillet 1869.

و هذا يعني أن احتمال وصولها إلى مكتب الإمبراطور كان ضئيلا بسبب عدم موافقة الحاكم العام بالجزائر على طلبه، أو على الأقل فإن وصلت هذه الرسالة إلى يد الإمبراطور ، فإنه حتما يتأثر بملاحظة الحاكم العام، فيبدي رأيا ينسجم معها.

و في تلك الأثناء سمح للحاج بن عز الدين بالسفر إلى العاصمة الفرنسية باريس، و هناك كتب رسالة إلى الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث لا تختلف من حيث محتواها كثيرا عن الرسالة السابقة التي كتبها في الجزائر، و طلب مقابلته لكي يقدم له مساعدة مالية لأنه كان يعيش أوضاعا مالية متدهورة. و قد استعاد في هذه الرسالة ذكرياته مع الفرنسيين، و أخذ يمن عليهم بما قدمه لهم من خدمات فذكرهم بأنه ساعدهم على تحصيل الضرائب و أنه خدم القضية الفرنسية بإخلاص، و ترجم إرادة الإدارة الفرنسية على مستوى العرش الذي كان يتولى شؤونه كقايد لمدة ثماني سنوات كاملة و مما ذكره في هذه الرسالة: « ... سيدنا السلطان نبليون أمبرور (كذا) ... أنا خديمك الحاج بن عز الدين... خدمت السربيس (كذا) و الدولة السعيدة مدة ثمانية سنة (كذا) و سرت معها بالنية و القلب الصافي و عملت الخير مع العرش الذي كنت قايد عليه... خلفت رزقي عند ناس العرش... و صرت مثله و لا بقا (كذا) عندي شيء فبقيت أنا و جميع عيلتي (كذا) و أولادي في حالة الضيعة (كذا) ... و لما سمعت بسيدنا السلطان أنعم على جميع الناس قدمت لك طالبا من فضلك و جود إحسانك أن تنعم علي باكرام جودك و تفرحني بجود إحسانك بالشيء. سيدنا قدمت لك من بلادي قاصد حضرتك العالية و مستعينا بفضلك و كل من بلغ محلك رجع خارجا مسرورا من جود إحسانك... و ما قدمت لك إلا بقصد مقابلتك العظيمة... »[1].

توضح لنا الرسالتان المذكورتان الوضعية البائسة التي وصل إليها الحاج بن عز الدين، فبعد أن كان ثريا، نجده يتعرض لفاقة كبيرة، و تتدهور أحواله الاجتماعية و المادية، و هو حال كل عائلته التي شاركت في ثورة 1864م، بل أيضا هو حال كل العائلات الكبرى التي نسجت علاقات إستراتيجية مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية في بداية الاحتلال، ثم تخلت عنها و شرعت في عملية تحطيمها و تذويبها ضمن إستراتيجية محكمة و مدروسة.

[1] Ibid : Supplique de el-Hadj Ben azzedine, le 1er Aout 1869, n° 43.

ج- تدهور وضعية عائلة المقراني:

أما بالنسبة للمقرانيين، فبعد هجرتهم إلى البلاد التونسية، فقد تدهورت أحوالهم الاجتماعية كذلك هم الآخرون. و كان الأمير عبد القادر المقيم بسوريا يتتبع أخبارهم، فتدخل لصالحهم، حيث حرر عدة رسائل إلى رجال السلطة التونسية استوصاهم فيها خيرا بهم مثل الرسالة التي كتبها إلى الوزير رستم التي استوصاه فيها خيرا بمحمد بن بوزيد المقراني و سائر أفراد أسرته[1]، و كذلك الرسالة التي وجهها إلى الوزير خزندار، و التي التمس فيها منه توفير الرعاية لكل أفراد عائلة المقراني و أن يشملهم «... بلحظة تخلصهم من غوائل الدهر و تنقذهم من شرك الكدر و القهر... »[2].

و عندما وجد محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني نفسه في وضع مادي غير مريح كتب رسالة إلى الأمير عبد القادر طالبا منه تقديم يد المساعدة، فاستجاب لطلبه على التو خاصة و أنه نجل خليفته السابق عندما كان يخوض مقاومته ضد الفرنسيين، بل أكثر من ذلك أنه ساعده على السفر إلى دمشق و توسط له لدى السلطات العثمانية، فسافر إلى القسطنطينية، و استقبله السلطان عبد العزيز، و خصص له منحة بتوصية من الأمير عبد القادر، إلا أنها ألغيت بمجرد وفاة هذا الأخير عام 1883م مما دفع به إلى العودة إلى تونس. [3]

و بعد عودته إلى تونس اتصل الأمير الهاشمي نجل الأمير عبد القادر المستقر في الشام بالسلطات الاستعمارية الفرنسية بتونس، و استوصاهم كذلك خيرا به كما فعل والده سابقا مع السلطات التونسية ملتمسا منهم تقديم المساعدة له و لكل أفراد عائلة المقراني الذين استقروا بالبلاد التونسية و الوقوف إلى جانبهم بسبب الظروف الصعبة التي كانوا يمرون بها هناك و أنه «... يعول كثيرا و دون تحفظ على كرم فرنسا و ممثليها بتونس على حماية الفقراء و الأيتام... » [4].

---

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، صندوق 78، الملف 929: رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير التونسي رستم، وثيقة رقم 66.

[2] المصدر نفسه: رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير التونسي خزندار، بتاريخ غرة ربيع الثاني 1289هـ (الموافق لـ 08 جوان 1872م)، وثيقة رقم 65.

[3] A.N.T : Renseignements Recueillis sur le nommé Mohamed Ben Abdessalem el Mokrani et sur sa famille par le capitaine chef de service des renseignements, le 27 Mai 1888, n° 18

[4] A.N.T : série A carton 278, Dossier n° 06 : Lettre du Hachemi fils d'Abdelkader, le 28 Aout 1888, n° 27.

و يبدو أن السلطة الفرنسية بتونس لم تستجب على الفور لطلبه، لأن المقرانيين واصلوا مساعيهم الحثيثة للحصول على مساعدات مالية من قبل الفرنسيين، و هذا ما أكده محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني الذي تقدم بطلب إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية بعد ذلك، و الذي أكد فيه أنه يعيش رفقة أفراد أسرته الكثيرة العدد بمدينة تونس و تحت رقابة السلطات التونسية و الفرنسية في ظروف قاسية، و لا مصدر رزق و لا ثروة له ما عدا ما تكرم به المحسنون من صدقات و حسنات، لذلك طلب من الوزير الفرنسي التدخل لمساعدته على تجاوز هذه المحنة، معترفا له في الوقت نفسه أن عائلته ارتكبت خطأ جسيما حينما حملت السلاح ضد فرنسا عام 1871م، إلا أنها نالت جزاءها و عقوبتها خاصة بعد وفاة زعيم ثورتها الباشاغا محمد المقراني منذ نحو 18 سنة.[1]

و على إثر تلقيه هذا الطلب أمر وزير الشؤون الخارجية الفرنسية الوزير المقيم العام الفرنسي بتونس بتقديم مساعدة مالية إلى المعني وفقا للشروط و التراتيب الآتية:

- أن تكون قيمة هذه المساعدة ضئيلة.
- أن تكون هذه المساعدة محددة زمنيا تحديدا نافيا للجهالة.
- أن يقوم المعني بطلب تجديدها كلما انقضت آجالها، و ذلك تحت طائلة الإلغاء الكلي لها.
- تخضع مسألة تجديد هذه المساعدة إلى السلطة التقديرية إلى الجهة المانحة الوصية، و يتعين على هذه الأخيرة أن تباشر تحقيقا معمقا حول سيرته، التي يجب أن تكون حسنة، و أن لا يبدي المعني سلوكات عدوانية ضد المصالح الفرنسية.[2]

على إثر ذلك باشرت الإقامة العامة الفرنسية بتونس تحقيقا حول الوضع المادي لعائلة المقراني بتونس، و أكدت نتائجه أن أوضاعها الاجتماعية كانت متدهورة، و أن محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني ليس في مقدوره و ليس في نيته كذلك القيام بأعمال عدوانية ضد المصالح الفرنسية[3]. و هو ما أكده كذلك التحقيق الذي قام به محمد العصفور شيخ المدينة حول الحالة الاجتماعية لمحمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني و عائلته، بناء على طلب السلطات الفرنسية و أكد فيه «... أنه بحث عن المذكور و تبين أنه يسكن

(1) Ibid : Lettre de Mohamed Ben Ahmed ben Abdessalem el Mokrani de Tunis à Mr le Ministre des Affaires Étrangères à Paris, le 03 janvier 1890, n° 44.

(2) Ibid : Lettre du Ministre des Affaires Étrangères à Mr le délégué à la Résidence Générale de France à Tunis au sujet de la requête de Mohamed Ben Ahmed Ben Abdessalem El Mokrani, le 14 Janvier 1890, n° 45.

(3) Ibid : Lettre de la résidence Générale à Tunis à Mr le Ministre des Affaires étrangères à Paris, S.D, n° 46.

بالحجامين بباب الجزيرة، و له من العمر تقريبا 80 أعوام (كذا)، و هو فقير عاجز لا يتعاطى شيئا من الحرف و له أبناء ثلاثة و هم المذكورون بعده و الأخير منهم يخدم بوليس (كذا) من بوليسية الحاضرة، و هذا ما تحرر في شأنه... » [1].

لم يكن الفرنسيون على توافق كامل حول مسألة منح المساعدة الاجتماعية إلى عائلة المقراني من عدمها، فإذا كان وزير الخارجية قد أبدى مرونة في التعامل مع هذا الموضوع كما رأينا، فإن الحاكم العام الفرنسي بالجزائر كان يرفض ذلك رفضا قاطعا، حيث كلف المقيم العام الفرنسي بتونس بإعلام الشقيقين المقرانيين محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني و عبد الله بن أحمد بن عبد السلام المقراني بأن السلطات الفرنسية بالجزائر لا توافق على طلبهما المتعلق بالحصول على مساعدة مالية بسبب أوضاعهما الاجتماعية المتدهورة [2].

و في تلك الأثناء أخبر المقيم العام الفرنسي بتونس وزير الخارجية بأن عائلة المقراني المقيمة بتونس كانت تتلقى مساعدات هامة من أفراد عائلتها الذين بقوا بالجزائر. [3] هل فعلا كان المقرانيون المقيمون بالجزائر يرسلون مساعداتهم إلى أفراد عائلتهم بتونس؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك، و أن كل ما في الأمر أن المقيم العام الفرنسي بتونس كان يروم مغالطة وزيره حتى يبرر عدم احترام التعليمات التي كان يوجهها له لأن المقرانيين الذين بقوا في الجزائر كانت حالتهم متدهورة أيضا كما سنعرف.

و رغم ذلك واصل المقرانيون توجيه طلباتهم إلى المسؤولين الفرنسيين بتونس، قصد التدخل العاجل لمساعدتهم مثل الطلب الذي وجهه محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني إلى المقيم العام الفرنسي، و الذي شكا له فيه وضع عائلته المزري التي تتشكل من 17 فردا [4].

---

[1] المصدر نفسه: رسالة محمد العصفور شيخ المدينة إلى وزارة الدولة بشأن محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني و أبنائه: عبد المجيد، بوزيد، أحمد، هذا الأخير العامل بإدارة البوليسية بتونس، في 6 محرم 1308هـ، وثيقة 47، و هي مترجمة إلى اللغة الفرنسية. ينظر الملحق رقم 33.

[2] Ibid : Lettre du Gouverneur général de l'Algérie à Alger à Mr le Résident Général de France à Tunis au sujet d'une demande Formée par les frères Mohamed et Abdellah ben abdessalem, le 25 juillet 1891, n° 50.

[3] Ibid : Lettre du Résident Général à Tunis à Mr le Ministre des Affaires étrangères à Paris, S.D, n° 49.

[4] Ibid : Lettre de Mohamed ben Ahmed Ben abdessalem el Mokrani à Mr le Résident Général, le 11 Mai 1896 n° 51.

و أمام هذا الإلحاح استجابت مصالح المقيم العام بتونس استجابة مشوهة لطلبات المقرانيين، و خصصت منحة لكبيرهم محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني إلا أنها كانت هزيلة و لا تكفيه حتى لتوفير رغيف الخبز لأبنائه [1]

و في خضم ذلك إتخذت السلطات الاستعمارية الفرنسية بتونس قرارا يقضى بعدم قبول كل الطلبات المتعلقة بالمساعدات الاجتماعية التي يتقدم بها أفراد عائلة المقراني، و المقابل أمرت بتوجيهها مباشرة إلى مصالح الحكومة العامة بالجزائر باعتبارهم رعايا تابعين لها[2]. و تطبيقا لذلك، شرع المقرانيون في مراسلة مصالح الحكومة العامة بالجزائر ملتمسين المساعدة، فطلب الحاكم العام بالجزائر من نظيره المقيم العام بتونس تزويده بكل المعلومات المتعلقة بالوضع الاجتماعي لعائلة المقراني المقيمة بتونس و لاسيما كبيرها محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني لدراسة إمكانية مساعدتهم[3].

و في تلك الأثناء كان محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني قد فارق الحياة، ففكر نجله بوزيد في العودة إلى الجزائر لأنه لم يكن له مصدر رزق، و لم يتمكن من الحصول على عمل، فوجه طلبا إلى مصالح المقيم العام بتونس للسماح له بالعودة إلى مسقط رأسه بمدينة بوسعادة بالجزائر رفقة زوجته و إبنتيه [4]. و نفهم من الرسائل التي وجهها أحفاد عائلة المقراني إلى رجال السلطة الفرنسية بتونس خلال النصف الأول من القرن العشرين أن الوضع الاجتماعي لهذه العائلة لم يتغير نحو الأحسن، و أن معظمهم بقي يعيش حياة الإملاق. من ذلك مثلا الرسالة التي كتبها المدعو مختار بن عبد المجيد المقراني الذي قدم فيها نفسه على أنه أحد أحفاد وجهاء عائلة المقراني بناحية سطيف، و التي وجهها إلى الفرنسيين بتونس و حدثهم فيها عن تكفله بإخوانه و أخواته السبعة بعد وفاة والده، مؤكدا لهم أن حالتهم الاجتماعية ساءت بعد انخراط شقيقه في الفرقة الرابعة للرماة عام 1910م، و تسفيره

[1] Ibid : Lettre de Mohamed ben Ahmed ben Abdessalem el Mokrani à Mr le Ministre Resident Général de France à Tunis, le 25 Octobre 1899, n° 62.

[2] Ibid : Note de Mr René Millet Résident Général de la France au sujet de Mohamed Ben Ahmed ben Abdessalem el Mokrani, le 09 Novembre 1899, n° 64.

[3] Ibid : Lettre du Gouverneur général de L'Algérie à Alger à Mr le Résident général de France à Tunis au sujet du demande de secours formée par Mr Mohamed ben Ahmed ben abdessalem Mokrani demeurant Rue sidi ben Hassen n° 19, à Tunis, le 17 Octobre 1900, n° 70.

[4] Ibid : lettre de Mr le résident général de France à Tunis à Mr le ministre des affaires étrangères à Paris au sujet du demande de permis de voyage pour se rendre en Algérie par le nommé Bouzid Mokrani, le 10 Septembre 1901, n° 107.

إلى المغرب عام 1913م أي بعد فرض الحماية المزدوجة الفرنسية الإسبانية على هذا البلد بسنة، و أخيرا إرساله إلى الجبهة بفرنسا للمشاركة في الحرب العالمية الأولى 1914م –1918م إلى جانب الجيوش الفرنسية، لذلك ناشد السلطات الفرنسية أن تنعم عليه بمنصب عمل كقابض بجمعية الحابوس لاسيما و أنه يحوز على مؤهلات تؤهله لشغل هذا المنصب و على رأسها إتقانه للغة الفرنسية كتابة و نطقا.(1)

بهذا نستنتج أن الفرنسيين بتونس و الجزائر رفضوا الاستجابة لطلبات المساعدة التي كان يرفعها لهم المقرانيون، و إن استجابوا لهم أحيانا، فإن المنح المقدمة لهم كانت قيمتها هزيلة، لا تلبي الحد الأدنى من متطلباتهم. و بالمقابل فإننا نستنتج من رسائلهم أيضا و بالأساس الرسالة الأخيرة أنهم واجهوا غوائل الدهر بتكافلهم و تضامنهم. و لم تكن سمة التكافل و التضامن الاجتماعي حكرا عليهم دون سواهم، بل هي سمة كل العائلات الجزائرية في كل زمان و مكان و هي أيضا خاصية بشرية طبيعية لأنه من عادة الجماعات المهاجرة الالتفاف و التضامن حول بعضها البعض لمواجهة الصعوبات التي تعترضهم في بلد المهجر.

و إذا كانت حالة عائلة المقراني المهاجرة إلى البلاد التونسية على النحو الذي سقناه، فإن حالة أفرادها الذين بقوا بالجزائر، أو الذين تمكنوا من العودة إليها بعد رحلة النفي لا تختلف كثيرا عنها. ففي نهاية القرن 19م، فقدت هذه العائلة مجدها و مكانتها و أصبح المحظوظون منها يتاجرون في الدكاكين، شأنها في ذلك شأن حليفتها في الجهاد عائلة الحداد التي تدهورت حالتها الاجتماعية هي الأخرى بعد ما كانت ثروتها تقدر بـ 200.000 فرنك عام 1871م (2).

و أشارت بعض التقارير الفرنسية أن عددا كبيرا من أفراد عائلة المقراني كانوا يواجهون في تلك الأثناء الفاقة و الإملاق، و أنهم كانوا يعيشون على المساعدات التي كانت تقدمها لهم زاوية الهامل * الذائعة الصيت ببوسعادة (3).

(1) Ibid : Lettre de Mokhtar ben Abdelmadjid el Mokrani à Mr le Général commandant de la division d'occupation en Tunisie, le 5 janvier 1915, n° 129.

(2) Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome second, op.cit, p 819.

* كانت زاوية الهامل ببوسعادة و هي زاوية رحمانية على علاقة طيبة مع عائلة المقراني أيام ثورتها حيث استقبلت عددا كبيرا منهم بعد عام 1871، و قد احتموا بها و خصصت لهم جناحا كاملا أقاموا فيه، و لا زال هذا الجناح الواقع بالجهة الشمالية الغربية للزاوية يعرف بـ " حي المقارنة" إلى يومنا هذا.

حول ذلك ينظر: Youcef Nacib : op.cit, p 240

(1) A.N.T: Série A, carton 278, Dossier n° 6: Lettre du Résident Général à Tunis à Mr le ministre des affaires étrangères à Paris, le 22 septembre 1901, n° 109.

إن الوضعية الاجتماعية البائسة التي آلت إليها وضعية هذه العائلة بالجزائر تعبر عنها الرسالة التي بعث بها بومزراق المقراني عام 1873م – و هو شقيق الباشاغا محمد المقراني صاحب ثورة 1871م و الذي استخلفه في الجهاد بعد استشهاده– إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر، ملتمسا منه إطلاق سراحه، شاكيا له وضعه الاجتماعي المتأزم مؤكدا له أن : « ... الدولة هي التي أخذت مالنا و أرزاقنا و أملاكنا و تركتنا على بسط (كذا) الفقر... ترتبت بذمتنا الديون... »[1]. و ربما هذه الوضعية الاجتماعية الحرجة عبر عنها أيضا تقرير فرنسي يعود إلى عام 1890م، الذي أشار إلى أنه بعد انكسار ثورة المقراني عام 1871م توجه أبناء الباشاغا محمد المقراني و شقيقه بومزراق المقراني إلى زاوية الهامل ببوسعادة طالبين الرعاية و الحماية. و تعهد المرابط سيدي محمد بلقاسم تنشئتهم و رعايتهم. و قد ترك الباشاغا محمد المقراني إبنين أحدهما يبلغ من العمر 19 سنة و الثاني 20 سنة تابعا دراستهما بالزاوية، كما ترك بنتين إحداهما تزوجها المرابط سيدي محمد بلقاسم و هي الكبرى. أما الثانية، فقد تم تجهيزها للزواج من ابن عمها الونوغي بن بومزراق المقراني الذي عاش مدة وجيزة بزاوية الهامل، إلا أنه فضل مغادرتها و التوجه إلى الأبيار بالجزائر العاصمة بسبب خلاف وقع بينه و بين عائلة مرابط الزاوية حول البنت التي ارتبط بها. و قد غادر الونوغي بوسعادة عن عمر يناهز 32 سنة، و كان يعيش تحت حافة الفقر، حيث لم تكن له بهذه المدينة أملاك عقارية و لا منقولات، و لا حتى قطعان أغنام، و فضل « الانعتاق و التحرر » من وصاية و سلطة المرابط سيدي محمد بن بلقاسم.

و قد استقر بالأبيار رفقة زوجته، و لم يكن له مصدر رزق ما عدا ما كانت تجود به أيادي المحسنين و بالأساس أيادي الأصدقاء القدامى لعائلته. و رغم تعففه و رفضه العيش في كنف زاوية الهامل، إلا أن مرابطها سيدي محمد بلقاسم بقي على اتصال به، و كان يرسل له بعض المساعدات من حين لآخر.[2]

[1] A.O.M : 6H 37 : Lettre de Ahmed Boumezrag Ben El-hadj Ahmed el Mokrani au Gouverneur Général de L'Algérie, le 08 octobre 1873.

[2] A.O.M : 6H37 : Lettre du préfet d'Alger à Mr le Gouverneur Général de L'Algérie au sujet d'une demande de secours formée par le Ounnoughi ben Ahmed Boumerzag el Mokrani d'El Biar, le 29 septembre 1890.

و بعد استقراره بالجزائر العاصمة راسل الونوغي بن بومزراق المقراني الفرنسيين و على رأسهم حاكمهم العام طالبا منه تمكينه من مساعدة مالية تساعده على تجاوز وضعيته المالية و الاجتماعية الأليمة موضحا له بأنه عاطل على العمل، و مشرف على الهلاك، و لم يتمكن من تسديد بدل إيجار المنزل الذي استأجره، حيث أن الديون المترتبة على ذمته و التي يطالب بها مستأجره تقدر بـ 700 فرنك فرنسي، لذلك ناشد الحاكم العام الفرنسي بالتدخل لمساعدته، و إلا أن يصدر أمرا برميه في السجن حتى يتجنب العيش في الأزقة و الشوارع ! و حاول كذلك في هذه الرسالة أن يبرأ ذمته من نظرة الفرنسيين الحاقدة عليه و على عائلته، بحجة أنه كان صغير السن عندما حاربهم عمه الباشاغا محمد المقراني و والده بومرزاق المقراني عام 1871م و قال له في هذه الرسالة : « إني ولد صغير و صاحب عايلة (كذا) و ليست لي حرفة أقوم بها نفسي و أهلي و ضاق بي الأمر حتى شرفت على الهلاك أنا و أهلي و الآن سيدي أطلب من فضلك الكريم و إحسانك العمير أن تنظر إلي بعين الشفقة و الرحمة و لا يخفاك إن كان أبي أحمد ابي مزراق المقراني و عمي الحاج محمد باش آغة صدرت منهم هفوة و سوء أدب مع الدولة فقد جرت عليهم العقوبة من الدولة و أما أنا حين الفتنة صغير السن لي أربعة أعوام لا زايد (كذا) و لا يؤاخذ أحد بجرم أحد كما يقال في المثل الساير كل شاة معلقة برجلها و إن كان ظهر علي حق فهانا (كذا) بين يديك و أنه علي. نحو سبعماية فرنك دين من قبل كراء الدار و كسوتي و نفقتي أنا و أهلي و الآن المرجو من فضلك أن تنظرني بعين الرحمة و إن كان أمر آخر فاطلب منك أن ترميني في السجن أحسن من أضيع في الأزقة... » [1].

من المتصور أن السلطات الاستعمارية الفرنسية حاولت مساعدته، فعينته مدرسا في إحدى مدارس مدينة القليعة، ثم نقلته إلى مدرسة أخرى في مدينة الأصنام، و قد تدرج في الوظائف التربوية و الدينية إلى أن ترقى إلى منصب مفتي مدينة الأصنام. و كحال والده تحول إلى صديق للفرنسيين، فأرسلوه رفقة المسمى قطرانجي عبد الرحمان بن عمر إلى فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى 1914م–1918م لتقديم دروس في الوعظ و الإرشاد و الصلاة بالجنود الجزائريين في جبهة الحرب و حثهم على الوفاء و الإخلاص لفرنسا.

[1] Ibid : Lettre du Ounnoughi ben Boumezrag el Mokrani au gouverneur général de L'Algérie, S.D, (la lettre traduite en français datée le 21 juillet 1893). ينظر الملحق رقم 34.

و بعد عودتهما إلى الجزائر عكفا على تأليف كتاب صغير بعنوان « القول الناصح في مجادلة المائن الكاشح »، أشادا فيه بمناقب فرنسا. و بقي الونوغي صديقا وفيا للفرنسيين و يمارس وظيفة الإفتاء الرسمي بمدينة الأصنام إلى أن وافته المنية في مطلع خمسينات القرن العشرين ميلادي. و قد ترك عدة أبناء أحدهم إسمه بومزراق و كان يشتغل ضمن فرقة رياضية فرنسية. و عندما اندلعت الثورة التحريرية الكبرى في الجزائر عام 1954م فر إلى تونس و انخرط في صفوف الفريق الرياضي التابع لجبهة التحرير الوطني. [1]

يتضح لنا من خلال ما تقدم و خاصة المراسلات الكثيرة التي أرسلها أبناء و أحفاد عائلة المقراني المقيمين بتونس و الجزائر إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية بالبلدين و كذلك مراسلات أفراد عائلة ابن جلاب و أولاد عز الدين أن الوضعية الاجتماعية لهذه العائلات تقهقرت كثيرا بسبب السياسة الاستعمارية الخرقاء التي طبقت ضدهم، و نفهم أيضا من هذه المراسلات أن الفرنسيين لم تكن لهم النية الحسنة في مساعدة هذه العائلات على تجاوز محنتهم الاجتماعية إلا في القليل النادر، رغم محاولة البعض منهم استنكار و شجب ما قام به آباؤهم، و كذلك رغم انخراط العديد منهم في الوظائف الرسمية الفرنسية كالإدارة و العسكرية و السلك الديني الرسمي و نحو ذلك، حيث بقي الساسة الفرنسيون ثابتين على نهجهم المعادي لهذه العائلات، و نلمس ذلك في مختلف مراسلاتهم التي كانوا يذكرون فيها بعضهم البعض بـ « الماضي السيئ » لهذه العائلات.

2- تقهقر مكانة العائلات الكبرى

الواقع أن التدهور و التهميش الذي لحق بالعائلات الثائرة سواء في الجزائر أو المناطق التي نفوا و هجروا إليها لم يكن حكرا على هذه العائلات التي ندرسها فحسب، و إنما مس كل العائلات الكبرى عبر القطر الجزائري بما في ذلك العائلات التي بقيت وفية للإدارة الاستعمارية.

و لم يكن هذا التدهور وليد عام 1871م أي السنة التي اندلعت فيها ثورة المقراني، بل أن بدايته كانت سابقة لهذا التاريخ، حيث بدأت هذه العائلات تفقد مجدها منذ عهد حكم الإمبراطورية الثانية (1858م – 1870م)، و عندما حل عام 1870م انهارت قواها، و تخلى الفرنسيون عن

[1] يحي بوعزيز : « حول ملاحظات و انطباعات الشيخ سليمان بن داود بن يوسف عن ثورة 1871 » ، مجلة الأصالة، مجلة ثقافية شهرية، تصدر عن وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، عدد 47/46، سنة 1977، ص ص 110، 111.

خدماتها، و قاد المدنيون المنتشون بنصرهم في صراعهم المعلن ضد العسكريين سياسة تستهدف القضاء على نفوذ هذه العائلات[1].

و في عام 1871م اندلعت ثورة المقراني، و قام الفرنسيون بقمعها و قمع المقرانيون و فرقوا جموعهم، فكانت هذه السنة بمثابة نقطة النهاية لحكم هذه الفئة في الجزائر[2]، ذلك أن السياسة التي طبقتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية بعد هذه السنة كانت كلها تهدف إلى استئصال ما تبقى من نفوذ لهذه العائلات، حيث أن توسيع مناطق الحكم المدني المدعم للظاهرة الاستيطانية أدى إلى إلغاء القيادات الأهلية و ضمور حكم هذه العائلات عموما.[3] كما أدى بالموازاة مع ذلك إلى تجريد عدد غير قليل من الموظفين الأهليين الذين ينتمون إلى هذه العائلات و الذين يشغلون مناصب القياد من مداخيل مادية و كذلك من اعتبار معنوي. ففي خلال العقود الأولى للاحتلال كان القياد الذين ينحدرون من هذه العائلات يحوزون على سلطات واسعة على مستوى الدواوير التي يبسطون عليها حكمهم، غير أنهم تحولوا بعد عام 1871م إلى مجرد أشباح لا يسمع لأقوالهم و لا يعتد بآرائهم، و أطلقت عليهم الإدارة الاستعمارية الفرنسية إسم « الأعوان الأهليين » « les adjoints indigènes »، و جردتهم من صلاحياتهم الواسعة و ألحقتهم برؤساء البلديات الفرنسيين المنتخبين من قبل المستوطنين الذين تقاطروا على الجزائر في تلك الأثناء بشكل لافت للانتباه. و لم تكن لهؤلاء الأعوان الأهليين أجور ثابتة بل كانوا يتقاضون منحا أو مساعدات تقدمها لهم البلديات التابعين لها، و هذا يعني أن الفرنسيين كانوا يعتبرونهم عبئا ثقيلا عنهم. و رغم ذلك فإن هذا الوضع المتردي الذي آلت إليه وضعية هذه الفئة لم يستمر على هذه الوتيرة لمدة طويلة، بل أن الفرنسيين استمروا على نهجهم المعادي لهم فأعلنوا عن إلغاء وظيفة الأعوان الأهليين عام 1878م. و قد أدى هذا الإجراء إلى تراجع عددهم إلى 27 منصبا في مقاطعة الجزائر، و 17 منصبا في مقاطعة وهران، و 12 منصبا في مقاطعة قسنطينة، و بالمقابل ارتفع عدد البلديات الكاملة الصلاحيات إلى 18 بلدية عام 1879م بعدما كان 126 بلدية عام 1873م.

و كان القياد يعاملون في هذه البلديات معاملة سيئة و قبيحة، الأمر الذي جعلهم يشعرون بالحسرة و المرارة، فرفعوا شكاويهم و عرائضهم إلى المسؤولين الفرنسيين طالبوا من خلالها إنصافهم و النظر إليهم بعين الرأفة، و فضل البعض منهم الهجرة إلى البلاد الإسلامية[4]. و تبعا لذلك فقدت

[1] Mohamed Taguia : L'Algérie en Guerre, O.P.U. Alger, Algérie 1988, p 21.
[2] Mahfoud Smati : op.cit, p 81.
[3] Melica Ouennoughi : op.cit, pp 120, 121.
[4] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860– 1900، المرجع السابق ، ص ص 440، 441.

الجزائر العديد من أعيانها و نخبها السياسية و العسكرية و الثقافية و الاقتصادية طيلة القرن 19م، وكادت أن تفرغ من هذه الفئة الأمر الذي كانت له تداعيات سلبية على نسيجها الاجتماعي [1].

إن هذه الوضعية الجديدة التي آلت إليها حالة هذه الفئة هي التي دفعت بالحاكم العام الفرنسي الجنرال « شانزي » « Chanzy »* إلى أن يعطف على أحوالهم و يقول: «... ليس من الحكمة أن يتحول تقدم الاستيطان إلى عنصر إفلاس بالنسبة لمن أبيضت لحيته في خدمة قضيتنا... »، فتعالت بعض الأصوات " المتعاطفة" مع هذه الفئة أفضت إلى الموافقة على تخصيص شبه تقاعد أو منحة لمن حذفت قيادته و تم الاستغناء عن خدماته، أو أنزل إلى منزلة المسؤول البسيط الذي يتقاضى أجرا زهيدا أو لا يتقاضى أي أجر على مستوى الدوار الذي يحكمه. و لم ير هذا المقترح النور إلا بعد مرور ثلاث سنوات من النقاش و الإثراء (1879م– 1881م). [2]

و مما لا شك فيه أن زعماء هذه العائلات الكبرى كانوا قد عرفوا هبات من الغضب و رفضوا هذا الوضع الجديد الذي فرض عليهم، فراحوا يوجهون اللوم إلى الإدارة الفرنسية التي تخلت عنهم. و قد شعر أحدهم بما حل بهم، فأخذ يستعيد الذكريات و يمن على الفرنسيين بما قدمته لهم

[1] أبو القاسم سعد الله: « هجرة بعض الأعيان الجزائريين (1830 –1847م) »، أعمال الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830–1962، المنعقد يومي 30، 2006/03/31 بالجزائر، منشورات وزارة المجاهدين الجزائر، 2007، ص 29.

* كان الجنرال شانزي Chanzy عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية و أحد قدماء ضباط المكاتب العربية في الجزائر. عين حاكما عاما للجزائر و قائدا عاما لقواتها البرية و البحرية يوم 1873/06/10م. باشر مهامه بصورة فعلية يوم 1873/06/25م، و بقي في منصبه إلى غاية 1879/02/18م، و هذا بعد قضائه لفترة حكم وصلت إلى خمس سنوات و سبعة أشهر و 23 يوما. بعد ذلك حول إلى مهام ديبلوماسية حيث شغل منصب سفير فرنسا في روسيا. و كان الجنرال شانزي من أكبر المتحمسين إلى تطبيق النظام المدني في الجزائر لذلك عمل كل ما في وسعه من أجل توسيع المناطق المدنية و تشجيع الظاهرة الاستيطانية الأوروبية في الجزائر، حيث استطاع خلال فترة حكمه أن ينشأ 126 قرية استيطانية جديدة، سمحت بمضاعفة عدد المستوطنين في الجزائر، و توسيع مناطق الحكم المدني إلى 48650 كلم ^{2} ، و مضاعفة عدد البلديات الكاملة الصلاحيات إلى 176 بلدية عام 1879م بعدما كان عددها لا يتجاوز 96 بلدية عام 1869م.

حول هذا الحاكم العام ينظر:

- Charles-Robert Ageron : Histoire de L'Algérie Contemporaine, , op.cit, p 45

[2] Charles-Robert Ageron : les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919, Tome premier, op.cit, p 159.

هذه الفئة التي ينتمي إليها من خدمات كانوا في فترة معينة في أمس الحاجة إليها. و يتعلق الأمر بأحد شيوخ القبائل الذي كتب رسالة مجهولة التوقيع جاءت في شكل مرافعة أدلى بها ردا على خطاب لأحد نواب الجزائر عام 1872م ذكره فيها بفضل الرؤساء العرب على فرنسا، و تنكر الفرنسيين لهم و لمجهوداتهم الجبارة التي بذلوها في سبيل إنجاح المشروع الكولونيالي الفرنسي في الجزائر. و قد جاء في هذه الرسالة : « ... و بخصوص الرؤساء العرب، اسمحوا لي بأن أبدي بعض الملاحظات التي تندرج على كل حال ضمن سياق الأسئلة التي وجهتموها إلي... و هل عندما يصبح صديقا لا يمثل أية فائدة بالنسبة لكم، يحتم ذلك عليكم نسيان الخدمات التي قدمها إليكم و التخلي عنه؟ أو ليس اتفاقكم مع هؤلاء هو الذي أدى إلى خضوع القبائل التي كانت تتبعكم؟ ألم يشاركوا في الجهد الطويل الذي بذلتموه ضد عبد القادر أو لم ينظموا البلاد و يحكموها في الوقت الذي لم تكونوا أنتم أنفسكم قادرين على ذلك؟ أو لم يمت كثير منهم و هم يؤدون خدماتهم إليكم ؟ و إذا ما اقترفوا تجاوزات و مظالم ضد محكوميهم فإن خيامهم كانت مفتوحة دائما أمام ضيوف الله و المرتب الذي يتقاضونه منكم هل يمثل حتى العشر من المصاريف التي تفرضها عليهم كرم الضيافة و الصدقات ؟ ... » [1]

و في هذا المنوال يقول الضابط الفرنسي « رين » أن رؤساء هذه العائلات كانوا دائما يخاطبون الفرنسيين الذين تخلوا عن خدماتهم و يقولون لهم: «... إنكم تضحون بنا نحن الأجواد الذين آزرناكم و ساعدناكم على بسط نفوذكم و إحكام قبضتكم على الجزائر، بل و مازلنا نؤازركم و نقف إلى جانبكم رغم المحن. و لكن رغم كل هذه الجهود المبذولة و الدماء التي سالت منا في سبيل التمكين لكم، إلا أننا لم نعامل المعاملة التي تليق بمقامنا و كبريائنا لأنه لا يمكن لنا أن نترك لأبنائنا التقدير و الوقار الذي تركه لنا أبائنا... »[2].

(1) Lettre d’un chef de tribu à un membre de l’Assemblée Nationale : Réponses aux discours dans les seances du 22, 23 novembre 1872 par les députés d’Alger, Paris, France, 1872, p 16

- نقلا عن جمال قنان : المصدر السابق، ص ص 166، 167.

(2) Charles-Robert Ageron : op.cit, p 390, voir la marge.

إن هذه الشهادات تبين لنا درجة الأسى التي شعر بها هؤلاء "الأجواد" جراء السياسة الاستعمارية التي طبقت ضدهم، و تنكر الفرنسيين لهم و للجميل الذي قدموه لهم. و رغم ذلك كله فإننا نلمس أن هذه العائلات مازالت تشعر بالتزاماتها و واجباتها تجاه السكان الذين يقصدون بيوتهم وقت الحاجة و خلال الأزمات التي كانت كثيرة حينئذ، و هذا ما أشارت إليه رسالة شيخ القبيلة المذكور عندما أكد للنائب الفرنسي بأن خيامهم بقيت مفتوحة أمام السكان الذين اعتبرهم ضيوف الله.

و في عام 1878م استدعت السلطات الاستعمارية الفرنسية بعض أعيان الجزائر لحضور فعاليات معرض باريس الدولي، فانتهزوا فرصة وجودهم بالعاصمة الفرنسية باريس و قدموا عريضة مطلبية للحكومة الفرنسية تضمنت جملة من المطالب أهمها مطلب الالتفات إليهم و عدم نسيانهم خاصة و أن لهم عناصر مشتركة تربط بينهم ! و قد جاء في هذه الرسالة : «... المرجو حسن الالتفاتة نحو العرب، من رجال الدولة و أوتادها الذين ارتبطنا معهم زمنا طويلا بسلسلتين متينتين و هما: اختلاط الدماء في مواطن الحروب و تلك عقد ثابتة، و اختلاف الأيادي على الطعام و ذلك ما يكون بين الأقرباء و العشيرة، فنحن إذن كعيال واحد (و يقصد العائلة الواحدة) الحي منا مع الحي منكم و الأموات مع بعضنا، فمن الذي يعرف العظام المختلطة في مقابر القتلى بالمكسيك و إيطاليا و البروس وبر الجزائر إلا الله تعالى فالمأمول من السادة أن لا ينسونا في رفع المضرة عنا... » [1].

تبين لنا هذه العريضة أيضا أن هذه العائلات خدمت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بإخلاص و قدمت لها النفس و النفيس و ضرب بها الفرنسيون المقاومة الوطنية، و حكموا بها البلاد في مرحلة دقيقة هي بداية الاحتلال، ثم تخلصوا منهم و من أبنائهم بل و أحفادهم أيضا. و بالموازاة مع ذلك راحت هذه العائلات تبذل جهدها علها تحافظ على ما بقي لديها من صيت و جاه و اعتبار لأطول فترة ممكنة، فوجهوا العرائض و رسائل الاحتجاج إلى المسؤولين الفرنسيين علهم يعطفون عنهم و يتذكرون أن زعماء هذه العائلات كانوا قد خاطروا بأنفسهم في سبيل إنجاح المشروع الكولونيالي، و لكن رغم ذلك كانت كل هذه الاحتجاجات دون جدوى لأن الفرنسيين صموا آذانهم عنها بعدما حققوا هدفهم.

[1] أحمد ولد قادي: الرحلة القادية في مدح فرنسة و تبصير أهل البادية، الجزائر، 1878، نقلا عن جمال قنان: المصدر السابق، ص 172.

بقي إذن الفرنسيون متمسكون بنهجهم المعادي لهذه الفئة. و قد عبر عن هذه القناعة أحد نوابهم عام 1879م حينما وصفهم بالخونة، و أوصى ساسة بلاده بضرورة القضاء عليهم إن رغبوا في إرساء السيطرة الفرنسية على الجزائر. و تبنت الصحف الفرنسية النظرة نفسها حيث كتبت صحفية صدى وهران « L'Écho d'Oran » على سبيل المثال: «... إن الارستقراطية العربية التي يرغب بعض الفرنسيين الاحتفاظ بها تتناقض مع النظم السياسية و الإدارية المدنية لأنها تشكل دولة داخل دولة، و أن الساسة الفرنسيين سيرتكبون أخطاء جسيمة إذا سمحوا بتوارث قيادات هذه الفئة، لأن ذلك من شأنه أن يشجع الأهالي على القيام بالثورات و الانتفاضات... ». و تبنت صحيفة الأخبار « L'Akhbar » الاتجاه نفسه حينما ذكرت في إحدى مقالاتها الصادرة في 1885/06/26م: «... إن الفرنسيين يسيئون إلى سمعتهم حينما يولون الإجلال و التقدير لأفراد لا يستحقونه... ». و أمام تعاظم هذه الحملة الإعلامية تدخل أحد المسؤولين الفرنسيين الكبار، و كتب عدة مقالات نشرها في صحيفة الأخبار الصادرة في 22 و 1885/07/29م طمأن فيها الرأي العام الفرنسي بأن الفرنسيين لم يفكروا إطلاقا في إعادة بعث هذه الارستقراطية العربية لأن أمرها انتهى، و لم يحتفظ إلا بالبعض منها في بعض المناطق الجنوبية، و ذلك لضرورة المصلحة حيث الظروف الاقتصادية و الأوضاع الأمنية فرضت ذلك [1].

(1) Charles- Robert ageron : op.cit, pp 392, 393.

و في عام 1891م عين « جول كامبون » « Jules Combon »* حاكما عاما على الجزائر، و كان يعرف جيدا دواليب الإدارة الفرنسية في الجزائر. و كان أيضا على اطلاع واسع بأوضاع العائلات الكبرى لأنه كان موظفا إداريا خلال عقد السبعينات، ففكر في إقامة حفل ودعا إلى حضوره خمسة و عشرين نفر من هذه الفئة التي كان يقدر دخلها بأكثر من ستة آلاف فرنك فرنسي، إلا أنه لم يجد سوى ستة أفراد منهم فقط، الأمر الذي جعله يستغرب و يتساءل عن أسباب ضمور هذه الفئة و اختفائها من المجتمع الجزائري. فقيل له أن السبب يعود إلى دخول الجزائر في وضع اجتماعي جديد أدى إلى اختفائها !

* تقلد « جول كومبون » عدة مناصب إدارية في الجزائر خلال فترة السبعينات من القرن 19م. و قد تم اختياره من قبل الرئيس الفرنسي « جول فيري » « Jules Ferry » لشغل منصب الحاكم العام للجزائر(1891م—1897م) بسبب العلاقة القوية التي كانت تربط الرئيس الفرنسي بعائلته و خاصة شقيقه « بول كومبون » « Paul Combon » الذي كان أول رؤساء ديوانه. و قد خصص المؤرخ الفرنسي «ش.ر.أجيرون » « Ch.R. Ageron » فصلا كاملا من أطروحته الجامعية الموسومة «الجزائريون المسلمون و فرنسا 1871–1919 » للسياسة الأهلية لهذا الحاكم العام، حيث ذكر في ثنايا هذا الفصل أن جول كامبون كانت له تحفظات كثيرة على النظام المدني و سياسة الإدماج التي قال عنها بأنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحقق نجاحا في الجزائر، لأنها فكرة طوبوية بعيدة عن واقع المجتمع الجزائري و إذا حاول الفرنسيون تطبيقها، يكونون قد ظلموا المجتمع الجزائري ظلما مبينا لأن عاداته و تقاليده تتناقض مع هذه السياسة، و راح أبعد من ذلك حينما اعتبر قانون كريميو 1870م القاضي بمنح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر خطأ إستراتيجيا جسيما، و قال أنه من الواجب على فرنسا أن تضمن للأهالي الجزائريين نظاما إداريا عادلا، و نظاما قضائيا صارما يتسم بسرعة التنفيذ و قلة التكاليف المالية. و بسبب هذه الأفكار فقد أتهم من قبل خصومه السياسيين برغبته في العودة إلى النظام العسكري السيئ السمعة.

و كانت لـ « جول كومبون » سياسة واضحة في بلاد القبائل حيث عمل على فرنستها و إحياء العصبية القبلية بين صفوف سكانها، و كافح الربا و المضاربة التي كانت تمارس من قبل الكولون عن طريق الشركات العقارية التي أسسوها. و انتهج سياسة في مجال الغابات حيث أمر بالترخيص للسكان المجاورين للغابات باستغلال المراعي الموجودة داخلها. و قام بإحياء دواوير البلديات و أعاد الاعتبار لنظام الجماعة و حاول تطوير المصالح الإدارية الخاصة بتسيير شؤون الأهالي و القيام بإصلاحات سياسية لفائدة المسلمين. غير أنه فشل فشلا ذريعا في هذا الجانب، كما حاول أيضا أن يقف موقف « المحايد » من الشريعة المحمدية ! و ربط علاقات ودية مع الزوايا و الطرق الصوفية كالطيبية و الشيخية و القادرية. و من أعماله في المجال الديني أيضا أنه اجتهد في الحصول على فتوى من علماء مكة تبيح للمسلم الاستكانة و الركون إلى الاستسلام و الخضوع للكافر، و أن أرض الإسلام لا تكون بالضرورة دار حرب عندما يحتلها الكفار. و بالإضافة إلى ذلك قدم هذا الحاكم العام مساعدات رسمية لفائدة الأهالي الجزائريين شملت الأعمال الخيرية و المساعدات العمومية. غير أن سياسته هذه لقيت معارضة شديدة من لدن السياسيين بفرنسا، كما أن قراراته كانت غير شعبية في الجزائر حيث امتعض منها الكولون و عارضوها لاسيما في شقها المتعلق بتعليم الجزائريين.

- حول سياسة جول كامبون الأهلية في الجزائر ينظر: Ibid : pp 478-534.

فألقى خطابا أمام مجلس الشيوخ الفرنسي في 1894/06/18م قال فيه أن الفرنسيين فقدوا الفئة التي توسطوا بها لحكم الجزائر، و لم يبق منها سوى الهباء المنثور، و أكد أن مستشاريه قالوا له أن الحكم المدني الذي طبق في الجزائر بعد عام 1870م هو الذي حطم نفوذ هذه العائلات الكبرى [1].

و قال «كامبون » في مناسبة أخرى «... لم يبق من المجتمع الأهلي الجزائري سوى بعض الغبار من الرجال في مواجهة السلطة الفرنسية، لأن السلطة المدنية حطمت البنية التحتية للمجتمع الجزائري، فتدهورت وضعية العائلات الكبرى، و تحول رؤساؤها إلى مجرد أعوان أهليين... »[2]. و بهذا فإن « كامبون » حمل رجال السلطة الفرنسية من غلاة النظام المدني مسؤولية تدهور مكانة العائلات الكبرى. و الحقيقة أن رأيه هذا ينطوي على كثير من القصور، فإذا كان المدنيون يختلفون مع العسكريين حول بعض المسائل الثانوية التي تهم الجزائر، فإنهم متفقون معهم حول المسائل الجوهرية المتعلقة بالجزائر و التي تعد من ثوابت السياسة الفرنسية في الجزائر و من أهمها ضرورة التخلص من هذه العائلات التي حكموا بها البلاد في بداية الاحتلال.

و أمام هذا الوضع حاول « كومبون » دغدغة مشاعر هذه الفئة و رد الاعتبار لمن خدموا الإدارة الفرنسية بإخلاص حيث كرم القدماء منهم، فمنحهم عدة تشريفات و ألقاب شرفية كالبرنوس الأحمر و السيف المغمود و وسام الشرف، و وجه الدعوة إلى بعض قدماء الفرسان العرب لحضور الحفلات الاستعراضية التي أقيمت بالعاصمة الفرنسية باريس في تلك الأثناء و قال مقولته الشهيرة « أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، بل له اعتبار معنوي أيضا، فلا بد له من رموز اجتماعية و معنوية يعيش بها كذلك ». و حاول « كومبون » أيضا بعث جيل جديد ينتمي إلى هذه الفئة يتشكل من أحفاد هذه العائلات حيث أوصى بتخريج نخبة ملهمة منهم مشبعة بأفكار و مشاعر و ثقافة الأمة الفرنسية حتى تتولى مهمة رفع المشعل الذي حمله أجدادهم خلال العقود الأولى للاحتلال، حتى تكون الواسطة الجديدة بين الإدارة الفرنسية و المجتمع الجزائري، و عمل « كامبون » فعلا على تكوين هذه الفئة في المجال التعليمي. [3]

[1] أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد الخامس، المرجع السابق، ص ص 92- 96.

[2] Charles-Robert Ageron : « Naissance d’un peuple », op.cit, p 170.

[3] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome premier, op.cit, pp 519, 520.

بهذه الطريقة حاول الحاكم العام الفرنسي و المسؤولون الفرنسينن رد الاعتبار لهذه الفئة التي أخلصت في خدمتهم،

و الثابت أن هذه الإجراءات لا يمكن تصنيفها إلا في خانة ذر الرمال في عيون هذه الفئة، لأنه إذا كانت فعلا لهذا الحاكم العام و الفرنسيين حسن النية في رد الاعتبار لهم، فمن باب أولى رد الاعتبار إلى الجماهير الشعبية الثائرة في وجههم و الرافضة لهمجيتهم و التي اكتوت بنيرانهم و نيران هؤلاء الوسطاء الأهليين الذين تحالفوا معهم في بداية الاحتلال.

لقد كانت وضعية هذه الفئة تزداد سوء بصورة تدريجية، حيث أن معظمهم تردى في الفقر و البؤس والمسغبة و الإفلاس، و لجئوا إلى بيع ما ملكت أياديهم لمواجهة الأوضاع الاجتماعية الصعبة التي أصبحوا يعيشون فيها، فقد باعوا خيولهم المسومة التي كانت تمثل رمز ثرائهم و ارستقراطيتهم، و باعوا أيضا أراضيهم التي تمثل رمز تشبثهم بوطنهم و هويتهم و شرفهم أيضا، و بالمقابل سارعوا إلى اقتناء عدد أكبر من البغال، و لجئوا إلى الاقتراض الربوي، و جازفوا بتغير نشاطهم الاقتصادي، فتعقدت أوضاعهم المادية[1]. و رغم وضاعة الوظائف و المناصب التي أنعمت بها الإدارة الاستعمارية الفرنسية على هذه الارستقراطية العربية، و التضييق الذي مارسته ضدها، و نظرة الفرنسيين السيئة إلى شاغلي هذه الوظائف، إلا أننا نجد أن بعض الأعيان يتقاطرون عليها و يتنافسون من أجل الحصول عليها منذ العقود الأولى للاحتلال حتى نهاية الحقبة الكولونيالية برمتها، حيث قدر عدد القياد الذين ينتمون إلى هذه الفئة عشية الحرب العالمية الثانية عام 1939م بنحو مائة قايد على مستوى القطر الجزائري بكامله [2].

هكذا نرى أن الفرنسيين قضوا على هذه العائلات الكبرى التي كانت لها اليد العليا في إدارة شؤون سكان و قبائل الأرياف خلال العقود الأولى للاحتلال، و كانت ثورات بعضهم مسوغا قويا للإدارة الاستعمارية للتضييق عليهم، و التخلي نهائيا عن خدماتهم. فما أن أطلت نهاية القرن 19م حتى كادت هذه الفئة تختفي عن الساحة، و لم يبق منها إلا النزر اليسير أو "بعض غبار الرجال" على حد تعبير "جول كومبون " حاكم الفرنسيين في الجزائر في نهاية هذا القرن. و ربما نسى أحفاد هذه العائلات أن أجدادهم كانوا من نخبة المجتمع الدينية و الاجتماعية، إذ لم يبق لهم سوى الذكريات و الأساطير.

---

(1) Ibid : p 392.

(2) Augustin Berque : op.cit, p 25.

V- موقف العائلات المهادنة من السياسة القمعية الممارسة ضد العائلات الثائرة و تطور علاقتها بالإدارة الاستعمارية.

قبل أن نختم كلامنا عن موقف الإدارة الاستعمارية الفرنسية من العائلات الثائرة و انعكاسات ذلك عليها و على العائلات الكبرى إجمالا في الجزائر، نرى من الملائم تسليط الضوء و لو بصورة موجزة على علاقة العائلات المهادنة التي ندرسها بالفرنسيين خلال الفترة التي كانت فيها الإدارة الاستعمارية الفرنسية تباشر عمليات مصادرة ممتلكات العائلات الثائرة و توقع غرامات الحرب عليها، و تنفي و تبعد و تهجر وجهاؤها إلى الخارج، لأن ذلك سيساعدنا أكثر على فهم حقيقة السياسة الكولونيالية تجاه هذه العائلات. و عندما نتكلم عن العائلات المهادنة التي ندرسها، فإننا نعني عائلتي بوعكاز الذواودة و بن قانة باعتبارهما العائلتين الأكثر وفاء و إخلاصا للنهج الاستعماري منذ بداية الحقبة الكولونيالية.

و عموما يجوز القول أن العائلتين المذكورتين كانتا كعادتهما تمكنان للمستعمر خلال تلك الفترة، و تسوغان مشاريعه، و تخوضان الحروب إلى جانب جيوشه لقمع ثورات العائلات التي ثارت ضد سلطته مثل عائلة المقراني عام 1871م، و كانتا أيضا تساهمان في قمع كل الثورات الشعبية الأخرى، إلا أن الفرنسيين كانوا يكيدون لهما المكائد، و في ما يلي نوضح ذلك بأمثلة و شواهد .

1- المساهمة في القضاء على ثورة المقراني عام 1871م إلى جانب الجيوش الفرنسية.

عندما اندلعت ثورة المقراني عام 1871م، أعلنت عائلة ابن قانة إخلاصها التام للسلطات الاستعمارية الفرنسية و عرضت خدماتها على الفرنسيين لمساعدتهم على وأد هذه الثورة في مهدها، حيث كتب وجهاؤها رسالة إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني يوم 18 مارس 1871م أي خلال اليوم الرابع من عمر هذه الثورة، أكدوا له فيها بأنهم كانوا من الرعيل الأول الذي خدم الدولة الفرنسية منذ بداية الاحتلال عام 1837م « ... و لم نزل على العهد إلى وقتنا هذا و نلازمه بالنصح الخالص و النية الكاملة مادامت الدولة الفرانصوية ببر الجزائر و لو بقي من الفرنصوية (كذا) إلا واحد بيننا. و قد سمعنا بمحمد بن أحمد المقراني نافق عنها فإن فعل ذلك فما هو إلا مجنون لا عقل له فها نحن بارئون منه من يومئذ و نقاتله كما تقاتله الفرانصوية فإذا ثبت نفاق هذا المفسد فالمراد منك و كريم فضلك أن ترسل لنا نحن الثلاثمائة من العسكر يتكون مع ما في بسكرة من العسكر كي تكف (كذا) ألسنة الناس عن القول و القال. و نكون ضامنين في بسكرة بحيث أن يمسك من جانبها تشويش. و أعمل علينا

كما تعمل على إخوانك الفرانصوية ... ». و قد نشرت جريدة المبشر عبر صفحاتها نص هذه الرسالة. [1]

إن موقف عائلة ابن قانة من ثورة المقراني عام 1871م يترجم بحق حسب رأي مصطفى الأشراف موقف البرجوازية الريفية المتخاذلة التي أعمتها مصالحها الضيقة عن إدراك العدو الحقيقي الذي يتربص بها. و قد انتصرت لها كذلك برجوازية المدن الكبرى التي وقفت هي الأخرى إلى جانب الفرنسيين، و كان على رأس هذه الأخيرة برجوازية مدينة قسنطينة التي وجهت رسالة تأييد و مساندة للفرنسيين، قبحت فيها أعمال الباشاغا محمد ا لمقراني و الإخوان الرحمانيين[2]. و أورد « رين » ترجمة لهذه الرسالة التي وجهوها إلى نائب الأميرال « الكونت دو قيدون » في 29 أفريل 1871م، و كانت هذه الرسالة من توقيع علاوة بن الساسي، و حمودة بن الشيخ، و محمد بن باديس، و قاضي المدينة محمد بن عزوز، و قاضي الضاحية المكي بن باديس، و المفتي الحنفي سليمان بن ساردو، و المفتي المالكي الطيب وادفال، و النائب الثاني في المحكمة الابتدائية الأولى الحاج الصغير بن كوجيك. و قد اعتبروا فيها أنفسهم من أهل الحضر الرافضين لصنائع البدويين المحبين للتخريب و سفك الدماء و أكدوا فيها أنهم « من سكان المدن المستقرين المحبين للهدوء و السلم و الاطمئنان و الهناء و رغد العيش... و أن غايتهم في هذه الحياة هي تحقيق الكسب و الرزق، لذلك فإنهم يمارسون الحرف و التجارة و الفلاحة، و سائر أنواع الصنائع، و أنهم يحترمون السلطة و يحبون النظام، و أن أملهم هو العيش في هناء مع عائلاتهم... لذلك فإن العبرة التي يجب استخلاصها من كل هذه الأحداث هي أن هؤلاء البدو الأجلاف لن يتراجعوا عن التخريب و أعمال الشغب، و سائر العادات المشينة إلا إذا بطشت بهم السلطات بطشا شديدا، و سلطت ضدهم عقابا قاسيا ».[3]

---

[1] جريدة المبشر عدد 745 بتاريخ 6 أبريل 1871م نقلا عن : يحي بوعزيز: مواقف العائلات الارستقراطية من الباشاغا محمد المقراني و ثورته عام 1871م، م.و.ك، الجزائر، 1994، ص ص 22، 23.

[2] Mostefa Lacheraf : op.cit, pp 60, 61.

[3] L.Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, op.cit, pp 214, 215.

إن موقف حضر مدينة قسنطينة من ثورة المقراني عام 1871م لا يعنينا في هذه الدراسة. و رغم ذلك فضلنا الإشارة إليه في معرض الكلام عن موقف عائلة ابن قانة من هذه الثورة لأن موقفهم كان متطابقا مع موقفها، و لكي نعرف أيضا أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية صنعت هؤلاء الرجال صنعا في الأرياف و المدن و جعلت منهم عبيدا طائعين و عملاء خاضعين يسوغون المشروع الكولونيالي و يحاربون من يقف ضده، و يتحدثون عن الهناء و السعادة و رغد العيش و احترام النظام و السلطة، في الوقت الذي كان فيه السواد الأعظم من الشعب الجزائري في تلك الفترة يلاقي جور الفرنسيين و تعديهم بأنواع المظالم، و ينالهم من الخطب و ضروب الهوان ما لم يوصف.

لقد كان موقف عائلة بوعكاز الذواودة من ثورة المقراني متناسقا مع موقف عائلة ابن قانة، حيث استجاب زعيمها القايد علي باي للأمر الذي وجهه له قائد الحامية الفرنسية لبسكرة حينما طلب منه تجنيد المحاربين في الصف الفرنسي و مغادرة ورقلة و تقرت و التوجه دون إبطاء إلى منطقة بسكرة لحماية مداخلها من أي هجوم مفاجئ قد يشنه الثوار المقرانيون و أنصارهم على المنطقة. [1]

و في تلك الأثناء كتب علي باي رسالة إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني الجنرال « دي لاكروا » أكد له فيها على إخلاصه و وفائه للفرنسيين، و تنفيذ كل ما يأمر به من السلطة الفرنسية لملاحقة الثائرين و خاصة المقرانيين، حيث ذكر له : « ... و نحن أمرنا السيد الكماندة بالنزول ببسكرة، ترانا نزلنا بها امتثالا لأمره و أمرنا ببعث مایة و خمسين فارسا من قومنا لتعارض بن بوداود في الثنايا بناحية سيدي خالد... »[2]. إن بن بوداود الذي تكلم عنه علي باي في هذه الرسالة هو السعيد بن بوداود المقراني الذي شغل منصب قايد منطقة الحضنة قبل اندلاع الثورة، و ذكر الكونت « دي مارغان » أنه كان ضمن قافلة المقرانيين الذين انضموا إلى الثائر بوشوشة، و الذين التحموا مع الفرنسيين في معركة حامية أفضت إلى إلقاء القبض على شخصين من هذه القافلة و هما عبد العزيز بن محمد قاضي وادي الساحل القبلي، و محمد بن حمودة قاضي مجانة، في حين

---

(1) L.Rinn : « Nos Frontières Sahariennes : I-Nos Ennemis Sahariens », op.cit, pp 176, 177.

(2) A.O.M : 2h57 : Lettre de Si Ali Bey Ben Ferhat Kaid de Tougourt à Mr le Général commandant de la province de constantine, le 18 Octobre 1871.

تمكن القايد السابق السعيد بن بوداود المقراني من الإفلات من قبضة الفرنسيين بعدما استولوا على جزء هام من أمواله و أغنامه[1]. و لم يقتصر دور عائلتي بوعكاز الذواودة و بن قانة في تلك الأثناء على المساهمة إلى جانب الفرنسيين في القضاء على ثورة المقراني فحسب، بل واصلا تمكينهما للمستعمر في مختلف المجالات.

2- مواصلة التمكين للمستعمر

بعد القضاء على ثورة المقراني عام 1871م، واصلت كل من عائلة بوعكاز الذواودة و عائلة ابن قانة تقديم خدماتهما للفرنسيين الذين أعادوا تنظيم صحراء قسنطينة. و في هذا المنظور استحدثت قيادة جديدة في باتنة و أسند حكمها إلى عائلة بوعكاز الذواودة، فعين زعيمها علي باي قايدا عليها يوم 02 فيفري 1872م [2]، و استمر على رأس هذه القيادة إلى غاية عام 1874م، تاريخ استقالته من منصبه [3] ثم عاش متنقلا بين مدينتي قسنطينة و الجزائر إلى أن توفي يوم 23 جوان 1882م، بإحدى الضيعات التي كان يملكها بضواحي مدينة قسنطينة[4]. و قد عبدت وفاته الطريق أمام ضعف هذه العائلة فتراجع دورها بشكل لافت للانتباه. فما أن أطل عام 1900م حتى فقدت مجدها و نفوذها السياسي، و تحدثت تقارير ضباط الشؤون الأهلية عن فقدان هذه العائلة لكل نفوذها في الجنوب الكبير [5].

[1] Le Comte de Margon : op.cit, pp 66, 67.
[2] L.Rinn : Histoire de l’insurrection de 1871 en Algérie, op.cit, p 657.
[3] Charles-Robert Ageron : op.cit, p 643.
[4] L.ch. Féraud : « Les Ben-djellab sultants de Tougourt. Notes Historiques sur la province de Constantine », in R.A, n° 31, Année 1887, p 33.
[5] Charles-Robert Ageron : op.cit, p 643.

و في مطلع عام 1874م توجهت قوة عسكرية فرنسية كبرى إلى منطقتي سوف و تقرت للتحقيق في قضية مقتل العربي المملوك * و كعادتها سارعت عائلة ابن قانة إلى تدعيم هذه القوة بكل ما تحتاج حيث تقدم زعيمها بولخراص بن قانة إلى استقبالها، و زودها بخمسين فرسا و مائة فارس و أسلحة و مؤونة محمولة على ظهور الجمال. و كان بولخراص بن قانة يريد مرافقة هذه القوة إلى سوف، غير أن الفرنسيين منعوه من ذلك إثر وصولهم إلى تقرت حتى يتلافون مسألة الصفوف في سوف رغم أنهم كانوا ينظرون لها و يعملون على تطبيقها بكل ما أوتوا من قوة، غير أنهم رأوا عن غير الملائم إثارتها في تلك الفترة خدمة للمشروع الكولونيالي في المنطقة [3].

و قد واصلت عائلة ابن قانة تدعيمها للمشروع الفرنسي، بمختلف الصيغ و الأشكال، ففي ليلة 11 جوان 1880م، تعرضت إحدى المراكز الفرنسية بدائرة بسكرة إلى هجوم مسلح عنيف من قبل سكان المنطقة. و على إثر ذلك سارع قايد الزيبان محمد بن قانة إلى إخطار السلطات العسكرية الفرنسية لاتخاذ الاجراءات اللازمة [4].

و كان الفرنسيون يقدرون جيدا هذه الخدمات التي كانت تقدمها لهم عائلة ابن قانة، لذلك لم يبخل حاكمهم العام « جول كومبون » الذي اشتهر بـ « عطفه » على طائفة الأجواد من دعوة

* ينحدر العربي المملوك من أصول إيطالية، اعتنق الاسلام و أتقن اللغة العربية، و كان من أعوان الفرنسيين النشطاء، حيث باشر مهاما عسكرية حساسة، و ترقى إلى رتبة ضابط في فرقة الصبايحية، عينه الفرنسيون على رأس قيادة وادي سوف بعد عام 1871م، و ذلك في إطار التضييق على نفوذ عائلتي ابن قانة و بوعكاز الذواودة بالمنطقة. و لم تكن له سياسة لينة تجاه سكان المنطقة، بل كان عنيفا فظا معهم و يعاملهم بالقوة و الغطرسة، و سار في الناس سيرة غير حميدة، و بسط لسانه يسب الرفيع و الوضيع. و في خريف عام 1873م سافر إلى مدينة قسنطينة صحبة نجله قدور بهدف تسجيله في إحدى مدارسها. و أثناء سفره اعترضت سبيله جماعة من سكان سوف في الطريق الرابط بين سوف و بسكرة، فقاموا بقتله بينما كان مستسلما إلى النوم في الهواء الطلق، أما ابنه قدور فلم يصب بأذى. و قد تولته إحدى العائلات الفرنسية بالتربية و التنشئة، حيث تابع تعليمه الثانوي في إحدى المدارس الثانوية بالجزائر العاصمة، ثم انتسب إلى سلك الترجمة العسكرية عام 1883م.

حول هذه الشخصية ينظر:

- أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد الخامس، المرجع السابق، ص ص 70، 71.

[3] أبو القاسم سعد ا لله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 293.

[4] A.O.M : 11H32 : Lettre du Général de division de Constantine au Gouverneur Général à Alger au sujet d'une attaque par un Djich dans le défilé de Sahou, le 17 juin 1880.

آغا الزيبان محمد بن قانة رفقة عدة أعيان آخرين لحضور حفل استعراضي بباريس أقيم على شرف قيصر روسيا الإسكندر الثالث عام 1896م.[1]

و في عام 1898م احتجت عائلة ابن قانة على طريقة صرف الضرائب و توزيع المشاريع الكبرى في مناطق الحكم العسكري حيث ذكرت في عريضة احتجاجية لها أن مناطق الحكم العسكري قامت بضخ مبلغ مالي معتبر يقدر بـ 1.290.398 فرنك فرنسي في ميزانية المقاطعات الثلاثة إلا أنها لم تتحصل مقابل ذلك على أي مشروع تنموي. [2]

و يبدو أن تدخل عائلة ابن قانة في المسائل المالية مرده قوة نفوذها المالي، حيث حافظت على ثرائها و ذلك عكس العائلات الكبرى الأخرى التي أفقرتها السياسة الفرنسية، فقد كان زعيمها سي محمد بوعزيز بن قانة أغنى قائد أهلي بالجنوب القسنطيني عام 1901م. [3] و قد استغل ثراءه هذا لكسب النفوذ و توسيع شعبية عائلته خدمة للمشروع الفرنسي، حيث قام ببناء مسجد وسط مدينة بسكرة، و دعا المشرفين على بناء مدرسة الإخاء بإجراء حفلها الافتتاحي عام 1931م بداخله، و تبرع لميزانية هذه المدرسة بمبلغ مالي معتبر قدر بـ 1000 فرنك فرنسي[4]. لقد كانت عائلة ابن قانة حقا أغنى عائلة جزائرية بالجنوب القسنطيني، لكن ثراؤها لم يكن له معنى لأنه كان على حساب تعاسة السكان الخاضعين لقيادتها.

و في بداية القرن العشرين عرف الجزائريون أسلوبا جديدا للمقاومة هو أسلوب المقاومة السياسية الذي تبنته الأحزاب السياسية. و تزعم النضال السياسي و تمثيل المسلمين في البرلمان الفرنسي الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر [5] الذي تم انتخابه نائبا ماليا، ثم مستشارا عاما في انتخابات عام 1920م ضد مرشحي الإدارة الفرنسية[6].و قد اعترض الأمير خالد على إعادة بعث

[1] أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص ص 166، 167.

[2] Charles-Robert Ageron : op.cit, p 733

[3] Ibid, p 821.

[4] سليمان الصيد : مدرسة الإخاء في بسكرة عام 1931م و دورها في نشر الثقافة العربية و الاسلامية في منطقة الزيبان و غيرها، بسكرة، الجزائر، 2003، ص 12.

[5] حسينة حماميد: المستوطنون الأوروبيون و الثورة الجزائرية 1954–1962، منشورات الحبر، الجزائر، 2007، ص 33.

[6] بسام العسلي: الأمير خالد الهاشمي الجزائري، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1984، ص 118.

السلطات التأديبية للموظفين الإداريين، غير أن الإدارة الفرنسية حاربت مسعاه بالاعتماد على بعض أصدقائها من العائلات الكبرى و بالأساس عائلة ابن قانة الذين حرروا عريضة نشروها عبر صحيفة « صدى الجزائر » « L'Écho d'Alger » بينوا فيها موقفهم المساند للإدارة الفرنسية و المعارض لأفكار الأمير خالد،[1] و الحقيقة أن موقف هذه العائلات كان موقفا منتظرا لا يتصور وقوع عكسه، فالإدارة الاستعمارية الفرنسية كانت تعول كثيرا على نفوذ هذه العائلات في التصدي لمثل هذه المبادرات التي تخدم المجتمع الأهلي عبر القنوات النيابية، و قد مالت إلى هذه الأساليب بشكل مركزي خاصة خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918)و الفترة التي أعقبتها. [2]

و في عام 1930م احتفلت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر، و أقامت احتفالات شنيعة استفزت مشاعر الجزائريين الذين قاطعوها بقوة[3]. و ذكر فرحات عباس أن عائلة ابن قانة شاركت فيها، فأغدق عليها الفرنسيون بالنياشين و الأوسمة، و جددوا لها لقب شيخ العرب القديم[4]، و وقفوا إلى جانبها في انتخابات عام 1935م كما وقفوا إلى جانب عائلة دبابش الموالية هي الأخرى للإدارة الفرنسية، و هذا من أجل قطع الطريق أمام سعدان ممثل كتلة النواب الجزائريين الذي عمل على كسب وحشد الرأي العام الأهلي إلى صفه [5].

و في عام 1937م شكل بعض الزعماء الأهليين و على رأسهم شيخ العرب بوعزيز بن قانة إلى جانب الباشاغا سماتي، و سي الهاشمي، و القاضيين بن ساسي و بن حبيلس «رابطة أصدقاء فرنسا» و عرفت هذه الرابطة أيضا باسم « الميعاد الخيري »، و قام أعضاؤها بزيارة إلى العاصمة الفرنسية باريس، و زاروا بعض المؤسسات الجمهورية الفرنسية الحيوية كرئاسة الجمهورية الفرنسية، و

---

(1) Mahfoud kaddache : op.cit, pp 87, 88.

(2) Charles-Robert Ageron : « le Premier vote de L'Algérie Musulmane », in Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb, société historique Algérienne, n° 8, Année 1970, pp 99-109.

(3) أنيسة بركات: « الحركات السياسية خلال عام 1936 في الجزائر » مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، عدد 1980، ص 49.

(4) Ferhat Abbas : La nuit Coloniale : Guerre et Revolution d'Algérie, Editions ANEP, Alger, Algérie, 2005, pp 96, 97.

(5) كريمة بن حسين: الحياة السياسية في قسنطينة من 1930 إلى 1945، دبلوم الدراسات المعمقة، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1992، ص 79.

مجلس الشيوخ الفرنسي، و المجلس البلدي لبلدية باريس، كما زاروا مسجد باريس، و المسرح، و أدوا زيارة مجاملة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية. و كانت هذه الزيارة مناسبة هامة لشيخ العرب بوعزيز بن قانة و الوفد المرافق له لكي يذكر الرسميين الفرنسيين بالارتباط العضوي و الحتمي للشعب الجزائري بفرنسا باعتبارها وطنهم الأم![1]

و في عام 1941م احتفلت السلطات الاستعمارية الفرنسية بالذكرى المئوية لإنشاء فرقة الصبايحية، و وجهت الدعوات لأعوانها و أصدقائها من زعماء العائلات الكبرى، فحضر شيخ العرب بوعزيز بن قانة هذا الحفل إلى جانب الهاشمي بن شنوف باشاغا خنشلة، و عبرا عن سعادتهما بالمشاركة في هذا الحفل.[2] و الثابت أن حضور الرؤساء الأهليين و خاصة شيخ العرب بوعزيز بن قانة في هذا الحفل له دلالة كبيرة بالنسبة للفرنسيين لأن مشاركتهم فيه تعني أنهم على توافق تام مع الإدارة الاستعمارية التي أنشأت هذه الفرقة العسكرية السيئة السمعة في أوساط الجزائريين.

و ذكر تقرير سري فرنسي حول الجماعات الدينية في الجزائر عام 1941م أن «... عائلة ابن قانة عملت بمساعدة السلطة الفرنسية على إنشاء مركز فرنسي جزائري أقيمت فيه مدرسة « Une Medersa » و زاوية بهدف استقطاب أكبر عدد ممكن من الرأي العام المحلي حتى يتشبع بالأفكار الاشتراكية و الأفكار الدينية العصرية المتفتحة، و ذلك تحت إشراف المؤسسات الرسمية الفرنسية... »[3] و غني عن البيان أن الأفكار العصرية المتفتحة المعنية في هذا المجال هي الأفكار الداعية إلى الاستكانة و القبول بالوضع الاستعماري القائم الذي تزكيه عائلة ابن قانة و سائر الزعامات الأهلية التي ربطت مصيرها بمصير فرنسا.

و تجدر الإشارة إلى أن عائلة ابن قانة بقيت ثابتة على موقفها المؤيد للإدارة الاستعمارية الفرنسية خلال الحقبة الكولونيالية من بدايتها إلى نهايتها، فعندما اندلعت الثورة التحريرية الكبرى في

---

(1) Mahfoud kaddache : Histoire du Nationalisme Algérien, Tome2, op.cit, p 573.

(2) Les Troupes Indigènes de L'Algérie au service de la France, imprimerie Minerva, Alger, 1941, p 3.

(3) Gouvernement Général d'Algérie : Secret, Service des liaisons Nord-Africaines : Les Confréries Religieuses en Algérie, 1951. P 63.

الفاتح من نوفمبر عام 1954م عارضتها بقوة و وقفت موقفا مواليا لفرنسا و معاديا لها [1].

و الواقع أن دور هذه العائلة لم يقتصر فقط على التمكين العسكري للفرنسيين في المناطق الخاضعة لحكمها، بل تعداه أيضا إلى جوانب أخرى مثل استقبال الوفود الأجنبية و التعريف بالمنطقة و تسهيل الرحلات الاستكشافية أمام المستكشفين و الزوار، فقد ذكرت السيدة « دي باركي » « C.du Parquet » التي زارت منطقة بسكرة عام 1879م أن القايد سي محمد الصغير بن قانة استقبلها استقبالا حارا رفقة مجموعة كبيرة من فرسانه و تمنى لها زيارة سعيدة[2]. و في 15 نوفمبر 1926 استقبل بوعزيز بن قانة آغا الزيبان وفدا فرنسيا انطلق من قسنطينة مارا ببسكرة للقيام برحلة استكشافية قادته إلى النيجر[3].

يتضح لنا من خلال ما تقدم أن هاتين العائلتين و بالأساس عائلة ابن قانة كانتا مخلصتين للإدارة الاستعمارية في كل الظروف و الأحوال. فهل هذا الإخلاص قابله تقدير من جانب الإدارة الاستعمارية ؟ و هل هذه الخدمات قللت من نظرة احتقار الفرنسيين لهما و جعلتهم يتخلون عن نهجهم المعادي لهما و يتعاملون معهما بحسن نية ؟ أم أن تلك الخدمات لم تشفع لهما و أن الفرنسيين بقوا مصممين على نهجهم المعادي لهما و يتعاملون معهما بسوء نية ؟.

3- إصرار الإدارة الاستعمارية على نهجها المعادي للعائلات المهادنة

إن المتتبع للأمثلة التي سقناها حول دور عائلتي بوعكاز الذواودة و بن قانة في التمكين للمستعمر الفرنسي خلال الفترة التي كان فيها الفرنسيون يصادرون ممتلكات العائلات الثائرة و يوقعون غرامات الحرب عليها، و ينفون و يبعدون زعماءها إلى الخارج يمكن أن يذهب إلى الاعتقاد بأن الفرنسيين كانوا على توافق تام مع هاتين العائلتين، و أن علاقتهم بهما كانت ودية، غير أن الحقيقة ليست كذلك، حيث كانوا يدبرون ضدهما المكائد من حين لآخر، و يشجعون سياسة الصفوف بينهما لكي يبثون العداوة و التفرقة بينهما، و كانوا أيضا يضايقونهما و سنسوق أمثلة حول ذلك.

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 125.

[2] Mme C.du Parquet : op.cit, p 244.

[3] Eugène Vallet : De Constantine au Niger par le Sahara, Étude sur la Colonisation et la mise en valeur de nos possessions de L'Afrique Occidentale, Novembre, Décembre 1926, Editeur Braham, Constantine, 1926, p 12.

ففي عام 1872م اتهم علي باي بن فرحات بن السعيد الذوادي بالتقصير في أداء المهام عندما عجز عن الدفاع عن مدينة تقرت حينما هاجمها الثائر بوشوشة. و تبعا لذلك سلخت منه قيادته الأصلية، و عينوه على رأس قيادة جديدة في باتنة يوم 02 فيفري 1872م [1]، و ذلك رغم المجهدات الكبيرة التي قام بها هذا القائد الأهلي للجم نشاط هذا الثائر في المنطقة كما عرفنا.

و في عام 1876م انتفض سكان واحة العمري الواقعة بالغرب من مدينة بسكرة، و تزعم هذه الثورة الشيخ محمد يحي بن محمد الذي ينتمي إلى جماعة البوازيد، [2] فقام الفرنسيون بإجهاض هذه الثورة بسرعة فائقة، و انتقموا من الثوار انتقاما قاسيا، حيث فرضوا على البوازيد وحدهم غرامة حربية قدرها 150.000 فرنك فرنسي أي ما يعادل ثماني مرات الضريبة السنوية التي كانوا يدفعوها إلى مصالح الضرائب الفرنسية، ثم فرضوا عليهم ضريبة ثانية قدرها 45.000 فرنك فرنسي بسبب رفضهم تسليم كل بنادقهم المقدرة بـ 1122 بندقية، و صادروا كل ممتلكاتهم العقارية، و فرقوا جموع الفروع الأربعة لهذه القبيلة، حيث هاجرت إحداها إلى التل الوهراني، و نفي 91 نفر منهم إلى كورسيكا، و أعدم رأس هذه الثورة المدعو بن عيش. و بعد نهاية هذه الثورة قال الفرنسيون أن عائلة ابن قانة وجهت أصابع الاتهام إلى علي باي الذوادي بتدبير هذه الثورة حتى يلحق الإساءة و الأذى بسمعتها، و يظهر عجزها في الحكم و عدم مقدرتها على التحكم في الأوضاع لأن زعيم هذه الثورة محمد بن يحي الذي كان كاتبا عند بولخراص بن قانة كان أداة طيعة في يد علي باي بن فرحات بن السعيد الذوادي. أما الحاكم العام الفرنسي، فقد أتهم صراحة عائلة ابن قانة بالتورط في هذه الثورة من أجل القضاء على خصومها من عائلة بوعكاز الذواودة، في حين برء اسماعيل عربان « Ismail Urbain » ساحة عائلة ابن قانة، و كان دليله على ذلك أن البوازيد كانوا في صف عائلة ابن قانة أثناء صراعها مع الأمير عبد القادر. أما التحقيق العسكري الذي باشرته القيادة العسكرية تحت ضغط الصحافة التي كانت تريد توريط العسكر في هذه الثورة، فقد نسب أسبابها إلى التعصب الديني و الدعاية المغرضة [3].

و في شهر ماي من عام 1879م اندلعت ثورة الأوراس التي قادها الشيخ محمد بن عبد الرحمان المسمى محمد امزيان الذي كان من أتباع الطريقة الرحمانية، حيث تمكن من تجنيد سكان المنطقة و بالأساس سكان أولاد داود في باتنة و بني بو سليمان في بسكرة، و دعاهم إلى الثورة التي تعددت أسبابها،

---

[1] L.Rinn : op.cit, p 657.

[2] Jean-Claude Vatin : L'Algerie politique : Histoire et société, Presse de la Fondation Nationale des Sciences politiques, Paris 07, France, 1974, p 143.

[3] Charles-Robert Ageron : les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome Premier, op.cit, pp 57-59.

فمنها ما كان يتعلق بظلم القياد و تجاوزاتهم. و هناك من قال أن سبب هذه الثورة يعود إلى قضية الصفوف أو مسألة الصراع بين العائلات الكبرى في المنطقة و اتهام كل منهما للآخر بالتشجيع على الثورة للإساءة للآخر. و تكلم آخرون عن « التعصب الديني » كسبب لهذه الثورة، و ربط البعض الآخر سببها بالوضع الاقتصادي الهش للسكان. و يكفي القول أن الأسباب كانت عديدة، و أن السكان انتفضوا بمجرد أن أتيحت لهم أول فرصة و هي الدعوة التي وجهها لهم الثائر محمد بن عبد الرحمان الذي كان يمثل رمز عقيدتهم الدينية. و تمكن الفرنسيون من إجهاض هذه الثورة بسرعة فائقة و سلطوا العقاب على الثوار [1].

لا نود التوسع أكثر في تفصيلات هذه الثورة حفاظا على انسجام الموضوع، لأن الفكرة التي نود إبرازها في هذا السياق هي المكائد و المضايقات التي كانت الإدارة الاستعمارية تحيكها ضد عائلتي ابن قانة و بوعكاز الذواودة المتعاونتين معهما في تلك الأثناء، حيث أنه بعد نهاية هذه الثورة انتشرت أخبار تفيد أن عائلة بن شنوف التي تنحدر من عائلة بوعكاز الذواودة هي التي حرضت السكان، و دفعتهم إلى الثورة ضد عائلة ابن قانة حتى تقدم الدليل الواضح للفرنسيين أن هذه الأخيرة عاجزة عن أداء مهمتها على أحسن وجه، الأمر الذي يفسح المجال لأولاد بن شنوف لاحتلال الوظائف التي كانت تشغلها عائلة ابن قانة. و رغم أن التحقيق الذي قامت به إدارة الاحتلال في هذا الشأن أدان صراحة عائلة ابن قانة و قال « أن الثوار البربر كانوا ديمقراطيين ثارت ثائرتهم ضد القياد العرب الذين اشتهروا بتصرفاتهم الطائشة »، إلا أن عائلة ابن قانة دافعت عن نفسها و وجهت التهمة إلى عائلة بوعكاز الذواودة و كتب وجهاؤها كتابا عام 1879م، أبرزوا فيه مواقف عائلتهم المؤيدة للاستعمار الفرنسي لاسيما خلال هذه الثورة. [2]

من المتصور أن الحملة الدعائية التي عقبت هذه الثورة و التي وجهت أصابع الاتهام إلى عائلة بن شنوف على أنها المتسبب في هذه الثورة كانت من صنع الفرنسيين لأن ذلك يعد من ألاعيب السياسة الفرنسية حينئذ التي كانت تغذي التنافس بين العائلات الكبرى حتى يتربع الفرنسيون في نهاية المطاف على كرسي السلطة دون منازع و منافس.

[1] حول تفاصيل أكثر عن ثورة الأوراس عام 1879م من حيث أسبابها و مراحلها و نتائجها ينظر:

– عبد الحميد زوزو: ثورة الأوراس سنة 1879م، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص ص 32-61.

[2] Charles-Robert Ageron : op.cit, pp 59,60.

بهذا يتراءى لنا كيف كان مصير العائلات الكبرى التي تعاونت مع الإدارة الاستعمارية في بداية الأمر ثم ثارت ضدها، حيث لم يشفع لها الدور البارز و المتميز الذي لعبته في سبيل التمكين للمستعمر الفرنسي، و لم يأخذ الفرنسيون بعين الاعتبار المجهود الكبير الذي قدمته هذه العائلات لهم رغم أنهم كانوا يعترفون في تقاريرهم المختلفة بذلك. لقد كان مصير هذه العائلات التشريد و النفي و التهجير و الهجرة إلى خارج الوطن، و مصادرة الممتلكات و الغرامات الحربية، و القتل و التصفية الجسدية و السجون و تردي أوضاعها الاجتماعية و الاستغناء عن خدماتها و إذلالها، و كسر شوكتها الأدبية و طمس شخصيتها الاجتماعية و السياسية. و قد طالت بعض هذه التدابير الردعية حتى العائلات المهادنة مما يوحي بأن الفرنسيين كانوا قد خططوا لتحطيم هذه العائلات التي حكموا بها المنطقة في بداية الاحتلال بصرف النظر عن كونها عائلات ثائرة عدوة أو عائلات مهادنة مستكينة و صديقة.

و إذا كان الفرنسيون قد ارتكبوا جرما فظيعا في حق هذه العائلات حينما قاموا بنفي وجهائها إلى المناطق النائية و البعيدة مثل كاليدونيا الجديدة و كورسيكا، فإن جرمهم هذا تضاعف كثيرا عندما رفضوا الانصياع إلى قرارات و أحكام قانون العفو، لاسيما القانون الصادر عام 1895م الذي منحهم حق العودة إلى ديارهم. غير أن المسؤولين الفرنسيين بالجزائر حرموا هذه العائلات من الاستفادة من أحكامه، لأن هذا القانون منحهم السلطة التقديرية في الموافقة على هذه العودة من عدمها. و إذا سئل الذين سنوا هذا القانون عن المرجعية القانونية لهذه السلطة التقديرية لقالوا إنها مستمدة من مبدأ سمو الاعتبارات السياسية عن الاعتبارات القانونية. و قد فتحت هذه السلطة التي كان يتمتعون بها الباب على مصراعيه أمام تجاوزاتهم، فسمحوا لبعض أبناء هذه العائلات و أحفادهم بالعودة في بداية القرن العشرين، كما سمحوا بالعودة للطاعنين في السن الذين كانوا على أبواب القبر، أو الذين تأكدوا من أن عودتهم لا تشكل أي خطر على وجودهم مثل الشيخ أحمد بوعكاز بن عاشور من عائلة بوعكاز بن عاشور، و الحاج بن عز الدين من عائلة أولاد عز الدين، و بومزراق المقراني من عائلة المقراني، و رغم ذلك فقد اعتبروا ذلك منة منهم.

خاتمــــة

من خلال دراستنا لعلاقة الإدارة الاستعمارية بالعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة (1837م- 1871م)، استطعنا أن نخلص إلى النتائج الآتية :

1- بالرغم من الضعف و الانقسام الذي لازم العائلات الكبرى منذ منتصف القرن 18م بسبب سياسة الحكام العثمانيين الهادفة إلى إضعاف هذه العائلات و تفريق جموعها انطلاقا من سياسة « فرق تسد » إلا أن ذلك لم يمنع معظم هذه العائلات من أن تهب للدفاع عن حياض هذا الوطن إلى جانب قوات الداي حسين أثناء تصديه للحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م، و أن فرسان هذه العائلات كانوا قد أبلوا بلاء حسنا في المعارك التي دارت بين قوات هذا الداي و القوات الفرنسية الغازية. و هو الموقف ذاته الذي وقفته كذلك معظم هذه العائلات من احتلال مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837م.

2- إن السياسة التي انتهجها الحكام العثمانيون تجاه شيوخ العائلات الكبرى قصد إضعافها منذ البداية إلى غاية مجيء الحاج أحمد باي إلى دفة حكم البايلك القسنطيني عام 1826م، و كذلك الصراع الذي كان قائما بين الحاج أحمد باي و الأمير عبد القادر، كان لذلك كله تأثير على مواقف هذه العائلات من الاحتلال الفرنسي. و قد برز ذلك بصورة واضحة بعد سقوط نظام حكم الحاج أحمد باي إثر احتلال مدينة قسنطينة عام 1837م، حيث التفت قادة هذه العائلات إلى الفرنسيين، فقامت الإدارة الاستعمارية باستدراجهم إلى صفها بمختلف الطرق و الأساليب أهمها مرسوم الماريشال « فالي » الشهير المؤرخ في 1838/09/30م.

3- إن الإدارة الاستعمارية عندما منحت المناصب التي استحدثها مرسوم الماريشال فالي إلى هذه العائلات، تكون قد سجلت بداية علاقتها الفعلية بهذه العائلات، و تكون كذلك قد فضلت المحافظة على الوضع الراهن الموروث عن العهد العثماني حيث منحتهم امتيازات و صلاحيات واسعة لأنها كانت تدرك قوتهم، و دورهم الكبير في مختلف التوازنات التي كانت تتحكم في صنع المشهد السياسي بالمنطقة، فعملت على توظيف زعمائهم في خدمة المشروع الكولونيالي بهذه المنطقة التي تأخرت فيها عملية الاحتلال. و الأصل أن هذا الأسلوب اتبعه الفرنسيون في الجهات التي لم يتمكنوا من إحكام سيطرتهم عليها، و فرض حكمهم المباشر فيها، فدعمت سلطتهم في بداية الأمر. و لم يكن هذا التدعيم في الواقع سوى من أجل تثبيت أركان الحكم الكولونيالي، و الدليل على ذلك أنها تصرفت لاحقا بشكل يتناقض مع الصلاحيات التي منحتها لهم أحكام

مرسوم الماريشال « فالي » عام 1838م. و على هذا الأساس، فإنه من الجائز القول أن الإدارة الاستعمارية كانت مضطرة اضطرارا إلى انتهاج هذا الأسلوب الذي مكن قادتها من إحكام سيطرتهم على مقاطعة قسنطينة ذات المساحة الشاسعة، و التضاريس الوعرة والمعقدة، و التي تميزت كذلك بموقف سكانها الرافض للاستعمار الفرنسي شأنهم في ذلك شأن بقية القطر الجزائري برمته.

4- إن ميل العائلات الكبرى إلى القوات الفرنسية الغازية، و دخولها في خدمة الفرنسيين و تمكينها لهم، يجب فهمه و دراسته دراسة عميقة و شاملة تستحضر السياق التاريخي الذي جرت فيه تلك الأحداث، و لن يتحقق ذلك إلا إذا تجردنا من ذاتيتنا و حاضرنا أيضا و حاولنا فهم روح ذلك العصر الذي جرت فيه تلك الأحداث، و هي شروط يجب أن تتوفر في المؤرخ. إن هذا الميل لم يكن في واقع الأمر حبا في الاستعمار الفرنسي أو نتيجة لضعف في وازعهم الديني أو الوطني، و إنما كان بهدف الاستفادة من قوة هذا المستعمر للنيل من أعدائهم و خصومهم، و كذلك نكاية في الحاج أحمد باي الذي انتهج سياسة قاسية ضدهم حيث قرب بعضهم و أبعد البعض الآخر منه. و قد فسرت الأطراف المبعدة هذا التصرف على أنه خصم من كرامتها و تنزيل من منزلتها، و ليس أدل على ذلك من أن بعضهم خدم الإدارة الاستعمارية ثم تحالف مع الأمير عبد القادر، مثل عائلة بوعكاز الذواودة حيث قام زعيمها فرحات بن السعيد بالتمكين له أثناء صراعه مع الفرنسيين، و كذلك أثناء تصدع العلاقة بينه و بين الحاج أحمد باي.

و رغم ذلك فإن هذه المواقف تبقى مواقف عرجاء و تتسم بالرعونة و تنتفي فيها الحكمة و الحصافة، لأنه من الصعوبة بمكان تفهم تحالف هذه العائلات مع الإدارة الاستعمارية. و إن كنا نلتمس لها العذر تجاوزا عن عدم تعاون بعضها مع الحاج أحمد باي في مقاومته بالنظر لخصوصية الفترة التي اتسمت باضطراب العلاقة بينهم و بينه، إلا أنه لا يمكن أن نلتمس لها ذلك بمناسبة تعاونها مع المستعمر لأن التعاون مع العدو الخارجي يبقى تصرفا مقيتا و ممجوجا و لا مبرر له. لقد كان الأجدر بهذه العائلات صرف النظر عن هذه الحساسيات و توحيد الجهود و الوقوف وقفة رجل واحد في مواجهة المستعمر الفرنسي، و مشاريعه الاستعمارية لأن الدفاع عن حياض الوطن مقدم على علاقتهم المتباغضة مع هذا الباي.

5- كانت العائلات الكبرى تشكل بحق سلطات محلية فاعلة بأرياف مقاطعة قسنطينة، و لم تكن لها مواقف ثابتة تجاه أطراف الصراع بالمنطقة، بل أن مواقفها كانت تتغير و تتقلب من حين لآخر بحسب المصالح و الظروف و المعطيات المستجدة، لكنها غالبا ما كانت تتحالف مع الطرف الغالب و القوي و تنفض من حول الطرف المغلوب و الضعيف. و قد تتعاون مع عدو الأمس ضد حليف سابق، لأن همها المركزي هو المحافظة على مكانتها التي كانت مهددة بالزوال بعد الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م. و من أمثلة ذلك نذكر موقف فرحات بن السعيد الذواوي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة الذي انتصب في البداية في المعسكر الفرنسي المعادي للحاج أحمد باي، ثم انتقل إلى معسكر الأمير عبد القادر المعادي لفرنسا و وفاته تحت لوائه، و كذلك تحول عائلة ابن قانة عن الحاج أحمد باي رغم رابطة الدم القائمة بينهما و دخولها في خدمة الإدارة الاستعمارية، و تحالف فرع أولاد الحاج من عائلة المقراني مع الفرنسيين و تحوله عن الحاج أحمد باي بعد سقوط حكمه، و أيضا تحالف فرع أولاد عبد السلام من عائلة المقراني مع الأمير عبد القادر لأن مصلحة هذا الفرع اقتضت ذلك، و كذلك الحال بالنسبة للعائلات الأخرى التي تحالفت مع المستعمر بعدما ناصبته العداء في بداية الأمر. و تؤكد لنا هذه الأمثلة مرة أخرى بما لا يدع مجالا للشك أن مسألة الولاء لدى هذه العائلات كانت حينئذ مسألة مرنة، و ترتكز على الاعتبارات المصلحية و العائلية و العشائرية والقبلية، و التي كانت أحيانا على حساب المصلحة القومية و الوطنية.

6- لقد انكب قادة العائلات الكبرى و زعماؤها على خدمة مقاصد الإدارة الاستعمارية منذ ارتباطهم الرسمي بها عام 1838م بمقتضى مرسوم الماريشال « فالي »، حيث عملوا على التمكين للمستعمر، و أخضعوا السكان الثائرين لإرادته، و قدموا خدمات كبيرة له، و رافقوا جيوشه في مختلف الحملات العسكرية التي شنوها ضد السكان الرافضين لوجوده، و ترجموا إرادته على مستوى القيادات التابعة لهم، و ألزموا السكان على دفع الضرائب التي فرضها عليهم المستعمر الفرنسي ظلما و عدوانا، و راقبوا الحدود الشرقية للبلاد خدمة للأهداف الاستعمارية، و خنقوا ثوار بلدان الجوار الذين احتموا بالتراب الجزائري و بالأساس في المناطق الحدودية، و قدموا الدعم البشري و المادي و المعنوي لجيوش فرنسا في الحروب التي شنوها ضد أعدائهم في المناطق البعيدة في آسيا و أوروبا، و شنوا حروبا بالنيابة عن جيوشهم ضد الثورات الشعبية التي

ضعضعت أركان إدارة بلادهم بمقاطعة قسنطينة خاصة خلال العقود الأولى للاحتلال، و صنعوا نصر هذه الجيوش داخل الوطن و خارجه، فكانوا بذلك بمثابة عيون و آذان و سواعد الإدارة الاستعمارية، و أن الفرنسيين لم يكن في مقدورهم إحكام سيطرتهم على هذه المقاطعة لو لم تعضدهم سواعد هذه العائلات.

و قد ترتب عن كل هذا تردي أوضاع السكان و تدهور أحوالهم المادية و الاجتماعية، و قضى الفرنسيون على كل ثوراتهم و انتقموا من الثوار و السكان بصفة عامة انتقام العدو القوي المنتصر من خصمه الضعيف المنكسر. و قد لعبت العائلات الكبرى دورا محوريا في هذه العملية السيئة السمعة، فهل تتحمل هذه العائلات مسؤولية المآسي التي حلت بالجزائريين في تلك الفترة؟

الحقيقة أن المنطق السليم يقتضي استعمال الصيغة المتطابقة مع المصدر الذي يستمدون منه سلطتهم، و هي سلطة الإدارة الاستعمارية التي جعلت من هذه العائلات و قادتها عبيدا طائعين و عملاء خاضعين، و عليه فإن المسؤولية يجب أن تلقى خاصة على كاهل الإدارة الاستعمارية التي كانت توجههم خدمة لمقاصدها و أهدافها.

و كان زعماء هذه العائلات يعتقدون أنهم بصنيعهم هذا سيتقربون أكثر من الفرنسيين ليحافظوا على مجدهم ومكانتهم التاريخية التي توارثوها أبا عن جد، و كان الفرنسيون يداورنهم و يمنون عليهم ببعض الهدايا و الترضية في بعض الأحيان، و يثقلون صدورهم بالأوسمة و النياشين، و يقولون لهم أنها أوسمة الشرف. و الحقيقة أنها ليست كذلك، لأن وسام الشرف يمنح للذي يدافع عن قضية حقيقية هي قضية الشعب الجزائري برمته.

7- كان الفرنسيون يخططون للتوسط بنفوذ هذه العائلات لبسط سيطرتهم على شرق البلاد، و المناطق التي عجزوا عن الوصول إليها، و في الوقت نفسه محاولة ضرب المقاومة الوطنية و تمزيقها لأنها كانت نشيطة بهذه المنطقة، و كان هدفهم الوحيد من وراء تقربهم من هذه العائلات هو تحقيق هذا المقصد. و الدليل على ذلك أنهم بمجرد أن شعروا بأنهم قادرون على التحكم في الأوضاع و السيطرة عليها شرعوا في استفزازهم و مضايقتهم حيث قلصوا من سلطاتهم و جزؤوا قياداتهم و ضايقوهم ضريبيا، و اتهموهم بالتقصير في أداء المهام، و جردوهم من الامتيازات الممنوحة لهم، الأمر الذي دفع بعضهم إلى الثورة و مقاومة سياستهم. و بهذا يمكن القول أن علاقة الفرنسيين ببعض هذه العائلات بدأت بتحالف و انتهت بثورة.

8- تعاملت الإدارة الاستعمارية بشراسة مع العائلات التي ثارت ضد سلطتها حيث صادرت ممتلكاتهم، و نفت أعدادا كبيرة من أفرادهم إلى المناطق البعيدة، و اضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى البلاد التونسية، فتدهورت أوضاعهم المادية و الاجتماعية. و قد مس هذا التدهور العائلات التي نفيت أو هاجرت إلى الخارج، و العائلات التي بقيت في الجزائر على حد سواء. و بالموازاة مع ذلك شرع الفرنسيون يتخلون تدريجيا عن هذه العائلات خاصة منذ عام 1870م، و شرعوا يدخلون بالتدرج عناصر جديدة محلهم و يعطونها الوظائف، فتصبح تابعة لهم، و ليس لها ولاء عائلي أو قبلي أو جهوي، أو ربما حتى وطني ما عدا للمصدر الذي استمدوا منه سلطتهم و هو الإدارة الفرنسية، و كانوا بصنيعهم هذا يدعون أنهم يقومون بـ « دمقرطة » هذه الوظائف من خلال إسنادها إلى عناصر تحوز على الكفاءة بدل المكانة التاريخية. و قد أدت هذه السياسة إلى ضمور هذه الفئة عن مسرح الأحداث، و لم يبق منها في نهاية القرن 19م سواء « الهباء المنثور ». وقد شهد على ذلك ساسة فرنسا و منظروها السياسيون و العسكريون. و بهذا فقدت هذه العائلات هيبتها و مكانتها، و خسر « الأجواد » المال و الجاه و الحظوة. فعلى هذه الشاكلة كان مصير هذه العائلات التي تحالفت مع الاستعمار في البداية، و هو مصير بائس اشتركت فيه كل العائلات بما في ذلك العائلات التي بقيت وفية للنهج الاستعماري و التي لم تستوعب الدرس جيدا.

9- لقد سمح لنا الاطلاع على وثائق دور الأرشيف المحفوظة بفرنسا و تونس والتي تتحدث عن العرائض و الشكاوى والمطالب الممضاة من طرف عناصر العائلات المنفية و المهجرة إلى الخارج و بالأساس تونس، و بلاد الشام، و فرنسا، وكورسيكا، و كاليدونيا الجديدة معرفة مدى تشبث هذه العناصر المنفية بأرضها و وطنها، حيث لا تكاد تخلو مراسلة من مراسلاتهم من التأكيد على هذا المطلب و رغبتهم الملحة في الحصول على عفو يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم، سالكين في سبيل ذلك كل الطرق، كالقنوات القنصلية و الإدارية ببلدان المنفى أو الهجرة، و مختلف الوسائط الأخرى، غير أن الفرنسيين كانوا دائما يعترضون على طلباتهم، و لم يسمحوا إلا للقليل منهم بالعودة، و ذلك بعد أن يتأكدوا بأن عودتهم لا تشكل أدنى خطر على وجودهم و ذلك رغم استفادة كل هؤلاء المنفيين من قانون العفو الصادر من أعلى سلطة سياسية في فرنسا، مما يؤكد بقاء الفرنسيين متخوفين منهم، و كذلك إصرارهم على إذلال هذه العائلات و تحطيم كبريائها.

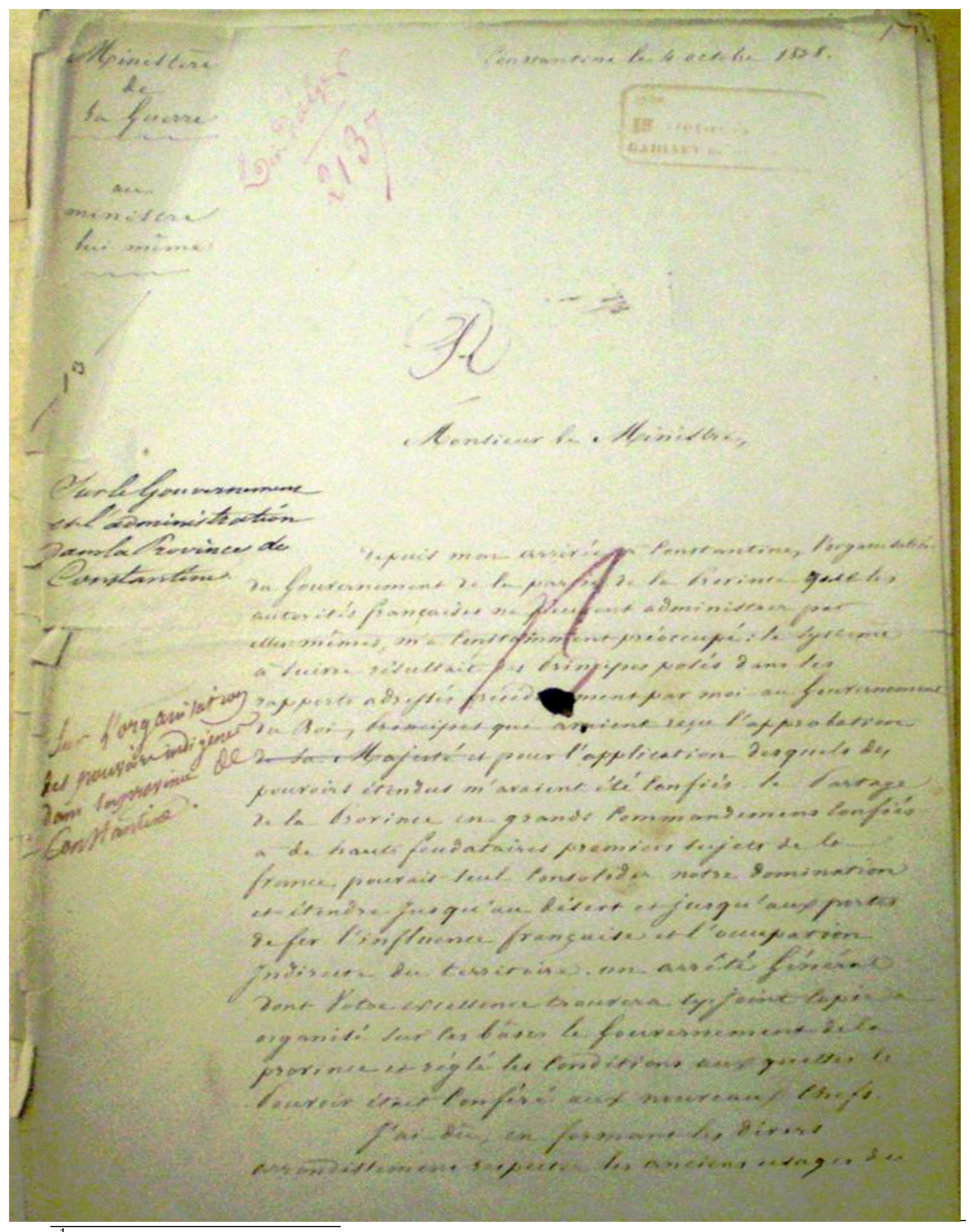
10- اتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن الفرنسيين قاموا بتذويب هذه العائلات التي توسطوا بها في حكم المناطق التي لم يتمكنوا من السيطرة عليها ضمن فئات المجتمع الجزائري الذي مارسوا عليه كل أشكال المسخ و التذويب الفكري و الحضاري و التدمير الاقتصادي و القهر الاجتماعي. و بهذه الطريقة تكون الإدارة الاستعمارية و من وجهة نظر سوسيوتاريخية قد خلخلت بنية المجتمع الجزائري، و أحدثت فيه فراغا على مستوى أطره الاجتماعية و نخبه الدينية و الدنيوية بإزاحتها لهذه العائلات التي اعترف لها المجتمع بكافة فئاته و عبر العصور بالريادة و القيادة. و ليس ذلك غريبا عن الاستعمار الفرنسي الذي كان هدفه المركزي هو تحطيم بنية المجتمع الجزائري التقليدي. و أن هذا التحطيم لم يتوقف عند إضعاف هذه العائلات فحسب، بل كان شاملا لكل القيم و المقومات المادية و المعنوية و الحضارية لهذا المجتمع. و لم يفرق الفرنسيون أثناء انتهاجهم لهذه السياسة بين العائلات الثائرة و العائلات المهادنة و الأكثر وفاء لهم، الأمر الذي يؤكد مرة أخرى أن مسألة تحطيم هذه العائلات كانت مسألة مدروسة بشكل منهجي و خطط لها الفرنسيون بشكل دقيق منذ بداية الاحتلال.

الملاحق

الملحق رقم 01 : خارطة مقاطعة قسنطينة



الملحق رقم 02 [1] : الصفحة الأولى من تقرير الماريشال "فالي" المؤرخ في 1838/10/04م، الذي تحدث فيه بإسهاب عن مرسومه الشهير.



Constantine le 4 octobre 1838.

Ministère de la Guerre

au ministère lui même

Monsieur le Ministre,

Sur le Gouvernement et l'administration dans la Province de Constantine

Sur l'organisation des pouvoirs indigènes dans la province de Constantine.

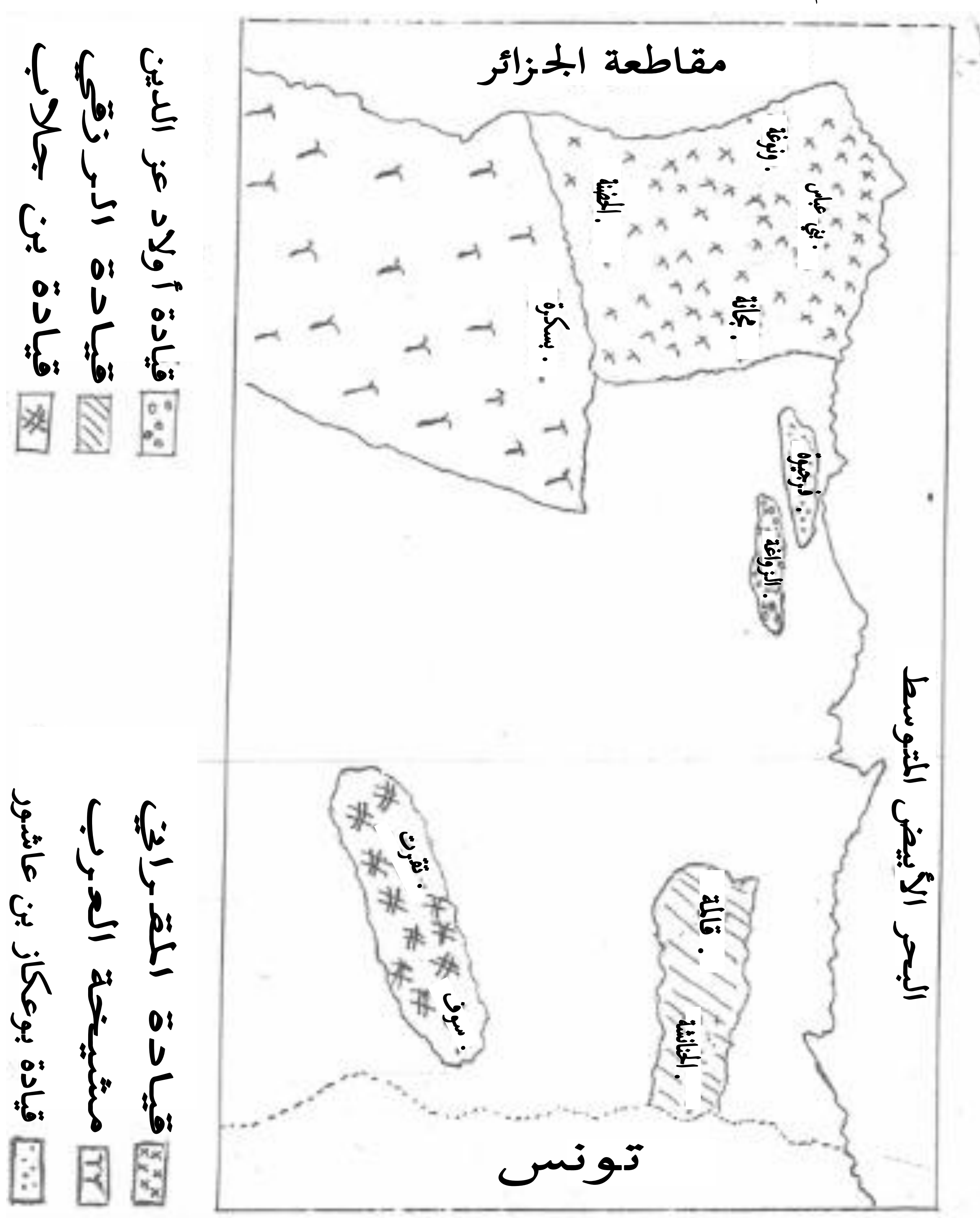
Depuis mon arrivée à Constantine, l'organisation du Gouvernement de la partie de la Province que les autorités françaises ne peuvent administrer par elles-mêmes, m'a constamment préoccupé. Le système à suivre résultait des principes posés dans les rapports adressés précédemment par moi au Gouvernement du Roi, principes qui avaient reçu l'approbation de sa Majesté et pour l'application desquels des pouvoirs étendus m'avaient été confiés. Le partage de la Province en grands commandements confiés à de hauts feudataires premiers sujets de la France pouvait seul consolider notre domination et étendre jusqu'au désert et jusqu'aux portes de fer l'influence française et l'occupation indirecte du territoire. Un arrêté général dont Votre Excellence trouvera ci-joint copie a organisé sur ces bases le Gouvernement de la province et réglé les conditions auxquelles le pouvoir était conféré aux nouveaux chefs.

J'ai dû, en formant les divers arrondissements respecter les anciens usages de ...

---

[1] A.O.M : F80.1672.

الملحق رقم 03 [1] : خارطة قيادات العائلات الكبرى



[1] - A.M.G : H229
- A.OM : F80.506
- Bouaziz Bengana : op.cit, pp102,103.

الملحق رقم 04 [1] : قيادتا عائلتي بوعكاز بن عاشور و أولاد عز الدين عام 1850.

KAIDAT DE BEIRA THOUILA.
Mustapha Hassen Ould Englis Bey, kaïd.

KAIDAT DE DJEMILAH.
El Hadj el Ouais, kaïd.

KAIDAT DU FERDJIOUAH.
Bou Akkas ben Achour, kaïd.

KAIDAT DE MILAH.
Si el Hossein ben Hamouchi, kaïd.

KAIDAT DES MOUIA.
Saïd ben Hamelat, kaïd.

KAIDAT DE L'OUED BOUSSELAH.
Lakhdar ben Sliman, kaïd.

KAIDAT DES BENI QTIT.
Bou Diaf Bourga, kaïd.

KAIDAT DES O. KEBAB.
Si Larbi ben Nass, kaïd.

KAIDAT DE L'OUED KEBIR.
Bourenan ben Azeddine, kaïd.

KAIDAT DES SEGNIA.
Si el Hadj ben Zekri, kaïd.

KAIDAT DES SELLAOUA KHARARER.
El Hadj Sliman, kaïd.

KAIDAT DES SARAOUIA.
Ahmed ben Mati, kaïd.

KAIDAT DE TEBESSA.
Ali Laze ben Sliman, kaïd.

KAIDAT DE TELAGHMA.
Bou Renbi, kaïd.

KAIDAT DE ZENATIA.
Saïd ben Abdel Kader, kaïd.

KAIDAT DE ZERDEZA.
Si Zeidan ould el Moumi, kaïd.

KAIDAT DES ZMOULS.
Salah ben Si Ahmed, kaïd.

KAIDAT DES ZOUAGHA.
Mohammed ben Azeddine, kaïd.

KAIDAT DES YAHIA B. THALEB, DU DIR ET DES NEMENCHAS.
El Hassenaoui, kaïd.

RELEVANT de la Direction Divisionnaire des Affaires arabes.

KAIDAT DES O. ATIA.
AHMED BEN SI MOHAMMED, Kaïd.

KAIDAT DES EULMAS-MASLA.
ALI BEN ABDALLAH, Kaïd.

KAIDAT DES BENI MEHENNA.
SAOUDI BEN EYAL, Kaïd.

E COLLO.
KIKEZ, Kaïd.

TR

A.M.G
H229

---

[1] - A.M.G : H229

الملحق رقم 05 [1]: رسالة السلطان عبد الرحمان بن جلاب إلى المشير الأول التونسي أحمد باي عام 1841م، التي عبر فيها عن الصداقة التي تربطه به.

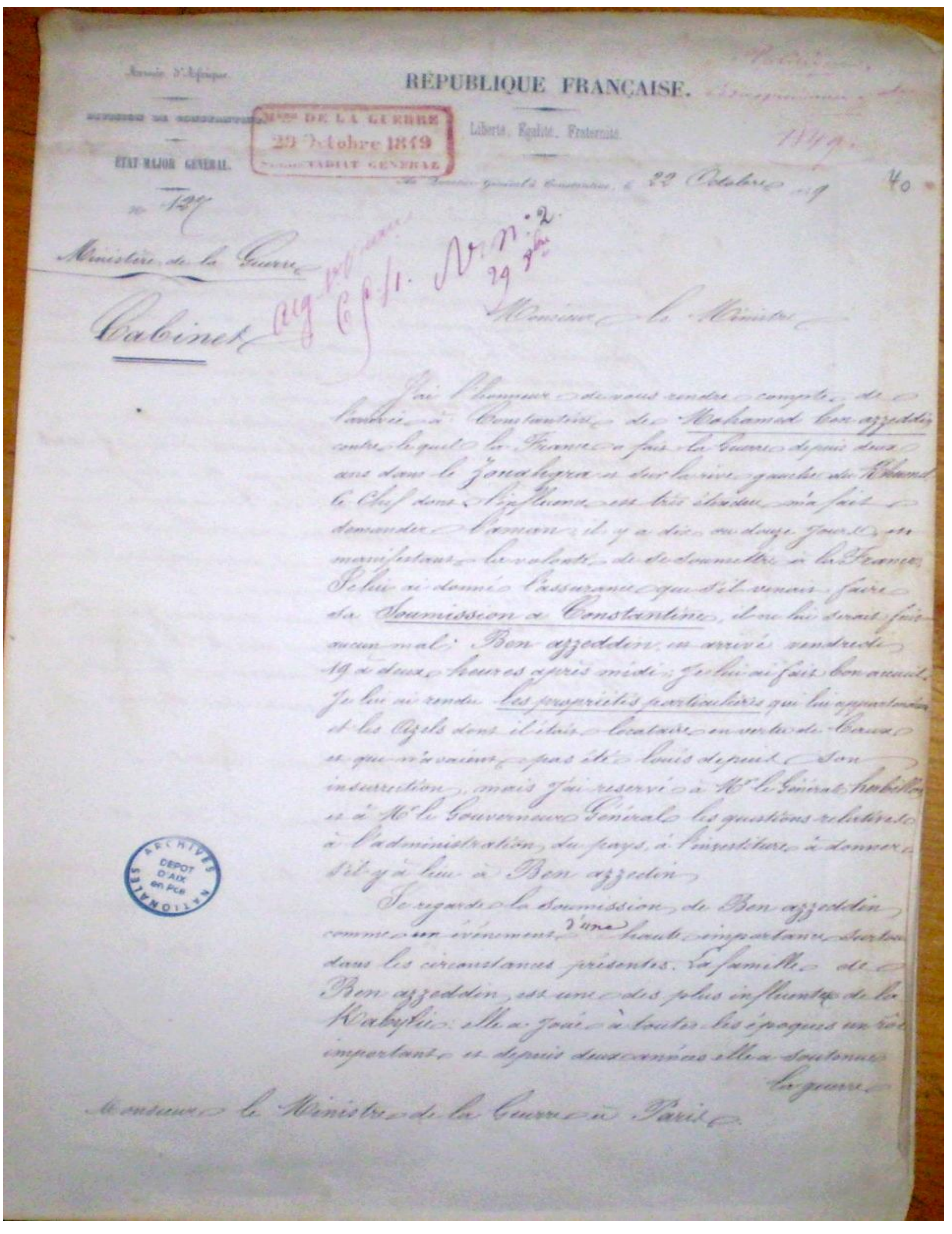
الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله

33

حفظ الله تعالى ذاتك وطيب أوقاتك ونفع المسلمين
بحياتك مقام الجناب العالي البحر الفلائي ناصر الدين وقامع أعداء الله الكافرين
رافع منار الرسالة وخافض أهل البدع والضلالة مولانا القائم بفروض الله المؤيد
بنصر الله الملك الأسعد النبيل الأرشد سيدنا أحمد باي عليك سلام الله التام ورضوانه
العام ولطائف التحية والاحترام وعلى من هو إليك من قياد ووزراء وأولادك وصاحبك
جميعا فإنا ما وردا بلينا إليه السيد الأسعد فإنا عن كلية أحوالكم سائلون وبالخير
والتمكين والفتح المبين لكم داعون ولتعلم أيه المؤيد المنصور أن الله تبارك
وتعالى حكم في القرآن المنزل على أفضل الخلق محمد بن عدنان فقال تعالى كل من عليها
فان وأن عبده الشيخ علي بن جلاب قبضه إليه فله الحمد على ما أعطى ونحمده تعالى
أن يجعل البركة في الجميع آمين ومولانا مكانه من الحكم والتدبير في مصالح عباده
وبه سبحانه يكون التوفيق ولما حضره الوقت جعل خبرنا تذكيرا لكم وبالغ إلينا
في وصيته من محبتكم ومودتكم ونحن منكم والنبكم؟ ودولتكم السعيدة دولتنا وحرمتكم
حرمتنا فالمطلوب من كرم أفضالكم وجزيل أنعامكم أن تتفضلوا علينا بالقبول في تمنوا
علينا بالمودة وبلوغ المأمول وتتحكم علينا بإرسال جوابك الشريف وخطابك الأسرع
فإنا مشتاقون إلى ذلك والسلام من الأولى بالله وبرسوله عبد الرحمان بن محمد بن جلاب
وحفظه الله بمنه آمين

[1] الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930، وثيقة رقم 33.

الملحق رقم 06 [1] : رسالة رئيس القطاع العسكري القسنطيني إلى وزير الحربية الفرنسي في 1849/10/22م حول استسلام محمد بن عز الدين



Armée d'Afrique

DIVISION DE CONSTANTINE

ÉTAT-MAJOR GÉNÉRAL

N° 127

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

Liberté, Égalité, Fraternité.

Mtre DE LA GUERRE
29 Octobre 1849
SECRÉTARIAT GÉNÉRAL

Au Quartier général à Constantine, le 22 Octobre 1849

40

Ministère de la Guerre

Cabinet

Monsieur le Ministre

J'ai l'honneur de vous rendre compte de l'arrivée à Constantine de Mohamed ben azzeddin contre lequel la France a fait la Guerre depuis deux ans dans le Zouaghra et sur la rive gauche du Rhumel. Le Chef dont l'influence est très étendue m'a fait demander l'aman il y a dix ou douze jours en manifestant la volonté de se soumettre à la France. Je lui ai donné l'assurance que s'il venait faire sa soumission à Constantine, il ne lui serait fait aucun mal; Ben azzeddin est arrivé vendredi 19 à deux heures après midi; je lui ai fait bon accueil. Je lui ai rendu les propriétés particulières qui lui appartenaient et les Azels dont il était locataire en vertu de Baux et qui n'avaient pas été loués depuis son insurrection, mais j'ai réservé à Mr le Général [illegible] et à Mr le Gouverneur Général les questions relatives à l'administration du pays, à l'investiture à donner s'il y a lieu à Ben azzedin.

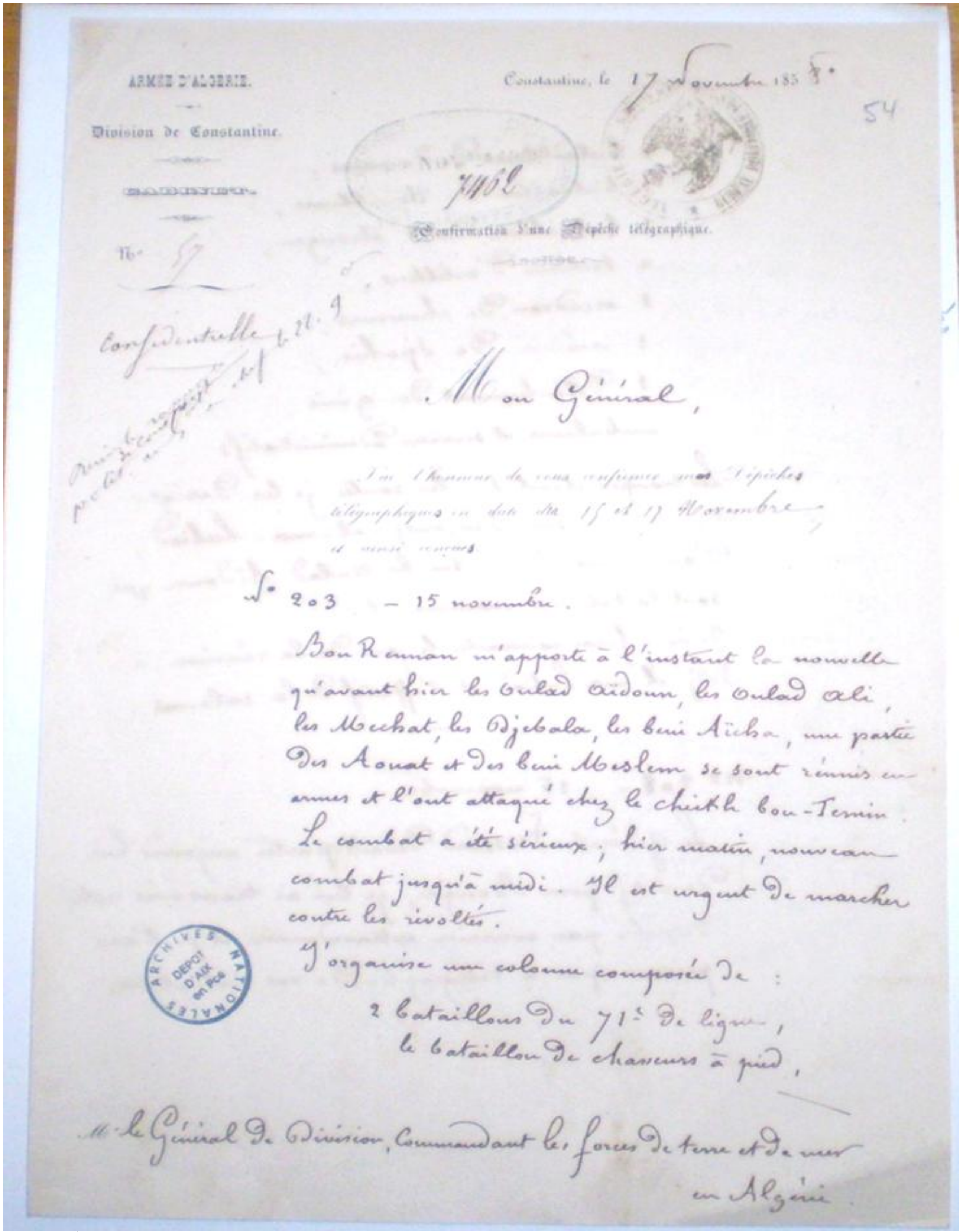
Je regarde la soumission de Ben azzeddin comme un événement d'une haute importance surtout dans les circonstances présentes. La famille de Ben azzeddin est une des plus influentes de la Kabylie; elle a joué à toutes les époques un rôle important et depuis deux années elle a soutenu la guerre

Monsieur le Ministre de la Guerre à Paris

---

[1] A.O.M : 2H20, n° 40.

الملحق رقم 07 [1]: برقية رئيس القطاع العسكري القسنطيني إلى الحاكم العام في 1858/12/17م حول دور القايد بورنان بن عز الدين في التمكين للمستعمر.



ARMÉE D'ALGÉRIE.

Division de Constantine.

CABINET.

N° 57

Constantine, le 17 Novembre 1858.

54

7462

Confirmation d'une Dépêche télégraphique.

Confidentielle

Mon Général,

J'ai l'honneur de vous confirmer mes Dépêches télégraphiques en date des 15 et 17 Novembre et mois courant.

N° 203 — 15 novembre.

Bou Renan m'apporte à l'instant la nouvelle qu'avant hier les Oulad Aidoun, les Oulad Ali, les Mechat, les Djebala, les beni Aïcha, une partie des Aouat et des beni Meslem se sont réunis en armes et l'ont attaqué chez le cheikh bou-Termin. Le combat a été sérieux ; hier matin, nouveau combat jusqu'à midi. Il est urgent de marcher contre les révoltés.

J'organise une colonne composée de :

2 bataillons du 71e de ligne,

le bataillon de chasseurs à pied,

M. le Général de Division, Commandant les forces de terre et de mer en Algérie.

[1] A.O.M : 2H18, n° 54.

الملحق رقم 08 [1] : رسالة بولخراص بن قانة إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني في 1871/10/28م حول دوره في إخضاع سكان و قبائل قيادته لإرادة السلطة الاستعمارية

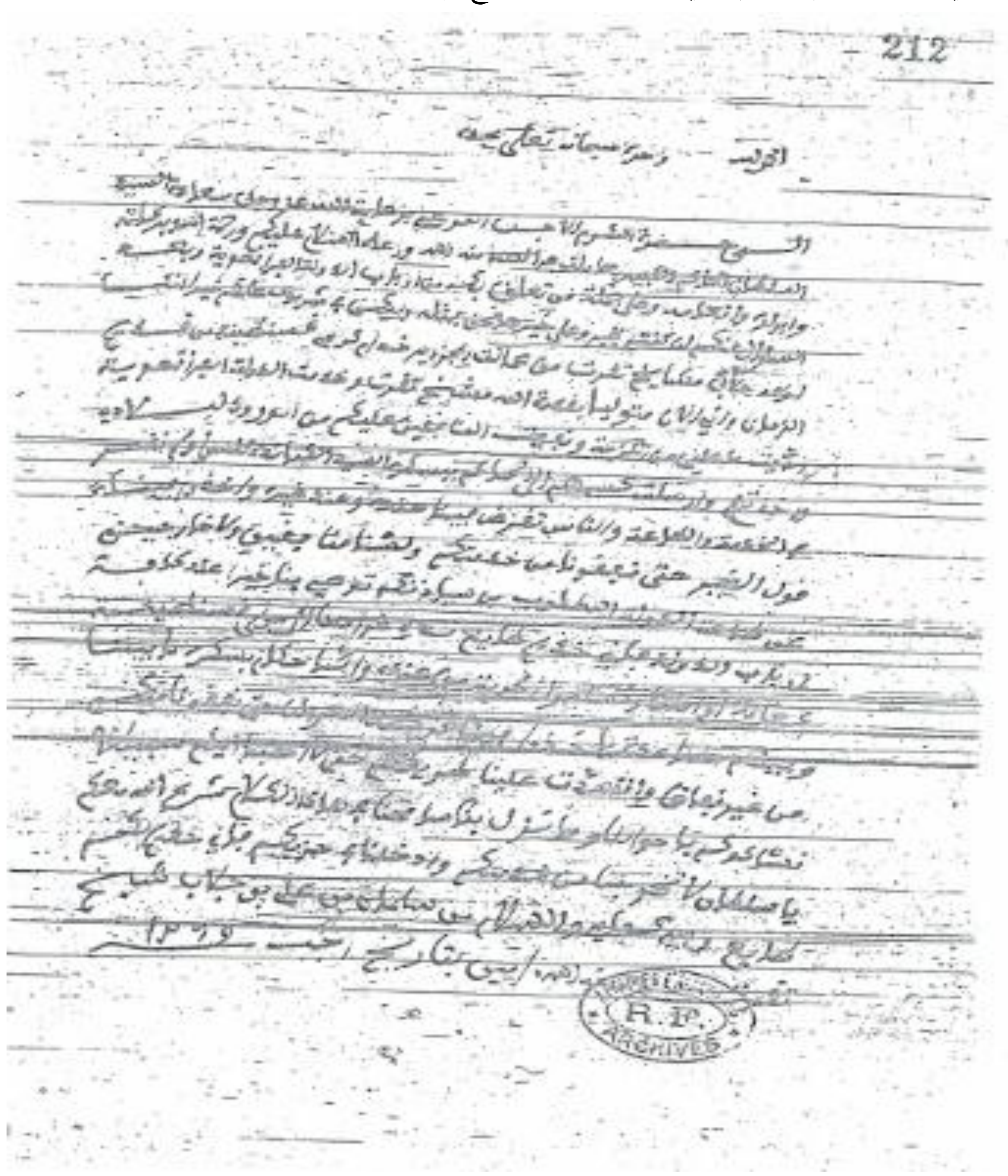
[1] A.O.M : 2H57, n° 12.

الملحق رقم 09 [1]: رسالة علي باي إلى رئيس القطاع العسكري القسنطيني في 1871/10/18م حول إخلاصه لفرنسا و دوره في إخضاع سكان قيادته للسلطة الاستعمارية، و محاربته للثائر بوشوشة، و الثوار المقرانيين.

(1) A.O.M : 2H57, n° 19.

فيقصد قتل واحد الى وصفه والعرب الغرابة يهجمون على ثنية الساعة ورئيس الصدر لا
والعرب الشرافة يلزمون مكانهم الى ان يجوزوا الغرابة على الثنية المذكورة اما نحن
والعرب امتثلنا واتبعنا ما امرونا به الحكام الجيب ——— وكان السيد الفبكار
بوسط الاعراش المذكورين بقصد تعريفهم من بطام فاذا بهم خالفوه وعاينوا عصيانهم
ولم يعملوا باذنه الصادر في ذلك ورجع السيد المذكور من عندهم منافقين واخبرنا السيد
الكمانون بعصيانهم وخلافهم واتانا السيد القبطان وتعرضنا لهم على ثنية اخنيز ان
التي ارادوا المرور عنها فمنعناهم من العبور عنها قهرا ——— ثم اخبرنا السيد
الكمانون ثانيا على ان الغرابة طلبوا المرور على ثنية الصفى والنعام فاتركوا سبيلهم
وانهم خدام فانتهت ناسنا عن اذايتهم وانتشر في الناس خبر خدمتهم واستقر كل واحد
بمكانه مطمئن الهنا والعافية فاذا بالغرابة غزوا على كسب العرب الشرافة واولاد
زكري واخذوا قدر المائة وخمسين الف من الغنم وقدر الستين بعيرا وقطعوا ثلاثة رؤوس
من رعاة الغنم ومع الغايرين محمد بن الحاج ولد قايد بسكرة وحماده بن بوعبد الله قايد
جبل احمر خدوا وقوم قايد بسكرة التي تاخذ في الراتب هذا وقايد بسكرة في بوزاخراد
بوسط الناس الغايرين ولم ينهوهم بل كل من يقطع راسا ياتي به اليهم ويشكرون فعله
وقاسموا جميع الغايرين في الكسب الماخوذ من عند الناس الخدام ———
ولما وقع هذا الامر في العرب الشرافة واولاد اضطرب حالهم وتغير وامن اخذ كسبهم وموت
اولادهم تواجدوا الهجوم على الغرابة فنهيناهم عن ذلك واخبرنا السيد الكمانون عند
اجابنا ان لا يخلصوا انفسهم فانه رد لهم جميع ما ضاع لهم فارشدناهم الى العمل بقول
الحكام سمعوا لذلك واليوم ان الغرابة توجهوا الى واد ريغ ومعهم قوادهم ولم يرد
شيئا من الكسب الماخوذ ——— وقد امرنا السيد الكمانون بالنزول ببسكرة ونزل
نزلنا بها امتثالا لامره وامرنا ببعث مائة وخمسين فارسا من قومنا لتعارض السيد
بن بوزيد في النزول بناحية سيدي خالد كما امرنا ببعث خمسين فارسا الى ناحية
الشرق يترقبون على الشريف الكاذب بناحية النمامشة ولا تقصير لنا في اذن حكامنا
ولتعلم سيادتكم انه لا يعزب عنه ذهنكم الشريف من سبب وقوع الفتنة والفساد الذي ادى
قايد بسكرة واخيه بوطننا حتى وقع ما بلغكم بتقريرات من قتل اخواننا الذواودة وقتل
العسكر وكملوا امرادهم في ذلك ولا ان احبابهم الذين سعوا لهم في تبليغ مرادهم
تلقوهم بالسرور وان ظني بالله ولنه تلتقيت الى من سعى الخير في خدمتها واخلص نيته
معها ولمن يلقي نفسه في المهالك في جانبها من غير حيلة وذلك ظننا الخير بها وحد
شاء الله ان يخيب الظن ولكن انه متعجب حيث صار النظر اليه بعين الغفلة مع
ذلك ان السيد الكمانون تركه من قومنا مائة فارس واراد يعطي راتبها الى بن بوزاخراد
يعمل بها قومه في تغرت فلا ادري ما السبب الداعي في ذلك ——— وانه سببه من ذو
نترقب الملاقات بحضرتك العليه فلاذن لنا في القدوم نقدم اليك الى المحلة المنصورة
والسلام مع ابنكم

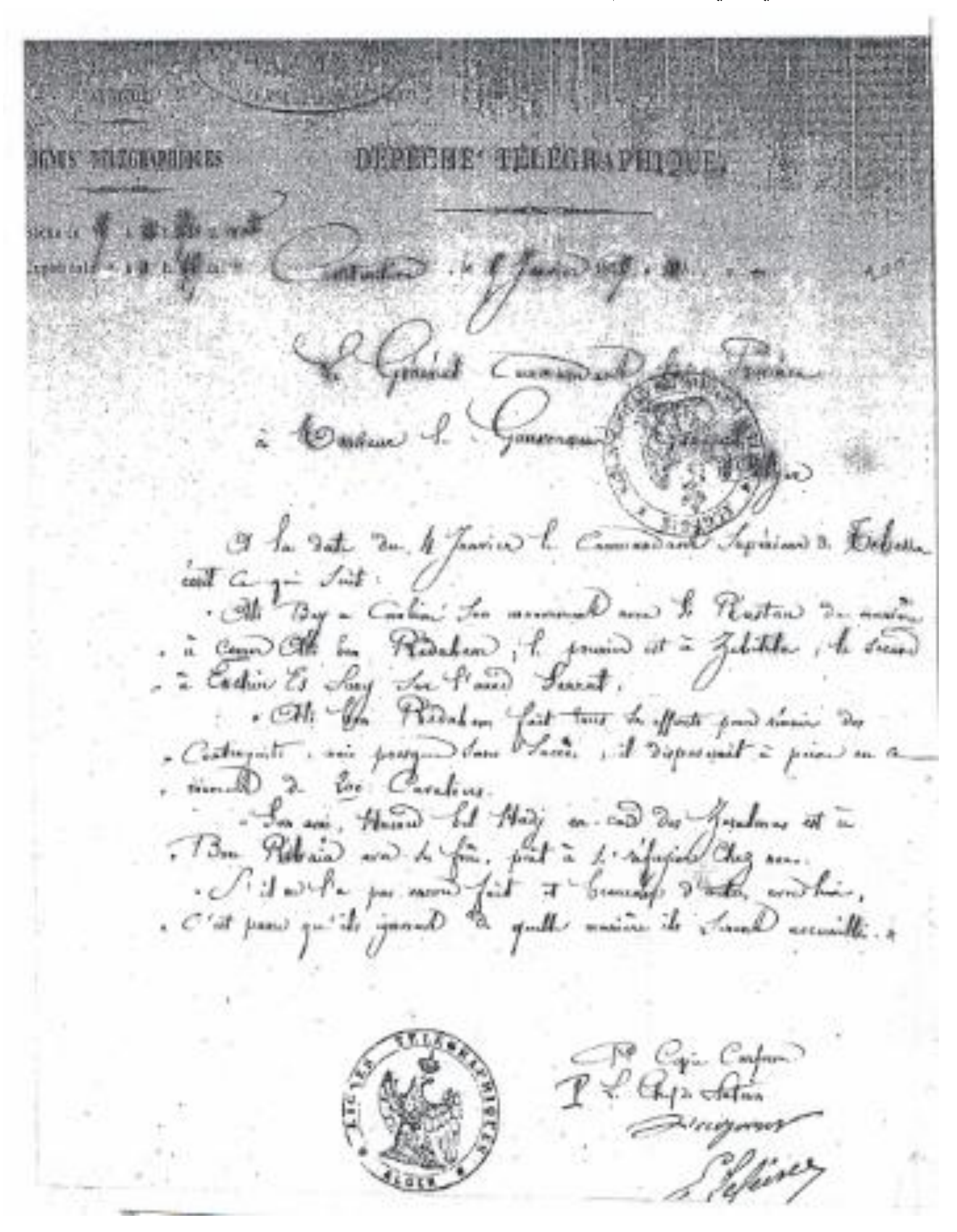
الملحق رقم 10 [1]: رسالة سلمان بن جلاب إلى الحاكم العام الفرنسي عام 1853م حول دوره في محاربة الثوار (المنافقين) و في جباية الضرائب لصالح الإدارة الاستعمارية.



212

[1] I.S.H.M.N.T : Archives du Ministère des relations extérieures, France, série Correspondance Politique, carton n° 13, Bobine 291, Folio 212

الملحق رقم 11 [1]: تقرير فرنسي مؤرخ في 1867/01/07م حول دور القايد علي باي في محاربة الثائر التونسي علي بن غداهم.


DÉPÊCHE TÉLÉGRAPHIQUE

LIGNES TÉLÉGRAPHIQUES

Constantine, le 7 Janvier 1867

Le Général Commandant la Province
à Monsieur le Gouverneur Général [illegible]

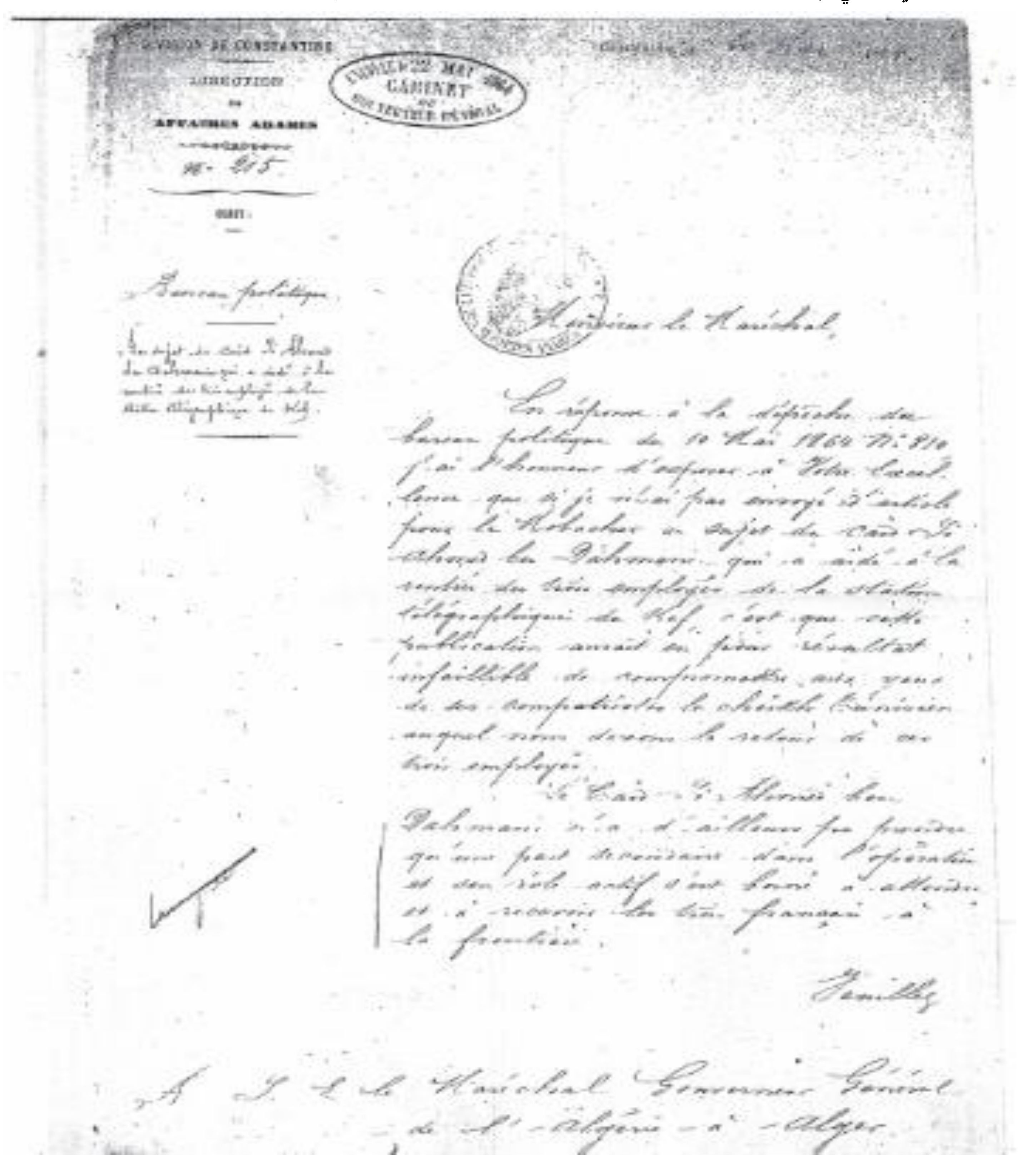
A la date du 4 Janvier le Commandant Supérieur de Tebessa écrit ce qui suit :
« Ali Bey a continué son mouvement avec le [illegible] [illegible] à camper Ali ben [illegible], le premier est à [illegible], le second à [illegible] sur l'oued [illegible].
« Ali ben [illegible] fait tous les efforts pour réunir des contingents, mais jusqu'à dans la soirée, il disposait à peine [illegible] de [illegible] cavaliers.
« Son ami, [illegible] bel Hadj [illegible] est à Bou [illegible] avec la [illegible], prêt à se réfugier chez nous.
« S'il ne l'a pas encore fait et beaucoup d'autres avec lui, c'est parce qu'ils ignorent de quelle manière ils seront accueillis. »

P. Copie Conforme
P. le Chef de Station
[illegible]

LIGNES TÉLÉGRAPHIQUES
ALGER

(2) I.S.H.M.N.T : A.O.M , Série Tunisie 25H, Carton 25H3, Dossier n° 3, Bobine A2, Folio n° 100.

الملحق رقم 12 [1] : تقرير فرنسي مؤرخ في 1864/05/20م حول دور القايد أحمد بن دحماني الرزقي في حماية و مراقبة الحدود الشرقية للجزائر خدمة لمقاصد الإدارة الاستعمارية.



Division de Constantine
Direction des Affaires Arabes
N° 215
Objet : Bureau politique
Au sujet du Caïd Si Ahmed ben Dahmani qui a aidé à la rentrée des trois employés de la station télégraphique du Kef.

Arrivée 22 Mai 1864 Cabinet du Gouverneur Général

Monsieur le Maréchal,

En réponse à la dépêche du bureau politique du 10 Mai 1864 N° 910 j'ai l'honneur d'exposer à Votre Excellence que si je n'ai pas envoyé d'article pour le Mobacher au sujet du Caïd Si Ahmed ben Dahmani qui a aidé à la rentrée des trois employés de la station télégraphique du Kef, c'est que cette publication aurait eu pour résultat infaillible de compromettre aux yeux de ses compatriotes le cheikh tunisien auquel nous devons le retour de ces trois employés.

Le Caïd Si Ahmed ben Dahmani n'a d'ailleurs pu prendre qu'une part secondaire dans l'opération et son rôle actif s'est borné à attendre et à recevoir les trois français à la frontière.

[illegible]

A S. E. le Maréchal Gouverneur Général de l'Algérie à Alger

[3] I.S.H.M.N.T : A.O.M , Série Tunisie 25H, Carton 25H2, Dossier n° 2, Bobine A2, Folio n° 62.

الملحق رقم 13 [1]: برقية مؤرخة في 1864/04/29م لرئيس القطاع العسكري القسنطيني حول دول القايد علي باي في التخابر لصالح المحتل.


ALGÉRIE.

LIGNES TÉLÉGRAPHIQUES

DÉPÊCHE TÉLÉGRAPHIQUE.

Reçue le 25 à 9 h. 6 m. Matin
Expédiée le 25 à 9 h. 20 m.

Constantine le 25 avril 1864, à 8 h. 50 m. Matin

N° 2696

Le Général Commandant la Division
à Monsieur le Gouverneur Général
Alger.

Le Caïd Si Ali bey annonce la révolte de plusieurs tribus de Tripoli. Le nom du fils du Cheick Rouma apparaît dans son récit. Ali bey parle de plusieurs mezlas des Chamba campées tranquillement entre Ouaregla et Temacin.

On met toujours en doute la mort de Si Slimane bey Djellout Bel hadj bou kafs, parent de Si Hamza; aurait l'intention de rejoindre les Français. Les nouvelles venues par Aïn Rich et l'oued Djedi ne sont rien des tribus de Laghouat, de Djelfa et de Biskra sont très bonnes.

Un Européen nommé Barlet, gardien des caravansérails de Msila, est arrivé à Bousaada le 20 avril venant de Djelfa, il déclare que sur la route qu'il a suivi tout est tranquille.

Pour copie conforme
Le Directeur des transmissions

Confirmée le 26 avril 1864 -
Alger N° 738
Oran N° 486

---

(4) I.S.H.M.N.T : A.O.M , Série Tunisie 25H, Carton 25H2, Dossier n° 2, Bobine A2, Folio n° 25.

الملحق رقم 14 [1]: برقية مؤرخة في 1870/08/30م لرئيس قسمة باتنة العسكرية حول تخابر القايد علي باي على الثائر الناصر بن شهرة لصالح المحتل.

TÉLÉGRAPHIE

BUREAU

d

à

DÉPÊCHE TÉLÉGRAPHIQUE

N° du départ :

Nombre de mots : 218

N° à l'arrivée : 9795

Reçue de Batna (5)

le 30 Août 1870

à 4 h. 38 m. du s.

L'Employé,

Expédiée le 30 Août 1870

à 4 h. 50 m. du

Notée le 31 août 1870

Batna, le 30 Août 1870, à 3 h. 51 m. du

Le Commandant de la Subdivision à Monsieur le Général Commandant la Province

Le Kaïd Ali bey écrit que ben Nasseur ben Chohra s'est réconcilié avec bou Aliey et que ces chefs de partisans se proposent de prendre prochainement la campagne avec les Hamamma.

D'un autre côté, un espion envoyé par le Kaïd Mohammed Trie est revenu en annonçant qu'il est arrivé à Taouzent, il y a environ 8 jours un indigène de Djerba, petit port près de Tunis, avec des sommes très considérables d'argent qu'il disait être destinés à acheter des étoffes, il n'avait jusqu'à ce jour fait aucun achat de ce genre. On le surveille et on nous renseignera sur ses faits et gestes.

Il est permis de voir dans ces faits le résultat des menées prussiennes qui commencent à se produire.

J'ai donné des ordres pour [illegible] [illegible] et établir dans les postes habituels les goums du Zab Chergui et des Ouled [illegible]

(5) A.O.M , 2H57.

الملحق رقم 15 [1]: رسالة أحمد بن صميدة أحد مسؤولي الأقاليم الغربية التونسية إلى السلطة المركزية بتونس في شهر مارس عام 1871م حول مكان تواجد الناصر بن شهرة رفقة محي الدين بن الأمير عبد القادر، و دور القايد علي باي في محاربتهما.



31

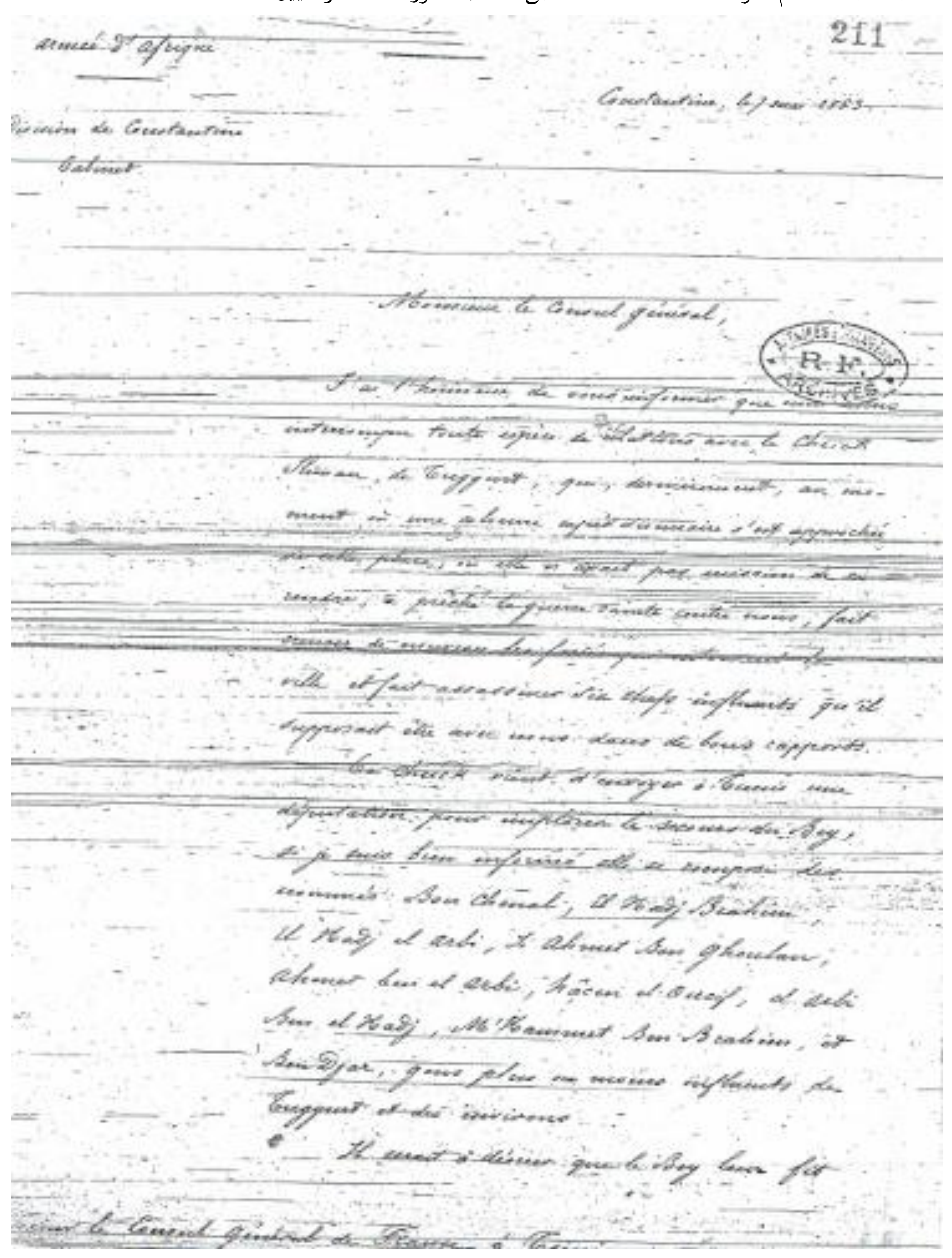
الحمد لله   والصلاة والسلام على رسول الله

السلام منّي

[illegible] ان ابن الحاج عبد القادر
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ١٢٨٨

[1] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 929، وثيقة رقم 31.

الملحق رقم 16 [1]: رسالة رئيس القطاع العسكري القسنطيني إلى القنصل الفرنسي بتونس في 1853/05/07م حول استعدادات سلمان بن جلاب للثورة ضد الفرنسيين.



Armée d'Afrique

Division de Constantine

Cabinet

211

Constantine, le 7 mai 1853.

Monsieur le Consul général,

J'ai l'honneur de vous informer que nous avons interrompu toute espèce de relations avec le Cheikh Selman, de Tuggurt, qui, dernièrement, au moment où une colonne expéditionnaire s'est approchée de cette place, où elle n'avait pas mission de se rendre, a prêché la guerre sainte contre nous, fait [illegible] ville et fait assassiner six chefs influents qu'il supposait être avec nous dans de bons rapports.

Ce Cheikh vient d'envoyer à Tunis une députation pour implorer le secours du Bey, et si je suis bien informé elle se compose des nommés Ben Chenal, El Hadj Brahim, El Hadj el Arbi, Si Ahmed Ben Ghoulam, Ahmed ben el Arbi, Hacen el Oucif, el Arbi Ben el Hadj, M'Hammed Ben Brahim, et Ben Djar, gens plus ou moins influents de Tuggurt et des environs.

Il serait à désirer que le Bey leur fît

A Monsieur le Consul Général de France à Tunis

comprendre qu'il est en de bonnes relations avec nous, et qu'ils n'ont rien à espérer de ce côté; peut-être même devrait-il refuser de les recevoir comme ennemis de la France.

J'ai cru devoir vous donner ces renseignements que, dans une circonstance donnée, vous pourriez avoir intérêt à connaître.

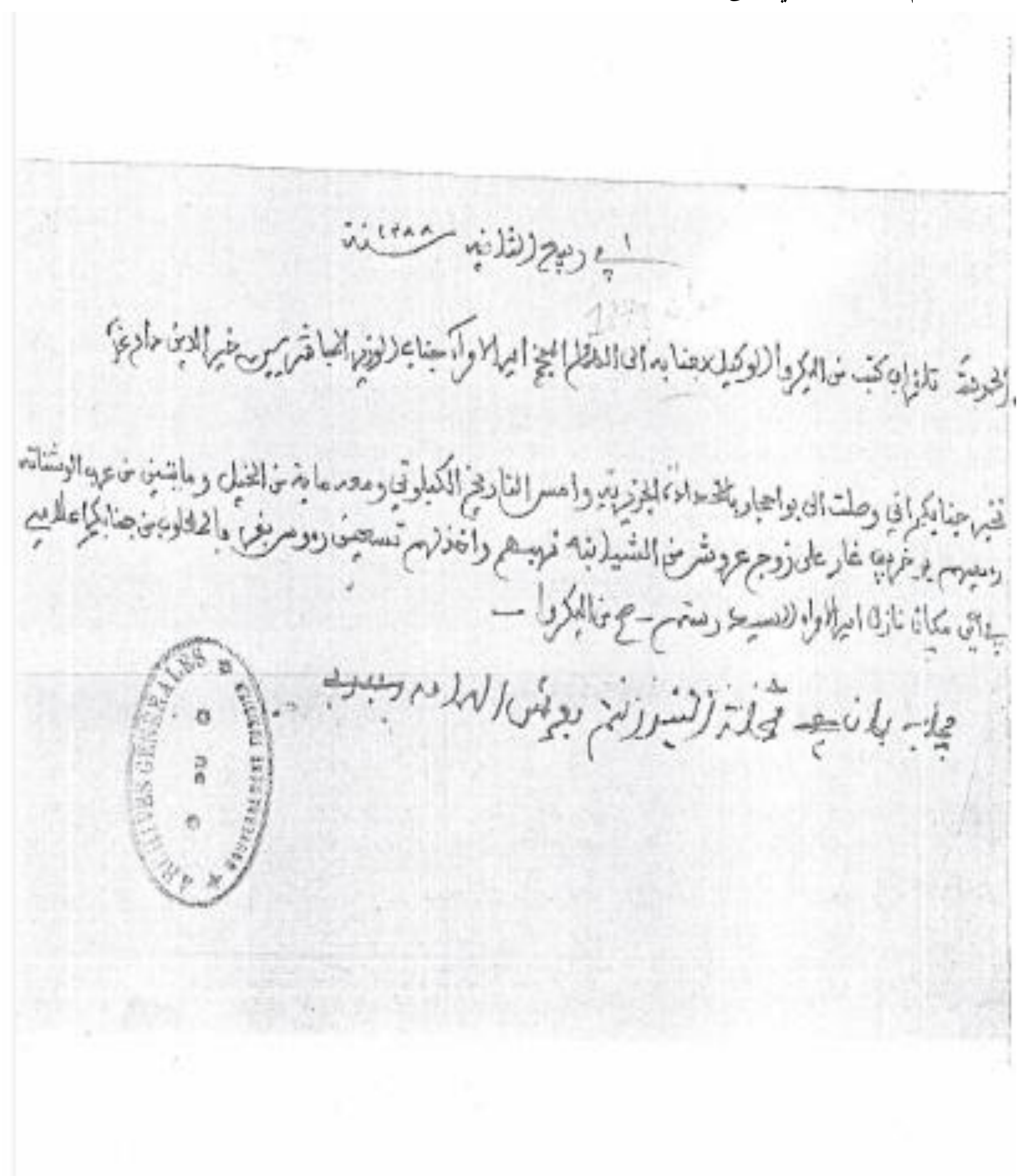
Agréez, Monsieur le Consul général, la nouvelle assurance de ma haute considération.

Le Général de Don Cde la province de Constantine

Signé : Mac Mahon.

(1) I.S.H.M.N.T : Archives du Ministère des relations extérieures, France, série Correspondance Politique, carton n° 13, Bobine 291, Folio 211

الملحق رقم 17 [1]: تلغراف بقلم وكيل الباي التونسي بعنابة يوسف أليغرو في 1871/06/19 حول هجوم الثائر الكبلوتي على المناطق الحدودية الشرقية للجزائر.



في ١ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨

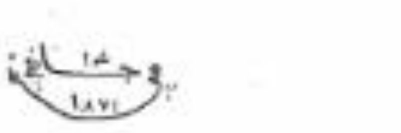
الحمد لله تلغراف كتب من اليغرو الوكيل بعنابة إلى المعظم الأمجد أمير الأمراء جناب الوزير المباشر سيدي خير الدين دام عزه

نخبر جنابكم أني وصلت إلي بو أخبار بالحدود الجزيرية وأمس الثائر محمد الكبلوتي ومعه مائة من الخيل وما ينيف من عرب الوشتاته ومعهم [illegible] غار على زوج عروش من الشيابنة فنهبهم وأخذ لهم تسعين زوج [illegible] والجلوب من جنابكم [illegible] بذلك مكاتب نازلة أمير الأمراء السيد رستم - ح من اليغرو —

جواب بأن [illegible]

---
(1) A.N.T : Série H, Boite 212, Dossier 240, n° 9.

الملحق رقم 18 [1]: رسالة سي عزيز نجل الشيخ الحداد إلى حاكم دائرة سطيف العقيد "بونفالي" في 1871/01/12م حول تصالحه مع محمد السعيد بن علي الشريف.



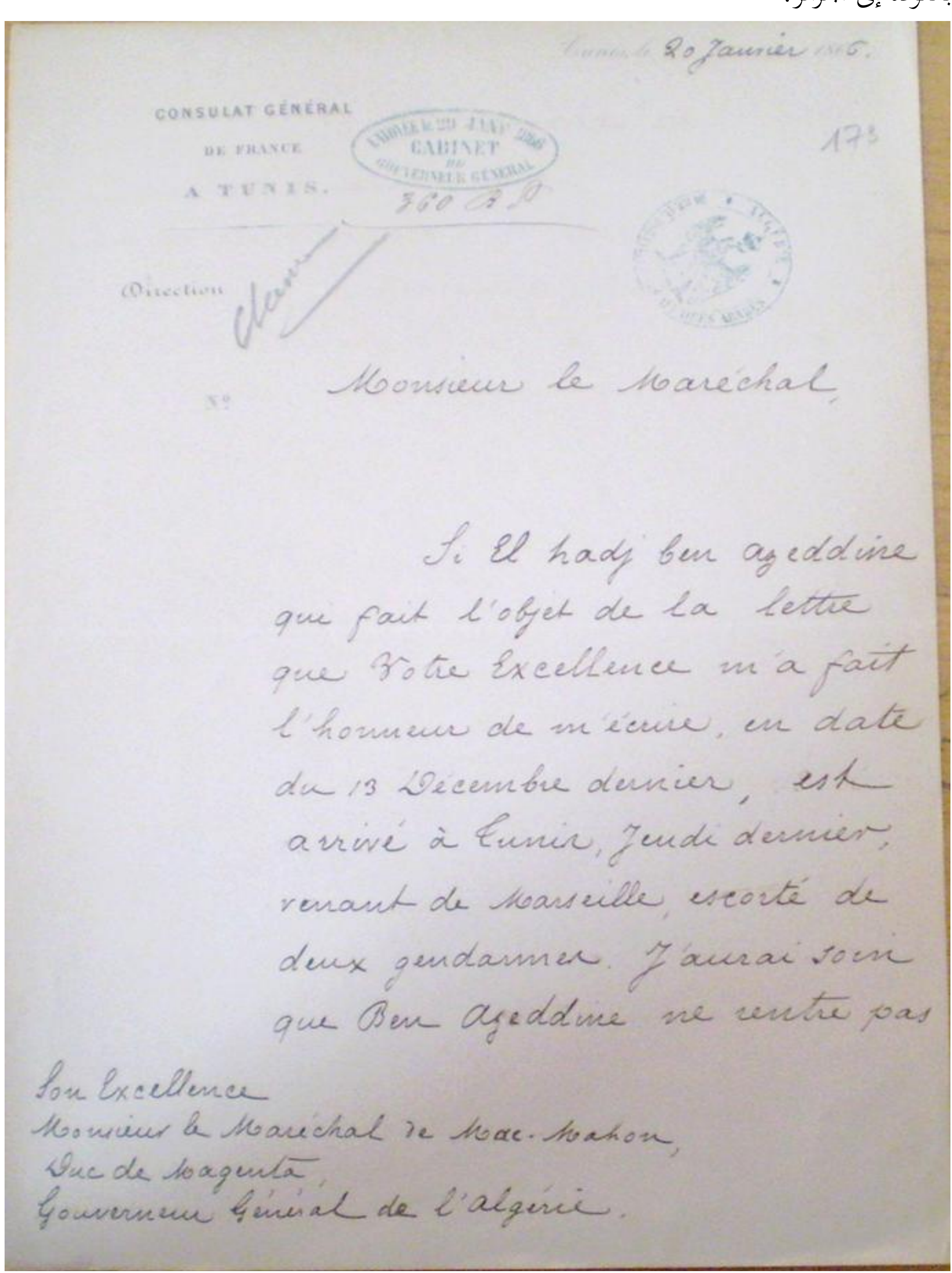


المعظم الارفع سعادة السيد الكرنيل بونفالي حاكم الكبير بوطن سطيف السلام
عليكم والرحمة والبركة [illegible] وبعد [illegible] الاعلام لسيادتكم
اننا [illegible] يوم لزيارة سيدي محمد السعيد بن علي الشريف باش اغا
[illegible] امتثالا لامركم واصطلحنا معه وزال ما كان فاسدا وحسدا بيننا
فله الحمد والشكر على هذه الساعة السعيدة التي جعل الله فيها الخير وفرحنا بذلك
اليوم الكبير على الصلح الواقع بيننا ونطلب من الله تعالى ان يجعله دايما ونطلب منه
تكتب له جوابا وتذكر له وارسلنا ابن الشيخ الحداد فارح بهذا الصلح الذي [illegible]
ليزول منه الشر [illegible]
من جانبنا وجانبه [illegible] والسلام [illegible]
عن اذن الشيخ السيد عزيز بن الشيخ الحداد امنه الله امين امين

اني وجهت جواب ابن الشيخ الحداد
داخل جواب [illegible]

1 A.O.M , 2H57.

الملحق رقم 19 [1]: رسالة القنصل الفرنسي بتونس إلى الحاكم العام بالجزائر في 1866/01/20م يخبره فيها بوصول الحاج بن عز الدين إلى تونس، و ينصحه بعدم السماح له بالعودة إلى الجزائر.



Tunis le 20 Janvier 1866.

CONSULAT GÉNÉRAL
DE FRANCE
A TUNIS.

Direction

N°

Monsieur le Maréchal,

Si El hadj ben azeddine qui fait l'objet de la lettre que Votre Excellence m'a fait l'honneur de m'écrire, en date du 13 Décembre dernier, est arrivé à Tunis, Jeudi dernier, venant de Marseille, escorté de deux gendarmes. J'aurai soin que Ben Azeddine ne rentre pas

Son Excellence
Monsieur le Maréchal de Mac-Mahon,
Duc de Magenta,
Gouverneur Général de l'Algérie.

en Algérie./.

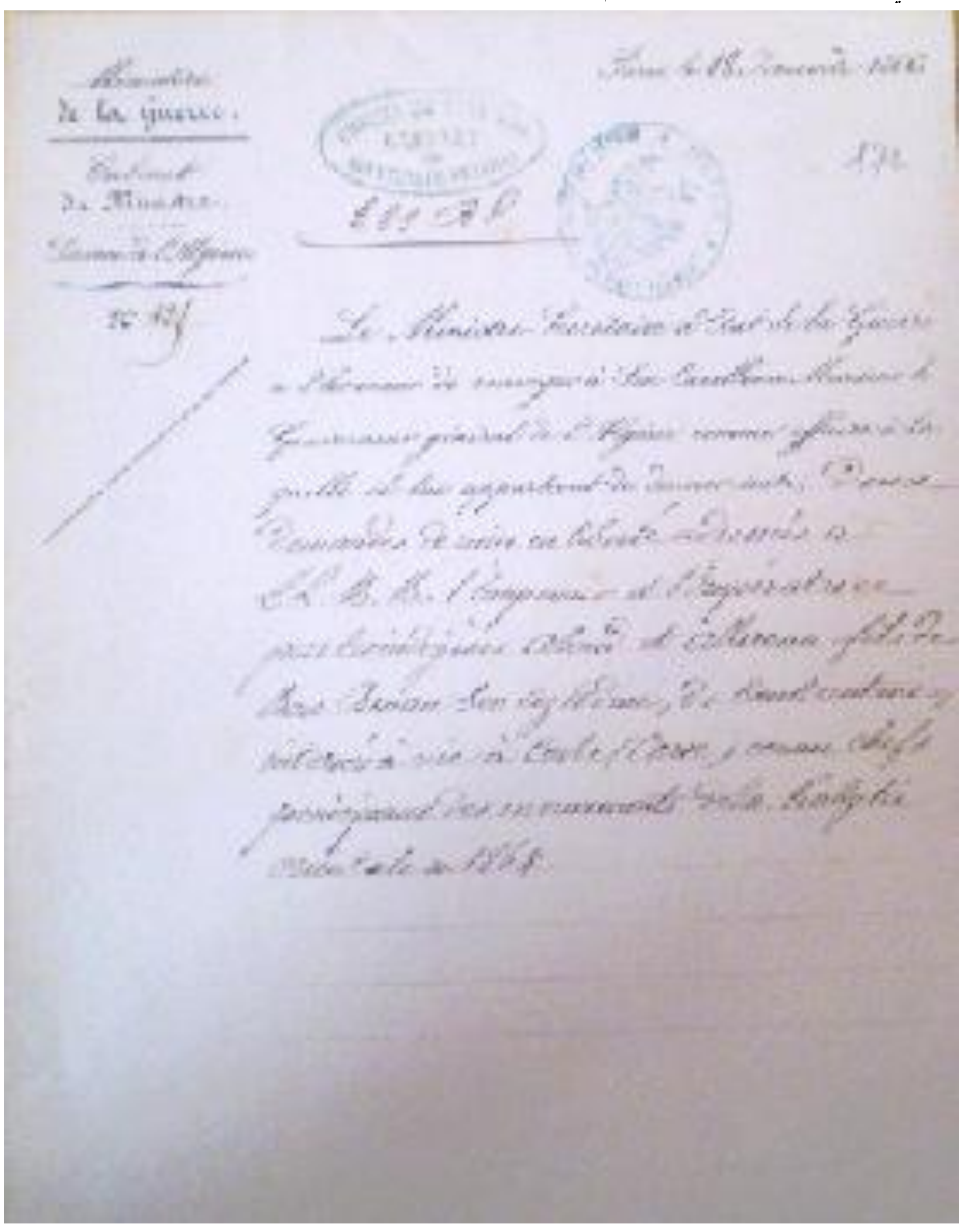
Je prie Votre Excellence d'agréer les assurances de la plus haute considération

de son très humble et très obéissant serviteur,

Le Chargé d'Affaires
et Consul Général de France,

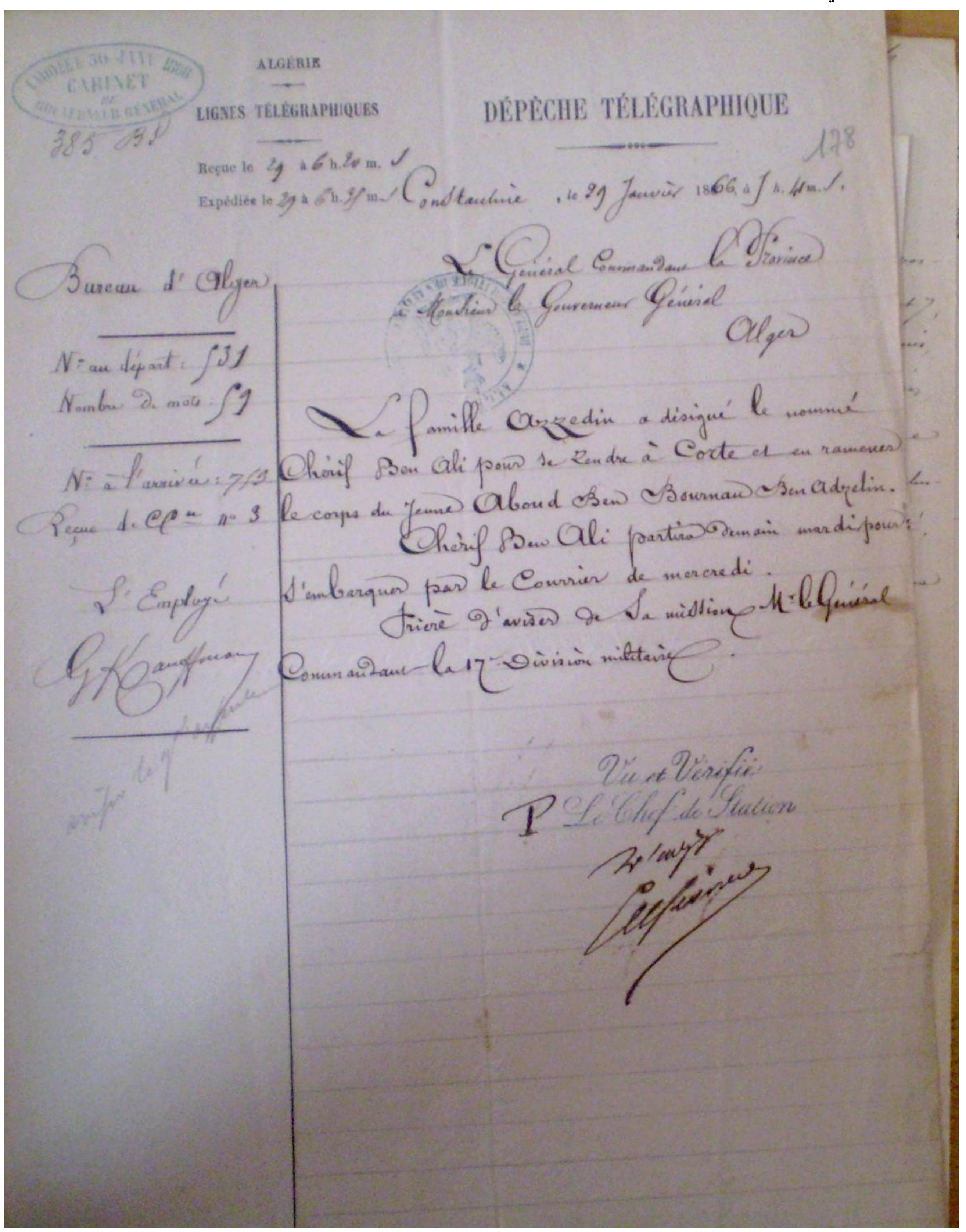
(1) A.O.M , 2H20.

الملحق رقم 20 [1]: تقرير فرنسي حول رسالة عبود و علاوة بن عز الدين المرسلة إلى الإمبراطور الفرنسي و زوجته في 1866/01/18م يلتمسان فيها العفو.



(1) A.O.M , 2H20.

الملحق رقم 21 [1]: برقية مؤرخة في 1866/01/19م حول تعيين عائلة أولاد عز الدين لمحمد السعيد بن علي الشريف للسفر إلى جزيرة كورسيكا لجلب جثمان عبود بن بورنان بن عز الدين.



CABINET DU GOUVERNEUR GÉNÉRAL

385 B.I

ALGÉRIE

LIGNES TÉLÉGRAPHIQUES

DÉPÊCHE TÉLÉGRAPHIQUE

178

Reçue le 29 à 6 h. 20 m. s

Expédiée le 29 à 6 h. 5 m. s Constantine, le 29 Janvier 1866 à 5 h. 40 m. s.

Bureau d'Alger

N° au départ : 531

Nombre de mots : 59

N° à l'arrivée : 713

Reçue de Ct n° 3

L'Employé

G. Kauffmann

Le Général Commandant la Province

à Monsieur le Gouverneur Général

Alger

La famille Azzedin a désigné le nommé Chérif Ben Ali pour se rendre à Corte et en ramener le corps du jeune Aboud Ben Bournan Ben Adzelin.

Chérif Ben Ali partira demain mardi pour s'embarquer par le Courrier de mercredi.

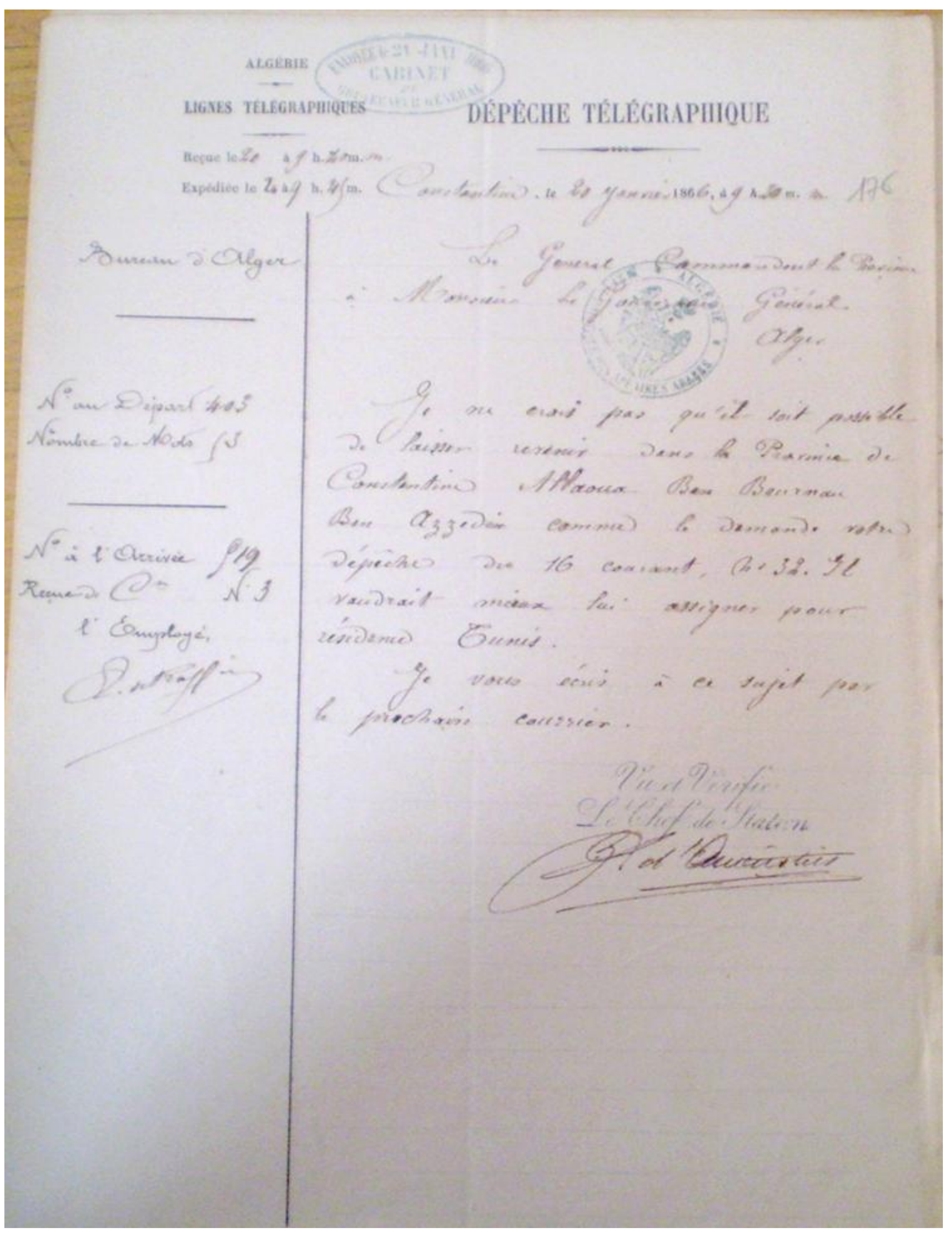
Prière d'aviser de sa mission M. le Général Commandant la 17e Division militaire.

Vu et Vérifié

P Le Chef de Station

(1) A.O.M , 2H20.

الملحق رقم 22 [1]: برقية مؤرخة في 1866/01/20م لرئيس القطاع العسكري القسنطيني عبر فيها عن معارضته لعودة علاوة بن بورنان بن عز الدين إلى مقاطعة قسنطينة.



ALGÉRIE

LIGNES TÉLÉGRAPHIQUES

CABINET DU GOUVERNEUR GÉNÉRAL

DÉPÊCHE TÉLÉGRAPHIQUE

Reçue le 20 à 9 h. 20 m. m.

Expédiée le 20 à 9 h. 45 m. Constantine, le 20 janvier 1866, à 9 h. 20 m. m. 176

Bureau d'Alger

N° au Départ 403
Nombre de Mots 53

N° à l'Arrivée 919
Reçu de C... N° 3
L'Employé,

Le Général Commandant la Province
à Monsieur le Gouverneur Général
Alger

Je ne crois pas qu'il soit possible de laisser revenir dans la Province de Constantine Allaoua Ben Bournan Ben Azzedin comme le demande votre dépêche du 16 courant, N° 32. Il vaudrait mieux lui assigner pour résidence Tunis.

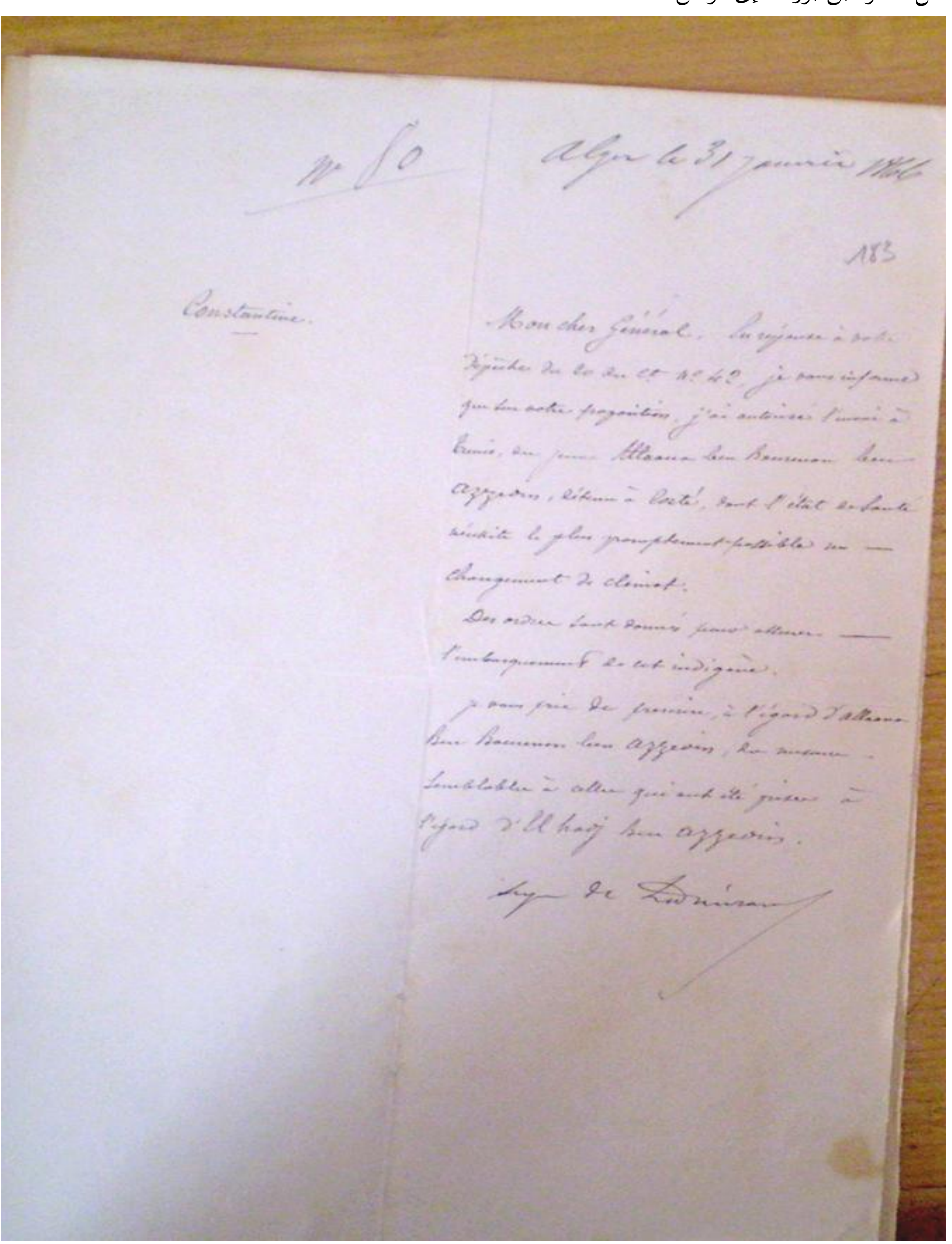
Je vous écris à ce sujet par le prochain courrier.

Vu et Vérifié
Le Chef de Station

---

(1) A.O.M , 2H20.

الملحق رقم 23 [1]: برقية مؤرخة في 1866/01/31م حول موافقة الحاكم العام الفرنسي على نقل علاوة بن بورنان إلى تونس.



N° 80

Alger le 31 janvier 1866

183

Constantine.

Mon cher Général, En réponse à votre dépêche du 26 du ct N° 42, je vous informe que sur votre proposition, j'ai autorisé l'envoi à Tunis, du jeune Allaoua ben Bourenan ben Azzedin, détenu à Corté, dont l'état de santé nécessite le plus promptement possible un changement de climat.

Des ordres sont donnés pour assurer l'embarquement de cet indigène.

Je vous prie de prendre, à l'égard d'Allaoua ben Bourenan ben Azzedin, des mesures semblables à celles qui ont été prises à l'égard d'El hadj ben Azzedin.

Sig. de Ladmirault

(1) A.O.M , 2H20.

الملحق رقم24 [1]: رسالة لبومزراق المقراني إلى الحاكم العام الفرنسي مؤرخة في 1873/12/19م يلتمس منه تخفيف عقوبة النفي المسلطة ضده، و يناشده بلم شمل عائلته.

(1) A.O.M , 6H37.

الملحق رقم 25 [1]: رسالة الونوغي بن أحمد بومزراق المقراني إلى الحاكم العام الفرنسي مؤرخة في 1893/06/06م يلتمس منه المساعدة على السفر مجانا في (بابور البوسطة) لرؤية والده المنفي في كاليدونيا.

الحمد لله   كتب بالجزائر في 6 جوان سنة 1893

الى سعادة الحاكم السيد الكبير فوق الشان عليك
ورحمة الله اما بعد الطلب من فضل سيدي ان تمن علي بالاذن
في انه نذهب الى ابي احمد بن مزراق المقراني المنفي ببلاد نفيه
كلدونيا منذ اثني وعشرين سنة وانا مشتاق له بعض الى
الغاية لطول المدة المذكورة ولا يخفى سعادة سيدي من الرغبة
على الابن وايضا الطلب من كرم العالي الحاكم ان يكون سفري
في بابور البوسطة بغير ثمن حيث لا مانع من ذلك
والسلام من الونوغي بن احمد بن مزراق المقراني الساكن
ببلاج الابيار

(1) A.O.M , 6H37.

الملحق رقم 26 [1]: تلغراف مؤرخ في 1888/05/18م حول موافقة الفرنسيين بالسماح لمحمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني المستقر بدمشق (سوريا) للاستقرار في تونس.

Télégramme

18 Mai 1888

OFF TUNIS ALGER 01475 80 18 5/5 GOUVERNEUR A RÉSIDENT GENERAL TUNIS.
MOHAMED BEN ABDESSELAM EL MOKRANI QUI FAIT L OBJET DE VOTRE TELEGRAMME DU 16 MAI COURANT EST L EX CAID D AIN TAGROUT COUSIN DE L ANCIEN BACH AGHA DE LA MEDJANA IL A PRIS UNE PART ACTIVE A L INSURRECTION DE 1871- MALGRE CES ANTECEDENTS JE NE VERRAIS PAS DE SERIEUX INCONVENIENTS A CE QUE CET ANCIEN INSURGE SOIT AUTORISE A SE FIXER EN TUNISIE OU PLUSIEURS DE SES PARENTS SONT DEJA ETABLIS LETTRE SUIT.

(1) A.N.T : Série A, Carton 278, Dossier 06, n° 16.

الملحق رقم 27 [1]: رسالة الحاكم العام الفرنسي بالجزائر إلى المقيم العام الفرنسي بتونس مؤرخة في 1889/09/06م يعلمه فيها برفض طلب محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني المتعلق برغبته في العودة إلى الجزائر إلى جانب مطالب أخرى.



GOUVERNEMENT GÉNÉRAL
DE L'ALGÉRIE

7e Bureau

Section

No 5269

Alger, le 6 Septembre 1889

Avis du Rejet d'une demande formée par Mohamed ben Ahmed ben Abdesselem El Mokrani

Le Gouverneur Général de l'Algérie
à Monsieur le Résident Général de France
à Tunis

Monsieur le Résident Général,

Le sieur Mohamed ben Ahmed ben Abdesselem El Mokrani, insurgé de 1871, réfugié à Tunis, a formé une demande en vue d'obtenir l'autorisation de rentrer dans son pays d'origine et l'attribution à son profit de terrains ou d'un subside.

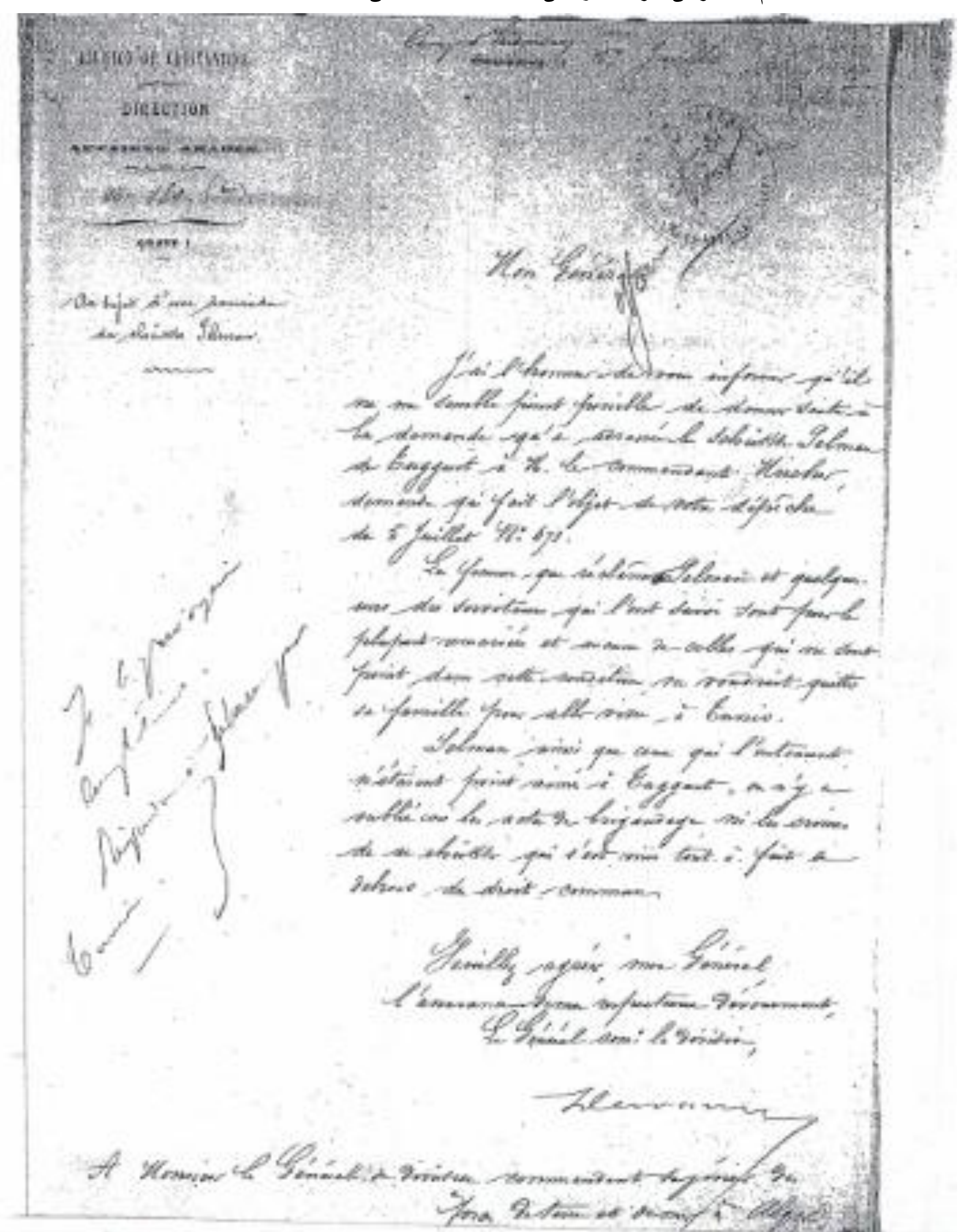
En raison de la conduite que le pétitionnaire a tenue pendant l'insurrection de 1871 et des conséquences qu'entraînerait son retour, sa demande n'est susceptible d'aucune suite.

Je vous serai obligé de vouloir bien l'en informer.

Veuillez agréer, Monsieur le Résident Général, l'assurance de ma haute considération.

[1] A.N.T : Série A, Carton 278, Dossier 06, n° 36.

الملحق رقم 28 [(1)]: رسالة رئيس القطاع العسكري القسنطيني إلى الحاكم العام الفرنسي في 1860/07/17م بخصوص موقفه الرافض لمطالب سلمان بن جلاب.



Division de Constantine

Direction

Affaires Arabes

Au sujet d'une demande du cheikh Selman

Mon Général,

J'ai l'honneur de vous informer qu'il ne me semble point possible de donner suite à la demande qu'a adressée le cheikh Selman de Touggourt à M. le Commandant [illegible], demande qui fait l'objet de votre dépêche du 5 Juillet N° 67[illegible].

Les femmes qu'a laissées Selman et quelques uns des serviteurs qui l'ont suivi sont pour la plupart mariées et aucune de celles qui ne sont point dans cette condition ne voudrait quitter sa famille pour aller vivre à Tunis.

Selman ainsi que ceux qui l'entouraient n'étaient point aimés à Touggourt, on n'y a oublié ni les actes de brigandage ni les crimes de ce cheikh qui s'est mis tout à fait en dehors du droit commun.

Veuillez agréer, mon Général, l'assurance de mon respectueux dévouement,

Le Général commandant la Division,

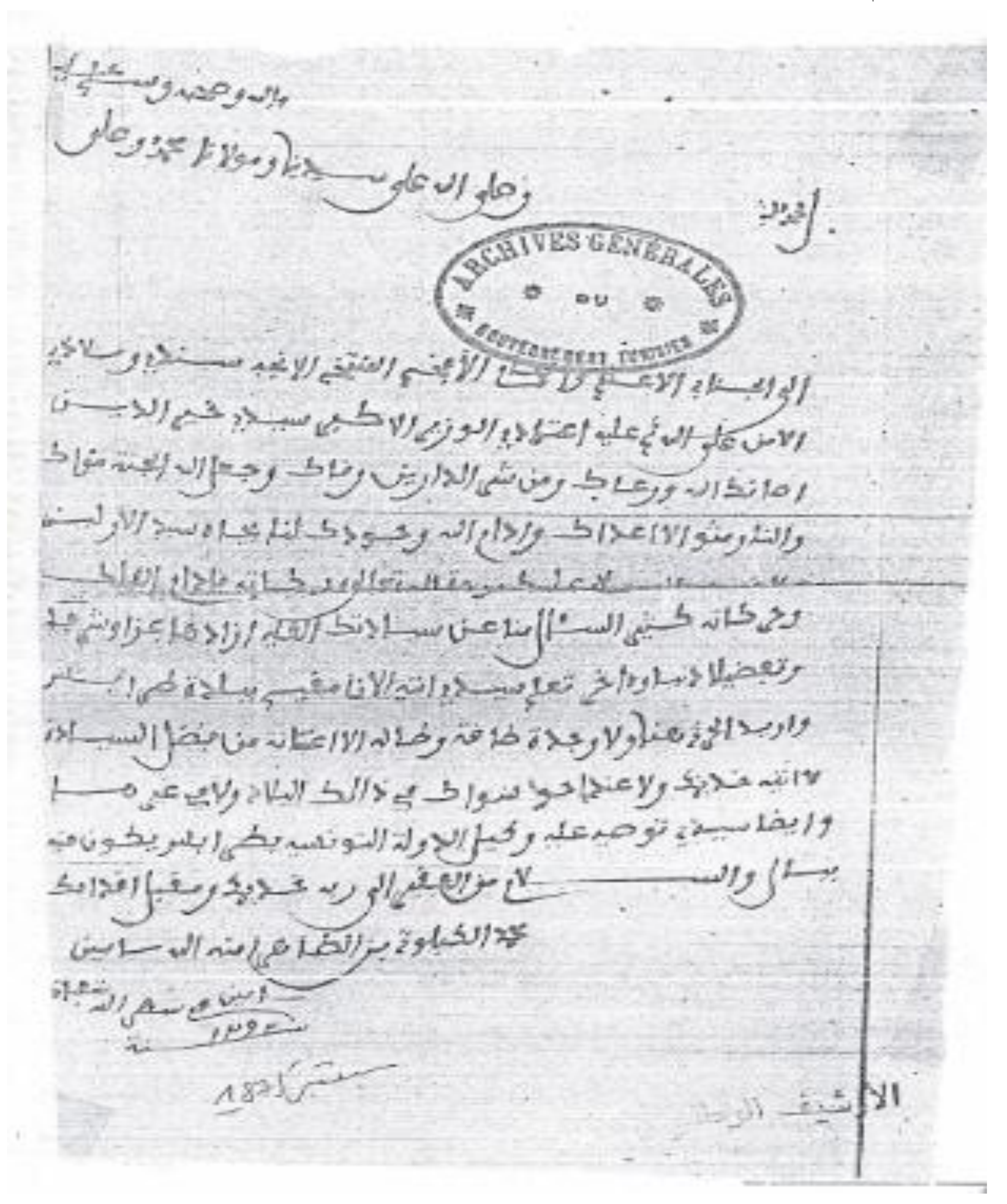
[signature]

A Monsieur le Général de Division commandant supérieur des forces de terre et de mer à Alger

---

(1) I.S.H.M.N.T : A.O.M , Série Tunisie 25H, Carton 25H2, Dossier 01, Bobine A2, Folio n° 6.

الملحق رقم 29 [1]: رسالة محمد الكبلوتي إلى الوزير التونسي خير الدين في شهر سبتمبر من عام 1875م، يعلمه فيها بوجوده بطرابلس الغرب.



الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله [illegible]

الى الجناب الاعلى [illegible] الأجل [illegible] الانجد سيدي وملاذي
الامين على الذي عليه اعتمادي الوزير الاكبر سيدي خير الدين
اصلحك الله ورعاك ومن شر الدارين وقاك وجعل الله الجنة مثواك
والنار مثوى اعداك وادام الله وجودك لنا بجاه سيد الأرسلين
[illegible]
[illegible] السؤال منا عن سيادتك العلية ازادها الله عزا وشرفا
وتفضيلا [illegible] مقيم ببلدة طرابلس
[illegible] من فضل السيادة
[illegible] في ذلك البلاد [illegible]
وايضا سيدي [illegible] وكيل الدولة التونسية [illegible]
[illegible] والسلام من الفقير الى ربه [illegible]
محمد الكبلوتي [illegible]
[illegible] 1292
سبتمبر 1875

الأرشيف الوطني

(1) الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية، الحافظة 212، الملف 240، وثيقة رقم 30.

الملحق رقم 30 [1]: رسالة سلمان بن جلاب إلى محمد الصادق باي تونس عام 1866م يلتمس فيها مده بمساعدة مالية.



الحمد لله   نصر من الله وفتح قريب

الهمام الذي اضاء به الكون وافتخر واشرق [illegible]

الشريعة وانتشر [illegible] الدين و[illegible] والصالحين المجاهد

في سبيل الله امير الامر صاحب الدايرة المنشورة و[illegible] المعمورة

والعساكر المنصورة المتوكل على فضل مولانا [illegible] سيدنا

ومولانا [illegible] المشير ابو عبد الله سيدي محمد الصادق باشا باي ايدكم

الله بالعز والنصر والتمكين امين اما بعد السلام الله عليك والتحية

والاكرام والتبجيل [illegible] العظام [illegible] السيادة العالية

نعلمكم بما يكون خيرا ان شاء الله [illegible] يا سيدي [illegible]

[illegible] وتغيرت احوالي من قلة المصروف وحالي ضعيف وانا [illegible]

[illegible] من العيال [illegible] وهذا لي ثلاثة اشهر

[illegible] الذي خرج لنا من الدار السعيدة [illegible] يا سيدي [illegible]

[illegible] والله ثم والله [illegible]

[illegible]

عبد ربه المجاهد في سبيل الله سلمان بن جلاب وفقه الله امين امين

[illegible] 1283

الأرشيف الوطني التونسي

---

[1] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930، وثيقة رقم 23.

الملحق رقم 31 [1]: رسالة سلمان بن جلاب إلى إسماعيل السنوسي و نجليه سيدي أحمد و سيدي أحمد السنوسي عام 1867م، يشتكي فيها ضنك عيشه و قلة موارده المالية.

[1] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930، وثيقة رقم 24.

الملحق رقم 32 [1]: رسالة سلمان بن جلاب إلى الوزير التونسي خير الدين عام 1870م يشكوه فيها حاله المالي المتأزم.

[1] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930، وثيقة رقم 25.

الملحق رقم 33 [1]: رسالة محمد العصفور شيخ المدينة إلى وزارة الدولة عام 1890م بشأن الحالة الاجتماعية لمحمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني و أبنائه.



47

GOUVERNEMENT TUNISIEN

الحاضرة التونسية
ادارة شيخ المدينة

CHEIK MEDINA

محمد بن احمد بن عبد السلام المقراني
ابنه عبد المجيد
ابنه بوزيد
ابنه احمد هذا الاخير يخدم بادارة البوليسية بتونس

---

[2] الأرشيف الوطني التونسي : السلسلة التاريخية، صندوق 78، الملف 929، وثيقة رقم 47.

الملحق رقم 34 [1]: رسالة الونوغي بن بومزراق المقراني إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر في 1893/07/21م يطلب فيها تمكينه من مساعدة مالية.





الحمد لله   كتب بالجزائر

الى سعادة العظم الارفع سيدنا الغبيرنور جنرال السلام
عليك ورحمة الله تعالى وبركاته اما بعد ادلك تشرفت
الدنيا بسلطنتك المنيرة ادام الله سلطانك هذا واني كنت
كتبت لسيادتك العلية جوابا لاجل ملاقاتك وردت لي ال
الجواب بانك على قدم سفر ولا تتاتى ملاقاتك الان ظهر لي
ان اكتب لسيادتك جوابا وذلك سيدي اني ولد صغير
وصاحب عايلة وليست لي حرفة اقوم بها بنفسي واهلي وضاق
بي الامر حتى شرفت على الهلاك انا واهلي والان سيدي
اطلب من فضلك الكبير واحسانك الغبير ان الي بعين   تنظر
الشفقة والرحمة ولا يخفاك ان كان ابي احمد ابن مزراق المقراني
وعمي الحاج محمد باشاغا صدرت منهم هفوة وسوء
ادب مع الدولة فقد جرت عليهم العقوبة من الدولة
واما انا حين الفتنة صغير السن لي اربعة اعوام لا
زايد ولا يواخذ احد بجرم احد كما يقال في المثل
الساير كل شاة معلقة برجلها وان كان ظهر علي
شي فها انا بين يديك وانه علي نحو سبعماية فرنك دين
من قبل كراء الدار وكسوتي ونفقتي انا واهلي والان
المرجو من فضلك ان تنظرني بعين الرحمة وان كان
امر اخر ما طلب منك ان ترميني في السجن احسن من
اضيع في الازقة والسلام من خديمك الوانوغي بن احمد
ابن مزراق المقراني الساكن
في البليدة

---

[1] A.O.M , 6H37.

المصادر و المراجع

أولا: الأرشيفات

I– وثائق مراكز الأرشيف الفرنسية.

1– مركز أرشيف بلدان ما وراء البحار بإيكس أون بروفانس (A.O.M)

1- Série F 80

- F80. 441 : Affaires Arabes Diverses 1832-1859.
- F80. 493 : Bureaux Arabes, Rapports de Constantine
  Pendant L'année 1846.- Les chefs indigènes et leurs administrés.
- F80. 496 : Bureaux Arabes, Rapports de Constantine Pendant L'année 1849.
- F80. 504 : Bureaux arabes, Rapports de Constantine
  Pendants L'année 1855.
- F80. 510 : Bureaux arabes : Alger, Oran, Constantine (1847-1848)
- F80. 903 : Budget de 1868.
- F80. 1672 :

1- Rapport du Comte Damrémont Gouverneur Général des Possessions Française dans le Nord de L'Afrique, adressé au Ministre de guerre, Février 1837
2- Rapport du Comte Drouet d'Erlon Gouverneur Général des possessions française dans le nord de L'Afrique au Ministre de la guerre, S.D.
3- Rapport du Maréchal Valée Gouverneur Général des possessions françaises dans le nord de L'Afrique au Ministre de la guerre le 04 octobre 1838.

- F80. 1679 : Insurrection 1864-1865 : Lettre de Bouakaz à Abdelkader le 17/07/1865- Rapport du Général commandant de la division de Constantine au ministre de la guerre le 25/06/1864.
- F80. 1680 : Secours de L'Empereur aux indigènes le 21/03/1866.
- F80. 1898 : Lettre de Jules Combon au Ministre des Affaires Etrangères , 27/07/1896.
- F80. 1861 : Dossier Ben-Azzedine, Année 1869.

2- Série H

- 1H4 : Correspondance Concernant la province de Constantine – journal de l'occupation de Constantine (1837)- Proclamation Valée (1838)- Cheikh el Arab- Mission du capitaine de Neveu chez les Sahari 1844.
- 2H18 : Famille Ben-Azzedine.
- 2H19 : Affaires politiques et Militaires – Insurrection dans le Hodna 1860- Affaire des Babor 1860- Correspondance.
- 2H20 : Soumission des frères Ben-Azzedine.
- 2H21 : Oued-el-kébir. Famille Ben-Azzedine 1849-1877.
- 2H22 : Opérations et Missions. Correspondance des officiers 1838-1856.
- 2H24 : Mémoires relatifs aux événements accomplis dans la subdivision de Batna (1848-1849).

- 2H25 : Opérations militaires : Bougie –Ziban. Hodna. Aurès- Zaatcha 1849-Achacha- Oued Ghir- Tougourt 1847-1855.
- 2H27 : Correspondance générale de la division de Constantine.
- 2H57 : Insurrection de 1871 (Setif).
- 2H60 : Rapports politiques Sur L'Insurrection du District de Souk-Ahras 1871.
- 2H68 : Rapports du District de Souk-Ahras 1871.
- 6H1 : Chefs Indigènes – Nominations- Révocations- Notices (1846-1850).
- 6H28 : Chefs et personnalités indigènes Sétif .
- 6H33 : Chefs indigènes, personnages influents.
- 6H34 : Chefs indigènes, (1841-1898).
- 6H36 : Chefs indigènes, de la subdivision de Bône.
- 6H37 : La famille Mokrani.
- 10H16 : Histoire Géographique et statistique de chaque tribu (S.D).
- 10H18 : Renseignements Géographiques et Historiques. Subdivision de Batna. Cercle de Biskra. Historique (1844)- Notice sur les tribus. Cartes.
- 10H58 : Documents, Problèmes Africains.
- 11H32 : Province de Constantine-Rapports Divers.

3- Série K

- 1K163 : Correspondance reçue de la subdivision de Sétif par la division de Constantine pendant L'année 1865.
- 33K1 : Annexe de Souk-Ahras : Correspondances générales 1851-1855.
- 36K29 : Cercle de Souk-Ahras : Rapport annuel de L'année 1871.
- 36K30 : Insurrection de 1871 à Souk-Ahras.
- 36K31 : Correspondances des Caid.

4- Série KK

- 1KK2 : Correspondance générale du département de Constantine 1845.
- 1KK3 : Correspondance du Duc d'Aumale 1845.
- 1KK8 : Correspondance du gouverneur général pendant L'année 1848.
- 1KK27 : Rapport d'inspection général des bureaux arabes de la province de Constantine 1855.
- 10KK1 : Correspondance cabinet, département (1856-1857).
- 10KK30 : Correspondance de la division de Constantine Années 1849-1852.
- 10KK31 : Rapports des bureaux Arabes 1852-1854.
- 10KK32 : Divers rapports des bureaux Arabes (1854-1857).
- 20KK31 : Correspondance de district de Bône, Année 1871.
- 36KK31 : Correspondance de district de Souk-Ahras, Année 1871.
- 40KK5 : Correspondance avec la division de Constantine 1846-1847.
- 40KK8 : Rapports des bureaux arabes de la province de Constantine 1853.
- 40KK9 : Rapports des Bureaux arabes de la province de Constantine 1854.
- 40KK60 : Correspondance avec le cercle de Bordj Bouarreridj (1851-1854).

ثانيا: مركز أرشيف وزارة الحربية A.M.G بباريس, سلسلة H

- H 229 : Mémoires divers 1844-1859 : Commandements et chefs Indigènes de la province de Constantine, année 1850- Rapport du 30 octobre 1857- Inspections des finances sur la perception des sommes imposées aux tribus dans la province d'Alger et celle de Constantine comme charges communales.

II– وثائق مراكز الأرشيف بتونس

1– الأرشيف الوطني التونسي

أ– السلسلة التاريخية

الحافظة	الملف	عنوان الملف	عدد الوثائق	التاريخ
78	929	مراسلات صادرة عن الأمير عبد القادر بن محي الدين الحسيني الجزائري المقيم بالشام خاصة بتقديم تهاني و شكر و مدح لوزراء و قضاة تونسيين و مطالب متعلقة بتوسيم و إقامة بالبلاد التونسية.	94	1841م –1878م
78	930	مراسلات صادرة عن سلمان بن علي بن جلاب يستعطف فيها الدولة لمده بإعانة مالية.	35	1855م– 1870م
185	1050 مكرر	مراسلة محمد الكبلوتي إلى الوزير محمد العزيز يلتمس فيها نقل والده من السجن إلى المستشفى للتداوي.	01	1882م
212	239	مراسلات حول قضية محمد الحسناوي بن بلقاسم الثائر الجزائري و احتمائه بالبلاد التونسية	08	1840م– 1844م
212	240	مراسلات في شأن الجزائري الكبلوتي المهاجر إلى البلاد التونسية	32	1871م– 1880م
219	333	الحرب البروسية سنة 1870م و تأثيرها على المستعمرات الفرنسية و خاصة الجزائر.	/	/
255	723	قضية عبور شخصين بروسيين عبر التراب التونسي للجزائر و بث البلبلة خاصة بعد إعلان الحرب الفرنسية البروسية.	/	/

ب– السلسلة (أ) (Série A)

- Carton 278, Dossier n° 6 Années, (1888-1915), Nombres de Folios 131 : Famille Mokrani.

المحتوى: مراسلات تتعلق بمطالب مقدمة من أبناء عائلة المقراني المستقرة بتونس منذ عام 1871م للحصول على تصريح لزيارة الجزائر.

2- الوثائق المصورة و المحفوظة بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية التونسية (تونس) (I.S.H.M.N.T)

A- Archives d'Outre- Mer d'Aix-en-Provence (A.O.M) France.

Bobines	Cartons	Contenu	Dates extrêmes	Nbre Folios
A1	25H1	-Émigration de tribus en Algérie - **Dossier 1 :** Tribus de la Frontière	1849-1869 1849-1862	380 90
A2	25H2	- Affaire de Ben Ghadahoum-Mission Duval et Mircher. - **Dossier1 :**Mission du commandant Mircher à Tunis en 1860. Émigration d'Algériens en syrie et en Tunisie. - Commerce avec le Sudan- Situation politique et militaire de la régence-Frontière Algéro-tunisiènne - **Dossier 2 :** Insurrection de 1864-Mission Duval-Impôts- Marine Française-Mozabites-Frontière Algéro-Tunisienne-Frontière Tuniso-Tripolitaine-Relation Franco-Ottomane. - **Dossier 3 :** Ali Ben Ghadahoum, ses agissements dans la province de Constantine-Tribus tunisiennes refugiées en Algérie-frontières algéro-tunisiennes.	1860-1868 1860 1864 1865-1867	400 25 100 220
A3	25H3	- Frontière Algéro-Tunisiènne - **Dossier 2 :** Incursions des Tribus Algériennes et tunisiennes. - Réclamations et demandes d'indemnités-Mozabites-Télégraphe-Caravane	1840-1869 1861-1869	270
A10	25H9	- Frontière Algero-Tunisienne - **Dossier 5 :** problèmes de frontières - **Dossier6 :** problèmes de frontières	1846-1851 1844-1845 1846-1851	458 64 /
A11	25H10	- Frontière et délimitation - **Dossier1 :** insurrection des Hanancha- Maladie d'Ahmed Bey ;	/	/
A21	25H16	- Tunisie : correspondance du consulat de France : - **Dossier1 :** cheick Ghouma : Chronique des événements au sud de la province de Constantine- refuge de cheick Ghouma dans la Nefzaoua, Souf puis khadames-mort de cheick Ghouma- Ottoman-karamanlis.	1837-1858 1855-1858	750 200
A22	25H16	- Tunisie : Correspondance du Consulat de France - **Dossier1 :** Régence de Tunis, Émigration Surveillance des Algériens-Frontière Algéro-Tunisienne-Réclamation du Bey pour violation de territoire par Nemamcha- Demandes individuelles d'émigration en Tunisie-Réfugiés en Tunisie de la tribu algérienne des Oulad Moumen-surveillance des algériens réfugiés en Tunisie en particulier partisans de L'Emir Abdelkader- extradition- contre bande de poudre-	1852-1861 1852-1856	920 150

		Impôts- Snoussia- Tijania. - **Dossier2 :** Régence de Tunis-Frontière Algéro-Tinisiènne- Emigration – Attaque des Khoumirs contre le territoire de la Calle et des Ouargha contre un Smala des Tirailleurs. Émigrés Algériens en Tunisie et émigrés tunisiens en Algérie. - **Dossier3 :** Régence de Tunis-Frontière Algéro-Tunisienne. Émigration-Crime-Vol de bétail – Internement par le Bey de tentes Algériennes .	1853-1859 1860	230 200
A26	25H18 (1)	- Tunisie : Correspondance du consulat de France. - **Dossier2 :** émigration des tentes algériennes en Tunisie. - **Dossier5 :** Insurrection des Oulad Khelifa- refugiés algériens-Fuite des Oueled Khelifa dans la régence-Arrestation de Ahmed ben klef de Nafta.	1864-1874 1869 1871	1330 60 50

B- Archives Du Ministère Des Affaires extérieures (Archives du quai d'Orsay), Paris, France, Série : Affaires Diverses Politiques.

Bobines	Cartons	Contenu	Dates extrêmes	Nbre de folios
291	14	Incidents sur la frontière Tuniso-Algérienne	08/1853 -09/1854	282
293	18	Tunis 1858-1859 (janvier à juillet) **Dossier unique :** Mise en exécution de la bande anglaise à Tunis- le conflit d'influence Anglo-français la mort du cheik Ghouma et la situation de la frontière algérienne.	01/1858- 07/1859	286
296	24	**-Dossier 2 :** Ben G'dahoum passe la frontière algérienne après son attaque par le camp de Ali Bey et du général Roustan -Relation tuniso-turque .	01/1856- 02/1856	129
517	2	Tunisie : Affaires Diverses Politiques. **Dossier unique :** Aide militaire française au Bey-Incidents à la frontière Tuniso-algérienne-Influence française en Tunisie-Envoi des troupes tunisiennes en Orient-Mission de Kheireddine en France-Emprunt tunisien-Maladie de Mohamed Bey.	06/1841-01/1849	629
520	4	Affaires Divers Politique **Dossier unique :** Affaire de concession de terre à Sidi Thabet-Les tribunaux consulaires en Tunisie – Etat des finances tunisiennes- Réclamations des sujets français- Activités de la commission financière- Frontières tuniso-algérienne-Missions scientifiques .	07/1869-12/1878	619

ثانيا: المصادر و المراجع باللغة العربية

I- المصادر

1- ابن خلدون (عبد الرحمان): كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد السادس، القسم الأول، الكتاب الثالث، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1969.

2- ابن عبد القادر الجزائري (محمد): تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، الجزء الأول، شرح و تعليق ممدوح حقي، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007.

3- ابن رويلة (قدور بن محمد): وشائح الكتائب و زينة الجيش المحمدي الغالب، دمشق سوريا، 1910.

4- ابن الشارف (عبد الله بن محمد علي حشلاف): سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929.

5- أبو سالم عبد الله (العياشي): ماء الموائد المشهورة بالرحلة العياشية، الجزء الأول الطبعة1، فاس، المغرب الأقصى 1316هـ / 1898م.

6- أفندي (علي بن حمدان خوجة): وصف رحلة من الجزائر العاصمة إلى قسنطينة عبر الجبال عام 1832، تقديم و تعريب أحميدة عميراوي، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر، 2000.

7- دونوفو (إدوارد): الإخوان، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة و تحقيق كمال فيلالي، شركة دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003.

8- الزبيري (محمد العربي): مذكرات أحمد باي و حمدان خوجة و بوضربة، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.

9- الزهار (أحمد الشريف): مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982.

10- زوزو (عبد الحميد): نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، د.م.ج، الجزائر، 2007.

11- زوزو (عبد الحميد): محطات في تاريخ الجزائر، دراسات في الحركة الوطنية و الثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة)، دار هومة، الجزائر، 2004 للطباعة و النشر و التوزيع

12- أسكوت (الكولونيل): مذكرات الكولونيل أسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر عام 1841، ترجمة و تعليق إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.

13- السنوسي (محمد): الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي ، الجزء الثالث، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978.

14- العدواني (محمد بن محمد بن عمر): تاريخ العدواني، تقديم و تعليق أبو القاسم سعد الله، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2007.

15- العطار (الحاج أحمد بن المبارك): تاريخ حاضرة قسنطينة، تحقيق رابح بونار، دون طبعة، دون ناشر.

16- عبد القادر (الأمير): ذكرى العاقل و تنبيه الغافل، تحقيق و تقديم ممدوح حقي، بيروت، لبنان، 1966.

17- عبد القادر (الأمير): المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد ، الطبعة الثانية، دمشق، سوريا، 1966.

18- عبد القادر (الأمير): نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر، القاهرة، مصر، د.ت.

19- عبد القادر (الأمير): المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل و الإلحاد، دار الطاسيلي للنشر و التوزيع، الجزائر، 1989.

20- العوامر (إبراهيم محمد الساسي): الصروف في تاريخ الصحراء و سوف، تعليق الجيلالي بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007.

21- العنتري (محمد الصالح): فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة و استيلائهم على أوطانها- تاريخ قسنطينة-، مراجعة و تقديم و تعليق يحي بوعزيز، دار هومة للطباعة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2005.

22- الفاسي (الحسن بن محمد الوزان): وصف إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

23- مؤلف مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق و تقديم و تعليق عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009 .

24- مؤلف مجهول: غزوات عروج و خير الدين، تصحيح و تعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1984.

25- مسبيرو (فرانسوا): سانت أرنو أو الشرف الضائع، ترجمة مسعود حاج مسعود، مراجعة أحمد بكلي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

26- مالتسان (هاينريش فون): ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا، الجزء الثالث، ترجمة أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979.

27- ماكماهون (الماريشال) : فتح الجزائر، مذكرات الماريشال ماكماهون رئيس جمهورية فرنسا سنة 1873م، ترجمة حامد مصطفى، الشركة الإسلامية للطباعة و النشر، بغداد، العراق، د.ت.

28- قنان (جمال): نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914، د.م.ج، الجزائر، 1993.

29- ولد قادي (أحمد): الرحلة القادية في مدح فرنسة و تبصير أهل البادية، الجزائر، 1878.

30- الورتيلاني (الحسين بن محمد): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار، تحقيق و نشر محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1908.

II- المراجـــع

1- أو علي (محمد الطاهر): التعليم التبشيري من 1830 إلى 1904، دراسة تاريخية تحليلية، منشورات دحلب، الجزائر، 1997.

2- الأخضري (محمد ضيف الله): محاضرات في النهضة العربية الحديثة، د.م.ج، الجزائر، 1981.

3- أفندي (محمد ثابت) و زكي (إبراهيم خورشيد): دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 13، 1933، دون طبعة، دون ناشر.

4- بجاجة (عبد الكريم): معركة قسنطينة 1836-1837، تعريب محمد الهادي لعروق، دار البعث، قسنطينة، الجزائر ، 1984.

5- برنيان (أندري)، نوشي (أندري)، لاكوست (إيف): الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة إسطمبولي رابح و منصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، 1984.

6- برفيليي (غي): الطلبة الجزائريين في الجامعة الفرنسية 1880-1962، ترجمة مسعود حاج مسعود و آخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

7- بوعزيز (يحي): ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر، 1980.

8- بوعزيز (يحي): الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الطبعة الثالثة، تونس. 1983.

9- بوعزيز (يحي): وصايا الشيخ الحداد و مذكرات إبنه سي عزيز، م.و.ك، الجزائر، 1978.

10- بوعزيز (يحي): ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني و الحداد)، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978.

11- بوعزيز (يحي): كفاح الجزائر من خلال الوثائق، م.و.ك، الجزائر، 1986.

12- بوعزيز (يحي): مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية، د.م.ج، الجزائر 1999.

13- بوعزيز (يحي): موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب، ج1، دار الهدى ، عين مليلة، الجزائر، 2004

14- بوعزيز (يحي): مواقف العائلات الأرستقراطية من الباشاغا محمد المقراني و ثورته عام 1871، م.و.ك، الجزائر، 1994.

15- بورنان (سعيد): شخصيات بارزة في كفاح الجزائر 1830-1962، الجزء الأول: رواد المقاومة الوطنية في القرن التاسع عشر، دار الأمل للطباعة والنشر و التوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 2004.

16- بوصفصاف (عبد الكريم) و آخرون: معجم أعلام الجزائر في القرن التاسع عشر و العشرين، الجزء الأول، منشورات مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2002.

17- بيل (ألفرد): الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1989.

18- التميمي (عبد الجليل): بحوث و وثائق في التاريخ المغاربي: الجزائر و تونس و ليبيا 1816م-1871م، منشورات مركز الدراسات و البحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان، تونس، 1985.

19- تشايجي (عبد الرحمان): المسألة التونسية و السياسة العثمانية 1881-1913، ترجمة عبد الجليل التميمي، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973.

20- الجيلالي (عبد الرحمان بن محمد): تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، المطبعة العربية، الجزائر، 1955.

21- الجيلالي (عبد الرحمان) : تاريخ المدن الثلاثة: الجزائر، المدية ، مليانة، مطبعة صاري بدر الدين و أبنائه، الأبيار، الجزائر، 1972.

22- حماميد (حسينة): المستوطنون الأوروبيون و الثورة الجزائرية 1954-1962، منشورات الحبر، الجزائر، 2007.

23- حرب (أديب): التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر الجزائري، الجزء الثاني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982.

24- خير الدين (محمد) : مذكرات، الجزء الأول، م.و.ك، الجزائر، د.ت.

25- خلاصي (علي): الجيش الجزائري في العصر الحديث، دار الحضارة للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 2007.

26- الخطيب (أحمد): حزب الشعب الجزائري، الجزء الأول، م.و.ك، الجزائر، 1986.

27- الخطيب (أحمد): جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، م.و.ك، الجزائر، 1985.

28- خنوف (علي): السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق-نهاية العهد العثماني و بداية العهد الفرنسي-، مطبعة العناصر، الجزائر، د.ت.

29- دحماني (سعيد): من هيبون — بونة إلى عنابة- تاريخ تأسيس قطب حضري طباعة دار الهدى ، عين مليلة، الجزائر، 2002.

30- رزاقي (عبد الرحمان): تجارة الجزائر الخارجية، صادرات الجزائر فيما بين الحربين العالميتين، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980.

31- الزبيري (محمد العربي): التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792-1830، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1972.

32- الزبيري (محمد العربي): مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1965.

33- الزبيري (محمد العربي): الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر ش.و.ن.ت، الجزائر 1982.

34- الزبيري (محمد العربي): مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، م.و.ن.ت، الجزائر، 1972.

35- الزبير (سيف الإسلام): ثورة المقراني في حديث مع الأولاد ، م.و.ك، الجزائر، 1985.

36- زوزو (عبد الحميد): الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي، التطورات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية (1837-1939)، ترجمة مسعود حاج مسعود ، مطبعة دار هومة، الجزائر، 2005، جزءان (2).

37- زوزو (عبد الحميد): ثورة الأوراس سنة 1879م ، م.و.ك، الجزائر، 1986.

38- سعد الله (أبو القاسم): الحركة الوطنية الجزائرية، جزءان : الجزء الأول (1830-1900)، الجزء الأول (1860-1900)، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

39- سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1998، 4 أجزاء.

40- سعد الله (أبو القاسم): أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد الأول، و المجلد الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005.

41- سعد الله (أبو القاسم): شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1986.

42- سعد الله (أبو القاسم): محاضرات في تاريخ الجزائر- بداية الاحتلال- ش.و.ن.ت، الطبعة الثانية، الجزائر، 1982.

43- سعد الله (أبو القاسم): خلاصة تاريخ الجزائر: المقاومة و التحرير 1830-1962، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ، بيروت، لبنان، 2007.

44- سعد الله (أبو القاسم): تجارب في الأدب و الرحلة، م.و.ك، الجزائر، 1983.

45- سعيدوني (ناصر الدين) : دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر الحديث – العهد العثماني- م.و.ك، الجزائر، 1985.

46- سعيدوني (ناصر الدين): دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر – الفترة الحديثة والمعاصرة- الجزء الثاني، م.و.ك، الجزائر، 1988.

47- سعيدوني (ناصر الدين): النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، م.و.ك، الجزائر، 1985.

48- سعيدوني (ناصر الدين): الجزائر منطلقات و آفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا و مفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000.

49- سعيدوني (ناصر الدين): ، البوعبدلي (المهدي): الجزائر في التاريخ- العهد العثماني- م.و.ك، الجزائر، 1984.

50- سعد الله (فوزي): يهود الجزائر، الجزء الثاني، دار قرطبة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2005.

51- السعدي (محمد صبري): شرح القانون المدني الجزائري: النظرية العامة للالتزامات: مصادر الالتزام، التصرف القانوني: العقد و الإرادة المنفردة، الجزء الأول، دار الهدى، عين مليلة، الطبعة الثانية، الجزائر، 2004.

52- السنهوري (عبد الرزاق أحمد): الوسيط – مصادر الالتزام- المجلد الأول: العقد ، تنقيح و مراجعة مصطفى محمد الفقي، عبد الباسط جميعي، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، القاهرة، مصر، 1981.

53- السويدي (محمد): مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، د.م.ج،د.ت.

54- السيد (فؤاد صالح): الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا ، م.و.ك، الجزائر، 1985.

55- شغيب (محمد المهدي بن علي): أم الحواضر في الماضي و الحاضر- تاريخ مدينة قسنطينة- مطبعة البعث ، قسنطينة، الجزائر، 1980.

56- شريط (عبد الله) و الميلي (محمد): الجزائر في مرآة التاريخ، طبع و نشر مكتبة البعث، الطبعة الأولى، قسنطينة، الجزائر، 1965.

57- الصيد (سليمان): مدرسة الإخاء في بسكرة عام 1931 و دورها في نشر الثقافة العربية و الإسلامية في منطقة الزيبان و غيرها، بسكرة، الجزائر، 2003.

58- الطوير (محمد أمحمد): مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني في إيالة طرابلس الغرب 1835م-1858م، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، سلسلة دراسات معاصرة 4، الجماهيرية العربية الليبية، 1988.

59- عيسى (لطفي): مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن السابع عشر، دار سراس للنشر، تونس ، 1994.

60- عميراوي (احميدة): دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية 1827-1840، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1987.

61- عميراوي (احميدة): جوانب من السياسة الفرنسية و ردود الفعل في قطاع الشرق الجزائري- بداية الاحتلال — دار البعث للطباعة للنشر، قسنطينة، الجزائر، 1984.

62- عميراوي (احميدة): أبحاث في الفكر و التاريخ (الجزائر و فلسطين)، دار الهدى ، عين مليلة، الجزائر، 2003.

63- عميراوي (احميدة): محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1999.

64- عميراوي (احميدة): دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، شركة دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الثانية، عين مليلة، الجزائر، 2004.

65- عميراوي (احميدة): بحوث تاريخية، شركة دار الهدى للطباعة والنشر و التوزيع، الطبعة الثانية، عين مليلة، الجزائر، 2006.

66- عميراوي (احميدة): قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005.

67- العربي (إسماعيل): المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت.

68- عوض (صالح): معركة الإسلام و الصليبية في الجزائر (1830–1962)، الجزء الأول، الزيتونة للإعلام و النشر، تونس، د.ت.

69- عاشور (سعيد عبد الفاتح): حضارة و نظم أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1976.

70- العدوي (إبراهيم أحمد): المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، دار المعرفة، القاهرة، مصر، 1961.

71- العسلي (بسام): الأمير خالد الهاشمي الجزائري، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1986.

72- العسلي (بسام): محمد المقراني و ثورة 1871 الجزائرية، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1986.

73- عمورة (عمار): موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، الجزائر، 2002.

74- عبد الوهاب (حسين حسيني) : خلاصة تاريخ تونس، تقديم و تحقيق حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر، تونس، 2001.

75- عباد (صالح): الجزائر خلال الحكم التركي 1514–1830م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.

76- فركوس (صالح): الحاج أحمد باي قسنطينة (1826–1850)، د.م.ج، الجزائر، 1993.

77- فركوس (صالح): المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م –1962م)، دار العلوم للنشر و التوزيع، مطبعة باتنة، الجزائر، 2002.

78- فركوس (صالح): إدارة المكاتب العربية و الاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844–1871، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2006.

79- فركوس (صالح): تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، المراحل الكبرى، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، 2005.

80- فلنزي (لوسانت): المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790-1830، نقله إلى اللغة العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس، 1994.

81- الفرحي (بشير كاشة): مختصر وقائع و أحداث ليل الاستعمار الفرنسي للجزائر 1830م - 1962م، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.

82- قشي (فاطمة الزهراء): قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، الجزائر، 2005.

83- القطب (سمير عبد الرزاق): أنساب العرب، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1968.

84- قليل (عمار): ملحمة الجزائر الجديدة، الجزء الأول، دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1991.

85- كوران (أرجمند): السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827م-1847م)، ترجمة عبد الجليل التميمي، مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1974.

86- كريم (عبد المجيد)، جلاب (الهادي): الحركة الإصلاحية بالبلاد التونسية 1815-1920، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة الآداب و الفنون و العلوم الإنسانية، منوبة، تونس، 1994.

87- المدني (أحمد توفيق): محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، م.و.ك، الجزائر، 1986.

88- المدني (أحمد توفيق): حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492-1792، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976.

89- المدني (أحمد توفيق): كتاب الجزائر، مطابع دار المعارف القاهرة، مصر، 1963.

90- مياسي (إبراهيم): من قضايا تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر، د.م.ج، الجزائر، 1999.

91- مياسي (إبراهيم): لمحات من جهاد الشعب الجزائري، د.م.ج، الجزائر، 2007.

92- مياسي (إبراهيم): توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996.

93- مياسي (إبراهيم): مقاربات في تاريخ الجزائر 1830-1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

94- الماجري (عبد الكريم): هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجواونة إلى تونس 1831-1937، دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار و الهجرة و تشكل الجاليات المغاربية بتونس و خصوصياتها الاجتماعية والقانونية، الشركة التونسية للنشر و تنمية فنون الرسم، الطبعة الأولى، تونس، 2010.

95- مناصرية (يوسف): مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832م-1847، م.و.ك، الجزائر، 1990.

96- المرزوقي (محمد): صراع مع الحماية، دار الكتاب الشرقية، تونس، 1973.

97- نايت بلقاسم (مولود قاسم) : شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830م، الجزء الأول، دار البعث للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، قسنطينة، الجزائر، 1985.

98- وولف(جون باتيست): الجزائر و أوروبا، ترجمة و تعليق أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1986.

99- الورتيلاني (الفضيل): الجزائر الثائرة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1992.

100- يحي (جلال): السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960، دار المعرفة، القاهرة، مصر، 1959.

101- يحي (جلال): العالم العربي الحديث والمعاصر، الجزء الأول، المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل، الإسكندرية، مصر، 1998.

ثالثا : المصادر و المراجع باللغة الفرنسية

I-المصـــادر

1- Adolphe (Mgr Antoine) : Abdelkader, sa vie intime, sa lutte avec la France, son avenir, Paris, France, 1860.

2- Alexandre (Daumas) : Impression de voyage, Paris, France, 1868.

3- Azan (Paul) : L'armée d'Afrique de 1830 à 1852, collection du centenaire de L'Algérie, Paris, France, 1936.

4- Azan (Paul) : L'Emir Abdelkader, Paris, France, 1925.

5- Azan (Paul) : Conquête et Pacification de l'Algérie, Paris, France, S.D.

6- Ballesteros (Louis) : l'Emir Abdelkader en Algérie, Paris, France, 1865.

7- Basset Réné : l'insurrection algérienne de 1871 dans les chansons populaires kabyles, Louvain, Paris, France, 1892.

8- Bell (George) : Abdelkader, Paris, France 1865.

9- Berbrugger (Andrien): Relation de l'expédition de Mascara, Paris, France, 1836.

10- Berbrugger (Andrien) : Les Époques militaires de la Grande Kabylie, Paris, France. 1857.

11- Bengana (Bouaziz le cheik el arab) : une famille de grands chefs Sahariens, les Bengana, éditions Soubiron Alger, Algérie, 1930.

12- Biquet (Léon) et (Simon) Marcel : Algérie : Gouvernement, Administration, Ligislation, Société D'imprimeur Et Librairie Administrative, Paul Dupont, France, 1883.

13- Bernard (Augustin) : Algérie, Librairie Félix, Paris, France, 1929.

14- Bugeaud (Le Général) : L'Algérie, des Moyens de conserver et utiliser cette conquête, librairie Palais Royal, Paris, France, 1842.

15- Bouyac (Rene) : Histoire de Bône, 1897.

16- Boisnard (Magali) : Sultans de Touggourt, libraire orientaliste Paul Guethner, Paris, France, 1933.

17- Basset (Réne) : l'insurrection Algérienne de 1871 dans les chansons Populaires Kabyles, Louvain, Paris, France, 1892.

18- Bidault (F.L) : la Vérité sur l'Algérie, imprimerie Bizion, Bougie, 1871.

19-Les Bengana : les Bengana depuis la conquête française, Paris, France, 1879.

20- Carvajal Louis (Marmol del) : Description Général de L'Afrique, traduit par Nicolas Perrot sieur d'Albanourt, Tome 2, Paris, France, S.D.

21- Charles de Riquet (Victor louis) Duc de Caraman : expédition de Constantine en 1836, imprimeur libraire, Toulouse, France, 1843.

22- Churchill (Charles Henry) : La vie d'Abdelkader, introduction et notes de Michel Herbart, ENAL, Alger, Algérie, 1991.

23- Dalles (Alexis) : Notice Biographique sur l'Emir Abdelkader Sauveur de 1300 Chrétiens en Syrie, prochaine arrivée à Paris, France, 1865.

24- Daumas (Eugène) : Voyage de l'Emir Abdelkader dans l'Est de l'Algérie en 1839, Paris, France, 1844.

25- D'aire (Marie) : Abdelkader, quelques documents nouveaux lus et approuvés par l'officier en mission auprès de l'émir, Amiens, France, 1900.

26- De Tocqueville (Alexis) : Seconde lettre sur l'Algérie, éditions Zirem, Bejaia, Algérie, 2006.

27- De Paradis (venture) : Tunis et Alger au XVIII^{e} siècle. Mémoires et observations rassemblés et présentés par Joseph Cuop, éditions sindbad, Paris, France, 1983.

28- De cheyron (Le Commandant) : Bordj-bou-Arréridj pendant l'insurrection de 1871 en Algérie, imprimeur éditeur Henri Plon, Paris, France, 1873.

29- Depont et Coppolani : Les confréries religieuses musulmanes, Alger, 1897.

30-De la Sicotire : Rapport fait au nom de la commission d'enquête parlementaire sur les actes du gouvernement de la défense nationale, Alger, Versailles, 1875.

31-Le Comte de Margon : Insurrection dans la province de Constantine de 1870 à 1880, Paris, France, 1883.

32- Esquer (Gabriel) : Correspondance du duc de Rovigo (1831-1833), Ancienne maison Bastide Jourdan, jules carbonel, imprimeur libraire éditeur, Alger 1920 Tome 1, Tome 2, Tome 3.

33- Esquer (Gabriel) : Correspondance du Général Voirol (1833-1834), Paris, France, 1924.

34- Esquer (Gabriel) : Correspondance du Général Drouet d'Erlon (1834-1835), champion libraire, Paris, France, 1926.

35- Esquer (Gabriel) : Correspondance du Maréchal Clauzel (1835-1837), éditions la rose, Paris, France, 1984, Tome 1, Tome 2.

36- Emerit (Marcel) : L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, la rose, Paris, France, 1951.
37- Fillias (Achille) : Géographie de l'Algérie, éditions librairie Hachette et cie, Paris, France, 1886.
38- Féguéron (André) : Gloire à l'Armée d'Afrique, éditeur France ets Ginou, Monrouge, 1987.
39- Garrot (Henri) : Histoire générale de l'Algérie, Paris, France, 1910.
40- Gourget (George) : Voyages aux origines de L'Algérie et de la province de Constantine 1830-1900, éditions esprit livres, France, 2003.
41- Gouvernement Général d'Algérie : Secret, service des liaisons, Nord-Africains : les Confréries Religieuses en Algérie, 1951.
42- Herbillon (Général) : Insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine. Relation du siège de Zaatcha, Paris, France, 1863.
43- Khodja (Hamdan) : Le Miroir. Aperçu historique et statistique sur la Régence d'Alger, éditions sindbad, Paris, France, 1985.
44- Larcher (Emile) : Traité élémentaire de législation algérienne, Tome premier, Editions Arthur Rousseau, Paris, France, 1903.
45- Legras (Joseph) : Abdelkader, Paris, France, 1929.
46- Lepes (R.capitaine en retraite) : Les Troupes Indigènes au service de la France, éditeur imprimerie Minerva, Alger, 1928.
47- Lehuraux (L.capitaine) : le Nomadisme et la colonisation dans les haux plateaux de L'Algérie, éditions du C.A.F, Paris, France, 1931.
48-Lucinliere (de cornilier) : La prise de Bône et de Bougie Paris, France, 1895.
49- Marthe (Gouvian et Edmond) : Kitab Ayane el Maghariba, imprimerie orientale, Fontana frères, Alger, 1920.
50- Mercier (Ernest) : L'Algérie en 1880, le cinquantenaire de L'Algérie, challamel ainé éditeur, Paris, France, 1880.
51- Mercier (Ernest) : les deux sièges de Constantine 1836-1837, librairie L.Poulet, Constantine, 1896.
52- Mercier (Ernest) : Histoire de Constantine, marle et F.Biron, imprimeur éditeur, 1903.
53- Mercier (Ernest) : le Bachaga Mokrani et les causes de l'insurrection indigène de 1871, Extrait du bulletin de la Réunion d'études Algériennes, imp. S. Laffray, Paris, France, S.D.
54- Maitrot (capitaine) : Bône militaire, 44 siècles de luttes, Bône, 1912.
55- Ministère de la guerre : Tableau de la situation des établissements français dans L'Algérie, année 1839, imprimerie Royale, Paris, France, 1840.
56- Nouschi (André) : Correspondance du docteur A.Vital avec ismail Urbain (184-1874), Paris, France, 1959.
57- Pauyanne.M : La propriété foncière en Algérie, thèse de doctorat, librairie de jurisprudence ancienne et moderne, Paris France, 1895.

58- Peyronnet.R : Livre d'or des officiers des affaires indigènes 1830-1930 : Histoire et annuaire, Tome 1, imprimerie Algérienne, Alger, 1930.
59- Peyssonnel et des Fontaines : Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, Tome 1, Gide, Paris, France, 1838.
60- Plee (Leon) : Abdelkader, nos Soldats nos Généraux de la guerre d'Afrique, Paris, France, 1854.
61- Pichon (Haroune) : Abdelkader militaire, sa Captivité, sa mort (1807-1883), Paris, France, 1899.
62- Rinn (Louis) : Histoire de L'insurrection de 1871 en Algérie, Paris, France, 1891.
63- Rinn (Louis) : Marabout et khouan, librairie, éditeur, Alger, 1844.
64- Rambeau (Alfred) : L'Emir Abdelkader, Paris, France, 1865.
65-Robin (Colonel) : L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871, Alger, 1901.
66- Roches (Léon) : Dix ans à travers L'islam (1834-1844), préface de M. carraby, Paris, France, 1904.
67- Show (Thomas) : Voyage dans la Régence d'Alger, Tunis, 1980.
68-Trumelet (colonel) : Les Français dans le désert, 2éme édition, Paris, France, 1885.
69- Si Aziz Ben Mohamed ben cheikh el Haddad à ses juges et ses défenseurs : Mémoire d'un accusé, insurrection de 1871, imprimeur L.Marle, Rue d'Aumale n° 2, Constantine, Algérie, 1873.
70- Trinutaire (François) : Le père Dan, Histoire de la Barbarie et de ses corsaires, 2éme édition, Paris, France, 1649.
71- Vallet (Eugène) : Le drame Algérien. La vérité sur les émeutes du 08 Mai 1945, Les grandes éditions Françaises, Paris, France, 1948.
72- Vallet (Eugène) : De Constantine au Niger par le Sahara. Étude sur la colonisation et la mise en valeur de nos possessions de L'Afrique Occidentale, Novembre, décembre, 1926, éditeur Braham, Constantine, 1926.
73- Yver (Georges) : Correspondance du Maréchal Valée Tome1 (octobre 1837- Mai 1838), Tome 2 (juin-décembre 1838), éditions la Rose, Paris, France, 1949.
74- Yver (Georges) : Les Correspondances du capitaine Daumas consul de France à Mascara 1837-1839, éditions el Maarifa, Alger, Algérie, 2008.

II– المــراجع

1- Abbas (Ferhat) : La Nuit Coloniale : Guerre et Révolution d'Algérie, éditions, ANEP, Alger, Algérie, 2005.
2- Ageron (charles-Robert) : Genèse de L'Algérie Algérienne, éditions Bouchène, Paris, France, 2005.
3- Ageron (Charles-Robert) : Histoire de L'Algérie Contemporaine, P.U.F, Paris, France, 1964.

4- Ageron (charles-Robert) : L'Algérie Algérienne de Napoléon III à De Gaulle, éditions Sindbad, Paris, France, 1980.
5- Ageron (Charles-Robert) : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, présentation de Gilbert Meynier, éditions Bouchene, France, 2005, 2 Tomes .
6- Amir (Mohamed) : Contribution à l'étude de L'histoire de la santé en Algérie autour d'une expérience vécue en A.L.N, wilaya V. Réflexions sur son développement, O.P.U, Alger, Algérie, 1986.
7- Belhamissi (Moulay) : Histoire de Mostaganem (des origines à L'occupation française), centre d'études historiques, Alger, Algérie, 1976.
8- Benachenhou (Abdelhamid) : Connaissance du Maghreb. Notions d'ethnographie, d'histoire et de Sociologie, presses des éditions populaires de L'Armée Nationale, Alger, Algérie, 1971.
9- Berque (Augustin) : Écrits sur L'Algérie, Réédition édisud, Aix-en-Provence, France, 1986.
10- Blond (Georges) : Histoire de la Légion étrangère 1831-1981, éditions du club de France loisirs, Paris, avec l'autorisation de la librairie Plon, France, 1981.
11- Chentouf (Tayeb) : L'Algérie en 1954. Documents d'Archives, O.P.U, Alger Algérie, 2006.
12- Cherfa (Halim) : L'héroïque Bataille de Zaâtcha, imprimerie el Maraaf, Annaba, Algerie, 2007.
13- Chevalier Corrine : les trente premières années de L'état d'Alger 1510-1541, O.P.U Alger, Algérie, 1988.
14- Collette et Francis Jeanson : L'Algérie hors la lois, éditions ANEP, Alger, Algérie 2006.
15- Dautry (Jean) : Histoire de la Révolution de 1848 en France, Éditions hier et aujourd'hui, Paris, France, 1948.
16- Derdour (H'sen) : Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, Tome 2, les presses de Dar El Houda, Ain M'lila, Algérie, 2004.
17- Derdour (H'sen) : Monographie des sites historiques et touristiques de Annaba, imprimerie seybouse, Annaba, Algérie, 2004.
18- Deschamps (Hubert) : Les Institutions politiques de L'Afrique Noire, P.U.F, Paris, France, 1964.
19- Deveze (Michel) : Cayenne, déportés et bagnards, Réné Julliard, imprimé en France, 1965.
20- Djender (Mohiédine) : Introduction à L'histoire de L'Algérie, ENAL, 2éme, éditions augmentée, Alger, Algérie, 1991.
21- Ellul (Jacques) : Histoire des institutions de L'Époque Franque à la révolution, P.U.F, France, 1962.
22- Etienne (Bruno) : Abdelkader, éditions Hachette, Paris, France, 1994.
23- Fanon (Frantz) : Pour La Révolution africaine, Écrits politiques, petites collection maspero, Paris, France, 1982.

24- Fisher (Godfrey) : Légende Barbaresque : Guerre, Commerce et piraterie en Afrique du nord du 1415 à 1830, traduit et annoté par Farida Hellal, O.P.U. Alger, Algérie 2000.
25- Gaid (Mouloud) : Chronique des Beys de Constantine, O.P.U, Alger, Algérie, 1974.
26- Gaid (Mouloud) : Histoire de Bejaia et de sa région depuis L'antiquité jusqu'à 1954, éditions Mimouni, Alger, Algérie, 1991.
27- Gaid (Mouloud) : Mokrani, éditions Andalouses, Alger, Algérie, 1993.
28- Germain (Roger) : La politique Indigène de Bugeaud, Éditions larose, Paris V, France, 1955.
29- Goinard (Pierre) : L'Algérie L'œuvre Française, Éditions Robert Laffoul, Paris, France, 1984.
30- Goubert (Pierre) : L'ancien Régime : la société, Arnaud colin, Paris, France, 1969.
31- Guenaneche (Mohamed) : Le mouvement d'indépendance en Algérie entre les deux guerres (1919-1939), Traduit de L'arabe par sidi Ahmed Bouali, ENAL, Alger, Algérie, 1990.
32- Haddad (Mostefa) : l'émergence de L'Algérie moderne. Le constantinois (L'Est Algérien) entre les deux guerres 1919-1939, Essai d'histoire économique et sociale, Tome 2, les presses de L'imprimerie A. Guerfi, Batna, Algérie, 2001.
33- Hanani (Abdelkrim) : Tebessa à travers L'histoire. Recueil de textes, Chihab Éditions, 2009.
34- Isnard (Hilbert) : le Maghreb, P.U.F, France, 1971.
35- Julien (Charles-André) : Histoire de L'Algérie contemporaine. La Conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), Éditions casbah, Alger, Algérie, 2005.
36- Julien (Charles-André) : Une pensée Anti-coloniale, positions 1914-1979, Éditions sindbad, Paris, France, 1979.
37- Jurquet (Jacque) : la révolution Nationale Algérienne et le parti communiste Français, Tome 1 éditions du centenaire, Paris, France, 1973.
38- Kaddache (Mahfoud) : Djilali (Sari) : L'Algérie dans L'histoire 5 : la résistance politique, Bouleversements socio-économiques, ENAL, Alger, Algérie, 1989.
39- Kaddache (Mahfoud) : Histoire du Nationalisme Algérien, Tome 2, ENAL, Alger, Algérie, 2009.
40- Kaddache (Mahfoud) : L'Algérie durant la période ottomane, O.P.U, Alger, Algérie, 1991.
41- Kaddache (Mahfoud) : L'Algérie, Médiévale, S.N.E.D, Alger 1982.
42- Kerdja (Omar) : La conquête Française du Djerdjera. Du débarquement de 1830 à la veille de L'offensive de 1857, Tome 1, éditions le savoir, Algérie, 2007.

43- Lachref (Mostafa) : L'Algérie, Nation et société, S.N.E.D, 2éme édition, Alger, Algérie, 1978.

44- Lallaoui (Mehdi) : les kabyles du pacifique, la société européenne des arts graphiques, Paris, France, 1994.

45- Madaules (Jacques) : Histoire de France. De louis XIV à Napoléon III, presse de L'imprimerie Boussiere, saint-amand, France, 1945.

46- Merouche (Lamnaouar) : Recherche sur L'Algérie à L'époque Ottomane : Monnaies, Prix et Revenus 1520-1830, éditions Bouchene, Paris, France, 2002.

47- Mesli (Mohamed elyes) : Les origines de la crise agricole en Algérie du Cantonnement de 1846 à la nationalisation de 1962, Éditions Dahleb, Alger, Algérie, S.D.

48- Monlau (Jean) : Les états Barbaresques, P.U.F, 1ere édition, Paris, France, 1964.

49- Nacib (youssef) : Cultures Oasiennes, Bousaâda : Essai d'histoire sociale, ENAL, Alger, Algérie, 1986.

50- Nouschi (André) : Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'à 1919, P.U.F, Paris, France, 1961.

51- Ouennoughi (Melica) : Algériens et Maghrébins en Nouvelle Calidonie de 1864 à nos jours, éditions casbah, Alger, Algérie, 2008.

52- Oussedik (Tahar) : de Royaume de Koukou, ENAL, Alger, Algérie, 1986.

53- Oussedik (Tahar) : Mouvement insurrectionnel de 1871, impression ANEP, Rouiba, Alger, Algérie, 1984.

54- Prevot V. et autres : La France et l'outre-mer, librairie classique, Eugène Belin, Paris, France, 1963.

55- Rey-Goldzeiguer (Annie) : Le Royaume Arabe, la politique Algérienne de Napoléon III 1861-1870, E.N.A.G éditons, Alger, Algérie, 2010.

56- Sahli (Mohamed chérif) : Décoloniser L'histoire. L'Algérie accuse le complot contre les peuples Africains, entreprise Algérienne de presse, Alger, Algérie, 1986.

57- Sari (Djilali) : Le désastre démographique, SNED, Alger, Algérie, 1982.

58- Smati (Mahfoud) : Les Élites Algériennes sous la colonisation, Tome 1, éditions dahlab, Alger, 1989.

59- Stora (Benjamin) : Histoire de L'Algérie coloniale 1830-1914, ENAL, Alger, Algérie, 1996.

60- Taouti (Seddik) : Les déportés Algériens en Nouvelle Calédonie. Histoire d'une identité exilée, Dar El oumma, 2éme éditions, Alger, Algérie, 1996.

61- Temimi (Abdeljalil) : Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey 1830-1837, presses de la société Tunisienne des arts graphiques, Tunis, Tunisie, 1978.

62- Vatin (Jean-Claude) : L'Algérie politique : Histoire et société, presse de la Fondation Nationale des sciences politiques, Paris, France, 1974.

63- Yacine (Kateb) : Abdelkader et L'indépendance Algérienne, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1983.

64- Yacono (Xavier) : Les bureaux Arabes et L'évolution des genres de vie indigène dans l'Ouest du tell Algérois, Paris, France, 1953.

رابعا: الدوريات

I- باللغة العربية

1- بوعزيز (يحي) : « الحالة الاقتصادية و الاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر » الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، عدد 80، سنة 1984.

2- بوعزيز (يحي) : « مظاهر المقاومة و روادها في الشرق الجزائري » الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، عدد 55، سنة 1980.

3- بوعزيز (يحي) : « ثورات سكان الزواغة و فرجيوة و البابور ضد الاستعمار الفرنسي و قضية الحاج عز الدين » الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، عدد 40، سنة 1977.

4- بوعزيز (يحي) : « وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر و الدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871م » الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإعلام و الثقافة، الجزائر، عدد 39، سنة 1977.

5- بوعزيز (يحي) : « أوضاع المنفيين بعد ثورة 1871م من خلال رسائلهم » الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإعلام و الثقافة بالجزائر، عدد 42، سنة 1978.

6- بوعزيز (يحي) : « حول ملاحظات و انطباعات الشيخ سليمان بن داود بن يوسف عن ثورة 1871 »، الأصالة، مجلة ثقافية شهرية، تصدرها وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، عدد 47/46، سنة 1977.

7- بورغدة (رمضان) : « الأقضية الاستثنائية و العقوبات الخاصة بالأهالي المسلمين في الجزائر المستعمرة خلال القرن التاسع عشر » مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائري ، عدد 29، سنة 2008.

8- بورغدة (رمضان) : « جوانب من تاريخ فج امزالة خلال العهد الاستعماري الفرنسي » كتاب الملتقى الأول، كتامة، فج مزالة عبر العصور والحضارات 24/23 ماي 2005..

9- بوضرساية (بوعزة) : « الأعمال الإدارية والسياسية للحاج أحمد باي حاكم الإقليم الشرقي للجزائر »، الرؤية مجلة تصدر عن المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة 1945/11/01، عدد 1، سنة 1996.

10- بوعياد (محمد): « عبد القادر الإنسان» ، مجلة الثقافة ، تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، عدد 75، سنة 1983.

11- البوعبدلي (المهدي): « لمحات من تاريخ بونة الثقافي و السياسي و دور بعض علمائها عبر التاريخ »، محاضرات و مناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، 10-19 يوليو 1976، مدينة عنابة، المجلد الأول، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1976.

12- بركات (أنيسة): « الحركات السياسية خلال عام 1936 في الجزائر»، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، عدد سنة 1980.

13- بالسايح (بوعلام): « المقراني» الثقافة مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، عدد 100، سنة 1988.

14- الجنحاني (الحبيب) « حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن 19» ، الأصالة، مجلة تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، عدد 16، عام 1976.

15- حلوش (عبد القادر): « حركة التنصير في الجزائر، عهد الاحتلال » ، الرؤية، مجلة يصدرها المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة 1954/11/01، عدد1 سنة 1996.

16- الخليجي (مبارك): « المسبلين أو الفدائيون الجزائريون الأولون» الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، عدد 2، سنة 1971.

17- خميسي (ساعد): « دراسة موجزة لمخطوط جزائري لعبد القادر الراشدي القسنطيني»، الحوار الفكري، مجلة فكرية محكمة تصدر دوريا عن مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، عدد 4، سنة 2002.

18- دودو (أبو العيد): « الجزائر من خلال تاريخ بيير دان» مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، عدد 2، سنة 1970.

19- روابحي (العياشي):« الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837م و ردود فعل أعيان أريافها »، حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية و الإنسانية، عدد 5، سنة 2010.

20- زبادية (عبد القادر): « الداي حسين و استمرار المقاومة في المتيجة» ، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإعلام و الثقافة بالجزائر، عدد 26، سنة 1975.

21- سعد الله (أبو القاسم): « المترجمون الجزائريون و إفريقيا» الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الاتصال و الثقافة، الجزائر، عدد 113، سنة 1996.

22- سعد الله (أبو القاسم): « كتاب علاج السفينة في بحر قسنطينة» مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، عدد 2، سنة 1970.

23- سعد الله (أبو القاسم): « هجرة بعض الأعيان الجزائريين (1830-1847م)» أعمال الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان فترة الاحتلال (1830-1962م)، المنعقد يومي 30، 2006/03/31 بالجزائر، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.

24- سعيدوني (ناصر الدين): « مذكرة حول إقليم قسنطينة»، الأصالة مجلة ثقافية شهرية، تصدرها وزارة الشؤون الدينية، عدد 70/ 71، سنة 1979.

25- سعيدوني (ناصر الدين): « ورقلة و منطقتها في العهد العثماني»، الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشوؤن الدينية، عدد 41، سنة 1977.

26- سعيدوني (ناصر الدين): « العلاقة بين الأمير عبد القادر و الحاج أحمد باي و انعكاساتها على المقاومة في أوائل الاحتلال» مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، عدد 2، سنة 1986.

27- السليماني (أحمد حسين): « نزع الملكية العقارية للجزائريين (1830-1870م)» مجلة المصادر ، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة 1954/11/01، عدد 6، سنة 2002.

28- صاري (جيلالي): « إبادة قبيلة العوفية بوادي الحراش»، الثقافة مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، عدد 77، سنة 1983.

29- العربي (إسماعيل): « معاهدة التافنة أو انتصار الدبلوماسية الجزائرية» ، مجلة تاريخ و حضارة المغرب، ش.و.ن.ت، الجزائر، عدد 11، سنة 1974.

30- العربي (إسماعيل):« حكومة الأمير عبد القادر، إدارتها و مهامها» ، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة، الجزائر، عدد 75، سنة 1983.

31- عميراوي (احميدة): « إسماعيل عربان و السياسة الفرنسية في الجزائر» سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة، الجزائر، عدد 4، سنة 1980.

32- قايد (رشيد):« ثورة سنة 1871م و نتائجها»، مجلة الأصالة تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، عدد 23، سنة 1975.

33- قايد (رشيد): « نضال بجاية و منطقتها ضد الاستعمار الفرنسي»، الأصالة مجلة تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، عدد 19، سنة 1974.

34- قصيبة (بوزيد): « ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871م»، الأصالة، مجلة تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، عدد 6، سنة 1975.

35- معاشي (جميلة): « أهمية رحلة الحج في السياسة العثمانية » ، الهجرة و الرحلة، مجلة علمية يصدرها مخبر الأبحاث الاجتماعية و التاريخية حول حركات الهجرة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، عدد 1، سنة 2005.

36- مناصرية (يوسف): « ليون روش داخل جيش الأمير عبد القادر»، سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية جامعة قسنطينة، عدد 9/8 ، سنة 1983.

37- مياسي (إبراهيم): « من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة» ، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الاتصال و الثقافة، الجزائر، عدد 113، سنة 1996.

38- نايت بلقاسم (مولود قاسم): « استمرارية الدولة الجزائرية في نظر الأمير عبد القادر أو الأمير عبد القادر و الخلافة العثمانية»، الثقافة مجلة تصدرها وزارة الثقافة، الجزائر، عدد 75، سنة 1983.

39- نايت بلقاسم (مولود قاسم): « نعيب الإنسانيات و العيب فينا و ما للإنسانيات عيب سوانا»، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة، الجزائر، عدد 95، سنة 1986.

II- باللغة الفرنسية

1- Aucoutirier (Jean) : « L'armée d'Afrique », in Historia Magazine, spécial n° 486, Année 1987.

2- Ageron (Charles-Robert) : « Naissance d'un peuple », in Historia Magazine, éditions jules Tallandier, Paris, France, n° 199, Année 1971.

3- Ageron (Charles-Robert) : « Le premier vote de L'Algérie Musulmane », in Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb, société historique Algérienne, n° 8, Année 1970.

4- Arnaud : « Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohamed Abou Ras ben Ahmed Ben Abdelkader en Nasiri : Histoire de L'Afrique septentrionale », in R.A n° 25, Année 1881.

5- Anonyme : « Histoire de L'Algérie : Liste chronologique des Maréchaux de France, officiers généraux… », in R.A n° 31, Année 1887.

6- Berbrugger (Andrien) : « Un chérif kabyle en 1804 », in R.A n° 3, Année 1858-1859.

7- Berbrugger (Andrien) : « Chronique », in R.A n° 6, Année 1862.

8- Berbrugger (Andrien) : «Voyage au camp d'Abdelkader », in Revue des deux mondes, plusieurs numéros édités en un seul numéro sous titre : Algérie 1830-1962, Maison neuve et la rose, Paris, France, 1999.

9- Beaussier : «Notice sommaire sur le colonel Beauprêtre »,in R.A n° 14, Année 1870.
10- Bourjade G. : « Notes chronologiques pour servir à l'histoire de l'occupation Française dans la région d'Aumale 1845-1887 », in : R.A n° 32, Année 1888.
11- " " " " R.A n° 33, Année 1889.
12- Benchaneb (Mohamed) : « La Guerre de Crimée et les Algériens », in R.A n° 51, Année 1907.
13- Chair (Omar) : « les Algériens dits « de grande tente », in Historia Magazine, éditions Julles Tallandier, Paris, France, n° 203, Année 1971.
14- Cour .A : « Note sur une collection d'autographes Arabes de l'ancien Ministre de France au Maroc », in R.A n° 58, Année 1914.
15- Gazenave (Jean) : « Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville », in R.A n° 71, Année 1930.
16- Caussé (Jeanne) et Bruno de Cessole : « Lettres écrites d'Algérie au Général de Castellane 1835-1846 », in Revue des deux mondes, plusieurs numéros édités en un seul numéro sous titre : Algérie 1830-1962, Maisonneuve et la rose, Paris, France, 1999.
17- Coyne A : « le Mzab », in R.A, n° 23, Année 1879.
18- De Grammont : « Le nom de Barberousse dérive-t-il de Baba-arroudj », in R.A n° 29, Année 1885.
19- Devoulx (Albert) : « Lettres adressées par les marabouts arabes au Pacha d'Alger », in R.A n° 18, Année 1874.
20- Delpeche (Andrien) : « Histoire d'el-hadj Abdelkader par son Cousin el-Houssine Ben ali Ben Ali Ben Taleb », in R.A n° 20, Année 1876.
21- Du Parquet (M^{me} C) : « Une Excursion à Biskra le 15 Avril 1879 », in Revue des deux mondes, plusieurs numéros édités en un seul numéro sous titre : Algérie 1830-1962, Maisonneuve et la rose, Paris, France, 1999.
22- Delpeche (Andrien) : « Un diplôme de Mokkadem de la Confrérie Religieuse Rahmania », in R.A n° 18, Année 1874.
23- Daumas (Eugène) : « La noblesse au désert », in Revue des deux mondes, plusieurs numéros édités en un seul numéro sous titre : Algérie 1830-1962, Maison neuve et la rose, Paris, France, 1999.
24- De C. Motylinski : « Notes historiques sur le Mzab : Guerara depuis sa fondation », in R.A, n° 28, Année 1884.
25- De Pradal (Marial) de Lamasse : « le siège de Tizi-Ouzou et la révolte de 1871 », in R.A n° 64, Année 1923.
26- Djerloul (Abdelkader) : « Hors la lois, violence et pouvoir colonial en Algérie au début du 20eme siècle », in Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, Année 1984.
27- Emerit (Marcel) : « Le mystère de Yusuf », in R.A n° 96, Année 1952.
28- Féraud (L.charles) : « les Ben-djellab sultans de Touggourt. Notes historiques sur la province de Constantine », in : R.A, n° 23, Année 1879.
29- " " " " R.A, n° 24, Année 1880.

30- " " " " R.A, n° 25, Année 1881.
31- " " " " R.A, n° 26, Année 1882.
32- " " " " R.A, n° 27, Année 1883.
33- " " " " R.A, n° 28, Année 1884.
34- " " " " R.A, n° 29, Année 1885.
35- " " " " R.A, n° 30, Année 1886.
36- " " " " R.A, n° 31, Année 1887.
37- Féraud (L.charles) : « Les Harar. Seigneurs des Hanencha. Études historiques sur la province de Constantine », in R.A n° 18, Année 1874.
38- Féraud (L.charles) : « Ferdjoua et Zouara. Notes historiques sur la province de Constantine », in, R.A, n° 22, Année 1878.
39- Féraud (L.charles) : « Les descendants d'un personnage des Milles et une nuit en Algérie », in R.A n° 19, Année 1875.
40- Féraud (L.charles) : « Les chérifs kabyles de 1804 à 1809 dans la province de Constantine », in R.A, n° 13, Année 1869.
41- Féraud (L.charles) : « Zebouchi et Osman-Bey », in R.A n° 6, Année 1862.
42- Féraud (L.charles) : « Ain Beida », in R.A, n° 16, Année 1872.
43- Féraud (L.charles) : « Documents pour servir à l'histoire de Bône », in R.A n° 32, Année 1888.
44- Féraud (L.charles) : « Documents pour servir à l'histoire de Philippeville », in R.A n° 19, Année 1875.
45- Féraud (L.charles) : « Notes sur une collection d'autographes arabes de l'ancien ministre de France au Maroc », in R.A n° 58, Année 1914.
46- Féraud (L.charles) : « Entre Setif et Biskra », in R.A n° 4, Années 1859-1860.
47- Féraud (L.charles) : « Mœurs et Coutumes Kabyles » in R.A n° 6, Année 1862.
48- Féraud (L.charles) : « Histoire des villes de la province Constantine :Bordj-bouarréridj » in R.S.A.C, Année 1872.
49- " " " " Setif » in R.S.A.C, Année 1872.
50- " " " " Gijelli », in R.S.A.C, Année 1870.
51- " " " " Bousaâda », in R.S.A.C, Année 1872.
52- " " " " Bougie», in R.S.A.C, Année 1869.
53- Féraud (L.charles) : «Notice sur les Ouled-Abdenour », in R.S.A.C, Année 1864
54- Féraud (L.charles) : «Notes historiqes sur les tribus de la province de Constantine. Les Segnia », in R.S.A.C, Année 1869.
55- Féraud (L.charles) : « Notes historiques sur les tribus de la province de Constantine : les zemoul », in R.S.A.C, Année 1869.
56- Filali (Kamel) : « Les Kouloughlis. Essai d'histoire d'une fusion ethnique ottomane dans l'identité Algérienne » in, Annales de l'unité de recherche Afrique-Monde Arabe, Université Mentouri, Constantine, Algérie, Volume 3, Année 1999.
57- G.Martin (Alfred) : « L'action Française dans le Sahara : Conférence faite à la réunion des officiers de Saida, le 1er avril 1893 », in R.A n° 37, Année 1893.

58- Guin .L : « Notes historiques sur les Adoura », in R.A n° 17, Année 1873.
59- Gouvernement général de L'Algérie : « Notes pour servir à L'historique d'ouargla », in R.A n° 64, Année 1923.
60- Haddad (Mustapha) : « El Hadj Ahmed Bey. Notice biographique du dernier Bey Turc de Constantine», in Cirta, Revue historique et sociologique publiée périodiquement par l'institut des sciences sociales de l'université de Constantine, n° 10, Année 1984.
61- Henri Aucapitaine (Le Baron) : « Notice sur Bousaâda », in R.A n°6, Année 1862.
62- Keilstra (Nico) : « The dicline of tribal organization in the Souf (south East of Algéria) » in, Revue de L'occident Musulman et de la Méditerranée, n° 45, 3eme trimestre, Année 1987.
63- Jouin (Yves le colonel) : « Gloire des spahis », in Historia Magazine, n° 203, Editions jules Tallandier, Paris, France 1971.
64- Jacqueton.G : « Chronique Africaine. Histoire Moderne et Contemporaine », in R.A n° 37, Année 1893.
65- Luciani : « Chansons Kabyles », in R.A n° 43, Année 1899.
66- Lignieres (M.sapin) : « Les Zouaves, vous connaissez ? », in Historia Magazine, éditions Jules Tallandier, Paris, France, n° 221.
67- Trumelet (colonel) : « Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger » in : R.A n° 20 Année 1876.
68- " " " " R.A n° 21 Année 1877.
69- " " " " R.A n° 24 Année 1880.
70- " " " " R.A n° 25 Année 1881.
71- " " " " R.A n° 26 Année 1882.
72- Trumelet (Colonel) : « Lettre du colonel Trumelet au sujet d'une pierre commémorative indiquant l'endroit ou a été tué le Bachagha Mokrani », in R.A n° 18, Année 1874.
73- Tengour (Habib) : « Les mots et les choses : Notes sur la signification de quelques termes courants » in, Cirta, Revue historique et sociologique, publiée périodiquement par l'institut des sciences sociales de l'université de Constantine, Algérie, Année 1981.
74- Vayssettes (Eugène) : « Histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'hadj Ahmed », in R.A, n° 3, Année 1858-1859.
75- Vayssettes (Eugène) : « Suite et Fin de l'Histoire de Constantine sous la domination Tuque. Troisième et dernière période de 1792 à 1837 », in R.S.A.C, Année 1869.
76- Yacono (Xavier) : « Les premiers prisonniers de l'ile Ste Marguerite 1841-1843 », in Revue d'histoire Maghrébine, n° 1, Année 1974.
77- Yver (Georges) : « Si Hamdane Ben Othman khodja », in R.A n° 57, Année 1923.
78- Le chatelier : « Les Medaganat: I-Medagan et les premiers Medaganat-Insurrection de Bouchoucha- Capture du Chérif », in R.A, n° 30, Année 1886.
79- Meziane (Abdelmadjid) : « Les élites castes », in cultures Algérienne dans les textes, choix et présentation par Jean Déjeux, éditions published, Paris, France, S.D.

80- Martel A. : « A propos du Sahara de Constantine, 1830-1880 : Rivalité de Cofs et interprétation de documents », in Revue Maghreb et Sahara, Paris, France, 1973.
81- Robin.N : « Note sur Yahia Agha », in R.A n° 18, Année 1874.
82- Robin. N : « Les Imssebelem », in R.A, n° 18, Année 1874.
83- Robin. N : « Histoire du Cherif Boubarla », in : R.A n° 25, Année 1881.
84- " " " " R.A n° 28, Année 1884.
85- Robin (N.Joseph) : « Notes historiques sur la Grande Kabylie de 1830 - 1838 », in R.A n° 20, Année 1876
86- Rinn (Louis) : « Nos Frontières sahariennes : II- la défence de nos Frontières Sahariennes à L'Est du Djebel Amour », in R.A n° 30, Année 1886.
87- Rinn (Louis) : « Nos frontières sahariennes : III- Nos Frontières à L'Ouest du Djebel Amor et des Oueled Sidi chikh avant 1864 », in R.A, n° 30, Année 1886.
88- Rinn (Louis) : « Deux documents indigènes sur l'insurrection de 1871 », in R.A n° 35, Année 1891.
89- Rinn (Louis) : « Deux chansons kabyles sur l'insurrection de 1871 », in R.A n° 31, Année 1887.
90- Seroka (Commandant) : « Le sud Constantinois de 1830 à 1855 », in R.A n° 56, Année 1912.

خامسا: الرسائل الجامعية:

1- أوجرتني (محمد): أسرة ابن قانة و مكانتها السياسية و الاجتماعية خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر (غير منشورة)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2005.

2- سيساوي (أحمد): النظام الإداري لبايلك الشرق 1791م-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد العلوم الاجتماعية، قسنطينة، الجزائر، 1988.

3- عمراني (معاد): أسرة ابن جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر و العشرون، دراسة سياسية و اجتماعية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر(غير منشورة)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002.

4- قشي (فاطمة الزهراء): قسنطينة المدينة و المجتمع في النصف الثاني من القرن 13 هـ، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ (غير منشورة) جامعة تونس الأولى، تونس، 1998.

5- القيشاعي (فلة): النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771م-1837م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث (غير منشورة)، معهد التاريخ جامعة الجزائر 1989م-1990م

6- معاشي (جميلة): الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 16م إلى القرن 19م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر، 1991.

7- هواري (مختار): سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجاه بعض العائلات المتنفذة في الجنوب القسنطيني 1837م- 1870م، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الأوراس الحديث و المعاصر (غير منشورة)، جامعة الحاج لخضر ، باتنة، 2008-2009.

8- ورتي (جمال): تطور نظام الإدارة الفرنسي في عمالة قسنطينة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر – سوق أهراس نموذجا- رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة) ، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر 2009-2010.

9- Haggui (Jamel) : Les Algériens Originaires du sud dans la ville de Tunis pendant L'époque coloniale (1881-1956) : Mozabites, Souafas et Ouarglias. Mémoire de D.E.A en Histoire Contemporaine, Université de Manouba, Tunis, Tunisie, 2003-2004.

سادسا: القواميس

1- إدريس (سهيل): المنهل قاموس عربي، دار الآداب للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2009.

2- المنجد في اللغة و الإعلام، منشورات دار المشرق، الطبعة الثالثة و الثلاثون، بيروت، لبنان، 1992.

3- المنجد في اللغة و الإعلام، دار الشرق، بيروت لبنان 1988.

4- Dictionnaire de droit, publié sous la direction du bureau de la jurisprudence général, Dalloz, Paris, France, 1906.

5- Robert (Paul) : Le Petit Robert. Dictionnaire alphabétique et analogique de la Langue Française, Paris, France, 1990.

6- Petit Dictionnaire Français, librairie Larousse Paris, France, 1978.

الفهارس

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

س

ش

ص

ع

غ

ف

ن

هـ

و،ي

فهرس القبائل و الجماعات

أ

ب

ت

ج

ح

د

ر

س

ش

ص

ط

ع

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن و البلدان

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ذ

ز

ر

س

ش

ص

ط

ع

ف

ق

ن

هـ

و

فهرس الموضوعات